تاريخ
الحزب الشيوعي
في الاتحاد السوفياتي
(حزب البلشفيك)

موجز وضعته هيئة من
اللجنة المركزية للحزب الشيوعي
في الإتحاد السوفياتي

●

صادقت عليه اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي في الإتحاد السوفياتي
في عام 1938



دار الشرق الجديد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

تاريخ
الحزب الشيوعي
في الاتحاد السوفياتي
(حزب البلشفيك)

موجز وضعته لجنة من
اللجنة المركزية للحزب الشيوعي
في الاتحاد السوفياتي

BY : Faissal El Hadj

تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي

(حزب البلشفيك)

موجز وضعته هيئة من
اللجنة المركزية للحزب الشيوعي
في الاتحاد السوفياتي

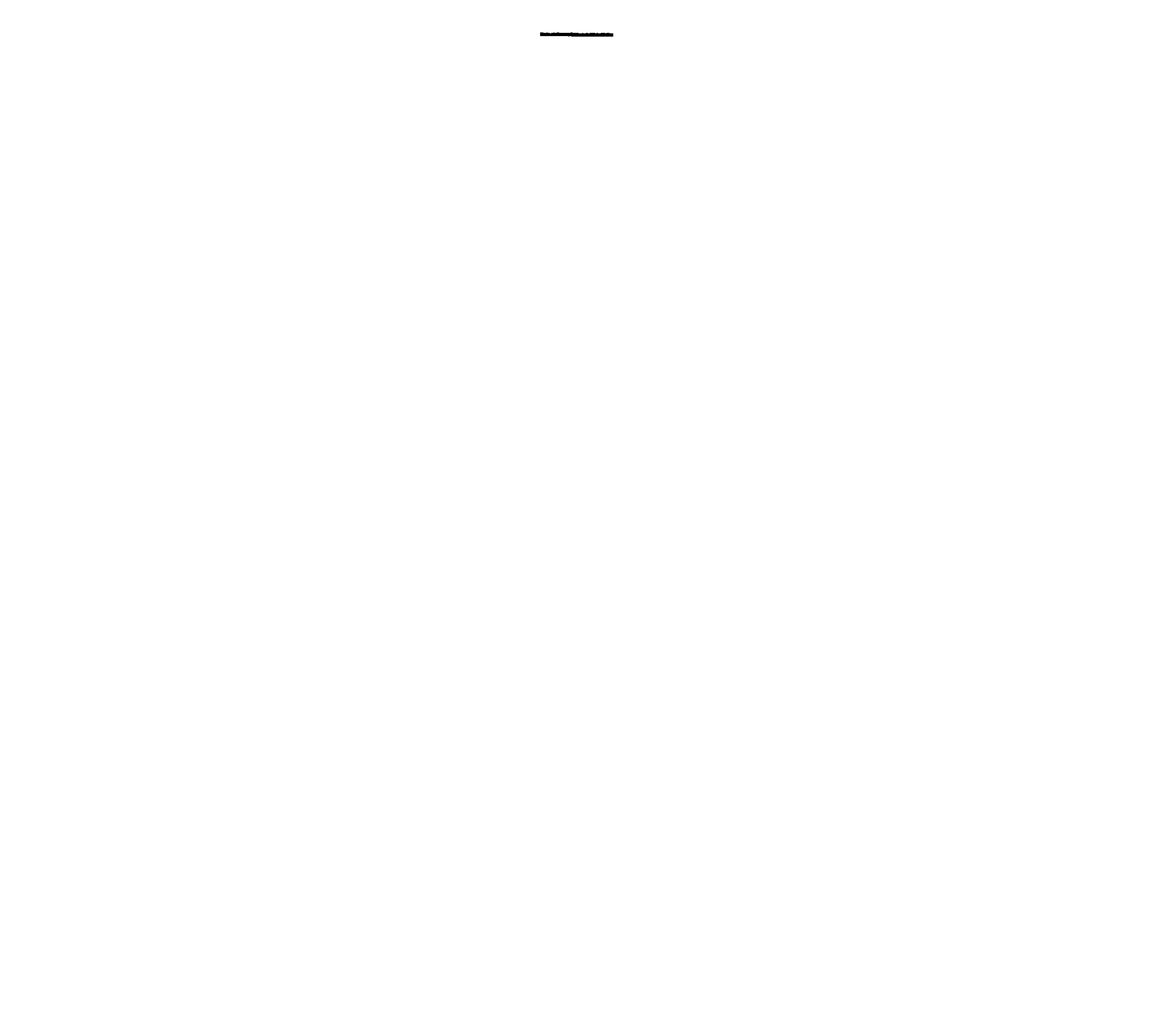
•

صادقت عليه اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي
في عام ١٩٣٨

١٩٧٩

دار الشروق الجديد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان



توطئة

سار الحزب الشيوعي (البلشفي) في اتحـــاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية سيرة مديدة مجيدة ، بدأت في الحلقات والفرق الماركسية الصغيرة التي ظهرت في روسيا حوالي العقد التاسع من القرن الماضي ، ثم آلت الى الحزب لبلشفي الكبـير الذي يقود ، في ايامنا هذه ، اول دولة اشتراكية في العالم ، ولة العمال والفلاحين .

نشأ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ــ على اساس حركة العمال في روسيا قبل الثورة ــ من الحلقات والفرق الماركسية التي كانت مرتبطة بحركة لعمال ، والتي ادخلت الوعي الاشتراكي في تلك الحركة . كذلك فان الحزب لشيوعي في الاتحـــاد السوفياتي قـد استوحى ولا يزال ، التعاليم الماركسية للينينية الثورية . لكن زعماء الحزب توسعوا في شرح تعاليم ماركس وانجلس بجاراة للظروف الجديدة التي يتميز بها هـــذا العهد ، عهد الاستعمار والحروب لاستعمارية والثورات البروليتارية ، ورفعوا تلك التعاليم الى مستوى اعلى .

وكبر الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي واشتد ساعده في نضاله المبدئي ضد الاحزاب البورجوازية الصغيرة التي قامت وسط حركة العمال ، اي: ضد الاشتراكيين الثوريين (واسلافهم الشعبيين من قبل) وضد المنشفيك والفوضويين والقوميين البورجوازيين على اختلاف الوانهم ، وكذلك في مكافحة التيارات الغريبة عن مبادئه داخل الحزب نفسه ، اي ضد التيارات المنشفية الانتهازية : التروتسكية وحركة البوخارينيين ومثيري الانحرافات القومية وسائر الفرق الاخرى المخالفة لمذهب لينين .

وعظم شأن الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، بتمرسه بالشدائد ومغالبته الصعاب في كفاحه الثوري ضد اعداء الطبقة العاملة جميعاً : اعداء الشغيلة ، نعني كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين والكولاك والمخربين والجواسيس وجميع مرتزقة الدول الرأسمالية التي تحيط بالاتحاد السوفياتي .

فتاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي هو تاريخ ثورات ثلاث : ثورة ١٩٠٥ الديموقراطية البورجوازية ، وثورة شباط ١٩١٧ الديموقراطية البورجوازية ايضاً ، وثورة تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩١٧ الاشتراكية .

ان تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي هو تاريخ القضاء على القيصرية ، وتاريخ القضاء على سلطة كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين ، وتاريخ سحق التدخل الاجنبي المسلح خلال الحرب الاهلية ، وتاريخ بناء الدولة السوفياتية والمجتمع الاشتراكي في بلادنا .

فمن دراسة تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي نجني ثمار جميع التجارب التي اجتازها الحزب في ميادين نضاله ، اي نضال عمال بلادنا وفلاحيها في سبيل الاشتراكية .

وفي درس تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، وهو درس نضال حزبنا ضد اعداء الماركسية اللينينية واعداء الشغيلة جميعاً ، عون لنا على حسن فهم البلشفية وغذاء ليقظتنا السياسية .

وبدرس تاريخ الحزب الشيوعي الحافل بمآثر البطولة في الاتحاد السوفياتي، نتزود من معرفة قوانين التطور الاجتماعي والكفاح السياسي، اي معرفة القوى المحركة في الثورة .

ان درس تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، يوطد يقيننا بالنصر النهائي ، بفوز القضية العظمى ، قضية حزب لينين وستالين ، بانتصار الشيوعية في العالم كله .

وهذا الكتاب يعرض بايجاز تاريخ الحزب الشيوعي (البلشفي) في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية .



الفصل الأول

•

النضال لانشاء حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا

١٨٨٣ – ١٩٠١

•

١ – الغاء نظام القنانة وتقدم الرأسمالية الصناعية في روسيا – نشوء البروليتاريا الحديثة – حركة العمال وخطواتها الاولى

لقد تأخرت روسيا القيصرية عما سواها من البلدان في سلوك طريق التطور الرأسمالي. ولم يكن في روسيا، حتى العقد السابع من القرن الماضي، الا عدد زهيد من المصانع والمعامل. وكان نظام الاقتصاد الاقطاعي، نظام طبقة النبلاء ملاكي الاراضي، هو السائد عهد ذاك. ولم يكن بوسع الصناعة، في ظل عهد القنانة (١)، ان تنهض نهضة حقة. كذلك في الزراعة، كان العمل غير

---

(١) عهد القنانة: عهد كان فيه الفلاح المعدم (القن) مرتبطاً بارض الاقطاعي يعمل فيها طول حياته مع افراد عائلته مقابل جعالة يعيش منها. ولم يكن للقن حق ترك الارض التي يعمل عليها، فاذا انتقلت ملكيتها من سيد الى آخر، انتقل معها.

(هيئة التعريب)

الحر ، اي عمل القن ، ضعيف الانتاج . وهكذا فان سير التطور الاقتصادي كان حافزاً الى الغاء نظام القنانة ، فاضطرت الحكومة القيصرية الى الغائه عام ١٨٦١ اذ فت في عضدها انكسارها العسكري في القرم ، واستولى عليها الذعر من جراء « تمردات » الفلاحين على كبار ملاكي الاراضي .

ولكن ملاكي الاراضي استمروا ، حتى بعد الغاء القنانة ، على ارهاق الفلاحين . فلم « يعتقوهم » الا وقد جردوهم من قسم كبير اقتطعوه لانفسهم من الاراضي التي كان الفلاحون يستثمرونها في الماضي . وهذا القسم من الاراضي اطلق عليه الفلاحون اسم « اوتريزكي » او « القطع » (من لفظة « اوتريزات » بالروسية ومعناها : قطع) . ولم « يعتق » الفلاحون الا بعد ان أدوا للملاكي الاراضي ما يناهز ملياري روبل ، فدية او ثمناً لحريتهم .

على ان الفلاحين ظلوا ، حتى بعد الغاء القنانة ، مكرهين على استئجار الارض من الملاكين ، بافدح الاعباء . فالملاك ، عدا بدل الايجار الذي كان يتقاضاه نقداً ، كثيراً ما كان يرغم الفلاحين على العمل مجانا بادواتهم وخيلهم في جزء من ارضه الخاصة ، وهو ما يسمونه : « العمل بلا أجر » ، او «السخرة» . وفي الكثير الغالب كان الفلاح مضطراً ان يؤدي الى الملاك اجر الارض عيناً ، اي ما يقارب نصف محصولها ، وهو ما يسمونه : « ايسبولا » (اي العمل « بالمناصفة ») . فالحالة اذن استمرت على ما كانت عليه ، زمن القنانة ، لا فرق سوى ان الفلاح اصبح الان حر التصرف بشخصه ، لا يمكن بيعه ولا شراؤه كمتاع من الامتعة .

كانت اصول الزراعة وادواتها عند الفلاحين متأخرة ، وفوق ذلك كان كبار ملاكي الاراضي لا ينفكون يزيدونها ضعفاً على ضعف ، بشتى وسائل الاغتصاب (كالكراء والغرامات) . كذلك فان نير كبار الملاكين الذي يثقل كاهل الفلاحين في معظمهم ، كان حائلاً بين هؤلاء وبين تحسين انتاجهم ، وهذا هو السبب في السقوط الموجع الذي منيت به الزراعة في روسيا قبل الثورة ، والذي كان من نتائجه توالي المواسم الرديئة وسني القحط .

ان بقايا الاقتصاد الاقطاعي ، والضرائب المرهقة ، وبدلات العتق التي كانت تؤدى لكبار الملاكين ، والتي كانت تربو في الكثير الغالب ، على ريع الفلاح ، كل هذه العوامل كانت تسبب فقر جماهير الفلاحين وخراب بيوتهم ، فيضطر الفلاح الى هجر قريته طلباً للارتزاق في مكان آخر . فكان الفلاحون يلجأون الى المصانع والمعامل للاشتغال فيها ، وهكذا كان اصحاب المعامل يحصلون على يد عاملة باجر بخس .

وكان كاهل العمال والفلاحين ينوء بجيش جرار من « الايسبرافنيك » و « الاوريادنيك (١) » والدركيين والشرطيين والحراس الذين انما وجدوا لحماية القيصر والرأسماليين وكبار ملاكي الاراضي من الشغيلة ، اي من المستثمَرين . وبقي القصاص الجسدي نافذاً حتى سنة ١٩٠٣ . فكان الفلاحون ، رغم الغاء القنانة ، يجلدون بالسياط لاقل هفوة او لعدم تأدية الضرائب ، ورجال الشرطة والقوزاق ينهالون على العمال ضرباً بالعصي ، ولا سيما اثناء الاضرابات ، حينما ينقطع هؤلاء عن العمل ، وقد ضاقوا ذرعاً بجور اصحاب المعامل . ولم يكن للعمال والفلاحين اي حق سياسي في روسيا القيصرية : لقد كانت اوتوقراطية القيصر ألد خصوم الشعب .

سجن الشعوب ! : هكذا كانت روسيا القيصرية فمختلف القوميات غير الروسية كانت محرومة حقوقها ، تعاني ابداً كل انواع الاهانة والتحقير والشتيمة ، وكانت الحكومة القيصرية تعوّد الاهالي الروس النظر الى سائر الاقوام واعتبارهم عروقاً منحطة وتسميهم رسمياً « ابناء العرق الآخر » لتبث في روع الروسي شعور الاحتقار لهم والضغينة عليهم . وهكذا كانت الحكومة القيصرية تؤجج عن عمد ، نار الاحقاد القومية ، وتثير شعباً على آخر ، وتنظم مذابح اليهود ، وتدبر الفتن الدامية بين التتر والارمن ، عبر القفقاس .

---

(١) ايسبرافنيك : مفوض شرطة في القضاء . واوريادنيك : مأمور شرطة .
(هيئة التعريب)

كانت وظائف الدولة في المناطق غير الروسية مسندة كلها او جلها ، الى موظفين من الروس . وكانت جميع القضايا لدى المحاكم ودواوين الحكومة تعالج باللغة الروسية . وكان نشر الصحف والكتب باللغات القومية محرماً ، وكذلك التعليم بها كان محظوراً ، تريد الحكومة بهذا كله ان تطمس على معالم الثقافات القومية جميعاً ، متبعة سياسة «روسنة» القوميات غير الروسية ، بالقوة. لقد كان الحكم القيصري جلاد الشعوب غير الروسية ، واداة تعذيبها .

بعد الغاء نظام القنانة تقدمت الرأسمالية الصناعية في روسيا بشيء من السرعة ، رغم بقايا ذلك النظام الذي ظل يعرقل تقدمها . ففي مدة ٢٥ سنة ، من ١٨٦٥ الى ١٨٩٠ ، ارتفع عدد العمال في المصانع الكبيرة والمعامل وسكك الحديد وحدها من ٧٠٦،٠٠٠ الى ١،٤٣٣،٠٠٠ اي انه زاد عن ضعفيه .

واتسعت الصناعة الرأسمالية الكبرى حوالي سنة ١٨٩٠ بسرعة اعظم. ففي اواخر هذا العقد بلغ عدد العمال المشتغلين في المصانع والمعامل الكبيرة وصناعة المناجم وسكك الحديد في خمسين مقاطعة من روسيا الاوروبية ٢،٢٠٧،٠٠٠ عامل ، وفي انحاء روسيا كلها ٢،٧٩٢،٠٠٠ : بروليتاريا صناعية حديثة تختلف اختلافاً تاماً عن عمال المصانع في عهد القنانة ، وعن عمال الصناعة الحرفية الصغرى وغيرها ، سواء أمن حيث تجمعها في المشاريع الرأسمالية الكبيرة ام من حيث اهليتها للنضال الثوري .

كانت النهضة الصناعية في العقد العاشر ناجمة بالدرجة الاولى عن عظم اتساع السكك الحديدية . فخلال الاعوام العشرة من ١٨٩٠ الى ١٩٠٠ انشىء ما يربو على ٢١ الف فرسخ (يعادل الفرسخ الروسي ١٠٦٧ متراً) من السكك الحديدية . فكانت السكك الحديدية بحاجة الى مقدار كبير من المعادن (لمد الخطوط وصنع الشاحنات والقاطرات) تستهلك من الوقود والفحم الحجري والنفط كمية متزايدة ، الامر الذي ادى الى نمو صناعتي التعدين والوقود .

وكان يعقب سنوات النمو الصناعي في روسيا قبل الثورة ، شأنه في سائر البلدان الرأسمالية ، سنوات ازمة صناعية وجمود تطحن الطبقة العاملة بكلكلها ،

وتقذف بمئات الالوف من العمال في مهاوي البطالة والبؤس .

لذلك بقيت روسيا ، رغم نمو الرأسمالية فيها بشيء من السرعة منذ الغاء القنانة ، متأخرة في تطورها الاقتصادي عن سائر الاقطار الرأسمالية بصورة محسوسة ، وظل السكان باكثريتهم العظمى منقطعين الى الزراعة .

وقد اورد لينين في كتابه المشهور : **تطور الرأسمالية في روسيا**، ارقاماً بليغة مستمدة من الاحصاء العام الذي تم سنة ١٨٩٧ تثبت ان نحواً من خمسة اسداس الاهلين كانوا يعملون في الزراعة ، ونحواً من السدس فقط يشتغلون في الصناعة الكبرى والصناعات الصغيرة والتجارة وسكك الحديد والملاحة (الشحن المائي) والبناء واستثمار الاحراج وهلم جراً .

وقد نتج عن ذلك ان روسيا ، رغم نمو الرأسمالية فيها ،بقيت بلداً زراعياً متأخراً في اقتصادياته ، بلد بورجوازية صغيرة ، نعني: ما زالت تغلب فيه الملكية الصغيرة ، اي الاستثمار الزراعي الفردي الصغير القليل الانتاج .

ـ ولم يقتصر التقدم الرأسمالي على المدن وحدها ، بل تعداها الى الريف ايضاً. لقد كانت طبقة الفلاحين ، وهي اكثر الطبقات عدداً في روسيا قبل الثورة ، آخذة في التفسخ ، سائرة نحو التباين او التفاوت : اي انه في ظهراني القسم الميسور من جماعة الفلاحين اخذت في البروز طبقة عليا،هي طبقة الكولاك (١) او البورجوازية الريفية ، بينما كانت تمنى بالخراب اغلبية الفلاحين ويزداد في الريف عـــدد الفلاحين المدقعين والبروليتاريين واشباه البروليتاريين . اما الفلاحون الوسط فكان عددهم يتناقص عاماً فعاماً .

كان في روسيا سنة ١٩٠٣ عشرة ملايين عائلة قروية . وقد اثبت لينين في كتيب عنوانه : **الى الفلاحين الفقراء**، ان من هذا العدد ثلاثة ملايين ونصف المليون لا تملك الواحدة منها حصاناً. فكان الفلاحون الفقراء يبذرون عادة في

---

(١) كولاك : لفظة روسية كانت تطلق في عهد القيصرية على المزارعين الاغنياء في الارياف .

(هيئة التعريب)

قطعة من ارضهم صغيرة جداً ، ويؤجرون القسم الاكبر من الكولاك ، ثم يمضون سعياً وراء الرزق في مكان آخر . وهكذا كان الفلاحون الفقراء، بحكم هذا الوضع ، يقتربون من البروليتاريا اكثر من اية فئة اخرى . لذلك كان لينين يسميهم بروليتاريا الريف او اشباه البروليتاريين .

وكان في الجهة الثانية ، مليون ونصف مليون اسرة من المزارعين الاغنياء او الكولاك (من مجموع ١٠ ملايين بيت زراعي) قد استأثروا بنصف اراضي الفلاحين الصالحة للحرث. وقد اخذت هذه البورجوازية الزراعية تثري بارهاق الفلاحين الفقراء والوسط ، وباستغلال عمل الفلاحين المأجورين والعمال اليوميين ، متحولة الى طبقة رأسماليين زراعيين .

ومنذ العقد الثامن ولا سيما التاسع من القرن الماضي ، افاقت الطبقة العاملة في روسيا من سباتها وبدأت في مناضلة الرأسمالية . لقد كانت حالة العمال في روسيا القيصرية صعبة جداً . فلم يكن العمل اليومي بين ١٨٨٠ و١٨٩٠ ينقص عن ١٢ ساعة ونصف الساعة ، وقد يبلغ ١٤ ـــ ١٥ ساعة في صناعة النسيج .

وكان عمل الاولاد والنساء يستثمر استثماراً واسع النطاق . فالاولاد كانوا يشتغلون عدداً من الساعات مساوياً لساعات الرجال، لكن يتناولون ـــ وكذلك النساء ـــ اجراً اقل جداً، من اجر الرجال . على ان الاجور ، بوجه العموم، كانت طفيفة جداً، يربح القسم الاعظم من العمال بين سبعة وثمانية روبلات (١) في الشهر . ولم يكن اكثر العمال اجراً ، في المصاهر ومصانع التعدين ، ليكسبوا اكثر من خمسة وثلاثين روبلاً في الشهر . ولم يكن للعمال اي حماية في العمل ، فكان ينتج عن ذلك كثير من حوادث البتر والاصابات المميتة . كما انه لم يكن لهم اي ضمان، فيؤدون كلفة الاسعاف الطبي من اجرهم الزهيد . اما شروط السكن فكانت مما لا يطاق ، اذ يتكدس في كوخ واحد

---

(١) روبلات : جمع روبل وهو وحدة النقد الروسي ويساوي مئة كوبك .
(هيئة التعريب)

من الاكواخ الخشبية ، عشرة عمال او اثنا عشر عاملاً . وكثيراً ما كان اصحاب المصانع يسرقون عمالهم بارغامهم على شراء المنتجات من مخازنهم بثلاثة اضعاف ثمنها ، ويرهقونهم بما يفرضون عليهم من غرامات .

بدأ العمال يتشاورون فيما بينهم ويقدمون لصاحب المعمل مطالب مشتركة تستهدف تحسين حالتهم التي لا تطاق ، ثم اخذوا يتركون شغلهم معلنين الاضراب . وكانت حوادث الاضراب الاولى ، في العقدين الثامن والتاسع ، مسببة عن الغرامات الباهظة والسرقات التي كانت تنكب بها اجور العمال يوم الدفع ، او عن خفض معدل هذه الاجور .

فكان العمال اثناء الاضرابات الاولى يحطمون ، وقد عيل صبرهم ، الآلات احياناً ، ويكسرون الزجاج في المصانع ، ويقلبون مكاتب اصحابها ومخازنهم رأساً على عقب .

لكن ما لبث العمال المتقدمون حتى ادركوا ان النجاح في مكافحة الرأسماليين يتطلب التنظيم ، فظهرت جمعيات العمال .

وفي عام ١٨٧٥ اسس في اوديسا « اتحاد عمال روسيا الجنوبية » . فعملت هذه الجمعية ، وهي باكورة منظمات العمال ، طوال ثمانية او تسعة اشهر ، ثم حطمتها الحكومة القيصرية .

وفي عام ١٨٧٨ تأسس في بطرسبرج « اتحاد العمال الروس في الشمال » وعلى رأسه النجار خالتورين والمحكم الآلي (اجيستر) اوبنورسكي . وقد نص برنامجه على ارتباط اهداف الاتحاد باحزاب العمال الاشتراكية الديموقراطية في الغرب الاوروبي ، وعلى ان هدفه الاخير هو : الثورة الاشتراكية ، و « قلب نظام الدولة السياسي والاقتصادي ، ذلك النظام الجائر الى اقصى حد » . وكان ابنورسكي ، احد منظمي الاتحاد ، قد عاش ردحاً من الزمن في الخارج ، وتمرس بنشاط الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية الماركسية والاممية الاولى التي كان يقودها ماركس ، وألف العمل في هذا الميدان ، وكل هذا ترك اثره على برنامج « اتحاد العمال الروس في الشمال » . فان الاتحاد فرض على ذاته مسعى مباشراً

هو الحصول على حرية الشعب واعطاؤه حرياته السياسية (حرية الكلام والكتابة والاجتماع الخ ...) وكان ايضاً من مطالبه المعجلة تحديد ساعات العمل اليومي .

كان الاتحاد يضم مئتي عضو وما يقارب هذا العدد من المحبذين . فاخذ يساهم في اضرابات العمال وفي قيادتها ، فقضت الحكومة القيصرية عليه ايضاً .

لكن حركة العمال ما فتئت تنمو وتعظم وتضم اليها مناطق جديدة . وقد امتاز العقد التاسع بعدد كبير من الاضرابات . ففي مدة خمس سنوات (١٨٨١ — ١٨٨٦) وقع ثمانية واربعون اضراباً ونيف اشترك فيها ثمانون الفاً من المضربين .

وكان للاضراب العظيم الذي انفجر عام ١٨٨٥ بمصنع موروزوف في اوريخوفو زوويفو ، اهمية خاصة في تاريخ الحركة الثورية .

ان هذا المصنع كان يضم ثمانية آلاف عامل ، وكانت شروط العمل تزداد فيه سوءاً ، من يوم الى يوم . فمن ١٨٨٢ حتى ١٨٨٤ انزلت الاجور خمس مرات . وفي ١٨٨٤ خفض معدلها ٢٥ بالمئة دفعة واحدة . وزاد في الطين بلة ان موروزوف صاحب المصنع كان يرهق عماله بالغرامات . وثبت في المحاكمة التي عقبت الاضراب انه كان يخسم من اجر كل عامل ، عن كل روبل ، بين ثلاثين وخمسين كوبك ، غرامة تذهب الى جيب صاحب المصنع . فلما ضاق العمال ذرعاً بهذه السرقة اعلنوا الاضراب في كانون الثاني ١٨٨٥ ، وقداعدوا له العدة . وتوفر على قيادة الاضراب عامل مجرب يدعى بيوتر موييزانكو الذي كان فيما مضى عضواً في « اتحاد العمال الروس في الشمال » فافاد من ماضيه تجربة ثورية ذات شأن . وكان موييزانكو في اليوم الذي سبق الاضراب ،قد وضع بالاشتراك مع فريق من رفاقه النساجين الاكثر وعياً ، بياناً بمطالبهم وافق عليه العمال في اجتماع عقدوه سراً . وقد طلبوا فيه ، بالدرجة الاولى ، الكف عن سلبهم بفرض الغرامات عليهم .

لقد قمع الاضراب بقوة السلاح ، واعتقل ما ينيف على ستماية عامل احيل عشرات منهم الى القضاء .

وقامت اضرابات مماثلة سنة ١٨٨٥ في مصانع ايفانوفو ــ فوزنيسانسك. وفي السنة التالية ، رأت الحكومة القيصرية ، وقد راعها تعاظم حركة العمال ، ان لا مندوحة لها عن تشريع يتناول قضية الغرامات . فنص هــذا القانون على ان المبالــغ التي تجمع من فرض الغرامــات ، لا يسوغ ان يستأثر بها صاحب المصنع ، بل يجب ان ترصد لسد حاجات العمال انفسهم .

وادرك العمال من تجارب اضراب موروزوف وسائر الاضرابات ، ان بوسعهم الحصول على كثير من حقوقهم ، عن طريق النضال المنظم . ونبغ في وسط حركة العمال قادة ومنظمون ذوو كفاءة دافعوا بحزم عن مصالح الطبقة العاملة .

وفي الوقت نفسه ، اخذت طلائع المنظمات الماركسية ، بفضل صعود حركة العمال في روسيا ، وبتأثير حركة العمال في الغرب الاوروبي ، تظهر في البلاد .

•

٢ ـ الشعبية والماركسية في روسيا ـ بليخانوف وفرقته « تحرير العمل » ـ نضال بليخانوف ضد الشعبيــة ـ انتشار المــاركسية في روسيا

قبل ظهور الفرق الماركسية ، كان النشاط الثوري يقوم به الشعبيون خصوم الماركسية .

نشأت الفرقة الماركسية الاولى عام ١٨٨٣ وهي فرقة « تحرير العمل » التي نظمها ج . ف . بليخانوف في الخارج ، بجنيف التي لجأ اليها مضطراً ، كي ينجو من اضطهاد الحكومة القيصرية اياه ، بسبب نشاطه الثوري .

وكان بليخانوف نفسه قبلئذ شعبياً . لكن عندما تعرف الى الماركسية في

هجرته ، ترك الشعبية واصبح وجهاً بارزاً بين دعاة الماركسية .

لقد بذلت فرقة « تحرير العمل » جهداً كبيراً لنشر الماركسية في روسيا ، فترجمت عدة مؤلفات لماركس وانجلس الى اللغة الروسية امثال **بيان الحزب الشيوعي**، **والعمل المأجور والرأسمال**، **والاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية** وهلم جرا . وطبعتها في الخارج كي تنشر في روسيا سراً . وكذلك الف بليخانوف وزاسوليتش واكسلرود وغيرهم من اعضاء «فرقة تحرير العمل» سلسلة من الكتب بسطوا فيها مذهب ماركس وانجلس، اي مبادىء **الاشتراكية العلمية**.

كان ماركس وانجلس، معلما البروليتاريا الكبيران، هما السابقين الى اثبات هذا الرأي وهو ان الاشتراكية — خلافاً لما ادعاه الاشتراكيون الطوباويون — ليست من اختراع الحالمين (الطوباويين) ، بل انها نتيجة محتومة لتطور المجتمع الرأسمالي الحديث . وقد برهنا على ان النظام الرأسمالي سينهار كما انهار من قبله نظام القنانة ، وان الرأسمالية تخلق بيديها حفار قبرها ، في شخص البروليتاريا . واظهرا ان انتصار البروليتاريا على البورجوازية كفيل وحده بعتق الانسانية من الرأسمالية ، وبعبارة اخرى : من الاستثمار .

لقد علم ماركس وانجلس البروليتاريا كيف تفقه قواها ومصالحها الطبقية، وكيف تتحد في مناجزة البورجوازية النضال الحاسم الذي يقود الى النصر . ولقد كشف ماركس وانجلس عن سنن تطور المجتمع الرأسمالي ، فبرهنا علمياً على ان نمو المجتمع الرأسمالي والنضال الطبقي في هذا المجتمع سيؤديان الى انهيار الرأسمالية ، اي الى انتصار البروليتاريا والى **ديكتاتورية البروليتاريا** .

وكان ماركس وانجلس يذهبان في تعليمهما الى ان الانعتاق من سلطان الرأسمال ، وتحويل الملكية الرأسمالية الى ملكية اجتماعية ، لا يمكن ان يتحققا بالطرق السلمية ، وان الطبقة العاملة لن تستطيع بلوغ هدفها إلا باستعمال العنف الثوري ضد البورجوازية، اي **بالثورة البروليتارية**، وبفرض سلطانها السياسي، او ديكتاتورية البروليتاريا التي ينبغي عليها القضاء على كل مقاومة من المستثمرين وخلق مجتمع جديد ، هو المجتمع الشيوعي بلا طبقات .

كان ماركس وانجلس يعلمان ان البروليتاريا الصناعية هي الطبقة الثورية اصلاً ، وبالتالي اكثر الطبقات تقدماً في المجتمع الرأسمالي ، وان ما من طبقة خلا البروليتاريا تستطيع ان تكتل حولها جميع القوى الناقمة على الرأسمالية ، ثم تقودها الى مهاجمة الرأسمالية . لكن لا بد ، للتغلب على العالم القديم وخلق مجتمع جديد من غير طبقات ، ان يكون للبروليتاريا حزبها الخاص : حزب للعمال وهو الذي كان يسميه ماركس وانجلس بالحزب الشيوعي .

نشر آراء ماركس وانجلس : تلك هي المهمة التي اضطلعت بها الفرقة الماركسية الروسية الاولى ، فرقة بليخانوف : « تحرير العمل » .

لما بدأت فرقة « تحرير العمل » نضالها في سبيل الماركسية ، في الصحف الروسية المطبوعة في الخارج ، لم تكن الحركة الاشتراكية الديموقراطية قد وجدت في روسيا . فكان ضرورياً قبل كل شيء ، شق الطريق لهذه الحركة في الميدان النظري او الفكري. وكان اول الحواجز التي تحول في الميدان الفكري دون انتشار الماركسية ونمو الحركة الاشتراكية الديموقراطية عهد ذاك ، النظريات التي جاء بها دعاة الشعبية التي سيطرت على اذهان العمال المتقدمين والمثقفين المشبعين روحاً ثورية .

وبنمو الرأسمالية في روسيا ، اخذت الطبقة العاملة تتحول الى قوة طليعية ذات وزن ، قادرة على القيام بنضال ثوري منظم . لكن الشعبيين لم يكونوا يدركون مهمة الطبقة العاملة من حيث هي طليعة . كان الشعبيون الروس يذهبون خطأ الى ان القوة الثورية الرئيسية هي جماهير الفلاحين لا طبقة العمال ، وان في الامكان دك سلطان القيصر وكبار ملاكي الاراضي ، بحركات « التمرد » يقوم بها الفلاحون وحدهم . لم يكن الشعبيون يعرفون الطبقة العاملة ، او يدركون ان ليس بوسع الفلاحين وحدهم التغلب على القيصرية وعلى كبار ملاكي الاراضي ، ما لم يحالفوا الطبقة العاملة ، وينضووا تحت لوائها . لم يفطن الشعبيون الى ان طبقة العمال ، هي اشد طبقات المجتمع ثورية ، واسبقها في مضمار التقدم .

عمل الشعبيون بادىء بدء على جر الفلاحين الى مناضلة الحكومة القيصرية . لهذا اخذ الشباب المثقف الثوري يرتدي ملابس الفلاحين ويؤم الارياف ـ «آتياً الى الشعب» كما كانوا يقولون يومذاك . ومن هنا الاسم الذي دعوا به وهو «الشعبيون» . سوى ان الفلاحين لم يتبعوهم ، لانهم لم يكونوا هم انفسهم يعرفون الفلاحين او يفهمونهم . وقد اعتقلت الشرطة اكثر الشعبيين . فقرر الشعبيون مواصلة النضال ضد الاوتوقراطية القيصرية بقواهم وحدها ، دون الاعتماد على الشعب ، الامر الذي ادى بهم الى الوقوع في اخطاء افدح .

اعدت الجمعية السرية «نارودنايا فوليا» (اي : ارادة الشعب) العدة لاغتيال القيصر . وفي اول آذار ١٨٨١ قتل اعضاء الجمعية القيصر اسكندر الثاني بقنبلة . لكن هذا العمل لم يعد على الشعب باي جدوى ، اذ لم يكن من المستطاع دك الاوتوقراطية القيصرية ، ولا القضاء على طبقة كبار ملاكي الاراضي ، بقتل بعض الافراد . فقد قام مقام القيصر المقتول قيصر آخر هو اسكندر الثالث الذي اصبحت حياة العمال والفلاحين في عهده امرّ واسوأ حالا .

ان الطريق التي اختارها الشعبيون لمكافحة القيصرية ، طريق الاغتيال الفردي والارهاب الفردي ، كانت طريقاً غير رشيدة ، مضرة بالثورة . وكانت سياسة الارهاب الفردي هذه مستوحاة من نظرية الشعبيين الفاسدة : نظرية «الابطال الفاعلين» و «الجماهير المنفعلة» التي تترقب مآثر اولئك «الابطال» المجيدة . وكان اصحاب هذا الرأي الآفن يزعمون ان الاشخاص المختارين او الممتازين هم وحدهم يصنعون التاريخ بينما الجمهور ، او الشعب ، او الطبقة ، او «السواد الاعظم» ، على حد تعبير الكتاب الشعبيين المفعم ازدراءاً ، عاجزة عن اتيان اعمال تقوم على الوعي والتنظيم ، فلا يسعها الا ان تنقاد «للابطال» انقياداً اعمى . لذلك عدل الشعبيون عن عملهم الثوري الجماهيري بين الفلاحين والطبقة العاملة ، وانصرفوا الى طريقة الارهاب الفردي . وقد جر الشعبيون احد كبار الثوريين عهد ذاك ، وهو اسطفان خالتورين ، الى ترك عمله التنظيمي في اتحاد العمال الثوري ، لينصرف بكليته الى خطة الارهاب .

ان الشعبيين كانوا يصرفون أذهان العمال عن مكافحة طبقة المضطهدين ، باغتيال افراد ممثلين لهذه الطبقة ، دون اي جدوى للثورة . فكانوا بذلك يعيقون نمو المبادرة الثورية والنشاط لدى طبقة العمال وجماهير الفلاحين .

كان الشعبيون يحولون بين الطبقة العاملة وبين ادراك المهمة التي يجب ان تضطلع بها هذه الطبقة في الحركة الثورية . وكانوا ايضاً يعيقون المساعي الرامية الى ايجاد حزب مستقل لطبقة العمال .

ورغم ان الحكومة القيصرية حطمت منظمة الشعبيين السرية فالاراء التي بثها الشعبيون ظلت مدة طويلة راسخة في افهام المثقفين ذوي الروح الثوري . واستمرت البقية الباقية من الشعبيين على مقاومة نشر الماركسية في روسيا ، والحيلولة بين الطبقة العاملة وبين تنظيم صفوفها .

لهذا لم يكن بوسع الماركسية ان تنمو وتقوى في روسيا الا بمكافحة الشعبية . وان فرقة « تحرير العمل » هي التي تولت دحض نظريات الشعبيين الخاطئة ، والكشف عن الاضرار التي ينزلها مذهبهم واساليب نضالهم ، بحركة العمال .

واوضح بليخانوف في ردوده على الشعبيين ان آراءهم لا تمت باية صلة الى الاشتراكية العلمية ، رغم انتحالهم اسم الاشتراكيين .

كان بليخانوف اول من انتقد آراء الشعبيين انتقاداً ماركسياً . وقد بسط ، وهو ينزل بها ضرباته الصائبة ، دفاعاً باهراً عن الآراء الماركسية .

فما هي اخطاء الشعبيين الرئيسية التي انزل بها بليخانوف ضرباته القاسية ؟

اولا : ان الشعبيين اكدوا ان الرأسمالية في روسيا حادث «عرضي» وانها لن تنمو . وعلى هذا فالبروليتاريا هي ايضاً لن يعظم شأنها ولن تتطور في هذه البلاد .

ثانياً : لم يكن الشعبيون ينظرون الى الطبقة العاملة على انها طليعة الحركة الثورية ، بل كانوا يحلمون بتحقيق الاشتراكية بدون البروليتاريا . ان القوة الرئيسية في الثورة هي في نظرهم جماهير الفلاحين يقودها اهل الثقافة ، و « المشاعة » الزراعية التي كانوا يعدونها نواة النظام الاشتراكي واساسه .

ثالثاً : ان الشعبيين كانوا يذهبون مذهباً خاطئاً وضاراً ، في سير التاريخ الانساني . فقد كانوا يجهلون قوانين التطور الاقتصادي والسياسي للمجتمع، ولا يفهمونها . كانوا من هذه الناحية اناساً متأخرين جداً . فالتـــاريخ في نظرهم لم يكن من صنع الطبقات ونضال الطبقات ، بل من صنع نخبة من الشخصيات الممتازة او « الابطال » الذين يتبعهم الجمهور ، او « العامة » او الشعب ، او الطبقات بعيون مغمضة .

لقد وضع بليخانوف ، وهو يناضل الشعبيين ويفضح اخطاءهم ، سلسلة من المؤلفـــات الماركسية عادت بالنفع الجزيل على الماركسيين في روسيا . وان بعض هذه المؤلفات ، امثال **الاشتراكية والنضال السياسي** ، **واختلافاتنا** ، **ودراسة حول تطور المفهوم الوحداني للتاريخ** ، قد مهدت السبيـل لظفر الماركسية في روسيا .

لقد بسط بليخانوف في تلك المؤلفات ، قضايا اساسية في الماركسية وادى كتابه : **دراسة حول تطور المفهوم الوحداني للتاريخ** المنشور سنة ١٨٩٠ ، مهمة خطيرة جداً . قال لينين ان هذا الكتاب « ثقف جيلاً بكامـــله من الماركسيين الروس . » ـــ (لينين ـــ مجموعة تآليفه ، المجلد ١٤ ص ٣٤٧ من الطبعة الروسية) .

اثبت بليخانوف في ردوده على الشعبيين ان من الخطل في الرأي طرح السؤال كما يطرحونه : ايجب ام لا يجب ان تتطور الرأسمالية في روسيا ؟ فكان بليخانوف يقول مستشهداً بالوقائع : « الحقيقة هي ان روسيا **قد دخلت منذ زمن**، في طريق التطور الرأسمالي ، وليس بوسع اية قوة ان تحولها عنه . »

لم تكن مهمـة الثوريـين **اعاقة** التطور الرأسمـالي في روسيـا ، على انهم لو حاولوا ذلك لما وجدوا اليه سبيلاً . لقد كانت مهمة الثوريين الاستناد الى القوة الثورية التي تولدها الرأسمالية في مجرى تطورها ، اي الى الطبقة العاملة ، وتغذية الوعي الطبقي فيها ، وتنظيمها ومساعدتها على ايجاد حزبها الخاص ، حزب العمال .

دحض بليخانوف رأياً اساسياً آخر ليس ابعد عن الخطل من سائر الآراء التي جاء بها الشعبيون،هو انكار دور البروليتاريا من حيث هي طليعة في النضال الثوري ، فكان الشعبيون يعتبرون ظهور البروليتاريا في روسيا ضربا من « النكبات » التاريخية ، ويسمونها في كتاباتهم « القرحة البروليتـــارية » . فاثبت بليخانوف في دفاعه عن الماركسية وفي اظهار موافقتها لروسيا ، ان من الواجب على الثوريين ، رغم تفوق الفلاحين عدداً وقلة عدد العمال نسبياً، اناطة املهم الرئيسي بالبروليتاريا وبنموها .

ولماذا بالبروليتاريا خاصة ؟

لان البروليتاريا ، رغم قـلة عددهـــا في الحاضر ، هي الطبقة الكادحة المرتبطة باكثر الاشكال الاقتصادية **تقدماً** ، اي انها مرتبطة بالانتاج الكبير ، الامر الذي يجعل لها في المستقبل الشأن الاول .

ولان البروليتاريا **تنمو** كطبقة ، عاماً بعد عـام ، **وتتطور** سياسياً ، وتتقبل التنظيم في يسر ، بحكم ظروف العمل في الانتاج الكبير ، ولانها ثورية اصلاً وبالدرجة الاولى لمجرد وضعها البروليتاري ، اذ انهـا لن تخسر في الثورة الا السلاسل والقيود .

وليس هذا شأن الفلاحين .

فجماهير الفلاحين (وكانت عهد ذاك مؤلفة من مزارعين منفردين) هي رغم كثرة عددها ، الطبقـة الكادحة المرتبطة باشد اشكال الاقتصاد **تأخراً** ، وهو الانتاج الصغير . وعلى هذا لم يكن لها ولا يمكن ان يكون لها ، مستقبل عظيم .

ولم تكن جماهير الفلاحين عاجزة عن النمو كطبقة فحسب ، بل كانت ايضاً **تتجزأ** ، عاماً فعامـاً ، الى بورجوازية (كولاك) والى فلاحين فقراء (بروليتاريين وانصاف بروليتاريين) . ثم ان الفلاحين ، لعلة عدم تكتلهم وبحكم وضعهم كملاكين صغار ، لا يتقبلون التنظيم بمثل السهولة التي تتقبلـه البروليتاريا ، ولا يتبعون الحركة الثورية بمثل السرعة التي يتبعها العمال .

كان الشعبيون يزعمون ان الاشتراكية في روسيا لن تتحقق على يد ديكتاتورية البروليتاريا ، بل بواسطة المشاعة الفلاحية التي كانوا يعدونها نواة الاشتراكية واساسها ، لكن هذه المشاعة لم تكن ، وليس بالمستطاع ، جعلها اساس الاشتراكية ونواتها ، ما دام المسيطرون فيها هم الكولاك الذين كانوا حقاً كالخفافيش، يستثمرون الفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين وصغار الملاكين، ويمتصون دماءهم . ان الملكية المشاعة التي كان يقرها القانون عندئذ ، واعادة توزيع الارض التي كانت تحصل زمناً بعد زمن وفقاً لعدد الانفس ، لم يكن من شأنها ان يبدلا الحالة في شيء . فالذين كانوا يستغلون الارض ، بين اعضاء المشاعة، هم الذين يملكون حيوانات للعمل وآلات زراعية وبذاراً ، اي الفلاحون الميسورون والكولاك . اما الفلاحون الذين لا خيل عندهم ، او الفلاحون الفقراء ، وصغار الفلاحين بصورة عامـــة ، فكانوا مضطرين الى تسليم ارضهم للكولاك ، ثم يذهبون ليؤجروا انفسهم ويشتغلوا بالمياومة . لقد كانت المشاعة الفلاحية في الحقيقة شكلاً مناسباً تتستر وراءه سيطرة الكولاك وكانت، في يد الحكم القيصري، وسيلة قليلة الكلفة لحمل الفلاحين على تأدية الضرائب على قاعدة التكافل والتضامن . لهذا كانت القيصرية تتورع عن التعرض للمشاعة الفلاحية بسوء . ولهذا ايضاً كان من المضحك اعتبار تلك المشاعة نواة للاشتراكية واساساً لها .

ودحض بليخانوف رأياً اساسياً ثالثـــاً لا يقل خطلا عن سواه من اراء الشعبيين ، وهو رأيهم في الشأن العظيم الذي يعزى لـ «الأبطال » او للصفوة من الافراد الممتازين في التطور الاجتماعي ، والاثر الذي تحدثه افكارهم ، ومقابل ذلك ، الشأن التافه الذي يعزى للجماهير او « العامة » او الشعب او الطبقات . وكان بليخانوف يتهم الشعبيين بالمثالية ، مثبتاً ان الحق ليس بجانب المثالية ، بل بجانب مادية ماركس وانجلس .

بسط بليخانوف المادية الماركسية ودافع عن وجهة نظرها ، وبرهن بوحي هذا المذهب على ان تطور المجتمع لا ينشأ في النتيجة عن اماني طائفة مـــن

الافراد الممتازين ولا عن آرائهم ، وانما ينشأ عن تطور الشروط المادية لوجود المجتمع ، وعن التغير في اسلوب انتاج المقتنيات المادية الضرورية لوجود المجتمع ، وعن تبدل العلاقات بين الطبقات في ميدان انتاج المقتنيات المادية ، وعن النضال بين الطبقات حول دور كل منها ومكانه في ميدان انتاج المقتنيات المادية وتوزيعها . فليست الافكار هي التي تسبب حالة البشر الاقتصادية والاجتماعية ، بل ان حالة البشر الاقتصادية والاجتماعية هي التي تسبب افكارهم. وان الافراد الممتازين قد لا يكون لهم شأن مطلقاً اذا جاءت امانيهم وافكارهم على عكس تطور المجتمع الاقتصادي وعلى عكس ضرورات الطبقة التي تؤلف طليعة الحركة التقدمية . اما اذا كانت افكار هؤلاء الافراد وامانيهم تفصح حقاً عن ضرورات التطور الاقتصادي في المجتمع ، وعن ضرورات الطبقة التقدمية فيه ، فبوسعهم ان يكونوا اشخاصاً ذوي اثر .

كان الشعبيون يزعمون ان الجماهير «رعاع» وان الابطال وحدهم يصنعون التاريخ ، ويحيلون الرعاع امة او شعباً . فرد عليهم الماركسيون قائلين : ليس الابطال هم الذين يصنعون التاريخ ، بل ان التاريخ هو الذي يصنع الابطال ، وبالنتيجة ليس الابطال الذين يخلقون الشعب ، بل ان الشعب هو الذي يخلق الابطال ويدفع التاريخ في سبيل التقدم . ولن يكون للابطال وللافراد الممتازين شأن يؤبه له ، في حياة المجتمع ، الا بقدر ما يسعهم اكتناه شروط التطور في المجتمع ومعرفة طرق تحسينها ، اكتناهاً صحيحاً ومعرفة حقة . قد يكون اولئك الابطال او الافراد الممتازون اناساً فاشلين جديرين بالسخرية والاشفاق ، ولا خير منهم يرجى ، اذا لم يستطيعوا فهم شروط تطور المجتمع فهماً صحيحاً ، فوقفوا في وجه ضرورات المجتمع التاريخية ، واهمين بانهم هم «صانعو» التاريخ .

وبالواقع ، الى هذا الفريق من اصحاب البطولة الفاشلة كان ينتمي الشعبيون .

لقد نال بليخانوف ، بكتاباته ونضاله ، من نفوذ الشعبيين في اوساط المثقفين

الثوريين . لكن لم يلحق بالشعبية كمذهب فكري الهزيمة القاضية . وبقيت هذه المهمة ، مهمة الاجهاز على المذهب الشعبي ، كخصم للماركسية ، من نصيب لينين .

ان اغلبية الشعبيين ، بعد سحق الحزب المعروف بنارودنايا فوليا بقليل ، اعتزلت النضال الثوري ضد الحكومة القيصرية ، واخذت تبشر بضرورة الاتفاق والتفاهم واياها ، حتى امسى الشعبيون في العقدين التاسع والعاشر من القرن الماضي هم المتكلمون باسم الكولاك والمدافعون عن مصالحهم .

وقد وضعت فرقة « تحرير العمل » مشروعي منهاج للاشتراكيين الديموقراطيين الروس (المشروع الاول سنة ١٨٨٤ والثاني سنة ١٨٨٧) فكان ذلك خطوة هامة جداً نحو انشاء حزب اشتراكي ديموقراطي ماركسي في روسيا .

لكن فرقة « تحرير العمل » ارتكبت هي ايضاً اخطاء جسيمة . ففي مشروع برنامجها الاول بقايا من آراء الشعبيين . فهو يوافق على خطة الارهاب الفردي ، عدا ان بليخانوف لم يدرك ان البروليتاريا في الحركة الثورية ، تستطيع ويتحتم عليها ان تجر وراءها طبقة الفلاحين ، وان البروليتاريا باتحادها فقط مع الفلاحين ، يمكنها ان تنتصر على الحكم القيصري . ثم ان بليخانوف كان يعتبر البورجوازية الحرة قوة من شأنها مد يد المعونة الى الثورة وإن بصورة عارضة . اما طبقة الفلاحين فلم يكن لها في بعض كتاباته اي شأن . كان يقول مثلاً :

« لسنا نعرف ، فيما خلا البورجوازية والبروليتاريا ، قوى اجتماعية اخرى يمكن الاستناد اليها في الاتفاقات لاجل المعارضة او الثورة » (بليخانوف : المؤلفات الكاملة . المجلد ٣ ص ١١٩ من الطبعة الروسية) .

فآراء بليخانوف الخاطئة هذه كانت تنم عن جرثومة نظرياته المنشفيكية المقبلة .

كذلك لم يكن لفرقة « تحرير العمل » ولا الحلقات الماركسية في ذلك العهد ، اي اتصال فعلي بحركة العمال . فقد كانت روسيا بعد ، في مرحلة ظهور

واثبات المذهب الماركسي والآراء الماركسية ومبادىء المنهـاج الاشتراكي الديموقراطي . وفي خـلال السنوات العشر ١٨٨٤ ـ ١٨٩٤ لم يكن للاشتراكية الديموقراطية وجود الا في شكل فرق وحلقات صغيرة غير مرتبطة مطلقاً ، او ضعيفة الارتباط بحركة جماهير العـمال . كانت الاشتراكية الديموقراطية ـ كطفل لما يولد لكن ينمو في بطن امه ـ تجتاز ، على حد قول لينين « **طور النمو الرحمي** » .

ويشير لينين الى ان فرقة « تحرير العمل » « لم تؤسس الاشتراكيـة الا نظرياً ، ولم تخط الا خطوة اولى نحو حركة العمال » .

فلينين هو الذي سيضطلع بحل مشكلة اندماج الماركسية بحركة العمال في روسيا ، كما انه هو الذي سينهض بعبء اصـلاح الاخطاء التي اقترفتهـا فرقة « تحرير العمل » .

•

٣ ـ طلائع نشاط لينين الثوري ـ « اتحاد النضال لتحرير الطبقة العاملة » في بطرسبرج

ولد فلاديمير ايليتش لينين (اوليانوف) ، مؤسس البلشفية ، في سيمبرسك (وتدعى اليوم اوليانوفسك) سنة ١٨٧٠ . والتحق لينين بجامعة قازان سنة ١٨٨٧ ، لكن ما لبث أن اعتقل وطرد من الجامعة لمساهمته في حركة الطلاب الثورية . وكان لينين قد انضم في قازان الى حلقـة ماركسية انشأها فيدوسايف . ولم يكد يستقر بلينين المقام في سمارا حتى جمع حوله اول حلقة ماركسية في المدينة ، ومنـذ ذلك العهد كان موضع دهشة الناس جميعـا لجودة فهمه الماركسية .

وفي ختام عـام ١٨٩٣ ذهب لينين الى بطرسبرج ليقيم بها ، فاحدث في نفوس اعضاء الحلقات الماركسية ببطرسبرج ، منذ تدخلاته الاولى ، ابلـغ اثر . ان تعمقه في فهم المذهب المـاركسي ، وكفـاءته في تطبيق الماركسية

على الحالة الاقتصادية والسياسية في روسيا الحديثة ، وايمانه الراسخ بانتصار قضية العمال ، ومواهبه البارزة للتنظيم ، كل هذه المزايا جعلت من لينين زعيم الماركسيين في بطرسبرج ، وقائدهم غير منازع .

كان لينين محبوباً جداً من عمال الطليعة الذين كانوا يرتادون الحلقات التي يعلم فيها . قال بابوشكين في صدد محاضرات لينين في حلقات العمال :

« لقد كانت دروسنا تمتاز بالاهتمام الذي تثيره في النفوس . وكنا جميعاً مسرورين جداً لهذه المحاضرات ، معجبين دائماً بذكاء محاضرنا . »

وفي سنة ١٨٩٥ ضم لينين جميع حلقات العمال الماركسية في بطرسبرج (وكان عددها يقارب العشرين) في « اتحاد النضال لتحرير الطبقة العاملة » وهكذا مهد لتأسيس حزب للعمال ثوري ماركسي .

كان لينين يوجب على « اتحاد النضال » القيام بمهمة الاتصال بحركة العمال الجماهيرية اتصالا اوثق ، والاضطلاع بقيادتها السياسية ، ذاهباً الى ضرورة الانتقال من طور **الدعوة** الى الماركسية بين نفر قليل من العمال المتقدمين المجتمعين في حلقات دعاية ، الى طور **التحريض** السياسي في صدد الشؤون الجارية ، بين الجماهير الغفيرة من الطبقة العاملة . وقد كان لهذا الانعطاف نحو التحريض الجماهيري شأن كبير في تطور حركة العمال في روسيا .

بعد عام ١٨٩٠ دخلت الصناعة في دور نهوض ، وازداد عدد العمال ونمت حركتهم . فبين عامي ١٨٩٥ و ١٨٩٩ اضرب عن العمل ، كما يستدل من معلومات غير مستوفاة ، ٢٢١٠٠٠ عامل ونيف . واصبحت حركة العمال قوه ذات وزن في حياة البلاد السياسية ، واثبت الاختبار صواب الآراء التي كان الماركسيون يدافعون عنها ، في مناضلتهم الفرقة الشعبية ، حول المهمة الملقاة على عاتق الطبقة العاملة باعتبارها طليعة الحركة الثورية .

وبقيادة لينين كان « اتحاد النضال لتحرير الطبقة العاملة » يربط نضال العمال من اجل المطالب الاقتصادية ـ تحسين شروط العمل وتخفيض ساعات العمل اليومي وزيادة الاجور ـ بالنضال السياسي ضد الحكم القيصري . وهكذا

اخذ « اتحاد النضال » في تثقيف العمال سياسياً .

كان « اتحاد النضال لتحرير الطبقة العاملة » في بطرسبرج بقيادة لينين اول من حقق في روسيا **اندماج الاشتراكية بحركة العمال**. فكان « اتحاد النضال » اذا قام اضراب في معمل ما ، مطلعاً اوفى اطلاع على حالة المعامل ، بواسطة اعضاء حلقاته . ولذلك كان يبادر الى طبع النشرات والنداءات الاشتراكية ، كاشفاً الستار عما يلقاه العمال من ضروب الاضطهاد من جانب اصحاب المعامل ، شارحاً كيف يجب ان يناضلوا دفاعاً عن مصالحهم ، باسطاً مطالبهم ، وكانت هذه النشرات تظهر بجلاء ، مساوىء الرأسمالية ، وبؤس العمال ، وعملهم المضني ١٢ — ١٥ ساعة ، وحالتهم التي لا تتميز عن حالة المنبوذين . وكانت تتضمن ايضاً مطالبهم السياسية الملائمة . وفي آخر سنة ١٨٩٤ كتب لينين بالاشتراك مع العامل بابوشكين ، اولى تلك النشرات التحريضية ، وفيها نداء الى العمال المضربين في معمل سيميانيكوف ببطرسبرج . وفي خريف ١٨٩٥ وجه لينين نداء الى العمال والعاملات المضربين في مصنع ثورنتون . كان هذا المصنع يخص أناساً من الانكليز وكانوا يربحون الملايين . وكانت ساعات العمل اليومي بالغة ١٤ ساعة ، ولا تزيد اجرة النساج الشهرية على ٧ روبلات ، وقد انتهى الاضراب بفوز العمال . وفي خلال مدة قصيرة طبع « اتحاد النضال » عشرات من هذه المناشير الى عمال مصانع متعددة . فكان كل منشور منها يقوي معنويات العمال الى حد بعيد ، وكان هؤلاء يشعرون بان الاشتراكيين يساعدونهم ويدافعون عنهم .

وفي صيف ١٨٩٦ قام في بطرسبرج ، بقيادة « اتحاد النضال » ، اضراب اشترك فيه ثلاثون الف عامل من عمال النسيج . وكان مطلبهم الرئيسي انقاص ساعات العمل . فسنت الحكومة القيصرية ، مدفوعة بهذا الاضراب ، قانون ٢ حزيران ١٨٩٧ الذي يحدد يوم العمل باحدى عشرساعة ونصف الساعة ، ولم يكن قبل هذا القانون ، ليوم العمل بوجه العموم ، حد ما .

وفي كانون الاول سنة ١٨٩٥ اعتقلت الحكومة القيصرية لينين ، فتابع

نضاله الثوري حتى من السجن ، اذ كان يمد « اتحاد النضال » بنصائحه وارشاداته ، ويرسل الكراريس والنشرات من حبسه . وفي ذلك العهد كتب كراسه : **في الاضرابات** ومنشوره : **الى الحكومة القيصرية** الذي فضح فيه استبداد الحكومة الفظيع . وفي السجن ايضاً كتب لينين مشروع منهاج (برنامج) الحزب (كتبه بالحليب بين سطور مؤلف طبي) .

ولقد ساعد « اتحاد النضال » في بطرسبرج مساعدة فعالة في جمع حلقات العمال في اتحادات مماثلة له ، في مدن روسيا ومناطقها الاخرى . وفي اواسط العقد العاشر ظهرت منظمات ماركسية عبر القفقاس . وسنة ١٨٩٤ انشىء « اتحاد العمال في موسكو » وفي اواخر العقد العاشر انشىء « الاتحاد الديموقراطي الاشتراكي » في سيبيريا . وخلال العقد العاشر ظهرت في «ايفانوفو فوزنيسانسك» ، و « ياروسلافل » ، و« كوستروما » فرق ماركسية تألف منها فيما بعد « اتحاد الشمال للحزب الاشتراكي الديموقراطي ». ومنذ عام ١٨٩٥ اخذت تتنظم فرق واتحادات اشتراكية ديموقراطية في «روستوف على الدون » وفي « ييكاترينوسلاف » ، و « كياف » و« نقولاييف »، و « تولا » ، و « سامارا » ، و« قازان » ، و « اوريخوفو زويفو » ومدن اخرى .

وتقوم اهمية « اتحاد النضال لتحرير الطبقة العاملة » في بطرسبرج على كونه ، كما قال لينين ، اول **نواة جدية لحزب ثوري مستند الى حركة العمال** .

ومن التجربة الثورية التي اجتازها «اتحاد النضال» في بطرسبرج سيستوحي لينين خطته فيما بعد ، عاملا على تأسيس الحزب الاشتراكي الديموقراطي الماركسي في روسيا .

بعد اعتقال لينين واقرب رفاقه بالسلاح ، حدث تغيير ملحوظ في اتجاه « اتحاد النضال » في بطرسبرج . فظهر اناس جدد تسموا بـ « الشباب » ناعتين لينين ورفاقه في النضال بكلمة « الشيوخ » . واخذ هؤلاء « الشباب »

يتبعون خطة سياسية خاطئة، قائلين انه يجب ان لا يُدعى العمال الا الى النضال الاقتصادي ضد ارباب العمل . اما النضال السياسي فهو من خصائص البورجوازية الحرة ، وعليها هي ، ان تتولى قيادته .

وقد اطلق على هؤلاء الاناس أسم « الاقتصاديين » ومن هذا الفريق نجمت في صفوف المنظمات الماركسية في روسيا ، اول جماعة من دعاة التفاهم ، او الانتهازيين .

•

٤ ــ نضال لينين ضد الشعبية و « الماركسية المشروعة » ــ رأي لينين في تحالف الطبقة العاملة والفلاحين ــ المؤتمر الاول لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا

على الرغم من ان بليخانوف انزل خلال ١٨٨٠ ــ ١٨٩٠ ضربة قاسية بمجموعة الاراء والمبادىء الشعبية ، فقد ظلت تلك الاراء والمبادىء متمتعة حتى بعد سنة ١٨٩٠ بعطف بعض الشباب الثوري . كان بين الشباب من لا يزال يعتقد بان في وسع روسيا تجنب طريق التطور الرأسمالي ، وان الدور الرئيسي في الثورة سيكون للفلاحين ، لا للطبقة العاملة . وكان من بقي من الشعبيين يعملون بكل وسيلة ، على منع انتشار الماركسية في روسيا ، فشهروا المقاومة على الماركسيين وحاولوا تسويد صفحتهم بمختلف السبل . واذن ، فكان من المهم تحطيم الشعبية تحطيماً نهائياً في الميدان الفكري لتوكيد انتشار الماركسية ، وللتمكين من ايجاد حزب اشتراكي ديموقراطي .

وان لينين هو الذي قام بهذه المهمة .

وفي الكتاب الذي نشره سنة ١٨٩٤ بعنوان : **من هم «اصدقاء الشعب» وكيف يحاربون الاشتراكيين الديموقراطيين ؟** ، كشف لينين القناع عن وجه الشعبيين « اصدقاء الشعب » الزائفين ، الذين كانوا يعملون في الواقع

ضد الشعب .

ذلك ان شعبيي ١٨٩٠ — ١٩٠٠ كانوا في الحقيقة قد اعتزلوا منذ امد بعيد ، كل نضال ثوري ضد الحكومة القيصرية واخذ الشعبيون الاحرار يدعون الى التفاهم مع الحكومة القيصرية فقال لينين في كلامه عن شعبيي ذلك العهد :

« انهم يعتقدون بكل بساطة ان بوسع الحكومة تسوية كل الامور على ما يرام ، اذا طلب منها ذلك بالحسنى وبشيء من اللطف » (لينين : مجموعة مؤلفاته . المجلد ١ ص ١٦١ من الطبعة الروسية) .

كان شعبيو ١٨٩٠ — ١٩٠٠ يغمضون عيونهم عن حالة الفلاحين الفقراء في الريف ، وعن النضال الطبقي في القرية حيث يستثمر الكولاك الفلاحين الفقراء . وكانوا يتغنون بازدهار الاستثمار الكولاكي . فصار موقفهم يزداد في الواقع وضوحاً ، باعتبار انهم يمثلون مصالح الكولاك

وكانوا في الوقت نفسه يحملون في مجلاتهم على الماركسيين فيزعمون ، في تحريفهم وتشويههم اراء الماركسيين الروس عن عمد ، ان الماركسيين يريدون خراب الريف ، يريدون ان « يجتاز كل موجيك (١) اتون المعمل ». وقد فضح لينين هذا الانتقاد « الشعبي » المغرض واظهر ان القضية ليست قضية « رغبات » او اماني الماركسيين وانما هي حقيقة سير التطور الرأسمالي في روسيا ، التطور الذي يؤدي حتما الى ازدياد عدد البروليتاريا ، وان هذه البروليتاريا تحفر قبر النظام الرأسمالي .

واظهر لينين ان اصدقاء الشعب حقاً ، الذين يريدون القضاء على ظلم الرأسماليين وكبار ملاكي الاراضي ، ومحو القيصرية ، انما هم الماركسيون لا الشعبيون .

وفي كتابه : **من هم اصدقاء الشعب** بسط لاول مرة فكرة التحالف

---

(١) - الموجيك : اي الفلاح الروسي (هيئة التعريب)

الثوري بين العمال والفلاحين ، وهي الوسيلة الرئيسية لقلب حكومة القيصر وكبار ملاكي الاراضي والبورجوازية .

وكذلك انتقد لينين في كثير من مؤلفاته في ذلك العهد طرق النضال السياسي التي كان يسلكها جماعة الفرقة الشعبية الرئيسية وهم «نارودوفولتسي» (اي اعضاء نارودنايا فوليا — « ارادة الشعب ») والتي سيسلكها فيما بعد ، الاشتراكيون الثوريون ، خلفاء الشعبيين . وانتقد بخاصة ، خطة الارهاب الفردي . فان لينين كان يعد هذه الخطة ضارة بالحركة الثورية اذ انها كانت تُحل كفاح الابطال الفرديين محل نضال الجماهير ، فتنم بذلك عن فقد الايمان بالحركة الثورية الشعبية .

وعين لينين في مؤلفه : **من هم اصدقاء الشعب** الاهداف الاساسية للماركسيين الروسيين ، قال : ان على الماركسيين الروسيين بادىء بدء ان ينظموا من الحلقات الماركسية المبعثرة حزباً للعمال اشتراكياً ديموقراطياً موحداً . ثم اوضح لينين ان الطبقة العاملة في روسيا هي التي ستقضي بتحالفها مع الفلاحين على الاوتوقراطية القيصرية . وبعدئذ تتبع البروليتاريا الروسية ، بالتحالف مع الجماهير الكادحة والمستثمرة ، والى جانبها البروليتاريا في الاقطار الاخرى ، الطريق المباشر للنضال السياسي الصريح ، نحو فوز الثورة الشيوعية.

وهكذا اظهر لينين ، منذ اربعين سنة ونيف ، على الوجه الاكمل ، الطريق الذي يجب ان تسلكه الطبقة العاملة في نضالها وحدد مهمتها باعتبار انها الطليعة الثورية في المجتمع . ثم حدد مهمة جماهير الفلاحين باعتبار انها حليفة الطبقة العاملة .

منذ ١٨٩٠ — ١٩٠٠ ادى نضال لينين وانصاره ضد الشعبية الى اندحارها في الميدان الفكري ، اندحاراً نهائياً .

وكذلك كان لنضال لينين ضد « الماركسية المشروعة » اهمية عظيمة. وكما يقع دائماً في سياق التاريخ ، فان بعضاً من « رفاق الدرب » يتعلقون ، لكن الى حين ، باذيال الحركات الاجتماعية الكبيرة . ومن « رفاق الدرب » هؤلاء

كان الذين اطلق عليهم اسم **الماركسيين المشروعين**. فان المثقفين البورجوازيين اخذوا، عندما انتشرت الماركسية انتشاراً واسعاً في روسيا، يتجلببون بثوب الماركسية، ويطبعون مقالاتهم في المجلات والصحف المشروعة، اي في المجلات والصحف التي تسمح الحكومة القيصرية بصدورها. ومن هنـــا اشتق اسم «الماركسيين المشروعين».

اجل، لقـــد كانوا يحاربون الشعبية على طريقتهم، لكن هذه المحاربة، وذلك التلويح باللواء الماركسي، انما استخدم لاخضاع حركة العمال لصالح المجتمع البورجوازي، لمنفعة البورجوازية. فكانوا يجردون تعاليم ماركس من جوهرها الاساسي، اي من تعاليم الثورة البروليتـــارية، ودكتاتورية البروليتاريا. وكان بيوتر ستروفه وهو ابرز المـــاركسيين المشروعين يشيد بالبورجوازية، وبدلاً من الدعوة الى النضال الثوري ضد الرأسمالية كان يدعو الى «الاعتراف بنقص ثقافتنا، والى وجوب اجتياز المدرسة الرأسمالية.»

وكان لينين في مكافحته الشعبيين يوافق على اتفاقات موقتة تعقد والماركسيين المشروعين للاستفادة منهم ضد الشعبيين، كأن ينشر، مثلاً، بالاشتراك معهم كتاباً ضد الشعبيين. لكنه في الوقت نفسه، ينتقد «الماركسيين المشروعين» انتقاداً شديداً، ويكشف الستار عن حقيقة نزعتهم كاحرار بورجوازيين.

ان كثيرين من «رفاق الدرب» هؤلاء اصبحوا فيما بعد من جماعـــة «الكاديت» (١) ـــ الحزب الرئيسي للبورجوازية الروسية ـــ وفي خلال الحرب الاهلية من اقحاح الحرس الابيض.

الى جانب «اتحاد النضال» في بطرسبرج، وموسكو، وكياف، وسواها، اخذت تتألف منظمات اشتراكية ديموقراطية في مناطق الاقوام الاخرى، في اطراف روسيا من الجهة الغربية. وبعد سنة ١٨٩٠ انسحبت العناصر الماركسية من الحزب القومي البولوني كي تنشىء «الحزب الاشتراكي الديموقراطي

(١) كاديت: كلمة تمثل اللفظ الصوتي لحرفي ك ـ د وهما في اللغة الروسية الحرفان الاولان من اسم «الدستوريين الديموقراطيين» الذين كانوا يمثلون البورجوازية الحرة في روسيا القيصرية. (هيئة التعريب)

في بولونيا وليتوانيا » . وحوالي سنة ١٩٠٠ تألفت المنظمات الاشتراكية الديموقراطية الليتونية . وفي تشرين الاول من سنة ١٨٩٧ انشىء في الولايات الغربية من روسيا حزب « البونـد » اي الاتحاد العام للحزب الاشتراكي الديموقراطي اليهودي .

وفي سنة ١٨٩٨ قام عدد من « اتحادات النضال » ــ اتحادات بطرسبرج وموسكو ، وكياف ، وييكاتوينوسلاف ــ ومعها البوند بمحاولة اولى للتجمع في حزب اشتراكي ديموقراطي واحد ، ولهذه الغاية عقدوا في منسك في اذار ١٨٩٨ المؤتمـر الاول لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا (ح.ع.ا.د.ر) .

ان المؤتمر الاول لـ « ح.ع.ا.د.ر » لم يضم سوى تسعة مندوبين ، ولم يتمكن لينين من الحضور اذ كان عهدئذ منفياً في سيبيريا . كذلك لم تلبث لجنة الحزب المركزية التي انتخبها المؤتمر حتى اعتقلت . وكان البيان الذي صدر باسم المؤتمر يتضمن نقاط ضعف عديدة : فهو يلزم الصمت عن ضرورة استيـلاء البروليتـاريا على السلطة السياسيـة وعن زعامـة البروليتاريا . كما انه لم يذكر شيئاً عن حلفـاء البروليتـاريا في مناضلتهـا القيصرية والبورجوازية .

واعلن المؤتمر في قراراتـه وبيانه ، تأليف حزب العـمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا .

وفي هذا الصك الشكلي الذي سيكون له شأن عظيم في ميـدان الدعـاية الثورية ، تتمثل اهمية المؤتمر الاول لـ « ح.ع.ا.د.ر » .

عـلى ان انشاء الحزب الاشتراكي الديموقراطي لم يتم بصورة فعليـة في روسيا ، رغم اجتماع هذا المؤتمر الاول . فالمؤتمر لم يتمكن من جمـع الحلقات والمنظمات الماركسية ، ولا ربطها بصلات تنظيمية . ولم يكن هنـاك خطـة واحدة في مسعى المنظمات المحلية ، ولا برنامج للحزب ، ولا نظام داخلي له ، ولا قيادة صادرة عن مركز موحد .

لهذه الاسباب ، ولاسباب اخرى ، ازداد الارتباك الفكري في المنظمات المحلية ، مما ادى الى ايجاد شروط مؤاتية لتقوية تيار انتهازي ، هو تيار « الاقتصادية » في صميم حركة العمال .

وسيضطر لينين وجريدة **ايسكرا** (الشرارة) التي أسسها ، الى بذل جهد كبير ، خلال عدة سنين ، لقمع ذلك الارتباك ، والتغلب على التموجات الانتهازية ، ولاعداد الاسباب لتكوين حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا .

•

٥ ـ نضال لينين ضد « الاقتصادية » ـ لينين يؤسس جريدة « ايسكرا »

لم يتمكن لينين من حضور المؤتمر الاول لـ « ح.ع.ا.د.ر. ». لقد كان اذ ذاك في سيبيريا ، منفياً في قرية « شوشينسكوية » حيث ارسلته الحكومة القيصرية ، بعد ان ابقته مدة طويلة في السجن بنطرسبرج ، في قضية « اتحاد النضال » . ولكن لينين تابع نشاطه الثوري حتى في المنفى . فهنالك اتم مؤلفه العلمي الكبير : **تطور الرأسمالية في روسيا** الذي اجهز على الشعبية في الميدان الفكري. وهنالك ايضاً كتب كراسه الشهير : **واجبات الاشتراكيين الديموقراطيين الروسيين** .

ورغم انعزال لينين عن النشاط الثوري العملي والمباشر ، بقي محتفظاً حيث كان في منفاه ، بصلاته ببعض المناضلين ، فكان يكاتبهم ويستطلع اخبارهم ، ويغدق عليهم ارشاداته .

والقضية التي كانت تشغل بال لينين في ذلك العهد هي قضية «الاقتصاديين». اذ كان يدرك اكثر من اي انسان سواه ان « الاقتصادية » هي النواة المركزية لسياسة التفاهم ، اي الانتهازية ، وان انتصار « الاقتصادية » في حركة العمال معناه القضاء على حركة البروليتاريا الثورية وانهزام الماركسية.

لهذا حمل لينين على « الاقتصاديين » منذ ذر قرنهم .

كان «الاقتصاديون» يزعمون ان العمال مطالبون فقط بالنضال الاقتصادي. اما النضال السياسي فينبغي ان يترك امره للبورجوازية الحرة التي يجب على العمال ان يؤيدوها . فكان لينين يعد هذه الدعاية التي يبثها « الاقتصاديون » بمثابة جحود للماركسية ، وانكار لضرورة وجود حزب سياسي مستقل للطبقة العاملة ، ومحاولة ترمي الى جعل الطبقة العاملة ذيلاً سياسياً للبورجوازية .

وفي عـــام ١٨٩٩ اصدر بعض دعـاة « الاقتصادية » (بروكوبوفيتش وكوسكوفا وسواهما ، وسينضم هؤلاء فيما بعد الى جماعة « الكاديت ») بياناً جاهروا فيه بخصومتهم للماركسية الثورية ، وطلبوا العدول عن تأليف حزب سياسي بروليتاري مستقل ، والرجوع عن المطالب السياسية المستقلة التي تنادي بها الطبقة العاملة . وكان « الاقتصاديون » يرون ان النضال السياسي هو من شؤون البورجوازية الحرة ، واما العمال فيكفيهم ان يناضلوا اصحاب العمل في الميدان الاقتصادي .

وعندما اطلع لينين على الوثيقة الانتهازية دعا المنفيين الماركسيين الذين كانوا في الجوار الى اجتماع عام ، ووضع سبعة عشر رفيقاً ، على رأسهم لينين ، احتجاجاً فندوا فيه وجهة نظر « الاقتصاديين » .

وهذا الاحتجاج الذي كتبه لينين اذيع في المنظمات الماركسية في روسيا جمعاء ، وكانت له اهمية كبيرة في تطور الفكرة الماركسية والحزب الماركسي في روسيا .

وكان « الاقتصاديون » الروسيون يدعون الى الافكار عينها التي كان يدعو اليها خصوم الماركسية في الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية في الخارج، اولئك الذين كانوا يسمون « برنشتاينيين» اي انصار الانتهازي « برنشتاين » .

فكان نضال لينين ضد « الاقتصاديين » والحـــالة هـذه ، نضالا ضد الانتهازية الدولية .

وجريدة **ايسكرا** السرية التي أسسها لينين هي التي قامت خاصة بمناضلة

« الاقتصادية » لتأليف حزب سياسي بروليتاري مستقل .

وفي اوائل عام ١٩٠٠ رجع لينين وسائر اعضاء « اتحاد النضال » من المنفى الى روسيا . وكان لينين قد فكر بمشروع تأسيس جريدة ماركسية كبيرة تصدر سراً وتكون لروسيا باسرها . ولم تكن الحلقات والمنظمات الماركسية الصغيرة والعديدة مترابطة بعد . ففي ذلك الوقت ، كما قال الرفيق ستالين ، « اذ كان العمل بالاساليب الحرفية ، وبواسطة الحلقات المنعزلة ، ينخر الحزب من قمته الى قاعدته ، والارتباك النظري هو الطابع البارز في حياة الحزب الداخلية » ، في ذلك الوقت كان اصدار جريدة سرية لروسيا باسرها واجباً اساسياً في رأي الماركسيين الثوريين الروسيين اذ ان هذه الجريدة وحدها كانت تستطيع جمع المنظمات الماركسية المبعثرة ، وربط بعضها ببعض ، وتهيئة الاسباب لتأليف حزب حقيقي .

لكن لم يكن من المستطاع اخراج مثل هذه الجريدة في روسيا القيصرية بسبب الاضطهادات البوليسية . فان من اليسير على جواسيس القيصر بعد شهر او شهرين من صدور الجريدة، اكتشاف امرها والقضاء عليها. لذلك قرر لينين ايضاً ان يطبعها في الخارج . فكانت **ايسكرا** تطبع على ورق رقيق جداً ومتين جداً ، ثم تنقل سراً الى روسيا ، كما ان بعض نسخها كانت تطبع ثانية على مطابع سرية في باكو و كيشينيف وسيبيريا .

وفي خريف ١٩٠٠ سافر لينين الى الخارج ليتفاهم مع الرفاق اعضاء فرقة «تحرير العمل» على طبع جريدة سياسية لروسيا باسرها . وكان لينين قد محص ، وهو في منفاه ، هذه الفكرة بتفاصيلها كلها واشبعها درساً . وفيما هو راجع من سيبيريا عقد في طريقه عدة مجالس للتشاور في « اوفا » و « بسكوف » و« موسكو » و « بطرسبرج » واتفق في كل مكان مع الرفاق على اصطلاحات خاصة للمكاتبة السرية ، وعلى العناوين اللازمة لارسال مطبوعات الحزب الخ... كما انه بحث في كل مكان منهاج النضال المقبل .

واخذت الحكومة القيصرية تدرك ان لها في شخص لينين عدواً خطراً جداً

وقد كتب الذكي زوباتوف عميل « الاوخرانا » (١) القيصرية في تقرير سري يقول: «ليس في الثورة اعظم من اوليانوف (لينين) » . وكان يرى من المناسب تدبير مؤامرة لاغتيال لينين !

وعندما وصل لينين الى الخارج اتفق مع فرقة « تحرير العمل » اي مع بليخانوف ، واكسلرود ، و ف. زاسوليتش على طبع **ايسكوا** بالاشتراك واياهم . ووضع لينين مشروع النشر بحذافيره . وفي كانون الاول من سنة ١٩٠٠ صدر في الخارج العدد الاول من جريدة **ايسكوا** (الشرارة) وتحت عنوان الجريدة هذه الكلمة: «**ان من الشرارة سيندلع اللهيب** » وهي مأخوذة من جواب الديسمبريين (٢) الى الشاعر بوشكين الذي كان قد ارسل اليهم ، اذ كانوا في المنفى بسيبيريا ، رسالة يحييهم فيها .

واندلع حقاً فيا بعد من **الشرارة** التي اشعلها لينين ، لهيب الحريق الثوري العظيم الذي حول النظام الملكي القيصري ، نظام النبلاء وكبار ملاكي الاراضي، وكذلك حكم البورجوازية الى رماد .

الخلاصة

تكون حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الماركسي في روسيا ،بادىء الامر في مناضلة الشعبية ونظراتها الضالة ، الضارة بقضية الثورة . ولم يمهد السبيل لايجاد حزب عمال ماركسي في روسيا الا بعد ان انكسر الشعبيون في الميدان الفكري . ففي العقد التاسع (١٨٨٠ــ١٨٩٠) من القرن الماضي سدد بليخانوف وفرقته « تحرير العمل » الى الشعبية طعنة مميتة . وفي العقد العاشر (١٨٩٠ــ١٩٠٠) أكمل لينين دحر الشعبية فكريا واجهز عليها بضربة قاضية .

---

(١) الاوخرانا : دائرة الشرطة السياسية السرية في روسيا القيصرية وقد انشأت لمكافحة الحركة الثورية . (هيئة التعريب)

(٢) الديسمبريون : ثوريون برزوا من طبقة النبلاء وقاموا في ديسمبر (كانون الاول) ١٨٢٥ على سلطان الاوتوقراطية والقنانة . (هيئة التعريب)

كان لفرقة « تحرير العمل » المؤسسة عام ١٨٨٣ شأن عظيم في نشر الماركسية في روسيا ، فقد وضعت أساساً نظرياً للاشتراكية الديموقراطية وخطت نحو حركة العمال ، الخطوة الاولى .

وبتطور الرأسمالية في روسيا ازداد عدد البروليتاريا الصناعية بسرعة . وحوالي عام ١٨٨٥ سلكت الطبقة العاملة طريق النضال المنظم ، طريق العمل الجماهيري في شكل اضرابات منظمة . سوى ان الحلقات والفرق الماركسية لم تكن تهتم الا للدعاية ، غير مدركة ضرورة الانتقال الى التحريض الجماهيري وسط الطبقة العاملة . وهكذا لم تكن الفرق مرتبطة بعد عملياً بحركة العمال ، ولا متولية قيادتها .

ان تأسيس لينين « اتحاد النضال لتحرير الطبقة العاملة » في بطرسبرج (١٨٩٥) وهي المنظمة التي باشرت اعمال التحريض الجماهيري بين العمال وقادت الاضرابات الجماهيرية ، يعتبر فاتحة مرحلة جديدة ، مرحلة الانتقال الى خطة التحريض الجماهيري بين العمال واندماج الماركسية بحركة العمال . ان « اتحاد النضال لتحرير الطبقة العاملة » في بطرسبرج هو اول نواة للحزب البروليتاري الثوري في روسيا . وعقيب تأسيس « اتحاد النضال » في بطرسبرج انشئت منظمات للماركسيين ، في المراكز الصناعية الرئيسية ، وفي اطراف البلاد ايضاً .

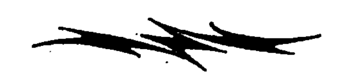
وفي سنة ١٨٩٨ عقد المؤتمر الاول لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي (ح.ع.ا.د.ر) فكان بمثابة محاولة اولى ، لكن غير مثمرة ، لضم المنظمات الاشتراكية جميعاً في حزب واحد . فان هذا المؤتمر لم يوفق الى تأسيس الحزب ، اذ لم يكن ثمة برنامج ، ولا نظام داخلي ، ولا قيادة صادرة عن مركز واحد ، ولا رابطة متينة بين مختلف الحلقات والفرق الماركسية .

ان لينين هو الذي وضع ، ثم حقق ، مشروع انشاء **ايسكرا** اول جريدة للماركسيين في روسيا ، مستهدفاً جمع المنظمات الماركسية المتفرقة ودمجها في حزب واحد .

في ذلك العهد كان دعاة « الاقتصادية » الد المعارضين لايجاد حزب سياسي

موحد للعمال : كانوا ينكرون ضرورة ايجاد هذا الحزب ، يريدون ان تظل الفرق والحلقات مشتتة ، ومستمرة على العمل جرياً على الاساليب الحرفية . فسدد لينين و**ايسكرا** التي انشأها ، الى الاقتصاديين الضربات الشديدة .

وكان نشر اعداد **ايسكرا** الاولى (١٩٠٠–١٩٠١) فاتحة الانتقال الى عهد جديد ، عهد التكوين الفعلي لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الموحد في روسيا ، من اشتات الفرق والحلقات .



الفصل الثاني

تأليف حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي(١) في روسيا وظهور فريقي البلشفيك والمنشفيك في داخل الحزب (١٩٠١ ـ ١٩٠٤)

●

١ ــ نهوض الحركة الثورية في روسيا ١٩٠١ ــ ١٩٠٤

في اواخر القرن التاسع عشر ، نشبت في اوروبا ازمة صناعية ما لبثت ان امتدت الى روسيا . فاقفل ما يقرب من ثلاثة الاف معمل من المعامل الصغيرة والكبيرة ابوابها خلال سنوات الازمة التي استمرت من عام ١٩٠٠

---

(١) حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي : هكذا كان يسمى حزب العمال في روسيا قبل الثورة السوفياتية ، اي قبل عام ١٩١٧ .وكانت جميع احزاب العمال في اوروبا تسمى ايضاً كذلك . وظهرت الاحزاب الشيوعية بعد الحرب العالمية الاولى اذ تبين خلال الحرب ان الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية في اوروبا قد اصبحت انتهازية بصورة نهائية ، وخرجت عن مبادىء الاشتراكية العلمية ، ولم تبق صالحة لقيادة جماهير الشعب في طريق النضال الثوري لاجل انتصار الاشتراكية . (هيئة التعريب)

الى عام ١٩٠٣ ، والقي الى قارعة الطريق اكثر من ١٠٠،٠٠٠ عامل ، وهبطت اجور العمال الباقين في المعامل هبوطاً شديداً ، واخذ الرأسماليون يستعيدون بعض الامتيازات التي كان العمال انتزعوها منهم باضراباتهم الاقتصادية العنيدة .

الا ان الازمة الصناعية والبطالة لم توقفا حركة العمال ولم تضعفاها ، بل على العكس ، اتخذ نضال العمال طابعاً ثورياً اكثر فاكثر ، واخذ العمال ينتقلون من الاضرابات الاقتصادية الى الاضرابات السياسية ، وصاروا اخيراً يخرجون في مظاهرات ويضعون مطالب سياسية حول الحريات الديموقراطية ، ويلقون شعار : « فلتسقط الاوتوقراطية (١) القيصرية » .

وفي سنة ١٩٠١ ، تحول اضراب اول ايار في معمل « اوبوخوف » الحربي ، في بطرسبرج الى اصطدام دموي بين العمال والجيش ، ولم يكن للعمال ما يدافعون به عن انفسهم امام الجيوش القيصرية المسلحة سوى الضرب بالحجارة والقطع الحديدية ، فتحطمت مقاومتهم العنيدة ، وتلا ذلك اضطهاد وحشي ، فاعتقل ٨٠٠ عامل تقريباً ، ارسل عدد كبير منهم الى السجون والمنافي . الا ان « دفاع اوبوخوف » الباسل اثر تأثيراً عظيماً في عمال روسيا ، وأثار بينهم موجة من العطف على اخوانهم .

وفي آذار ١٩٠٢ ، وقعت في « باطوم » اضرابات كبرى وجرت مظاهرة عمال ، وقد نظمتها كلها اللجنة الاشتراكية الديموقراطية في المدينة . وقد حركت هذه المظاهرة العمال وجماهير الفلاحين عبر القفقاس .

وفي عام ١٩٠٢ نفسه ، وقع اضراب هام في مدينة « روستوف ـــ سور ـــ

---

(١) الاوتوقراطية : هي الحكم الفردي المطلق ، وكان قيصر روسيا يمارس مثل هذا الحكم ، فهو لا يخضع لاية رقابة من الشعب ، وارادته هي القانون .

« هيئة التعريب »

دون » ، وكان عمال سكك الحديد اول المضربين ، ثم انضم اليهم العمال في معامل عديدة . وقد حرّك هذا الاضراب جميع العمال ، ففي الاجتماعات العامة التي ظلت تنعقد خلال ايام عديدة خارج المدينة ، كان يتجمع جمهور يبلغ احياناً ثلاثين الف عامل ، فتقرأ بصوت عال النشرات الاشتراكية الديموقراطية ويتتالى الخطباء . وكانت قوى رجال الشرطة والقوزاق لا تكفي لتفريق هذه الاجتماعات التي يتزاحم فيها الوف العمال . وقتل الشرطة عدداً من العمال ، فجرت اثناء تشييعهم في اليوم التالي مظاهرة عمال ضخمة . ولم تستطع الحكومة القيصرية سحق الاضراب الا بعد استدعاء الجيش من المدن المجاورة . وكان نضال عمال « روستوف » يجري بقيادة لجنة حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في منطقة حوض الدون .

وكانت الاضرابات في سنة ١٩٠٣ اهم واوسع . فقد نشبت في هذه السنة اضرابات سياسية جماهيرية في الجنوب عمت عبر القفقاس (باكو ، تفليس ، باطوم) واكبر مدن اوكرانيا (اوديسا ، كياف ، ييكاترينوسلاف) . واصبحت الاضرابات يوماً بعد يوم اقوى واحسن تنظيماً . وكانت اللجان الاشتراكية الديموقراطية هي التي تقود هذه المرة نضال العمال السياسي في كل مكان تقريباً ، خلافاً لما كان يجري خلال حركات الطبقة العاملة في السابق .

لقد نهضت الطبقة العاملة في روسيا الى النضال الثوري ضد الحكم القيصري .

وكانت حركة العمال تؤثر في الفلاحين . ففي الربيع والصيف من عام ١٩٠٢ ، قام الفلاحون في اوكرانيا (في ولايات بولتافا وخاركوف) وكذلك في حوض الفولغا بحركة واسعة ، فأخذوا يحرقون املاك كبار الملاكين ويستولون على اراضيهم ويقتلون الـ « زيمسكي ناجالينكي (١) » والملاكين المكروهين . وكان الجيش يجرد ضد الفلاحين المتمردين فيطلق عليهم الرصاص ويعتقل منهم المئات . وكان القادة والمنظمون يلقون في السجون ،

«١» زيمسكي ناجالينكي : هم نبلاء يمارسون عمل الشرطة ويتمتعون بصلاحيات ادارية وقضائية . « هيئة التحرير »

الا ان حركة الفلاحين الثورية ظلت تتابع نموها .

لقد كانت حركات العمال والفلاحين الثورية تدل على ان الثورة في روسيا آخذة في النضج وقريبة الوقوع . وقد اشتدت حركة المعارضة ايضاً بين الطلاب بتأثير نضال العمال الثوري. وردت الحكومة على مظاهرات الطلاب واضراباتهم باقفال الجامعات وزجت بالمئات منهم في السجون ، وفكرت اخر الامر في ارسال الطلاب المتمردين الى الجيش . وجواباً على ذلك نظم طلاب كل مؤسسات التعليم العالي، في شتاء ١٩٠١ — ١٩٠٢ ، اضراباً عاماً شمل ما يقرب من ٣٠٠٠٠ طالب.

وقد كان لحركة العمال والفلاحين، وخصوصاً الاضطهاد الذي لقيه الطلاب، أثر حتى في نفوس البورجوازيين الاحرار (١) وكبار ملاكي الاراضي الاحرار الموجودين في المؤسسات المسماة « زمستفو » (٢) فرفعوا «احتجاجاً» على « شطط » الحكومة القيصرية التي تضرب فلذات اكبادهم، الطلاب .

كانت هيئات **زيمسكي اوبرافي** تؤلف نقاط الارتكاز التي يستند اليها احرار الـ« زمستفو » ، وكانت كلمة « زيمسكي اوبرافي » تطلق على هيئات الادارة المحلية المكلفة بتسوية القضايا المحلية المحضة المتعلقة بسكان الارياف

«١» البورجوازيون الاحرار : هم البورجوازيون الذين كانوا يطمحون الى اقامة ملكية دستورية او مشاطرة القيصر الحكم على روسيا . وكانوا يريدون الوصول الى ذلك عن طريق « التفاهم » ، ويكرهون النهضات والثورات الشعبية ، خصوصاً اذا امتدت واستفحلت اذ كانوا عندئذ يكافحونها علناً ودون هوادة .

« هيئة التعريب »

«٢» زمستفو : هي مجالس محلية كانت موجودة في مختلف المناطق والمقاطعات في روسيا القيصرية ، وكانت تضم ممثلي الملاكين العقاريين في المدن والقرى ، وتتألف بانتخابات تجري – وخصوصاً في القرى – على عدة درجات . وكان مجلس المنطقة يتألف من ممثلي النواحي المختلفة . وقد لعبت الزمستفو دوراً كبيراً في الادارة المحلية ، وعلقت عليها البورجوازية الحرة آمالا جساماً ، اذ كانت تتمتع بقوة كبرى في داخلها . وقد حاولت « الزمستفو » جهد طاقتها ان تحتفظ بنفوذها اثناء الثورة ، ولكن دون جدوى ، ولم يكتب لمحاولاتها النجاح .

(هيئة التعريب)

(كتعبيد الطرقات، وبناء المستشفيات والمدارس). وكان كبار ملاكي الاراضي الاحرار يلعبون دوراً بارزاً في هيئات «زمسكي اوبرافي» وكانوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالبورجوازيين الاحرار، بل كانوا تقريباً ممتزجين بهم، اذ انهم انفسهم كانوا يتخلون في اراضيهم شيئاً فشيئاً عن الاقتصاد نصف الاقطاعي(١) وينتقلون الى الاقتصاد الرأسمالي (٢) لانه اوفر ربحاً. وكان كلا هذين الفريقين من الاحرار يدافع دون شك عن الحكومة القيصرية، غير ان كليهما كان ضد «شطط» القيصرية، خشية ان يؤدي هذا «الشطط» الى تقوية الحركة الثورية. لقد كانا يخشيان «شطط» القيصرية، ولكن خوفهما من الثورة كان اشد واعظم. وهكذا كان الاحرار في احتجاجهم على «شطط»

(١) الاقتصاد نصف الاقطاعي: هو النظام الاقتصادي الذي يكون فيه الفلاحون قد تحرروا من القنانة، فيصبحون غير مرتبطين بأرض المالك الاقطاعي، ويمكنهم تركها والانتقال الى ارض اخرى او اي عمل آخر، ولكن طريقة استثمار الفلاحين تبقى، في خطوطها العامة، على الحالة التي كانت عليها في النظام الاقطاعي، اي ان بقايا الاقطاعية تظل قوية وكثيرة. مثلاً: اجبار الفلاحين على تقديم حصة من منتجاتهم للملاك الكبير، وتكليفهم باعمال مجانية لصالحه. وفي هذا النظام يكون للفلاحين حق تملك بعض ادوات الانتاج كالمحراث والماشية اللازمة للحرث الخ. ومن المفهوم ان بقايا الاقطاعية في الزراعة منتشرة كثيراً في الاقطار المستعمرة او المحرومة من استقلالها وفي اقطار الشرق بصورة عامة. وفي سوريا (وفي بعض مناطق لبنان ايضاً) تتمثل بقايا الاقطاعية في الزراعة بنظام المحاصصة (الربع والخمس .. الخ.)، وباضطهاد الفلاحين واخضاعهم لسيطرة الذوات اصحاب الاراضي الكبيرة. الخ. وهذه البقايا الاقطاعية تمنع تطور الانتاج الزراعي وتعوق تقدم البلاد الاقتصادي بوجه عام.
(هيئة التعريب)

(٢) الاقتصاد الرأسمالي في الزراعة: هو شكل الاستثمار الزراعي الذي يصبح فيه الفلاحون غير مرتبطين بالارض، ولا يلزمون بتقديم حصة من منتجاتهم للمالك، بل يتحولون الى «عمال زراعيين» فتكون جميع المنتجات لصاحب الارض ويأخذ الفلاحون اجرة معينة يومياً او شهرياً او مقابل عمل زراعي معين، اي ان طريقة استثمارهم تصبح مماثلة لاستثمار العمال من قبل اصحاب العمل الرأسماليين في الصناعة. وفي هذا النظام لا يملك الفلاحون شيئاً من ادوات الانتاج ويزداد استعمال كبار ملاكي الاراضي لآلات الانتاج الحديثة (التركتورات، الحاصدات الميكانيكية.. الخ) وهذا الشكل من الاستثمار الزراعي اخذ في الانتشار في بعض مناطق سوريا ولبنان.
«هيئة التعريب»

القيصرية يرمون الى غايتين : اولا : اعادة القيصر الى « جـادة الصواب » . ثانياً : التظاهر بانهم اناس « مستاءون جداً » من القيصرية ، واكتساب ثقة الشعب ، وفصل الشعب او قسم منه عن الثورة ، ومن ثم اضعاف الثورة .

ومن الواضح ان حركة احرار « الزمستفو » لم تكن تؤلف خطراً على وجود القيصرية ، ولكنها كانت تشهد على ان الاحوال ليست على ما يرام ، فيما يتصل بالاسس « التقليدية القديمة » التي قامت عليها القيصرية .

وفي سنة ١٩٠٢ ادت حركة « الزمستفو » الحـرة الى تنظيم الفرقـة البورجوازية المعروفـة بفرقة « الاوسفوبوجدينيا » (التحرر) ، وهي نواة الحزب البورجـوازي الرئيسي ، حـزب « الكاديت » ، الذي ظهر في روسيا فيما بعد .

لم تتورع القيصرية عن اتخاذ اي تدبير لوقف الحركة الثورية عندما رأت ان حركة العمال والفلاحين تجتاح البلاد في موجة صاعدة ينمو خطرها باستمرار . فازداد يوماً عن يوم استعمال القوة المسلحة ضد اضرابات العمال ومظاهراتهم ، واصبح الرصاص والسوط جواب الحكومة القيصرية العادي المألوف عـلى حركات العمال والفلاحين وغصت السجون والمنافي بالناس .

والى جانب تدابير الاضطهاد العنيفة ، جربت الحكومة القيصرية استعمال تدابير اخرى اكثر « مرونة » ، ليست لها صفة الارهـاق والارهاب ، لكي تصرف العمال عن الحركة الثورية . فقـامت بمحاولات لخلق منظمات للعمال مزيفة وموضوعة تحت وصاية الدرك والشرطة . وسميت هذه المنظمات في ذلك الحين « الاشتراكية البوليسية » او منظمات «زوباتوف» (نسبة الى زوباتوف، كولونيل الدرك الذي انشأ هذه المنظمات). واجتهدت «الاوخرانا» القيصرية، بواسطة عملائهـا لاقناع العمال بأن الحكومة القيصرية مستعدة لمساعدة العمال بنفسها على تحقيق مطالبهم الاقتصادية . « ما الفـائدة من اهتمامكم بالسياسة ؟ ما الفائدة من تنظيم الثورة ، ما دام القيصر نفسه هو في جانب العمال ؟ » : هذا

ما كان يقوله للعمال عملاء « زوباتوف » الذين انشأوا منظماتهم في مدن عديدة .
وفي سنة ١٩٠٤ ألف الخوري « كابون » المنظمة المسماة « اجتماع عمال المعامل الروسية في بطرسبرج » على نمط منظمات زوباتوف ولمثل غايتها .

ولكن المحاولة التي قامت بها « الاوخرانا » القيصرية لاخضاع حركة العمال لنفوذها اخفقت ، وتبيّن ان الحكومة عاجزة عن قمع حركة العمال السائرة الى الامام بمثل هذه الاساليب . ولم تلبث حركة الطبقة العاملة الثورية النامية ان كنست هذه المنظمات البوليسية من طريقها .

•

٢ ـ برنامج لينين لبناء حزب ماركسي ـ انتهازية « الاقتصاديين » ـ نضال « ايسكرا » في سبيل برنامج لينين ـ كتاب لينين «ما العمل؟» ـ الاسس الفكرية للحزب الماركسي .

رغم ان المؤتمر الاول لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ، انعقد عام ١٨٩٨ واعلن تأسيس الحزب ، فان الحزب مع ذلك لم يتألف ، اذ لم يكن هناك برنامج ولا نظام داخلي للحزب . اما اللجنة المركزية المنتخبة في المؤتمر الاول فقد اعتقلت ، ولم تقم اية لجنة بعدها ، اذ لم يكن ثمة من يأخذ هذه المهمة على عاتقه ، بل حدث فوق ذلك ان ازداد ، بعد المؤتمر الاول ، الارتباك الفكري والتبعثر التنظيمي في الحزب .

لقد تميزت سنوات ١٨٨٤ ـ ١٨٩٤ بالانتصار على الشعبية وبتحضير الاشتراكية الديموقراطية فكريا ، وخلال سنوات ١٨٩٤ ـ ١٨٩٨ ، بذلت المحاولات ، ولكن دون جدوى ، لانشاء حزب اشتراكي ديموقراطي من المنظمات الماركسية المتفرقة ، أما المرحلة التي تلت سنة ١٨٩٨ فكانت مرحلة

تفاقم الارتباك الفكري والتنظيمي في الحزب. ذلك لان انتصار الماركسية على الشعبية، والحركات الثورية التي قامت بها الطبقة العاملة فأظهرت كم كان الماركسيون على حق، كل ذلك قوى عطف الشبيبة الثورية على الماركسية، واصبحت الماركسية شيئاً «على الموضة». وكانت النتيجة ان اقبلت على المنظمات الماركسية جماهير واسعة من الشباب المثقفين الثوريين، الا انهم قليلو الاطلاع على النظريات، وليست لديهم تجارب في الميدان السياسي والتنظيمي، وليس عندهم عن الماركسية سوى فكرة غامضة — مغلوطة على الغالب — استقوها من الكتابات الانتهازية، التي كان «الماركسيون المشروعون» يملأون الصحافة بها. وادى ذلك الى هبوط المستوى النظري والسياسي للمنظمات الماركسية وتسرب عقلية «الماركسيين المشروعين» الانتهازية اليها، وتفاقم الحيرة الفكرية والتموجات السياسية والارتباك في شؤون التنظيم.

كان نهوض حركة العمال القوي المتعاظم، واقتراب الثورة اقتراباً بيّناً، يقضيان بانشاء حزب موحد للطبقة العاملة، حزب ممركز، قادر على قيادة الحركة الثورية. ولكن كان دون انشاء مثل هذا الحزب صعوبات جمة لا مثيل لها، فقد كانت هيئات الحزب المحلية واللجان والفرق والحلقات المحلية في حالة مؤسفة: اذ كانت متفرقة الكلمة جداً في ميدان التنظيم، وكان الخلاف بينها كبيراً في الميدان الفكري.

لم تكن الصعوبة متأتية فقط من ان الحزب يجب ان يبنى تحت نيران الاضطهاد القيصري الوحشي الذي كان ينتزع، في كل لحظة، من صفوف المنظمات خيرة المناضلين ويرسلهم الى السجن والمنفى ومعتقلات الاشغال الشاقة، بل كانت هنالك صعوبة اخرى، هي ان قسماً كبيراً من اللجان المحلية ومن المناضلين فيها، كانوا يرفضون الاهتمام باي شيء لا يتصل بنشاطهم العملي الضيق في النطاق المحلي، فكانوا لا يدركون الضرر الناجم عن فقدان الوحدة من الوجهة الفكرية والتنظيمية فقد تعودوا على تجزئة الحزب وعلى الارتباك

الفكري وكانوا يعتبرون ان من الممكن الاستغناء عن حزب موحد ممركز .

فكان من الواجب ، لانشاء حزب ممركز ، التغلب على تأخر الهيئات المحلية ، وعلى تمسكها بالتقاليد الماضية ، وعلى وجهة نظرها الضيقة المحصورة في النطاق العملي المحلي .

ولكن لم تكن القضية لتقف عند ذلك . فقد كان في الحزب جماعة كبيرة العدد ، لها جريدتان احداهما تصدر في روسيا وهي **رابوتشايا ميسل** (فكرة العمال) ، والثانية تصدر في الخارج وهي **رابوتشي ديلو** (قضية العمال) ، فكانت هذه الجماعة تبرر نظرياً التجزئة التنظيمية والارتباك الفكري في الحزب ، بل كانت غالباً تشيد بهما ، وتعتبر ان انشاء حزب سياسي موحد ممركز للطبقة العاملة ، هو هدف مصطنع وعديم الفائدة .

هؤلاء هم « الاقتصاديون » وانصارهم .

فكان من الواجب ، لانشاء حزب سياسي موحد للبروليتاريا ، القضاء ، في بادىء الامر على « الاقتصاديين » .

وقد اخذ لينين على عاتقه تحقيق هذه الاهداف وتأسيس حزب الطبقة العاملة .

وكانت الآراء متباينة حول المسألة التالية : من اين يجب البدء في تأسيس حزب موحد للطبقة العاملة ؟ . فبعضهم يعتقد ان من الواجب ، لانشاء الحزب ، البدء بعقد المؤتمر الثاني ، فيجمع هذا المؤتمر المنظمات المحلية ويؤسس الحزب . وكان لينين ضد هذا الرأي . اذ كان يعتبر ان من الواجب ، قبل عقد اي مؤتمر ، تعيين اهداف الحزب ومهماته بصورة واضحة ، ومعرفة ما هو الحزب الذي نريد انشاءه ، والانفصال فكرياً عن «الاقتصاديين» ، ومصارحة الحزب باستقامة وجلاء بأن هنالك رأيين مختلفين حول اهداف الحزب ومهماته : رأي «الاقتصاديين» ورأي الاشتراكيين الديموقراطيين الثوريين ، والشروع بدعاية واسعة في الصحافة لتأييد مفاهيم الاشتراكية الديموقراطية الثورية كما كان يفعل

« الاقتصاديون » في جرائدهم دفاعاً عن مفاهيمهم . فكان من الواجب تمكين المنظمات المحلية من الاختيار ، بعد التفكير الجدي ، بين هذين التيارين ، وعندما يتم هذا العمل التحضيري الضروري يصبح من الممكن دعوة مؤتمر الحزب .

كان لينين يقول بصراحة تامة :

« قبل إن نتحد ، ولاجل ان نتحد ، ينبغي ان نبين الحدود التي تفصل بيننا بحزم وجرأة» (لينين: ما العمل؟ - انظر المؤلفات المختارة . المجلد الاول . ص ١٩٠ موسكو ، ١٩٤٦) .

ومن ثم كان لينين يعتبر ان من الواجب ، لانشاء حزب سياسي للطبقة العاملة ، البدء بتأسيس جريدة سياسية كفاحية لكل روسيا ، تقوم بالدعاية والتحريض لتأييد مفاهيم الاشتراكية الديموقراطية الثورية : فتنظيم هذه الجريدة ، هو الخطوة الاولى في سبيل انشاء الحزب .

وقد وضع لينين في مقاله المعروف « من اين نبدأ ؟ » مشروعاً دقيقاً واضحاً لبناء الحزب،ثم وسع هذا المشروع فيما بعد،في مؤلفه الشهير :**ما العمل؟**

وكان لينين يقول في هذا المقال :

« في رأينا ، ان تأسيس جريدة سياسية لكل روسيا ، يجب ان يكون نقطة الابتداء في نشاطنا والخطوة العملية الاولى في سبيل انشاء المنظمة المنشودة (١) ، والخيط الاساسي الذي نستطيع ان نتمسك به لاجل تنمية هذه المنظمة وتعميقها وتوسيعها دون انقطاع . فبدون هذه الجريدة ، يستحيل القيام بأية دعاية وبأي تحريض منظمين ومستمرين ومتنوعين وامينين للمبادىء ، هذا مع ان ذلك هو المهمة الرئيسية الدائمة للاشتراكية الديموقراطية بصورة عامة ، وهو ، بوجه خاص ، مهمة عاجلة في هذا الوقت الذي استيقظ فيه الاهتمام بالسياسة وبقضايا الاشتراكية بين اوسع

---

(١) اي انشاء الحزب (ملاحظة من هيئة التحرير)

جماعات السكان » (لينين : المؤلفات الكاملة . المجلد الرابع . الصفحة ١١٠ ، الطبعة الروسية)

كان لينين يعتبر ان جريدة كهذه لن تقتصر مهمتها على جمع الحزب في الميدان الفكري ، بل ستوحد ايضاً المنظمات المحلية في الحزب . فأن شبكة عملاء هذه الجريدة ومراسليها من ممثلي المنظمات المحلية ، ستكون الهيكل الذي ينتظم الحزب حوله ويتجمع ، لان الجريدة ، كما كان لينين يقول : «ليست اداة دعاية وتحريض جماعية فحسب، بل هي اداة للتنظيم الجماعي ايضاً».

وقد قال لينين في المقال نفسه :

« ستكون هذه الشبكة من العملاء ، هيكل المنظمة التي نحن في اشد الحاجة اليها ، اي منظمة كبيرة لدرجة تشمل البلاد باسرها ، وواسعة ومتنوعة لدرجة تسمح بتوزيع العمل توزيعاً دقيقاً مفصلاً ، وحازمة وصلبة لدرجة تعرف معها ان تقوم بعملها دون ضعف ولا فتور في كل الظروف ومهما كانت «الانعطافات» والمفاجآت ، ومرنة لدرجة انها تعرف ، من جهة ، ان تجتنب المعركة في ارض مكشوفة ضد عدو متفوق في العدد جمع كل قواه في نقطة واحدة ، وتعرف من جهة اخرى ان تستفيد من فقدان المرونة عند هذا العدو فتهاجمه في المكان واللحظة المناسبين من حيث لا يحتسب »(لينين — المرجع ذاته ص١١٢).

وقد كانت **ايسكرا** هي هذه الجريدة المنشودة .

وفعلاً اصبحت **ايسكرا** هي الجريدة السياسية لكل روسيا ، التي هيأت جمع الحزب في الميدان الفكري والتنظيمي .

اما من حيث بناء الحزب نفسه ، وتركيبه ، فكان لينين يعتقد ان الحزب يجب ان يكون مؤلفاً من عنصرين جوهريين : آ) من ملاك (١) ضيق من المناضلين الثابتين ، مؤلف بصورة رئيسية من ثوريين محترفين ، اي من

(١) ملاك : كادر .

مناضلين احرار من كل شاغل غير عملهم في الحزب ، وحائزين على الحد الادنى الضروري من المعارف النظرية والتجربة السياسية والعادات التنظيمية ، معفن النضال ضد البوليس القيصري ، فن التملص من ملاحقاته ، ب) : من شبكة واسعة من المنظمات الحزبية التي تكون على الاطراف ، حاوية جمهوراً كبيراً من الاعضاء ، ومحوطة بعطف مئات الالوف من الشغيلة ومتمتعة بتأييدهم .

وكان لينين يقول :

« انني أؤكد : اولا : لا يمكن ان تكون هنالك حركة ثورية متينة بدون منظمة ثابتة من القادة ، تؤمن استمرار العمل ومتابعته ، ثانياً : كلما كان الجمهور المنجذب بصورة عفوية الى النضال كبير العدد ، كانت الضرورة اشد والحاجة اكبر لوجود مثل هذه المنظمة ، وكان من الواجب ان تكون هذه المنظمة اقوى وامتن ، ثالثاً : ان منظمة مثل هذه ينبغي ان تكون مؤلفة ، بصورة رئيسية ، من اناس مهنتهم هي النشاط الثوري ، رابعاً ، اننا في كل بلد اوتوقراطي ، كلما ضيقنا عدد اعضاء هذه المنظمة لدرجة الا نقبل فيها سوى ثوريين محترفين تدربوا على النضال ضد البوليس السياسي ، يكون «وضع اليد» على مثل هذه المنظمة اصعب ، خامساً : وعندئذ ايضاً يكون العمال وعناصر الطبقات الاجتماعية الاخرى الذين يستطيعون الاشتراك في الحركة والنضال فيها بنشاط ، اكثر عدداً » (لينين : ما العمل ؟ المؤلفات المختارة ، المجلد الاول ص ٢٧٦) .

اما من حيث صبغة الحزب الواجب انشاؤه ، ومن حيث دوره تجاه الطبقة العاملة ، وكذلك من حيث اهدافه ومهامه ، فكان لينين يعتبر ان الحزب يجب ان يكون طليعة الطبقة العاملة ، وان يكون القوة القائدة لحركة العمال ، القوة الموحدة والموجهة لنضال البروليتاريا الطبقي . اما هدف الحزب النهائي فهو : قلب الرأسمالية وتشييد الاشتراكية . اما هدفه المباشر فهو :

قلب القيصرية وتشييد النظام الديموقراطي. فما دام من المستحيل قلب الرأسمالية الا بقلب القيصرية قبلها ، فمهمة الحزب الاساسية في هذه الساعة هي انهاض الطبقة العاملة ، وانهاض الشعب بأسره الى النضال ضد القيصرية ، هي توسيع حركة الشعب الثورية ضد القيصرية ، واسقاط القيصرية من حيث هي العائق الاول والجدي في طريق الاشتراكية .

كان لينين يقول :

« يلقي التاريخ على عاتقنا الان مهمة مباشرة هي **ثورية اكثر** من جميع المهات **المباشرة** الموضوعة امام البروليتاريا في اي قطر آخر . وان انجاز هذه المهمة ، اي تحطيم اقوى حصن لا للرجعية الاوروبية وحدها بل ـــ وهو شيء نستطيع قوله الان ـــ للرجعية الاسيوية ايضاً ، سيجعل من البروليتاريا الروسية طليعة البروليتاريا الثورية الاممية . » (المرجع نفسه ص ١٩٥).

ويقول لينين فيما بعد :

« يجب ألا ننسى ان النضال ضد الحكومة في سبيل مطالب جزئية ، والكفاح لاجل انتزاع تنازلات جزئية ، ما هما سوى منازلات صغيرة مع العدو ، سوى مناوشات صغيرة تقوم بها دوريات المقدمة . اما المعركة الحاسمة فلا تزال أمامنا . ان قلعة العدو تنتصب امامنا بكل قوتها وهي تمطرنا بحمم من الحديد والرصاص تختطف من بيننا احسن محاربينا ، فيجب علينا ان نستولي على هذه القلعة ، وسوف نستولي عليها اذا وحدنا جميع قوى البروليتاريا التي تستيقظ ، مع جميع قوى الثوريين الروسيين ، في حزب واحد يجمع حوله كل ما في روسيا من حي وشريف. وعندئذ ، وعندئذ فقط ، تتحقق نبوءة العامل الثوري الروسي بيوتر الكسييف : اذ «يرتفع ساعد ملايين الشغيلة بعضلاته القوية ، ويستحيل نير الاستبداد ، الذي تحميه حراب الجنـــود ، الى

غباز » . (لينين ــ المؤلفات الكاملة ــ المجلد الرابــع ــ الصفحة ٥٩ ــ الطبعة الروسية) .

هكذا كان برنامج لينين لانشاء حزب للطبقة العاملة في ظروف روسيا القيصرية الاوتوقراطية .

ولم يلبث « الاقتصاديون » ان وجهوا نارهم الى برنامج لينين .

كان « الاقتصاديون » يزعمون ان النضال السياسي العام ضد القيصرية هو من شأن جميع الطبقات ، وهو من شأن البورجوازية قبل غيرها . ولذا ، فهو لا يهم الطبقة العاملة بصورة جدية ، اذ يجب ان يتجه اهتمام العمال الرئيسي الى النضال الاقتصادي ضد اصحاب العمـــل لاجل زيادة الاجور ، وتحسين شروط العمل .. الخ .. وعلى هذا ينبغي ان يجعل الاشتراكيون الديموقراطيون مهمتهم الرئيسية المباشرة ، لا النضـال السياسي ضد الحكومة القيصرية ، ولا القضاء عليها ، بل تنظيم «نضال العمال الاقتصادي ضد اصحاب العمل والحكومة». وكان الاقتصاديون ، عندما يتكلمون عن النضال الاقتصادي ضد الحكومة ، انما يعنون النضال لاجل تحسين تشريع العمل . وكانوا يؤكدون ان في الاستطاعة ، بهذه الوسيلة ، « اعطاء النضال الاقتصادي نفسه صبغة سياسية ».

وهكذا لم يعد « الاقتصاديون » يجرؤون ان يعارضوا ، صراحة ، ضرورة وجود حزب سياسي للطبقة العاملة ، الا انهم كانوا يعتبرون ان الحزب يجب ان لا يكون القوة القائدة لحركة العمال ، وعليه ان لا يتدخل في حركة الطبقة العاملة العفوية ، او ، بالاحرى ، عليه ان لا يقودها ، وانما يستطيع ان يتابعها ويدقق فيها ويستخلص منها الدروس .

ومن ثم كان « الاقتصاديون » يزعمون ان دور العنصر الواعي في حركة العمال ، اي دور النظرية الاشتراكية ، دور الوعي الاشتراكي من حيث هو منظم وقائد ، هو دور لا يؤبه له او يكاد ، وليس على الاشتراكية الديموقراطية ان ترفع العمال الى مستوى الوعي الاشتراكي ، بل على العكس ، يجب عليها ان تتكيف وان تهبط هي نفسها الى مستوى الجماعات المتوسطة التطور ، او

حتى الجماعات المتأخرة من الطبقة العاملة . ولا ينبغي للاشتراكية الديموقراطية ان تحمل الوعي الاشتراكي الى الطبقة العاملة ، بل عليها ان تنتظر حتى تؤدي حركة الطبقة العاملة العفوية نفسها بقواها الخاصة ، الى تكوين الوعي الاشتراكي .

اما مشروع لينين التنظيمي المتعلق ببناء الحزب ، فكانوا يعتبرونه نوعاً من التهجم على الحركة العفوية ، وقد حمل لينين في صفحات **الايسكرا** وخصوصاً في مؤلفه المشهور **ما العمل ؟** على هذه الفلسفة الانتهازية التي يدعو اليها « الاقتصاديون » ولم يترك فيها حجراً على حجر :

١ — بيّن لينين ان صرف الطبقة العاملة عن النضال السياسي ضد القيصرية ، وحصر مهماتها في النضال الاقتصادي ضد اصحاب العمل والحكومة ، مع ترك اصحاب العمل والحكومة في امان وسلام ، معناها الحكم على الطبقة العاملة بالعبودية الابدية . فان نضال العمال الاقتصادي ضد اصحاب العمل والحكومة هو نضال نقابي في سبيل الحصول على شروط احسن عند بيع قوة العمل من الرأسماليين ، الا ان العمال يريدون النضال لا في سبيل الحصول على شروط احسن عند بيع قوة عملهم فحسب ، بل يريدون النضال ايضاً لمحو النظام الرأسمالي نفسه ، الذي يجبرهم على بيع قوة عملهم من الرأسماليين ويضطرهم الى معاناة الاستثمار . ولا يستطيع العمال توسيع النضال ضد الرأسمالية وفي سبيل الاشتراكية ، ما دامت القيصرية ، كلب الرأسمالية وحارسها ، قائمة في طريق حركة العمال . ولذا ، فالهدف المباشر الموضوع امام الحزب والطبقة العاملة هو تكنيس القيصرية من الطريق ، وبذلك يشقان الطريق نحو الاشتراكية .

٢ — بيّن لينين ان الاشادة بالسير العفوي لحركة العمال وانكار الدور القيادي للحزب ، وجعل دوره مقتصراً على تسجيل الحوادث ، معناها الدعوة الى « التبعية » ، معناها الدعوة لتحويل الحزب الى ذيل للسير العفوي وجعله قوة منفعلة (١) في الحركة ، غير قادرة الا على التأمل في السير العفوي ، معناها

(١) منفعلة : اي جامدة غير فاعلة او متأثرة غير مؤثرة . (هيئة التعريب)

الاستسلام الى العفوية . فالقيام بمثل هذه الدعاية ، هو بمثابة توجيه الامور نحو تحطيم الحزب، اي نحو ترك الطبقة العاملة بدون حزب ، اي نحو ترك الطبقة العاملة عزلاء بدون سلاح . بيد ان ترك الطبقة العاملة عزلاء بدون سلاح ، بينما ينتصب امامها اعداء كالقيصرية المسلحة بكل وسائل النضال، والبورجوازية المنظمة بشكل عصري حديث والتي لها حزب خاص بها يقود نضالها ضد الطبقة العاملة — ان ترك الطبقة العاملة عزلاء بدون سلاح امام هؤلاء الاعداء هو خيانة للطبقة العاملة .

٣ — بيّن لينين ان الانحناء امام حركة العمال العفوية ، والحط من دور العنصر الواعي، والانتقاص من دور الوعي الاشتراكي والنظرية الاشتراكية، معناه ، قبل كل شيء ، الاستهزاء بالعمال الذين يطمحون الى الوعي والادراك كما يطمح المرء الى النور . ومن جهة ثانية ، فان ازدراء النظرية وتحقيرها في عين الحزب هو ازدراء وتحقير للسلاح الذي يسمح بمعرفة الحاضر والتنبؤ بالمستقبل ، ومعنى ذلك ، من جهة ثالثة ، الوقوع بصورة تامة نهائية في مستنقع الانتهازية .

كان لينين يقول :

« لا حركة ثورية ، بدون نظرية ثورية ... ولا يستطيع القيام بدور مناضل الطليعة، الا حزب ترشده نظرية الطليعة» (لينين — ما العمل ؟ المؤلفات المختارة المجلد الاول صفحة ١٩٢ — ١٩٣)

٤ — بيّن لينين ان « الاقتصاديين » يخدعون الطبقة العاملة عندما يزعمون ان العقلية الاشتراكية يمكن ان تولد من حركة الطبقة العاملة العفوية . ففي الواقع لا تولد العقلية الاشتراكية من الحركة العفوية ابداً ، بل تولد من العلم . فعندما ينكر « الاقتصاديون » ضرورة ادخال الادراك الاشتراكي الى الطبقة العاملة ، فهم انما يشقون الطريق امام العقلية البورجوازية، ويسهلون تسربها الى الطبقة العاملة وتغلغلها فيها ، اي انهم يشدون فكرة اندماج حركة

العمال والاشتراكية احداهما في الاخرى ، وبذلك يقدمون اكبر خدمة الى البورجوازية.

وكان لينين يقول :

« ان كل تقديس لعفوية حركة العمال ، وكل انتقاص من دور « العنصر الواعي » اي دور الاشتراكية الديموقراطية ، يعني — **سواء ارادوا ام لم يريدوا ، فليس لذلك اقل اهمية — تقوية نفوذ العقلية البورجوازية على العمال**» (المرجع نفسه — صفحة ٢٠٤) .

ويقول فيما بعد :

« ان المسألة موضوعة **على الشكل التالي وحده** : اما عقلية بورجوازية واما عقلية اشتراكية وليس وسط بينهما ...ولذلك، **فكل انتقاص** من العقلية الاشتراكية ، **وكل ابتعاد** عنها ، هو في حد ذاته بمثابة تمكين العقلية البورجوازية وتوطيدها »(المرجع نفسه — ص ٢٠٦) .

٥ — عرض لينين كل هذه الاخطاء التي يرتكبها « الاقتصاديون » ، ثم استخلص من ذلك انهم لا يريدون حزباً للثورة الاجتماعية يعمل لتحرير الطبقة العاملة من الرأسمالية ، بل يريدون حزباً لـ« الاصلاحات الاجتماعية » ينطوي على صيانة سيطرة الرأسمالية ، اي ان « الاقتصاديين » هم اصلاحيون يخونون مصالح البروليتاريا الحيوية .

٦ — بيّن لينين اخيراً أن « الاقتصادية » ليست حادثاً طارئاً عارضاً في روسيا ، « فالاقتصاديون » هم اداة لنقل النفوذ البورجوازي الى الطبقة العاملة، ولهم حلفاء في الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية في اوروبا الغربية هم « المحرّفون » انصار الانتهازي « برنشتاين » (١). فقد كان في الاشتراكية

(١) برنشتاين : كان ادوار برنشتاين (المولود عام ١٨٥٠)، احد زعماء الاشتراكية الديموقراطية الالمانية ، وقد حرر صحيفة حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الالماني ، وعرض فيها نظريته الانتهازية عن تحريف الماركسية ونفي ضرورة الثورة الاشتراكية ، والقول بتلطيف حدة النزاع الطبقي ، وبأن الاشتراكية يمكن الوصول اليها بسير سلمي تدريجي . (هيئة التعريب)

الديموقراطية الغربية تيار انتهازي يتضح يوماً بعد يوم ، ويسير تحت لواء « حرية الانتقاد » اي حرية انتقاد ماركس ، ويطلب « اعادة النظر » في تعاليم ماركس ، اي « تحريفها »(ومن هنا اشتقت كلمة « المذهب التحريفي »)، كما انه كان يطلب التخلي عن الثورة وعن الاشتراكية وعن ديكتاتورية البروليتاريا . وقد بيّن لينين ان « الاقتصاديين » الروس يتبعون هذه الخطة نفسها ، خطة التخلي عن النضال الثوري، وعن الاشتراكية ، وعن ديكتاتورية البروليتاريا .

هذه هي المبادىء النظرية الاساسية التي شرحها لينين في مؤلفه **ما العمل ؟**

وكان من نتائج نشر هذا الكتاب : **ما العمل ؟** ، انه بعد سنة من ظهوره (وقد طبع في آذار ١٩٠٢)، اي قبيل انعقاد المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ، لم يبق من المواقف والاسس الفكرية الاقتصادية سوى ذكرى مزعجة ، واصبحت صفة « اقتصادي » منذ ذلك الحين ، شتيمة في نظر الاكثرية العظمى من مناضلي الحزب .

وكان ذلك اندحاراً فكرياً تاماً « للاقتصادية » ، اندحاراً للعقلية الانتهازية ، عقلية التبعية والعفوية .

بيد ان اهمية كتاب لينين **ما العمل ؟** لا تقتصر على ذلك فحسب .

ان اهمية **ما العمل ؟** التاريخية ناشئة عن ان لينين، في هذا المؤلف الشهير :

١ ــ كشف لاول مرة في تاريخ الفكر الماركسي ، الاصول الفكرية للانتهازية وعرّاها حتى اعمق جذوزها ، مبيناً انها ترجع قبل كل شيء الى الانحناء امام عفوية حركة العمال والانتقاص من اهمية الوعي الاشتراكي في هذه الحركة .

٢ ــ رفع الى درجة عالية جداً اهمية النظرية والعنصر الواعي ، واهمية الحزب من حيث هو قوة تقود حركة العمال العفوية وتُشربها بالروح الثورية .

٣ ــ برهن بشكل رائع صحة المبدأ الماركسي القائل بأن الحزب الماركسي هو الاندماج بين حركة العمال والاشتراكية .

٤ ــ حلّل الاسس الفكرية للحزب الماركسي تحليلاً عبقريا رائعاً .

ان المبادىء النظرية المشروحة في **ما العمل** ؟ هي التي كونت ، فيما بعد ، الاساس الفكري لحزب البلشفيك .

اصبح في استطاعة **الايسكرا** ، وقد اغتنت بهذه الثروة النظرية ، ان تقوم — وقد قامت فعلاً — بحملة واسعة في سبيل مشروع لينين لبناء الحزب ، وفي سبيل جمع قوى الحزب ، وعقد مؤتمره الثاني ، وفي سبيل اشتراكية ديموقراطية ثورية ، ضد « الاقتصاديين » ، وضد « الانتهازيين » من كل صنف ولون ، وضد المحرفين .

وكانت مهمة **الايسكرا** الاساسية وضع مشروع برنامج الحزب . ومن المعلوم ان برنامج حزب العمال هو عرض موجز علمي للاهداف والمهمات التي يستهدفها نضال الطبقة العاملة . ويعين البرنامج الهدف النهائي لحركة البروليتاريا الثورية ، كما انه يعين المطالب التي يكافح من اجلها الحزب اثناء سيره نحو هذا الهدف ، ولهذا كان وضع مشروع البرنامج ، مسألة ذات اهمية من الدرجة الاولى .

وقد برزت ، اثناء وضع مشروع البرنامج ، خلافات جدية داخل هيئة تحرير **الايسكرا** ، بين لينين وبليخانوف وبقية اعضاء هيئة التحرير ، وقد اوشكت هذه المناقشات والخلافات ان تؤدي الى القطيعة التامة بين لينين وبليخانوف . بيد ان هذه القطيعة لم تقع في هذا الوقت بالذات ، فقد حصل لينين على ان توضع في مشروع البرنامج مادة اساسية عن ديكتاتورية البروليتاريا ، وان يشار بوضوح تام الى دور القيادة الذي تضطلع به الطبقة العاملة في الثورة .

والقسم الزراعي في هذا البرنامج ، هو ايضاً باسره من وضع لينين . ومنذ ذلك العهد ، كان لينين من القائلين بتأميم الارض [1] ، غير انه كان يعتقد في

(١) تأميم الارض او جعلها ملكاً للامة : ان الثورة الاشتراكية في روسيا اممت الارض اي جعلتها ملكاً للامة . ومعنى ذلك انها ، في البداية ، وزعت الاراضي على الفلاحين ، وصار للفلاح حق التصرف الى الابد بقطعة ارضه ، ولا يستطيع احد ان ينتزع منه هذا الحق باية وسيلة من الوسائل ، حتى ولا بطريقة البيع والشراء . ولما اخذ الفلاحون ، بملء اختيارهم ، يضمون اراضيهم بعضها الى بعض لتأليف مزارع تعاونية ، انتقل حق التصرف بالارض الى الابد ، الى مجموع اعضاء المزرعة التعاونية .

(هيئة التعريب)

تلك المرحلة الاولى من النضال ، ان من الواجب وضع مطلب يقضي باعادة « الاوتريزكي » الى الفلاحين ، و« الاوتريزكي » هي المساحات التي اقتطعها كبار الملاكين من اراضي الفلاحين اثناء « التحرر » . اما بليخانوف فكان يعارض في تأميم الارض .

ان مناقشات لينين وبليخانوف حول برنامج الحزب ، قد حددت ، بصورة جزئية ، الخلافات التي نشبت فيما بعد بين البلشفيك والمنشفيك .

•

٣ ــ المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ــ اقرار البرنامج والنظام الداخلي ــ تأليف حزب موحد ــ الخلافات في المؤتمر وظهور تيارين في الحزب : البلشفيك والمنشفيك

ان انتصار المبادىء اللينينية ونضال **الايسكرا** الظافر في سبيل مشروع لينين عن التنظيم ، هيأ الشروط الرئيسية اللازمة لتأليف الحزب ، او بالاحرى لتأليف حزب حقيقي كما كان يقال في ذلك العهد . وكان اتجاه **الايسكرا** قد انتصر في المنظمات الاشتراكية الديموقراطية في روسيا . وهكذا اصبح من الممكن عقد المؤتمر الثاني للحزب .

افتتح المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ، في ١٧ (٣٠) تموز ١٩٠٣ وقد انعقد المؤتمر سراً في الخارج ، وبدأ جلساته في بروكسل ، ولكن الشرطة البلجيكية دعت المندوبين الى مغادرة بلجيكا ، فانتقل المؤتمر الى لندن .

وقد حضر المؤتمر ٤٣ مندوباً يمثلون ٢٦ منظمة . وكان يحق لكل لجنة ان ترسل للمؤتمر مندوبين اثنين ، الا ان بعض اللجان لم ترسل سوى مندوب واحد . فكان في المؤتمر اذن ٤٣ مندوباً لهم ٥١ صوتاً فعلياً .

وكانت مهمة المؤتمر الاساسية ، كما قال لينين : « تأليف حزب **حقيقي** على اساس مبادىء واسس التنظيم التي وضعتها وصاغتها **الايسكرا** » . (لينين : المرجع نفسه ، ص ٣٢٨)

كان المؤتمر غير متجانس في تركيبه ، ولم يكن الاقتصاديون المفضوحون ممثلين فيه بسبب الهزيمة التي منيوا بها . الا انهم تنكروا خلال هذه المرحلة في زي جديد ، وقد غيروا لباسهم بحذق كبير ، حتى انهم نجحوا في ادخال بعض مندوبيهم الى المؤتمر . هذا ، ومن جهة اخرى ، كان مندوبو «البوند» (١) لا يختلفون عن « الاقتصاديين » الا بالكلام ، اما في الحقيقة فكانوا من انصارهم.

---

(١) البوند : اسم مختصر للاتحاد اليهودي الاشتراكي الديموقراطي العام في روسيا القيصرية . وقد تألف عام ١٨٩٧ . وهو حزب انتهازي ، قائم على التعصب القومي وكان يقوم بدور عميل للبورجوازية في حركة العمال . وخلال نضاله ضد البلاشفة ثم ضد السلطة السوفياتية ، تحول البوند الى منظمة ميزتها الرئيسية العداء الشديد للثورة . وكان البوند عدواً لدوداً للماركسية اللينينية ، مرتبطاً فكرياً بالمنشفيك . وقد عمل دائماً ، منذ نشوئه ، على تقسيم حركة العمال وعلى فصل العمال اليهود عن سائر عمال روسيا ساعياً لأقناع العمال اليهود بان مصالحهم تعارض مصالح العمال من القوميات الاخرى . وخلال ثورة ١٩٠٥ ، اعتنق البوند مواقف المنشفيك وقاوم ثورة الشعب المسلحة ضد القيصرية ، وعارض في تحالف العمال والفلاحين . وبعد ثورة ١٩٠٥ ، انضم البوند الى خصوم لينين والى العاملين على تصفية حزب البلشفيك . واثناء الحرب العالمية الاولى ، أيد البوند الحرب الاستعمارية . وبعد ثورة شباط ١٩١٧ ، أيد الحكومة البورجوازية المؤقتة ، وقام بنضال شديد ضد البلاشفة وضد الثورة الاشتراكية التي كانت تنضج في البلاد . وبعد انتصار ثورة اوكتوبر الاشتراكية التي انقذت جميع العمال ، على اختلاف قومياتهم ، وكل الشعب ، من الاستثمار الرأسمالي والاضطهاد القومي ، فقد البوند نفوذه على العمال اليهود . وتكون في داخله جناح يساري مما ادى الى انقسامه . وفي عام ١٩٢١ قرر مؤتمر البوند حل نفسه . ثم انضم قسم من اعضائه الى حزب البلشفيك. وفيما بعد تبين ان بعض هؤلاء البونديين القدماء دخلوا حزب البلشفيك لتخريبه من الداخل ولكنهم فضحوا كأعداء مستكلبين للشعب وللدولة السوفياتية . اما البونديون اليمينيون فهاجر قسم منهم الى الخارج حيث اشتركوا بنشاط في حملات الكذب والافتراء على الاتحاد السوفياتي، وتضامنوا مع جميع اعداء الاتحاد السوفياتي بما فيهم الفاشست انفسهم . ويؤيد البونديون سياسة الاستعمار الاميركي الانكليزي كما يقومون بالدعوة للافكار الكوسموبوليتية ونشرها . (هيئة التعريب)

وهكذا كان المؤتمر لا يضم انصار **الايسكرا** فحسب ، بل خصومها ايضاً . وكان عدد انصار **الايسكرا** ٣٣ ، اي الاكثرية . غير ان الذين كانوا يدعون انهم من انصار **الايسكرا** لم يكونوا جميعهم ايسكريين لينينيين حقيقيين . وقد انقسم المندوبون الى فرق عديدة وكان لانصار لينين ، اي الايسكريين الثابتين، ٢٤ صوتاً. وكان ٩ من الايسكريين يتبعون مارتوف، وهم الايسكريون غير الثابتين . وكان هناك قسم من المندوبين يتأرجح بين **الايسكرا** وخصومها وله ١٠ اصوات في المؤتمر ، وكان يؤلف الوسط . اما خصوم **الايسكرا** العلنيون فكان لهم ٨ اصوات (٣«اقتصاديين»و٥بونديين). فلو انقسم الايسكريون على انفسهم اذن لاستطاع اعداء **الايسكرا** ان يتغلبوا عليهم .

من هنا نرى كم كانت الوضعية معقدة في المؤتمر . وقد توجب على لينين ان يبذل جهداً عظيماً لتأمين انتصار **الايسكرا** في المؤتمر .

وكانت اكبر قضية امام المؤتمر هي قضية الموافقة على برنامج الحزب . وكانت مسألة ديكتاتورية البروليتاريا هي المسألة الاساسية التي اثارت اعتراضات القسم الانتهازي في المؤتمر عند مناقشة البرنامج . وكان الانتهازيون غير متفقين مع القسم الثوري حول عدة مسائل اخرى ايضاً في البرنامج . غير انهم قرروا اشهار المعركة الرئيسية حول قضية ديكتاتورية البروليتاريا ، فقالوا بأن كثيراً من الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية في الخارج لم تضع في برامجها مادة خاصة بديكتاتورية البروليتاريا ، فمن الممكن اذن ان لا يوضع مثل هذه المادة في برنامج الاشتراكية الديموقراطية في روسيا .

وقد عارض الانتهازيون كذلك وضع مطالب تتعلق بقضية الفلاحين في البرنامج، ذلك لأن هؤلاء الناس ما كانوا يريدون الثورة، ولهذا كانوا يبعدون عن الطبقة العاملة حليفتها ، اي جماهير الفلاحين التي لا يكنون لها سوى الكره والضغينة .

وكان مندوبو البوند والاشتراكيون الديموقراطيون البولونيون يعارضون حق الامم في التصرف بنفسها . غير ان لينين كان يبين دائماً ان على الطبقة

العاملة واجب النضال ضد الاضطهاد القومي ، فمعارضة وضع هـذا المطلب في البرنامج تعني التخلي عن الاممية البروليتارية ، والمعاونة على الاضطهاد القومي .

وقد وجه لينين ضربات حاسمة الى كل هـذه الاعتراضات وأقر المؤتمر البرنامج الذي قدمته **الايسكرا** .

كان هذا البرنامج مؤلفاً من قسمين : برنامج الحد الاقصى ، وبرنامج الحد الادنى. اما برنامج الحد الاقصى فيقرر ان المهمة الاساسية لحزب الطبقة العاملة هي الثورة الاشتراكية ، وقلب سلطة الرأسماليين ، واقامـة ديكتاتورية البروليتاريا . اما برنامج الحـد الادنى فيعين مهمات الحزب المباشرة ، اي المهمات التي يجب اتمامهـا قبل قلب النظام الرأسمالي وقبل اقامة ديكتاتورية البروليتاريا، وهي قلب الاوتوقراطية القيصرية، واقامة الجمهورية الديموقراطية، وجعل ساعات العمل للعمال ثماني في اليوم ، ومحو كل آثار القنانة في الارياف ، وان تعاد الى الفلاحين قطعات الاراضي « الاوتريزكي » التي سلبها منهم كبار الملاكين .

وقد ابدل البلاشفة فيما بعد مطلب اعادة « الاوتريزكي » بطلب مصادرة جميع اراضي النبلاء .

ان البرنامج الذي اقره المؤتمر الثاني كان في الحقيقة هو البرنامج الثوري لحزب الطبقة العاملة . وقد بقي هـذا البرنامج حتى المؤتمر الثامن ، حيث اقر حزبنا برنامجاً جديداً ، بعد ان انتصرت الثورة البروليتارية .

باشر المؤتمر الثاني بعد اقرار البرنامج مناقشة النظام الداخلي للحزب . فبعد ان اقر المؤتمر البرنامج ، وخلق الاسس الضرورية اللازمة لجمع الحزب فكرياً ، كان عليه ان يقر ايضاً نظام الحزب الداخلي لـكي يضع حداً للشكل الحرفي في العمل ، ولاسلوب الحلقات والتبعثر التنظيمي وفقدان نظام حزبي حازم في قلب الحزب .

وفي حين ان اقرار البرنامج تم نسبياً بدون عائق ، فان مسألة نظام الحزب الداخـلي ، اثارت مناقشات شديدة في المؤتمر . وبرزت اشد الخلافات حول صيغة المادة الاولى من النظام المخصصة لمسألة الانتماء الى الحزب . فمن هو الذي

يمكن ان يكون عضواً في الحزب ؟ وكيف يجب ان يكون تركيب الحزب، وكيف تكون ماهية الحزب من الوجهة التنظيمية ، هل يكون كلاً منظماً او شيئاً عديم الشكل ؟ تلك هي القضايا التي اثارتها المادة الاولى من النظام الداخلي . وقد تجابهت صيغتان : صيغة لينين وكان يؤيدها بليخانوف والايسكريون الحازمون ، وصيغة مارتوف وكان يؤيدها اكسيلرود ونلسوليتش والايسكريون غير الثابتين وتروتسكي وكل العناصر الانتهازية المكشوفة في المؤتمر .

كانت صيغة لينين تقول : يمكن ان يكون اعضاء في الحزب ، جميع الذين يعترفون ببرنامجه ، ويدعمون الحزب مادياً ، وينضمون الى احدى منظماته . اما صيغة مارتوف ، فكانت تعتبر ان الاعتراف بالبرنامج ودعم الحزب مادياً هما شرطان ضروريان للانتماء الى الحزب ، غير انها لم تكن تعتبر الاشتراك في احدى منظماته شرطاً من شروط الانتماء ، بل كانت تعتبر ان عضو الحزب يمكن ان لا يكون عضواً في احدى منظماته .

كان لينين ينظر الى الحزب من حيث انه فصيلة **منظمة** فلا يستطيع المنتمون اليه ان ينسبوا صفة العضوية الى انفسهم بأنفسهم ، بل يجري قبولهم في الحزب بواسطة احدى منظماته وبالتالي يخضعون لنظام الحزب . اما مارتوف فكان ينظر الى الحزب كشيء **عديم الشكل** من الوجهة التنظيمية ، فيستطيع المنتمون اليه ان ينسبوا صفة العضوية الى انفسهم بأنفسهم، فهم اذن غير مجبرين على الخضوع لنظام الحزب ما داموا لا ينتمون الى احدى منظماته .

على هذه الصورة ، كانت صيغة مارتوف، خلافاً لصيغة لينين ، تفتح ابواب الحزب على مصاريعها للعناصر المتقلقلة غير البروليتارية . لقد كانت البلاد على اعتاب الثورة الديموقراطية البورجوازية ، وكان بين المثقفين البورجوازيين اناس يظهرون مؤقتاً عطفاً على الثورة ، بل يقدمون ايضاً، من حين الى آخر، بعض الخدمات للحزب، غير ان هؤلاء الناس ما كانوا لينضموا لاحدى المنظمات، اويطيعوا نظام الحزب ، او ينفذوا المهمات التي يكلفهم بها ، او يتعرضوا

للاخطار التي يقتضيها تنفيذ هذه المهمات . وكان مارتوف والمنشفيك الآخرون يقترحون اعتبار مثل هؤلاء الناس اعضاء في الحزب واعطاءهم حق التأثير وامكان التأثير في شؤون الحزب ، بل كان في نيتهم ايضاً منح كل مضرب حق اعطاء نفسه « صفة عضو في الحزب» رغم ان اناساً من غير الاشتراكيين ، ومن الفوضويين (١) والاشتراكيين الثوريين كانوا يشتركون في الاضرابات ايضاً.

اذن عوضاً عن الحزب المتجانس والمكافح والمجهز باشكال تنظيمية دقيقة ، والذي كان لينين واللينينيون يكافحون من اجله في المؤتمر ، كان انصار مارتوف يريدون حزباً مختلطاً، غامضة اطرافه وحدوده، حزباً عديم الشكل، اي حزباً لا يمكن ان يكون حزب نضال و كفاح ، وذلك لسببين على الاقل: لانه سيكون مختلطاً ، ولانه لن يكون فيه نظام حازم .

ان تخلي الايسكريين غير الثابتين عن الايسكريين الحازمين ، وتحالفهم مع الوسط ، وانضمام الانتهازيين المكشوفين الى هذا التحالف ، كل ذلك جعل الغلبة لمارتوف في هذه المسألة . فأقر المؤتمر المادة الاولى للنظام الداخلي كما

(١) الفوضويون : الفوضوية هي مذهب اجتماعي سياسي قديم في حركة العمال ، وكان قوياً في القرن التاسع عشر لما كانت الطبقة العاملة متأخرة وفي اوائل تطورها ، ومن زعمائها المعروفين في ذلك العهد « برودون » و « باكونين». وقد ضعفت الفوضوية مع نمو الطبقة العاملة وازدياد وعيها ونضجها الفكري والسياسي ، ولكن لا يزال للفوضوية شيء من الوزن في بعض الاقطار المتأخرة صناعياً كاسبانيا مثلاً . والفوضوية قائمة في الاساس على انكار كل سلطة، وكل نظام ، والتبشير بالفوضى، وسيادة الفرد ، والدعوة الى الغاء الدولة ومحوها بوجه عام، فهي تقول بان واجب العمال ان يهدموا الدولة الرأسمالية دون ان يقيموا دولة لهم مكانها. والشيوعية هي ضد الفوضوية على خط مستقيم في كل الامور ، وخصوصاً في مسألة الدولة . فان الشيوعية تعتقد ان من واجب العمال ، بعد القضاء على النظام الرأسمالي والدولة الرأسمالية ، ان يبنوا دولتهم الشعبية لانها ضرورية لهم في مرحلة الانتقال كأداة لقمع مقاومة الطبقات الرجعية المغلوبة . وتعتقد الشيوعية ان الدولة بوجه عام لن تتلاشى الا شيئاً فشيئاً مع تطور النظام الاشتراكي في مراحله العليا. هذا، ويتميز الفوضويون باستعمال العبارات الثورية الفارغة ، مع ان سلوكهم العملي لا يخدم الا اعداء العمال واعداء الثورة الاشتراكية : فهم لانكارهم كل نظام وكل سلطة ينكرون النضال السياسي ، وينفون ضرورة تأليف حزب سياسي للعمال ، ولا يقرون التنظيم المركزي .. الخ .. وقد قام زعماء الماركسية: ماركس وانجلس ولينين وستالين ، بنضال شديد ضد الفوضوية وآرائها.
(هيئة التعريب)

صاغها مارتوف ، باكثرية ٢٨ صوتاً ضد ٢٢ صوتاً واستنكاف واحد .

بعد انقسام الايسكريين حول المادة الاولى للنظام الداخلي، اشتد النضال واحتدم . وكانت اعمال المؤتمر قد اشرفت على النهاية ، ولم يبق سوى انتخاب هيئات القيادة للحزب ، اي هيئة تحرير جريدة الحزب المركزية ، **الايسكرا**، واللجنة المركزية . ولكن قبـل ان ينتقل المؤتمر الى الانتخابات ، وقعت حوادث عدلت النسبة بين القوى المتجابهة .

فخلال النظر في النظام الداخلي جرى البحث في المؤتمر حول « البوند ». وكانت هذه المنظمة تطلب ان تكون لها وضعية خاصة في الحزب ، وتريد ان يُعترف بها بوصفها الممثلة الوحيدة للعمال اليهود في روسيا . وكان قبول هذا المطلب من « البوند » يؤدي الى تقسيم العمال في منظمات الحزب علـى اساس قومي ، والى التخلي عن منظمات العمال الطبقية الموحدة المؤلفة علـى اساس المنطقة ، فرفض المؤتمر تعصب البوند القومي في مسائل التنظيم، وعلى اثر ذلك، بارح البونديون المؤتمر ، كما انسحب ايضاً اثنان من « الاقتصاديين » لرفض المؤتمر الاعتراف باتحادهم في الخارج كممثل للحزب هناك .

وقد ادى ذهاب هؤلاء الانتهازيين السبعة الى تعديل النسبة بـين القوى في صالح اللينينيين .

وكان انتباه لينين متمركزاً منذ البداية ، على مسألة تركيب الهيئـات المركزية للحزب ، وكان يعتبر ان من الواجب ان ينتخب في اللجنة المركزية ثوريون يتصفون بالحزم والصلابة .

اما انصار مارتوف فكانوا يريدون ان يكون التفوق في اللجنة المركزية للعناصر المتقلقلة الانتهازية . الا ان اكثرية المؤتمر تبعت لينين حول هـذه النقطة ، وانتخب انصار لينين اعضاء في اللجنة المركزية .

ووفقاً لاقـتراح لينين ، انتخب لتحرير **الايسكرا** لينين وبليخانوف ومارتوف . وقد ألح هذا الاخير على المؤتمر بأن يدخل محررو الجريدة الستة السابقون ، واكثرهم من انصاره ، في هيئة تحرير **الايسكرا** . فرفض المؤتمر بالاكثرية هذا الاقتراح ، وانتخب المرشحين الثلاثة الذين اقترحهم لينين ، فأعلن مارتوف اذ ذاك بأنه لن يشترك في هيئة تحرير الجريدة المركزية .

وهكذا كرس المؤتمر ، في تصويته لانتخاب هيئات الحزب المركزية ، اندحار انصار مارتوف وانتصار انصاز لينين ، ومنذ ذلك الحين ، سمّي انصار لينين ، الذين حصلوا علـى الاكثرية في انتخابات المـؤتمر ، « البلشفيك » او البلاشفة (من كلمة « بولشينستفو » اي الاكثرية) وسمي الذين بقوا اقليـة « المنشفيك » (من كلمة « منشنستفو » اي الاقلية) .

واذا عمدنا الى وضع رصيد لاعمـال المؤتمر الثاني ، لا بد مـن ذكر النتائج التالية :

١ ـ لقد كرس المؤتمر انتصار الماركسية على « الاقتصادية » ، اي على الانتهازية المكشوفة السافرة .

٢ ـ اقر المؤتمر البرنامج والنظـام الداخـلي ، وخلق حزباً اشتراكياً ديموقراطياً ، واسس على هذه الصورة ملاك حزب موحد .

٣ ـ كشف المؤتمر عن خلافات خطيرة في ميدان التنظيم قسمت الحزب الى بلشفيك ومنشفيك : الاولون يدافعون عن مبادىء تنظيم الاشتراكية الديموقراطية الثورية ، بينما يتخبط الآخرون في هـوة التفسخ التنظيمي وفي مستنقع الانتهازية .

٤ ـ اظهر المؤتمر أن هنـاك انتهازيين من نوع جديد ، هم المنشفيك ، اخذوا يحلون شيئاً فشيئاً في الحزب ، محل الانتهازيين القدماء ، « الاقتصاديين » ، الذين هزمهم الحزب ودحرهم .

٥ ـ تبين ان المؤتمر لم يبلغ المستوى الرفيع الذي تتطلبه الحالة فيما يتعلق بمسائل التنظيم ، فقد تردد وجعل الغلبـة احياناً في جانب المنشفيك ، ورغم انه استيقظ في النهاية ، فهو لم يستطع ان يفضح انتهازية المنشفيك في مسائل التنظيم ، ولم يستطع عزلهم في الحزب ، بل انـه لم يستطع حتى وضع مهمة كهـذه امام الحزب .

وكان ذلك من اهم الاسباب التي ادت الى ان النضال بـين البلشفيك والمنشفيك بعد هذا المؤتمر لم يهدأ ، بل زاد احتداماً .

٤ ـ اعمال زعماء المنشفيك الانقسامية واحتدام النضال في داخل الحزب بعد المؤتمر الثاني ـ انتهازية المنشفيك ـ مؤلف لينين « خطوة الى الامام ، خطوتان الى الوراء » ـ مبادىء الحزب الماركسي في شؤون التنظيم .

اشتد النضال داخل الحزب بعد المؤتمر الثاني . وقد عمد المنشفيك الى جميع الوسائل لعرقلة قرارات المؤتمر والاستيلاء على مراكز الحزب ، وطلبوا ان يكون تمثيلهم في هيئة تحرير **الايسكرا** وفي اللجنة المركزية بنسبة تؤمن لهم الاكثرية في هيئة التحرير من جهة ، والتساوي مع البلشفيك في اللجنة المركزية من جهة ثانية . واذ كان هذا الطلب يخالف قرارات المؤتمر الثاني ، فقد رفض البلشفيك طلبات المنشفيك ، فألف هؤلاء حينئذ ، دون علم الحزب ، منظمتهم الانقسامية الخاصة المعادية للحزب ، وكان على رأسها مارتوف وتروتسكي واكسلرود، و« اعلنوا العصيان على اللينينية »حسب تعبير مارتوف . اما اسلوب النضال الذي انتهجوه لمكافحة الحزب فقد كان قائماً ، كما قال لينين ، على « تخريب كل عمل الحزب، وانزال الضرر به ، وعرقلة كل شيء في كل الميادين » . وقد لجأوا الى عصبة الاشتراكيين الديموقراطيين الروس في الخارج ، وكان تسعة اعشار اعضائها من المثقفين المهاجرين المنقطعين عن العمل في روسيا ، فجعلوها كميناً لهم صوبوا منه نارهم على الحزب وعلى لينين وعلى اللينينيين جميعاً .

وكان بليخانوف يساعد المنشفيك بقوة. وكان قد وقف في المؤتمر الثاني الى جانب لينين . الا ان المنشفيك استطاعوا بعد المؤتمر الثاني ، ان يؤثروا عليه وان يخيفوه عن طريق التهديد بوقوع انقسام في الحزب ، وهكذا قرر ان « يتصالح » معهم مهما كلف الامر . وكانت وطأة اخطاء بليخانوف الانتهازية

القديمة هي التي تميل به الى جانب المنشفيك . ولم يطل به الامر كمحبذ للمصالحة مع المنشفيك الانتهازيين فقد اصبح هو نفسه منشفيكياً ، وطلب بالحاح ان يدخل في هيئة تحرير **الايسكرا** جميع المحررين المنشفيك القدماء الذين رفضهم المؤتمر . ولم يكن في استطاعة لينين طبعاً قبول هذا الشرط فانسحب من تحرير **الايسكرا** لكي يقوي مواقفه في داخل لجنة الحزب المركزية ويوجه ضرباته الى الانتهازيين من هناك. اما بليخانوف فقد ضرب صفحاً عن ارادة المؤتمر ، وعمد من نفسه الى ضم المحررين المنشفيك القدماء الى هيئة تحرير **الايسكرا** . ومنذ ذلك الحين ، اي ابتداء من العدد الـ ٥٢ من **الايسكرا** ، جعل المنشفيك هذه الجريدة لسان حالهم واستخدموها للدعوة الى آرائهم و نظراتهم الانتهازية .

وعقيب ذلك صار يقال في الحزب **الايسكرا القديمة** اي **الايسكرا** اللينينية البلشفيكية ، **والايسكرا الجديدة** اي **الايسكرا** المنشفيكية الانتهازية .

وما ان اصبحت **الايسكرا** في ايدي المنشفيك ، حتى صارت جريدة نضال ضد لينين ، وضد البلشفيك ، وجريدة دعاية للانتهازية المنشفيكية خصوصاً في ميدان التنظيم . وتحالف المنشفيك مع « الاقتصاديين » والبونديين واشهروا في **الايسكرا** « الحرب على اللينينية » حسب تعبيرهم انفسهم . اما بليخانوف فلم يستطع البقاء طويلا على مواقفه بالدعوة الى المصالحة ، فبعد فترة قصيرة من الزمن انضم هو ايضاً الى هذه الحملة . وكان لا بد من وقوع ذلك تبعاً لمنطق الاشياء ذاتها . فان من يصر على ضرورة المصالحة مع الانتهازيين ، لا بد ان ينزلق نفسه الى الانتهازية . وكانت المقالات والتصريحات تترى من **الايسكرا الجديدة** كوابل من المطر ، وكلها تقول ان الحزب لا ينبغي ان يكون كلاً منظما، وان من الواجب القبول بوجود افراد وجماعات في داخل الحزب يبقون احراراً وغير مجبرين على الخضوع لقرارات هيئات الحزب ، وان يعطى كل مثقف يحبذ الحزب ، وكذلك كل « مضرب » وكل متظاهر ،

حق الإعلان عن نفسه بانه عضو في الحزب . اما المطالبة بالخضوع لكل قرارات الحزب فهي من مظاهر التقيد « بالشكليات البيروقراطية »، وكذلك خضوع الاقلية للاكثرية فما هو سوى احتقار ميكانيكي لارادة اعضاء الحزب ، اما مطالبة جميع الاعضاء، سواء أكانوا زعماء ام اعضاء بسطاء ، بالخضوع لنظام الحزب على قدم المساواة ، فمعناها اقامة نظام « القنانة » في الحزب ، « فلسنا» بحاجة في الحزب الى مبدأ المركزية ، بل « نحن » بحاجة الى مبدأ « الاستقلال الذاتي » الفوضوي الذي يمنح المنتمين للحزب ومنظماته الحق في عدم تنفيذ قراراته .

وهكذا كانت هذه الدعاية المحمومة تحبذ التراخي والتفكك في شؤون التنظيم ، وترمي الى هدم الفكرة الحزبية والنظام الحزبي ، وتمدح الميول الفردية لدى المثقفين وتشجعها ، وتسوغ فكرة الفوضى ونبذ كل نظام .

واذا اخذنا بعين الاعتبار اعمال المؤتمر الثاني،تبيّن لنا بوضوح ان المنشفيك كانوا بعملهم هذا، يسحبون الحزب الى الوراء ،اي نحو التفتت العضوي ، ونحو فكرة الحلقة الصغيرة ، ونحو الاساليب الحرفية في العمل .

فكان اذن من الواجب الرد على المنشفيك رداً حاسماً ، وهو ما قام به لينين في كتابه الشهير : **خطوة الى الامام ، خطوتان الى الوراء** الذي صدر في ايار سنة ١٩٠٤ .

وفيما يلي الاسس التنظيمية الرئيسية التي شرحها لينين في هذا المؤلف ،وقد اصبحت فيما بعد اسس تنظيم حزب البلشفيك :

١ ــ الحزب الماركسي هو جزء لا يتجزأ من الطبقة العاملة ، هو فصيلة منها . ولكن الفصائل كثيرة في الطبقة العاملة . فما كل فصيلة من الطبقة العاملة تسمى اذن حزب الطبقة العاملة . فان الحزب يتميز عن فصائل الطبقة العاملة الاخرى ، بأنه ، اولا ، ليس فصيلة عادية ، بل هو فصيلة **الطليعة** ، الفصيلة **الواعية** ، الفصيلة **الماركسية** للطبقة العاملة ، هو الفصيلة المسلحة بمعرفة الحياة الاجتماعية ، ومعرفة قوانين التطور الاجتماعي ، ومعرفة قوانين نضال الطبقات ،

فهو ، لهذا السبب ، الفصيلة القادرة على ارشاد الطبقة العاملة وقيادة نضالها .
فكما انه ينبغي عدم المزج بين الجزء والكل ، فكذلك ينبغي عدم المزج بين الحزب والطبقة العاملة ، فلا يمكن ان نطالب بان يكون في امكان كل مضرب ان يعلن عن نفسه انه عضو في الحزب ، لان من يخلط الحزب بالطبقة ، ينزل بمستوى ادراك الحزب الى مستوى « كل مضرب » ، ويهدم الحزب من حيث هو الطليعة الواعية للطبقة العاملة . فليست مهمة الحزب ان ينزل بمستواه الى مستوى « كل مضرب » ، بل ان يرفع جماهير العمال ، وان يرفع « كل مضرب » الى مستوى الحزب .

وقد كتب لينين في ذلك ما يلي :

« نحن حزب الطبقة ، ولذلك فالطبقة كلها على وجه التقريب ، (اما في وقت الحرب ، اي في عهد الحرب الاهلية ، فالطبقة كلها على وجه الاطلاق) يجب ان تعمل تحت قيادة حزبنا وان تتراص حوله اكثر ما يمكن . اما ان تصبح الطبقة كلها تقريباً او الطبقة باسرها يوماً ما ، وفي عهد الرأسمالية ، في حالة تستطيع معها ان ترتفع حتى تحصل على درجة من الوعي والنشاط مثل طليعتها ، اي مثل حزبها الاشتراكي الديموقراطي ، فان التفكير في امكان ذلك هو ضرب من المانيلوفية (١) وشكل من « التبعية » . وان المنظمة النقابية نفسها (وهي منظمة ابتدائية اكثر من الحزب واقرب متناولا الى ادراك الجماعات غير المتقدمة) لا تستطيع في عهد الرأسمالية ان تشمل الطبقة العاملة كلها تقريباً ، او الطبقة العاملة باسرها تماماً . وليس هناك اشتراكي ديموقراطي واحد سليم التفكير داخله الشك يوماً في ذلك . فنحن انما نخدع انفسنا ونغمض اعيننا عن عظمة مهماتنا وواجباتنا ، بل اننا

---

(١) مانيلوفية : غباوة ، احلام الفارغين من الاعمال . ومانيلوف هو احد اشخاص قصة غوغول : « الارواح الميتة » . (ملاحظة من هيئة التحرير)

نضيق نطاق هذه المهمات والواجبات ، اذا نحن نسينا الفرق بين فصيلة الطليعة وبين كل الجماهير التي تلتف حولها ، واذا نسينا ان على فصيلة الطليعة واجباً دائماً هو رفع جماعات اوسع فأوسع الى هذا المستوى المتقدم الراقي » (لينين-المرجع ذاته - ص ٣٥٤ - ٣٥٥) .

٢ - ليس الحزب طليعة الطبقة العاملة وفصيلتها الواعية فحسب ، بل هو ايضاً الفصيلة المنظمة للطبقة العاملة ، وله نظامه الخاص الاجباري لكل اعضائه ، ولذلك يجب على جميع اعضاء الحزب ان ينتموا بصورة اجبارية الى احدى منظماته ، فلو لم يكن الحزب فصيلة منظمة من الطبقة ، ولا مجموعة تنظيمية ، بل كان فقط كمية افراد يسمون انفسهم باعضاء في الحزب دون ان ينضموا الى احدى منظماته ، اي افراد غير منظمين وبالتالي غير مجبرين على الخضوع لقرارات الحزب - لو كان الحزب كذلك ، لما كانت له يوماً ارادة موحدة ولما استطاع ابداً تحقيق وحدة العمل بين اعضائه ، وبالتالي كان من المستحيل عليه ان يقود نضال الطبقة العاملة . فليس في استطاعة الحزب ان يقود الطبقة العاملة قيادة عملية ، وان يوجهها نحو هدف واحد ، الا اذا كان جميع اعضائه منتظمين في فصيلة مشتركة واحدة ، تجمع اجزاءها كالحديد وحدة الارادة ، ووحدة العمل ووحدة النظام .

اما اعتراض المنشفيك القائل بانه يبقى، في مثل هذه الحال، كثير من المثقفين، كالاساتذة مثلا والطلاب وتلاميذ المدارس الثانوية .. الخ ، خارج الحزب ، لانهم لا يريدون الانضمام الى هذه او هذه من منظماته ، وذلك اما لان نظام الحزب ثقيل عليهم ، واما لانهم كما قال بليخانوف في المؤتمر الثاني ، يعتبرون « الانضمام الى هذه المنظمة المحلية او تلك تحقيراً لهم » ، اما اعتراض المنشفيك هذا فينقلب عليهم، فما حاجة الحزب الى اعضاء يضايقهم نظامه ويخشون الانضمام الى احدى منظماته ؟؟ ان العمال لا يخشون النظام ولا التنظيم ، وهم ينضمون بطيبة خاطر الى المنظمات منذ اللحظة التي يقررون فيها ان يصبحوا اعضاء في

الحزب . فلا يخشى النظام والتنظيم الا المثقفون ذوو الروح الفردية ، **ولهذا** يبقون فعلا خارج الحزب . وليس في ذلك الا كل الخير ، **فبذلك يتخلص** الحزب من اقبال العناصر غير الثابتة عليه، **هذا الاقبال الذي ازداد اليوم بوجه** خاص نظراً لان الثورة الديموقراطية البورجوازية بدأت في الصعود .

وقد كتب لينين حول ذلك :

« اذا كنت اقول ان الحزب يجب ان يكون **مجموع** منظمات (ولا أعني مجموعاً حسابياً بسيطاً ، بل كلاً متشابكاً)، فانما افصح بذلك افصاحاً مطلق الوضوح والدقة عن الحاحي وعن رغبتي في ان يكون الحزب ، من حيث هو طليعة الطبقة ، شيئاً **منظماً** اكثر ما يمكن ، وان لا يستقبل في صفوفه الا **عناصر تقبل ولو حداً اصغر من التنظيم** »(المرجع ذاته ــ ص ٣٥٢).

وكتب فيما بعد :

« ان صيغة مارتوف تدافع ، ولكن **بالكلام** فحسب ، عن مصالح فئات البروليتاريا الواسعة اما **من حيث الواقع** فلن تخدم هذه الصيغة سوى مصالح **المثقفين البورجوازيين** الذين يخشون النظام والتنظيم البروليتاريين ولا يجرأ احد ان ينكر **ان الشيء الذي يميز المثقفين عموماً من حيث هم فئة خاصة** في المجتمعات الرأسمالية الحديثة، انما **هو الفردية** ، وعدم القابلية للنظام والتنظيم » (المرجع ذاته ـ الصفحة ٣٦٠) .

وكتب ايضاً :

« ان البروليتاريا لا تخشى التنظيم ولا النظام ، وليس موضع اهتمامها الاعتراف بالسادة الاساتذة والطلاب (الذين لا يرغبون في الانضمام الى احدى المنظمات) كأعضاء في الحزب لانهم يعملون تحت رقابة احدى المنظمات ... ليست البروليتاريا هي التي ينقصها التثقيف الذاتي من جهة التنظيم والنظام ، ان الذين

ينقصهم ذلك هم **بعض المثقفين** في حزبنـا » (المرجع ذاته ـ الصفحة ٣٩٠) .

٣ ــ ليس الحزب ، بين كل منظمات الطبقة العاملة الاخرى ، فصيلة منظمة فحسب ، بل هو ايضاً « **الشكل الاعلى للتنظيم** » المدعو **لقيادة جميع المنظمات** الاخرى. فالحزب من حيث هو شكلُ تنظيمٍ اعلى ، جامع في صفوفه نخبة الطبقة المسلحة بنظرية متقدمة وبمعرفة قوانين نضال الطبقات وتجارب الحركة الثورية، لديه كل الامكانيات لكي يقود ـ ومن واجبه ان يقود ـ جميع منظمات الطبقة العاملة الاخرى . فميل المنشفيك الى الانتقاص من دور الحزب القيادي والى طمسه ، يؤدي الى اضعاف جميع منظمات البروليتاريا الاخرى التي يقودها الحزب ، وبالتالي يؤدي الى اضعاف البروليتاريا ونزع سلاحها لانه :

« **ليس لدى البروليتاريا، في نضالها لاجل السلطة، سلاح سوى التنظيم** » (لينين ــ المرجع ذاته ــ الصفحة ٤١٤).

٤ ــ **في الحزب** تتجسد صلة طليعة الطبقة العاملة مع **الجماهير الغفيرة في هذه الطبقة** . فقد يكون الحزب احسن فصيلة متقدمة ، واتمها تنظيماً ، ولكنه لا يستطيع ان يحيا وان يتطور اذا لم تكن له صلات بجماهير غير الحزبيين ، واذا لم تتكاثر هذه الصلات ولم تتنوع ولم تتوطد . فان حزباً ينحني على نفسه وينعزل عن الجماهير ، ويفقد صلاته بطبقته ، او **يضعف هذه الصلات** ، لا بد ان يفقد ثقة الجماهير وتأييدها ، فهو بالتالي حزب هالك حتما . فلكي يحيا الحزب حياة تامة ملأى ، ولكي يتطور ، عليه ان يكثر صلاته مع الجماهير وان ينوعها ، وان يكتسب ثقة الجماهير الغفيرة في طبقته .

وكان لينين يقول :

« يجب ان نحصل على تأييد الطبقة لكي نكون **حزباً** اشتراكياً ديمقراطياً» . (لينين: المؤلفات الكاملة ـ المجلد السادس ـ ص ٢٠٨ ـ الطبعة الروسية) .

٥ ــ لكي يتمكن الحزب من القيام بعمله ويقود الجماهير بانتظام ينبغي

ان يكون منظماً طبقاً لمبادىء **المركزية** وان يكون لديه قانون داخلي واحد، ونظام واحد ، وهيئة قائدة واحدة يمثلها مؤتمر الحزب ، وتمثلها خلال المدة الفاصلة بين مؤتمرين ، اللجنة المركزية للحزب. ويجب ان تخضع الاقلية للاكثرية، وان تخضع المنظمات المختلفة للمركز ، والمنظمات السفلى للمنظمات العليا. بدون هذه الشروط ، لا يمكن ان يكون حزب الطبقة العاملة حزباً حقيقياً ولن يستطيع القيام بمهمته التي هي ارشاد الطبقة وقيادتها .

وبما ان الحزب كان غير مشروع في عهد الاوتوقراطية القيصرية ، فبطبيعة الحال لم يكن من الممكن ان تقوم منظمات الحزب في ذلك العهد على مبدأ الانتخاب من القاعدة ، اذ كان من الواجب ان يبقى الحزب سرياً تماماً . غير ان لينين كان يعتبر ان هذه الحالة هي مؤقتة في حياة حزبنا ، وسوف تنقضي فور القضاء على القيصرية ، عندما يصبح الحزب علنياً مشروعاً ، فتقوم منظماته عندئذ على مبدأ الانتخابات الديموقراطية وعلى مبدأ **المركزية الديموقراطية**.

وكان لينين يقول :

« **قديماً** ، لم يكن حزبنا ، من حيث الشكل ،كلا منظماً ، بل كان مجموع فرق خاصة ، ولذا لم يكن من الممكن ان يكون بين هذه الفرق من صلة سوى العمل الفكري . اما **الآن** فقد اصبحنا حزباً منظماً ، ويعني ذلك انشاء سلطة ، وتحويل هيبة الافكار الى هيبة للسلطة ، وتأمين تبعية الهيئات السفلى للهيئات العليا في الحزب» (المرجع ذاته ـ الصفحة ٢٩١).

وقد هاجم لينين المنشفيك حاملاً على ميولهم النيهيليستية(١) في شؤون التنظيم ، وعلى فوضويتهم المتكبرة المتعالية ، التي لا تقبل فكرة الخضوع لسلطة

---

(١) النهيليستية : او العدمية ، والنهيليستي هو العدمي . وكان يسمى بذلك فريق من المثقفين الروس الذين يتميزون بشدة ميولهم الفردية ، واحتقارهم كل القيم الفكرية ، وازدرائهم للشعب ، وتقديسهم للفوضى . وقد ادى ذلك بالكثيرين منهم الى استعمال اساليب الارهاب الفردي ضد افراد من الطبقات الحاكمة في روسيا القيصرية .

(هيئة التعريب)

الحزب ونظامه ، وقد كتب في ذلك ما يلي :

« ان هذه الفوضوية المتعـالية المتكبرة هي من خصائص النيهيليستي الروسي : فـان منظمة الحزب تتراءى له كـ«فابركة» مخيفة ، امـا خضوع الجزء للكل والاقلية للاكثرية ، فهو في نظره ضرب من « الاستعبـاد » ، وكذلك تقسيم العمل تحت قيـادة مركز واحد ، فهو امر يدفعه الى ارسال صرخات مبكية مضحكة احتجـاجاً على تحويل النـاس الى دواليب ونوابض (١) وهو يرى ان افظع اشكال هذا التحويـل واشدها وطأة هو تحويـل المحررين الى معاونين (٢) وما ان تذكر امامـه قوانين تنظيم الحزب ، حتى ترتسم على وجهه تكشيرة احتقار ، ويتفضل بملاحظة كلهـا ازدراء واستخفاف وموجهة «الى المتمسكـين بالشكليات » قائلا « ان من الممكن الاستغناء عـن هذه القوانين باجمعها » (لينين ـــ المؤلفات المختارة ـ المجلد الاول ـــص ٣٩٣) .

٦ ـــ اذا كان الحزب يحرص في نشاطه العملي على الاحتفاظ **بوحدة** صفوفه ، فعليه ان يطبق نظاماً بروليتارياً **واحداً** اجبارياً **يتساوى** اعضاء الحزب جميعاً في التزامه والتقيد به من الزعماء الى ابسط الاعضاء . ولهـذا ينبغي ان لا يكون في الحزب اي تقسيم يجعل الاعضـاء فريقين : « اعضاء النخبة » ، وليس النظام اجبارياً لهم ، و « غير اعضاء النخبة » وهم مجبرون على الخضوع للنظام . بدون هذا الشرط ، لا يمكن المحافظة على سلامة الحزب ولا على وحدة صفوفه .

---

(١) نوابض : زنبركات .

(٢) يلمح هنا لينين الى غضب المنشفيك لان ممثليهم في المؤتمر الثاني لم ينتخبوا لرئاسة تحرير **الايسكرا** بل صار بعضهم فقط معاونين في التحرير .

(هيئة التعريب)

وقد كتب لينين في ذلك قائلاً :

« ان كلمة مارتوف وزملائه « نحن لسنا اقناناً » تصور احسن تصوير فقدان كل حجة **معقولة** لديهم ضد هيئة التحرير التي عينها المؤتمر . ففي هذه الكلمة تظهر ، بشكل واضح جلي، نفسية المثقف البورجوازي الذي يتصور نفسه من « الارواح المختارة » التي هي فوق التنظيم الجماهيري ، وفوق النظام الجماهيري . **فكل** تنظيم وكل نظام بروليتاري، **هما والقنانة** شيء واحد بالنسبة لفردية المثقف » . (لينين - المؤلفات الكاملة - المجلد السادس - ص ٢٨٢ - الطبعة الروسية) .

وقال في مكان آخر :

« كلما تقدمنا في الطريق نحو تكوين حزب **حقيقي** عندنا ، يصبح من واجب العامل الواعي ان يتعلم التمييز بين نفسية المكافح في الجيش البروليتاري ونفسية المثقف البورجوازي الذي يتبجح بالعبارات الفوضوية ، يصبح من واجبه ان يتعلم **المطالبة** باتمام الواجبات المترتبة على اعضاء الحزب ، وان يطالب بذلك لا الاعضاء البسطاء فحسب ، بل « الناس الموجودين فوق » ايضاً . » (لينين - المؤلفات المختارة - المجلد الاول - ص ٣٩٦) .

ولما وضع لينين خلاصة لتحليل الخلافات وحدد موقف المنشفيك بانه « موقف انتهازي في قضايا التنظيم» بيّن ان احدى جرائر « المنشفية »الاساسية هي استصغار اهمية **منظمة** الحزب من حيث هي سلاح البروليتاريا في نضالها من اجل تحررها ، فقد كان من رأي المنشفيك ان **المنظمة** او حزب البروليتاريا ، ليست له اهمية جدية في انتصار الثورة . اما لينين فكان يعتقد ، على عكس المنشفيك ، ان اتحاد البروليتاريا **الفكري** وحده **لا يكفي** لتأمين الانتصار ، وان من الضروري ، لاحراز الغلبة والظفر ، توطيد الوحدة الفكرية **ودعم**

بنائها بـ « الوحدة المادية **لمنظمة** البروليتاريا » . فان البروليتاريا لا يمكن ، في رأي لينين ، ان تصبح قوة لا تغلب الا بهذا الشرط . وقد كتب بهذا **الشأن** ما يلي :

« ليس للبروليتاريا سلاح في نضالها في سبيل الحكم الا التنظيم . فان البروليتاريا ، التي تقسم صفوفها المزاحمة الفوضوية السائدة في العالم البورجوازي ويرهقها الكدح الذليل لاجل الرأسمال ، وتتخبط بصورة مستمرة «في ادنى مهاوي» البؤس الاسود والجهل الوحشي والانحطاط والتفسخ ، لاتستطيع ان تصير - وستصير حتماً - قوة لا تغلب الا لان اتحادها الفكري المؤسس على مبادىء الماركسية ، موطد ومرصوص بالوحدة المادية للمنظمة التي تجمع الملايين من الشغيلة في جيش موحد للطبقة العاملة. فجيش مثل هذا لن تستطيع مقاومته لاسلطة الاوتوقراطية المتداعية ، ولا سلطة الرأسمال الدولي الآخذة بالانهيار». (المرجع ذاته- الصفحة ٤١٤) .

بكلمات النبؤة هذه ، ختم لينين كتابه .

تلك هي مبادىء التنظيم الاساسية التي شرحها لينين في مؤلفه المشهور : **خطوة الى الامام ، خطوتان الى الوراء** .

وان ما يجعل لهذا الكتاب اهمية كبرى ، هو انه قبل كل شيء انقذ فكرة الحزب وصانها ضد فكرة الحلقة الضيقة ، وحمى الحزب من المخربين وسحق الانتهازية المنشفية في مسائل التنظيم ، ووضع اسس تنظيم الحزب البلشفي .

الا ان اهميته لا تقتصر على ذلك فحسب ، فان دوره التاريخي ناجم عن ان لينين وضع فيه ، لاول مرة في تاريخ الماركسية ، **تعاليم الحزب** من حيث هو **المنظمة** القائدة للبروليتاريا ، ومن حيث هو **سلاح** اساسي في يد البروليتاريا يستحيل بدونه احراز الغلبة والظفر في النضال لاجل الديكتاتورية البروليتارية.

وكان من نتائج توزيع كتاب **خطوة الى الامام ، خطوتان الى الوراء** بين مناضلي الحزب ، ان اكثر المنظمات المحلية التفت حول لينين .

ولكن كلما كانت المنظمات تزداد التفافاً حول البلاشفة ، كان موقف الزعماء المنشفيك يزداد حقداً وضغينة .

وفي صيف ١٩٠٤ ، استولى المنشفيك ، بمعونة بليخانوف ، وبسبب خيانة اثنين منفسخين من البلاشفة ، هما كراسين ونوسكوف ، على الاكثرية في اللجنة المركزية . واتضح ان المنشفيك يتجهون نحو الانقسام ، واصبح البلاشفة بعد ضياع **الايسكرا** واللجنة المركزية في موقف محفوف بالصعوبات . وصار من الضروري اصدار جريدة بلشفية خاصة ، وتنظيم مؤتمر جديد ، هو المؤتمر الثالث للحزب ، لتأليف لجنة مركزية جديدة للحزب ، وتسوية الحساب مع المنشفيك . وهذا ما شرع به لينين وجميع البلاشفة .

اشهر البلاشفة النضال في سبيل دعوة المؤتمر الثالث للحزب ، وفي آب ١٩٠٤ انعقد في سويسرا ، تحت قيادة لينين ، مجلس للمداولة جمع اثنين وعشرين من البلاشفة ، وقد اقر هذا المجلس رسالة « الى الحزب » اصبحت بالنسبة للبلاشفة برنامج نضال في سبيل عقد المؤتمر الثالث .

وعقدت اللجان البلشفية ثلاثة مجالس منطقية للمداولة (في الجنوب والقفقاس والشمال) ، انتخب فيها مكتب للجان الاكثرية ، وشرع هذا المكتب في تحضير المؤتمر الثالث للحزب بصورة عملية .

وفي ٤ كانون الثاني ١٩٠٥ صدر العدد الاول للجريدة البلشفية **فبريود** (الى الامام) .

وهكذا تألف في داخل الحزب فريقان متمايزان ــ البلشفيك والمنشفيك ــ ولكل منهما مركزه وصحافته .

الخلاصة

خلال المرحلة الممتدة من ١٩٠١ الى ١٩٠٤، تنمو المنظمات الاشتراكية الديموقراطية في روسيا وتقوى تبعاً لنهوض حركة العمال الثورية. وخلال نضال مبدئي عنيد ضد «الاقتصاديين» تنتصر الخطة الثورية لـ **الايسكرا**، جريدة لينين، ويقضى على الارتباك الفكري وعلى «العمل بالاسلوب الحرفي».

وتربط **الايسكرا** الحلقات والفرق الاشتراكية الديموقراطية المبعثرة فيما بينها، وتهيىء المؤتمر الثاني للحزب. وفي هذا المؤتمر الذي ينعقد سنة ١٩٠٣ يتألف حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا، ويوضع البرنامج والنظام الداخلي، وتؤلف الهيئات المركزية القيادية للحزب.

وخلال النضال الذي يجري في المؤتمر في سبيل انتصار الاتجاه الايسكري نهائياً في داخل حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا، يظهر فريقان: فريق البلاشفة وفريق المنشفيك.

وبعد المؤتمر الثاني تحتدم الخلافات الاساسية بين البلاشفة والمنشفيك حول قضايا التنظيم، فيتقارب المنشفيك من «الاقتصاديين» ويحلون محلهم في الحزب. وتظهر انتهازية المنشفيك في هذا الوقت في قضايا التنظيم. فانهم يعارضون في تأليف حزب ثوري مناضل على الطراز اللينيني، ويريدون حزباً ذا اطراف غامضة، حزباً غير منظم، يسير في ذيل الحركة. ويتبع المنشفيك خطة انقسامية في الحزب، ويستولون، بمعونة بليخانوف، على **الايسكرا** وعلى اللجنة المركزية، ويستعملون هذين المركزين لاجل غايات تفريقية انقسامية.

وتجاه خطر الانقسام الصادر عن المنشفيك، يتخذ البلاشفة تدابير للوقوف دون العاملين للانقسام، فيجندون المنظمات المحلية لاجل دعوة المؤتمر الثالث، ويصدرون جريدتهم **فبريود**.

وهكذا، على اعتاب الثورة الروسية الاولى، وفي وقت كانت فيه الحرب الروسية اليابانية قد بدأت، ظهر البلاشفة والمنشفيك كفريقين سياسيين متمايزين.

الفصل الثالث

المنشفيك والبلاشفة خلال الحرب
الروسية اليابانية والثورة الروسية الاولى
(١٩٠٤ ـ ١٩٠٧)

•

١ ـ الحرب الروسية اليابانية ـ استمرار نهوض الحركة الثورية في روسيا ـ اضرابات بطرسبرج ـ مظاهرة العمال امام القصر الشتوي في ٩ كانون الثاني ١٩٠٥ ـ اطلاق الرصاص على المظاهرة ـ ابتداء الثورة .

منذ اواخر القرن التاسع عشر، اشهرت الدول الاستعمارية نضالاً شديداً في سبيل السيطرة على المحيط الباسيفيكي (الهادي) وتقاسم الصين . وقد اشتركت روسيا القيصرية ايضاً في هذا النضال . وفي عام ١٩٠٠ سحقت جيوش القيصر ، بالاشتراك مع الجيوش اليابانية والانكليزية والالمانية والفرنسية ، بوحشية متناهية ، الثورة الشعبية في الصين التي كانت موجهة ضد المستعمرين الاجانب . وقبلاً كانت الحكومة القيصرية قد اجبرت الصين على التخلي لروسيا

عن شبه جزيرة لياوتونغ مع حصن بور آرثور ، واستأثرت روسيا بحق بناء خطوط حديدية في الاراضي الصينية ، فانشىء في منشوريا الشمالية الخط الحديدي المسمى بخط الصين الشرقية وجيء بجيوش روسية لحراسته ، واحتلت روسيا القيصرية منشوريا الشمالية احتلالا عسكرياً ، واخذت القيصرية تمد ذراعها نحو كوريا . وكان من جملة مشاريع البورجوازية الروسية ، انشاء « روسيا صفراء » في منشوريا .

غير ان القيصرية اصطدمت ، خلال فتوحاتها في الشرق الاقصى ، بمفترس آخر هو اليابان التي كانت قد تحولت بسرعة الى بلاد استعمارية ، وراحت هي ايضاً ترمي الى اقتطاع اراض من القارة الاسيوية ومن اراضي الصين بوجه خاص . فكانت تريد اغتصاب كوريا ومنشوريا ، مثلها في ذلك مثل روسيا ، كما انها ، منذ ذلك الحين ، كانت تمني النفس بوضع يدها على جزيرة سخالين وعلى الشرق الاقصى . وكانت انكلترا تؤيد اليابان سراً لخشيتها من ان توطد روسيا اقدامها في الشرق الاقصى .

اصبحت الحرب الروسية اليابانية وشيكة الوقوع ، فان البورجوازية الروسية الكبيرة الساعية الى اسواق جديدة ، وكذلك الفريق المغرق في الرجعية من كبار ملاكي الاراضي ، كانوا جميعاً يدفعون الحكومة القيصرية الى خوض هذه الحرب .

غير ان اليابان لم تنتظر ان تعلن الحكومة القيصرية الحرب عليها ، بل بدأت هي اعمال العداء ، فقد كان لها مصلحة تجسس ماهرة في روسيا ، وتبين لها انها واجدة امامها في هذا النضال خصما غير مهيأ .

في كانون الثاني ١٩٠٤ هاجمت اليابان فجأة ، ودون اعلان الحرب ، حصن بور آرثور الروسي وانزلت بالاسطول الروسي الراسي فيه خسائر فادحة . وهكذا بدأت الحرب الروسية ــ اليابانية .

كانت الحكومة القيصرية تأمل ان تساعدها الحرب على توطيد موقفها السياسي وعلى ايقاف الثورة . غير انها كانت مخطئة في حسابها ، فقد ضعضعت

الحرب اركان القيصرية فوق ما كانت مضعضعة .

لقد تتالت الهزائم على الجيش الروسي لسوء تسليحه وسوء تدريبه ولوجوده تحت قيادة جنرالات خونة ومباعين وغير اكفاء .

كانت الحرب تغدق الثروة والغنى على الرأسماليين وكبار الموظفين والجنرالات ، وكانت السرقة منتشرة في كل مكان ، اما تموين الجيوش ففي اسوأ حال . ففيما الجيش يشكو فقدان الذخيرة ، اذا به يتلقى قطراً مشحونة بالايقونات (١) فكأن ثمة من يتقصد الشماتة به والتهكم عليه . وكان الجنود يقولون بمرارة : « اليابانيون يمطروننا بالقنابل ، ونحن نباركهم بالايقونات » وعوضاً عن الاهتمام بنقل الجرحى ، كانت قطارات خاصة تنقل الأسلاب التي يسرقها الجنرالات القيصريون .

حاصر اليابانيون حصن بور آرثور ثم استولوا عليه ، وبعد ما انزلوا بالجيش القيصري سلسلة من الهزائم ، بددوا شمله بالقرب من موكدن . وكان عدد الجيش القيصري ثلاثمائة الف رجل ، ففقد في هذه المعركة ما يقرب من مائة وعشرين الفاً بين قتيل وجريح واسير ، فكانت هزيمة شنعاء . اما الاسطول الروسي الذي ارسل من البلطيق لنجدة بور آرثور المحاصرة ، فقد كان مصيره الابادة . واتخذت هزيمة تسوشيما شكل نكبة شاملة تامة : فمن مجموع عشرين قطعة حربية ارسلها القيصر ، اغرقت او حطمت ثلاث عشرة قطعة واسرت اربع . وهكذا خسرت روسيا القيصرية الحرب نهائياً .

وجدت حكومة القيصر نفسها مضطرة الى توقيع صلح مخجل . فقد استولت اليابان على كوريا ، وانتزعت من روسيا بور آرثور ونصف جزيرة سخالين .

ان الجماهير الشعبية ما ارادت هذه الحرب وكانت تدرك الضرر الذي سيصيب روسيا من جرائها . لقد كان تأخر روسيا القيصرية يكلف الشعب ثمناً غالياً .

---

(١) – الايقونات : – اشياء مقدسة عليها صور الالهة والقديسين (هيئة التعريب)

لم يكن موقف البلاشفة والمنشفيك واحداً من هذه الحرب .

فالمنشفيك ، بما فيهم تروتسكي ، زلقوا الى موقف المحبذين للحرب الى النهاية ، اي موقف الدفاع عن « وطن » القيصر وكبار ملاكي الاراضي والرأسماليين .

اما لينين والبلاشفة فكانوا، على العكس، يعتبرون ان اندحار الحكومة القيصرية في حرب السلب والنهب هذه ، سيكون مفيداً لانه سيؤدي الى اضعاف القيصرية وتقوية الثورة .

وقد كشفت هزائم الجيش القيصري امام جماهير الشعب الواسعة عما آلت اليه القيصرية من تفسخ ، واخذ الحقد الدفين عند الجماهير الشعبية على القيصرية يشتد يوماً بعد يوم . وقد كتب لينين ان سقوط بور آرثور يسجل بدء سقوط الاوتوقراطية .

لقد اراد القيصر خنق الثورة بالحرب ، فحدث العكس ، وأدت الحرب الروسية ـ اليابانية الى التعجيل بالثورة .

كان نير القيصرية يجعل الاضطهاد الرأسمالي في روسيا القياصرة اشد وطأة، فلم يكن العمال يقاسون الاستثمار الرأسمالي والعمل المضني فحسب ، بل كانوا يعانون ايضاً استبداداً يثقل عاتق الشعب باسره . ولذلك كان العمال الواعون مندفعين الى السير في رأس الحركة الثورية التي تقوم بها جميع العناصر الديموقراطية في المدينة والريف ضد القيصرية . وكانت جماهير الفلاحين ترزح تحت بقايا القنانة المتعددة ، وتضيق عيشاً بسبب فقدان الارض من ايديها . وكان كبار ملاكي الاراضي والمزارعون الاغنياء يسومونهم انواع الذل والاستعباد . اما شعوب روسيا القيصرية على اختلافها ، فكانت تئن تحت نير مضاعف: نير كبار ملاكي الاراضي ونير الرأسماليين ، المحليين منهم والروس. وقد زادت ازمة ١٩٠٠ـ١٩٠٣ في آلام الجماهير الكادحة وعذابها ، واتت الحرب فزادتها وطأة واستفحالا ، وكانت الهزائم العسكرية تثير حقد الجماهير ضد القيصرية ، حتى نفد صبر الشعب .

نرى من كل ذلك ان اسباب الثورة كانت اكثر من كافية .

وفي كانون الاول ١٩٠٤ اعلن عمال باكو ، بقيادة اللجنة البلشفية في هذه المدينة ، اضراباً مهيباً حسن التنظيم . وأدت الحركة الى انتصار المضربين وتوقيع عقد جماعي بين العمال واصحاب صناعات البترول — وهو اول عقد جماعي في تاريخ حركة العمال في روسيا .

سجل اضراب باكو ابتداء النهوض الثوري عبر القوقاز وفي عدة مناطق من روسيا .

« لقد اعطى اضراب باكو الاشارة الاولى للحركات المجيدة التي جرت في كانون الثاني وشباط في جميع انحاء روسيا » (**ستالين**)

اتى هذا الاضراب كالبرق يتقدم الاعصار، قبيل العاصفة الثورية الكبرى.

ومن ثم اتت حوادث ٩ (٢٢) كانون الثاني ١٩٠٥ في بطرسبرج فسجلت بدء العاصفة .

في ٣ كانون الثاني ١٩٠٥ ، نشب الاضراب في معمل بوتيلوف الكبير في بطرسبرج (وهو اليوم معمل كيروف) . وكان الدافع اليه طرد اربعة من العمال ، ولم يلبث ان ايدته معامل ومصانع اخرى في هذه المدينة ، واصبح الاضراب عاماً . واخذت الحركة تنمو وتزداد خطورة. وقد قررت الحكومة القيصرية منذ البداية قمعها .

منذ عام ١٩٠٤ ، اي قبل اضراب معمل بوتيلوف ، انشأت الشرطة ، بمعونة عميل لها يدعى القس كابون ، منظمة بين العمال اسمها «جامعة عمال المعامل الروس » وكان لهذه المنظمة فروع في جميع احياء بطرسبرج . وحينما نشب الاضراب ، اقترح القس كابون على الجامعات المنتمية الى جمعيته ، برنامجاً استفزازياً هو ان يؤلف العمال في ٩ كانون الثاني موكباً سلمياً يحمل اعلاماً كنسية مع صور القيصر وان يمثلوا امام القصر الشتوي لاجل تقديم عريضة يشرحون فيها للقيصر حاجاتهم . وقد زعم كابون ان القيصر سيظهر بنفسه امام الشعب ، فيسمع مطالبه ويجيبه بما يرضيه . وكانت غاية كابون من ذلك ان

يساعد الاوخرانا القيصرية على اثارة مذبحة واغراق حركة العمال في الدماء. غير ان هذا المشروع البوليسي انقلب على الحكومة القيصرية نفسها.

نوقشت العريضة في اجتماعات العمال وادخل عليها بعض التعديل والتصحيح، وقد تكلم البلاشفة ايضاً في هذه الاجتماعــات ولكن دون ان يعلنوا انفسهم كبلاشفة، وبتأثيرهم ادخلت على العريضة المطالب التاليـة : حرية الصحافة والكلام وجمعيات العمال، دعوة مجلس تأسيسي مهمته تعديل نظام روسيا السياسي، المساواة بين الجميع امام القانون، فصل الكنيسة عن الدولة، وقف الحرب، تحديد يوم العمل بثماني ساعات وتطبيقه، اعطاء الارض للفلاحين.

وكان البلاشفة حين يتكلمون في هـذه الاجتماعات، يشرحون للعمال ان الحرية لا تنال بعرائض موجهـة للقيصر بل تنتزع بالسلاح. وكانوا يحذرون العمال قائلين ان الرصاص سيطلق عليهم غير انهم لم يستطيعوا منع الموكب من التوجه الى القصر الشتوي، اذ كان ثمة قسم له شأنه من العمال لا يزالون يعتقدون ان القيصر سيساعدهم. وكانت الحركة تجر الجماهير بقوة لا تقاوم.

اما العريضة فتقول :

« نحن عمال مدينة بطرسبرج، ونساءنا واولادنا، واهلنا الشيوخ العاجزين اتينا اليــك يا قيصرنا ناشدين عدلا وحماية. اننا نقاسي البؤس. فانهم يضطهدوننا وينهكوننا بعمل هو فوق طاقتنا، وينزلون بنا انواع الاهانة والعذاب، ولا يعتبروننا مخلوقات بشرية. لقد تحملنا عذابنا صامتين، ولكنهم يدفعوننا اكثر فاكثر الى اعماق مهاوي الشقاء والعبودية والجهل. ان الاستبداد والطغيان يخنقاننا. وقـد فرغ صبرنا وأتت الساعة الهائلة التي اصبح فيها الموت خيراً لنا من الاستمرار على تحمل هذا العذاب وهذه الالآم التي لا تطاق ولا تغتفر ».

واتجـــه العمال في ٩ كانون الثاني ١٩٠٥ منـذ الصباح الباكر الى القصر

الشتوي ، وهو مقر القيصر اذ ذاك . وقد ذهبوا الى القيصر بكامل عائلاتهم مع نسائهم ، واولادهم ، واهلهم الشيوخ ، وكانوا يتقدمون دون سلاح حاملين صور القيصر واعلام الكنيسة ومنشدين الصلوات . وقد نزل الى الشارع اكثر من ١٤٠،٠٠٠ شخص .

ولكن نقولا الثاني اساء استقبالهم . واصدر امره باطلاق النار على العمال العزل ، فكان ان صرعت الجيوش القيصرية منهم في ذلك اليوم اكثر من الف قتيل وبلغ عدد الجرحى الفين . وجرت دماء العمال كالسيل في شوارع بطرسبرج!

كان البلاشفة يسيرون مع العمال . وقد قتل واعتقل منهم كثيرون . وهناك ، في الشوارع التي كان يسيل فيها دم العمال ، شرح البلاشفة للعمال من هو المسؤول عن هذه الجريمة الفظيعة وكيف ينبغي النضال ضده .

منذ ذلك الحين سمي يوم ٩ كانون الثاني ١٩٠٥ « الاحد الدامي » ، وقد تلقى العمال درساً بليغاً دامياً في هذا اليوم : فالنار التي اطلقت فيه اغتالت على ايمان العمال بالقيصر . وقد ادرك العمال منذ ذلك الحين انهم لن يستطيعوا انتزاع حقوقهم الا بالنضال .

وفي مساء ٩ كانون الثاني بالذات ، ارتفعت المتاريس في احياء العمال وكانوا يقولون : « ان القيصر قد ضربنا ، فعلينا بدورنا ان نضرب القيصر » .

انتشر نبأ جريمة القيصر الدامية في كل مكان . وعم السخط والغضب الطبقة العاملة والبلاد باسرها . ولم تبق مدينة الا اضرب فيها العمال احتجاجاً على جريمة القيصر ووضعوا مطالب سياسية .

اخذ العمال ينزلون الى الشارع الان تحت شعار « لتسقط الاوتوقراطية » ، وبلغ عدد المضربين في كانون الثاني رقماً عظيماً هو ٤٤٠،٠٠٠ اي ان عدد المضربين في شهر واحد تجاوز عدد المضربين طول السنوات العشر السابقة ، وصعدت حركة العمال وارتفعت ارتفاعاً كبيراً !

لقد بدأت الثورة في روسيا !

٢ ـ الاضرابات السياسية ومظاهرات العمال ـ اندفاع حركة الفلاحين الثورية ـ تمرد الدارعة « بوتمكين»

اشتد نضال العمال الثوري بعد ٩ كانون الثاني واتخذ طابعاً سياسياً ، واخذ العمال ينتقلون من الاضرابات الاقتصادية واضرابات التضامن الى الاضرابات السياسية والمظاهرات ، ويجابهون الجيوش القيصرية في بعض الاماكن بمقاومة مسلحة . وكانت الاضرابات التي تنشب في المدن الكبرى ، المتجمعة فيها جماهير غفيرة من العمال ـ كبطرسبرج وموسكو وفارسوفيا وريغا وباكو ـ تتميز خصوصاً بشدتها وصلابتها وحسن تنظيمها. وكان عمال المعادن يسيرون في طليعة البروليتاريا المناضلة . وكانت فصائل عمال الطليعة تهز باضراباتها الجماعات الاقل وعياً ، فتنهض الطبقة العاملة بمجموعها الى النضال . واخذ نفوذ الاشتراكية الديموقراطية يتعاظم بسرعة .

ولقد جرت مظاهرات اول ايار وتلتها في بعض الاماكن اصطدامات مع الشرطة والجيش . وفي فارسوفيا اطلق الرصاص على احدى المظاهرات ، فوقع عدة مئات من القتلى والجرحى . الا ان العمال اجابوا على مجزرة فارسوفيا باضراب عام احتجاجي ملبين نداء الاشتراكية الديموقراطية البولونية . وتتالت الاضرابات والمظاهرات دون انقطاع طول شهر ايار ، وقد اشترك اكثر من ٢٠٠ ٠٠٠ عامل في اضرابات اول ايار التي جرت في روسيا . وساهم في الاضراب العام عمال « باكو » و « لودز » و « ايفانوفو ـ فوزنيسانسك » . واخذ المضربون والمتظاهرون يصطدمون اكثر فأكثر بجيش القيصر ، وقد وقع ذلك في عدد من المدن : كاوديسا وفارسوفيا وريغا ولودز وغيرها .

وتميز النضال بطابع خاص من الشدة في « لودز » وهي مركز صناعي كبير في بولونيا . فقد اقام عمال هذه المدينة عشرات المتاريس في الطرقات ،

واستمرت المعارك بينهم وبين جيوش القيصر في الشوارع ثلاثة ايام (من ٢٢ الى ٢٤ حزيران ١٩٠٥) واختلط هنا النضال المسلح بالاضراب العام . وقد نظر لينين الى هذه المعارك على انها اول حركة مسلحة لعمال روسيا . وعند الكلام عن الاضرابات التي وقعت في ذلك الصيف ، يجب التنويه بوجه خاص باضراب عمال « ايفانوفو ـــ فوزنيسانسك » . فقد استمر من اواخر شهر ايار الى اوائل شهر آب ١٩٠٥ ، اي ما يقرب من شهرين ونصف الشهر ، واشترك في الاضراب ٧٠٠٠٠ عامل تقريباً ، بينهم كثير من النساء ، وقد جرت الحركة بقيادة اللجنة البلشفية في الشمال . وكان يتجمع كل يوم تقريباً الوف من العمال على ضفاف نهر تالكا ، خارج المدينة ، ويتناقشون في حاجاتهم ، وكان البلاشفة يخطبون في هذه الاجتماعات . واصدرت السلطات القيصرية ، لاجل سحق الاضراب ، امرها الى الجيوش بتفريق العمال بالقوة واطلاق النار عليهم . فوقع عشرات العمال قتلى ، وسقط مئـــات منهم جرحى . واعلنت الاحكام العرفية في المدينة . ولكن العمال صمدوا وثبتوا ، يقاسون وعائلاتهم الجوع فلا يستسلمون ، الى ان تناهى بهم الاعياء فعادوا الى العمل مكرهين . غير ان الاضراب زاد في صلابة العمال ، وعودهم على النضال . وبرهنت الطبقة العاملة على كثير من الشجاعة والحزم والصلابة والتضامن : لقد كان هـــذا الاضراب الذي اشهره عمال « ايفانوفو ـــ فوزنيسانسك » بمثابة مدرسة حقيقية للتثقيف السياسي .

وقد انشأ عمـــال « ايفانوفو ـــ فوزنيسانسك » خلال هـــذا الاضراب سوفياتاً (مجلساً) للمندوبين ، وكان هـــذا المجلس في الواقع من اوائل مجالس السوفيات لمندوبي العمال في روسيا .

لقد هزت اضرابات العمال السياسية كل البلاد وبعثت فيها الحياة .

وبعد المدينة نهض الريف ، فبدأت في الربيـع اضطرابات الفـــلاحين اذ اخـــذوا ينهضون جماعات كبرى ضد كبار ملاكي الاراضي ، يعيثون في اراضيهم ، ويدمرون مصفيات السكر والكحول ، ويحرقون القصور والاملاك .

وفي امكنة عديدة استولوا على اراضي النبلاء والاقطاعيين، وقطعوا الاحراج، واخذوا يطالبون بتسليم اراضي كبار الملاكين الى الشعب . وكانوا يستولون على قمح كبار الملاكين ومحصولاتهم الاخرى ويوزعونها على الجائعين ، فساد الذعر كبار الملاكين واخذوا يهربون الى المدينة . وكانت الحكومة القيصرية ترسل الجنود والقوزاق لقمع نهضات الفلاحين المسلحة، فيطلق الجيش الرصاص عليهم ، ويعتقل المحرضين منهم ويجلدهم ويعذبهم . غير ان الفلاحين كانوا يتابعون النضال .

وكانت الحركة تمتد وتتسع دون انقطاع في وسط روسيا وحوض الفولغا وعبر القفقاس وفي جورجيا بوجه خاص .

كان الاشتراكيون الديموقراطيون يتغلغلون اكثر فاكثر الى اعماق الارياف ،واذاعت اللجنة المركزية للحزب نداءاً الى الفلاحين :« ايها الفلاحون، اليكم نتوجه ، واياكم ندعو ! » وكانت اللجان الاشتراكية الديموقراطية في ولايات « تفير » و « ساراتوف » و « بولتافا » و « تشيرنيغوف » و « ييكاتير ينوسلاف » و « تفليس » وفي كثير من الولايات الاخرى،تذيع كذلك نداءات موجهة الى الفلاحين . وفي الارياف كان الاشتراكيون الديموقراطيون ينظمون الاجتماعات للفلاحين ، وينشئون لهم حلقات دراسية ، ويؤلفون لجاناً فلاحية . وفي صيف ١٩٠٥ قام العمال الزراعيون في اماكن عديدة باضرابات نظمها الاشتراكيون الديموقراطيون ، غير ان كل ذلك لم يكن سوى البداية في نضال الفلاحين اذ لم تكن الحركة قد شملت بعد ، الا ٨٥ منطقة اي ما يقارب سبع مجموع مناطق روسيا الاوروبية .

ان حركة العمال والفلاحين ، وكذلك اندحارات الجيوش الروسية خلال الحرب الروسية ــ اليابانية ، اثرت في الجيش ايضاً فتزعزع هذا الحصن القيصري الحصين .

في حزيران ١٩٠٥ ، وقع تمرد في اسطول البحر الاسود وذلك على ظهر الدارعة **بوتمكين** . وكانت هذه الدارعة راسية بالقرب من اوديسا ، وقد

كانت اذ ذاك مسرحاً لاضراب عام للعمال . وقد اسرع البحارة المتمردون في تسوية حسابهم مع المكروهين من الضباط . ثم ساقوا المدرعة الى مرفأ اوديسا وانضمت بوتمكين الى الثورة .

لقد علق لينين اهمية خاصة على هذه النهضة المسلحة ، وكان يعتقد ان من واجب البلاشفة ان يتسنموا القيادة في هذه الحركة وان يربطوها بحركة العمال والفلاحين والحاميات المحلية .

ارسل القيصر ضد بوتمكين بضع قطعات بحرية حربية غير ان بحارتها رفضوا اطلاق الرصاص على رفاقهم الثائرين ، وظل علم الثورة الاحمر خافقاً فوق ظهر الدارعة بوتمكين خلال ايام عديدة .

ولكن حزب البلشفيك لم يكن في ذلك العهد ، عام ١٩٠٥ ، الحزب الوحيد الذي يقود الحركة ، كما اصبحت حاله فيما بعد عام ١٩١٧ . فقد كان على ظهر بوتمكين عدد كبير من المنشفيك ، والاشتراكيين الثوريين ، والفوضويين ، ولذا بقيت هذه النهضة الثورية المسلحة ، رغم اشتراك عدد كبير من الاشتراكيين الديموقراطيين فيها ، بدون قيادة طيبة ، اي قيادة لديها ما يكفي من التجارب . وسرى التردد الى فريق من البحارة في اللحظات الحاسمة . كما ان قطعات من اسطول البحر الاسود الاخرى لم تنضم الى الدارعة المتمردة . ونظراً لفقدان الفحم والمؤونة اضطرت الدارعة الثورية الى التوجه نحو شواطىء رومانيا واستسلمت للسلطات الرومانية .

انتهت ثورة بوتمكين بالاندحار ، واحيل البحارة الذين وقعوا فيما بعد في ايدي الحكومة القيصرية الى القضاء ، فاعدم فريق منهم وارسل الفريق الآخر الى السجون والمنافي . غير ان الثورة في ذاتها لعبت دوراً عظيم الاهمية . فقد كانت الحركة الثورية الجماهيرية الاولى في الجيش والاسطول ، وكذلك للمرة الاولى انتقلت وحدة هامة من القوات القيصرية الى جانب الثورة .

ان فكرة انضمام الجيش والاسطول الى الطبقة العاملة اي الى الشعب اصبحت ، بفضل ثورة بوتمكين ، فكرة مألوفة اكثر ومفهومة اكثر لدى جماهير

العمال والفلاحين وخصوصاً لدى جماهير الجنود والبحارة انفسهم .

ان انتقال العمال الى الاضرابات والمظاهرات السياسية الجماهيرية، واشتداد حركة الفلاحين ، واصطدامات الشعب بالسلاح مع الشرطة والجيش ،واخيراً النهضة المسلحة في أسطول البحر الاسود ، كانت كلها وقائع تشهد بان الشروط المؤدية لنشوب ثورة الشعب المسلحة آخذة بالنضج. وهو ما حمل البورجوازية الحرة على ان تتحرك بصورة جدية . فهي ، لفزعها من الثورة ، ولرغبتها في الوقت نفسه باخافة القيصر ذاته من خطر الثورة المهدد، كانت تسعى الى تحقيق تسوية مع القيصر ضد الثورة ، فتطالب باصلاحات صغيرة « لاجل الشعب » اي لاجل « تهدئة » الشعب وتقسيم القوى الثورية وتلافي « اهوال الثورة » وتحاشيها عن هذا الطريق . وكان ملاكو الاراضي الاحرار يقولون : «ينبغي اقطاع الفلاحين ارضاً والا قطعونا نحن » .

لقد كانت البورجوازية الحرة تهيء نفسها لأقتسام الحكم مع القيصر. وقد كتب لينين في ذلك العهد في معرض الكلام عن خطة الطبقة العاملة وعن خطة البورجوازية الحرة ، ما يلي : « البروليتاريا تناضل ، والبورجوازية تتسلل الى الحكم » .

استمرت الحكومة القيصرية في تسليط الارهاب الوحشي على العمال والفلاحين غير انها ما كانت لتستطيع الا ان ترى ان من المستحيل القضاء على الثورة بالاضطهاد وحده . ولذا اخذت ، مع متابعتها اعمال الارهاب والقمع، تلجأ ايضاً الى سياسة المناورات . فمن جهة اخذت تهيج ، بمعونة جواسيسها وعملائها ، شعوب روسيا بعضها على بعض ، وتنظم المذابح الطائفية ضد اليهود، وتثير مجازر دامية بين التتر والارمن ، وراحت من جهة اخرى تعد بدعوة «هيئة تمثيلية » تكون بشكل« زيمسكي سوبور» (١) او بشكل «دوماالدولة». وقد كلفت فعلاً الوزير « بوليغين » وضع مشروع هذه « الدوما » على ان لا

---

(١) زيمسكي سوبور : مجلس يضم ممثلي الجماعات الاقطاعية في روسيا، وقد دعي في القرنين السادس عشر والسابع عشر الى الاجتماع للتداول مع الحكومة (هيئة التعريب) .

تكون لها اية سلطات تشريعية . ولم تكن الغاية من اتخاذ جميع هذه التدابير الا تقسيم قوى الثورة وفصل الجماعات المعتدلة من الشعب عنها .

وقد دعا البلاشفة الى مقاطعة « دوما بوليغين » جاعلين هدفهم اسقاط هذه الصورة « الكاريكاتورية » للتمثيل الشعبي .

اما المنشفيك فقد قرروا ، على العكس ، عدم احباط « الدوما » ورأوا ان من الضروري الاشتراك فيها .

•

٣ـ الخلافات الخططية (التاكتيكية) بين البلاشفة والمنشفيك ـ المؤتمر الثالث للحزب ـ مؤلف لينين « خطتان للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الديموقراطية » ـ المبادىء الخططية للحزب الماركسي.

حركت الثورة طبقات المجتمع كلها . فان الانعطاف الذي احدثته الثورة في حياة البلاد السياسية ، انتزع هذه الطبقات من اوضاعها التقليدية القديمة ، ودفعها الى التجمع بشكل جديد ، طبقاً للحالة الجديدة . فاخذت كل طبقة ، واخذ كل حزب يبذل الجهد لتحديد خطته ومنهج سلوكه وتعيين موقفه من الطبقات الاخرى ومن الحكومة .

وكذلك الحكومة القيصرية ذاتها رأت نفسها مضطرة الى اعتماد خطة جديدة بعيدة جداً عن عاداتها المألوفة : فقد وعدت بجمع « هيئة تمثيلية » هي دوما بوليغين !

كان على الحزب الاشتراكي الديموقراطي ايضاً ان يضع خطته (تاكتيكه). فان نهوض الثورة بقوة متعاظمة يوماً بعد يوم كان يتطلب ذلك ، كما كانت تتطلبه ايضاً القضايا العملية الملحة الموضوعة امام البروليتاريا وهي : تنظيم الثورة المسلحة ، قلب الحكومة القيصرية ، تأليف حكومة ثورية موقتة ، اشتراك الاشتراكية الديموقراطية في هذه الحكومة ، الموقف الواجب اتخاذه من

الفلاحين وكذلك من البورجوازية الحرة الخ .. كل ذلك كان يتطلب وضع خطة اشتراكية ديموقراطية ماركسية موحدة وناشئة عن تفكير ناضج.

غير ان انتهازية المنشفيك وعملهم الانقسامي اديا الى ان الاشتراكية الديموقراطية في روسيا وجدت نفسها في ذلك العهد منقسمة الى فريقين . ولم يكن طبعاً من الممكن بعد ، القول بان الانقسام تام شامل ، اذ لم يصبح الفريقان حزبين متمايزين رسميا ، غير انهما كانا في الواقع اشبه بحزبين مختلفين لهما مراكزهما وجرائدهما الخاصة .

ومما ساعد على تفاقم الانقسام ، ان المنشفيك اضافوا الى خلافاتهم القديمة مع اكثرية الحزب على مسائل التنظيم ، خلافات جديدة تتعلق بمسائل خططية.

لقد ادى فقدان الوحدة في الحزب الى فقدان خطة موحدة فيه .

الا انه كان من الممكن مع ذلك ايجاد حل لهذا الوضع ، وذلك بدعوة مؤتمر الحزب الثالث الى الانعقاد بدون ابطاء ، واقرار خطة موحدة فيه ، على ان يكون من واجب الاقلية تطبيق قرارات المؤتمر بشرف واستقامة ، والخضوع لقرارات الاكثرية ، وهو الحل الذي اقترحه البلاشفة على المنشفيك. غير ان هؤلاء لم يريدوا سماع كلمة واحدة عن دعوة المؤتمر الثالث الى الانعقاد، فرأى البلاشفة ان من الجريمة ترك الحزب امداً اطول بدون خطة تنال موافقته وتصديقه ، ويكون جميع اعضائه مجبرين على التقيد بها ، فقرروا ان يبادروا بانفسهم الى دعوة المؤتمر الثالث .

دعيت جميع منظمات الحزب الى المؤتمر ، سواء منها البلشفية او المنشفية ، ولكن المنشفيك رفضوا الاشتراك فيه وقرروا عقد مؤتمر خاص بهم . ونظراً لضآلة عدد المندوبين ، سموا اجتماعهم مجلساً عاماً (١) غير انه كان في الحقيقة مؤتمراً ، مؤتمراً لحزب المنشفيك ، وكان جميع المنشفيك مجبرين على التقيد بقراراته .

في نيسان من العام ١٩٠٥ ، اجتمع في لندن المؤتمر الثالث للحزب الاشتراكي

---

(١) : او مجلساً للتداول والتشاور : Conference
(هيئة التعريب)

الديموقراطي في روسيا . وكان يضم ٢٤ مندوباً عن ٢٠ لجنة بلشفية، وكانت جميع منظمات الحزب الكبرى ممثلة فيه .

استنكر المؤتمر سلوك المنشفيك ، ونعتهم بانهم « جماعة منقسمة عن الحزب»، ثم انتقل الى بحث القضايا المسجلة في جدول اعماله لتحديد خطة الحزب .

وفي ذات الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر لندن ، كان المجلس العام للمنشفيك منعقداً في جنيف .

« مؤتمران فحزبان » ! بهاتين الكلمتين اجمل لينين الوضع اذ ذاك . وفي الحقيقة بحث كل من المؤتمر والمجلس العام ، القضايا الخططية نفسها ، الا ان القرارات المتخذة كانت متعارضة على خط مستقيم . فان القرارات المتخذة في المؤتمر وفي المجلس العام ، كانت تبين بوضوح تام الخلافات الخططية بين مؤتمر الحزب الثالث والمجلس العام المنشفيكي ، اي بين البلاشفة والمنشفيك .

وفيما يلي نقاط الاختلاف الاساسية :

المنهاج الخططي لمؤتمر الحزب الثالث : بالرغم من ان الثورة الجارية هي ذات طابع ديموقراطي بورجوازي ، وبالرغم من انها لا يمكن ان تخرج في الوقت الحاضر من نطاق الاشياء الممكنة في ظل الرأسمالية ، فالمؤتمر يعتبر ان انتصار هذه الثورة انتصاراً تاماً هو شيء يهم البروليتاريا قبل غيرها ، لان انتصار هذه الثورة من شأنه ان يسمح للبروليتاريا بان تنظم نفسها وان ترتفع سياسياً ، وان تكتسب تجربة وخبرة عملية في ممارسة القيادة السياسية لجماهير الشغيلة ، وان تنتقل من الثورة البورجوازية الى الثورة الاشتراكية .

وان خطة البروليتاريا، الرامية الى انتصار الثورة الديموقراطية البورجوازية انتصاراً تاماً كاملا ، لا يمكن ان تنال التأييد الا من جماهير الفلاحين ، لان هذه الجماهير لا تستطيع قهر كبار الملاكين والحصول على اراضي النبلاء الاقطاعيين ، الا اذا انتصرت الثورة انتصاراً تاماً . فجماهير الفلاحين هي اذن، الحليفة الطبيعية للبروليتاريا .

اما البورجوازية الحرة فليس من مصلحتها ان تنتصر هذه الثورة انتصاراً

تاماً ، اذ انها بحـاجة للحكم القيصري لتستخدمه كسوط مسلط على العمال والفلاحين الذين تخشاهم اكثر من اي احد غيرهم ، فهي ستسعى اذن للمحافظة على الحكم القيصري مع الحد من صلاحياته بعض الشيء ، اي ان البورجوازية الحرة ستبذل جهدها لحل المسألة بتسوية مع القيصر على اساس نظام ملكي دستوري .

لن تنتصر الثورة الا اذا ترأستها البروليتاريا ، واذا عرفت ، بوصفهـا زعيمة الثورة ، ان تؤمن التحالف مـع جماهير الفلاحين ، واذا تم عزل البورجوازية الحرة ، واذا ساهمت الاشتراكية الديموقراطية مساهمة نشيطة في تنظيم الثورة الشعبية ضد القيصرية ، واذا ادت الثورة الظـافرة الى انشاء حكومة ثورية موقتة ، قادرة على سحق القوى المعادية للثورة واقتلاع جذورها ، ودعوة مجلس تأسيسي يتمثـل فيه الشعب بأسره ، وكذلك اذا لم ترفض الاشتراكية الديموقراطية ، ما دامت الظروف ملائمة ، ان تشترك في الحكومة الثورية الموقتة للسير بالثورة الى النهاية .

المنهاج الخططي للمجلس العام المنشفيكي : بما ان الثورة بورجوازية ، فالبورجوازية الحرة وحدهـا تستطيع ان تضطلع بقيادتها . فلا ينبغي على البروليتاريا ان تتقرب من جماهير الفلاحين ، بل عليها ان تتقرب من البورجوازية الحرة . فالمهم هنا ان نتجنب اخافة البورجوازية الحرة بالروح الثورية ، وان لا نعطيها اية حجة تتذرع بهـا للتحول عن الثورة ، لان الثورة تضعف اذا تحولت البورجوازية وارتدت عنها .

من الممكن ان تنتصر الثورة ، ولكن يجب على الاشتراكية الديموقراطية ان تبقى جانباً بعد انتصار الثورة حتى لا تخيف البورجوازية الحرة وتفزعها . ومن الممكن كذلك ان تتألف بعد الثورة حكومة ثورية موقتة ، على ان الاشتراكية الديموقراطية ينبغي عليها ان لا تشترك فيها باية حال ، لان هذه الحكومة لن تكون اشتراكية بطبيعتها ، ولان الاشتراكية الديموقراطية ، بنتيجة اشتراكها في الحكومة ، وبنتيجة روحها الثورية ، يمكن ان تلقي الرعب

في قلب البورجوازية الحرة ، فتعرض الثورة بذلك الى الخطر .

اما من حيث اهداف الثورة ، فالافضل دعوة هيئة تمثيلية ـ كزيمسكي سوبور او دوما الدولة ـ يكون في وسع الطبقة العاملة ان تؤثر فيها من الخارج لتحويلها نفسها الى مجلس تأسيسي او لدفعها الى دعوة مثل هـذا المجلس التأسيسي .

ان للبروليتاريا مصالحها ، وهي مصالح عمالية صرف ، فعليها ان تهتم بهذه المصالح الواضحة المعروفة ، عوضاً عن الطموح الى زعامة الثورة البورجوازية التي هي ثورة سياسية عامة ، والتي تهم بالتالي جميع الطبقات لا البروليتاريا وحدها.

هكذا كانت ، بايجاز ، الخطتان اللتان انتهجهما كل من فريقي حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا .

انتقد لينين خطة المنشفيك انتقاداً بارعاً ، وبرر خطة البلاشفة تبريراً عبقرياً في كتابه البليغ: **خطتان للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الديموقراطية.**

وقد صدر هذا المؤلف في تموز عام ١٩٠٥ ، اي بعد مضي شهرين عـلى انعقاد مؤتمر الحزب الثالث . وقد يخيل للمرء ، اذا اراد الحكم على المؤلف من عنوانه ، ان لينين لا يعالج فيه الا القضـايا الخططية المتعلقة بمرحلة الثورة الديموقراطية البورجوازية ، ولا يقصد فيه الا المنشفيك الروس . اما الحقيقة فهي انه ، بانتقاده خطة المنشفيك، انما يفضح في الوقت نفسه خطة كل الانتهازية الدولية باسرها ، وهو ، من جهة اخرى ، مع تبيانه صحة خطة الماركسيين في مرحلة الثورة البورجوازية ، يضع في الوقت نفسه مبادىء الخطة الماركسية في مرحلة الانتقال من الثورة البورجوازية الى الثورة الاشتراكية .

وفيما يلي المبادىء الخططية الاساسية التي شرحها لينين في مؤلفه : **خطتان للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الديموقراطية** :

١ ـ ان المبدأ الخططي (التاكتيكي) الاساسي الذي يهيمن على مؤلف لينين هو الرأي بان في استطاعة البروليتاريا ومن واجبها ان تكون **زعيمة** الثورة الديموقراطية البورجوازية ، ان تكون **قائدة** الثورة الديموقراطيـة

البورجوازية في روسيا .

كان لينين يعترف بالطابع البورجوازي لهذه الثورة التي لم تكن لتستطيع، حسب قوله ، « ان تخرج **مباشرة** من نطـــاق ثورة هي ثورة ديموقراطية لا اكثر ولا اقل » . غير انه كان يرى انها ليست ثورة الجماعات العليا ، بل ثورة شعبية تحرك الشعب باجمعه ، تحرك كل الطبقة العاملة وكل جماهير الفلاحين . وعلى هذا كان يعتبر ان محاولات المنشفيك الرامية الى التقليل من اهمية الثورة البورجوازية بالنسبة للبروليتاريا ، والانتقاص من دور البروليتـاريا في هذه الثورة ، وابعادها عنها ، هي خيانة لمصالح البروليتاريا .

ويقول لينين في هذا الصدد ما يلي :

« ان الماركسية لا تعلم البروليتـاريا ان تبتعد عن الثورة البورجوازية وتتخذ منها موقف اللامبالاة ، وتترك قيادتها للبورجوازية ، بـــل هي ، على العكس ، تعلمها ان تشترك فيها انشط اشتراك واقواه ، وان تناضل اشد نضال في سبيل الديموقراطية البروليتارية الحازمة ، في سبيل اكمال الثورة واتمامها » . (لينين ــ خطتان للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الديموقراطية ــ المؤلفات المختارة ــ المجلد الاول ــ ص ٤٥٠ ــ الطبعة الفرنسية ــ موسكو ، ١٩٤٦) .

ثم يقول فيما بعد :

« يجب ألاّ ننسى ان ليست هناك اليوم ، ولا يمكن ان تكون ، الا وسيلة واحـــدة لتقريب الاشتراكية ، وهي الحرية السياسية الكاملة والجمهورية الديموقراطية » . (المرجع ذاته ــ ص ٥٠٦) .

كان لينين يعتبر ان امام الثورة احد مخرجين ممكنين ، وهما :

أ ــ اما ان تنتهي الامور الى انتصار حاسم على القيصرية ، اي الى قلب القيصرية واقامة جمهورية ديموقراطية .

ب ــ وامـــا ان تنتهي الامور ، اذا لم تكف القوى ، الى تسوية بين القيصر والبورجوازية على حساب الشعب ، اي الى **دستور مبسيخ** او الى كاريكاتور للدستور على الاصح .

ويهم البروليتاريا بلوغ المخرج الافضل ، اي الانتصار الحاسم على القيصرية.
غير ان مخرجاً كهذا غير ممكن البلوغ الا اذا تمكنت البروليتاريا من ان تكون زعيمة الثورة وقائدتها .

كان لينين يقول في ذلك :

« ان مآل الثورة يتوقف على ما يلي :

« هل تقوم الطبقة العاملة بدور المساعد للبورجوازية ، مساعد قوي من حيث شدة هجومه على الاوتوقراطية ، غير انه عاجز من الوجهة السياسية ؟ ام انها ستقوم بدور القائد للثورة الشعبية ؟ » (المرجع ذاته ـ ص ٤١٩) .

كان لينين يرى ان لدى البروليتاريا جميع الممكنات لكي تتجنب مصير المساعد للبورجوازية ، ولكي تصبح قائدة الثورة بالديموقراطية البورجوازية . وكانت هذه الممكنات حسب رأي لينين هي :

اولا : « بما ان البروليتاريا هي ، من حيث وضعها ، الطبقة الثورية الوحيدة الحازمة والمتقدمة اكثر من غيرها ، فانها بحكم ذلك مدعوة الى القيام بدور قيادي في الحركة الثورية الديموقراطية العامة في روسيا » (المرجع ذاته ـ ص ٤٧٠) .

ثانياً : ان للبروليتاريا حزبها السياسي الخاص المستقل عن البورجوازية ، وهو يسمح لها بان تتجمع في « قوة سياسية موحدة ومستقلة» (المرجع ذاته ـ ص ٤٧٠) .

ثالثاً : ان انتصار الثورة انتصاراً حاسماً يهم البروليتاريا اكثر مما يهم البورجوازية ، وينتج من ذلك « ان الثورة البورجوازية هي ، من بعض وجوهها ، مفيدة للبروليتاريا اكثر منها للبورجوازية » (المرجع ذاته ـ ص ٤٤٨) .

ويقول لينين في هذا الصدد ايضاً :

« من المفيد للبورجوازية ، في نضالها ضد البروليتاريا ، ان تستند الى بعض بقايا الماضي ، مثلا : الى النظام الملكي والجيش الدائم .. الخ .. ومن المفيد للبورجوازية ان لا تؤدي الثورة البورجوازية الى تكنيس كل بقايا الماضي

بصورة حازمة جداً، بل ان تبقي على بعضها ، او بعبارة اخرى ، ان لا تكون الثورة حازمة وكاملة تماماً، ولا مكينة شديدة... فالاجدى، بالنسبة للبورجوازية، ان تتم التغييرات ، الضرورية من وجهة النظر الديموقراطية البورجوازية ، باكثر ما يمكن من البطء والاحتراز ، وباقل ما يمكن من الحزم ، اي ان تتم بواسطة اصلاحات لا بواسطة الثورة ... وان تفسح هذه التغييرات اقل مجال ممكن لتطور الاندفاع الثوري والفعالية لدى الطبقات الدنيا ، اي لدى الفلاحين والعمال ، وخصوصاً لدى العمال . اذ انه بغير هذا كله ، يصبح من السهل على العمال ان « ينقلوا بندقيتهم من كتف الى كتف » كما يقول الفرنسيون ، اي ان يديروا الى صدر البورجوازية نفسها تلك الاسلحة التي تقدمها اليهم الثورة البورجوازية، وتلك الحرية التي تطلقها، وتلك المؤسسات الديموقراطية التي ستبرز الى الميدان عند تطهيره من القنانة . اما الطبقة العاملة ، فعلى العكس من ذلك ، اذ ان الاجدى لها ان تحصل على التغييرات الضرورية من وجهة النظر الديموقراطية البورجوازية بالطريق الثوري لا بطريق الاصلاحات ، لان طريق الاصلاحات هو طريق المماطلة واللف والدوران ، هو موت الاجزاء المتفسخة من الجسم الوطني موتاً بطيئاً مؤلماً . ان البروليتاريين والفلاحين هم الذين يتألمون قبل غيرهم من هذا التفسخ ، والطريق الثوري هو بالنسبة للبروليتاريا طريق العملية الجراحية الاسرع والاقل ألماً ، هو الطريق القائم على بتر الاجزاء المتفسخة بعزم وحزم، هو طريق الحد الادنى من التساهل والمداراة تجـــاه النظام الملكي ومؤسساته الدنسة السافلة التي ينخرها التفسخ والتي تسمم الجو بعفونتها». (المرجع ذاته ـ ص ٤٤٨ - ٤٤٩) .

ثم يقول :

« ولهذا تقف البروليتاريا في الصف الاول من النضال لاجل الجمهورية، نابذة باحتقار تلك النصيحة البليدة التي تحط من كرامتها والتي توصيها بان تحسب حساباً لامكان تخاذل البورجوازية » (المرجع ذاته ـــ ص ٤٩٤) .

ولكي تتحول ممكنات تأمين القيادة البروليتارية في الثورة الى حقيقـــة

واقعة ، ولكي تصبح البروليتـاريا في الحقيقة والواقع زعيمـة الثورة البورجوازية وقائدتها ، ينبغي، حسب رأي لينين، ان يتوفر شرطان على الاقل.

فينبغي لذلك ، اولا ، ان يكون للبروليتاريا حليف من مصلحته الانتصار الحاسم على القيصرية ، حليف يمكنه ان يقبل قيادة البروليتاريا ، وهذا ما تفرضه ضمناً فكرة القيادة نفسها ، اذ ان القائد لا يبقى قائداً اذا لم يكن لديه من يقودهم ، والزعيم لا يبقى زعيما اذا لم يكن لديه من يرشدهم . وكان هذا الحليفَ ، في نظر لينين ، جماهير الفلاحين .

وينبغي لذلك ، ثانياً ، ان تُبعد وتُعزل عن قيادة الثورة تلك الطبقة التي تناضل ضد البروليتاريا في سبيل قيادة الثورة ، وتريد ان تكون هي قائدتها الوحيدة . وهذا ما تفرضه ايضاً ، بصورة ضمنية ، فكرة القيادة نفسها ، التي تنفي امكان قبول قائدين في الثورة . وكانت هـذه الطبقة ، في نظر لينين ، البورجوازية الحرة .

يقول لينين :

« ان البروليتاريا وحدها تستطيع ان تكافح في سبيل الديموقراطية بروح الاستمرار والمثابرة ، ولكنها لا تستطيع ان تنتصر في هذا الكفـاح الا اذا انضمت جماهير الفلاحين الى نضال البروليتاريا الثوري . » (المرجع ذاته — ص ٤٥٨) .

ثم يقول :

«ان بين الفلاحين جماهير من العناصر نصف البروليتارية الى جانب العناصر البورجوازية الصغيرة . ويؤدي ذلك الى جعل جماهير الفلاحين ايضاً غير ثابتة، مما يضطر البروليتاريا الى التجمع في حزب طبقي محدد تماماً . ولكن عـدم ثبات جماهير الفلاحين يختلف اختلافاً اساسيا عن عدم ثبات البورجوازية ، اذ ان اهتمام جماهير الفلاحين بالمحافظة المطلقة على الملكية الخاصة هـو في الوقت الحاضر اقل بكثير من اهتمامها بمصادرة اراضي النبلاء التي هي احد الاشكال الرئيسية لهذه الملكية الخاصة . فجماهير الفلاحين ، دون ان تصبح اشتراكية

ودون ان تكف عن كونها بورجوازية صغيرة ، يمكن ان تصبح من اشد انصار الثورة الديموقراطية ، واكثرهم حزماً ، وهي ستصبح كذلك حتما اذا لم ينقطع مجرى الحوادث الثورية — هذه الحوادث التي تثقف جماهير الفلاحين — انقطاعاً مبكراً بنتيجة خيانة البورجوازية واندحار البروليتاريا . فبهذا الشرط ، تصبح جماهير الفلاحين حتما حضن الثورة والجمهورية ، اذ ان الثورة الظافرة ظفراً تاماً هي وحدها التي تستطيع ان تعطي جماهير الفلاحين **كل شيء** في ميدان الاصلاحات الزراعية ، ان تعطيها **كل ما** ترغب فيه وكل ما تحلم به ، وكل ما هو لازم حقاً لها » (المرجع ذاته — ص ٤٩٤).

لقد حلل لينين اعتراضات المنشفيك الذين كانوا يزعمون ان خطة البلشفيك هذه « ستجبر الطبقات البورجوازية على التحول عن الثورة بما يؤدي الى اضعاف مداها » ، ونعت هذه الاعتراضات بانها « خطة خيانة للثورة » و« خطة تجعل البروليتاريا ذيلاً حقيراً للطبقات البورجوازية ».

وقد كتب في هذا الموضوع ما يلي :

« ان من يفهم دور جماهير الفلاحين في الثورة الروسية الظافرة فهما حقيقياً ، لن يقول ابداً بان مدى الثورة سيضعف عندما تتحول البورجوازية عنها ، ذلك لان النهوض الحقيقي للثورة الروسية لن يبدأ فعلاً ، ولان الثورة لن تبلغ اكبر مدى ممكن في عهد الثورة الديموقراطية البورجوازية ، الا عندما تكون البورجوازية قد تحولت عنها ، وعندما تقوم جماهير الفلاحين ، الثائرة جنباً الى جنب مع البروليتاريا ، بدور ثوري نشيط . فلاجل ان تسير ثورتنا الديموقراطية بصورة حازمة الى النهاية ، يجب ان تستند الى قوى قادرة على شل تذبذب البورجوازية المحتوم ، اي قوى قادرة على « اجبارها على التحول » (المرجع ذاته — ص ٤٩٦).

هذا هو المبدأ الخططي الاساسي المتعلق بالبروليتاريا من حيث هي زعيمة الثورة البورجوازية ، المبدأ الخططي الاساسي المتعلق بزعامة البروليتاريا (اي بدورها القيادي) في الثورة البورجوازية ، كما عرضه لينين في مؤلفه: **خطتان**

للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الديموقراطية .

وهنا نرى الموقف الجديد للحزب الماركسي فيما يتصل بمسائل الخطة (التاكتيك) في الثورة الديموقراطية البورجوازية ، وهو موقف يختلف اختلافاً تاماً عن المفاهيم الخططية التي كانت في الجعبة الماركسية سابقاً . فالى ذلك الحين كانت الامور تتمثل كما يلي :

في الثورات البورجوازية ، في الغرب مثلاً ، كانت البورجوازية تحتفظ بدور القيادة والبروليتاريا تقوم ، شاءت ام ابت ، بدور المساعد للبورجوازية ، اما جماهير الفلاحين فتؤلف قوة احتياطية للبورجوازية . وكان الماركسيون يعتبرون هذا الترتيب شيئاً محتوماً لا مناص منه ، وكانوا لا يبدون فيه سوى تحفظ واحد هو ان على البروليتاريا ان تدافع قدر الامكان عن مطالبها الطبقية المباشرة وان يكون لديها حزبها السياسي الخاص بها . اما الان ، في الوضع التاريخي الجديد ، فتتمثل الامور ، حسب مفهوم لينين ، بشكل تصبح معه البروليتاريا هي القوة القائدة للثورة البورجوازية . اما البورجوازية فتزاح عن قيادة الثورة ، بينما تتحول جماهير الفلاحين الى قوة احتياطية للبروليتاريا .

اما التأكيد بان بليخانوف كان « هو ايضاً » من انصار زعامة البروليتاريا ، فهو تأكيد يعود الى ضرب من سوء التفاهم . فان بليخانوف كان يغازل فكرة زعامة البروليتاريا ولا يمتنع عن الاعتراف بها بالكلام . كل هذا صحيح ، غير انه كان في الواقع ضد جوهر هذه الفكرة ، اذ ان زعامة البروليتاريا هي دورها القيادي في الثورة البورجوازية ، حيث تنتهج سياسة **تحالف** مع جماهير الفلاحين ، وسياسة عزل وابعاد حيال البورجوازية الحرة . الا ان بليخانوف كان ، كما هو معلوم ، **ضد** سياسة عزل البورجوازية الحرة . بل كان من انصار سياسة **التفاهم** معها ، كما انه كان **ضد** سياسة التحالف بين البروليتاريا وجماهير الفلاحين . اي ان موقف بليخانوف الخططي كان في الواقع موقفاً منشفيكياً قوامه انكار زعامة البروليتاريا .

٢ ــ كان لينين يرى ان الوسيلة الاساسية لقلب القيصرية والوصول الى الجمهورية الديموقراطية ، هي ثورة الشعب المسلحة . وكان يعتبر ، خلافاً للمنشفيك ، « ان الحركة الثورية الديموقراطية العامة قد **ادت الى ضرورة** الثورة المسلحة » و « ان تنظيم البروليتاريا لاجل الثورة المسلحة » قد اصبح « امراً مطروحاً على بساط البحث من حيث هو مهمة من مهات الحزب الرئيسية الاساسية **والضرورية »** ، وان من اللازم « اتخاذ **احزم** التدابير لتسليح البروليتاريا وتأمين امكان القيادة المباشرة للثورة المسلحة » (المرجع ذاته ــ ص ٤٧١) .

كان لينين يرى ان من الضروري ، لجلب الجماهير الى الثورة المسلحة ، وللعمل بصورة تصبح معهــا الثورة ثورة الشعب باسره ، صوغ شعارات ونداءات الى الجماهير من شأنها ان تفسح المجال لاندفاعها الثوري ، وان تنظمها لاجل الثورة وان تخرب وتبعثر جهاز السلطة القيصرية . اما هذه الشعارات فكانت ، في نظر لينين ، هي القرارات الخططية التي اقرّهــا مؤتمر الحزب الثالث ، والتي كرّس هو للدفاع عنها مؤلفه : **خطتان للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الديموقراطية** .

وكانت هذه الشعارات في رأي لينين كما يلي :

أ) : القيام بـ« الاضرابات السياسية الجماهيرية التي يمكن ان تكون لها اهمية كبرى في بدء الثورة المسلحة وخلالها » (المرجع ذاته ــ ص ٤٧٠) .

ب) : اللجوء الى « تحقيق يوم الثماني ساعات ومطالب الطبقة العاملة الملحة الاخرى تحقيقاً مباشراً بالطرق الثورية » (المرجع ذاته ــ ص ٤٣٥) .

ج) : الشروع حالا في « تنظيم لجان فلاحية ثورية لاجل تطبيق جميع التغييرات الديموقراطية » ، بما فيها مصادرة اراضي النبلاء ، بالطرق الثورية (المرجع ذاته ــ ص ٤٨٦) .

د) : تسليح العمال .

وهنا عنصران هامان بوجه خاص .

فهناك اولا ، خطة تطبيق الثاني الساعات في المدينـــة **والتغييرات** الديموقراطية في الريف ، تطبيقاً **ثورياً**، اي استعمال شكل **لا يأخذ السلطات** بعين الاعتب لا يهتم بالقانون، ويتجاهل المشروعية وهيئات الحكم الموجودة، ويحطم التشريع ري المفعول ، ويقيم نظاماً جديداً بقدرته الخـــاصة وبسلطته الخاصة .

وهي طريقة خططية جديدة ادى تطبيقها الى شل جهاز السلطة القيصرية ، والى فسح مجال حر رحيب لنشاط الجماهير ولاندفاعها الذاتي وروحها الابتكارية الخالقة المبدعة . وعلى اساس هذه الخطة برزت لجان الاضراب الثورية في المدن ولجان الفلاحين الثورية في الريف ، واصبحت الاولى منها ، فيما بعد ، مجالس السوفيات لنواب العمال ، كما اصبحت الثانية مجالس السوفيات لنواب الفلاحين .

وهناك ، من جهة ثانية ، تطبيق **الاضرابات الجماهيرية السياسية** ، اي الاضرابات السياسية العامة التي ستلعب فيما بعد ، خلال الثورة ، دوراً اولياً في تجنيد الجماهير تجنيداً ثورياً ، وهو سلاح جديد رئيسي في ايدي البروليتاريا، لم يكن معروفاً من قبل في نشاط الاحزاب الماركسية ، ولكنه سيكتسب منزلة هامة فيما بعد .

كان لينين يرى ان من الواجب ، عقيب انتصار الثورة الشعبية ، ان تحل محل الحكومة القيصرية حكومة ثورية موقتة ، تكون مهمتها توطيـــد انتصارات الثورة وسحق مقاومة القوى المعادية للثورة وتطبيق برنامج الحـــد الادنى لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا . وكان لينين يعتبر ان من المستحيل احراز انتصار حاسم على القيصرية دون اتمام هـــذه المهمات. ولكن لاجل اتمام هذه المهمات واحراز انتصار حاسم على القيصرية ، ينبغي ان لا تكون الحكومة الثورية الموقتة حكومة عادية ، بل حكومة تمثل ديكتاتورية الطبقات الظافرة ، ديكتاتورية العمال والفلاحين ، اي ان هذه الحكومة ينبغي ان تكون الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا وجماهير الفلاحين. وكان لينين يستشهد بنظرية ماركس المعروفة القائلة بان « كل تنظيم موقت

للدولة بعد الثورة يتطلب ديكتاتورية ، وديكتاتورية حازمة » . وكان لينين يستنتج من ذلك ان الحكومة الثورية الموقتة ، اذا كانت تريد تأمين الانتصار النهائي على القيصرية ، فـلا يمكن ان تكون الا ديكتاتورية البروليتاريا وجماهير الفلاحين .

وقد كتب لينين في هذا الموضوع ما يلي :

« ان انتصار الثورة الحاسم على القيصرية انما هو **الديكتاتورية الديموقراطية الثورية البروليتاريا والفلاحين** ... ان هذا الانتصار سيكون ، بكل تدقيق ، ديكتاتورية ، اي ينبغي ، بالضرورة ، ان يستند الى القوة المسلحة ، الى تسليح الجماهير ، الى الثورة المسلحة ، لا الى هذه او هذه من المؤسسات المؤلفة « شرعياً » بـ « الطريقة السلمية » . هي ديكتاتورية ، ولا يمكن ان تكون الا ديكتاتورية ، لان التغييرات التي هي ضرورية حالا وبصورة مطلقة للبروليتاريا والفلاحين ، ستثير من جانب كبار ملاكي الاراضي و كبار البورجوازيين والقيصرية مقاومة شديدة مستميتة . وبدون ديكتاتورية ، لا يمكن تحطيم هذه المقاومة ورد هجمات القوى المعادية للثورة . غير ان هذه الديكتاتورية لن تكون ، بكل تأكيد ، ديكتاتورية اشتراكية ، بل ديكتاتورية ديموقراطية . فهي لن تستطيع (قبل ان تكون الثورة قد اجتازت مراحل انتقالية مختلفة) ان تمس اسس الرأسمالية . فهي ، في احسن الحالات ، تستطيع الشروع في توزيع الملك العقاري الكبير توزيعاً جديداً اساسياً في صالح جماهير الفلاحين ، وتطبيق الديموقراطية الحازمة تطبيقاً تاماً عميقاً يذهب الى حد اعلان الجمهورية ، واقتلاع بقايا الاستبداد الآسيوي حتى اعمق جذورها ، لا من حياة الارياف فقط ، بل من حياة المعامل ايضاً ، والبدء بتحسين شروط حياة العمال تحسيناً جدياً ورفع مستوى معيشتهم ، واخيراً توسيع نطـاق الحريق الثوري حتى يشمل اوروبا ، وهو امر ، وان اتى آخراً ، ليس في الدرجة الاخيرة من الاهمية ! فهذا الانتصار اذن ، لا يجعل بعد ، من ثورتنا البورجوازية ثورة اشتراكية باي شكل من الاشكال . فلن تخـرج

الثورة الديموقراطية مباشرة من نطاق العلاقات الاجتماعية والاقتصادية البورجوازية . غير انه سيكون لهذا الانتصار ، مع ذلك ، شأن عظيم شاسع في تطور روسيا والعالم باسره في المستقبل ، فما من شيء يرفع العزيمة الثورية لدى البروليتاريا العالمية ويختصر طريقها نحو الظفر التام مثل هذا الانتصار الحاسم للثورة التي بدأت في روسيا » . (المرجع ذاته - ص ٤٥٤ ـــ ٤٥٥).

اما فيما يتصل بموقف الاشتراكية الديموقراطية من الحكومة الثورية الموقتة وامكان اشتراكها فيها ، فكان لينين يدافع عن قرار مؤتمر الحزب الثالث حول هذه القضية بجميع نقاطه ، وهو يقضي بما يلي :

« تبعاً للعلاقة بين مختلف القوى ولعوامل اخرى ليس بالمستطاع تعيينها بدقة مقدماً ، يمكن قبول اشتراك اشخاص مفوضين من قبل حزبنا في حكومة ثورية موقتة ، وذلك للنضال دون هوادة ضد كل المحاولات المعادية للثورة والدفاع عن مصالح الطبقة العاملة الخاصة . اما الشروط التي لا بد منها لهذا الاشتراك فهي : مراقبة الحزب الدقيقة لمفوضيه والمحافظة باستمرار على استقلال الاشتراكية الديموقراطية التي تطمح الى ثورة اشتراكية كاملة ، والتي هي ، بحكم هذا الطموح ، معادية بلا هوادة لجميع الاحزاب البورجوازية. ومن الاهمية بمكان ان تنشر في اوسع الاوساط البروليتارية ، وبصورة مستقلة عن امكان اشتراك الاشتراكية الديموقراطية في الحكومة الثورية الموقتة ، الفكرة التالية : وهي ان من الضروري ان تقوم البروليتاريا المسلحة التي تقودها الاشتراكية الديموقراطية بضغط مستمر على الحكومة الموقتة لاجل حماية انتصارات الثورة وتوطيدها وتوسيعها . » (المرجع ذاته ، ص ٤٢٣ ـــ ٤٢٤) .

اما اعتراضات المنشفيك القائلة بان الحكومة الموقتة ستكون على كل حال حكومة بورجوازية ، فلا يمكن قبول اشتراك الاشتراكيين الديموقراطيين في حكومة كهذه الا اذا اريد الوقوع في الخطأ الذي ارتكبه الاشتراكي الفرنسي ميلران اذ اشترك في حكومة بورجوازية في فرنسا ـــ هذه

الاعتراضات دحضها لينين مبيناً ان المنشفيك يخلطون هنا بين شيئين **مختلفين** ويكشفون عن عدم كفاءتهم لمجابهة المسألة كماركسيين : ففي فرنسا كانت القضية تتعلق بمساهمة الاشتراكيين في حكومة بورجوازية **رجعية** ، وفي وقت لم يكن فيه وضع ثوري في البلاد ، وهو ما كان يوجب على الاشتراكيين عدم الاشتراك في هذه الحكومة ، اما في روسيا فالقضية تتعلق بمساهمة الاشتراكيين في حكومة بورجوازية **ثورية** تناضل في سبيل **انتصار الثورة** ، وذلك في مرحلة صعود الثورة والتهابها ، وهي حالة تجعل من **المقبول** ، بل اذا كانت الظروف ملائمة ، من **الاجباري**، اشتراك الاشتراكيين الديموقراطيين في هذه الحكومة ، لاجل قهر القوى المعادية للثورة وضربها ، لا من تحت او من الخارج **فحسب** ، بل « من فوق » ، من قلب الحكومة ايضاً .

٣ ـ لم يكن لينين في نضاله لاجل انتصار الثورة البورجوازية وتحقيق الجمهورية الديموقراطية ، يفكر ، باي وجه من الوجوه ، في الاقتصار على المرحلة الديموقراطية وقصر اندفاع الحركة الثورية على اتمام الاهداف الديموقراطية البورجوازية فحسب ، فقد كان لينين ، على العكس ، يرى ان لا بد ، فور بلوغ الاهداف الديموقراطية ، من ان يبدأ نضال البروليتاريا والجماهير المستثمَرة الاخرى في سبيل الثورة **الاشتراكية** . كان لينين يعلم ذلك ، وكان يعتبر ان من واجب الاشتراكية الديموقراطية ان تتخذ جميع التدابير الناجعة ، لكي **تتحول** الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية .

فقد كانت ديكتاتورية البروليتاريا وجماهير الفلاحين ضرورية في نظر لينين لا **لانهاء** الثورة بالانتصار على القيصرية فقط ، بل **لاطالة** حالة الثورة اكثر ما يمكن ، ولسحق بقايا القوى المعادية للثورة ، ونشر لهيب الثورة ومدّه الى اوروبا ، ومن ثم ــ بعد ان تكون قد توفرت للبروليتاريا خلال هذه المدة ، الامكانيات اللازمة لكي تتثقف سياسياً وتنتظم في جيش كبير ــ الانتقال مباشرة الى الثورة الاشتراكية .

اما فيما يتعلق بمدى الثورة البورجوازية ، وكذلك بالطابع الذي يجب على

الحزب الماركسي ان يطبع به مدى الثورة ، فقد كتب لينين ما يلي :

« يجب على البروليتاريا ان تحقق الثورة الديموقراطية الى النهاية ، وذلك بان تضم اليها جماهير الفلاحين، لاجل سحق مقاومة الاوتوقراطية بالقوة ، وشل تذبذب البورجوازية . ويجب على البروليتاريا ان تقوم بالثورة الاشتراكية بان تضم اليها جماهير العناصر نصف البروليتارية من السكان ، لاجل تحطيم مقاومة البورجوازية بالقوة ، وشل تذبذب جماهير الفلاحين والبورجوازية الصغيرة . تلك هي مهمات البروليتاريا ، وهي مهمات تعالجها جماعة **الايسكرا** الجديدة (اي المنشفيك — ملاحظة من هيئة التحرير) بشكل ضيق ممسوخ الى آخر حد في جميع محاكماتهم وجميع قراراتهم عن مدى الثورة » (المرجع ذاته — ص ٤٩٦) .

وكتب ايضاً :

« على رأس الشعب باسره، وخصوصاً على رأس الفلاحين ، في سبيل الحرية الكاملة ، في سبيل ثورة ديموقراطية حازمة ، في سبيل الجمهورية ! وعلى رأس جميع الشغيلة وجميع المستثمَرين ، في سبيل الاشتراكية ! هكذا يجب ان تكون عملياً سياسة البروليتاريا الثورية ، وهذا هو الشعار الطبقي الذي ينبغي ان يسود وان يعين حل جميع المسائل الخططية وكل النشاط العملي لحزب العمال خلال الثورة » (المرجع ذاته — ص ٥٠٨).

ولكي لا يبقى اي غموض ، اعطى لينين ، بعد مضي شهرين على صدور كتابه **خطتان** ، الايضاحات التالية في مقاله عن « موقف الاشتراكية الديموقراطية من حركة الفلاحين » :

« ما ان تتم الثورة الديموقراطية حتى نتجه فوراً — وذلك بنسبة قوانا تماماً ، بنسبة قوى البروليتاريا الواعية المنظمة — في طريق الاشتراكية ! اننا من انصار الثورة غير المنقطعة ، اننا لن نقف في منتصف الطريق ». (المرجع ذاته — ص ٤٥٠) .

كان كل ذلك يحوي مفهوماً جديداً عن العلاقة بين الثورة البورجوازية

والثورة الاشتراكية ، ونظرية جديدة عن اعادة تجميع القوى حول البرو
في اواخر الثورة البورجوازية ، للانتقال مباشرة الى الثورة الاشتراكيـــة :
تلك هي نظرية تحويل الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية .

استند لينين ، في وضع هذا المفهوم الجديد ، اولاً ، الى نظرية ماركس المشهورة عن الثورة غير المنقطعة ، وقد صاغها ماركس في اواخر العقد الخامس من القرن الماضي في « رسالة الى عصبة الشيوعيين » ، وثانيــاً الى فكرة ماركس المعروفة حول ضرورة التوفيق بين الحركة الثورية الفلاحية والثورة البروليتارية ، وهي الفكرة التي صاغها في رسالة وجهها الى انجلس في عـــام ١٨٥٦ . وكان يقول فيها :

« سيكون كل شيء في المانيا متوقفاً على امكان دعم الثورة البروليتارية بطبعة جديدة من حرب الفلاحين » .

غير ان افكار ماركس العبقرية هذه لم تُشرح ولم تُطور في مؤلفات ماركس وانجلس فيما بعد ، واتخذ نظريو الدولية الثانية كل التدابير اللازمة لدفن هذه الافكار وطيها في عالم النسيان . وكان ان اخرج لينين نظريات ماركس المنسية الى وضح النهار وبعثها تامة كاملة . غير ان لينين ، في بعثه هذه النظريات ، لم يقتصر — بل لم يكن في استطـــاعته ان يقتصر — على تكرارها واعادتها فقط ، بل طورها الى امام وحولها الى نظرية متناسقة عن الثورة الاشتراكية ، مدخلاً اليها عاملا جديداً ، عـــاملًا **لا بد منه** في الثورة الاشتراكية ، **هو** تحالف البروليتاريا والعناصر نصف البروليتارية في المدينة والريف ، من حيث **هو شرط** لانتصار الثورة البروليتارية .

كان هذا المفهوم يقضي قضاء تاماً عـــلى المواقف الخططية للاشتراكية الديموقراطية في اوروبا الغربية ، التي كانت تعتنق وجهة النظر القائلة بانه ، بعد الثورة البورجوازية ، لا بد ان تبتعد جماهير الفلاحين عن الثورة ، بما في ذلك جماهير الفلاحين الفقراء ، فتأتي بعد الثورة البورجوازية مرحلة هـــدنة طويلة الامد ، مرحلة « بيكون » تدوم من ٥٠ الى ١٠٠ سنة ، هـــذا ان لم تدم

اكثر ، تعاني البروليتاريا خلالها الاستثمار « بصورة سلمية » بينما تغتني البورجوازية وتثري « بصورة شرعية » الى ان تدق ساعة ثورة جديدة ، هي الثورة الاشتراكية .

كان لينين يعطي نظرية جديدة عن الثورة **الاشتراكية** التي لن تحققها البروليتاريا منعزلة وحدها ضد كل البورجوازية ، بل تحققها البروليتاريا التي تمارس الزعامة والتي تجد حلفاء لها في العناصر نصف البروليتارية من السكان ، في « جماهير الشغيلة والمستثمَرين » الغفيرة.

وفقاً لهذه النظرية ، كان ينبغي ان تتحول زعامة البروليتاريا في الثورة البورجوازية ــ حيث **تكون** البروليتاريا **متحالفة** مع جماهير الفلاحين ــ الى زعامة البروليتاريا في الثورة الاشتراكية حيث تكون البروليتاريا متحالفة مع الجماهير الاخرى من الشغيلة والمستثمَرين ، وان تؤدي الدكتاتورية الديموقراطية للبروليتاريا وجماهير الفلاحين الى تهيئة المجال للديكتاتورية الاشتراكية للبروليتاريا .

كانت هذه النظرية تقلب رأساً على عقب النظرية السائدة لدى الاشتراكيين الديموقراطيين في اوروبا الغربية ، الذين كانوا ينكرون الامكانيات الثورية عند الجماهير نصف البروليتارية في المدينة والريف ، ويعتنقون وجهة النظر التالية :

« اننا لا نرى ، خارج البورجوازية والبروليتاريا ، قوى اجتماعية اخرى يمكن ان تستند اليها ، عندنا ، الاتفاقات المعارضة او الثورية » (من تصريح لبليخانوف ، وهو يصور تماماً موقف الاشتراكيين الديموقراطيين في اوروبا الغربية) .

كان الاشتراكيون الديموقراطيون في اوروبا الغربية يعتبرون ان البروليتاريا ستكون ، في الثورة الاشتراكية ، **وحيدة** ضد **كل** البورجوازية ، وستكون **دون** حلفاء ضد **جميع** الطبقات والفئات غير البروليتارية . فهم ما كانوا يريدوا ان يأخذوا بعين الاعتبار ان الرأسمال لا يستثمر البروليتاريين

فقط ، بل يستثمر ايضاً الجماهير الغفيرة من الفئات نصف البروليتارية في المدينة والريف ، هذه الجماهير التي تضطهدها الرأسمالية والتي يمكن ان تصبح حليفة البروليتاريا في النضال الذي تقوم به لتحرير المجتمع من النير الرأسمالي .
ولهذا كان الاشتراكيون الديموقراطيون في أوروبا الغربيـــة يعتبرون ان الظروف لم تكن بعد ناضجة لثورة اشتراكية في اوروبا ، وانه لا يمكن اعتبارها ناضجة الا عندما تصبح البروليتاريا اكثرية الامة ، اكثرية المجتمع ، بنتيجة التطور الاقتصادي المقبل للمجتمع .

كانت النظرية اللينينية عن الثورة الاشتراكية ، تقلب رأساً عـــلى عقب وبشكل حازم ، هذا المفهوم الفاسد الباطل ، والمناقض لمصالح البروليتاريا ، الذي يبشر به الاشتراكيون الديموقراطيون في اوروبا الغربية .

ان نظرية لينين لم تكن تستخلص بعد ، بصورة مباشرة ، امكان انتصار الاشتراكية في قطر واحد مأخوذ لوحده . غير انها كانت تحوي كل العناصر ، او تقريباً كل العناصر الاساسية ، التي كانت ضرورية لاستخلاص مثل هذه النتيجة عاجلاً او آجلاً . ومن المعروف ان لينين وصل الى هذه النتيجة في عام ١٩١٥ اي بعد ١٠ سنوات .

تلك هي المبادىء الخططية الاساسية التي شرحها لينين في مؤلفه الكبير **خطتان للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الديموقراطية** .

ان اهمية هذا المؤلف التاريخية هي ، قبل كل شيء ، في انـــه قضى فكرياً على المفهوم الخططي البورجوازي الصغير عند المنشفيك ، وسلح الطبقة العاملة في روسيا لاجل تطوير الثورة الديموقراطية البورجوازية الى امام والقيام بهجوم جديد ضـــد القيصرية ، واعطى الاشتراكيـــين الديموقراطيين الروس نظرات واضحة عن ضرورة تحويل الثورة البورجوازية الى ثورة اشتراكية .

غير ان اهمية مؤلف لينين لا تقف عند ذلك ، فان ما يجعل له قيمتهُ التي لا تقدر ، هو انه اغنى الماركسية بنظرية جديدة عن الثورة ، ووضـــع

الأسس لخطة حزب البلشفيك الثورية ، هذه الخطة التي بواسطتها احرزت البروليتاريا في بلادنا الانتصار الحاسم على الرأسمالية عام ١٩١٧ .

•

٤ ــ استمرار النهوض الثوري ــ الاضراب السياسي العام في تشرين الاول ١٩٠٥ ــ تراجع القيصرية ــ بيان القيصر ــ تأليف مجالس السوفيات لنواب العمال .

في خريف ١٩٠٥ شملت الحركة الثورية البلاد باسرها ، وكانت تصعد بقوة لا تقاوم .

وفي ١٩ ايلول نشب في موسكو اضراب عمال المطابع ولم يلبث ان امتد الى بطرسبرج وعدد من المدن الاخرى. وفي موسكو نفسها ، تحول الاضراب ، وقد ايده عمال الصناعات الاخرى ، الى اضراب سياسي عام .

وفي اوائل تشرين الاول ، اعلن الاضراب على سكة حديد موسكو ــ قازان ، ولم يمض يوم واحد حتى توقفت كل شبكة خطوط موسكو الحديدية عن العمل ، ولم تلبث الحركة ان امتدت الى جميع السكك الحديدية في البلاد . وكذلك توقف البريد والبرق عن العمل . واخذ الوف العمال يعقدون اجتماعات عامة في مختلف مدن روسيا ويقررون وقف العمل ، فكان الاضراب يمتد من مصنع الى مصنع ، ومن معمل الى معمل ، ومن مدينة الى مدينة ، ومن منطقة الى منطقة . وكان صغار الموظفين والطلاب والمثقفون والمحامون والمهندسون والاطباء ينضمون الى العمال المضربين .

اصبح اضراب تشرين الاول السياسي اضراباً عاماً يشمل تقريباً كل البلاد حتى اقصى مناطقها ، ويجذب في تياره جميع العمال تقريبـــاً حتى اكثرهم تأخراً . وقد شمل الاضراب ما يقرب من مليون عامل من عمال الصناعات ، هذا عدا عمال السكك الحديدية وموظفي البرق والبريد والتليفون وغيرهم ، فقد كان بينهم كذلك عدد كبير من المضربين .

توقفت كل حياة البلاد ، وشلت قوى الحكومة .

وكانت الطبقة العاملة هي التي تتسنم القيادة في نضال الجماهير الشعبية ضد الاوتوقراطية .

لقد كان شعار البلاشفة بالاضراب السياسي الجماهيري يعطي ثماره.

ان اضراب تشرين الاول العام ، الذي اظهر قوة الحركة البروليتارية وشدة بأسها ، اجبر القيصر ، وقد استولى عليه ذعر مميت ، على اذاعة البيان المعروف ببيان ١٧ تشرين الاول ١٩٠٥ ، وكان يعد الشعب فيه بـ « وضع اسس لا تتزعزع للحرية الاهلية، وتأمين حرمة الشخصية تأميناً حقيقياً ، وحرية الاعتقاد والكلام ، وحق الاجتماع والجمعيات » . وكذلك اعطي وعد بعقد « دوما » تشريعية على اساس اشتراك جميع طبقات السكان في الانتخابات .

وهكذا ادى نهوض الثورة الى تكنيس دوما بوليغين الاستشارية، وتبينت صحة الخطة البلشفية بمقاطعة هذه الدوما .

غير ان بيان ١٧ اوكتوبر كان يرمي الى خدع الجماهير الشعبية، ولم يكن سوى احبولة من القيصر، فقد كان بمثابة هدنة من نوع خاص يحتاج اليها القيصر لانامة السذج ، واكتساب الوقت ، وجمع قواه حتى يتمكن من الانقضاض على الثورة فيما بعد . فقد وعدت الحكومة القيصرية بالحرية ولكن في الكلام ، اما في الواقع فلم تمنح اي شيء جوهري . ولم يتلق العمال والفلاحون من الحكومة شيئاً سوى الوعود ، وعوضاً عن العفو السياسي الواسع المنتظر ، لم يشمل العفو الصادر في ٢١ تشرين الاول سوى قسم ضئيل من المعتقلين السياسيين . وفي الوقت نفسه كانت الحكومة تنظم ، لاجل تقسيم قوى الشعب ، سلسلة من المذابح الطائفية الدامية ضد اليهود ، لقي فيها الوف والوف من الناس حتفهم. وكانت ، علاوة على ذلك ، تنشىء، لقمع الثورة ، منظمات بوليسية مؤلفة من الرعاع والاشقياء مثل « اتحاد الشعب الروسي» و«اتحاد ملاك القديس ميشيل». وكان ملاكو الاراضي الرجعيون وكبار التجار والقساوسة ومعهم العناصر الضائعة اجتماعياً من الرعاع والاشقياء، يلعبون دوراً هاماً في هذه المنظمات التي

اطلق عليها الشعب اسم « المئة السود » .

وكان « المئة السود »، بالاتفاق وبالاشتراك مع الشرطة، يعملون الضرب والتقتيل علناً في عمال الطليعة، والمثقفين الثوريين ، والطلاب ، ويسلطون النار والحرق والرصاص على الاجتماعات الشعبية العامة وعلى كل اجتماعات المواطنين. ذاك ما اعطاه بيان القيصر !

وقد شاع اذ ذاك بين الشعب بيتان من الشعر يقولان :

القيصر المذعور اذاع بيانا :

الحرية للاموات ، والسجن للاحياء !

كان البلاشفة يشرحون للجماهير ان بيان ١٧ اوكتوبر ما هو سوى فخ واحبولة ، وكانوا يفضحون سلوك الحكومة بعد اصدار البيان وينعتونه بانه تحد واستفزاز للشعب ، ويدعون العمال الى حمل السلاح ، وتهيئة الثورة المسلحة .

انصرف العمال بحماسة اشد من ذي قبل الى تشكيل فصائل للكفاح ، فقد ادركوا ان الانتصار الاول ، انتصار ١٧ اوكتوبر ، الذي انتزع بالاضراب السياسي العام، يفرض عليهم جهوداً جديدة ، ونضالا جديداً لقلب القيصرية .

كان لينين يعتبر ان اللحظة التي صدر فيها بيان ١٧ اوكتوبر تسجل نوعاً من التوازن بين القوى : ففي هذه اللحظة انتزعت البروليتاريا وجماهير الفلاحين البيان من القيصر ، غير **انهم لم يكونوا قادرين** بعد على اسقاط القيصرية، اما القيصرية نفسها **فاصبحت غير قادرة** على الحكم بالوسائل القديمة وحدها ، بل اضطرت الى **الوعد** في الكلام فقط ، بـ« الحريات الاهلية » وبدوما« تشريعية».

خلال الايام العاصفة ، ايام الاضراب السياسي في تشرين الاول ، وفي معمعان النضال ضد القيصرية ، خلقت عبقرية الجماهير المبدعة سلاحاً جديداًقويا هو سوفيات (اي مجالس) النواب العمال .

ان مجالس السوفيات لنواب العمال ، التي كانت تضم مندوبي جميع المصانع والمعامل ، كانت منظمة سياسية جماهيرية للطبقة العاملة ، لم يعرف العالم لهامثيلا

من قبل. وكانت مجالس السوفيات التي ظهرت لاول مرة في عام ١٩٠٥ هي الشكل الاول لحكم السوفيات الذي انشأته البروليتاريا فيما بعد في عام ١٩١٧، تحت قيادة حزب البلشفيك. ان مجالس السوفيات كانت شكلاً جديداً ثوريا لعبقرية الشعب المبدعة، فقد كانت فقط من صنع الفئات الثورية من الشعب، وكانت تقلب رأساً على عقب كل قوانين القيصرية وكل مقاييسها، وتمثل مظهراً من مظاهر الابتكار والاندفاع الذاتي لدى الشعب الناهض للنضال ضد القيصرية.

كان البلاشفة يعتبرون مجالس السوفيات نواة الحكم الثوري، ويرون ان قوتها واهميتها تتوقفان، بكليتهما، على قوة الثورة المسلحة ونجاحها.

اما المنشفيك فما كانوا يعتبرون مجالس السوفيات هيئات تمثل نواة الحكم الثوري، ولا هيئات للثورة المسلحة، بل كانت في نظرهم هيئات للادارة المحلية وذات استقلال ذاتي، اي ما يشبه بلديات قائمة على اساس ديموقراطي.

في ١٣ (٢٦) تشرين الاول ١٩٠٥، بوشر في جميع مصانع ومعامل بطرسبرج، بانتخاب مجلس السوفيات لنواب العمال، وفي الليلة نفسها عقد مجلس السوفيات اجتماعه الاول. وتألف في موسكو كذلك مجلس سوفيات لنواب العمال، على نمط بطرسبرج.

كان من الواجب ان يلعب مجلس السوفيات لنواب العمال في بطرسبرج دوراً حاسماً في ثورة ١٩٠٥، بوصفه مجلس السوفيات لاكبر مركز صناعي وثوري في روسيا، وعاصمة امبراطورية القياصرة، غير انه لم يستطع القيام بواجباته نظراً لقيادته الفاسدة المنشفيكية. فمن المعلوم ان لينين لم يكن اذ ذاك في بطرسبرج، بل كان لا يزال خارج روسيا. فاستفاد المنشفيك من غيابه للتسلل الى سوفيات بطرسبرج والاستيلاء على قيادته. وعلى ذلك لم يكن من الغريب ان ينجح جماعة المنشفيك امثال خروستاليف، وتروتسكي، وبارفوس وزملاؤهم، في توجيه سوفيات بطرسبرج ضد سياسة الثورة المسلحة. وعوضاً عن العمل لتقريب الجنود من السوفيات، وجمعهم في نضال مشترك، طلبوا سحب الجنود من بطرسبرج. وعوضاً عن تسليح العمال وتهيئتهم للثورة

المسلحة ، كان السوفيات يدب في مكانه مؤكداً بذلــك انه ضد اتخاذ الاستعدادات للثورة .

اما سوفيات نواب العمال في موسكو فقد لعب دوراً آخر في الثورة . فهو منذ ايامه الاولى ، انتهج سياسة ثورية حازمة الى النهاية . وكانت قيادة هذا السوفيات في ايدي البلاشفة ، وبفضلهم تألف في موسكو سوفيات نواب الجنود الى جانب سوفيات نواب العمال ، واصبح سوفيات موسكو هيئة الثورة المسلحة .

من تشرين الاول الى كانون الاول ١٩٠٥ ، انشئت مجالس السوفيات لنواب العمال في عدة مدن هامة ، وفي جميع مراكز العمال تقريباً . وجرت محاولات لتنظيم مجالس سوفياتية من نواب الجنود والبحارة ، ولتوحيدها مع المجالس السوفياتية لنواب العمال . كما تألفت هنا وهنا مجالس سوفياتية لنواب العمال والفلاحين .

كان نفوذ مجالس السوفيات عظيما . ورغم ان تأليفهـا كان يجري على الغالب بصورة عفوية ، ورغم ان اعمالها لم تنظم ، وان تركيبها كان مبهماً ، فانها كانت تعمل كهيئات للسلطة والحكم ، فقد كانت ، بقوتها ، وباسم سلطتها ، تحقق حرية الصحافة ، وتطبق يوم الثماني ساعات ، وتدعو الشعب الى عدم دفع الضرائب للحكومة القيصرية . كما انها كانت في بعض الحالات ، تصادر اموال الحكومة القيصرية وتخصصها لحاجات الثورة .

•

٥ـ الثورة المسلحة في كانون الاول ـ اندحار الثورة المسلحة ـ الثورة تتراجع ـ دوما الدولة الاولى ـ مؤتمر الحزب الرابـــع (مؤتمر التوحيد) .

خلال شهري تشرين الاول وتشرين الثاني ، تابع نضال الجماهير الثوري تطوره بقوة لا تقاوم ، وكانت اضرابات العمال تتوالى دون انقطاع .

وفي خريف ١٩٠٥ اتسع نضال الفلاحين ضد كبار ملاكي الارض اتساعاً عظيماً. فقد شملت الحركة اكثر من ثلث مناطق البلاد . واجتاحت ولايات ساراتوف ، وتامبوف ، وتشرنيكوف ، وتفليس، وكوتاييس ، وغيرها ايضاً، نهضات فلاحية حقيقية قوية . ولكن مع ذلك بقي اندفاع جماهير الفلاحين غير كاف ، وكان ينقص الحركة تنظيم وقيادة .

وكثرت الاضطرابات بين الجنود في مدن عديدة: تفليس،وفلاديفوستك، وطشقند ، وسمرقند ، وكورسك ، وسوخومي ، وفارسوفيا ، وكييف ، وريغا . ووقع تمرد في كرونشتاد، وكذلك وقع تمرد بين بحارة اسطول البحر الاسود في سباستبول (تشرين الثاني ١٩٠٥) . ولكن نظراً لعدم ترابط هذه النهضات فيما بينها ، تيسر للقيصرية سحقها .

ان حركات التمرد في وحدات الجيش والاسطول كانت تعود على الغالب الى فظاظة الضباط ورداءة الغذاء («تمردات الفاصوليا اليابسة») وغير ذلك... فان جمهور البحارة والجنود الثائرين ما كانوا يدركون بعد، ادراكاً واضحاً ، ضرورة قلب الحكومة القيصرية ، ولا ضرورة متابعة النضال المسلح بهمة وحزم . كان مزاج البحارة والجنود المتمردين لا يزال سلمياً جداً ، وهادئاً جداً ، وكانوا في اغلب الاحيان ، يقعون في خطأ فادح هو اطلاق سراح الضباط الذين القي القبض عليهم في بدء حركة التمرد ، كما ان وعود القواد ومواعظهم كانت تنجح في تخديرهم وانامتهم .

اخذت الثورة تتطور الى ثورة مسلحة. وكان البلاشفة يدعون الجماهير الى النهوض المسلح ضد القيصر وكبار ملاكي الاراضي ويبينون لها ان ذلك امر لا بد منه ولا مناص . وكانوا من جهتهم يهيئون هذه الثورة المسلحة دون كلل ويقومون بالعمل الثوري بين الجنود والبحارة . وقد انشئت منظمات عسكرية حزبية في الجيش ، وتألفت من العمال فصائل للكفاح في مدن عديدة ، وكان يجري تدريبها على استعمال السلاح ، ونُظم شراء الاسلحة من الخارج لارسالها سراً الى روسيا ، وكان هناك مناضلون بارزون في الحزب يشتركون في تنظيم

ولايات عديدة شملتها تمردات الفلاحين ، واصدرت الامر الوحشي التالي :
« لا لزوم للاسرى ! لا تبخلوا بالرصاص » ! وامرت باعتقـال قادة الحركة الثورية وتشتيت المجالس السوفياتية لنواب العمال .

فقرر عندئذ بلاشفة موسكو ، وكذلك سوفيات نواب العمال في المدينة الذي كان تحت قيادتهم كما كان مرتبطاً بجماهير العمال الواسعة ، ان يشرعوا في تهيئة الثورة المسلحة حالاً .

وفي ٥ (١٨) كانون الاول ، اتخذت لجنة موسكو ، القرار التالي :

«تقديم اقتراح الى السوفيات باعلان الاضراب السياسي العام لتحويله خـلال النضال الى ثورة مسلحة » .

وقد نال هـذا القرار الموافقة والتأييد في اجتماعات العمال الجماهيرية،وقرر سوفيات موسكو بالاجماع ، طبقاً لارادة الطبقة العاملة ، اعـلان الاضراب السياسي العام .

كانت البروليتاريا في موسكو، حين بدأت الثورة المسلحة ، تملك منظمتها الكفاحية الخاصة المؤلفة من الف شخص تقريباً ، اكثر من نصفهم بلاشفة . وكانت ثمة فصائل للكفاح في اكثر مصانع موسكو . ومن حيث المجموع كان لدى الثائرين في فصائلهم الكفاحية ، ما يقرب من الفي شخص . وكان العمال يفكرون ان في امكانهم دفع الحامية الى اتخاذ موقف حيادي ،وانتزاع قسم منها وجره وراءهم .

نشب الاضراب السياسي في موسكو ، في ٧ (٢٠) كانون الاول. ولكن لم يمكن تعميمه الى جميع انحاء البلاد : فان الاضراب لم يلق تأييداً كافياً من بطرسبرج ، مما أدى منذ البداية ، الى انقاص حظ الثورة المسلحة في النجاح. وبقيت سكة حديد نقولا ، المعروفة اليوم باسم سكة حديد أوكتوبر، فيايدي الحكومة القيصرية ، ولم يتوقف السير على هذا الخط ، فاستطاعت الحكومة ان ترسل من بطرسبرج الى موسكو كتـائب من الحرس لسحق الثورة المسلحة .

اما في موسكو نفسها ، فقد كانت الحامية في حالة تردد ، مع ان من جملة

الدوافع التي دفعت العمال الى اعلان الثورة المسلحة اعتمادهم على تأييد الحامية . ولكن الثوريين كانوا قد تركوا اللحظة المناسبة تفلت منهم، فتمكنت الحكومة القيصرية من قمع الاضطرابات التي نشبت في الحامية .

في ٩ (٢٢) كانون الاول ارتفعت في موسكو المتاريس الاولى. ولم تلبث ان غطت شوارع المدينة . فلجأت الحكومة القيصرية الى المدفعية . كما انها كانت قد جمعت جيوشاً تفوق كثيراً قوى الثائرين ، فناضل بضعة الوف من العمال ببسالة وبطولة خلال تسعة أيام . ولم تستطع القيصرية سحق الثورة المسلحة الا بعد ان جاءت بكتائب من بطرسبرج ومن تفير ومن المناطق الغربية .

اما الهيئات القيادية للثورة المسلحة فقد اعتقل قسم منها ليلة المعركة، وبقي القسم الآخر معزولاً . والقي القبض على اللجنة البلشفية في موسكو ، وتجزأت الحركة المسلحة الى ثورات مسلحة في مختلف الاحياء المنقطع بعضها عن بعض، واقتصرت الاحياء بصورة رئيسية على موقف الدفاع ، وذلك لفقدانها مركزاً قيادياً لها ، ولعدم وجود برنامج نضال يشمل مجموع المدينة . وكان ذلك ، كما بيّن لينين فيما بعد ، السبب الاساسي لضعف الثورة المسلحة في موسكو ، كما كان احد اسباب اندحارها .

تميزت الثورة المسلحة بالشدة والصلابة في احد احياء موسكو المعروف بحي « كراسنايا ــ برسنيا » اذ كان هذا الحي مركز الثورة المسلحة وحصنها الرئيسي ، وفيه تجمعت احسن فصائل الكفاح التي يقودها البلاشفة ، غير ان حي « كراسنايا ــ برسنايا » سحق بالحديد والنار واغرق في الدماء واخذ يلتهب بالحرائق التي اشعلتها المدفعية . وهكذا قهرت الثورة المسلحة في موسكو !

ولكن الثورة المسلحة لم تقع في موسكو وحدها ، فقد اجتاحت النهضات الثورية عدداً من المدن والمناطق الاخرى فوقعت ثورات مسلحة في كراسنويارسك، وموتوفيليكا (برم)، ونوفوروسيسك، وسورموفو، وسباستوبول ، وكرونشتاد.

والقوميات المظلومة في روسيا حملت السلاح بدورها ، فشملت الثورة جورجيا باسرها تقريباً ، واندلعت ثورة هامة في اوكرانيا ، في حوض «الدونيتز»:

غورلوفكا، واليكساندروفسك، ولوغانسك (واسمها الحالي فوروشيلوفغراد).
واتخذ النضال شكلا حاداً في ليتونيا، والف العمال في فنلندا حرسهم الاحمر
واعلنوا الثورة.

الا ان جميع هذه الثورات المسلحة كان نصيبها كنصيب ثورة موسكو،
فسحقتها القيصرية بفظاعة ووحشية.

كان المنشفيك والبلاشفة يقدرون ثورة كانون الاول تقديرين مختلفين.

فعقيب الثورة المسلحة، وجه المنشفيكي بليخانوف اللوم الى الحزب قائلا:
«لم يكن ينبغي حمل السلاح»، وسعى المنشفيك ان يبرهنوا ان الثورة
المسلحة كانت شيئاً ضاراً لا فائدة منه وكان من الممكن الاستغناء عنها في سير
الثورة، وانه كان من الممكن تأمين النجاح لا بالثورة المسلحة بل بوسائل
نضال سلمية.

اما البلاشفة فقد حملوا على هذا التقدير بشدة، ونعتوه بالخيانة، اذ كانوا
يعتبرون ان تجربة الثورة المسلحة في موسكو، قد اكدت ان بامكان الطبقة
العاملة القيام بالنضال المسلح بنجاح. وجواباً على عبارة اللوم التي وجهها
بليخانوف الى الحزب بقوله: «لم يكن ينبغي حمل السلاح»، كتب لينين
ما يلي:

> «بل على العكس كان ينبغي حمل السلاح بشكل احزم، وبعزيمة
> اكبر، وبروح هجومية اشد، كان ينبغي ان يوضح للجماهير ان
> ليس من الممكن الاقتصار على الاضراب السلمي، وان من الضروري
> القيام بنضال مسلح جريء لا هوادة فيه.» (المرجع ذاته ـ ص ٥٤٥).

سجلت الحركة المسلحة في كانون الاول ١٩٠٥ النقطة العليا في الثورة.
ففي كانون الاول انتصرت الاوتوقراطية على الثورة المسلحة. وبعد الاندحار
حدث انعطاف في سير الثورة: فقد بدأت الثورة بالتراجع شيئاً فشيئاً، وبعد
ان صعدت، اخذت تنحدر بالتدريج.

وسارعت الحكومة القيصرية الى استغلال هذا الاندحار للاجهاز على

الثورة. واخذ الجلادون والسجانون القيصريون يبدون نشاطاً دامياً. وراحت البعثات التأديبية تعيث مطلقة العنـــان في بولونيا وليتونيا واستونيا وعبر القوقاز وسيبيريا .

غير ان الثورة لم تكن قد سُحقت بعد ، فان العمال والفلاحين الثوريين كانوا يتقهقرون ببطء وهم يتابعون النضال . وانجرت جماعات جديدة من العمال الى النضال ، وشملت الاضرابات اكثر من مليون عامل في عام ١٩٠٦ كما شملت ٧٤٠٫٠٠٠ عامل في عام ١٩٠٧ . وفي النصف الاول من عام ١٩٠٦ مست حركة الفلاحين ما يقرب من نصف مقاطعات روسيا القيصرية ، وفي النصف الثاني من العام نفسه ، مست خمس مجموع المقاطعات . كما ان الاضرابات استمرت في الجيش والاسطول .

لم تقتصر الحكومة القيصرية ، في نضالها ضد الثورة ، على تدابير القمع والاضطهاد وحدها ، فانها ، بعد ان حصلت على نجاح اولي عن طريق القمع ، قررت توجيه ضربة اخرى الى الثورة بدعوة دوما جديـــدة ، هي الدوما « التشريعية ». وكان املها من ذلك ان تفصل الفلاحين عن الثورة حتى تزعزع اركانها تماماً . فاصدرت في كانون الاول ١٩٠٥ قانوناً بدعوة دوما جديدة « تشريعية » خلافاً للدوما القديمة ، دوما بوليغين ، التي كانت « استشارية » والتي كنستها حركة المقاطعة البلشفية . كان قانون القيصر الانتخابي منافياً طبعاً للديموقراطية ، فلم تكن الانتخابات قائمة على التصويت العام ، بل كان اكثر من نصف السكان محرومين حق التصويت ، فالنساء مثلاً ، ومعهن اكثر من مليوني عامل ، كانوا محرومين هذا الحق . ولم تكن الانتخابات قائمة على مبدأ التساوي ، بل قسم الناخبون الى اربعة اصناف ، او اربعة « بيوت » حسب تعبير ذاك العهد : صنف الملكية العقـــارية (اي كبار مـلاكي الاراضي) ، وصنف المدن (البورجوازية) ، وصنف الفـلاحين ، وصنف العمال . ولم تكن الانتخابات مباشرة على درجة واحدة بل كانت على درجات عديدة . كذلك لم يكن التصويت سرياً في الواقـــع . وهكذا كان القانون

الانتخابي يضمن ان يكون لحفنة من كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين تنزق عظيم في الدوما على ملايين من العمال والفلاحين .

كان القيصر يريد صرف الجماهير عن الثورة بواسطة الدوما ، فقد كان قسم هام من جماهير الفلاحين ما يزال يعتقد في ذلك الحين ان من الممكن استلام الارض بواسطة الدوما . وكان الكاديت والمنشفيك والاشتراكيون الثوريون يخدعون العمال والفلاحين بقولهم ان من الممكن تحقيق النظام الذي يريده الشعب بدون نهوض مسلح وبدون ثورة . وفي النضال ضد هذا التضليل والخداع ، اعلن البلاشفة وحققوا فعلا خطة مقاطعة دوما الدولة الاولى طبقاً للقرار المتخذ في تاميرفورس .

كان العمال في نضالهم ضد القيصرية يطالبون بتحقيق وحدة قوى الحزب ، وتوحيد حزب البروليتاريا ، فايد البلاشفة طلب العمال استناداً الى قرار مجلس تاميرفورس عن الوحدة ، واقترحوا على المنشفيك دعوة مؤتمر لتوحيد الحزب وقد قبل المنشفيك بالتوحيد تحت ضغط جماهير العمال .

كان لينين من انصار التوحيد، على ان يكون توحيداً لا يؤدي الى طمس الاختلافات في قضايا الثورة . اما التفاهميون (بوغدانوف ، وكراسين ، وآخرون) ، الذين كانوا يبذلون الجهد ليبرهنوا ان ليست ثمة خلافات جدية بين البلاشفة والمنشفيك ، فقد سببوا ضرراً كبيراً للحزب . وقد طلب لينين ، في نضاله ضدهم ، ان يتقدم البلاشفة في المؤتمر ببرنامجهم الخاص ، حتى يرى العمال بوضوح ما هي مواقف البلاشفة وعلى اي اساس يجري التوحيد. فوضع البلاشفة هذا البرنامج وعرضوه على اعضاء الحزب للمناقشة .

وهكذا انعقد في ستكهولم ، في نيسان ١٩٠٦ ، المؤتمر الرابع لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ، وهو المؤتمر الذي سمي بمؤتمر الوحدة . وقد اشترك فيه ١١١ مندوباً باصوات فعلية يمثلون ٥٧ منظمة محلية للحزب . وحضر المؤتمر علاوة على ذلك ممثلون من الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية القومية وهم ٣ من البوند، و٣ من الحزب الاشتراكي الديموقراطي

البولوني، و ٣ من المنظمة الاشتراكية الديموقراطية في ليتونيا .

لقد اصيبت المنظمات البلشفية اصابات قاسية خلال الثورة المسلحة في كانون الاول وبعدها ، ولذلك لم تستطع جميعها ارسال مندوبين عنها. وعلاوة على ذلك ، قبل المنشفيك في صفوفهم ، خلال « ايام الحرية » في عام ١٩٠٥ ، جمهوراً من المثقفين البورجوازيين الصغار الذين لم يكونوا يمتون الى الماركسية الثورية باية صلة . ويكفي القول ان المنشفيك في تفليس (ولم يكن في هذه المدينة كثير من العمال الصناعيين) ارسلوا الى المؤتمر عدداً من المندوبين يساوي العدد الذي ارسلته اكبر منظمة بروليتارية وهي منظمة بطرسبرج.

وهكذا وجدت في المؤتمر اكثرية ــ ضئيلة في الواقع ــ بجانب المنشفيك .

ان تركيب المؤتمر على هذا الشكل طبع قراراته بطابع منشفيكي حول سلسلة من القضايا .

اما الوحدة التي تحققت في هذا المؤتمر فقد كانت صورية وشكلية محضة ، ففي الواقع حافظ كل من البلاشفة والمنشفيك على مفهوماتهم ومنظماتهم الخاصة .

كانت القضايا الرئيسية التي بحثها المؤتمر الرابع هي : المسألة الزراعية ، الوضع الحاضر واهداف البروليتاريا الطبقية ، الموقف تجاه دوما الدولة ، قضايا التنظيم .

رغم ان المنشفيك كانوا اكثرية في المؤتمر ، فقد اضطروا ، لكيلا يبعدوا العمال عنهم ، الى قبول الصيغة التي وضعها لينين للمادة الاولى من النظام الداخلي للحزب وهي تتعلق بصفات عضو الحزب .

اما في المسألة الزراعية ، فقد دافع لينين عن تأميم الارض وكان يرى ان هذا التأميم غير ممكن الا بنجاح الثورة ، وبعد قلب القيصرية ، وعندها يجعل تأميم الارض من السهل على البروليتاريا ، المتحالفة مع الفلاحين الفقراء ، الانتقال الى الثورة الاشتراكية . وكان تأميم الارض يقضي ضمناً بمصادرة كل اراضي النبلاء في صالح الفلاحين بدون اي تعويض .

لقد كان البرنامج الزراعي البلشفي يدعو الفلاحين الى الثورة على القيصر

و كبار ملاكي الاراضي .

اما المنشفيك فكانت لهم مواقف اخرى ، فقد كانوا يدافعون عن برنامج يقضي بوضع الارض **تحت تصرف البلديات** . فالاراضي ، وفقاً لهذا البرنامج، لا ينبغي ان تسلم لمجموعات الفلاحين لكي تتصرف بها بحرية ، او لكي يكون لها فيها حق التمتع على الاقل ، بل يجب ان توضع تحت تصرف البلديات (اي الادارات المحلية المستقلة أوالزمستفو) ثم يستأجر الفلاحون هذه الاراضي ، كل حسب وسائله .

كان برنامج المنشفيك بوضع الارض تحت تصرف البلديات برنامجاً تفاهمياً ، وفي النتيجة برنامجاً ضاراً بالثورة . فلم يكن من الممكن ان يجند هذا البرنامج جماهير الفلاحين للنضال الثوري ، كما انه لم يكن يستهدف الغاء ملكية النبلاء للارض الغاء تاماً . لقد كان البرنامج المنشفيكي يرمي الى ايجاد مخرج متوسط مهجّن (١) للثورة .فان المنشفيك ما كانوا يريدون انهاض الفلاحين الى الثورة.

ومع ذلك اقر المؤتمر ، باكثرية الاصوات ،البرنامج المنشفيكي .

لقد فضح المنشفيك حقيقتهم من حيث هم انتهازيون وخصوم للبروليتاريا ، خصوصاً بمناسبة القرار عن الوضع الحاضر وعن دوما الدولة . فقد اعترض المنشفيكي مارتوف ، بصورة سافرة ،على زعامة البروليتاريا في الثورة . وجواباً على المنشفيك وضع الرفيق ستالين المسألة بشكل حاسم فقال :

« إما زعامة البروليتاريا وإما زعامة البورجوازية الديموقراطية: ان المسألة موضوعة على هذا الشكل في الحزب ، وهذه هي النقطة التي تدور حولها خلافاتنا . »

اما دوما الدولة فكان المنشفيك يمجدونها في قرارهم بوصفها احسن وسيلة لحل مسائل الثورة وتحرير الشعب من القيصرية . اما البلاشفة ، فكانوا ، على العكس، يعتبرون الدوما ذيلاً لقيصر ، لا حول له ولا قوة ، وستاراً يرمي الى تغطية جراح القيصرية ، وسوف ترميه القيصرية جانباً عندما يصبح غير ملائم لها.

---

(١) « مبندق » (هيئة التعريب)

ضمت اللجنة المركزية التي انتخبها المؤتمر الرابع ، ٣ من البلاشفة و ٦ من المنشفيك. ودخل المنشفيك وحدهم في هيئة تحرير الجريدة المركزية ، وقد كان من الواضح ان النضال سيستمر في داخل الحزب .

وفعلا ازداد النضال شدة بين البلاشفة والمنشفيك بعد المؤتمر الرابع. وكان يشاهد غالباً في المنظمات المحلية ، الموحدة رسمياً ، مقرران يقدم كل منهما تقريره عن المؤتمر ، احدهما من البلاشفة والآخر من المنشفيك . وبعد مناقشة الخطتين ، كانت اكثرية اعضاء المنظمة تنحاز في اغلب الاحيان الى البلاشفة .

كانت الحياة تبرهن ، يوماً بعد يوم وبشكل اوضح فاوضح ، ان البلاشفة على حق . واظهرت اللجنة المركزية المنشفيكية المنتخبة في المؤتمر الرابع ، اكثر فاكثر ، انتهازيتها وعدم كفاءتها لقيادة نضال الجماهير الثوري . ففي الصيف والخريف من عام ١٩٠٦ ، عاد نضال الجماهير الثوري الى الاشتداد ، وثار البحارة في كرونشتاد وسفيبورغ . وانطلق نضال الفلاحين ضد كبار ملاكي الاراضي . وخلال ذلك كانت اللجنة المركزية المنشفيكية تضع شعارات انتهازية لم تتبعها الجماهير .

•

٦ ــ حل دوما الدولة الاولى ــ دعوة دوما الدولة الثانية ــ مؤتمر الحزب الخامس ــ حل دوما الدولة الثانية ــ اسباب اندحار الثورة الروسية الاولى.

رأت الحكومة القيصرية ان دوما الدولة الاولى لا تتصف بما يكفي من الطاعة والانقياد ، فامرت بحلها في صيف عام ١٩٠٦ ، وشددت وطأة الاضطهاد والارهاق على الشعب ، وارسلت البعثات التأديبية تطوف في انحاء البلاد ، واعلنت قرارها القاضي بدعوة دوما الدولة الثانية في امد قريب . واصبحت وقاحة الحكومة ظاهرة للعيان ، فهي لم تعد تخشى الثورة اذ كانت تراها سائرة في هبوط .

كان على البلاشفة ان يحلوا المسألة التالية : هل يشتركون في الدوما الثانية ام يقاطعونها ؟ وكان البلاشفة يعنون عادة بالمقاطعة ، مقاطعة نشيطة فعالة ، لا مجرد استنكاف جامد عن الانتخاب ، اذ كانوا يعتبرون المقاطعة النشيطة الفعالة وسيلة ثورية غايتها تنبيه الشعب وتحذيره من محاولات القيصرية الرامية الى تحويل الشعب عن طريق الثورة الى طريق « الدستور » القيصري ، اي وسيلة لاحباط هذه المحاولات وتنظيم هجوم جديد من الشعب على القيصرية .

واظهرت التجربة ، حين مقاطعة دوما بوليغين « ان المقاطعة كانت الخطة الصحيحة الوحيدة ، الخطة التي اثبتت الحوادث صحتها تماماً » .(لينين : المرجع ذاته ــ ص ٥٠٦) .

وقد نجحت هذه المقاطعة ، لا لانها جنبت الشعب خطر السير في طريق الدستور القيصري فقط ، بل لانها ايضا احبطت الدوما حتى قبل ان تولد . لقد نجحت لانها طبقت في مرحلة نهوض الثورة المتعاظم ، وقد دعمها هذا النهوض ، لا في مرحلة هبوط الثورة ــ اذ لم يكن من الممكن احباط الدوما الا في مرحلة نهوض الثورة .

اما مقاطعة دوما « فيت » ، اي الدوما الاولى ، فقد جرت بعد ان منيت ثورة كانون الاول بالاندحار ، وخرج القيصر منها ظافراً ، اي في وقت كان من الممكن التفكير فيه بان الثورة تنحدر وتهبط .

« ولكن من المسلم به انه لم يكن هناك بعد ، ما يدعو الى اعتبار هذا الانتصار (اي انتصار القيصر ــ ملاحظة من هيئة التحرير) انتصاراً حاسماً . فان ثورة كانون الاول ١٩٠٥ قد وجدت امتداداً لها في كل تلك السلسلة من النهضات العسكرية والاضرابات المتفككة او الجزئية ، التي جرت في صيف ١٩٠٦ ، فشعار مقاطعة دوما فيت ، كان شعار النضال في سبيل تركيز هذه النهضات وتعميمها » . (لينين ــ المؤلفات الكاملة ــ المجلد ١٢ ــ ص ٢٠) .

ولم تستطع هذه المقاطعة احباط دوما «فيت»،وان كانت قد نالت كثيراً من هيبتها ، واضعفت ما كان لدى فريق من السكان من الايمان بها . انها لم تستطع احباط الدوما لانها جرت ، كما تبين فيما بعد بوضوح ، في ظروف اندحار الثورة ، في ظروف انحطاطها وهبوطها .

هذا هو السبب في عدم نجاح مقاطعة الدوما الاولى في عام ١٩٠٦ . وقد كتب لينين حول هذا الموضوع في مؤلفه المشهور : **مرض الطفولة او «اليسارية» في الشيوعية** ، ما يلي :

« ان المقاطعة البلشفية لـ« البرلمان» في عام ١٩٠٥ ، تقدم للبروليتاريا الثورية تجربة سياسية غنية وثمينة جداً ، اذ تبين لها ان من الامور المفيدة احياناً ، بل من الامور الاجبارية — وذلك حينما تُستخدم ، في الوقت نفسه ، اشكال نضال مشروعة وغير مشروعة ، برلمانية وغير برلمانية — معرفة التخلي عن الاشكال البرلمانية ... لقد كانت مقاطعة « الدوما » من قبل البلاشفة في ١٩٠٦ خطأ ، وان كان هذا الخطأ قليل الخطورة وسهل التلافي .. فان ما يصح على الافراد يمكن تطبيقه ، فيما اذا تساوت العوامل والظروف ، على السياسة والاحزاب . فليس الانسان الذكي ذاك الذي لا يقع في اخطاء . فان اناساً من هذا النوع غير موجودين ، ولا يمكن ان يوجدوا . اما الذكي فهو الذي يرتكب اخطاء غير خطيرة جداً ، ويعرف ان يصلحها بسهولة وسرعة » . (لينين — المؤلفات المختارة — المجلد الثاني) .

اما فيما يتعلق بالدوما الثانية ، فكان لينين يعتبر ان « من واجب البلاشفة» ، امام تغير الحالة وهبوط الثورة ، « ان يعيدوا النظر في مقاطعة دوما الدولة » (لينين — المؤلفات الكاملة — المجلد ١٠ — ص ٢٦ — الطبعة الروسية) .

وقد كتب لينين في ذلك :

« لقد بيّن التاريخ ان من الممكن، عندما تجتمع الدوما ، القيام بتحريض مفيد داخل هذه الدوما وحولها ، وان خطة التقرب من جماهير الفلاحين الثورية ضد الكاديت ، هي خطة ممكنة في قلب الدوما » (لينين ــ المؤلفات المختارة ــ المجلد الاول ــ ص ٥٥٤).

يُستخلص من ذلك ان ليس من الواجب فقط ان نعرف كيف نسير الى الهجوم بحزم وعزيمة ، كيف نسير الى الهجوم في الصفوف الاولى عندما تكون الثورة في نهوض ، بل ان نعرف ايضاً ان نتراجع بنظام ، ان نتراجع بعد الجميع ، عندما يكون النهوض الثوري قد انتهى ، وذلك بتغيير الخطة وفقاً لتغير الحالة ، وان لا نتراجع دون نظام ، بل ان نتراجع بشكل منظم ، وبهدوء ، دون ذعر ودون ارتباك ، مع استثمار الامكانيات مهما كانت قليلة لانتزاع الكادر (١) من تحت ضربات العدو ، ومن ثم تنظيم الصفوف من جديد وتكديس القوى والاستعداد لهجوم جديد .

قرر البلاشفة الاشتراك في انتخابات الدوما الثانية .

غير انهم ما كانوا يذهبون الى الدوما للقيام بعمل « تشريعي » ، عضوي، بالتكتل مع الكاديت كما كان يفعل المنشفيك ، بل لاستخدام الدوما كمنبر في مصلحة الثورة .

اما اللجنة المركزية المنشفيكية ، فكانت على العكس ، تدعو الى عقد اتفاقات انتخابية مع الكاديت ، والى تأييد الكاديت في الدوما التي كانوا يعتبرونها هيئة تشريعية قادرة على كبح جماح الحكومة القيصرية .

وقفت اكثر منظمات الحزب ضد سياسة اللجنة المركزية المنشفيكية .

وطلب البلاشفة عقد مؤتمر جديد .

وفي ايار ١٩٠٧ ، انعقد في لندن المؤتمر الخامس للحزب ، وكان حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا يضم اذ ذاك (مع المنظمات الاشتراكية الديموقراطية القومية) ، ما يقارب ١٥٠٫٠٠٠ عضو، وقد حضر المؤتمر ٣٣٦

(١) الكادر : الملاكات .
(هيئة التعريب)

مندوباً . وكان عدد البلاشفة ١٠٥ ، وعدد المنشفيك ٩٧ ، وكان المندوبون الاخرون يمثلون المنظمات الاشتراكية الديموقراطية القومية ، وهي منظمات الاشتراكيين الديموقراطيين البولونيين ، والليتونيين ، والبوند ، وكانت قد قبلت في الحزب في المؤتمر السابق .

حاول تروتسكي ان يؤلف في المؤتمر فريقاً صغيراً خاصاً به ، يكون فريقاً وسطياً ، اي نصف منشفيكي ، ولكن لم يتبعه احد .

وقد اجتذب البلاشفة الى جانبهم البولونيين والليتونيين فجمعوا اكثرية ثابتة في المؤتمر .

كانت احدى المسائل الرئيسية التي جرى فيها البحث ، مسألة الموقف تجاه الاحزاب البورجوازية. وهي مسألة كانت موضع نضال بين البلاشفة والمنشفيك في المؤتمر الثاني . وقد اعطى المؤتمر الخامس تقديراً بلشفياً عن كل الاحزاب غير البروليتارية ـــ مثـــل المئة السود ، والاوكتوبريـــين ، والكاديت ، والاشتراكيين الثوريين ـــ واقر خطة بلشفية تجاه هذه الاحزاب .

وافق المؤتمر على السياسة البلشفية وقرر القيام بنضال لا هوادة فيه سواء ضد احزاب المئة السود (« اتحاد الشعب الروسي » ، والملكيين ، ومجلس النبلاء المتحدين) او ضد « اتحاد ١٧ اوكتوبر » (او الاوكتوبريين) ، وضد الحزب الصناعي التجـــاري ، وحزب « التجديد السلمي » . فان جميـــع هذه الاحزاب كانت معادية للثورة بصورة جلية واضحة .

اما فيما يتصل بالبورجوازية الحرة ، اي حزب الكاديت ، فقـــد اقترح المؤتمر القيام بحملة لا هوادة فيها لفضحها. وقد دعا المؤتمر الى فضح «ديموقراطية» حزب الكاديت الكاذبة القائمة على الرياء والنفاق ، كما دعا الى النضال ضـــد المساعي التي تبذلها البورجوازية الحرة لاخذ القيادة في حركة الفلاحين .

اما فيما يتعلق بالاحزاب المسماة بالاحزاب الشعبية او احزاب العمـــل (الاشتراكيين الشعبيين ، وفريق العمل ، والاشتراكيين الثوريين) فقـــد اوصى المؤتمر بفضح محاولاتهم للتجلبب بجلباب الاشتراكية ، غير انه اقر امكان

عقد بعض الاتفاقات مع هذه الاحزاب لتنظيم هجوم مشترك من الجانبين ضد القيصرية ، وضد البورجوازية المتمثلة في حزب الكاديت ، ذلك لان هذه الاحزاب كانت في ذلك العهد احزاباً ديموقراطية تفصح عن مصالح البورجوازية الصغيرة في المدن والارياف .

اقترح المنشفيك ، قبل عقد المؤتمر ، عقد ما اسموه « مؤتمر عمال » يشترك فيه الاشتراكيون الديموقراطيون والاشتراكيون الثوريون والفوضويون ، وكان على « مؤتمر العمال » هذا ان يخلق شيئاً ك « حزب لا حزبي » اوحزب عمال « واسع » بورجوازي صغير لا برنامج له . وقد حمل لينين على هذه المحاولة المنشفيكية الضارة الرامية الى تصفية حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي واذابة الفصيلة الطليعية للطبقة العاملة بين الجماهير البورجوازية الصغيرة . وقد استنكر المؤتمر بمنتهى الصرامة شعار المنشفيك عن « مؤتمر العمال » هذا .

احتلت مسألة النقابات مكاناً على حدة في اعمال المؤتمر . وكان المنشفيك يدافعون عن « حياد » النقابات ، اي انهم كانوا ضد دور الحزب القيادي في النقابات . وقد رد المؤتمر اقتراح المنشفيك ووافق على القرار البلشفي عن النقابات : وهو ينص على ان من واجب الحزب الاستيلاء على القيادة الفكرية والسياسية في النقابات .

دلّ المؤتمر الخامس على ان البلاشفة احرزوا انتصاراً كبيراً في حركة العمال ، غير ان البلاشفة لم يداخلهم الغرور ، ولم يناموا على اكاليل الظفر . فليس ذلك ما علمهم اياه لينين . كان البلاشفة يعلمون ان امامهم ، بعد ، نضالا شديداً ضد المنشفيك .

اعطى الرفيق ستالين ، في مقاله « ملاحظات مندوب » الذي نشر في عام ١٩٠٧ ، التقدير التالي عن نتائج المؤتمر :

« جمع العمال المتقدمين في كل روسيا بصورة فعلية في حزب واحد تحت علم الاشتراكية الديموقراطية الثورية : ذاك هو

مغزى مؤتمر لندن ، وتلك هي صبغته العامة » .

واورد الرفيق ستالين معلومات عن تركيب المؤتمر ، فبين ان المندوبين البلاشفة ارسلتهم الى المؤتمر ، بصورة رئيسية ، المناطق الصناعية الكبرى (بطرسبرج ، موسكو ، الاورال ، ايفانوفو ــ فوزنيسانسك الخ ...) . اما المنشفيك فقد اوفدتهم الى المؤتمر مناطق الانتاج الصغير حيث التفوق للحرفيين وانصاف البروليتاريين ، وكذلك عدد من المناطق التي هي ، في الاساس ، مناطق فلاحين . وقد قال الرفيق ستالين في كلامه عن خلاصة اعمال المؤتمر :

« من الواضح ان خطة (تاكتيك) البلاشفة هي خطة بروليتاريي الصناعة الكبرى ، خطة المناطق التي اصبحت فيها التناقضات الطبقية واضحة كل الوضوح ، والنضال الطبقي عنيفاً كل العنف ، فالبلشفية هي خطة البروليتاريين الحقيقيين . ومن الواضح ، من جهة اخرى ، ان خطة المنشفيك هي ، بوجه خاص ، خطة الحرفيين وانصاف البروليتاريين من الفلاحين ، خطة المناطق التي ليست التناقضات الطبقية فيها واضحة تماماً ، والنضال الطبقي فيها مستتر . فالمنشفية هي خطة العناصر نصف البورجوازية في البروليتاريا . ذلك ما تشهد به الارقام . » (محاضر المؤتمر الخامس لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا : ص ١١ــ١٢ ، الطبعة الروسية ١٩٣٥) .

كان القيصر ، حينما حل الدوما الاولى ، يأمل الحصول على دوما ثانية اكثر طواعية وانقياداً . غير ان الدوما الثانية ايضاً لم تحقق له ما كان ينتظر . فقرر القيصر اذ ذاك حلها هي ايضاً ، ودعوة دوما ثالثة على اساس قانون انتخابي اسوأ من سابقه ، بأمل ان تكون هذه الدوما اخيراً اطوع واسهل قياداً.

بعد المؤتمر الخامس بقليل ، اجرت الحكومة القيصرية ما اصطلح على تسميته انقلاب ٣ حزيران الحكومي : ففي ٣ حزيران ١٩٠٧ امر القيصر

بحل دوما الدولة الثانية ، واعتقل الفريق الاشتراكي الديموقراطي في الدوما ، وكان يضم ٦٥ نائباً ، ونفي الى سيبريا . ووضع قانون انتخابي جديد انتقصت فيه حقوق العمال والفلاحين ايضاً وايضاً . وهكذا كانت الحكومة القيصرية تتابع هجومها .

سلط الوزير القيصري ستوليبين اضطهاداً دامياً على العمال والفلاحين ، فقتلت البعثات التأديبية الوف العمال والفلاحين الثوريين رمياً بالرصاص او شنقاً . وكان الثوريون يعذبون في سجون القيصر المظلمة تعذيباً فظيعاً ، واتخذ الاضطهاد شكلاً وحشياً ضد منظمات العمال بوجه خاص وفي الدرجة الاولى ضد البلاشفة . وكان كلاب القيصرية يبحثون عن لينين الذي كان يعيش سراً في فنلندا ، فقد كانوا يريدون التخلص من زعيم الثورة . غير ان لينين ، بعد ان اقتحم الف خطر ، نجح مرة اخرى في اجتياز الحدود في كانون الاول ١٩٠٧ ، وهاجر من جديد الى الخارج .

وتبعت ذلك سنوات الرجعية الستوليبينية السوداء المظلمة .

لقد انتهت الثورة الروسية الاولى بالاندحار . فما هي الاسباب التي ادت الى ذلك ؟

١ — لم يكن في الثورة ، بعد ، تحالف متين بين العمال والفلاحين ضد القيصرية . فقد نهض الفلاحون الى النضال ضد كبار ملاكي الاراضي ، وكانوا يقبلون التحالف مع العمال ضد هؤلاء الملاكين ، ولكنهم ما كانوا يدركون بعد ، ان من المستحيل قلب كبار ملاكي الاراضي دون قلب القيصرية ، ما كانوا يدركون ان القيصر هو حليف كبار ملاكي الاراضي . فقد كان فريق كبير من الفلاحين لا يزال لديهم ايمان بالقيصر ، وكانوا يبنون الآمال على الدوما القيصرية . ولهذا كان كثيرون من الفلاحين لا يرغبون في تحالف مع العمال غايته قلب القيصرية . لقد كان الفلاحون يؤمنون بالحزب التفاهمي ، حزب الاشتراكيين الثوريين ، اكثر من ايمانهم بالثوريين الحقيقيين : البلاشفة . وكانت النتيجة ان نضال

الفلاحين ضد كبار ملاكي الاراضي لم يكن منظماً تنظيما كافياً . وقد اشار لينين الى ذلك بقوله :

«كان الفلاحون يعملون بصورة مبعثرة جداً وغير منظمة ، ولم يكن هجومهم كافي الاندفاع . وكان ذلك احد الاسباب الاساسية في اندحار الثورة .» (لينين ــ المؤلفات الكاملة ــ المجلد ١٩ ــص ٣٥٤ ــ الطبعة الروسية) .

٢ ــ ان رفض قسم هام من الفلاحين السير مع العمال لقلب القيصرية ، كان ظاهر الاثر كذلك في موقف الجيش الذي كان باكثريته مؤلفاً من ابناء الفلاحين المتجلببين بلباس الجندي . لقد وقعت اضطرابات وحركات تمرد في بعض وحدات الجيش القيصري ، غير ان اكثر الجنود كانوا ما يزالون يساعدون القيصر على قمع الاضرابات ونهضات العمال الثورية .

٣ ــ لم يكن العمال انفسهم يعملون بتلاحم وتناسق كافيين. فقد قامت الفصائل المتقدمة من الطبقة العاملة بنضال ثوري بطولي عام ١٩٠٥ . اما الجماعات المتأخرة جداً ــ اي عمال المناطق ذات الصناعات القليلة ، الساكنون في القرى ــ فقد كانوا ابطأ في التحرك والنهوض ، وقد اتسع اشتراكهم في النضال الثوري خصوصاً في عام ١٩٠٦ ، ولكن ، في هذا التاريخ ، كانت طليعة الطبقة العاملة قد ضعفت ضعفاً محسوساً .

٤ ــ كانت الطبقة العاملة قوة الطليعة، القوة الاساسية في الثورة، الا ان الوحدة والتلاحم اللازمين كانا مفقودين في صفوف حزب الطبقة العاملة ، حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا . فقد كان منقسماً الى فريقين : البلاشفة والمنشفيك . وكان الاولون يتبعون خطة ثورية حازمة ، ويدعون العمال الى قلب القيصرية . اما المنشفيك فكانوا ، بخطتهم التفاهمية، يكبحون الثورة ، ويبذرون الارتباك في اذهان كثير من العمال، ويقسمون الطبقة العاملة . ولهذا لم يكن نشاط العمال في الثورة متلاحماً متناسقاً بصورة دائمة ، ولم تستطع الطبقة العاملة ، التي كانت لا تزال تنقصها الوحدة في

صفوفها نفسها ، ان تصبح الزعيم الحقيقي للثورة.

٥ ـ ساعد الاستعماريون في اوروبا الغربية ، الحكومة القيصرية على قمع ثورة ١٩٠٥. فقد كان الرأسماليون الاجانب يخافون على رساميلهم التي وضعوها في روسيا ، وعلى ارباحهم العظيمة. وكانوا كذلك يخشون ، في حال انتصار الثورة الروسية ، ان ينهض عمال البلدان الاخرى ايضاً الى الثورة. ولهذا ساعد الاستعماريون في اوروبا الغربية القيصر الجلاد ، ومنحه اصحاب البنوك الفرنسيون قرضاً هاماً لاستخدامه في سحق الثورة. وجند امبراطور المانيا جيشاً من الوف الرجال ، مستعداً للتدخل لاجل مساعدة القيصر .

٦ ـ ان الصلح الذي وقعه القيصر مع اليابان في ايلول ١٩٠٥ ، ادى له معونة كبرى . وقد دفعه الانكسار العسكري وصعود الثورة الهائل الى التعجيل في عقد الصلح . وكان الانكسار قد زعزع القيصرية ، فاتى توقيع الصلح ومكن موقف القيصر .

•

الخلاصة

كانت الثورة الروسية الاولى دوراً تاريخياً كاملا في تطور بلادنا ، ويتضمن هذا الدور التاريخي مرحلتين ، المرحلة الاولى : عندما ترتفع الثورة من الاضراب السياسي العام الذي جرى في تشرين الاول ، الى الثورة المسلحة التي وقعت في كانون الاول . وقد استفادت الثورة من ضعف القيصر الذي كان يلاقي الاندحارات المتتالية في ميادين القتال في منشوريا ، وكنست دوما بوليغين وانتزعت من القيصر تنازلاً وراء تنازل . المرحلة الثانية : عندما يعمد القيصر ، وقد اصلح حالته بعد توقيع الصلح مع اليابان ، الى استغلال الخوف الذي استولى على البورجوازية الحرة امام الثورة ، كما يلجأ الى استثمار التردد لدى جماهير الفلاحين ، فيلقي لهؤلاء وهؤلاء صدقة هي دوما فيت ،

وينتقل الى الهجوم على الطبقة العاملة وعلى الثورة .

وخلال سنوات الثورة الثلاث (١٩٠٥ — ١٩٠٧) اكتسبت الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين ثقافة سياسية غنية لم تكن لتعطيها اياها ثلاثون سنة من التطور السلمي العادي . فبضع سنين في الثورة ، اوضحت واكدت اشياء لم تكن عشرات السنين من التطور السلمي تكفي لايضاحها وتأكيدها .

بينت الثورة ان القيصرية هي عدو الشعب اللدود ، وانها ذلك الثعلب الذي يقال عنه انه سيموت في جلده .

وبينت الثورة ان البورجوازية الحرة تسعى الى التحالف لا مع الشعب ، بل مع القيصر ، وانها قوة معادية للثورة ، وان التحالف معها هو بمثابة خيانة للشعب .

وبينت الثورة ان الطبقة العاملة هي وحدها التي تستطيع ان تكون زعيمة الثورة الديموقراطية البورجوازية ، وانها وحدها القادرة على عزل البورجوازية الحرة المتمثلة في حزب الكاديت ، وانتزاع جماهير الفلاحين من تحت نفوذها ، وابادة كبار ملاكي الاراضي ، والسير بالثورة الى النهاية ، وفتح الطريق نحو الاشتراكية . وبينت الثورة اخيراً ان جماهير الفلاحين الكادحة هي ، رغم ترددها ، القوة الجدية الوحيدة التي يمكن ان تقبل التحالف مع الطبقة العاملة .

وقد تجابهت خلال الثورة خطتان في حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا : الخطة البلشفية والخطة المنشفيكية . وكان البلاشفة يستهدفون تطوير الثورة ، وقلب القيصرية بالثورة المسلحة ، وتحقيق زعامة الطبقة العاملة ، وعزل البورجوازية المتمثلة في حزب الكاديت ، وتحقيق التحالف مع جماهير الفلاحين ، وانشاء حكومة ثورية موقتة مؤلفة من ممثلي العمال والفلاحين ، والسير بالثورة حتى الانتصار النهائي .

اما المنشفيك فكانوا على العكس ، يرمون الى كبح الثورة ، وعوضاً عن قلب القيصرية بالثورة المسلحة كانوا يقترحون اصلاحها و« تحسينها » ، وعوضاً

عن زعامة البروليتاريا كانوا يقترحون زعامة البورجوازية الحرة ، وعوضاً عن التحالف مع جماهير الفلاحين كانوا يقترحون التحالف مع البورجوازية المتمثلة في حزب الكاديت ، وعوضاً عن حكومة ثورية موقتة كانوا يقترحون ان تكون دوما الدولة مركزاً « للقوى الثورية » في البلاد .

وهكذا انزلق المنشفيك الى مستنقع التفاهم ، واصبحوا لسان حال النفوذ البورجوازي في الطبقة العاملة ، بل اصبحوا ، في الواقع ، عملاء البورجوازية في قلب الطبقة العاملة .

وتبين ان البلاشفة يؤلفون القوة الماركسية الثورية الوحيدة في الحزب وفي البلاد .

ومن المفهوم ، بعد خلافات خطيرة كهـــذه ، ان يجد حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا نفسه ، عملياً ، منقسما الى حزبين : حزب البلشفيك وحزب المنشفيك . ولم يغير مؤتمر الحزب الرابع شيئاً في الحالة الواقعية التي كانت سائدة في داخل الحزب ، فهو لم يتمكن الا من المحافظة على وحدة الحزب الشكلية وتوطيدها بعض الشيء . وقد قام المؤتمر الخامس بخطوة الى امام في طريق توحيد الحزب توحيداً فعلياً ، وقد تحقق هذا التوحيد تحت علم البلشفية .

وقد بحث مؤتمر الحزب الخامس خلاصة الحركة الثورية فشجب الخطـــة المنشفيكية بوصفها خطة تفاهمية ، ووافق على الخطة البلشفية من حيث هي خطة ماركسية ثورية . والمؤتمر بعمله هذا اعـــاد وكّد مرة اخرى ما كان قد تم توكيده في مجرى الثورة الروسية الاولى .

بينت الثورة ان البلاشفة يعرفون القيام بالهجوم عندما تقتضيه الحالة، وانهم قـــد تعلموا ان يسيروا في الصفوف الاولى ، وان يقودوا الشعب وراءهم الى الهجوم ، غير ان الثورة بينت ، علاوة على ذلك ، ان البلاشفة يعرفون ايضاً ان يتراجعوا بنظام عندما تصبح الحالة غير ملائمة ، وعندما تهبط الثورة ، وان البلاشفة قد تعلموا ان يتقهقروا ضمن القواعد ، دون ارتباك ودون عجلة، لاجل

المحافظة على الكادر ، ولأجل جمع قواهم ، ومن ثم ، بعد اعادة تنظيم صفوفهم وفقاً للوضعية الجديدة ، العودة الى الهجوم .

لا يمكن قهر العدو دون معرفة قيادة الهجوم جيداً .

ولا يمكن اجتناب الهزيمة الشنعاء في حالة الانكسار الا بمعرفة التراجع دون ارتباك وذعر ، بانتظام وترتيب .

*

الفصل الرابع

المنشفيك والبلاشفة في دور الرجعية الستوليبينية — البلاشفة يؤلفون حزباً ماركسياً مستقلاً .

(١٩٠٨ — ١٩١٢)

•

١ — الرجعية الستوليبينية — التفسخ في الاوساط المثقفة المعارضة — الانحطاط المعنوي — انتقال عدد من مثقفي الحزب الى معسكر اعداء الماركسية وظهور محاولات لتحريف النظرية الماركسية — رد لينين على المحرفين في مؤلفه : « المادية والمذهب النقدي التجريبي » والدفاع عن المبادىء النظرية للحزب الماركسي .

في الثالث من حزيران ١٩٠٧ ، حلت الحكومة القيصرية دوما الدولة الثانية — وهو ما اتفق على تسميته في التاريخ بانقلاب ٣ حزيران — واصدرت قانوناً جديداً عن طريقة الانتخاب لدوما الدولة الثالثة ، ناقضة بذلك بيانها نفسه ، بيان ١٧ تشرين الاول ١٩٠٥ ، الذي تعهدت فيه بألا تسن قوانين جديدة الا بموافقة الدوما . وعلى اثر ذلك ، احيل اعضاء الكتلة الاشتراكية الديموقراطية في الدوما الثانية الى القضاء ، وارسل ممثلو الطبقة العاملة الى

السجون والمنافي .

وقد وُضع القانون الانتخابي الجديد بشكل يزيد كثيراً في عدد ممثلي كبار ملاكي الاراضي وممثلي البورجوازية التجارية والصناعية في الدوما ، وينقص بنسبة كبيرة عدد ممثلي الفلاحين والعمال ، الذي كان حتى من قبل ضئيلاً جداً.

لقد اصبحت الدوما الثالثة من حيث تركيبها ، مجلساً للمائة السود والكاديت . فمن مجموع ٤٤٢ نائباً ، كان لليمينيين (المائة السود) ١٧١ نائباً ، وللاوكتوبريين واعضاء الكتل المقربة منهم ١١٣ نائباً ، وللكاديت واعضاء الكتل المجاورة لهم ١٠١ ، وللترودوفيك (١) ١٣ ، وللاشتراكيين الديموقراطيين ١٨ .

وكان رجال اليمين (وسموا بذلك لجلوسهم في الجهة اليمنى من المجلس) ألد اعداء العمال والفلاحين. فكانوا يمثلون كبار الملاكين الاقطاعيين، المغرقين في الرجعية ، الذين جلدوا الفلاحين واطلقوا على جموعهم الرصاص اثناء قمع حركتهم ، ونظموا المذابح العنصرية ضد اليهود وحملات البطش بمظاهرات العمال ، واضرموا النار بوحشية في الاماكن التي كانت تعقد فيها الاجتماعات العامة خلال ايام الثورة . كان رجال اليمين من مؤيدي استعمال الارهاب بافظع انواعه ضد الشغيلة ، ومن انصار منح القيصرية سلطة لا حد لها ، ولذا عارضوا البيان القيصري الصادر في ١٧ تشرين الاول ١٩٠٥ .

اما الحزب الاوكتوبري ، او « اتحاد ١٧ تشرين الاول » ، فكان قريباً جـــداً من اليمين ، واعضاؤه يعبرون عن مصالح الرأسمال الصناعي الكبير ومصالح كبار الملاكين العقاريين الذين يستخدمون الاساليب الرأسماليـة في استثمار اراضيهم (وقد انضم الى الاوكتوبريين في بداية الثورة قسم هام من

---

(١) الترودوفيك : كتلة بورجوازية صغيرة تكونت في عام ١٩٠٦ في مجلس دومـــا الدولة الاولى ، وكانت مؤلفة من قسم من نواب الفلاحين ، على رأسهم مثقفون من الاشتراكيين الثوريين . (هيئة التعريب) .

كبار ملاكي الاراضي في حزب الكاديت) . على ان الشيء الوحيد الذي كان يميز الاوكتوبريين عن رجـال اليمين ، هو اعلانهم ـ ولكن بالقول فقط ـ موافقتهم على بيان ١٧ تشرين الاول . اما فيما عدا ذلك ، فكانوا يؤيدون سياسة الحكومة القيصرية ، الداخلية والخارجية ، تأييداً تاماً .

اما الكاديت ، او جماعة الحزب « الدستوري الديموقراطي » ، فقد نقص عدد مقاعدهم في الدوما الثالثة عما كان عليه في الدوما الاولى والثانية ، ذلك لان قسماً من اصوات كبار ملاكي الاراضي انتقـل من الكاديت الى الاوكتوبريين .

وكان في الدوما الثالثة كتلة قليلة العـدد من الديموقراطيين ، صغار البورجوازيين ، المعروفين بالترودوفيك ، وكانوا يتذبذبون بين الكاديت وكتلة الديموقراطية العماليـة (اي البلاشفة) . وكان لينين يقول أن الترودوفيك ، رغم ضعفهم الشديد في الدوما ، يمثلون الجماهير ، جماهير الفلاحين . وكان تذبذب الترودوفيك بين الكاديت والديموقراطية العمالية ، نتيجة حتمية للوضع الطبقي الذي كان عليـه صغـار المستثمرين . وكان لينين يضع امام النواب البلاشفة ، اي امام كتلة الديموقراطية العماليـة ، مهمة « مساعدة ضعاف الديموقراطيين من صغار البورجوازيين ، وانتزاعهم من تحت نفوذ الاحرار ، وتأليف معسكر للديموقراطية ضد الكاديت ، اعداء الثورة لا ضد اليمينيين فقط » (لينين ـ مختارات من مؤلفاته ـ الجزء الاول ـ صفحة ٦٥١) .

وقد اثبت الكاديت اكثر فاكثر ، اثناء ثورة ١٩٠٥ ، ولا سيما بعـد اندحارها ، انهم قوة مناوئة للثورة . فكانوا يطرحون جهاراً ، اكثر فاكثر ، القنـاع « الديموقراطي » عن وجوههم ، وينهجون منهج ملكيين حقيقيين ، مدافعين عن القيصرية . ففي عام ١٩٠٩ ، نشر فريق من كتّاب الكاديت البارزين مجموعة مقالات بعنوان « فيخي » (المراحل) ، شكروا فيها القيصرية باسم البورجوازية ، على سحقها للثورة . بل هم زحفوا على بطونهم امام حكومة

السوط والمشنقة ، فكتبوا حرفياً ان من الواجب «مباركة هذه السلطة التي لا تزال ، وحدها ، بحرابها وسجونها تحمينا (اي تحمي البورجوازية الحرة) من الهياج الشعبي » .

بعد ما حلت الحكومة القيصرية الدوما الثانية ونكلت بالكتلة الاشتراكية الديموقراطية ، عمدت الى تحطيم منظمات البروليتاريا ، السياسية والاقتصادية . فعجت السجون والمعاقل والمنافي بالثوريين الذين كانوا يضربون ويعذبون بوحشية ، وينكل بهم افظع تنكيل ، وانتشر ارهاب المائة السود منطلق العنان . وزرع الوزير القيصري « ستوليبين » المشانق زرعاً في طول البلاد وعرضها، وأعدم عدة الاف من الثوريين . واشتهر حبل المشنقة في ذلك العهد باسم « ياقة (١) ستوليبين » . غير ان الحكومة القيصرية ، مع امعانها في سحق حركة العمال والفلاحين الثورية ، لم تستطع ان تقتصر على اعمال القمع وحملات التأديب والاعدام والسجون والمنافي ، فانها كانت ترى بقلق ان ايمان الفلاحين الساذج بـ « القيصر الاب الصغير » يضمحل شيئاً فشيئاً . فعمدت الى مناورة واسعة النطاق وهي تأمين سند متين لها في الارياف بتقوية طبقة البورجوازية الريفية ، طبقة الكولاك .

وعلى هذا الاساس ، اصدر ستوليبين في ٩ تشرين الثاني ١٩٠٦ ، قانوناً زراعياً جديداً يبيح للفلاحين الانسحاب من المشاعات والاستقرار في «الخوتور» (المزارع المنفردة) . فجاء هذا القانون هادماً لملكية الارض المشاعية ، اذ اصبح الفلاح مدعواً الى اخذ نصيب من الارض يصبح ملكاً خاصاً له ، ثم ينسحب من المشاع . وابيح للفلاح بيع حصته من الارض ، وهو ما لم يكن يحق له قبلا ، كما اجبرت المشاعات الفلاحية على اعطاء كل من اعضائها الراغبين في الانسحاب منها ، حصته من الارض قطعة واحدة مضمومة الاجزاء (وهو ما كان يسمى « خوتور » او « اوتروب ») لا قطعاً متفرقة منفصلا بعضها عن بعض .

---

(١) – كرافات (هيئة التعريب)

وعلى هذه الصورة، تمكن الفلاحون الاغنياء، الكولاك، من الاستيلاء على اراضي الفلاحين الصغار بثمن بخسة. فخلال بضع سنوات، اصبح اكثر من مليون فلاح صغير بلا ارض وحل بهم الخراب التام. وكانت اراضيهم المنتزعة منهم تُستخدم للاكثار من مزارع الكولاك، وكانت هذه المزارع تؤلف احيانا املاكا شاسعة تستخدم بالاجرة يداً عاملة كبيرة العدد. وكانت الحكومة تجبر الفلاحين على اعطاء احسن اراضي المشاع الى المزارعين الكولاك.

عندما جرى «تحرير» الفلاحين، سلبهم كبار الملاكين اراضيهم، والان جاء الكولاك يسلبون المشاعات بتخصيص احسن الاراضي لانفسهم وبالاستيلاء على حصص الفلاحين الفقراء بابخس الاثمان.

وكانت الحكومة القيصرية تقرض الكولاك مبالغ طائلة، ليشتروا بها اراضي وينشئوا مزارعهم، اذ كان في نية ستوليبين ان يجعل من الكولاك طبقة من صغار اسياد الارض، ومدافعين امناء عن الاوتوقراطية القيصرية.

وهكذا انسحب من المشاعات خلال تسع سنوات (من ١٩٠٦ الى ١٩١٥) اكثر من مليوني فلاح.

كانت سياسة ستوليبين تزيد حالة صغار الفلاحين والفلاحين الفقراء ضيقاً وتفاقماً.

واشتد التفاوت بين فئات الفلاحين، ونشبت المنازعات بين الفلاحين والمزارعين الكولاك.

ومن جهة اخرى، اخذت جماهير الفلاحين تدرك انها لن تحصل ابداً على اراضي الاسياد، ما دامت في الوجود الحكومة القيصرية والدوما التي يسيطر عليها كبار ملاكي الاراضي والكاديت.

خلال السنوات التي نشط فيها انشاء مزارع الكولاك (١٩٠٧-١٩٠٩) هبطت حركة الفلاحين بادىء الامر، غير انها، في سنتي ١٩١٠ و١٩١١ وفيما بعد ايضاً، على اساس المنازعات بين الفلاحين المشاعيين والمزارعين الكولاك، تضاعفت قوتها ضد كبار الملاكين والكولاك.

وحدثت ايضاً ، بعد الثورة ، تغيرات هامة في ميدان الصناعة . فقد اشتد تمركز الصناعة ، اي توسع المشاريع وتجمعها في ايدي كتل رأسمالية تنمو قوتها يوماً بعد يوم . وكان الرأسماليون ، حتى قبل ثورة ١٩٠٥ ، قد ألفوا شركات احتكارية لرفع اسعار البضائع في داخل البلاد . وكان الربح الفاحش الزائد الذي يُجمع بهذه الطريقة ، يُحول الى مخصصات لتشجيع التصدير ، لكي يتيسر لهم طرح المحصولات الى السوق الخارجية باسعار منخفضة ، فيتم لهم الاستيلاء على اسواق للتصريف . وكانت هذه الشركات او الكتل الرأسمالية (الاحتكارات) ، تسمى إما تروستات وإما نقابات . وقد ازداد بعد الثورة ، عدد التروستات والنقابات الرأسمالية ، كما تكاثر عدد البنوك الضخمة التي كان دورها يتعاظم في الصناعة . وكانت رؤوس الاموال الاجنبية ترد بغزارة الى روسيا .

وهكذا اخذت الرأسمالية في روسيا تصبح ، اكثر فاكثر ، رأسمالية احتكارية ، استعمارية .

وبعد ركود دام بضع سنين ، انتعشت الصناعة : فازداد استخراج الفحم والبترول ، كما ارتفع انتاج المعادن والنسيج والسكر ، وكان تصدير القمح الى الخارج في صعود قوي .

على ان روسيا ، رغم تسجيلها في هذا العهد بعض التقدم الصناعي ، ظلت بلاداً متأخرة بالنسبة لاوروبا الغربية ، وبقيت في وضع التابع للرأسماليين الاجانب . فلم تكن تُصنع في روسيا آلات ، ولا آلات لصنع الآلات ، بل كانت الآلات تستورد من الخارج . كذلك لم تكن فيها صناعة سيارات ، ولا صناعة كيمائية ، ولم تكن تنتج فيها اسمدة معدنية . وفيما يتصل بصنع الاسلحة ايضاً ، كانت روسيا متأخرة عن الاقطار الرأسمالية الاخرى .

وقد اشار لينين الى ضعف استهلاك المعادن في روسيا ، كشاهد على تأخر حالة البلاد ، فقال :

« خلال نصف القرن الذي انقضى منذ تحرير الفلاحين ، ازداد استهلاك

الحديد في روسيا خمسة اضعافه ، ومع ذلك لا تزال روسيا بلاداً متأخرة الى حد لا يصدق ولا يقدر ، بلاداً بائسة ونصف متوحشة ، تجهيزها بأدوات الانتاج العصرية اسوأ باربع مرات من انكلترا ، وبخمس مرات من المانيا ، وبعشر مرات من الولايات المتحدة » . (لينين — المؤلفات الكاملة — الجزء السادس عشر — صفحة ٥٤٣ — الطبعة الروسية) .

وكانت النتيجة المباشرة لتأخر روسيا الاقتصادي والسياسي ، ان الرأسمالية الروسية والقيصرية نفسها ، كانتا في موقف التبعية حيال رأسمالية اوروبا الغربية.

لهذا السبب ، كانت اهم فروع الاقتصاد الوطني ، كالفحم والبترول والصناعة الكهربائية والتعدين ، في ايدي الرأسمال الاجنبي ، وكانت جميع الادوات والآلات تستورد تقريباً من الخارج .

ولهذا السبب ايضاً ، عقدت القيصرية قروضاً في الخارج بشروط مجحفة استعبادية ، وكانت تدفع فوائدها مئات الملايين من الروبلات ، تبتزها في كل سنة من السكان .

واخيرا ، لهذا السبب نفسه ، وقعت القيصرية مع « الحلفاء » ، معاهدات سرية ، تعهدت فيها بان ترسل ، في حالة حرب ، ملايين الجنود الروس الى جبهات القتال الاستعمارية ، لنجدة « الحلفاء » ، وتأمين مرابح فاحشة للرأسماليين الانكليز والفرنسيين .

تميزت سنوات الرجعية الستوليبينية ، بانطلاق الدرك والشرطة وزبانية الاستفزاز القيصريين واجلاف المائة السود ، انطلاقاً وحشياً في الاعتداء على الطبقة العاملة . الا ان اجراء القيصرية لم ينفردوا وحدهم في التنكيل بالعمال ، فقد سار اصحاب الفبارك والمعامل على غرارهم في هذا المضمار ، فشددوا هجومهم على الطبقة العاملة ، خصوصاً في سني الركود الصناعي والبطالة المتزايدة . كان اصحاب الفبارك يعمدون الى تسريح العمال بصورة جماهيرية . وكان لديهم « دفاتر سوداء » يسجلون فيها اسماء العمال الواعين الذين يشتركون بنشاط في الاضرابات ، فلا يتمكن الذين تظهر اسماؤهم في « الدفاتر » او « القوائم السوداء »

من ايجاد عمل لهم في اي مشروع من المشاريع المنتمية الى جمعية ارباب العمل في الصناعة المعنية . وقد خفضت الاجور ابتداء من سنة ١٩٠٨ بنسبة ١٠ الى ١٥ بالمائة ، واطيل في كل مكان يوم العمل الى ١٠ و ١٢ ساعة ، وازدهر من جديد نظام الغرامات القائم على الاغتصاب والسلب .

ان اندحار ثورة ١٩٠٥ ، حمل الانحلال والتفسخ الى صفوف « رفاق الطريق » ، رفاق الثورة الموقتين ، وبلغ التفسخ والانحطاط المعنوي حداً شديد الخطورة بين المثقفين بوجه خاص . فان « رفاق الطريق » ، الذين جاءوا الى صفوف الثورة من الوسط البورجوازي عندما كانت الثورة في نهوض طام ، غادروا الحزب في ايام الرجعية فانتقل بعضهم الى معسكر اعداء الثورة السافرين ، اما الاخرون الذين استقروا في ما بقي حياً من جمعيات العمال المشروعة ، فكانوا يسعون الى تحويل البروليتاريا عن طريق الثورة ، والى الحط من قيمة حزب البروليتاريا الثوري . ان رفاق الطريق أولاء اخذوا ، بعد تركهم الثورة ، يحاولون ان يأتلفوا مع الرجعية وان ينظموا امورهم مع القيصرية .

واستغلت الحكومة القيصرية اندحار الثورة لكي تجعل اشد رفاق الطريق جبناً وصغاراً ، عملاء وجواسيس لها . فكان اخوان يهوذا السافلون ، عناصر الاستفزاز والوشاية ، الذين بثتهم الاوخرانا القيصرية في منظمات العمال ومنظمات الحزب ، يتجسسون من الداخل على الثوريين ويبيعونهم .

وتابعت الرجعية ، عدوة الثورة ، هجومها في الميدان الفكري ايضاً فظهرت زمرة من الكتاب « على الموضة » ، « ينتقدون » الماركسية و « يعدمونها » ويستهزئون بالثورة ويرذلونها ويمرغونها في الاوحال ، ويمجدون الخيانة والتهتك الجنسي باسم « تقديس الفرد » .

وتكاثرت في الميدان الفلسفي محاولات « نقد » الماركسية وتحريفها ، وبرزت تيارات دينية من جميع الانواع مغطاة بحجج « علمية » مزعومة .

لقد اصبح « نقد » الماركسية نوعاً من « الموضة » .

وكان كل هؤلاء السادة ، رغم اختلاف الوانهم واشكالهم ، يتبعون هدفاً مشتركاً ، هو تحويل الجماهير عن الثورة .

وسرى الشك والانحطاط ايضاً الى بعض مثقفي الحزب الذين كانوا يدعون بانهم ماركسيون ، مع انهم لم يقفوا في يوم من الايام بقدم ثابتة في المواقف الماركسية . وكان بينهم كتّاب مثل بوغدانوف وبازاروف ولوناتشارسكي (وقد انضموا الى البلاشفة في عام ١٩٠٥) ويوشكيفتش وفالانتينوف (وهما من المنشفيك) ، الذين راحوا « ينتقدون » ، في آن واحد ، الاسس الفلسفية والنظرية للماركسية ، اي المادية الديالكتيكية ، وكذلك اسسها العلمية والتاريخية ، اي المادية التاريخية . وكان هذا النقد يتميز عن النقد العادي ، بانه لم يكن يجري بصورة سافرة شريفة ، بل بصورة مقنّعة محفوفة بالرياء ، وباسم « الدفاع » عن المواقف الاساسية للماركسية . كانوا يقولون : نحن من حيث الجوهر ماركسيون بيد اننا نريد «تحسين» الماركسية وإعتاقها من بعض المبادىء الاساسية . ولكنهم كانوا في الحقيقة اعداء للماركسية ، ويسعون الى نسف مبادئها النظرية . كانوا ينكرون بالكلام فقط ، رياء ونفاقاً ، عداءهم للماركسية ، ويستمرون ، بحطة وسفالة ، على تسمية انفسهم ماركسيين . وكان الخطر من هذا النقد المنافق ، متأتياً من كونه يستهدف خدع مناضلي القاعدة في الحزب ، ويمكن ان يضلهم ويوقعهم في مهاوي الغلط . ولذا ، فأن هذا النقد الرامي الى نسف الاسس النظرية للماركسية ، كان ، كلما ازداد رياءاً ونفاقاً ، ازداد خطراً على الحزب ولا سيما انه كان متكاتفاً تكاتفاً وثيقاً مع الحملة الصليبية التي شهرتها الرجعية باسرها ضد الحزب وضد الثورة . وقد بلغ الامر ببعض المثقفين الذين تخلوا عن الماركسية ، انهم راحوا يدعون الى ضرورة خلق دين جديد (فعرفوا باسم « الباحثين عن الله» و « بنّائي الله ») .

فازاء هذه الحالة، كان من الواجب على الماركسيين ان يضطلعوا باعباء مهمة ملحة عاجلة ، هي ان يجابهوا هؤلاء المرتدين عن النظرية الماركسية بالرد الذي

يستحقونه، وينزعوا اقنعتهم عن وجوههم، ويفضحوهم الى النهـــاية، فيصونوا بذلك الاسس النظرية للحزب الماركسي.

وكان المظنون ان بليخـانوف واصدقاءه المنشفيـــك ، الذين يعتبرون انفسهم « ابرز النظريين في الماركسية»، سيأخذون هذه المهمة على عاتقهم، غير انهم اكتفوا بكتابة مقالين اثنين لا قيمة لهما، نشرا في زاوية النقد من احدى الصحف، ثم قبع كل منهم في وكره.

فنهض لينين نفسه بهذه المهمة ، بوضع مؤلفه الشهير « **المادية والمذهب النقدي التجريبي** » (١) الذي نشره عام ١٩٠٩ ، ومما قاله في هذا المؤلف :

« في اقل من ستة اشهر ، صدرت اربعة كتب مكرسة بصورة رئيسية ، بل بصورة تامة تقريباً ، لمهاجمة المادية الديالكتيكية . اولها : « **دراسات في** (كان ينبغي القول : ضد) **فلسفة الماركسية** » بطرسبرج ١٩٠٨ ، وهي مجموعـــة مقالات من بازاروف وبوغـــدانوف ولوناتشارسكي وبرمان وهيلفون ويوشكيفتش وسوفوروف ، ثم « **المـــادية والواقعية الانتقادية** » بقلم يوشكيفتش ، و « **الديالكتيك في ضوء نظرية المعرفة المعاصرة** » بقلم برمان ، و « **الابنية الفلسفية في الماركسية** » بقلم فالانتينوف . ان جميع هؤلاء الاشخاص الذين يجمع بينهم ــ رغم تبـــاين آرائهم السياسية ــ الحقد على المادية الديالكتيكية ، يدّعون مع ذلك انهم ماركسيون في الفلسفة !... فيقول برمان : ان ديالكتيك انجلس هو « صوفية » ! ويشير بازاروف عرضاً ، كما لو كان الامر شيئاً مسلماً به ، الى « ان مفاهيم انجلس قد « شاخت» ! كأنما المادية قد ثبت بطلانها ــ على ما يظهر ــ على ايدي هؤلاء المحاربين الشجعان ، الذين يستشهدون ، وكلهم اعتداد وخيلاء، بـ « نظرية المعرفة المعاصرة » و « الفلسفة الحديثة » (او « الايجابية الحديثة ») و « فلسفة العلوم الطبيعية المعاصرة » ، وحتى « فلسفة العلوم الطبيعية في القرن العشرين » . (لينين ــ المؤلفـــات

(١) MATÉRIALISME ET EMPIRIOCRITICISME

الكاملة ـــ الجزء الثالث عشر ـــ صفحة ١١ ـــ الطبعة الروسية) .

وجوابا على لوناتشارسكي الذي كان يقول ، لتبرير اصدقائه المحرّفين في الفلسفة ، « ربما كنا على ضلال ، ولكننا نبحث » ، كتب لينين :

« انا ايضاً ، من جهتي ، « باحث » في الفلسفة . ولهذا جعلت مهمتي في هذه الملاحظات (يعني كتاب **المادية والمذهب النقدي التجريبي** ـــ ملاحظة من هيئة التحرير) ، ان ابحث عن باعث هراء هؤلاء الناس الذين يقدمون لنا تحت اسم الماركسية ، شيئاً متنافراً الى درجة لا تصدق ، وغامضاً ورجعياً » (المرجع ذاته ـــ ص ١٢).

الا ان مؤلف لينين كان ، في الواقع ، يتجاوز هذه المهمة المتواضعة . فهو لم يكن نقداً وحسب لبوغدانوف ويوشكيفيتش وبازاروف وفالانتينوف ، ولاساتذتهم في الفلسفة : افيناريوس وماخ ، الذين حاولوا جميعاً في كتاباتهم ان يقدموا للناس مثالية ملطفة ومطلية ، معارضة للمادية الماركسية ، بل ان كتاب لينين هو في الوقت نفسه دفاع عن مبادىء الماركسية النظرية ـــ اي عن المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ـــ وهو تعميم مادي لكل ما اكتسبه العلم ، وخصوصاً علم الطبيعة ، من جوهري وهام ، خلال مرحلة تاريخية كاملة تمتد من وفاة انجلس الى ظهور مؤلف لينين: **المادية والمذهب النقدي التجريبي** .

فبعد ما انتقد لينين ، انتقاداً دقيقاً وافياً ، انصار المذهب النقدي التجريبي الروس واساتذتهم الاجانب ، توصل الى الاستنتاجات التالية ضد التحريفية النظرية والفلسفية :

اولا ـــ « ان ما يميز التحريفية المعاصرة ، سواء في الاقتصاد السياسي او في قضايا الخطة (التاكتيك) ، وفي الفلسفة عموماً ، هو تزييف الماركسية ومسخها بحذاقة متزايدة ، بواسطة مذاهب مغايرة للمادية » .(المرجع ذاته ـــ ص ٧٠) .

ثانياً ـــ « ان مدرسة ماخ وافيناريوس باسرها تنزع الى المثالية » .

(المرجع ذاته ـــ ص ٢٩١) .

ثالثاً ـــ « ان اصحابنا ، انصار مـــاخ ، قد زلقوا جميعاً الى المثالية » .

(المرجع ذاته ـــ ص ٢٨٢) .

رابعاً ـــ « من المستحيل الا يستشف المرء ، وراء الكلاميـــة (١) العرفانية (٢) للمذهب النقدي التجريبي ، نضال الاحزاب في الفلسفة ، هذا النضال الذي يُفصح ، في آخر الحساب ، عن ميول الطبقات المتعادية في المجتمع المعاصر وعن عقليتها ». (المرجع ذاته ـــ ص ٢٩٢) .

خامساً ـــ « ان الدور الموضوعي ، الدور الطبقي للمذهب النقدي التجريبي ، ينحصر تماماً في خدمة الايمانيين (وهم رجعيون يفضلون الايمان على العلم ـــ ملاحظة من هيئة التحرير) في نضالهم ضد المادية بصورة عامة ، وضد المـادية التاريخية بصورة خاصة » (المرجع ذاته ـــ ص ٢٩٢) .

سادساً ـ « ان المثالية الفلسفية هي ... طريق التجهيل الاكليريـــكي » .

(المرجع ذاته ـــ ص ٣٠٤) .

ولاجل تقدير ما كان لمؤلف لينين من اهمية عظمى في تاريخ حزبنا ، وادراك اية ثروة نظرية دافع عنها لينين ضد جميع انواع المحرفين والمتفسخين ، في دور الرجعية الستوليبينية ، لا ندحة من الاطلاع ، ولو بايجاز ، على مبادىء المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية .

وهو ضروري ، خصوصاً ، لان المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ،

---

(١) ـ الكلامية : اخذنا هذه اللفظة لتعريب كلمة Scolastique وهي تسمية عامة للفلسفة المثالية التي كانت سائدة في القرون الوسطى والتي كانت تبني نظامها الفلسفي على تعاليم الكنيسة لا على تحليل الواقع . (هيئة التعريب)

(٢) ـ العرفانية : Gnoséologie ، كلمة يونانية في الاصل وتعني « درس المعرفة » او « نظرية المعرفة » ، وتطلق عموماً على العلم الذي يبحث في منشأ المعرفة الانسانيـــة وحدودها ، كما تطلق ، في الفلسفة ، على التعاليم الفلسفية التي تعالج مقدرة الانسان على معرفة الواقع واكتشاف الحقيقة . ويعربها بعضهم بكلمة « العرفانية » وبعضهم بكلمة «الغنوصية» . (هيئة التعريب)

(المرجع ذاته ــ ص ٢٩١) .

ثالثاً ــ « ان اصحابنا ، انصار مــاخ ، قد زلقوا جميعاً الى المثالية » .

(المرجع ذاته ــ ص ٢٨٢) .

رابعاً ــ « من المستحيل الا يستشف المرء ، وراء الكلاميــة (١) العرفانية (٢) للمذهب النقدي التجريبي ، نضال الاحزاب في الفلسفة ، هذا النضال الذي يُفصح ، في آخر الحساب ، عن ميول الطبقات المتعادية في المجتمع المعاصر وعن عقليتها ». (المرجع ذاته ــ ص ٢٩٢) .

خامساً ــ « ان الدور الموضوعي ، الدور الطبقي للمذهب النقدي التجريبي ، ينحصر تماماً في خدمة الايمانيين (وهم رجعيون يفضلون الايمان على العلم ــ ملاحظة من هيئة التحرير) في نضالهم ضد المادية بصورة عامة ، وضد المادية التاريخية بصورة خاصة » (المرجع ذاته ــ ص ٢٩٢) .

سادساً ـ « ان المثالية الفلسفية هي ... **طريق التجهيل الاكليريــكي** » .

(المرجع ذاته ــ ص ٣٠٤) .

ولاجل تقدير ما كان لمؤلف لينين من اهمية عظمى في تاريخ حزبنا ، وادراك اية ثروة نظرية دافع عنها لينين ضد جميع انواع المحرفين والمتفسخين ، في دور الرجعية الستوليبينية ، لا ندحة من الاطلاع ، ولو بايجاز ، على مبادىء المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية .

وهو ضروري ، خصوصاً ، لان المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ،

---

(١) ـ الكلامية : اخذنا هذه اللفظة لتعريب كلمة Scolastique وهي تسمية عامة للفلسفة المثالية التي كانت سائدة في القرون الوسطى والتي كانت تبني نظامها الفلسفي على تعاليم الكنيسة لا على تحليل الواقع . (هيئة التعريب)

(٢) ـ العرفانية : Gnoséologie ، كلمة يونانية في الاصل وتعني « درس المعرفة » او « نظرية المعرفة » ، وتطلق عموماً على العلم الذي يبحث في منشأ المعرفة الانسانيــة وحدودها ، كما تطلق ، في الفلسفة ، على التعاليم الفلسفية التي تعالج مقدرة الانسان على معرفة الواقع واكتشاف الحقيقة. ويعربها بعضهم بكلمة « العرفانية » وبعضهم بكلمة «الغنوصية». (هيئة التعريب)

هما الاساس النظري للشيوعية ، هما جماع المبادىء النظرية للحزب الماركسي . فمعرفة هذه المبادىء ، وتفهمها واستيعابها ، هي واجب على كل مناضل نشيط في حزبنا .

فاذن :

١ ــ ما هي المادية الديالكتيكية ؟

٢ ــ ما هي المادية التاريخية ؟

•

٢ ــ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية

المادية الديالكتيكية هي النظرية العامة للحزب الماركسي اللينيني . وقد سميت بالمادية الديالكتيكية لان اسلوبها في النظر الى حوادث الطبيعة ، او طريقتها في البحث والمعرفة هي **ديالكتيكية** (١) ، ولان تعليلها حوادث الطبيعة وتصورها لهذه الحوادث ، اي نظريتها هي **مادية** .

اما المادية التاريخية فتوسع نطاق مبادىء المادية الديالكتيكية حتى تشمل دراسة الحياة الاجتماعية ، وتطبق هذه المبادىء على حوادث الحياة الاجتماعية ، اي على درس المجتمع ، وعلى درس تاريخ المجتمع .

وعندما يعرف ماركس وانجلس طريقتهما الديالكتيكية ، يرجعان عادة الى هيغل ، باعتباره الفيلسوف الذي أبان الخطوط الاساسية للديالكتيك . غير ان ذلك لا يعني ان ديالكتيك ماركس وانجلس هو عين ديالكتيك هيغل ، لان ماركس وانجلس لم يقتبسا من ديالكتيك هيغل سوى « نواته العقلية » وطرحا قشرته المثالية ، ثم وسعاه واغنياه ، واعطياه طابعاً علمياً حديثاً .

يقول ماركس :

« ان طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيغلية من

---

(١) سيأتي تحديد معنى كلمة « ديالكتيك » بعد قليل في سياق البحث . ويترجمها بعضهم بكلمة « جدلية » ، ولكن رأينا ان نحتفظ بلفظها الاصلي لكثرة تداولها في جميع لغات العالم ، ولان كلمة « جدلية » لا تؤدي المعنى المقصود اداءاً تاماً . (هيئة التعريب)

حيث الاساس فحسب ، بل هي ضدها تماماً ، فحركة الفكر ، هــذا الفكر الذي يشخصــه هيغل ويطلق عليه اسم « الفكرة » (١) هي ، في نظره ، خالق الواقع وصانعه ، فمــا الواقع الا الشكل الحادثي للفكرة. اما في نظري ، فعلى العكس ، ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية ، منقولة الى دماغ الانسان ومستقرة فيــه » (كارل ماركس : رأس المال - الكتاب الاول - الجزء الاول - ص٢٩ - الطبعة الفرنسية - مكتب المطبوعات - باريس ١٩٣٨) .

وعندما يعرف ماركس وانجلس ماديتهما يرجعان عادة الى فورباخ ، باعتباره الفيلسوف الذي أعاد الى المادية حقوقها . غير ان ذلك لا يعني ان مادية ماركس وانجلس هي عــين مادية فورباخ . فان ماركس وانجلس لم يقتبسا من مادية فورباخ سوى « نواتها المركزية » ، ثم وسعاها وجعلا منها نظرية فلسفية علمية للمادية ، وطرحا عنها ما تراكم عليهــا من قشور مثالية ، واخلاقية ودينية . ومن المعلوم ان فورباخ ، رغم كونه مادياً مــن حيث الاساس ، احتج على نعته بالمادية ، حتى لقدقال انجلس مراراً ان فورباخ « رغم اساسه » (المادي) « ظل سجين القيود المثــالية التقليدية » و « ان مثالية فورباخ الحقيقية » تظهر « حال وصولنا الى فلسفته في الدين والى فلسفته في الاخلاق » (فريدريك انجلس - لودفيــغ فورباخ ونهــاية الفلسفة الكلاسيكية (٢) الالمانية ــ طبع موسكو ١٩٤٦ ، ص ٣٠ - ٣٤ .)

---

(١) : Idée

(٢) كلاسيكية Classique : الكلاسيكي نعت جامع لامور متفرقة . فاذا اضيف الى اللغات مثلاً اريد به اليونانية القديمة واللاتينية اللتين اورثتا العالم الغربي (والشرقي في حد ما) نماذجه الفكرية والادبية المثلى . واذا اضيف الى الادب خاصة اريد به ادب اليونان والرومان القدماء ، او ما ضرب عــلى غراره من آداب الامم الغربية ، وذلك معارضة للادب الجديد حيناً ، والرومنطيقي حيناً آخر . ويراد به هنا المذاهب الفلسفية التي كانت لها الغلبة او السيادة على الاوساط الجامعية والرسمية بالمانيا ، ودلالته العامة هي القدمية والاصالة واتباع السنن المقررة . (هيئة التعريب)

اخذت كلمة ديالكتيك من الكلمة اليونانية « **ديالغو** » ومعناها المحادثة والمجادلة . وكان الديالكتيك يعني ، في عهد الاولين ، فن الوصول الى الحقيقة باكتشاف التناقضات التي يتضمنها استدلال الخصم ، وبالتغلب عليها .

وكان بعض الفلاسفة الاولين يعتبرون ان اكتشاف تناقضات الفكر والمصادمة بين الاراء هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة . فهذا الاسلوب الديالكتيكي في التفكير ، الذي طبق فيما بعد على حوادث الطبيعة ، أصبح الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة . ان حوادث الطبيعة ، بموجب هذه الطريقة ، هي متحركة متغيرة دائماً وابداً ، وتطور الطبيعة هو نتيجة تطور تناقضات الطبيعة ، نتيجة الفعل المتبادل بين القوى المتضادة في الطبيعة .

ان الديالكتيك هو ، من حيث جوهره ، ضد الميتافيزية (١) تماماً .

١ - تتميز الطريقة الديالكتيكية الماركسية بالخطوط الاساسية التالية :

أ) ان الديالكتيك ، خلافاً للميتافيزية ، لا يعتبر الطبيعة تراكماً عرضياً للاشياء ، او حوادث بعضها منفصل عن بعض ، او أحدها منعزل مستقل عن الاخر ، بل يعتبر الطبيعة كلا واحداً ، متماسكاً ، ترتبط فيه الاشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً عضوياً ، ويتعلق احدها بالاخر ، ويكون بعضها شرطاً لبعض بصورة متقابلة .

لذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية ان اي حادث من حوادث الطبيعة ، لا يمكن فهمه اذا نظر اليه منفرداً ، بمعزل عن الحوادث المحيطة به ، اذ ان اي حادث ، في أي ميدان من ميادين الطبيعة ، يمكن ان ينقلب الى عبث فارغ لا معنى له ، اذا نظر اليه بمعزل عن الشروط التي تكتنفه ، واذا فُصل عن

---

(١) الميتافيزية : وتعني حرفياً « ما وراء الطبيعة » او « ما وراء الموجود الفيزيائي » . وقد رأينا الاحتفاظ بلفظها الاصلي لان ترجمتها لا تؤدي معناها اداء تاماً . ويأتي شرحها في سياق البحث . وهي ، بايجاز ، تعني طريقة في التفكير الفلسفي تنكر الروابط بين الاشياء والحوادث ، وتنظر اليها منفصلاً بعضها عن بعض ، وتعتبر الطبيعة والمجتمع في حالة جمود واستقرار ، فحركة التطور في نظرها حركة نمو بسيطة او تكرار وتراكم للحوادث نفسها .

(هيئة التعريب)

هذه الشروط . وعلى العكس ، يمكن فهم اي حادث من الحوادث وتبريره اذا نظر اليه من حيث ارتباطه ارتباطاً لا ينفصم بالحوادث المحيطة به ، اي اذا نظر اليه كما تحدده وتكيفه الحوادث التي تحيط به .

ب) ان الديالكتيك ، خلافاً للميتافيزية ، لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود ، حالة ركود واستقرار ، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين ، حالة تجدد وتطور لا ينقطعان، ففيها دائماً شيء يولد ويتطور، وشيء ينحل ويضمحل.

ولهذا تريد الطريقة الديالكتيكية ان لا يكتفى بالنظر الى الحوادث من حيث علاقات بعضها ببعض ، ومن حيث تكييف بعضها لبعض بصورة متقابلة ، بل ان ينظر اليهـا ايضاً من حيث حركتها ، من حيث تغيرها وتطورها ، من حيث ظهورها واختفاؤها .

وان المهم الجدير بالاعتبار قبل غيره في نظر الطريقـة الديالكتيكية ، ليس الشيء الذي يبدو ، في لحظة معينة ، ثابتاً مستقراً وهو في الواقع آخذ في الفناء ، بل المهم الجدير بالاعتبار قبل غيره في نظرها ، هو الشيء الذي يولد ويتطور ، ولو كان هـذا الشيء يبدو في لحظة معينة غير ثابت وغير مستقر ، اذ انه ليس في نظر الطريقة الديالكتيكية مـن شيء لا يقهر ولا يغلب سوى الشيء الذي يولد ويتطور .

يقول انجلس :

«ان الطبيعة باجمعها ،من أضأل الاجزاء الى اكبر الاجسام، من حبة الرمل الى الشمس ، من البروتيست (وهي الخلية الحية الابتدائية ــ ملاحظة من هيئة التحرير) الى الانسان ، هي في حركة دائمة من النشوء والاضمحلال ، هي في مد لا ينقطع ، في حركة وتغير مستمرين ابديين . » (كارل ماركس وفردريك انجلس : المؤلفات الكاملة - ضد دوهرينغ (١) - ديالكتيك

(١) ضد دوهرينغ : كتاب كبير مشهور ألفه فردريك انجلس رداً على عالم الماني اسمه دوهرينغ احدث في وقته ضجة كبرى في المانيا . وقد شرح انجلس ، خلال الرد عليه ، النظريات الماركسية الرئيسية في الفلسفة والاشتراكية والاقتصاد السياسي . (هيئة التعريب).

الطبيعة ــ ص ٤٩١ - موسكو ــ الطبعة الالمانية ١٩٣٥).

ولهذا فالديالكتيك، كما يقول انجلس :

« ... ينظر بالدرجة الاولى، الى الاشياء والى انعكاسها العقلي، من حيث علاقاتها المتبادلة، من حيث تسلسلها، من حيث حركتها، من حيث نشوؤها واضمحلالها». (المرجع ذاته - ص ٢٥)

ج) ان الديالكتيك، خلافاً للميتافيزية، لا يعتبر حركة التطور حركة نمو بسيطة، لا تؤدي التغيرات الكمية فيها الى تغيرات كيفية، بل يعتبرها تطوراً ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفية الى تغيرات ظـاهرة واساسية، اي الى تغيرات كيفية. وهذه التغيرات الكيفية ليست تدريجية، بل هي سريعة، فجائية، وتحدث بقفزات من حالة الى اخرى. وليست هذه التغيرات جائزة الوقوع، بـل هي ضرورية، وهي نتيجة تراكم تغيرات كمية غـير محسوسة وتدريجية.

ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية ان من الواجب فهم حركة التطور لا من حيث هي حركة دائرية، او تكرار بسيط للطريق نفسه، بـل من حيث هي حركة تقدمية صاعدة، وانتقال من الحالة الكيفية القديمة الى حـالة كيفية جديدة، وتطور ينتقل من البسيط الى المركب، من الادنى الى الاعلى.

يقول انجلس :

« ان الطبيعة هي محك الاختبار للديالكتيك، ولا بـد من القول ان علوم الطبيعة الحديثة قد وفرت لهـذا الاختبار مواد غنية الى اقصى حد. وهذه المواد تزداد كل يوم. وهكذا برهنت هذه العلوم ان الطبيعة تعمـل، في النتيجة، بصورة ديالكتيكية لا بصورة ميتافيزية، وانها لا تتحرك في دائرة تبقى هي ذاتها دائماً وتتكرر الى الابد، بل ان لها تاريخاً واقعياً. وبهـذه المناسبة ينبغي ان نذكر، بالدرجة الاولى، داروين الذي وجه ضربة قاسية الى الفهم الميتافيزي للطبيعة، باثباته ان العالم العضوي

باسره ؛ كما هوموجود اليوم ، اي النباتات والحيوانات ، وبالتالي الانسان ايضاً ، هي كلها نتاج تطور يجري منذ ملايين السنين » (المرجع ذاته - ص ٢٥) .

ويبين انجلس ان التغيرات الكمية تنقلب الى تغيرات كيفية في التطور الديالكتيكي :

« في الفيزياء ... كل تغير هو انتقال من الكمية الى الكيفية ، هو نتيجة التغير الكمي لكمية الحركة — كيفما كان شكلها — سواء اكانت ملازمة للجسم من داخله ام مضافة اليه من خارج . فان حرارة الماء مثلا ، ليس لها ، في بادىء الامر ، تأثير في حالته من حيث هو سائل ، ولكن اذا زيدت او انقصت حرارة الماء ، جاءت لحظة تعدلت فيها حالة التماسك التي هو فيها ، وتحول الماء الى بخار في احدى الحالات ، والى جليد في الحالة الاخرى ... وكذلك نرى ان شريطاً من البلاتين يحتاج الى تيار ذي قوة معينة لكي يصبح مضيئاً ، ونرى ايضاً ان لكل معدن حرارة ذوبان ، وان لكل سائل ، موضوع تحت ضغط معين ، حداً معيناً للتجمد وللغليان ، وذلك بمقدار ما تسمح لنا وسائلنا بالحصول على درجات الحرارة اللازمة . ونرى اخيراً ان لكل غاز جرارة حرجة يمكن فيها تحويله الى سائل ضمن شروط معينة من الضغط والتبريد ... **فالنقاط الثابتة** كما يقال في الفيزياء (اي نقاط الانتقال من حالة الى اخرى — ملاحظة من هيئة التحرير) ليست ، على الغالب ، سوى النقاط العقدية التي تؤدي فيها زيادة الحركة او انقاصها (وهو تغير كمي) الى حدوث تغير كيفي في جسم ما ، اي انها النقاط التي تتحول فيها الكمية الى كيفية » (المرجع ذاته : ص ٥٠٢ — ٥٠٣) .

ويقول في الكلام عن الكيمياء :

« يمكن القول ان الكيمياء هي علم التغيرات الكيفية الناشئة في الاجسام عن تغيرات كمية. وكان هيغل نفسه يعرف ذلك في عهده. لنأخذ الاوكسجين: فاذ جمعنا في جزيئة (١) ثلاث ذرات (٢) عوضاً عن اثنتين كالعادة، حصلنا على جسم جديد هو « الاوزون » الذي يختلف اختلافاً بيناً، برائحته وبتأثيراته، عن الاوكسجين العادي. وماذا نقول عن مختلف تراكيب الاوكسجين مع الآزوت او مع الكبريت ؟! ان كل تركيب منها يعطي جسماً مختلفاً من حيث الكيفية عن جميع الاجسام التي تعطيها التراكيب الاخرى. » (المرجع ذاته - ص ٥٠٣).

واخيراً ينتقد انجلس دوهرينغ الذي يشتم هيغل، ويختلس منه في الوقت نفسه نظريته المشهورة القائلة بان الانتقال من عهد العالم الفاقد الحس الى عهد الاحساس، من عهد العالم غير العضوي الى الحيـــاة العضوية، هو قفزة الى حالة جديدة :

« هذا هو تماماً الخط العقدي الهيغلي لعلاقات القياس، حيث تنتج في بعض النقاط العقدية، من اضافة كميـــة محضة، او من حذف كمي محض، **قفزة كيفية**، كما هي الحال مثلاً في المـــاء المسخن او المبرد. فان نقطة الغليـــان ونقطة التجمد فيـه هما العقدتان اللتان تتم فيهما، تحت الضغط العادي، القفزة الى حالة جديـدة من التجانس، اي تتحول فيهما الكمية الى كيفية » (المرجع ذاته : ص ٤٩ ـــ ٥٠).

د) ان نقطة الابتداء في الديالكتيك، خلافاً للميتافيزية، هي وجهة النظر القائلة على ان كل اشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية، لان لها جميعها جانباً سلبياً وجانباً ايجابياً، ماضياً وحاضراً، وفيهـــا جميعها عناصر

---

(١) : Molécule

(٢) : Atome

تضمحل او تتطور . فنضال هذه المتضادات ، اي النضال بين القديم والجديد ، بين ما يموت وما يولد ، بين ما يفنى وما يتطور ، هو المحتوى الداخلي لحركة التطور ، هو المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية .

ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية ، ان حركة التطور من الادنى الى الاعلى ، لا تجري بتطور الحوادث تطوراً تدريجيـــاً متناسقاً ، بل بظهور التناقضات الملازمة للاشياء والحوادث ، بـ « نضال » الاتجاهات المتضادة ، التي تعمل على اساس هذه التناقضات .

يقول لينين :

« ان الديالكتيك ، بالمعنى الخاص للكلمة ، هو درس التناقضات **في ماهية الاشياء نفسها**» (لينين ــ الدفاتر الفلسفية ـ ص ٢٦٣ ــ الطبعة الروسية) .

ويقول في مكان آخر :

« التطور هو « نضال » المتضادات » (لينين ـ المؤلفـــات الكاملة ـ المجلد ١٣ ـص ٣٠١ ــ الطبعة الروسية) .

تلك هي بايجاز ، الخطوط الاساسية للطريقة الديالكتيكية الماركسية .

وليس من الصعب ان ندرك ما هنالك من اهمية عظمى في اخضاع دراسة الحياة الاجتماعية ودرس تاريخ المجتمع لمبادىء الطريقة الديالكتيكية ، وما هنالك من اهمية عظمى في تطبيق هذه المبادىء على تاريخ المجتمع وعلى النشاط العملي لحزب البروليتاريا .

فاذا صح ان ليس في العالم حوادث منعزلة ، اذا صح ان كل الحوادث مرتبطة فيما بينها ويكيّف بعضها البعض الاخر بصورة متبادلة ، فمن الواضح ان كل نظام اجتماعي ، وكل حركة اجتماعية في التاريخ ، لا ينبغي الحكم عليهما من ناحية « العدالة الابدية » ، او من ناحية أية فكرة اخرى مقررة سلفاً كما يفعل المؤرخون على الغالب ، بل ينبغي لنا ان نبني حكمنا على اساس الظروف التي ولّدت هذا النظام وهذه الحركة الاجتماعية المرتبطين بها .

ان نظام الرق (١) يكون في الظروف الحاضرة خرقاً وبدعة مضادة للطبيعة . ولكن نظام الرق في شروط المشاعية الابتدائية (٢) ، الآخذة بالانحلال ، هو حادث مفهوم تماماً ومنطقي ، لانه يعني خطوة الى الامام بالنسبة لنظام المشاعية الابتدائية .

ان المطالبة باقامة الجمهورية الديموقراطية البورجوازية في ظروف القيصرية والمجتمع البورجوازي ، مثلاً في روسيا عام ١٩٠٥ ، كانت شيئاً مفهوماً وصحيحاً وثورياً تماماً ، لان الجمهورية البورجوازية كانت تعني اذ ذاك خطوة الى الامام . ولكن المطالبة باقامة الجمهورية الديموقراطية البورجوازية في ظروف الاتحاد السوفياتي الحاضرة ، تكون خرقاً ، وشيئاً رجعياً مضاداً للثورة ، لان الجمهورية البورجوازية هي خطوة الى الوراء بالنسبة الى الجمهورية السوفياتية .

كل شيء يتعلق بالظروف ، بالمكان والزمان .

ومن الواضح ان وجود علم تاريخي ، وتطور هذا العلم ، شيئان مستحيلان بدون هذا الفهم **التاريخي** للحوادث الاجتماعية ، فمثل هذا الفهم فقط يمنع علم التاريخ من ان يصبح فوضى احتمالات و كوم اخطاء سخيفة .

وبعد ، اذا صح ان العالم يتحرك ويتطور دائماً وابداً ، اذا صح ان اختفاء القديم ونشوء الجديد هما قانون للتطور ، أصبح من الواضح أن ليست هناك أنظمة اجتماعية ثابتة «غير قابلة للتغيير» ولا « مبادىء أبدية » للملكية الخاصة

---

(١) الرق : هو النظام الاجتماعي الذي كان سائداً قديماً في اليونان وزوما وغيرهما من اقطار الدنيا ، وكان قائماً على استملاك السيد (صاحب الارض او الملاك الخ) لعدد من الرقيق (العبيد) يشتريهم ليعملوا في ارضه او مشاريعه مقابل طعامهم فقط ، وكان له عليهم حق الملكية والتصرف ككل شيء آخر يملكه ، فيستطيع بيعهم او ضربهم واجاعتهم أو قتلهم .

(هيئة التعريب)

(٢) المشاعية الابتدائية : هي النظام الاجتماعي الذي كان موجوداً في اوائل نشوء البشرية (عهود ما قبل التاريخ) وكان قائماً على المشاع في الارض وفي ادوات الانتاج البسيطة الابتدائية التى كان الانسان يستعملها في الصيد او غيره (ولا تزال هناك في مختلف اقطار الشرق بقايا من المشاعية الابتدائية) . وقد انحل هذا النظام مع تطور ادوات الانتاج ، وخلفه نظام الرق .

(هيئة التعريب)

والاستثمار ، وليست هناك « افكار أبدية » عن خضوع الفلاحين لكبار ملاكي الارض والعمال للرأسماليين .

وبالتالي ، يمكن ان يحل النظام الاشتراكي محل النظام الرأسمالي كما حل النظام الرأسمالي في حينه محل النظام الاقطاعي .

وبالتالي ، ينبغي ان نؤسس عملنا لا على الفئات الاجتماعية التي توقفت عن التطور ، وان كانت لا تزال الآن تمثل القوة السائدة ، بل على الفئات الاجتماعية التي تتطور والتي لها مستقبل وان كانت ، بعدُ ، لا تمثل القوة السائدة.

في ١٨٨٠ — ١٨٩٠ ، عهد نضال الماركسيين ضد الشعبيين ، كانت البروليتاريا في روسيا اقلية ضئيلة بالنسبة الى جمهور الفلاحين الفرديين الذين كانوا يؤلفون اكثرية السكان الكبرى . ولكن البروليتاريا كانت تتطور من حيث هي طبقة ، بينما كانت جماهير الفلاحين ، من حيث هي طبقة ، في انحلال. ونظراً لان البروليتاريا كانت تتطور من حيث هي طبقة ، أسس الماركسيون عملهم عليها . وهم لم يخطئوا في ذلك . لانه من المعلوم ان البروليتاريا التي لم تكن سوى قوة قليلة الاهمية ، أصبحت فيما بعد ، قوة تاريخية وسياسية من الدرجة الاولى .

فاذن: لاجل اجتناب الخطأ في السياسة يجب النظر الى الامام لا الى الوراء.

وبعدُ ، اذا صح ان الانتقال من التغيرات الكمية البطيئة الى تغيرات كيفية فجائية وسريعة ، هو قانون للتطور ، فمن الواضح ان الثورات التي تقوم بها الطبقات المضطهدة هي حادث طبيعي تماماً ، ولا مناص منه .

وبالتالي ، فالانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية وتحرر الطبقة العاملة من النير الرأسمالي ، يمكن تحقيقهما ، لا بتغييرات بسيطة بطيئة ، ولا باصلاحات ، بل بتغيير كيفي للنظام الرأسمالي فقط ، اي بالثورة .

واذن لأجل اجتناب الخطأ في السياسة يجب ان يكون الانسان ثورياً ، لا اصلاحياً .

وبعدُ ، اذا صح ان التطور يجري بانبثاق التناقضات الداخلية ، وبالنزاع

بين القوى المتضادة على اساس هذه التناقضات ، وان غاية هذا النزاع هي قهر هذه التناقضات والتغلب عليها ، فمن الواضح ان نضال البروليتاريا الطبقي هو حادث طبيعي تماماً ، ولا مناص منه .

وبالتالي ، لا ينبغي اخفاء تناقضات النظام الرأسمالي ، بل ينبغي ابرازها وعرضها ، ولا ينبغي خنق النضال الطبقي ، بل ينبغي القيام به الى النهاية .

واذن لاجل اجتناب الخطأ في السياسة ينبغي اتباع سياسة بروليتارية طبقية حازمة ،لا سياسة اصلاحية تقول بالتناسق بين مصالح البروليتاريا ومصالح البورجوازية ، ولا سياسة تفاهمية تقول بـ «ادماج» الرأسمالية في الاشتراكية .

هذا ما تقول به الطريقة الديالكتيكية الماركسية ، لدى تطبيقها على الحياة الاجتماعية ، على تاريخ المجتمع .

اما المادية الفلسفية الماركسية ، فهي ، بدورها ، تعارض المثالية الفلسفية من حيث الاساس وعلى خط مستقيم .

٢ ــ تتميز **المادية الفلسفية الماركسية** بالخطوط الاساسية التالية :

أ) خلافاً للمثالية التي تعتبر العالم تجسداً لـ « الفكرة المطلقة » او لـ «العقل الكلي » او لـ « الوعي » ، تسير مادية ماركس الفلسفية من المبدأ القائل ان العالم ، بطبيعته ، **مادي** ، وان حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة ، وان العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة ، كما تقررها الطريقة الديالكتيكية ، هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة ، وان العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة ، وهو ليس بحاجة لاي « عقل كلي » .

يقول انجلس :

> « ان الفهم المادي للعالم يعني ، بكل بساطة ، فهم الطبيعة كما هي دون اية اضافة غريبة » (فردريك انجلس : لودفيغ فورباخ ونهـــاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ــ الطبعة الالمـانة ــ موسكو ـ ص ٦٠)

ولقد كتب لينين بصدد المفهوم المادي عند فيلسوف العهد القديم هيراقليط، الذي جاء فيه ان « ... العالم هو واحد ، لم يخلقه اي إله او اي انسان ، وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية الى الابد ، تشتعل وتنطفىء تبعاً لقوانين معينة ... » فقال :

« يا له من شرح رائع لمبادىء المادية الديالكتيكية » (لينين: الدفاتر الفلسفية - ص ٣١٨ — الطبعة الروسية) .

ب) خلافاً للمثالية التي تؤكد ان شعورنا وحده هو الموجود واقعياً ، وان العالم المادي ، والكائن، والطبيعة ، لا توجد الا في ادراكنا واحساساتنا، وتخيلاتنا ، وتصوراتنا ، تقوم المادية الفلسفية الماركسية على مبدأ آخر وهو ان المادة ، والطبيعة ، والكائن ، هي حقيقة موضوعية موجودة خارج الادراك وبصورة مستقلة عنه ، وان المادة هي عنصر اول لانها منبع الاحساسات ، والتصورات ، والادراك ، بينما الادراك هو عنصر ثان ، مشتق ، لانه انعكاس المادة، انعكاس الكائن، وان الفكر هو نتاج المادة لما بلغت في تطورها درجة عالية من الكمال ، او بتعبير ادق ، ان الفكر هو نتاج الدماغ ، والدماغ هو عضو التفكير، فلا يمكن، بالتالي، فصل الفكر عن المادة دون الوقوع في خطأ كبير. يقول انجلس :

« ان مسألة علاقة الفكر بالكائن ، او علاقة العقل بالطبيعة ، هي المسألة العليا في كل فلسفة ... وكان الفلاسفة تبعاً لاجابتهم على هذه المسألة ، ينقسمون الى معسكرين كبيرين : فأولئك الذين كانوا يؤكدون تقدم العقل على الطبيعة ، يؤلفون معسكر **المثالية** ، والآخرون الذين كانوا يقررون تقدم الطبيعة، ينتمون الى مختلف مدارس **المادية** » (فريدريك انجلس : لودفيــغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية- ص ٢٢ — ٢٣).

ويقول فيما بعد :

« ان العالم المادي ، الذي تدركه حواسنا ، والذي ننتمي

اليه نحن أنفسنا ، هو الواقع الوحيد ... اما ادراكنا وفكرنا فيها ، مهما ظهرا رفيعين ساميين ، ليسا سوى نتاج عضو مادي جسدي ، هو الدماغ ... ان المادة ليست من نتاج العقل ، بل ان العقل نفسه ليس سوى نتاج المادة الاعلى » (المرجع ذاته - ص ٢٦) .

ولقد قال ماركس بصدد قضية المادة والفكر :

« **لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة . فأن هذه** المادة هي جوهر كل التغيرات التي تحدث » (فردريك انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية - المقدمة).

ولما عرّف لينين المادية الفلسفية الماركسية افصح عن رأيه بالعبارات التالية:

« تقبل المادية بصورة عامة أن الكائن الواقعي الموضوعي (المادة) هو مستقل عن الادراك ، عن الاحساسات ، عن التجربة ... فالادراك ... ليس الا انعكاس الكائن ، وهو في أحسن الحالات ، انعكاس صحيح تقريباً (اي انعكاس تام ، بالغ أعلى درجات الدقة) . » (لينين : المؤلفات الكاملة - المجلد ١٣ - ص ٢٦٦ — ٢٦٧ - الطبعة الروسية) .

وقال فيما بعد :

« المادة هي ما ينتج الاحساسات بالتأثير في أعضاء حواسنا . المادة هي واقع موضوعي تعطينا اياه الاحساسات ... المادة ، والطبيعة ، والكائن ، والموجود الفيزيائي هي العنصر الاول ، بينما العقل ، والادراك ، والاحساسات ، والموجود النفسي ، هي العنصر الثاني » (المرجع ذاته : ص ١١٩ — ١٢٠)

« ان لوحة العالم هي لوحة تبين كيف تتحرك المادة وكيف « **تفكر المادة** » (المرجع ذاته : ص ٢٨٨).

« الدماغ هو عضو التفكير » (المرجع ذاته : ص ١٢٥).

ج) خلافاً للمثالية التي تنكر امكان معرفة العالم وقوانينه ، ولا تؤمن بقيمة معارفنا ، ولا تعترف بالحقيقة الموضوعية وتعتبر ان العالم مملوء بـ « اشياء قائمة بذاتها » ولن يتوصل العلم ابداً الى معرفتها ، تقوم المادية الفلسفية الماركسية على المبدأ القائل انه من الممكن تماماً معرفة العالم وقوانينه ، وان معرفتنا لقوانين الطبيعة ، تلك المعرفة التي يجري اختبارها بالعمل والتجربة ، هي معرفة ذات قيمة ، ولها معنى حقيقة موضوعية ، وان ليس في العالم أشياء لا تمكن معرفتها ، وانما فيه أشياء لا تزال مجهولة بعدُ ، وهي ستكتشف وتصبح معروفة بوسائل العلم والعمل .

وينتقد انجلس رأي « كانت » والمثاليين الآخرين القائل انه ليس من الممكن معرفة العالم و « الاشياء بذاتها » ، ويدافع عن الرأي المادي المعروف القائل بان معارفنا صحيحة مقبولة . وقد كتب انجلس في هذا الموضوع مايلي:

« ان اعظم رد حاسم لهذه النزغة (١) الفلسفية ولكل نزغة اخرى غيرهـا هو العمل وعلى الاخص التجربة والصناعة . فاذا استطعنا ان نبرهن على صحة فهمنا لحادث طبيعي بخلق هذا الحادث بانفسنا ، وباحداثه بمساعدة شروطه ، وباستخدامه ، فوق ذلك ، في سبيل اغراضنا ، ففي ذلك القضاء المبرم على « الشيء بذاته » والذي لا يمكن ادراكه ، مما يذهب اليه « كانت » . فان المواد الكيماوية الناتجة من الاجسام النباتية والحيوانية ، ظلت « اشياء قائمة بذاتها » الى ان اخذت الكيمياء العضوية بتحضيرها الواحدة بعد الاخرى ، وبذلك اصبح « الشيء بذاته » شيئاً كائناً من اجلنا ، كالاليزارين ، مثلا ، وهي المادة الصباغية في نبات الفوّة ، التي لم نعد نستخرجها من جذور الفوّة المزروعة في الحقول ، بل نسحبها بثمن ارخص وبصورة ابسط من قطران الفحم الحجري . وقد بقي نظام « كوبرنيك » الشمسي خلال

(١) نزغة : هراء وهوس (هيئة التعريب)

ثلاثمائة سنة ، فرضية يمكن المراهنة على صحتها بمئة ، أو بألف او بعشرة آلاف ضد واحد ، الا انهـا كانت ، رغم كل شيء ، فرضية . ولكن لما حسب « لوفه ريه » بمساعدة ارقـام حصل عليها بفضل هذا النظـام ، ليس فقط ضرورة وجود كوكب مجهول ، بل ايضاً المكان الذي يجب ان يكون فيه هـذا الكوكب في الفضاء السماوي ، ولما اكتشف « غـال » هذا الكوكب فعلاً فيما بعـد ، حينئذ تم البرهان على صحة نظـام كوبرنيك » (فردريك انجلس : لودفيك فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية - ص ٢٤) .

واتهم لينين بوغدانوف وبازاروف ويوشكيفيتش وانصار « ماخ » الآخرين بالايمانية (١) ، ودافع عن النظرة المادية المشهورة القائلة بان معارفنا العلمية عن قوانين الطبيعة هي صحيحة ، وان القوانين العلمية هي حقائق موضوعية ، وقد قال في هذا الموضوع ما يلي :

« ان « الايمانية » المعاصرة لا تنبذ العلم ابداً ، بل تنبذ « مزاعمه المتطرفة » ، أي زعمه الكشف عن الحقيقة الموضوعية . لانه اذا كان هنـاك حقيقة موضوعية (كما يفكر الماديون) ، واذا كانت علوم الطبيعة ، التي تعكس العـالم الخارجي في « التجربة » البشرية ، هي وحدها القادرة على اعطائنا الحقيقة الموضوعية ، اصبح من الواجب نبذ كل نظرية ايمانية عـلى الاطلاق » (لينين : المؤلفات الكاملة : المجلد ١٣ - ص ١٠٢ - الطبعة الروسية) .

تلك هي بايجاز الخطوط التي تميز المادية الفلسفية الماركسية .

ومن السهل ان ندرك الاهمية العظمى لتطبيق مبادىء المادية الفلسفية على درس الحياة الاجتماعية ، على درس تاريخ المجتمع ، كما انه من السهل ان

(١) الايمانية : نظرية رجعية تضع الايمان فوق العلم (هيئة التعريب)

ندرك الاهمية العظمى لتطبيق هذه المبادىء على تاريخ المجتمع ، على النشاط العملي لحزب البروليتاريا .

فاذا صح ان الصلة بين حوادث الطبيعة وتكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة ، هما قانونان ضروريان من قوانين تطور الطبيعة ، نتج من ذلك ان الصلة بين حوادث الحياة الاجتماعية وتكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة ، ليسا مجرد احتمالات ، بل هما ايضاً قانونان ضروريان من قوانين التطور الاجتماعي .

وبالتالي ، تخرج الحياة الاجتماعية ، وتاريخ المجتمع عن كونها تكدس « احتمالات » ، بل يصبح تاريخ المجتمع تطوراً ضرورياً للمجتمع ، وتصبح دراسة التاريخ الاجتماعي علماً .

وعلى ذلك ، يجب ان يكون النشاط العملي لحزب البروليتاريا مؤسساً لا على الرغبات المحدودة « لنخبة من الافراد » ولا على مقتضيات « العقل » و « الاخلاق الكلية » ... الخ ... بل على قوانين التطور الاجتماعي ، وعلى دراسة هذه القوانين .

وبعدُ ، اذا صح ان معرفة العالم ممكنة ، وان معرفتنا لقوانين تطوّر الطبيعة هي معرفة صحيحة لها دلالة حقيقة موضوعية ، نتج من ذلك ان معرفة الحياة الاجتماعية ، والتطور الاجتماعي هي ممكنة ايضاً ، وان المعلومات التي يقدمها العلم عن قوانين التطور الاجتماعي هي معلومات مقبولة ، لها دلالة حقائق موضوعية .

وبالتالي ، من الممكن ان يصبح علم تاريخ المجتمع ، رغم تعقد حوادث الحياة الاجتماعية وتشابكها ، علماً فيه من الدقة ما في البيولوجيا(١) مثلاً وقادراً على استخدام قوانين التطور الاجتماعي في تطبيقات عملية .

وبالتالي ، يجب على حزب البروليتاريا ، في نشاطه العملي ، ان لا يستوحي اي سبب طارىء اياً كان ، بل ان يستوحي قوانين التطور الاجتماعي والنتائج

---

(١) البيولوجيا : علم يدرس تركيب الانواع الحية من حيوانية او نباتية وتطورها.
(هيئة التعريب)

العملية التي تنتج من هذه القوانين .

وبالتالي ، تصبح الاشتراكية علماً ، بعد ما كانت فيما مضى حلماً بمستقبل احسن للانسانية .

وبالتالي ، ينبغي ان يصبح الارتباط والوحدة بين العلم والنشاط العملي ، بين النظريات والعمليات ، الكوكب الذي يهتدي به حزب البروليتاريا .

وبعد ، اذا صح ان الطبيعة ، او الكائن ، او العالم المادي ، هو العنصر الاول ، بينما الادراك ، او الفكر ، هو العنصر الثاني ، المشتق ، واذا صح ان العالم المادي هو واقع موضوعي موجود بصورة مستقلة عن ادراك الناس ، بينما الادراك هو انعكاس هذا الواقع الموضوعي ، نتج من ذلك : ان حياة المجتمع المادية ، او كيان المجتمع ، هو ايضاً العنصر الاول ، اما حياة المجتمع العقلية فهي عنصر ثان ، مشتق ، وان حياة المجتمع المادية هي واقع موضوعي موجود بصورة مستقلة عن ارادة الانسان ، اما حياة المجتمع العقلية فهي انعكاس هذا الواقع الموضوعي او انعكاس الموجود .

وبالتالي ، يجب البحث عن منشأ حياة المجتمع العقلية ، وعن أصل الأفكار الاجتماعية ، والنظريات الاجتماعية ، والاراء السياسية ، والاوضاع السياسية ، لا في الافكار والنظريات ، ولا في الاراء والاوضاع السياسية نفسها ، بل في شروط الحياة المادية للمجتمع ، في الموجود الاجتماعي الذي تكون هذه الافكار والنظريات والآراء وما اليها انعكاساً له .

وبالتالي، اذا كنا نشاهد في مختلف ادوار تاريخ المجتمع ،افكاراًونظريات اجتماعية مختلفة ، وآراء واوضاعاً سياسية متباينة ، اذا كنا نجد تحت نظام الرق هذه الافكار والنظريات الاجتماعية ، وتلك الاراء والاوضاع السياسية ، بينما نجد غيرها في ظل الاقطاعية ، وغيرها ايضاً في ظل الرأسمالية ، فتفسير ذلك ليس في « طبيعة » او في « خصائص » الافكار والنظريات والآراء والاوضاع السياسية نفسها ، بل في شروط الحياة المادية للمجتمع في مختلف ادوار التطور الاجتماعي .

فالموجود الاجتماعي وشروط الحياة المادية للمجتمع هي التي تعين افكار المجتمع، ونظرياته وآراءه السياسية، واوضاعه السياسية.

وقد كتب ماركس في هذا الموضوع ما يلي:

« ليس ادراك الناس هو الذي يحدد معيشتهم، بل على العكس من ذلك، ان معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد ادراكهم »
(كارل ماركس: مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي - المقدمة).

وبالتالي، لاجل اجتناب الخطأ في السياسة وعدم الاستسلام لاحلام فارغة، يجب على حزب البروليتاريا ان يؤسس عمله ليس على « مبادىء العقل الانساني» المجردة، بل على الظروف الواقعية لحياة المجتمع المادية، هذه الظروف التي تؤلف القوة الحاسمة في التطور الاجتماعي، ويجب عليه ان يبني عمله ليس على رغبات « عظام الرجال » المحمودة، بل على الحاجات الواقعية الحقيقية لتطور حياة المجتمع المادية.

ان مما يفسر سقوط الطوباويين، بما فيهم الشعبيون والفوضويون، والاشتراكيون الثوريون، هو انهم لم يكونوا يعترفون بالدور الاولي الذي تلعبه ظروف الحياة المادية للمجتمع في تطور المجتمع، فقد وقعوا في المثالية، فلم يبنوا نشاطهم العملي على حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع، بل بنوه بصورة مستقلة عن هذه الحاجات وبالرغم منها، على برامج « مثالية » و « مشاريع عامة » منفصلة عن حياة المجتمع الواقعية.

ان مصدر قوة الماركسية اللينينية وحيويتها، هو انها تستند في نشاطها العملي الى حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع، دون ان تنفصل ابداً عن حياة المجتمع الواقعية.

غير انه لا ينتج من اقوال ماركس ان الافكار والنظريات الاجتماعية، والآراء والاوضاع السياسية، ليس لها شأنها واهميتها في الحياة الاجتماعية، او انها لا تؤثر تأثيراً مقابلا في المعيشة الاجتماعية، وفي تطور الشروط المادية للحياة الاجتماعية. فنحن لم نتكلم حتى الان الا عن اصل الافكار والنظريات

الاجتماعية ، والآراء والاوضاع السياسية ، وعن **نشوئها وظهورها** ، فقلنا ان حياة المجتمع الروحية هي انعكاس لظروف حياته المادية . اما من حيث **اهمية** هذه الافكار والنظريات الاجتماعية ، وهذه الآراء والاوضاع السياسية ، ومن حيث **دورها** في التاريخ ، فالمادية التاريخية لا تنكر ذلك ، بل انها على العكس تشير اشارة خاصة الى دورها واهميتها العظيمين في الحياة الاجتماعية وفي تاريخ المجتمع .

ان الافكار والنظريات الاجتماعية تختلف . فثمة افكار ونظريات عتيقة فات اوانها ، وهي تخدم مصالح القوى الآخذة بالاضمحلال والفناء في المجتمع . فأهميتها مقتصرة على انها تكبح تطور المجتمع وتعوق رقيه . وثمة افكار ونظريات جديدة ، افكار الطليعة ونظرياتها ، تخدم مصالح قوى الطليعة في المجتمع ، واهميتها قائمة على انها تسهل تطور المجتمع ورقيه ، وهي ، فوق ذلك ، كلما كان عكسها لحاجات تطور الحياة المادية للمجتمع اصدق ، كانت الاهمية التي تكتسبها اكبر .

ان الافكار والنظريات الاجتماعية الجديدة لا تبرز الا عندما يضع تطور الحياة المادية للمجتمع ، مهمات جديدة امام المجتمع . ولكنها اذا ما برزت اصبحت قوة ذات اهمية من الدرجة العليا ، تسهل انجاز المهمات الجديدة التي يضعها تطور الحياة المادية للمجتمع ، وتسهل رقي المجتمع . وتبدو اذ ذاك خطورة الدور الذي تقوم به الافكار والنظريات الجديدة ، والآراء والاوضاع السياسية الجديدة ، من حيث **هي قوة** تنظيم وتعبئة وتحويل . وفي الحقيقة ، ان الافكار والنظريات الاجتماعية الجديدة انما تظهر لانها ضرورية للمجتمع ، فبدون عملها المنظم والمعبىء والمحوّل ، **يستحيل** حل المسائل العاجلة الملحة التي يقتضيها تطور الحياة المادية للمجتمع .

فالافكار والنظريات الاجتماعية الجديدة ، التي يبعثها ما يضعه تطور حياة المجتمع المادية من مهمات جديدة ، تشق لنفسها الطريق ، وتتبناها الجماهير الشعبية ، فتعبىء هذه الجماهير وتنظمها ضد القوى المتلاشية في المجتمع ، وتسهل

بذلك القضاء على هذه القوى التي تكبح تطور الحياة المادية للمجتمع .

وهكذا اذن : الافكار والنظريات الاجتماعية ، والاوضاع السياسية تتولد من المهمات العاجلة التي يضعها تطور الحياة المادية للمجتمع ، ثم تؤثر هي نفسها فيما بعد في المعيشة الاجتماعية ، وفي حياة المجتمع المادية ، بخلقها الشروط اللازمة لحل المسائل العاجلة الملحة في حياة المجتمع المادية ، وجعل تطور المجتمع الى الامام ممكناً .

وقد قال ماركس في هذا الموضوع :

« تصبح النظرية قوة مادية مذ دخولها في الجماهير » (كارل ماركس ـــ نقد فلسفة الحق لهيغل) .

فاذن : لاجل ان يستطيع حزب البروليتاريا التأثير في شروط الحياة المادية للمجتمع ، وتعجيل تطورها وتحسينها ، يجب عليه ان يستند الى نظرية اجتماعية تفصح بدقة عن حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع ، وتكون بذلك قادرة على تحريك الجماهير الشعبية الغفيرة ، وقادرة على تعبئتها وتنظيمها في جيش حزب البروليتاريا الكبير ، هذا الجيش المستعد لتحطيم القوى الرجعية ، وشق الطريق للقوى المتقدمة في المجتمع .

ان مما يفسر سقوط « الاقتصاديين » والمنشفيك ، انهم كانوا لا يعترفون بالدور المعبىء والمنظم والمحول الذي تقوم به نظرية الطليعة ، وفكرة الطليعة . اذ انهم وقعوا في المادية المبتذلة فجعلوا هذا الدور في حكم العدم تقريباً ، ولذلك كانوا يحملون الحزب على ان يبقى منفعلاً غير فاعل ، وان يقبع دون عمل .

وان مصدر قوة الماركسية اللينينية ، ومنبع حيويتها ، هو انها تستند الى نظرية متقدمة هي نظرية الطليعة ، التي تنعكس فيها بدقة حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع ، وانها تضع النظرية في المكان الرفيع اللائق بها ، وتعتبر ان من واجبها الاستفادة الى النهاية من قوتها المعبئة والمنظمة والمحولة .

على هذه الصورة تحل المادية التاريخية مسألة العلاقات بين الموجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، بين شروط تطور الحياة المادية وتطور الحياة

الروحية للمجتمع .

٣) : **المادية التاريخية** : بقيت مسألة تحتاج الى ايضاح : ماذا ينبغي ان نفهم من وجهة نظر المادية التاريخية ، عندما نقول « شروط الحياة المادية للمجتمع » التي تحدد ، في النهاية ، هيئة المجتمع وافكاره وآراءه واوضاعه السياسية وما اليها ؟

ما هي « شروط حياة المجتمع المادية » ؟ ما هي الخطوط التي تميزها ؟

من المؤكد ان مفهوم « شروط حياة المجتمع المادية » يشمل ، قبل كل شيء ، الطبيعة التي تحيط بالمجتمع ، او الوسط الجغرافي الذي يؤلف احد الشروط الضرورية الدائمة لحياة المجتمع المادية والذي يؤثر ولا ريب في تطور المجتمع . فما هو دور الوسط الجغرافي في التطور الاجتماعي ؟ ألا يكون الوسط الجغرافي القوة الرئيسية التي تحدد هيئة المجتمع ، وتعين طابع نظام الناس الاجتماعي ، وتقرر الانتقال من نظام الى آخر ؟

تجيب المادية التاريخية عن هذا السؤال بالنفي . فالوسط الجغرافي هو ، دون جدال ، احد الشروط الدائمة والضرورية لتطور المجتمع ، ومن المؤكد انه يؤثر في هذا التطور ، فهو يعجل او يبطىء سير التطور الاجتماعي ، ولكن ليس هذا التأثير حاسماً ، لان تطور المجتمع وتغيراته تجري بصورة اسرع بكثير من تطور الوسط الجغرافي وتغيراته . فقد تتالت على اوروبا خلال ثلاثة آلاف سنة ثلاثة انظمة اجتماعية مختلفة هي المشاعية الابتدائية ، والرق ، والنظام الاقطاعي ، بل تعاقبت في شرق اوروبا ، في اراضي الاتحاد السوفياتي ، اربعة انظمة . اما شروط اوروبا الجغرافية فلم تتغير قط خلال هذه المرحلة نفسها . واذا كان قد طرأ عليها بعض التغير فهو طفيف جداً ، حتى ان الجغرافيين يهملون التحدث عنه . وهذا مفهوم ، لان حدوث تغيرات لها شيء من الخطورة في الوسط الجغرافي يحتاج الى ملايين السنين ، بينما تكفي بضع مئات السنين او حوالي الفي سنة لحدوث تغيرات هامة جداً في نظام الناس الاجتماعي .

ينتج من ذلك ان الوسط الجغرافي لا يمكن ان يكون السبب الاساسي او السبب **الحاسم** للتطور الاجتماعي ، اذ ان ما يبقى دون تغيير تقريباً ، خلال عشرات الالوف من السنين ، لا يمكن ان يكون السبب الاساسي لتطور شيء معرض لتغيرات اساسية خلال بضع مئات السنين .

ومن المؤكد ايضاً ان نمو السكان وكثافتهم يدخلان في مفهوم « شروط الحياة المادية للمجتمع » ، لان الناس هم عنصر اساسي لا بد منه في شروط الحياة المادية للمجتمع ، وبدون حد ادنى من الناس لا يمكن ان تكون هنالك اية حياة مادية للمجتمع ، أفلا يكون نمو السكان وكثافتهم القوة الاساسية التي تحدد طابع نظام الناس الاجتماعي ؟

تجيب المادية التاريخية عن هذا السؤال ايضاً بالنفي . لا جرم ان نمو السكان يؤثر في التطور الاجتماعي ، فيسهله او يبطئه ، ولكن لا يمكن ان يكون القوة الاساسية للتطور الاجتماعي ، ولا يمكن ان يكون تأثيره فيه تأثيراً **حاسماً** ، لان نمو الناس من حيث هو ، لا يعطينا مفتاح السؤال التالي: لماذا يعقب هذا النظام الاجتماعي ذاك النظام الاجتماعي لا غيره ؟ لماذا يعقب نظامُ الرق المشاعيةَ الابتدائية ؟ ولماذا يعقب النظامُ الاقطاعي نظامَ الرق؟ ولماذا يعقب النظامُ البورجوازي لا غيره ، النظامَ الاقطاعي ؟

فلو كان نمو السكان هو القوة الاساسية للتطور الاجتماعي ، لكان من الواجب ، بالضرورة ، ان ينشأ عن ازدياد كثافة السكان ، نوع من نظام اجتماعي أعلى وارقى ، وهو أمر غير واقع . فكثافة السكان هي في الصين أعلى باربع مرات منها في الولايات المتحدة ، ومع ذلك فالولايات المتحدة هي في مستوى اعلى من الصين من حيث التطور الاجتماعي : فلا يزال النظام السائد في الصين نظاماً نصف اقطاعي في حين ان الولايات المتحدة قد بلغت منذ امد طويل المرحلة العليا للتطور الرأسمالي . وكثافة السكان في بلجيكا اعلى بتسع عشرة مرة منها في الولايات المتحدة ، وبست وعشرين مرة منها في الاتحاد السوفياتي ، ومع ذلك فالولايات المتحدة هي في مستوى أرقى من

بلجيكا من حيث التطور الاجتماعي ، اما بالنسبة للاتحاد السوفياتي ، فلا تزال بلجيكا متأخرة عهداً تاريخياً كاملاً : لانه يسود بلجيكا النظام الرأسمالي ، في حين ان الاتحاد السوفياتي قد انتهى من الرأسمالية وأقام لديه النظام الاشتراكي .

ينتج من ذلك ان نمو السكان ليس ولا يمكن ان يكون القوة الاساسية لتطور المجتمع ، اي القوة التي **تحدد** طابع النظام الاجتماعي وهيئة المجتمع .

أ ــ ولكن ما هي اذن ، في مجموعة شروط الحياة المادية للمجتمع ، القوة الاساسية التي تحدد هيئة المجتمع وطابع النظام الاجتماعي وتقرر تطور المجتمع من نظام الى آخر ؟

تعتبر المادية التاريخية ان هذه القوة هي **اسلوب الحصول على وسائل المعيشة** الضرورية لحياة الناس ، اي **اسلوب انتاج الحاجات المادية** كالغذاء واللباس والاحذية والمسكن والوقود وادوات الانتاج ... الخ ، التي لا بد منها حتى يستطيع المجتمع ان يحيا وان يتطور .

فلا بد ، لاجل الحياة ، من غذاء ولباس وأحذية ومسكن ووقود الخ... . ولاجل الحصول على هذه الحوائج المادية ، يجب انتاجها ، ولاجل انتاجها لا بد من ادوات الانتاج التي ينتج الناس بمعونتها الغذاء واللباس والاحذية والمسكن والوقود الخ ... ولا بد من معرفة انتاج هذه الادوات ، ولا بد من معرفة استخدامها .

فأدوات الانتاج التي بمعونتها تنتج الحوائج المادية ، **والناس** الذين يستعملون ادوات الانتاج هذه ، وينتجون الحوائج المادية بفضل ما لديهم من **تجربة في الانتاج** ومن **عادات في العمل** ، تلك هي العناصر التي تؤلف ، بمجموعها ، **قوى المجتمع المنتجة** .

ولكن القوى المنتجة لا تؤلف الا جانباً واحداً من الانتاج أي جانباً واحداً من اسلوب الانتاج ، وهو الجانب الذي يعبر عن سلوك الناس نحو اشياء الطبيعة وقواها التي يستخدمونها لانتاج الحوائج المادية . اما الجانب

الاخر للانتاج ، اي الجانب الاخر لأسلوب الانتاج، فهو علاقة الناس فيما بينهم اثناء سير الانتاج ، او ما يسمى **علاقات الانتاج** بين الناس. فالناس في نضالهم مع الطبيعة التي يستثمرونها لانتاج الحوائج المادية ، ليسوا منفردين ، منعزلين بعضهم عن بعض ، وليسوا افراداً احدهم منفصل عن الاخر ، بل هم ينتجون معاً في جماعات او جمعيات. فالانتاج هو ، دائماً ومهما تكن الشروط ، انتاج **اجتماعي**. ففي اثناء انتاج الحوائج المادية يقيم الناس فيما بينهم **هذه العلاقات** او تلك ضمن نطاق الانتاج ، اي يقيمون فيما بينهم هذه او تلك من علاقات الانتاج. ويمكن ان تكون هذه العلاقات علاقات تعاون وتعاضد بين اناس محررين من كل استثمار ، ويمكن ان تكون علاقات سيطرة وخضوع ، كما يمكن ان تكون علاقات انتقال من شكل من اشكال علاقات الانتاج الى شكل آخر. ولكن مهما يكن الطابع الذي تتسم به علاقات الانتاج فهي دائماً وتحت كل الانظمة ، عنصر ضروري لا غنى عنه في الانتاج ، مثلها في ذلك مثل قوى المجتمع المنتجة سواء بسواء.

يقول ماركس :

« في الانتاج ، لا يؤثر الناس في الطبيعة فقط ، بل يؤثر بعضهم في البعض الاخر ايضاً ، فهم لا ينتجون الا بالتعاون فيما بينهم على شكل معين ، وبتبادل النشاط فيما بينهم. ومن اجل ان ينتجوا ، يدخل بعضهم مع بعض في صلات وعلاقات معينة ، ولا يتم تأثيرهم في الطبيعة ، اي لا يتم الانتاج ، الا في حدود هذه الصلات والعلاقات الاجتماعية » (كارل ماركس : العمل المأجور ورأس المال.)

يستلخص من ذلك ان الانتاج ، او اسلوب الانتاج ، يشمل قوى المجتمع المنتجة كما يشمل علاقات الانتاج بين الناس سواء بسواء ؛ ففيه يتجسد اتحاد الطرفين خلال عملية انتاج الحوائج المادية.

ب ـ **الخاصة الاولى** للانتاج انه لا يقف ابداً مدة طويلة في نقطة معينة.

فهو دائماً في حالة تغير ونمو . وعلاوة على ذلك ، فان تغيير اسلوب الانتاج يؤدي بصورة حتمية الى تغير النظام الاجتماعي باسره ، وتغير الافكار الاجتماعية والاراء والمؤسسات السياسية . ان تغير اسلوب الانتاج يؤدي الى صهر النظام الاجتماعي والسياسي كله صهراً جديداً . ويستخدم الناس في مختلف درجات التطور ، ادوات انتاج مختلفة ، اي انهم ، بعبارة ابسط ، يحيون حياة مختلفة. ففي المشاعية الابتدائية اسلوب للانتاج ، وفي الرق اسلوب آخر ، وفي الاقطاعية اسلوب ثالث ، وهكذا . ويختلف نظام الناس الاجتماعي ، وتختلف حياتهم العقلية ، واراؤهم ، ومؤسساتهم السياسية ، حسب اساليب الانتاج هذه .

ان المجتمع ذاته ، وافكاره ونظرياته ، وآراءه ومؤسساته السياسية ، تتعلق ، من حيث الاساس ، باسلوب الانتاج في المجتمع .

او بعبارة ابسط : كل نمط من المعيشة ، يطابقه نمط من التفكير .

ومعنى هذا ان تاريخ تطور المجتمع هو ، قبل كل شيء ، تاريخ تطور الانتاج ، تاريخ اساليب الانتاج التي تتعاقب خلال العصور ، تاريخ تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج بين الناس .

وبالتالي ، فان تاريخ التطور الاجتماعي هو في الوقت نفسه تاريخ منتجي الحوائج المادية ، تاريخ الجماهير الكادحة التي هي القوى الاساسية في عملية الانتاج والتي تنتج الحوائج المادية الضرورية لمعيشة المجتمع .

وبالتالي، اذا اراد العلم التاريخي ان يكون علماً حقيقياً كان عليه ان لا يقصر تاريخ التطور الاجتماعي على اعمال الملوك وقادة الجيوش ، واعمال « الفاتحين » و « مستعبدي » الدول ، بل ان يهتم قبل كل شيء ، بتاريخ منتجي الحوائج المادية ، تاريخ الجماهير الكادحة ، تاريخ الشعوب .

فاذن : يجب ان لا نبحث عن المفتاح الذي يسمح لنا بالكشف عن قوانين تاريخ المجتمع ، في ادمغة الناس ، او في آراء المجتمع وافكاره ، بل يجب ان نبحث عنه في اسلوب الانتاج الذي يمارسه المجتمع خلال كل دور من ادوار التاريخ ، اي في الحياة الاقتصادية للمجتمع .

وبالتالي، فمهمة العلم التاريخي الرئيسية هي دراسة و كشف قوانين الانتاج، وقوانين تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، او قوانين التطور الاقتصادي للمجتمع.

وبالتالي، اذا اراد حزب البروليتاريا ان يكون حزباً حقيقياً، فيجب عليه ان يتعلم، قبل كل شيء، علم قوانين تطور الانتاج، وقوانين التطور الاقتصادي للمجتمع.

وبالتالي، يجب على حزب البروليتاريا، لاجتناب الخطأ في السياسة، ان يستوحي، قبل كل شيء، في وضع برنامجه، كما في نشاطه العملي، قوانين تطور الانتاج وقوانين التطور الاقتصادي للمجتمع.

ج ـ **الخاصة الثانية** للانتاج هي ان تطوره وتغيراته تبدأ دائماً بتغير القوى المنتجة وتطورها، وبتغير وتطور ادوات الانتاج قبل غيرها. فالقوى المنتجة هي اذن اكثر عناصر الانتاج حركة وثورة. ففي بادىء الامر تتعدل القوى المنتجة في المجتمع وتتطور، وبعدئذ، **تبعاً لهذه التعديلات وطبقاً لها**، تتعدل علاقات الانتاج بين الناس، اي علاقاتهم الاقتصادية. غير ان ذلك لا يعني ان علاقات الانتاج لا تؤثر في تطور القوى المنتجة، او ان هذه لا تتعلق بتلك، فان علاقات الانتاج، التي يتعلق تطورها بتطور القوى المنتجة، تؤثر بدورها في تطور القوى المنتجة، فتعجله او تبطئه. ومن المهم ان نلاحظ، علاوة على ذلك، ان علاقات الانتاج لا يمكن ان تتأخر امداً طويلا عن نمو القوى المنتجة وان تبقى في تناقض مع هذا النمو، لان القوى المنتجة لا تستطيع ان تتطور تطوراً تاماً الا عندما تكون علاقات الانتاج مطابقة لطابع القوى المنتجة وحالتها، وتفسح لها مجال التطور بحرية. ولذلك فمهما تأخرت علاقات الانتاج عن تطور القوى المنتجة، فلا بد من ان ينتهي بها الامر ـ وهو فعلاً ينتهي ـ بالمطابقة بينها وبين مستوى تطور القوى المنتجة، وان تتخذ طابعاً يلائم طابع هذه القوى المنتجة، والا تعرضت الوحدة التي تجمع، في نظام الانتاج، بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، الى خطر

التفكك ، فيؤدي ذلك الى حدوث انقطاع في مجموع الانتاج ، الى وقوع ازمة في الانتاج ، الى تحطيم القوى المنتجة .

في الاقطار الرأسمالية ــ حيث الملكية الخاصة الرأسمالية ، لوسائل الانتاج ، تناقض ، بصورة بيّنة ، الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج ، اي طابع القوى المنتجة ــ تكون الازمات الاقتصادية مثالاً للتنافر والخلاف بين علاقات الانتاج وطابع القوى المنتجة ، ومثالاً للنزاع الناشب بينها . فان الازمات الاقتصادية ، التي تؤدي الى تحطيم القوى المنتجة ، هي نتيجة هذا الخلاف . وعلاوة على ذلك ، فان هذا الخلاف نفسه هو الاساس الاقتصادي للثورة الاجتماعية المدعوة الى هدم علاقات الانتاج الحالية وخلق علاقات جديدة مطابقة لطابع القوى المنتجة .

اما الاقتصاد الاشتراكي في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ــ حيث الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج هي في توافق تام مع الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج ، وحيث لا نجد ، بالتالي ، لا ازمات اقتصادية ولا تحطيماً للقوى المنتجة ــ فهو مثال للاتفاق التام بين علاقات الانتاج وطابع القوى المنتجة .

فاذن ، ليست القوى المنتجة اكثر عناصر الانتاج حركة وثورة فقط ، بل هي ايضاً العنصر الحاسم في تطور الانتاج .

وكما تكون القوى المنتجة ، كذلك يجب ان تكون علاقات الانتاج .

واذا كانت حالة القوى المنتجة تبين باية ادوات انتاج ينتج الناس الحوائج المادية الضرورية لهم ، فان حالة علاقات الانتاج تبين من جهتها من الذي يملك **وسائل الانتاج** (الارض ، الاحراج ، المياه ، بطن الارض ، المواد الاولية ، ادوات الانتاج ، ابنية الاستثمار ، وسائل النقل والمواصلات ، الخ ...) ، من الذي يتصرف بوسائل الانتاج ؟ هل هي تحت تصرف المجتمع باسره ام تحت تصرف افراد او جماعات او طبقات يستخدمونها لاستثمار افراد آخرين ، او جماعات اخرى او طبقات اخرى ؟..

وفيما يلي لوحة تبين الخطوط الكبرى لتطور القوى المنتجة منذ اقدم الازمان الى يومنا هذا : الانتقال من الادوات الحجرية الغليظة الى القوس والسهام ، وبالتالي ، الانتقال من الصيد الى استخدام الحيوانات وتربية المواشي بشكل ابتدائي ، ثم الانتقال من الادوات الحجرية الى المعدنية (الفأس الحديدية ، المحراث الابتدائي المجهز بسكة مصنوعة من حديد ، الخ ...) وبالتالي الانتقال الى غرس النباتات ، الى الزراعة ، ومن ثم اجراء تحسين جديد في الادوات المعدنية لاجل صنع مختلف المواد وظهور الكور ذي المنفاخ ، وصناعة الاواني الفخارية ، وبالتالي ، تطور الحرف ، وانفصال الحرف عن الزراعة ، وتطور الحرف المستقلة اولا ، ثم المانيفاكتوره (١) فيما بعد . ثم الانتقال من ادوات الانتاج الحرفي الى الالة ، وتحويل الانتاج الحرفي — المانيفاكتوري ، الى صناعة قائمة على الآلة ومن ثم الانتقال الى نظام الآلات وظهور الصناعة الميكانيكية الحديثة الكبرى .

هذه هي بصورة اجمالية وغير كاملة اللوحة التي تبين تطور قوى المجتمع

---

(١) المانيفاكتوره : نشأت المانيفاكتوره في عهد انحلال الاقطاعية مع تطور التجارة وازدياد الطلب على المنتجات المصنوعة . فقد كان التجار يشترون قبلاً من الصناع الحرفيين منتجاتهم ليبيعوها بدورهم . ثم اخذوا يقدمون لهم المواد الاولية فيصنعها الصناع بادواتهم . ثم اخذ التاجر يجمع الحرفيين تحت سقف واحد ، في مكان واحد (هو المانيفاكتوره) ويقدم لهم المواد الاولية وادوات الانتاج ايضاً . وهكذا انقلب رأس المال التجاري الى رأس مال صناعي ، واصبح الصانع الحرفي عاملاً مأجوراً ليس لديه سوى قوة عمله ، يبيعها للرأسمالي ، ويعمل ، مع زملائه ، تحت اشرافه المباشر في المانيفاكتوره .

هكذا ظهرت المانيفاكتوره الى جانب الانتاج الحرفي الصغير ، فهي اول شكل للانتاج الرأسمالي الكبير ، يبدأ معه التقسيم الرأسمالي للعمل . فان المانيفاكتوره تجمع عدداً كبيراً من العمال يعمل كل واحد منهم قسما من الشيء المصنوع فيعطي عملهم جميعاً انتاجاً اكبر من انتاج صغار المنتجين المبعثر . وقبل ظهور المانيفاكتوره ، كان التقسيم الاجتماعي للعمل لا يجري الا بين منتجين صغار مستقلين ، اما الان فأخذ تقسيم العمل يجري في داخل المانيفاكتوره نفسها . وقد تابع الانتاج الرأسمالي تطوره ، الى ان حلت الصناعة الآلية والمعامل المجهزة بالالآت العصرية الميكانيكية ، محل المانيفاكتورات .

(هيئة التعريب)

المنتجة طيلة تاريخ البشرية ، ولا حاجة الى القول ان تطور ادوات الانتاج وتحسينها لم يحدثا بصورة مستقلة عن الناس بل حققها الناس الذين لهم علاقة بالانتاج. واذن : فالناس – الذين هم عنصر اساسي في القوى المنتجة – يتغيرون ويتطورون بتغير ادوات الانتاج وتطورها. فقد رأينا ان تجربتهم في الانتاج، وعاداتهم في العمل، وقدرتهم على استعمال ادوات الانتاج، قد تغيرت وتطورت.

وطبقا لهذه التغيرات وهذا التطور في قوى المجتمع المنتجة خلال التاريخ، تغيرت وتطورت علاقات الانتاج بين الناس ، اي علاقاتهم الاقتصادية.

ولقد سجل التاريخ خمسة انواع **اساسية** لعلاقات الانتاج: المشاعية الابتدائية، الرق، النظام الاقطاعي، النظام الرأسمالي، النظام الاشتراكي.

في نظام المشاعية الابتدائية، تؤلف الملكية الجماعية لوسائل الانتاج، اساس علاقات الانتاج. وذلك يطابق من حيث الاساس طابع القوى المنتجة في هذا الدور. فالادوات الحجرية وكذلك القوس والسهام التي ظهرت فيما بعد، لم تكن تسمح للناس بان يناضلوا منفردين ضد قوى الطبيعة والحيوانات المفترسة. فلأجل قطف الاثمار في الغابات، ولاجل صيد السمك، ولاجل بناء مسكن ما، كان الناس مجبرين على العمل معاً بصورة مشتركة، اذا ما ارادوا اجتناب الموت جوعا او الوقوع فريسة للحيوانات الضارية او للقبائل المجاورة. ويؤدي العمل المشترك الى الملكية المشتركة لوسائل الانتاج وللمنتجات ايضاً. فهنا، اذا استثنينا الملكية الفردية لبعض ادوات الانتاج التي تؤلف في الوقت نفسه اسلحة دفاع ضد الحيوانات المفترسة، لا نجد بعد، معنى لمفهوم الملكية الخاصة لوسائل الانتاج. هنا: لا استثمار ولا طبقات.

وفي نظام الرق تؤلف ملكية سيد العبيد لوسائل الانتاج والشغيل – اي للعبد الذي يستطيع بيعه وشراءه وقتله كالماشية – اساس علاقات الانتاج. وعلاقات انتاج كهذه تطابق من حيث الاساس ، حالة القوى المنتجة في هذا الدور . فعوضا عن الادوات الحجرية اصبحت عند الناس الان ادوات معدنية، وبدلا من اقتصاد يقتصر على صيد ابتدائي فقير ويجهل تربية المواشي والزراعة،

نشهد ظهور تربية المواشي، والزراعة وحرَف شتى ، وتقسيم العمل بين هـذه الفروع المختلفة للانتاج ، كما نشهد ظهور امكان تبادل المنتجات بين الافراد والجماعات وامكان تراكم الثروة بين ايدي عدد ضئيل من الناس وتكدس وسائل الانتاج بصورة فعلية في ايدي اقلية ، وامكان جعل الاكثرية خاضعة للاقلية ، وتحويل اعضاء الاكثرية الى عبيد . فهنا لم يبق عمل مشترك حر يقوم به جميع اعضاء المجتمع خلال سير الانتاج . هنا يسود العمل الاجباري ، عمـل عبيد يستثمرهم سادة عاطلون منعمون ، ولهذا لم تبق ايضا ملكية مشتركة لوسائل الانتاج ولا للمنتجات اذ قد حلت محلها الملكية الخـاصة . هنا : يصبح سيد العبيد هو المالك الاول والرئيسي ، المالك المطلق .

اغنياء وفقراء ، مستثمِرون ومستثمَرون ، اناس لهم كل الحقوق، واناس ليس لهم اي حق ، نضال طبقي حـاد بين هؤلاء واولئك : تلك هي لوحة نظام الرق !

وفي النظام الاقطـاعي تؤلف ملكية النبيل الاقطاعي لوسائل الانتاج ، وملكيته المحدودة للشغيل ــ وهو القن الذي لم يعد في استطاعة الاقطاعي قتله ، غير ان في امكانه بيعه وشراؤه ــ اساس علاقات الانتاج . ونجد الى جـانب الملكية الاقطاعية ، ملكية الفلاح والحرفي الفردية المشتملة على ادوات الانتاج وعلى اقتصادهما الخاص المؤسس على العمل الشخصي . وعلاقات الانتاج هـذه تطابق من حيث الاساس حالة القوى المنتجة في هذا الدور . فان تحسين الحديد الصب واتقان معالجة الحديد ، وتعميم استعمال المحراث ونول النسيج وتطور الزراعة والبستنة وصناعة الخمور وصنـاعة الزيت تطورا مستمرا ، وظهور المانيفاكتورات الى جانب ورشات الحرفيين ، كل ذلك يؤلف الخصـائص المميزة لحالة القوى المنتجة .

وتتطلب القوى المنتجة الجديـدة من الشغيل ان يبدي شيئا من المبادهة والابتكار في الانتاج ، وذوقا فيما يصنع ، واهتماما بالعمل . ولذلك يتخـلى النبيل الاقطاعي عن العبد الرقيق الخالي من كل اهتمام بالعمل ، والمحروم من

كل مبادهة على الاطلاق، ويفضل ان يعامل قنا يملك اقتصاده الخاص وادوات للانتاج ، ولديه شيء من الاهتمام بالعمل ، هذا الاهتمام الذي لا بد منه حتى يزرع الارض ويدفع حصة من عين محصوله الى الاقطاعي .

وهنا تتابع الملكية الخاصة تطورها ، ويبقى الاستثمار تقريبا عـــلى مثل قسوته في عهد الرق، يكاد انلا يلين الا قليلا . فالنضال الطبقي بين المستثمِرين والمستثمَرين ، هو الميزة الاساسية للنظام الاقطاعي .

في النظام الرأسمالي ، تؤلف الملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج ، اساس علاقات الانتاج . اما امتلاك المنتجين ، اي العمال المأجورين ، فليس له وجود، ولا يستطيع الرأسمالي قتلهم ولا بيعهم . لانهم محررون من كل تبعية شخصية. غير انهم محرومون من وسائل الانتاج وهم مضطرون، لكي لا يموتوا جوعاً، ان يبيعوا قوة عملهم للرأسمالي وان يعانوا نير الاستثمار. وهنالك الى جانب الملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج ، ملكية الفلاح والحرفي الخاصة لادوات الانتاج ، بعد ما تحررا من القنانة : فقد كانت هذه الملكية المؤسسة على العمل الشخصي ، منتشرة انتشاراً واسعاً في بادىء الامر . وحلّت المصانع والمعامل العظيمة المجهزة بالالات ، محل ورشات الحرفيين والمانيفاكتورات، كما ان الاستثمارات الرأسمالية الكبيرة التي تدار عـــلى اساس العلم الزراعي والمجهزة بالالات الزراعية ، حلّت محل املاك النبلاء التي كانت تزرع بواسطة ادوات الفلاحين الابتدائية .

وهذه القوى المنتجة الجديدة تتطلب من الشغيلين ان يكونوا اكثر ثقافة وذكاء من الاقنان الجاهلين البلداء ، وان تكون لديهم الكفاءة اللازمة لفهم الآلة ، وان يجيدوا استعمالها كما ينبغي . ولهذا يفضل الرأسماليون ان يتعاملوا مع عمال مأجورين محررين من قيود القنانة ، وحائزين على ثقافة كافية تساعدهم على استعمال الالات استعمالا لائقاً .

ولكن الرأسمالية ، لسبب تنميتها القوى المنتجة بنسبة هائلة ، وقعت في تناقضات لا تستطيع حلها . فهي بانتاجها كميات متزايدة من البضائع ،وبانقاصها

اسعار هذه البضائع ، تزيد المزاحمة تفاقماً واشتداداً ، وترمي جماهير الملاكين الفرديين الصغار والمتوسطين في الخراب والدمار ، وتجعلهم في حالة البروليتاريين وتخفض مقدرتهم الشرائية ، وتكون النتيجة انّ تصريف البضائع المصنوعة يضحي مستحيلاً . ان الرأسمالية ، بتوسيعها وبجمعها ملايين العمال في مصانع ومعامل عظيمة ، تطبع عملية الانتاج بطابع اجتماعي ، وبذلك تنخر قاعدتها بنفسها ، لان الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج، يتطلب ملكية اجتماعية لوسائل الانتاج .في حين ان ملكية وسائل الانتاج تبقى ملكية خاصة رأسماليةُ غير متلائمة مع الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج .

ان هذه التناقضات بين طابع القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، هذه التناقضات التي لا يمكن التوفيق بينها ، تظهر في ازمات فيض الانتاج الدورية ، فنرى الرأسماليين ، نظراً لعدم وجود شارين قادرين على الدفع بسبب خراب الجماهير الذي تقع مسؤوليته عليهم انفسهم ، يضطرون الى حرق المحصولات واتلاف البضائع الجاهزة ، ووقف الانتاج ، وتحطيم القوى المنتجة ، بينما ملايين الناس يقاسون آلام البطالة والجوع لا لفقدان البضائع ، بل لكثرة ما أنتج منها .

ومعنى هذا ، ان علاقات الانتاج الرأسمالية لم تعد مطابقة لحالة القوى المنتجة ، بل دخلت معها في تناقض لا يحل .

معنى هذا ، ان الرأسمالية تحمل في صلبها ثورة مدعوة الى احلال الملكية الاشتراكية محل الملكية الرأسمالية الحالية لوسائل الانتاج.

معنى هذا ، ان نضالا طبقياً حاداً من اشد ما عرف ، بين المستثمِرين والمستثمَرين ، هو الميزة الاساسية للنظام الرأسمالي .

في النظام الاشتراكي الذي لم يتحقق ، حتى الآن ، الا في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، تؤلف الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج اساس علاقات الانتاج . هنا لم يبق لا مستثمِرون ولا مستثمَرون، وتوزّع المنتجات حسب العمل الذي يقدمه كل انسان ، وتبعاً للمبدأ القائل : « من لا يشتغل لا

يا كل ». اما العلاقات بين الناس في عملية الانتاج ، فهي علاقات تعاون اخوي وتعاضد اشتراكي بين شغيلة محررين من الاستثمار . وعلاقات الانتاج هذه مطابقة تماماً لحالة القوى المنتجة ، لان الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج ، يجد دعامة له في الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج .

هذا ما يجعل الانتاج الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، يجهل ازمات فيض الانتاج الدورية وكل ما يرافقها من غرائب خرقاء .

هذا ما يجعل القوى المنتجة هنا تتطور بسرعة متزايدة ، لان علاقات الانتاج المطابقة لها تفسح لهذا التطور مجالا حرا رحيبا .

تلك هي لوحة تطور علاقات الانتاج بين الناس، خلال تاريخ الانسانية.

هكذا يسير تطور علاقات الانتاج تبعاً لتطور القوى المنتجة في المجتمع ، وتبعاً لتطور ادوات الانتاج قبل كل شيء. وهذه التبعية هي التي تجعل التغير والتطور في القوى المنتجة يؤديان عاجلا او آجلا الى تغير وتطور مطابقين في علاقات الانتاج.

يقول ماركس:

«ان استعمال وسائل العمل (١) وصنعها هما من مميزات العمل البشري بوجه خاص ، وان كنا نجدهما في حالة جرمية عند بعض الانواع الحيوانية . ولهذا السبب يعرف «فرانكلين» الانسان بقوله : « الانسان هو حيوان يصنع الادوات » (A Toolmaking Animal) (٢) . هذا وان بقايا وسائل العمل القديمة لها من الاهمية فى درس الاشكال الاقتصادية للمجتمعات المندثرة ، ما لتركيب العظام المدفونة في الارض من الاهمية في معرفة تنظيم العروق المنقرضة. وان ما يميز عهدا اقتصاديا

(١) يعني ماركس بـ«وسائل العمل» ادوات الانتاج على الخصوص. (ملاحظة من هيئة التحرير)
(٢) هذه العبارة موجودة بالانكليزية في الاصل .

(هيئة التعريب)

من عهد آخر ، هو طريقة صنع الشيء اكثر من الشيء المصنوع ذاته . فوسائل العمل هي مقاييس تطور التشغيل ومرآة مستوى العلاقات الاجتماعية التي يعمل ضمنها » (كارل ماركس : رأس المال ــ الكتاب الاول ــ الجزء الاول ــ ص١٩٥ ــ ١٩٦ ، مكتب المطبوعات ــ باريس ١٩٣٨) .

ويقول في مكان آخر :

«ان العلاقات الاجتماعية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقوى المنتجة. وعندما يحصل الناس على قوى منتجة جديدة ، يغيرون اسلوبهم في الانتاج ، وبتغييرهم اسلوب الانتاج ، اي بتغييرهم طرق اكتساب معيشتهم ، يغيرون كل علاقاتهم الاجتماعية . فطاحونة الهواء تعطيك مجتمع الحاكم الاقطاعي ، والطاخونة البخارية تعطيك مجتمع الرأسمالي الصناعي » . (كارل ماركس : شقاء الفلسفة ، جواب على فلسفة الشقاء للسيد برودون ــ ص ٩٩ مكتب المطبوعات ــ باريس ١٩٣٧) .

« ان هنالك حركة نمو مستمرة في القوى المنتجة ، وحركة تهديم مستمرة في العلاقات الاجتماعية ، وحركة تكوّن مستمرة في الافكار ، وليس من شيء ثابت سوى تجريد الحركة » (المرجع ذاته ــ ص ٩٩).

ويعطي انجلز في مقدمة **بيان الحزب الشيوعي** التعريف التالي للمادية التاريخية:

« ان الانتاج الاقتصادي ، والبناء الاجتماعي الذي ينتج منه بالضرورة ، يؤلفان ، في كل عهد تاريخي ، اساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العهد ... وبالتالي ، فكل التاريخ (منذ انحلال ملكية الارض المشاعية الابتدائية) هو تاريخ نضال بين الطبقات ، نضال بين طبقات مستثمَرة وطبقات مستثمِرة ، بين طبقات مسودة وطبقات سائدة ، في مختلف مراحل تطورها الاجتماعي...

وقد بلغ هذا النضال في الوقت الحاضر مرحلة اصبحت فيها الطبقة المستثمَرة المضطهَدة (البروليتاريا) لا تستطيع ان تتحرر من الطبقة التي تستثمرها وتضطهدها (البورجوازية) دون ان تحرر ، في الوقت نفسه والى الابد ، المجتمع باسره من الاستثمار ومن الاضطهاد ومن نضال الطبقات » (مقدمة فردريك انجلز للطبعة الالمانية (١٨٨٣) لبيان الحزب الشيوعي ـ ص ٦ ـ مكتب المطبوعات ـ باريس ١٩٣٨)

د): **الخاصة الثالثة** للانتاج، هي ان القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الانتاج التي تطابقها ، لا تنشأ خارج المجتمع القديم بعد زواله ، بل تنشأ في قلب النظام القديم نفسه ، فهي ليست نتيجة عمل واع مقصود يقوم به الناس ، بل تبرز عفواً وبصورة مستقلة عن وعي الناس وارادتهم ، ويعود ذلك الى سببين :

اولا ـ لان الناس ليسوا احرارا في إختيار اسلوب الانتاج ، فكل جيل جديد يجد عند دخوله الى الحياة ، قوى منتجة وعلاقات انتاج جاهزة ، خلقها عمل الاجيال السابقة . فكل جيل جديد مضطر ان يقبل ، في البداية ، كل ما يجده جاهزاً في ميدان الانتاج وان يألفه ليستطيع انتاج الحاجات المادية.

وثانياً ـ لان الناس ، عندما يحسنون هذه او تلك من ادوات الانتاج، وهذا او ذاك من عناصر القوى المنتجة ، لا يدركون النتائج **الاجتماعية** التي يجب ان تؤدي اليها هذه التحسينات ، بل هم لا يفهمونها ولا تخطر لهم في بال ، فهم لا يفكرون الا في مصالحهم اليومية ، وفي تسهيل عملهم ، وفي الحصول على فائدة مباشرة وملموسة .

فلما بدأ بعض اعضاء المشاعية الابتدائية شيئاً فشيئاً يتلمسون الانتقال من الادوات الحجرية الى الادوات الحديدية ، كانوا ، ولا ريب ، يجهلون النتائج **الاجتماعية** التي سيؤدي اليها هذا التجديد . كانوا لا يفكرون فيها ، وكانوا لا يدركون ولا يفهمون ان ادخال الادوات المعدنية يعني ثورة في الانتاج، وسيؤدي في النهاية الى نظام الرق . وغاية ما كانوا يريدون ان يسهلوا عملهم

ويحصلوا على فائدة مباشرة ملموسة . فكان نشاطهم الواعي مقتصرا على نطاق ضيق ، هو نطاق هذه الفائدة الشخصية اليومية .

ولما اخذت البورجوازية الفتية الاوروبية ، في عهد النظام الاقطاعي ، تبني ، الى جانب ورشات الحرفيين الصغيرة ، مانيفاكتورات كبيرة ، وترقي بذلك قوى المجتمع المنتجة ، كانت ، دون ادنى ريب ، تجهل النتائج الاجتماعية التي سيؤدي اليها هذا التجديد ، كانت لا تفكر في ذلك ، كانت لا تدرك ولا تفهم أن هذا التجديد « الصغير » سيؤدي الى حدوث تجمع جديد في القوى الاجتماعية وان هذا التجمع سينتهي بثورة ضد سلطة الملك التي كانت البورجوازية تخطب ودها ، وكذلك ضد طبقة النبلاء التي كان احسن ممثلي هذه البورجوازية يحلمون غالباً بالدخول في صفوفها . فكل ما كانت تريده هو انقاص تكاليف انتاج البضائع ، والقاء اكبر كمية من البضائع في اسواق آسيا ، وفي اسواق اميركا التي كشفت حديثاً ، وزيادة ارباحها . فكان نشاطها الواعي منحصراً في نطاق ضيق ، هو نطاق هذه المصالح العملية اليومية .

ولما راح الرأسماليون الروس ، بالاتفاق مع الرأسماليين الاجانب ، يؤسسون في روسيا ، بهمة ونشاط ، الصناعة الكبرى الحديثة المجهزة بالآلات دون ان يمسوا القيصرية مع ترك الفلاحين طعاماً سائغاً لكبار ملاكي الارض ، كانوا دون ريب يجهلون النتائج الاجتماعية التي سيؤدي اليها هذا النمو العظيم في القوى المنتجة . كانوا لا يفكرون في ذلك ، وكانوا لا يدركون ولا يفهمون ان هذه القفزة الخطيرة للقوى المنتجة في المجتمع ، ستؤدي الى تجمع جديد للقوى الاجتماعية ، وان هذا التجمع سيسمح للبروليتاريا بان تتحد مع الفلاحين وتحقق انتصار الثورة الاشتراكية . فكل ما كانوا يريدون هو توسيع الانتاج الصناعي الى اقصى حد ، وتأمين سيادتهم في سوق داخلية عظيمة واسعة ، واحتكار الانتاج ، وابتزاز اكبر ربح ممكن من الاقتصاد الوطني . فما كان نشاطهم الواعي ليتجاوز حدود مصالحهم اليومية العملية المحضة .

وقد قال ماركس في هذا الموضوع :

« ان **الناس** اثناء الانتاج الاجتماعي لمعيشتهم (اي اثناء انتاج الحوائج المادية الضرورية لحياة الناس — ملاحظة من هيئة التحرير) يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ،ضرورية ، **مستقلة**(١) عن ارادتهم . وتطابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية » . (كارل ماركس : مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ، المقدمة).

ولكن ذلك لا يعني ان تغير علاقات الانتاج والانتقال من علاقات الانتاج القديمة الى الجديدة ، يجريان على خط مستقيم ، دون نزاعات ودون هزات ، بل على العكس ، يجري هذا الانتقال عادة بقلب علاقات الانتاج القديمة قلباً ثورياً ، وباقامة العلاقات الجديدة في مكانها . فان تطور القوى المنتجة والتغييرات في ميدان علاقات الانتاج ، تجري ، خلال مرحلة معينة، بصورة عفوية مستقلة عن ارادة الناس . ولكن ذلك لا يدوم الا الى حين ، اي الى ان تصبح القوى المنتجة ، التي برزت واخذت تتطور ، في درجة كافية من النضج . فعندما تبلغ القوى المنتجة الجديدة حد النضج ، تتحول علاقات الانتاج الموجودة والطبقات التي تمثلها ، الى حاجز « كؤود » لا يمكن ازاحته من الطريق الا بالنشاط الواعي للطبقات الجديدة ، وبعملها العنيف ، اي بالثورة . ويظهر اذ ذاك ، بشكل رائع ، **الدور العظيم** الذي تلعبه الافكار الاجتماعية الجديدة والمؤسسات السياسية الجديدة والسلطة السياسية الجديدة، المدعوة الى الغاء علاقات الانتاج القديمة ومحوها بالقوة . فعلى اساس النزاع بين القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة ، وعلى اساس حاجات المجتمع الاقتصادية الجديدة ، تتولد افكار اجتماعية جديدة . وهذه الافكار الجديدة تنظم الجماهير وتعبئها ، فتتحد الجماهير في جيش سياسي جديد ، وتخلق سلطة ثورية جديدة ، تستخدمها لالغاء النظام القديم في ميدان علاقات الانتاج ومحوه بالقوة ، وتشييد نظام جديد فيه .

(١) اشارة التأكيد هنا هي من هيئة التحرير .

وهكذا يحل نشاط الناس الواعي محل سير التطور العفوي ، ويحل الانقلاب العنيف محل التطور السلمي ، وتحل الثورة محل التطور التدريجي.

يقول ماركس :

« ان البروليتاريا ، في نضالها ضد البورجوازية ، تتكون حتماً في طبقة ، وتنصب نفسها بالثورة ، طبقة سائدة ، وبصفتها طبقة سائدة ، تحطم بالعنف نظام الانتاج القديم » (كارل ماركس وفردريك انجلس : بيان الحزب الشيوعي – ص ٣٣ – مكتب المطبوعات – باريس ، ١٩٣٣) .

ويقول في مكان آخر :

« ان البروليتاريا ستستخدم سيادتها السياسية لانتزاع رأس المال شيئاً فشيئاً من البورجوازية ، ولجمع كل ادوات الانتاج في ايدي الدولة ، اي في ايدي البروليتاريا المنظمة في طبقة سائدة ، ولزيادة كمية القوى المنتجة باسرع ما يكون » (المرجع ذاته ص – ٣٢) .

« العنف هو المولّد لكل مجتمع قديم يتمخض بمجتمع جديد » (كارل ماركس : رأس المال – المجلد الاول الجزء الثالث – ص ٢١٣ – باريس ١٩٣٩) .

وقد عرّف ماركس في المقدمة التاريخية لمؤلفه المشهور : **مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي** (١٨٥٩) جوهر المادية التاريخية تعريفاً عبقرياً فقال :

« ان الناس اثناء الانتاج الاجتماعي لمعيشتهم ، يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن ارادتهم . وتطابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية. ومجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع ، اي الاساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي وسياسي ، تطابقه اشكال معينة من الوعي الاجتماعي . ان اسلوب انتاج

الحياة المادية يكيّف تفاعل الحياة الاجتماعي ، والسياسي والفكري ، بصورة عامة . فليس ادراك الناس هو الذي يعين معيشتهم ، بل ، على العكس من ذلك ، معيشتهم الاجتماعية هي التي تعين ادراكهم . وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة في تطورها ، تدخل في تناقض مع علاقات الانتاج الموجودة ، او مع علاقات الملكية ــ وليست هذه سوى التعبير الحقوقي لتلك ــ التي كانت الى ذلك الحين متحركة ضمنها . فبعد ما كانت هذه العلاقات اشكالا لتطور القوى المنتجة ، تصبح قيوداً لهذه القوى . وعندئذ ينفتح عهد ثورات اجتماعية . فان تغيّر الاساس الاقتصادي يزعزع كل البناء الفوقي الهائل على صور مختلفة من السرعة او البطء . وعند دراسة هذه الانقلابات ينبغي دائماً التمييز بين الانقلاب المادي لشروط الانتاج الاقتصادية ــ هذا الانقلاب الذي يشاهد بالضبط الخاص بعلوم الطبيعة ــ وبين الاشكال الحقوقية ، والسياسية ، والدينية ، والفنية ، والفلسفية ، او ، بكلمة مختصرة ، الاشكال الفكرية التي يتصور فيها الناس هذا النزاع ويكافحونه . فكما انه لا يمكن الحكم على فرد وفقاً للفكرة التي لديه عن نفسه ، كذلك لا يمكن الحكم على عهد انقلاب كهذا ، وفقاً لوعيه . فينبغي تفسير هذا الوعي بتناقضات الحياة المادية ، وبالنزاع الذي تتعارض فيه قوى المجتمع المنتجة وعلاقات الانتاج . ان اي تكوين اجتماعي لا يموت ابداً قبل ان تتطور كل القوى المنتجة التي يستطيع ان يفسح لها المجال ، ولا تظهر ابداً علاقات الانتاج الجديدة ، المتفوقة على القديمة ، قبل ان تنضج شروط وجودها المادية في قلب المجتمع القديم . ولهذا ، فالانسانية لا تضع امامها ابداً الا مسائل تستطيع حلها . اذ انه يتضح ، عند الامعان في الامور ،

ان المسألة نفسها لا تبرز الا عندما تكون الشروط المادية لحلها موجودة او ، على الاقل ، آخذة في التكون » .

هذا ما تعلمنا اياه المادية الماركسية المطبقة على الحياة الاجتماعية وعلى تاريخ المجتمع .

تلك هي الخطوط الاساسية للمادية الديالكتيكية والتاريخية .

ويتبين من كل ذلك اية ثروة نظرية صانها لينين للحزب ضد هجمات المحرفين والعناصر المتفسخة ، وكم كان صدور مؤلف لينين **المادية والمذهب النقدي التجريبي** ، شيئاً هاماً لاجل تطور حزبنا.

•

٣ ــ البلاشفة والمنشفيك في سنوات الرجعية الستوليبينية ــ نضال البلاشفة ضد انصار التصفية وضد الاوتزوفيين.

صار العمل في منظمات الحزب خلال سنوات الرجعية ، اصعب بكثير مما كان عليه في الدور السابق ، دور نمو الثورة . فنقص عدد اعضاء الحزب نقصاً كبيرا . وكان عدد عديد من رفاق الطريق ، من صغار البورجوازيين ، وخصوصا من المثقفين ، يبارحون صفوف الحزب خوفا من ملاحقات الحكومة القيصرية .

وقد بيّن لينين ان على الاحزاب الثورية ، في مثل هذه الاوقات ، ان تعمل على استكمال تثقفها . فهي في دور نهوض الثورة تعلمت الهجوم ، وعليها في دور الرجعية ان تتعلم التراجع بانتظام ، والانتقال الى العمل السري ، والمحافظة على الحزب اللاشرعي وتقويته ، والاستفادة من الامكانيات الشرعية ، اي من جميع المنظمات الشرعية ، والجماهيرية منها على الخصوص ، لتوثيق صلاتها بالجماهير .

وكان المنشفيك يتراجعون بارتباك ، غير مؤمنين بامكان نهوض الثورة

مجددا ، ويتنكرون بصورة مخجلة للمطالب الثورية التي يتضمنها برنامج الحزب ولشعارات الحزب الثورية . وكان في نيتهم الغاء حزب البروليتاريا الثوري اللاشرعي وتصفيته ، فسمي هذا النوع من المنشفيك بانصار التصفية .

اما البلاشفة فكانوا ، خلافا للمنشفيك ، موقنين بانه سيحدث في السنوات القريبة نهوض ثوري ، وبان من واجب الحزب تهيئة الجماهير لهـذا النهوض الجديد . فمهمات الثورة ، مهماتها الاساسية ، لم تكن قد تحققت . فالفلاحون لم يحصلوا على اراضي الاسياد ، والعمال لم ينالوا حقهم في العمل ثماني ساعات في اليوم ، والاوتوقراطية القيصرية المكروهة من الشعب لم تقلب ، بل انها قضت على القسم الضئيل من الحريات السياسية التي انتزعها الشعب منها في سنة ١٩٠٥ . واذن ، فالاسباب التي ولدت ثورة ١٩٠٥ لم تزل هي هي . ولهذا كان البلاشفة موقنين بنهوض الحركة الثورية من جديد ، وكانوا يستعدون له ويحشدون قوى الطبقة العاملة .

وكان البلاشفة يستمدون هذا اليقين بنهوض الثورة حتما ، نهوضا جديدا ، من امر اخر ايضا ، هو ان ثورة ١٩٠٥ علمت الطبقة العاملة ان تنتزع حقوقها بالنضال الثوري الجماهيري . فلم يكن من الممكن ان ينسى العمال في سنوات الرجعية ــ سنوات هجوم رأس المال ــ دروس ١٩٠٥ . وقد ذكر لينين رسائل كتبها العمال وقالوا فيها عند كلامهم عن مضايقات اصحاب المصانع وارهاقهم : **«صبراً ! سيأتي ١٩٠٥ آخر ! ..»**

وقد بقي هدف البلاشفة السياسي الاساسي هو هو ، كما كان في عام ١٩٠٥ : اي قلب القيصرية ، واتمام الثورة الديموقراطية البورجوازية ، والانتقال الى الثورة الاشتراكية . ولم يكن البلاشفة ينسون هذا الهدف لحظة واحدة . بل كانوا يتابعون وضع الشعارات الثورية الاساسية امام الجماهير : جمهورية ديموقراطية ، مصادرة اراضي كبار الملاكين ، ثماني ساعات عمل في اليوم .

ولم يكن من الممكن ان تبقى خطة الحزب كما كانت في دور نهوض الثورة عام ١٩٠٥ . فكان من المتعذر ، مثلا ، دعوة الجماهير ، في وهلة

قصيرة ، الى الاضراب السياسي العام او الى الثورة المسلحة ، اذ كانت الحركة الثورية في هبوط ، والطبقة العاملة في اعياء كبير ، بينما موقف الطبقات الرجعية يقوى ويشتد. فما كان الحزب ليستطيع الا اخذ الحالة الجديدة بعين الاعتبار. وكان من واجبه الاستعاضة عن خطة الهجوم بخطة الدفاع ، اي بخطة تجميع القوى ، خطة انسحاب الكادر الى اللاشرعية والى العمل الحزبي السري ، خطة العمل اللاشرعي الذي يرافقه العمل في منظمات العمال الشرعية .

وقد عرف البلاشفة كيف ينجزون هذه المهمة. ومما قاله لينين بهذا الصدد:

« لقد عرفنا ان نعمل خلال سنوات طويلة قبل الثورة ، وليس من دون سبب قيل عنا: اننا صامدون كالصخر. لقد ألف الاشتراكيون الديموقراطيون حزب عمال لا يدع للخور سبيلا اليه من جراء الفشل في اول هجوم عسكري، ولذا فهو لن يضيع صوابه ولن ينجر الى المغامرات » . (لينين ــ المؤلفات المختارة ــ المجلد الاول ــ ص ٥٧٢ ، ٥٧٣) .

كان البلاشفة يناضلون من اجل المحافظة على منظمات الحزب اللاشرعية وتقويتها . ولكنهم كانوا يرون، في الوقت نفسه ، ان من الضروري الاستفادة من جميع الامكانيات الشرعية ، من كل ظرف شرعي يسمح باقامة الصلة مع الجماهير والمحافظة عليها ، وتقوية الحزب بذلك .

وهاك ما قاله ستالين في هذا الصدد : « لقد قام حزبنا في هذا الدور ، بانعطاف تحول فيه من النضال الثوري المكشوف ضد القيصرية ، الى طرق النضال الملتوية ، الى استخدام الامكانيات الشرعية من كل نوع وكل صنف: من جمعيات التأمين الى منبر مجلس الدوما . كان هذا الدور ، دور تقهقر بعد اندحار ثورة ١٩٠٥ . وكان هذا الانعطاف يضطرنا الى استيعاب طرق النضال الجديدة ، لكي نستطيع ، عندما يتم لنا جمع قوانا ، ان نشهر نضالا ثوريا علنيا ضد القيصرية » . (ستالين ــ محضر مناقشات المؤتمر الخامس عشر ــ الصفحة ٣٦٦ ، ٣٦٧ ــ الطبعة الروسية ــ ١٩٣٥)

وقد استخدمت المنظمات الشرعية ، التي ظلت سالمة ، كنوع من الملاجئ

لمنظمات الحزب اللاشرعية ، وكاجهزة اتصال بالجماهير . واستفاد البلاشفة ، لاجل الاحتفاظ بهذا الاتصال ، من النقابات والمنظمات الاجتماعية الشرعية الاخرى : كجمعيات التأمين في حالة المرض ، وتعاونيات العمال ، والاندية والجمعيات الثقافية ، وبيوت الشعب . واستخدموا منبر مجلس دوما الدولة للحملة على سياسة الحكومة القيصرية ، وفضح الكاديت ، وجذب الفلاحين الى جانب البروليتاريا . وكان الاحتفاظ بمنظمة الحزب اللاشرعية ، وقيادة كل اشكال العمل السياسي الاخرى بواسطة هذه المنظمة ، يضمنان للحزب تطبيق خطته الصحيحة وتهيئة القوى لاجل نهوض ثوري جديد .

كان البلاشفة يطبقون خطتهم الثورية مناضلين على **جبهتين** ، ضد شكلي الانتهازية في الحزب : ضد اعداء الحزب المفضوحين ، انصار التصفية ، وضد اعداء الحزب المستترين ، المعروفين بال « اوتزوفيين » .

وقد قام لينين والبلاشفة بنضال حازم ضد تيار التصفية ، منذ ظهور هذا الميل الانتهازي . وكان لينين يقول بان كتلة انصار التصفية ، هي وكالة للبورجوازية الحرة في قلب الحزب .

في كانون الاول ١٩٠٨ ، انعقد في باريس المجلس الوطني العام الخامس لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا . فاستنكر هذا المجلس ، بناء على اقتراح لينين ، تيار التصفية ، اي محاولات بعض مثقفي الحزب (من المنشفيك) الرامية الى « تصفية منظمة الحزب الموجودة في روسيا ، والاستعاضة عنها بكتلة غامضة الشكل تسعى الى البقاء في نطاق الشرعية مهما كلف الامر ، حتى ولو كان ثمن هذه الشرعية التخلي الصريح عن برنامج الحزب وخطته وتقاليده» (الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي في قراراته ــ القسم الاول ــ صفحة ١٢٨ ــ الطبعة الروسية) .

ودعا المجلس العام جميع منظمات الحزب الى النضال بحزم ضد محاولات التصفية .

الا ان المنشفيك لم يخضعوا لقرار المجلس ، بل اخذوا ينزلقون اكثر

فاكثر في طريق التصفية ، طريق خيانة الثورة ، طريق التقرب من الكاديت.
كان المنشفيك يتخلون بصورة مفضوحة اكثر فاكثر عن البرنامج الثوري للحزب البروليتاري،عن شعارات الجمهورية الديموقراطية ، ويوم الثماني ساعات، ومصادرة اراضي كبار الملاكين. وكانوا، بتخليهم عن برنامج الحزب وخطته، يؤملون الحصول من الحكومة القيصرية على الترخيص بوجود حزب علني ، شرعي ، يكون ،رغم كل ذلك ، حزب «عمال » على زعمهم . اي ان المنشفيك كانوا مستعدين للتآلف مع النظام الستوليبيني ، والنزول عند مقتضياته .ولهذا سمي انصار التصفية ايضاً : « حزب ستوليبين للعمال » .

وكان البلاشفة ، في الوقت الذي يكافحون فيه خصوم الثورة المفضوحين ، اي انصار التصفية ــ وعلى رأسهم دان و اكسلرود و بوتريسوف ، ومعهم مارتوف و تروتسكي والمنشفيك الاخرون ــ يقومون ايضاً بنضال لا هوادة فيه ضد انصار التصفية المستترين ، اي ضد « الاوتزوفيين » ، الذين كانوا يخفون انتهازيتهم تحت جعجعة يسارية . وكانت كلمة« اوتزوفيين » هذه ، تطلق على نفر من قدماء البلاشفة الذين كانوا يلحون في طلب انسحاب نواب العمال من مجلس دوما الدولة ووقف كل عمل في المنظمات الشرعية بصورة عامة .

ففي سنة ١٩٠٨ ، طلب قسم من البلاشفة استدعاء النواب الاشتراكيين الديموقراطيين من مجلس دوما الدولة ، فسموا بال« اوتزوفيين »(من كلمة « اوتوزفات » ، ومعناها : استدعى) ، وكان هؤلاء الأوتزوفيون يؤلفون كتلة على حدة (قوامها بوغدانوف ، لوناتشارسكي ، اليكسينسكي ، بوكروفسكي ، بوبنوف ، وغيرهم) ، شهرت النضال على لينين وعلى الخطة اللينينية . كانوا يرفضون رفضاً باتاً العمل في نقابات العمال وفي الجمعيات الشرعية الاخرى ، ملحقين بذلك ضرراً كبيراً بقضية العمال ، وكانوا يسعون الى فصل الحزب عن الطبقة العاملة وحرمانه الصلة بالجماهير غير الحزبية ، ويريدون الانزواء في المنظمة السرية معرضين الحزب بذلك الى الهلاك ، بتجريده من

امكان الاستفادة من اي ستار شرعي . ولم يكن الاوتزوفيون ليفهموا ان البلاشفة بوجودهم في مجلس دوما الدولة ، وبواسطة هذا المجلس ، يستطيعون التأثير في طبقة الفلاحين ، وفضح سياسة الحكومة القيصرية ، سياسة الكاديت ، الذين كانوا يحـــاولون جر الفلاحـــين وراءهم بالغش والحيلة . لقد كان الاوتزوفيون يضايقون حركة تجميع القوى استعداداً لنهوض ثوري جديد ، فكانوا اذن من انصار « التصفية عكساً » اي كانوا يسعون الى الحؤول دون استخدام المنظمات الشرعية ، ويتخلون في الواقع عن السياسة القائمة على تأمين قيادة الجماهير غير الحزبية الواسعة ، من قبل البروليتاريا ، اي يتخلون عن العمل الثوري .

وفي سنة ١٩٠٩ ، دعي مجلس تحرير الصحيفة البلشفية **بروليتاري** الى الانعقاد بهيئته الكاملة للمناقشة في سلوك الاوتزوفيين ، فشجبهم ، واعلن البلاشفة ان ليس ثمة ما يجمعهم بهم ، وطردوهم من المنظمة البلشفية .

لم يكن انصار التصفيـــة والاوتزوفيون ، اولا وآخراً ، بالنسبة للبروليتاريا وحزبها ، سوى رفاق طريق من البورجوازيين الصغار . فلما وُجدت البروليتاريا في ساعات صعبة عصيبة ، اظهر انصار التصفية والاوتزوفيون وجههم الحقيقي بكل جلاء ووضوح .

•

٤ ــ نضال البلاشفة ضد التروتسكية ــ تأليف كتلة آب ضـــد الحزب .

بينما كان البلاشفة يقومون بنضال لا هوادة فيه على جبهتين ــ ضد انصار التصفية وضد الاوتزوفيين ــ في سبيل خطة حازمة قويمة لحزب البروليتاريا ، كان تروتسكي يؤيد المنشفيك انصار التصفية . في تلك السنوات بالضبط ، سماه لينين «تروتسكي: يهوذا الصغير ! » . وكان تروتسكي قد نظم في فيينا (النمسا) فرقة ادبية ، ونشر جريدة زعم انها « خارج الكتل » ، ولكنها

كانت في الواقع منشفيكية . وهاك ما كتب عنه لينين في ذلك العهد : «لقد سلك تروتسكي سلوك احط الوصوليين ودعاة الانقسام ... انه يثرثر عن الحزب ، الا ان سلوكه اسوأ من سلوك جميع دعاة الانقسام الاخرين » .

ونظم تروتسكي فيما بعد ، في عام ١٩١٢ ، كتلة آب التي ضمت كل الجماعات وكل الميول المعادية للبلاشفة ، والموجهة ضد لينين وضد الحزب البلشفي . فاتحد في هذه الكتلة المعادية للبلشفية ، انصار التصفية والاوتزوفيون ، مؤكدين بذلك صلة القرابة التي تؤلف بينهم . وكان تروتسكي والتروتسكيون يقفون في جميع القضايا الهامة موقف انصار التصفية . الا ان تروتسكي كان يخفي موقفه الداعي الى التصفية تحت قناع الوسطية ، اي تحت قناع الدعوة الى التوفيق والمصالحة . فكان يدعي الوقوف على هامش البلاشفة والمنشفيك ، ويزعم انه يعمل للتوفيق بينهم . وقد قال لينين ، بهذه المناسبة ، ان تروتسكي احط واشد ضرراً من انصار التصفية المفضوحين ، لانه يخدع العمال بقوله انه « على هامش الكتل » ، مع انه ، في الواقع ، يؤيد المنشفيك ، انصار التصفية ، تأييداً تاماً لا تحفظ فيه . وكانت التروتسكية هي الكتلة الرئيسية الساعية الى تمكين تيار الوسطية .

وقد كتب الرفيق ستالين :

« ان الوسطية هي مفهوم سياسي . ونهجها الفكري يرمي الى تكييف مصالح البروليتاريا حسب مصالح البورجوازية الصغيرة في داخل حزب مشترك واحد ، اي اخضاع مصالح الاولى لمصالح الثانية . ان هذا النهج الفكري غريب عن اللينينية ومناقض لها » . (ستالين : مسائل اللينينية ــ صفحة ٣٧٩ الطبعة الروسية التاسعة) .

وفي هذا الدور ، كان كامينيف وزينوفييف وريكوف ، في الواقع ، عملاء مقنعين لتروتسكي ، يهبون غالباً لمساعدته ضد لينين . ففي كانون الثاني ١٩١٠ ، عقدت الهيئة الكاملة لاعضاء اللجنة المركزية اجتماعاً ، تواطأ على الدعوة اليه ، خلافاً لارادة لينين ، كل من زينوفييف وكامينيف وريكوف وغيرهم من

حلفاء تروتسكي السريين ، وكان تركيب اللجنة المركزية ، في ذلك العهد ، قد دخل عليه تعديل كبير ، عقيب اعتقال عدد من البلاشفة ، وتمكنت العناصر المترددة من النجاح في التصويت على قرارات مغايرة اللينينية . وهكذا تقرر خلال الاجتماع المذكور ، توقيف نشر الجريدة البلشفية **بروليتاري** ، وتقديم مساعدة مالية لجريدة **برافدا** التي كان يصدرها تروتسكي في فيينا . وقد دخل كامينيف في هيئة تحرير جريدة تروتسكي ، وكان في نيته ، هو وزينوفييف ، جعل تلك الوريقة لسان حال اللجنة المركزية .

ولم يتخذ اجتماع اللجنة المركزية هذا ، قراراً بشجب تيار التصفية و الاوتزوفية ، الا بعد الحاح شديد من لينين . ولكن في هذه المرة ايضاً ، ايد زينوفييف وكامينيف اقتراح تروتسكي القائل بعدم تسمية انصار التصفية باسمهم الحقيقي .

وحدث ما توقعه لينين ، وما كان يدعو الى التحوط منه : وهو ان البلاشفة خضعوا وحدهم لقرار اللجنة المركزية ، فتوقفوا عن نشر جريدتهم **بروليتاري** ، بينما تابع المنشفيك اصدار جريدتهم **غولوس سوسيال ديموكراتا** (صوت الاشتراكي الديموقراطي) التي كانت صحيفة انقسامية لانصار التصفية .

وقد ايد الرفيق ستالين موقف لينين دون تحفظ ، ونشر في العدد ١٢ من جريدة **الاشتراكي الديموقراطي** ، مقالا حول هذه القضية شجب فيه موقف اعوان التروتسكية ، واكد ضرورة تسوية الحالة غير الطبيعية التي نشأت في داخل الفرقة البلشفية ، نتيجة لسلوك الخيانة الذي سلكه كامينيف وزينوفييف وريكوف . وكان المقال يعين المهمات المباشرة التي تم تحقيقها فيما بعد ، في مجلس الحزب العام المنعقد في براغ ، وهي : عقد مجلس عام للحزب ، ونشر جريدة علنية ، وانشاء مركز عملي سري للحزب في روسيا . وكان مقال الرفيق ستالين مستوحى من قرارات لجنة باكو التي كانت تؤيد لينين بلا تحفظ .

ولاجل احباط كتلة آب ، التي كان تروتسكي يوجهها ضد الحزب ويجمع

فيها العناصر المناوئة للحزب ، من انصار التصفية التروتسكيين الى الاوتزوفيين و « بناني الله » ، أنشئت كتلة تضم انصار المحافظة علـى حزب البروليتاريا اللاشرعي وتوطيده ، ودخل فيها البلاشفة وعلى رأسهم لينين ، ومعهم عدد صغير من « المنشفيك الحزبيين » وعلى رأسهم بليخانوف . وكان هذا الاخير وجماعته « المنشفيك الحزبيون » ، رغم بقائهم على المواقف المنشفيكية فيما يختص بسلسلة من القضايا ، قد انفصلوا بحزم عن كتلة آب وعن انصار التصفية ، وسعوا الى التفاهم مع البلاشفة . فقبل لينين اقتراح بليخانوف ، وتكتل معه موقتاً ضد العناصر المناوئة للحزب . وكان سلوك لينين مبنياً على اقتناعه بان كتلة من هذا النوع فيها فائدة للحزب واضعاف لانصار التصفية .

وقد ايد الرفيق ستالين هذه الكتلة تأييداً تاماً ، وكان اذ ذاك في المنفى ، فكتب في رسالة الى لينين يقول :

« في رأيي ان خطة الكتلة (كتلة لينين ــ بليخانوف) هي الخطة الصحيحة الوحيدة : اولا ، لانها وحدها توافق مصالح العمل الحقيقية في روسيا ، هذه المصالح التي تتطلب تجميع كل العناصر الامينة حقاً للحزب . ثانياً ، لانها وحدها ايضاً ، تعجل في تحرر المنظمات الشرعية من نير انصار التصفية ، اذ تحفر هوة بين العمال المنشفيك وانصار التصفية ، وتبعثر هؤلاء وتحطمهم » . (مقتطفات من لينين وستالين ــ الجزء الاول ــ صفحة ٥٢٩ ، ٥٣٠ ــ الطبعة الروسية) .

وقد استطاع البلاشفة بفضل حسن التوفيق بين العمل السري والعمـل الشرعي ، ان يصبحوا قوة ذات وزن في منظمات العمال الشرعية . ومن جملة الشواهد على ذلك ، التأثير البالغ الذي احدثه البلاشفة في جماعات العمال في اربعة مؤتمرات شرعية انعقدت في ذلك العهد ــ وهي مؤتمر الجامعات الشعبية ، ومؤتمر النساء ، ومؤتمر اطباء المعامل ، ومؤتمر حركة مقاومة المشروبات الكحولية ــ فكان لخطابات البلاشفة في تلك المؤتمرات ، اهمية سياسية كبرى وصدى بعيد في البلاد باسرها . فقد فضح وفد العمال البلاشفة الذي تكلم في مؤتمر الجامعات

الشعبية ، سياسة القيصرية التي كانت تخنق كل عمل ثقافي ، واجتهد في التدليل على انه لا يمكن الوصول الى نهوض ثقافي حقيقي في البلاد الا بتصفية القيصرية. وشرح وفد العمال الذي اشترك في مؤتمر الاطباء ، الشروط الفظيعة المغايرة للصحة التي كان العمال مضطرين الى العمل والحياة في ظلها . واختتم مستنتجاً انه لا يمكن تنظيم العناية الطبية في المعامل بصورة صالحة ، دون قلب النظام القيصري .

وهكذا حل البلاشفة ، شيئاً فشيئاً ، محل انصار التصفية في مختلف المنظمات الشرعية التي ظلت حية . وسمحت لهم خطتهم المبتكرة ، خطة الجبهة الموحدة مع جماعة بليخانوف الامينة للحزب ، بالاستيلاء على عدد من منظمات العمال المنشفيكية (في حي فيبورغ ، في ييكاترينوسلاف ، الخ ...)

لقد اظهر البلاشفة في هذه المرحلة الصعبة ، كيف ينبغي الجمع بين العمل الشرعي والعمل اللاشرعي .

•

٥ ـ المجلس العام للحزب في براغ عام ١٩١٢ ـ البلاشفة يجتمعون في حزب ماركسي مستقل .

كان النضال ضد انصار التصفية والاوتزوفيين ، ومثله النضال ضد التروتسكيين ، يضع امام البلاشفة مهمة ملحة ، هي جمع البلاشفة في كل موحد لكي يتألف منه حزب بلشفي مستقل . كان ذلك من الضرورات الحاسمة ، اولا : لكي يتخلص الحزب من التيارات الانتهازية التي كانت تقسم صفوف الطبقة العاملة ، وثانياً : لاتمام جمع قوى الطبقة العاملة وتهيئتها لنهوض ثوري جديد .

على انه كان ينبغي ، للقيام بهذه المهمة ، البدء بتطهير الحزب من الانتهازيين ، من المنشفيك .

ولم يكن احد من البلاشفة ، في ذلك الحين ، يساوره الشك في ان وجودهم

جنباً الى جنب ، مع المنشفيك ، في حزب واحد ، اصبح امراً مستحيلا . لان سلوك الخيانة الذي انتهجه المنشفيك في اثناء دور الرجعية الستوليبينية ، والمحاولات التي قاموا بها لتصفية الحزب البروليتاري وتنظيم حزب جديد اصلاحي ، كل ذلك كان يجعل الانفصال عنهم امراً لا مناص منه ولا سيما ان البلاشفة ، ببقائهم في حزب واحد مع المنشفيك ، كانوا يحملون ، باشكال مختلفة ، المسؤولية المعنوية لسلوك هؤلاء . فصار اذن من المستحيل على البلاشفة ان يتحملوا ، بعد الان ، المسؤولية المعنوية لخيانة المنشفيك المفضوحة ، اذا كانوا لا يريدون ان يصبحوا هم انفسهم خونة للحزب وللطبقة العاملة . لان الوحدة مع المنشفيك ، في نطاق حزب واحد ، كانت تتحول على هذا الشكل ، الى خيانة لقضية الطبقة العاملة وحزبها . فبات من الضروري اذن اكمال القطيعة مع المنشفيك ، والسير بهذه القطيعة حتى الانفصال الرسمي والعضوي ، اي طرد المنشفيك من الحزب .

كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لتكوين حزب البروليتاريا الثوري ، تكويناً جديداً ، يصبح فيه ذا برنامج موحد وخطة موحدة ومنظمة طبقية موحدة .

كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لاعادة الوحدة الحقيقية (لا الوحدة الصورية المحضة) الى الحزب ، تلك الوحدة التي هدمها المنشفيك .

وكان على المجلس العام السادس للحزب ، الذي هيأه البلاشفة ، ان ينجز هذه المهمة .

ولكن هذه المهمة ، لم تكن سوى وجه واحد للمسألة . فان قطع الصلات رسمياً مع المنشفيك ، وتكوين البلاشفة في حزب مستقل ، كانا يمثلان دون ادنى ريب مهمة سياسية ذات اهمية قصوى . غير انه كان امام البلاشفة مهمة اخرى ، اهم شأناً . فالمسألة لم تكن لتقتصر على قطع العلاقة مع المنشفيك وتأليف حزب مستقل وحسب ، بل كانت المسألة الهامة الكبرى هي ان يصار ، بعد قطع العلاقة مع المنشفيك ، الى انشاء حزب **جديد** ، حزب من **طراز**

جديد ، مختلف عن الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية العادية المعروفة في الغرب ، حزب متطهر من العناصر الانتهازية ، وقادر على قيادة البروليتاريا الى النضال من اجل الاستيلاء على الحكم .

وكان جميع المنشفيك، دون تفريق في اللون ، من اكسلرود ومارتينوف الى مارتوف وتروتسكي ، يستخدمون في نضالهم ضد البلاشفة ، سلاحاً واحداً استعاروه من الاشتراكيين الديموقراطيين في اوروبا الغربية . فكانوا يريدون في روسيا حزباً كالحزب الاشتراكي الديموقراطي الالماني او الفرنسي مثلا. ولم يكونوا في الحقيقة يكافحون البلاشفة ، الا لأنهم كانوا يرون فيهم شيئاً جديداً وغير مألوف ، يمتازون به عن الاشتراكيين الديموقراطيين في الغرب . فكيف كانت الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية فيالغرب؟ كانت خليطاً من عناصر ماركسية وانتهازية ، من اصدقاء الثورة وخصومها ، من انصارالفكرة الحزبية ومناوئيها ، وكان الفريق الاول يتصالح شيئاً فشيئاً مع الفريق الثاني في الميدان الفكري ، ثم ينتهي الامر في الواقع بخضوع الفريق الاول شيئاً فشيئاً للفريق الثاني . وكان البلاشفة يسألون الاشتراكيين الديموقراطيين في اوروبا الغربية : باسم ماذا تريدون التفاهم والمصالحة مع الانتهازيين، معخونة الثورة ؟ فكانوا يجيبون : باسم « السلام في داخل الحزب »، باسم «الوحدة». ويسأل البلاشفة من جديد : ولكن مع من تريدونالوحدة ، معالانتهازيين؟ فيأتي الجواب : اجل ، مع الانتهازيين . وهكذا كان من الواضح الجلي ، ان احزاباً من هذا الطراز لم يكن من الممكن ان تكون احزاباً ثورية !

ولم يكن ليعزب عن نظر البلاشفة ، ان الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية في اوروبا الغربية ، كانت قد بدأت تتحول بعد موت انجلس، من احزاب تعمل للثورة الاجتماعية ، الى احزاب تعمل فقط من اجل « اصلاحات اجتماعية » . ولم يكن ليفوتهم ان كل حزب من هذه الاحزاب، قد انقلب ، من حيث كيانه التنظيمي ، من قوة قائدة ، الى ذيل لكتلته البرلمانية نفسها .

ولم يكن البلاشفة يجهلون ان حزبا من هذا النوع لا بد ان ينزل اضرارا جسيمة بالبروليتاريا ، وانه عاجز عن قيادة الطبقة العاملة الى الثورة .

لم يكن البلاشفة يجهلون ان البروليتاريا بحاجة الى حزب آخر ، جديد ، حزب ماركسي حقيقي ، يقف موقفا صارما لا هوادة فيه من الانتهازيين ، وموقفا ثوريا من البورجوازية ، حزب متلاحم الصفوف ومتراص كالصخر ، يكون حزب الثورة الاجتماعية ، حزب ديكتاتورية البروليتاريا .

هذا هو الحزب الجديد الذي كان البلاشفة يسعون اليه ، ويعملون على تهيئته وبنائه . وان كل تاريخ النضال الذي شهروه ضد « الاقتصاديين » ، والمنشفيك ، والتروتسكيين ، والاوتزوفيين والمثاليين من كل لون ، بما فيهم انصار المذهب النقدي التجريبي ، لم يكن سوى تاريخ تكوين حزب مثل هذا الحزب . كان البلاشفة يطمحون الى خلق حزب جديد **بلشفي** ، يكون نموذجا لجميع الراغبين في ان يكون لهم حزب ماركسي ثوري حقيقي . وقد عملوا في سبيل انشائه منذ عهد جريدة **ايسكرا** القديمة ، وكانوا يعدون العدة له بصلابة وعناد ، رغم كل شيء وضد كل شيء . ويعود فضل القيام بالدور الاساسي الحاسم في هذا العمل التحضيري ، الى لينين ومؤلفاته ومنها : **ما العمل ؟ وخطتان** ، الخ .. فقد ساعد كتاب لينين **ما العمل ؟** على اعداد هذا الحزب **فكرياً** . وساعد كتابه **خطوة الى امام ، خطوتان الى الوراء** على اعداد هذا الحزب **تنظيمياً** . واتاح كتابه **خطتان للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الديموقراطية**، اعداد هذا الحزب **سياسياً** . كما ان كتابه **المادية والمذهب النقدي التجريبي** اتاح اعداد الحزب **نظريا** .

ويمكن القول ، بكل تأكيد ، ان ليس في التاريخ بعد ، كتلة سياسية أعدت عدتها لتتكون في حزب ، باحسن مما أعدت الكتلة البلشفية . فكان ، اذن ، امر تكوين الحزب ، شيئاً جاهزاً ، بلغ النضج الكامل ، وكانت مهمة المجلس العام السادس للحزب هي تتويج ذلك العمل المهيأ ، بطرد المنشفيك وتأليف الحزب الجديد ، الحزب البلشفي .

انعقد المجلس العام (الوطني) السادس للحزب في براغ ، في كانون الثاني ١٩١٢ . وكانت اكثر من عشرين منظمة ممثلة فيه . فكانت اهميته في الواقع اهمية مؤتمر للحزب .

وقد جاء في بلاغ المجلس العام الذي اعلن اعادة انشاء جهـاز الحزب المركزي ، اي تأليف اللجنة المركزية ، ان سنوات الرجعية كانت اصعب سنوات قضاها الحزب ، منذ تكوين الاشتراكيـة الديموقراطية بروسيا في شكل تنظيمي . علـى انه بالرغم من جميع اعمال الاضطهاد ، بالرغم من الضربات القاسية التي اتت من خـارج الحزب ، بالرغم من خيانة الانتهازيين وتقلباتهم في داخل الحزب ، بالرغم من كل ذلك ، حافظ حزب الطبقة العاملة على علمه وعلى منظمته. ثم اضاف البلاغ: «ليس علم الاشتراكية الديموقراطية الروسية وبرنامجها ومبادئها الثورية وحدها باقية ، بل باقية ايضا منظماتهـا ، منظماتها التي استطاعت اعمال الاضطهاد ان تؤذيها وان تضعفها ، ولكنها لم تستطع تدميرها » .

وقد نوه المجلس باولى علائم النهوض الجـديد في حركة العمال بروسيا ، وبعودة عمل الحزب الى نشاطه . وبناء على تقارير المندوبين، تبين للمجلس انه « يجري في كل مكان عمل حازم في القاعـدة ، بين العمال الاشتراكيين الديموقراطيين ، لاجل توطيد المنظمات والكتـل الاشتراكية الديموقراطية اللاشرعية » .

وتبين للمجلس ان اعضاء القاعدة ، في كل مكان ، قد اقروا المبدأ الاساسي الذي تقوم عليه الخطة البلشفية ابّان دور التراجع، وهو مبدأ الجمع بين العمل اللاشرعي والعمل الشرعي في مختلف اتحادات العمال وجمعياتهم الشرعية.

وانتخب مجلس براغ لجنة مركزية بلشفية للحزب ، دخـل فيها لينين وستالين واورجونيكيدزه و سفردلوف وسباندريان وغيرهم . وقـد انتخب الرفيقان ستالين وسفردلوف ، اللذان كانا اذ ذاك في المنفى ، عضوين في اللجنة المركزية رغم غيابهما . وانتخب الرفيق كالينين عضوا رديفا .

وانشىء مركز عمـــلي لقيادة النشاط الثوري في روسيا (سمي بالمكتب الروسي للجنة المركزية) وضع على رأسه الرفيق ستالين . وقد ضم هـــذا المكتب ايضـــا كلا من ج . سفردلوف و س . سباندريان و س . اورجونيكيدزه و م . كالينين .

وقد استعرض مجلس براغ كل نضال البلاشفة السابق ضد الانتهازية ،وقرر طرد المنشفيك من الحزب .

وبعد ما تم ذلـــك ، كـرس المجلس وجـود الحزب البلشفي في كيان مستقل .

على ان البلاشفة ، بعد ما تغلبوا على المنشفيك في الميدانين الفكري والتنظيمي ، وبعد ما طردوهم من الحزب ، احتفظوا بعلم الحزب القديم ، باسمه : « حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا » . ولهذا ظل الحزب البلشفي حتى عام ١٩١٨ يدعى بهذا الاسم ، مضافاً اليه ، بين هلالين ، كلمة « بلشفيك » .

وقد كتب لينين الى غوركي ، في اوائل ١٩١٢ ، عن نتائج مجلس براغ ، يقول :

« لقد نجحنا اخيراً ، رغم سفالات انصار التصفية ، في بناء الحزب ولجنته المركزية من جديد . ولي الامل بان تشاطرنا سرورنا » . (لينين ـ المؤلفات الكاملة ــ الجزء التاسع والعشرون ــ صفحة ١٩ ــ الطبعة الروسية) .

وقد وصف الرفيق ستالين ، فيما بعد ، اهمية مجلس براغ بالعبارات التالية:
« كانت لهذا المجلس اهمية عظمى في تاريخ حزبنا ، من حيث انه وضع خطاً فاصلاً بين البلاشفة والمنشفيك ، وجمع كل المنظمات البلشفية في البلاد في حزب بلشفي واحد » . (محضر جلسات المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي « البلشفيك » في الاتحاد السوفياتي ، الصفحة ٣٦١ ــ ٣٦٢ ، الطبعـــة الروسية).

وبعد طـرد المنشفيك ، وتأليف البلاشفة في حزب مستقل ، اصبح هـذا

الحزب اقوى واشد. **الحزب يقوى بتطهيره من العناصر الانتهازية** : ذلك هو احد شعارات الحزب البلشفي، هذا الحزب الذي يمتاز بانه من طراز جديد، وبانه يختلف اختلافاً اساسياً من حيث مبادئه نفسها عن احزاب الاممية الثانية. فقد كانت احزاب الاممية الثانية ، التي تسمي نفسها ، بالكلام فقط ، احزاباً ماركسية ، تتسامح في الواقع بان يكـــون في صفوفها خصوم للماركسية هم الانتهازيون المفضوحون ، وكان من جراء ذلك ان تركتهم يثيرون التفسخ في قلب الاممية الثانية وان يقتلوها . اما البلاشفة فقد قاموا ، على العكس من ذلك، بنضال لا هوادة فيه ضد الانتهازيين ، وطهروا حزب البروليتاريا من دنس الانتهازية ، وتوصلوا الى خلق حزب من طراز جديد ، حزب لينيني ، هو الحزب الذي تمكن فيما بعد من تحقيق ديكتاتورية البروليتاريا .

فلو بقي الانتهازيون في صفوف حزب البروليتاريا ، حزب البلاشفة ، لما استطاع هذا الحزب ان يخرج الى الطريق الفسيح وان يجر وراءه البروليتاريا، ولما استطاع الاستيلاء على السلطة وتنظيم ديكتاتورية البروليتاريا ، بل لما استطاع الخروج منتصراً من الحروب الاهلية ، ولما استطاع بناء الاشتراكية .

لقد صاغ مجلس براغ ، في قراراته ، برنامج الحد الادنى للحزب ، الذي يتضمن الشعارات السياسية الرئيسية المباشرة ، وهي : جمهورية ديموقراطية ، ثماني ساعات عمل في اليوم ، مصادرة جميع اراضي كبار ملاكي الاراضي .

على اساس هذه الشعارات الثورية ، قام البلاشفة بحملتهم الانتخابية لدوما الدولة الرابعة .

وعلى اساس هذه الشعارات تقدم وتعاظم النهوض الجديد في حركة جماهير العمال الثورية ، من ١٩١٢ الى ١٩١٤ .

الخلاصة

كانت الفترة الممتدة بين عامي ١٩٠٨ و ١٩١٢ ، من المراحل التي كان العمل الثوري فيها محفوفاً بصعوبات كبيرة . فبعد اندحار الثورة، وفي الوقت الذي كانت فيه الحركة الثورية في هبوط ، والجماهير في حالة ضنك واعياء ، بدل البلاشفة خطتهم منتقلين من النضال المباشر ضد القيصرية ، الى الطرق الملتوية . وهكذا استثمروا في ظروف الرجعية الستوليبينية القاسية ، افضل الامكانيات الشرعية (من جمعيات التأمين والنقابات ، الى منبر الدوما) للاحتفاظ بصلتهم مع الجماهير . وكان البلاشفة يعملون بلا كلل لحشد القوى استعداداً لنهوض الحركة الثورية من جديد .

في تلك الظروف القاسية التي اوجدها اندحار الثورة ، وما رافقها من ظهور التفسخ في تيارات المعارضة ، وخيبة الامل في الثورة ، واشتداد حملات التحريف التي شنها المثقفون المنفصلون عن الحزب (من امثال بوغدانوف وبازاروف وغيرهما) ضد اسس الحزب النظرية ، في تلك الظروف ، كان البلاشفة القوة الوحيدة التي لم تنكس علم الحزب ، وكانوا الوحيدين الذين ظلوا امناء لبرنامج الحزب وردوا هجمات « ناقدي » النظرية الماركسية (مؤلف لينين : **المادية والمذهب النقدي التجريبي**) . ومما ساعد النواة البلشفية الاساسية التي كانت ملتفة حول لينين ، على صيانة الحزب ومبادئه الثورية ، هو تفهمها الصحيح للفكرة الماركسية اللينينية ، وانصهارها المتين بتلك الفكرة ، وادراكها العميق لاهداف الثورة . فكان لينين يقول : « ليس بدون سبب قيل عنا : اننا صامدون كالصخر » .

وقد تخلى المنشفيك ، شيئاً فشيئاً، عن الثورة في ذلك العهد ، وصاروا من انصار التصفية ، يلحون في طلب تصفية حزب البروليتاريا الثوري اللاشرعي والغائه ، ويتنكرون بصورة مفضوحة متعاظمة لبرنامج الحزب واهدافه وشعاراته الثورية . وقد حاولوا تنظيم حزب خاص بهم ، « حزب اصلاحي »

فاطلق عليه العمال اسم « حزب ستوليبين للعمال » . وايد تروتسكي انصار التصفية ، متستراً ، برياء ونفاق ، وراء شعار « وحدة الحزب » ، الذي كان يعني في الواقع الوحدة مع انصار التصفية .

ومن جهة اخرى ، اخذ بعض البلاشفة الذين لم يفهموا ضرورة اقتباس طرق جديدة ، ملتوية ، في النضال ضد القيصرية ، يطالبون بالتخلي عن استخدام الامكانيات الشرعية ، ويلحون في طلب استدعاء نواب العمال من مجلس دوما الدولة . فسموا بالأوتزوفيين . وكانوا يدفعون الحزب الى الانفصال عن الجماهير ، ويضايقون حركة تجميع القوى ، حركة الاستعداد لنهوض ثوري جديد . اي ان هؤلاء الاوتزوفيين الذين تستروا بعبارات يسارية ، كانوا يتخلون عن النضال الثوري ، شأنهم في ذلك شأن انصار التصفية. وقد الف الفريقان معاً ــ الاوتزوفيون وانصار التصفية ــ كتلة ضد لينين ، عرفت بكتلة آب ، نظمها تروتسكي.

غير ان البلاشفة في نضالهم ضد انصار التصفية والاوتزوفيين ، وفي نضالهم ضد كتلة آب ، احرزوا الغلبة ، وانقذوا حزب البروليتاريا اللاشرعي.

وكان الحدث الهام الذي ميز هذه المرحلة ، هو انعقاد المجلس العام لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ، في مدينة براغ ، في كانون الثاني ١٩١٢ . فقد طرد هذا المجلس الاعضاء المنشفيك من الحزب ، وبذلك وضع حداً نهائيا للوحدة الرسمية التي كانت تجمع بين البلاشفة والمنشفيك في حزب واحد . وفي هذا المجلس ، تقرر ان يجتمع البلاشفة وحدهم في حزب مستقل ، بعد ما كانوا كتلة سياسية ، وسمي الحزب الجديد بـ «حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي (البلشفي) في روسيا» . وهكذا سجل مجلس براغ ولادة حزب من طراز جديد ، حزب اللينينية ، الحزب **البلشفي** .

وان مـــا حققه مجلس براغ من تطهير حزب البروليتاريا من العناصر الانتهازية ، اي من المنشفيك ، لعب دورا هاما ، دوراً حـــاسما ، في تطور الحزب والثورة فيما بعد . فلو ان البلاشفة لم يطردوا من الحزب العناصر المنشفيكية ، الانتهازية ، الخائنة لقضية الطبقة العاملة ، لما استطاع حزب العمال في عام ١٩١٧ ، ان يثير الجماهير ويدفعها الى الظفر بديكتاتورية البروليتاريا.

الفصل الخامس

الحزب البلشفي في سني نهوض حركة العمال على اعتاب الحرب الاستعمارية الاولى.
(١٩١٢ — ١٩١٤)

•

١ – نهوض الحركة الثورية من ١٩١٢ – ١٩١٤

لم يكن ظفر الرجعية الستوليبينية طويل الامد . فان حكومة لا تنوي اعطاء الشعب سوى السوط والمشنقة ، لا يمكن ان تكون حكومة متينة .
لقد اصبح القمع والارهاب امراً مألوفاً الى درجة ان الشعب لم يعد يخشاه . وبدأ يتبدد شيئاً فشيئاً الاعياء الذي استولى على العمال خلال السنين الاولى من اندحار الثورة . واخذ العمال يهبون الى النضال من جديد . وصحت نبوءة البلاشفة بان لا مناص من نهوض ثوري جديد . فمنذ ١٩١١ ، تجاوز عدد العمال المضربين المائة الف ، في حين لم يبلغ هذا العدد في الاعوام السابقة سوى خمسين او ستين الفاً . ومنذ كانون الثاني ١٩١٢ ، بيّن مجلس الحزب العام ، المنعقد في براغ ، ان النشاط ينبعث من جديد في حركة العمال . غير ان النهوض الحقيقي في الحركة الثورية لم يبدأ الا في نيسان وايار ١٩١٢ ، حين تفجرت الاضرابات السياسية الجماهيرية على اثر وقوع مجزرة عمال الـ « لينا » .
ففي ٤ نيسان ١٩١٢ ، في اثناء الاضراب في مناجم الذهب الواقعة على نهر

اللينا ، بسيبريا ، قتل او جرح ، بامر من احد ضباط الدرك القيصري ، اكثر من ٥٠٠ عامل من عمال المناجم العزل ، بينما كانوا ذاهبين بهدوء للقيام بمفاوضات مع الادارة . فقامت البلاد وقعدت باسرهـا لهول المجزرة . وقد ارتكبت الاوتوقراطية القيصرية هذه الجريمة الجديدة النكراء لارضاء الرأسماليين الانكليز اصحاب مناجم الذهب في اللينا ، ولكسر الاضراب الاقتصادي الذي اعلنه عمال المناجم . وكان الرأسماليون الانكليز وشركاؤهم الروس ، يجنون من هذه المناجم ارباحاً فاحشة فاضحة ـ تبلغ اكثر من سبعة ملايين روبـل في السنة الواحدة ـ عن طريق استثمار العمال بشكل فظيع مخجل . اذ كانوا يدفعون لهم اجوراً تافهة ، ويطعمونهم مواد غذائية عفنة فاسدة . وقـد ضاق العمال ذرعاً باعمال الجور والتضييق والاهانة ، فاعلنوا الاضراب ، وكان عددهم ستة آلاف .

وقد ردت البروليتاريا على مجزرة اللينا ، باضرابات ومظاهرات واجتماعات عامة جماهيرية جرت في بطرسبرج وموسكو ، وفي جميع المراكز والمناطق الصناعية .

وقد جاء في قرار اتخذه العمال في مجموعة من المشاريع ما يلي : « كان ذهولنا ودهشتنا عظيمين ، حتى اننا لم نستطع للوهلة الاولى ايجـاد الكلمات اللازمة للتعبير عما يخالجنا . وما كان احتجاجنا ، مهما بلغ ، ليستطيع ان يكون سوى صدى ضعيف للغليان الذي كان يهدر في صدر كل منا . فلا الدموع ولا الاحتجاجات بجدية شيئاً ! ان النضال الجماهيري المنظم وحـده يمكن ان ينقذنا ».

وقد تعاظمت غضبة العمال الصـاخبة ، حينما صرح الوزير القيصري ماكاروف ، بكل قحة ولؤم ، في رده عـلى سؤال من الكتلة الاشتراكية الديموقراطية في دومـا الدولة ، عـن مجزرة اللينا ، بقوله : « هكذا كان ، وهكذا سيكون دائما! ». وقد بلغ عدد المشتركين في الاضرابات السياسية التي قامت احتجاجا على مذبحة اللينا الدامية ، ثلاثمائة الف .

خلقه نظام ستوليبين .

وهاك ما كتبه الرفيق ستالين بهذا الصدد في ١٩١٢ ، في الصحيفة البلشفية « زفيزدا » (النجمة) ، الصادرة في بطرسبورج :

« ان طلقات النار التي دوت على ضفاف اللينا ، قد حطمت جليد الصمت ، فتحرك نهر الحركة الشعبية وسار ! وهو يسير !... ان كل ما في النظام الحاضر من شر وسوء ، وكل ما تحملته روسيا الشهيدة ، قد تجمع بأمره في واقع واحد : في حوادث اللينا . ولهذا كانت طلقات النار في اللينا بمثابة اشارة البداية لقيام الاضرابات والمظاهرات » .

عبثا سعى انصار التصفية والتروتسكيون الى وأد الثورة . فقد بينت حوادث اللينا ان القوى الثورية ما زالت حية ، زاخرة بالحياة ، وان كتلة هائلة من الطاقة الثورية قد تكدست في الطبقة العاملة . وقد حركت اضرابات اول ايار ١٩١٢ ، اكثر من ٤٠٠ الف عامل ، وارتدت طابعا سياسيا بارزا ، وجرت تحت شعارات البلاشفة الثورية ، وهي : الجمهورية الديموقراطية ، يوم الثماني ساعات ، مصادرة جميع اراضي كبار الملاكين . وكانت هذه الشعارات الاساسية لا تستهدف توحيد جماهير العمال الواسعة وحسب ، بل جماهير الفلاحين والجنود أيضا ، لتحقيق الهجوم الثوري على الاوتوقراطية .

وقد كتب لينين ، مقالا بعنوان « النهوض الثوري » ، قال فيه :

« ان الاضراب العظيم الذي اعلنته البروليتاريا في روسيا ، خلال شهر ايار ، ومظاهرات الشوارع التي رافقته والمنشورات الثورية والخطب الثورية التي القيت امام جموع العمال ، بينت بشكل جلي باهر ان روسيا قد دخلت مرحلة نهوض في الثورة » (لينين ــ المؤلفات المختارة ــ المجلد ١ ــ صفحة ٦٥٤) .

غير ان القلق ساور انصار التصفية من جراء روح العمال الثورية ، فأخذوا

يقاومون النضال الاضرابي ، وينعتونه بـ « كَلَب اضرابي » . وكان في نية انصار التصفية وحليفهم تروتسكي ، الاستعاضة عن نضال البروليتاريا الثوري ، بـ « حملة عرائض » . فطفقوا يدعون العمال الى توقيع ورقة ، « عريضة » او مضبطة ، تتعلق بـ « حقوقهم » (مثل الغاء القيود عن النقابات وعن الاضرابات ، الخ ..) ، لارسالها الى دوما الدولة ! ولكن انصار التصفية ، لم يتمكنوا من جمع اكثر من ١٣٠٠ توقيع ، بينما كان مئات الالوف من العمال قد التفوا حول الشعارات الثورية التي وضعها البلاشفة .

كانت الطبقة العاملة تنهج الطريق الذي خطه البلاشفة .

اما وضع البلاد الاقتصادي ، في تلك المرحلة ، فكان يتمثل في اللوحة التالية :

منذ ١٩١٠ ، عقبت فترة الركود الصناعي ، حركة انتعاش وتطور في الانتاج ، شملت الصناعات الرئيسية . فان انتاج حديد الصب (الفونت) الذي بلغ في ١٩١٠ ، ١٨٦ مليون بود (البود الواحد يعادل ١٦،٣٨ كيلوغرام) ، وفي ١٩١٢ ، ٢٥٦ مليوناً ، ارتفع في ١٩١٣ الى ٢٨٣ مليون بود . كما ان استخراج الفحم الذي بلغ في ١٩١٠ ، ١٥٢٢ مليون بود ، ارتفع في ١٩١٣ الى ٢٢١٤ مليوناً .

وتبعاً لنمو الصناعة الرأسمالية ، كان عدد البروليتاريا يتعاظم بسرعة ، وكان تطور الصناعة يتميز بتمركز الانتاج باستمرار في المشروعات الكبيرة ، والكبيرة جدا . فالمشروعات الكبيرة (٥٠٠ عامل وما فوق) التي كانت في ١٩٠١ ، لا تضم سوى ٤٦،٧ بالمئة من مجموع العمال ، اصبحت في ١٩١٠ تضم ما يقرب من ٥٤ بالمئة منهم ، اي اكثر من نصف مجموع العمال : وهو تمركز صناعي لم يسبق له مثيل . اذ ان المشروعات الكبيرة ، حتى في بلد صناعي بالغ التطور كالولايات المتحدة ، لم تكن تشغل في ذلك العهد ، الا ثلث مجموع العمال تقريباً .

وكان من جراء نمو البروليتاريا وتمركزها في المشروعات الكبيرة ، مع

وجود حزب ثوري الى جانبها كالحزب البلشفي ، ان اصبحت الطبقة العاملة في روسيا قوة عظيمة في حياة البلاد السياسية. وكانت اشكال الاستثمار البربرية التي يقاسيها العمال في المشروعات الصناعية ، مضافاً اليها نظام الارهاق البوليسي الذي كان يطبقه زبانية القيصر ، تطبع كل اضراب هام بطابع سياسي . وكان تشابك النضال الاقتصادي والنضال السياسي ينفخ في الاضرابات الجماهيرية ، بأساً ثورياً خارقاً .

كان عمال بطرسبرج البواسل يسيرون في طليعة الحركة العاملة الثورية ، ثم تأتي ولايات البلطيق ، فموسكو ومنطقتها ، فحوض الفولغا وروسيا الجنوبية. وفي ١٩١٣ ، امتدت الحركة الى البقاع الغربية ، وبولونيا ، والقفقاس . وقد جاء في التقارير الرسمية ان عدد المضربين في ١٩١٢ بلغ ٧٢٥ الفاً ، ولكن ثمة معلومات اوفى تؤكد ان هذا العدد تجاوز المليون . واشارت التقارير الرسمية ايضاً الى ان عدد المضربين في ١٩١٣ ، بلغ ٨٦١ الفاً ، في حين ان معلومات اوفى ذكرت انه بلغ مليوناً و٢٧٢ **الفاً** . اما عدد العمال الذين اشتركوا في الاضرابات خلال الاشهر الستة الاولى من عام ١٩١٤ ، فقد ناهز المليون ونصف المليون .

وهكذا كان النهوض الثوري في ١٩١٢ ــ ١٩١٤ ، واتساع حركة الاضرابات ، يقربان البلاد من الوضع الذي عرفته في بداية ثورة ١٩٠٥ .

كانت الاضرابات الثورية الجماهيرية التي تقوم بها البروليتاريا تهم **الشعب باسره** . فقد كانت موجهة ضد الاوتوقراطية، ولذا كانت تنال عطف الاكثرية الساحقة من سكان البلاد الكادحين . اما اصحاب المعامل والمصانع ، فكانوا ينتقمون من العمال المضربين باقفال معاملهم وتسريح العمال بالجملة. ففي ١٩١٣، طرح الرأسماليون الى الشارع ، في منطقة موسكو، ٥٠ الفاً من عمال النسيج . وفي اذار ١٩١٤ ، طردوا في بطرسبرج ، خلال يوم واحد ، ٧٠ الف عامل . وكان عمال المشروعات والصناعات الاخرى ، يهبون الى مساعدة رفاقهم المضربين او المسرحين ، فيجمعون لهم مبالغ مالية كبيرة ، واحياناً يضربون

تضامناً معهم .

وكان نهوض حركة العمال ، والاضرابات الجماهيرية ، تحرك جماهير الفلاحين ايضاً ، وتجذبها الى النضال. فقد اندفع الفلاحون من جديد الى النضال ضد كبار الملاكين ، وخربوا املاك النبلاء ومزارع الكولاك . وبلغ عدد الحركات التي قام بها الفلاحون من عام ١٩١٠ الى ١٩١٤ ، اكثر من ١٣ الف حركة .

وبدأت الاعمال الثورية في الجيش ايضاً . ففي ١٩١٢ انفجرت حركة تمرد مسلحة بين جيوش تركستان . وبدت تباشير انتفاضات ثورية في اسطول البلطيق وفي سيباستوبول .

وكانت حركة الاضرابات الثورية والمظاهرات ، التي يقودها الحزب البلشفي ، تدل على ان الطبقة العاملة لم تكن تناضل من اجل مطالب جزئية ، ولا من اجل « اصلاحات » ، بل في سبيل تحرير الشعب من القيصرية. وهكذا كانت البلاد سائرة نحو ثورة جديدة .

وكان لينين قد غادر في صيف ١٩١٢ مدينة باريس ، وانتقل الى غاليسيا (احدى ولايات النمسا القديمة) ، واستقر فيها ليكون على مقربة من روسيا . وقد عقد هناك ، برئاسته ، مجلسان عامان حضرهما اعضاء اللجنة المركزية والمناضلون المسؤولون : عقد الاول في اواخر ١٩١٢ في كراكوفي ، والثاني في خريف ١٩١٣ في قرية « بورونينو » ، على مقربة من كراكوفي. واتخذت في هذين الاجتماعين ، قرارات حول القضايا الاساسية لحركة العمال : النهوض الثوري ، الاضرابات ومهمات الحزب ، تقوية المنظمات اللاشرعية ، الكتلة الاشتراكية الديموقراطية في الدوما ، صحافة الحزب ، حملة الضمانات .

•

٢ ــ الجريدة البلشفية برافدا ــ الكتلة البلشفية في دوما الدولة الرابعة .

كانت البرافدا (الحقيقة) ، الصحيفة البلشفية اليومية الصادرة في

بطرسبرج ، سلاحاً قوياً في ايدي الحزب البلشفي، استخدمه في توطيد منظماته وتوسيع نفوذه بين الجماهير . وقد أسست بناء على ارشادات لينين وبمساعي ستالين والمينسكي وبوليتايف. وقد ولدت **البرافدا** بوصفهاجريدة عمال جماهيرية في الوقت نفسه الذي بدأ فيه النهوض الجديد في حركة العمال . وصدر العدد الاول منها في ٢٢ نيسان ١٩١٢ (الموافق لـ ٥ ايار على الحساب الجديد) ، فكان صدوره عيداً حقيقياً لدى العمال. ولاجل تخليد ذكرى صدور **البرافدا** اعلن يوم ٥ ايار ، يوم عيد لصحافة العمال .

وكان البلاشفة ، قبل صدور **البرافدا** ، يصدرون صحيفة اسبوعية تدعى **زفيزدا** ، موجهة الى العمال المتقدمين . وقد قامت **زفيزدا** بدور كبير خلال ايام اللينا ، فنشرت سلسلة مقالات سياسية حارة بقلم لينين وستالين ، كان من شأنها تعبئة الطبقة العاملة للنضال . غير ان الحزب البلشفي لم يكن ليستطيع ، في ظروف النهوض الثوري ، ان يكتفي بصحيفة اسبوعية ، فكان لا بد من جريدة يومية جماهيرية ، موجهة الى اوسع جماعات العمال . وكانت **البرافدا** هي تلك الجريدة .

كان شأن **البرافدا** في تلك المرحلة ، خارق الاهمية . فقد كانت تكسب الى البلشفية ، الجماهير الواسعة من الطبقة العاملة . ولم يكن باستطاعتها ، في ذلك الجو من الاضطهاد البوليسي المستمر ، وفي ظل الغرامات والمصادرات التي كانت تتعرض لها بسبب نشرها مقالات ورسائل لا تروق قلم المراقبة ، ان تعيش الا بتأييد فعلي نشيط من عشرات الالوف من العمال المتقدمين . ولم يكن بامكانها ان تدفع الغرامات الباهظة جداً التي كانت تفرض عليها ، الا بفضل الاكتتابات الجماهيرية التي كانت تجري بين العمال . وغالباً كان قسم كبير من اعداد **البرافدا** التي تمنعها الحكومة، يصل رغم ذلك الى القراء، اذ ان جماعات من طليعة العمال ، كانوا يأتون ليلاً الى المطبعة وينقلون حزماً من اعداد الجريدة .

وقد عطلت الحكومة القيصرية **البرافدا** (الحقيقة) ، ثماني مرات ، خلال

مرتين ونصف السنة . غير انها كانت ، بفضل تأييد العمال ، تعود كل مرة الى الصدور باسم جديد يذكر باسمها الاول ، مثلا : **في سبيل الحقيقة** ، **طريق الحقيقة** ، **حقيقة العمل** .

وبينما كان متوسط ما يوزع من **البرافدا** في اليوم الواحد ، اربعين الف نسخة ، كان مجموع ما يصدر من جريدة المنشفيك اليومية **لوتش** (شعاع النور) ، لا يتجاوز الـ ١٥ او الـ ١٦ الفاً .

كان العمال يعتبرون **البرافدا** جريدتهم انفسهم ، ويبدون نحوها ثقة كبيرة ويظهرون بالغ الاهتمام بكل ما تقوله لهم . وكانت كل نسخة منها ، اذ تمر من يد الى يد ، تُقرأ من عشرات الاشخاص ، فتكوّن وعيهم الطبقي ، وتثقفهم وتنظمهم وتدعوهم الى النضال .

ماذا كانت تقول **البرافدا** ؟

كان في كل عدد منها عشرات من رسائل العمال تتحدث عن حياتهم ، وعن الاستثمار الوحشي وعما يقاسونه من اعمال جور وارهاق ينزلها بهم الرأسماليون ومديروهم ونظارهم . فكانت تلك الرسائل لوائح اتهام ، عنيفة ، لاذعة ، ضد النظام الرأسمالي . ولم يكن من النادر الوقوع ، في حقول **البرافدا** ، على اخبار عن انتحار عمال عاطلين عضهم الجوع وفقدوا كل امل في ايجاد عمل .

كانت **البرافدا** تبسط حاجات العمال ومطالبهم في مختلف المعامل والصناعات ، وتروي ما يقومون به من نضال في سبيل هذه المطالب . وكان كل عدد تقريباً يشير الى الاضرابات التي تنشب في مختلف المشروعات . وعند نشوب اضرابات هامة ، طويلة الامد ، كانت الجريدة تنظم المساعدة للمضربين ، بفتح اكتتابات بين عمال الصناعات والمشروعات الاخرى . وكانت الاموال التي تجمع من اجل المضربين ، تبلغ في بعض الاحيان ، عشرات الالوف من الروبلات ، وهو مبلغ هائل بالنسبة لذلك العهد ، خصوصاً اذا علمنا ان اكثرية العمال لم تكن تتقاضى يومئذ سوى ٧٠ الى ٨٠ كوبيك في اليوم (الروبل يساوي ١٠٠ كوبيك ــ ملاحظة من هيئة التعريب) . وعلى هذه الصورة

كان يجري تثقيف العمال بروح التضامن البروليتاري ووحدة المصالح فيما بينهم.

ولدى وقوع اي حادث سياسي ، ولدى كل انتصار او كل اندحار ، كان العمال يسارعون الى ارسال بيانات ورسائل واحتجاجات ، الـخ ... الى **البرافدا** . وكانت **البرافدا** ، في مقالاتها ، تلقي النور على اهداف حركة العمال وفقاً لوجهة نظر بلشفية حازمة . ولما كانت الجريدة علنية شرعية ، لم يكن في استطاعتها ان تدعو بصورة مكشوفة الى القضاء على القيصرية وقلبها ، فكانت تلجأ الى التلميح . غير ان العمال الواعين كانوا يدركون جيداً هذه التلميحات ويشرحونها للجماهير . فلما كانت **البرافدا** تتكلم مثلاً عن « مطالب ١٩٠٥ كاملة غير منقوصة » ، كان العمال يفهمون انها تقصد شعارات البلاشفة الثورية اي : قلب القيصرية، والجمهورية الديموقراطية،ومصادرةاراضي كبارالملاكين، ويوم الثماني ساعات .

ان **البرافدا** هي التي نظمت عمال الطليعة في اثناء انتخابات الدوما الرابعة ففضحت موقف الخيانة الذي وقفه المنشفيك ، الذين كانوا من دعاة التفاهم مع البورجوازية الحرة ، ومن انصار « حزب ستوليبين للعمال » ، ودعت العمال الى منح اصواتهم لانصار « مطالب ١٩٠٥ كاملة غير منقوصة » ، اي للبلاشفة. وكانت الانتخابات تجري على عدة درجات . ففي البداية تقوم اجتماعات العمال بانتخاب وكلاء ، ثم يقوم هؤلاء الوكلاء بانتخـاب « الناخبين » . واخيراً يشترك هؤلاء الناخبون في انتخاب نائب العمال لمجلس الدوما . وقد نشرت **البرافدا** ، في يوم الانتخاب ، قائمة اسماء البلاشفة الذين عُينوا كنـاخبين ، واوصت العمال بالتصويت لهم . ولم يمكن نشر تلك القائمة مسبقاً ، لكيلا يتعرض المرشحون لخطر الاعتقال .

كانت **البرافدا** تساعد على تنظيم نضال البروليتاريا . ففي ربيع ١٩١٤ ، جرى في بطرسبرج تسريح عدد كبير من العمال اذ اقفل اصحـاب العمل معاملهم . ولما لم يكن الظرف ملائماً لاعلان اضراب جماهيري ، دعت **البرافدا** العمال الى الاخذ باشكال نضال أخرى : اجتماعات جماهيرية في المصـانع ،

مظاهرات في الشوارع . ولم يكن من الممكن الافصاح عن ذلك صراحة في الجريدة . على ان العمال الواعين الذين قرأوا مقال لينين المنشور تحت هذا العنوان المتواضع : « حول اشكال حركة العمال » ، ادركوا دعوة البرافدا ولبوّها . وقد جاء في المقال المذكور ان من الواجب في الوقت الحاضر ، الاستعاضة عن الاضراب بشكل ارقى من اشكال حركة العمال ، وكان معنى ذلك ، الدعوة الى تنظيم اجتماعات عامة ومظاهرات .

وهكذا كان نشاط البلاشفة الثوري اللاشرعي يسير جنباً الى جنب مع اعمال التحريض الشرعية ومع جهود البرافدا لتنظيم جماهير العمال .

كانت الجريدة لا تقتصر فيما تكتبه على حيـــاة العمال والاضرابات والمظاهرات ، بل كانت تلقي الضوء بصورة مستمرة منظمة على حياة الفلاحين وما يقاسونه من قحط المواسم ، والاستثمار الذي يعانونه من الاقطاعيين ، ونهب المزارعين الكولاك لاحسن اراضي الفلاحين ، وما الى ذلك من النتــائج الوخيمة التي ادى اليهـا « اصلاح » ستوليبين . وكانت البرافدا تبين للعمال الواعين كم في الارياف من مواد قابلة للاشتعال ، متراكمة بكميات هائلة . وكانت توضح للبروليتاريا ان مهمات ثورة ١٩٠٥ لم يتم تحقيقهـا ، وان ثورة جديدة تقترب . وتقول ان على البروليتاريا ان تسلك في هذه الثورة الثانية سلوك الزعيم الحقيقي ، سلوك القائد للشعب ، وانه سيكون لديهـا ، في هذه الثورة ، حليف عظيم هو جموع الفلاحين الثورية .

اما المنشفيك ، فكانوا يودون ان تنصرف الطبقة العاملة عن التفكير في الثورة . وعلى هذا كانوا يحاولون ان يوحوا الى العمال ان : كفوا عن التفكير في الشعب والمجاعات التي تفتك بالفلاحين ، وفي سيطرة غلاة الرجعيين الاقطاعيين على الارض ! لا تناضلوا الا من اجل « حرية التكتل » ، وقدّموا « عرائض » بهذا الشأن الى الحكومة القيصرية ! وكان البلاشفة يوضحون للعمال ان هذه الدعاوة المنشفيكية القائلة بالتخلي عن الثورة ، وبالتخلي عن التحالف مع جماهير الفلاحين ، انما تخدم مصلحة البورجوازية ، وان العمال لا محالة منتصرون على

القيصرية اذا هم جذبوا الى جانبهم جماهير الفلاحين بوصفها حليفة لهم ، وان الرعاة المضللين ، من امثال المنشفيك ، يجب ان ينبذوا كاعداء للثورة .

ماذا كانت تقول البرافدا في صفحتها الخاصة بـ « حياة الفلاحين » ؟

لنذكر على سبيل المثال بعض الرسائل التي نشرتها عام ١٩١٣ :

جاء في رسالة من سمارا بعنوان « مسائل زراعية » ان ٤٥ فلاحاً من قرية « نوفوكاس ـــ بولات » ، في قضاء بوغولمينسك ، اتهموا بمقاومة الموظف المكلف باعمال المساحة في اثناء قيامه بتعيين الاجزاء التي يجب اقتطاعها من الاراضي المشاعية لاعطائها للفلاحين المنسحبين من المشاع ، فحكم على عدد كبير منهم بالسجن لمدة طويلة .

وذكرت رسالة صغيرة من منطقة بسكوف ، ان فلاحي قرية بسيتسا (الواقعة على مقربة من محطة سكة حديد زافالييه) ، قاوموا بالسلاح حرس الارياف ، فوقع عدد من الجرحى . اما اصل النزاع فيعود الى خلافات زراعية . وقد ارسل على جناح السرعة رجال من الحرس الى بسيتسا ، كما توجه الى مكان الحادث نائب الحاكم والنائب العام .

وردت رسالة من ولاية اوفا نبأ عن بيع حصص من اراضي الفلاحين ، وبينت كيف ان قحط الموسم واحكام القانون الذي يجيز الانسحاب من المشاعات الريفية ، قد زادت في عدد الفلاحين الذين فقدوا ارضهم . وقد اوردت الرسالة كمثال على ذلك ، ما وقع في قرية بوريسوفكا . فان هذه القرية تعد ٢٧ عائلة ويبلغ مجموع املاكها ٥٤٣ دسياتين من الاراضي الصالحة للزراعة (الدسياتين يساوي ١،٠٩٢ هيكتار) وقد كان من نتائج قحط الموسم وما نتج عنه من بؤس ومجاعة ، ان باع خمسة من الفلاحين ، بصورة نهائية ، ٣١ دسياتين من ارضهم ، بسعر يتراوح بين ٢٥ و ٣٣ روبل للدسياتين الواحد ، في حين ان ثمن الارض يساوي ثلاثة او اربعة اضعاف هذه القيمة . وفي القرية نفسها ، اضطرت سبع عائلات الى رهن ١٧٧ دسياتين من ارضها ، فنالت مقابلها ١٨ الى ٢٠ روبل للدسياتين الواحد ، بفائدة قدرها ١٢

بالمئة ، لمدة ست سنوات . فاذا اخـذنا بعين الاعتبار درجة فقر السكان ونسبة الفائدة الفاحشة ، امكن القول بكل تأكيد ان نصف الـ ١٧٧ دسياتين، سينتقل حتما الى ايدي المرابين . اذ ليس من المحتمل ان يتمكن حتى نصف المديونين ، من وفاء مبلغ كبير كهذا خلال ست سنوات .

هذا وقد كتب لينين مقالا في **البرافدا** تحت عنوان « ملكية النبلاء الكبيرة على الارض وملكية الفلاحين الصغيرة في روسيا » ، بين فيه بوضوح للعمال والفلاحين ، مقدار الثروات الارضية الشاسعة التي يسيطر عليها الملاكون الطفيليون . فثلاثون الفا من كبار الملاكين يملكون وحدهم ما يقرب من ٧٠ مليون دسياتين من الارض اي ما يعادل المساحات التي تملكها ١٠ ملايين عائلة من عائلات الفلاحين . وعلى هذا يكون متوسط ما يملكه كل ملاك كبير ٢٣٠٠ دسياتين ، في حين لا يتجاوز متوسط نصيب العائلة الواحدة من الفلاحين ، بما في ذلك الكولاك ، ٧ دسياتين فقط . فضلا عن ان ثمة خمسة ملايين عائلة من صغار الفلاحين ، اي نصف مجموع الفلاحين ، لا تملك الواحدة منها اكثر من دسياتين واحد او اثنين . وهكذا كانت هذه الوقائع تبين بوضوح تام ان السبب الرئيسي الاول لما يقاسيه الفلاحون من بؤس وقحط ومجاعة ، هو الملكية الكبيرة للارض ، ملكية النبلاء ، هو بقايا القنانة التي لم تكن جماهير الفلاحين لتستطيع التحرر منها الا بثورة تقودها الطبقة العاملة .

وكانت **البرافدا** تدخل الى الارياف ، عن طريق العمال الذين لهم روابط بالقرى ، فتوقظ فلاحي الطليعة الى النضال الثوري .

في اثناء مرحلة انشاء **البرافدا** ، كانت المنظمات الاشتراكية الديموقراطية اللاشرعية بكليتها بين ايدي البلاشفة . اما اشكال التنظيم الشرعية (العلنية) - ككتلة مجلس الدوما ، والصحافة ، وصناديق التأمين ، والنقابات - فلم يكن قد تم انتزاعها بعد تماما ، من المنشفيك . ولذا وجب على البلاشفة ان يشهروا نضالا لا هوادة فيه لطرد انصار التصفية من المنظمات الشرعية للطبقة العاملة ، وقد تكلل هذا النضال بالنجاح بفضل **البرافدا** .

وكانت **البرافدا** في مركز النضال من اجل فكرة الحزب ، من اجل اعادة بناء حزب للعمال ، ثوري وجماهيري فكانت تُكتّل المنظمات الشرعية حول المراكز السرية للحزب البلشفي ، وتوجه حركة العمال نحو هدف واضح الخطوط ، هو اعداد العدة للثورة .

وكان لدى **البرافدا** عدد هائل من المراسلين بين العمال . فقد نشرت في غضون سنة واحدة ، اكثر من ١١ الف رسالة من العمال . غير انها لم تكن تعتمد على المكاتبات والمراسلات وحدها لتوطيد صلاتها مع جماهير العمال . فان كثيراً من عمال مختلف المشروعات كانوا يأتون كل يوم الى مكاتب تحرير الجريدة . وهناك كان يتم قسم هام من عمل الحزب التنظيمي : هناك كانت تجري المقابلات مع ممثلي خلايا (١) الحزب المحلية ، والى هناك كانت ترد الاخبار عن عمل الحزب في المعامل والمصانع ، ومن هناك كانت ترسل تعليمات لجنة الحزب في بطرسبرج وتعليمات اللجنة المركزية .

ان النضال العنيد الحازم طوال سنتين ونصف السنة ، ضد انصار التصفية، وفي سبيل اعادة بناء حزب للعمال ، ثوري وجماهيري ، سمح للبلاشفة بان يجمعوا، في اوائل صيف ١٩١٤ ، حول الحزب البلشفي ، حول الخطة « البرافدية » ، اربعة اخماس العمال النشيطين في روسيا . يشهد بذلك المثال التالي : من مجموع ٧٠٠٠ فرقة من فرق العمال التي قامت في اثناء عام ١٩١٤ بجمع مساعدات لصحف العمال ، ٥٦٠٠ فرقة جمعت المساعدات للصحافة البلشفية ، و ١٤٠٠ فرقة فقط للصحافة المنشفيكية . وبالمقابل ، كان لدى المنشفيك عدد كبير من « الاصدقاء الاغنياء » في اوساط البورجوازية الحرة والمثقفين البورجوازيين ، فكانوا يقدمون اكثر من نصف المبالغ اللازمة لصدور جريدة المنشفيك .

وكان يطلق على البلاشفة اذ ذاك ، اسم « البرافديين» وكان ينمو ويكبر مع **البرافدا** جيل كامل من البروليتاريين الثوريين ، الذين حققوا فيما بعد ثورة

(١) خلايا : جمع خلية : او « فرقة » (هيئة التعريب)

اوكتوبر الاشتراكية . وكان يسير وراء **البرافدا** عشرات ومئات الالوف من العمال في صفوف متراصة . وعلى هذا النحو ، تمَّ في سنوات النهوض الثوري (من ١٩١٢ الى ١٩١٤) وضع الاسس المتينة لحزب بلشفي جماهيري، تلك الاسس التي لم ينجح الاضطهاد القيصري في هدمها خلال الحرب الاستعمارية .

« ان **البرافدا** في عام ١٩١٢ ، وضعت الاسس لانتصار البلشفية في عام ١٩١٧ » (ستالين) .

وكانت للحزب هيئة شرعية اخرى ، يتناول نشاطها مجموع روسيا ، هي كتلة البلاشفة في دوما الدولة .

ففي ١٩١٢ ، اعلنت الحكومة القيصرية عزمها على اجراء انتخابات للدوما الرابعة . وكان حزبنا يعلق اهمية كبرى على الاشتراك في هذه الانتخابات : اذ ان الكتلة الاشتراكية الديموقراطية في الدوما ، وجريدة **البرافدا** ، كانتا ابرز نقطتي ارتكاز شرعيتين يعتمد عليهما الحزب البلشفي في عمله الثوري بين الجماهير ، في نطاق روسيا كلها .

وقد اشترك الحزب البلشفي في انتخابات الدوما باستقلال تام ، بشعاراته الخاصة ، مسدداً ضرباته في وقت واحد الى احزاب الحكومة والى البورجوازية الحرة (الكاديت) . وكانت شعارات البلاشفة في الحملة الانتخابية هي : الجمهورية الديموقراطية ، ويوم الثماني ساعات ، ومصادرة اراضي كبار الملاكين .

وجرت انتخابات الدوما الرابعة في خريف ١٩١٢ . وقد ساء الحكومة ما رأته من سير الانتخابات في بطرسبرج ، فحاولت في اوائل تشرين الاول ، خرق حقوق العمال الانتخابية في عدة مصانع هامة . وفي الحال ، قامت لجنة حزبنا في بطرسبرج، جوابا على ذلك ، وبناء على اقتراح الرفيق ستالين، بدعوة عمال المشروعات الكبرى الى اعلان اضراب ٢٤ ساعة . فاضطرت الحكومة ، وقد وجدت نفسها في موقف حرج ، الى التراجع ، وهكذا تسنى للعمال ان ينتخبوا من يشاءون . فصوتوا باكثريتهم الساحقة لكتاب «التفويض» الموجه

للوكلاء وللنائب ، وهو « التفويض » الذي كتبه الرفيق ستالين. وكان كتاب «التفويض» الموجه من عمال بطرسبرج الى نائبهم العامل ، يشير الى مهمات ١٩٠٥ التي لم تتحقق ، ومما جاء فيه :

« اننا نعتقد ان روسيا هي على اعتاب حركات جماهيرية ، قد تكون اشد عمقاً من حركات ١٩٠٥ ... وسيكون لولب هذه الحركات ، كما كانت الحال في ١٩٠٥ ، الطبقة التي هي اكثر الطبقات تقدماً في المجتمع الروسي ، اي البروليتاريا الروسية . اما حليفتها ، فلا يمكن ان تكون سوى جماهير الفلاحين المعذبة ، التي لها مصلحة حيوية في تحرير روسيا . »

وكان كتاب « التفويض » يعلن ايضاً ان نضال الشعب المقبل ينبغي ان يأخذ شكل نضال على جبهتين : ضد الحكومة القيصرية ، وضد البورجوازية الحرة التي تسعى الى التفاهم مع القيصرية .

وكان لينين يعلق اهمية كبرى على كتاب « التفويض » الذي كان يدعو العمال الى النضال الثوري . وقد لبى العمال في قراراتهم هذه الدعوة .

وحين جرى الانتخاب ، فاز فيه البلاشفة ، وارسل عمال بطرسبرج الرفيق باداييف ليمثلهم في الدوما .

وكان العمال قد صوتوا بمعزل عن جماعات السكان الاخرى (اي صوتوا فيما كان يسمى « مرتبة العمال »). وكان عدد نواب تلك المرتبة تسعة ، فاز بينهم ستة من اعضاء الحزب البلشفي هم : باداييف ، بيتروفسكي ، مورانوف ، صموئيلوف ، شاغوف ، ومالينوفسكي (الذي اتضح فيما بعد انه كان جاسوساً). وقد جرى انتخاب النواب البلاشفة في المراكز الصناعية الكبرى التي كانت تضم اربعة اخماس الطبقة العاملة على الاقل . على ان ثمة نواباً من انصار التصفية جرى انتخابهم خارج مرتبة العمال . فكان عدد انصار التصفية في المجلس سبعة ، مقابل ستة بلاشفة . وفي بادىء الامر ، الف البلاشفة وانصار التصفية ، كتلة اشتراكية ديموقراطية واحدة في الدوما . ولكن النواب البلاشفة ، بعد كفاح شديد ضد انصار التصفية الذين كانوا يعرقلون نضال البلاشفة الثوري ، اعلنوا

في شهر تشرين الاول ١٩١٣ ، بنـــاء على تعليمات اللجنة المركزية للحزب ، انسحابهم من الكتلة الاشتراكية الديموقراطية الموحـــدة ، وانشأوا كتلة بلشفية مستقلة .

كان النواب البلاشفة يلقون في الدوما خطباً ثورية يفضحون فيها النظام الاوتوقراطي ، ويستجوبون الحكومة عما يلاقيـــه العمال من قمع واضطهاد وعما يقاسونه من استثمار الرأسماليين الوحشي .

وكان البلاشفة يتكلمون ايضاً عن القضية الزراعية ، وكانت خطبهم تدعو جماهير الفلاحين الى النضال ضد اقطاعيي الارض ، وتفضح حزب الكاديت الذي كان يعارض بصراحة ،شعار مصادرة اراضي النبلاء وتوزيعها على الفلاحين.

وقد وضع البلاشفة امام الدوما ، اقتراح قانون عن يوم الثماني ساعات ، فقابله ذلك المجلس ، الخاضع لسيطرة طغمة « المائة السود » ، بالرفض طبعاً . ولكن كان لتقديم ذلك الاقتراح قيمة كبيرة جداً من الناحية التحريضية .

وكانت كتلة البلاشفة في الدوما ، على اتصال وثيق بلجنـــة الحزب المركزية ، وبلينين الذي كان يزودها بارشاداته . وكان ستالين هو الذي يشرف على قيادتها العملية في اثناء وجوده في بطرسبرج .

ولم يكن النواب البلاشفة يقتصرون في عملهم على ما يقومون به في الدوما، بل كانوا يبذلون نشاطاً واسعاً خارج المجلس ايضاً . فكانوا يذهبون الى المعامل والمصانع ، ويزورون مراكز العمال في البلاد ، فيلقون المحاضرات ، وينظمون اجتماعات سرية يشرحون خلالها قرارات الحزب ، وينشئون منظمات جديدة للحزب . وهكذا كان النواب يوفقون بحكمة وبراعة بين العمل الشرعي العلني ، والعمل اللاشرعي السري .

•

٣ ــ انتصار البلاشفة في المنظمات المشروعة ــ تقدم جديد في الحركة الثورية ــ على اعتاب الحرب الاستعمارية

اعطى الحزب البلشفي ، في ذلك العهد ، امثلة عن قيادة نضال البروليتاريا

الطبقي بجميع اشكاله ومظاهره . فكان ينشىء منظمات سرية ، ويصدر نشرات لا شرعية ، ويقوم بعمل ثوري سري بين الجماهير . وفي الوقت نفسه، كان يستولي شيئاً فشيئاً على مختلف المنظمات المشروعة (١) للعمال ، ويعمل جاداً للظفر بالنقابات وبيوت الشعب والجامعات المسائية والنوادي ومؤسسات الضمان . وكان انصار التصفية يستخدمون ، منذ زمن طويل ، هذه المنظمات المشروعة كملجأ لهم . فاشهر البلاشفة نضالاً عنيداً حازماً لتحويل الجمعيات المشروعة الى نقاط ارتكاز لحزبنا . واستطاعوا، بفضل الجمع بين العمل الشرعي والعمل اللاشرعي بشكل ذكي ، ان يكسبوا الى جانبهم أكثرية النقابات في العاصمتين . وقد احرزوا انتصاراً باهراً في ١٩١٣ ، اثناء انتخابات الهيئة الادارية لنقابة عمال المعادن في بطرسبرج : فمن مجموع ثلاثة آلاف عامل حضروا الاجتماع الانتخابي ، لم يصوّت لانصار التصفية سوى ١٥٠ عاملا تقريباً .

ويصح القول نفسه عن هيئة مشروعة اخرى ، هي الكتلة الاشتراكية الديموقراطية في دوما الدولة الرابعة . فرغم ان المنشفيك كان لهم في الدوما سبعة نواب ، في حين ان البلاشفة لم يكن لهم سوى ستة نواب فقط ، فان النواب المنشفيك السبعة ، المنتخبين بصورة رئيسية في غير مناطق العمال ، ما كانوا يمثلون الا خمس الطبقة العاملة على اكبر تقدير ، في حين ان النواب البلاشفة الستة ، المنتخبين في أهم المراكز الصناعية (بطرسبرج ، موسكو ، ايفانوفو ـ فوزنيسانسك ، كوستروما ، ييكاتيرينوسلاف ، خاركوف) ، كانوا يمثلون اكثر من اربعة اخماس الطبقة العاملة في البلاد . ولذا كان العمال يعتبرون ان نوابهم هم البلاشفة الستة (اي باداييف وبتروفسكي والآخرين) ، لا السبعة المنشفيك .

واذا كان البلاشفة قد نجحوا في الاستيلاء على المنظمات المشروعة، فذلك لأنهم ، رغم وحشية الاضطهاد القيصري ، ورغم الحملة النكراء التي شنها عليهم

---

١) : مشروعة او شرعية ، اي علنية . (هيئة التعريب)

انصار التصفية والتروتسكيون ، عرفوا ان يحافظوا على الحزب اللاشرعي وان يوطدوا نظاماً (١) حازماً في صفوفهم ، ولأنهم كانوا يدافعون بشجاعه عن مصالح الطبقة العاملة ، ومتصلين اتصالاً وثيقاً بالجماهير ، ويقومون بنضال لا هوادة فيه ضد اعداء حركة العمال .

هذا هو السبب في ان انتصار البلاشفة واندحار المنشفيك كانا يتطوران على طول الخط في المنظمات المشروعة . ففي ميدان التحريض من على منبر مجلس الدوما ، وكذلك في ميدان صحافة العمال والمنظمات المشروعة الاخرى ، كان المنشفيك يطرحون الى الوراء ويردّون الى الصفوف الخلفية . فان الطبقة العاملة ، في اندفاعها مع الحركة الثورية ، كانت تلتف بشكل واضح جلي حول البلاشفة ، وتنبذ المنشفيك .

وكانت الطامة الكبرى للمنشفيك ، انهم افلسوا في القضية القومية . فقد كانت الحركة الثورية النامية في اطراف (٢) روسيا ، تتطلب برنامجاً واضحاً في هذه الميدان . ولكن تبين ان المنشفيك ليس لديهم اي برنامج ، اذا استثنينا مطلب « الاستقلال الذاتي الثقافي » الذي كان ينادي به « البوند » ، وهو مطلب لم يكن ليرضي اي احد . وهكذا اتضح ان البلاشفة وحدهم لديهم برنامج ماركسي في القضية القومية ، برنامج صاغه الرفيق ستالين في مقاله « الماركسية والمسألة الوطنية » ، ولينين في مقاليه : « حول حق الامم في التصرف بنفسها » و« ملاحظات انتقادية في المسألة الوطنية » .

لذلك لم يكن من المستغرب ابداً ، بعد كل ما منيت به المنشفية من فشل واندحار ، ان تتداعى كتلة آب وتنهار . فان هذه الكتلة ، المؤلفة من عناصر متنافرة غير متجانسة ، لم تقوَ على مقاومة اندفاع البلاشفة فانحلت وتفككت . فهي وقد أنشئت لمحاربة البلاشفة ، لم تلبث ان تفسخت تحت ضرباتهم ، فانسحب

---

(١) : Dicipline ديسيبلين . (هيئة التعريب)

(٢) : حيث العديد من القوميات : (هيئة التعريب)

منها بادىء الامر انصار جريدة « فبيريود » (١) (بوغدانوف ولوناتشارسكي وغيرهما ايضاً) ، ثم انفض عنها الليتونيون ، واخيراً تفرق الباقون .

وبعد ما اندحر انصار التصفية في نضالهم ضد البلاشفة ، استنجدوا بالاممية الثانية . فلبت هذه دعوتهم ، وتحت ستار «التوفيق» بين البلاشفة وانصار التصفية ، وبحجة اقرار «السلام في داخل الحزب» ، طلبت من البلاشفة ان يكفّوا عن إنتقاد السياسة الانتهازية التفاهمية التي ينهجها انصار التصفية . ولكن البلاشفة أبوا التساهل في هذا الموضوع ، ورفضوا الانصياع للقرارات التي اتخذتها الاممية الثانية الانتهازية ، ولم يتراجعوا قيد شعرة عن مواقفهم .

ما كان انتصار البلاشفة في المنظمات المشروعة ، ولا كان من الممكن ان يكون ، وليد الصدفة . وذلك اولا لانهم كانوا اصحاب نظرية ماركسية صحيحة وبرنامج واضح الخطوط وحزب بروليتاري ثوري صهرته المعارك . ومن ثم لان هذا الانتصار كان تعبيراً عن نهوض الثورة المستمر المطرد .

لقد كانت الحركة الثورية تتسع وتتقدم باطراد بين العمال ، وهي تكتسح المدن والمناطق . وحين أقبل عام ١٩١٤ ، لم تهدأ اضرابات العمال ، بل على العكس ، اتسعت وازدادت شدة ، وراحت تجر في تيارها عدداً اكبر فاكبر من العمال . ففي ٩ كانون الثاني ، بلغ عدد العمال المضربين ٢٥٠ الفاً ، منهم ١٤٠ الفاً في بطرسبرج وحدها . وفي اول ايار ، تجاوز عدد المضربين نصف المليون ، بينهم اكثر من ٢٥٠ الفاً في بطرسبرج . وقد اظهر المضربون صلابة خارقة للعادة . ففي مصنع اوبوخوف في بطرسبرج ، دام الاضراب اكثر من شهرين ، وفي مصنع لسنر ، اكثر من ثلاثة أشهر . وأدت حوادث التسمم التي وقعت بين جماهير العمال في سلسلة من معامل بطرسبرج ، الى اضراب ١١٥ الف عامل ، وتبعت الاضراب مظاهرات . وهكذا كانت الحركة تكبر وتتعاظم ، حتى بلغ عدد العمال الذين اضربوا خلال النصف الاول من عام ١٩١٤ (حتى اوائل تموز) ١،٤٢٥،٠٠٠ عامل .

(١) : فبيريود : الى الامام . (هيئة التعريب)

واعلن عمال النفط في باكو ، في شهر ايار ، اضراباً عاماً اثار انتباه البروليتاريا في روسيا باسرها . وقد جرى الاضراب بنظام . وفي ٢٠ حزيران، تظاهر ٢٠ الف عامل في شوارع باكو . فاتخذت الشرطة تدابير وحشية . وعلى الاثر ، انفجر الاضراب في موسكو احتجاجاً وتضامناً مع عمال باكو ، ثم امتد الى بقية المناطق .

وفي ٣ تموز عقد في بطرسبرج ، في مصنع بوتيلوف ، اجتماع عام بشأن اضراب باكو . فاطلقت الشرطة النار على العمال فاشتد الغليان بين صفوف البروليتاريا في العاصمة . وفي اليوم الثاني ، ٤ تموز ، اضرب ٩٠ الف عامل اضراباً احتجاجياً تلبية لنداء لجنة الحزب في بطرسبرج . وفي ٧ تموز بلغ عدد المضربين ١٣٠ الفاً ، ثم ارتفع الى ١٥٠ الفاً في ٨ تموز ، فالى ٢٠٠ الف في ١١ تموز .

كانت جميع المصانع في غليان ، والاجتماعات العامة والمظاهرات تتوالى في كل مكان . حتى تطور الامر الى اقامة المتاريس . وكانت مثل هذه الحالة قائمة ايضاً في باكو ولودز . وفي كثير من الاماكن ، اطلقت الشرطة النار على العمال . وعمدت الحكومة ، لسحق الحركة ، الى اعلان تدابير «استثنائية » ، فحولت العاصمة الى شبه معسكر . وصدر قرار بتعطيل البرافدا .

غير ان قوة جديدة ذات صبغة دولية ــ هي الحرب الاستعمارية ــ برزت اذ ذاك على المسرح ، ولم تلبث ان غيرت مجرى الامور . وكان رئيس الجمهورية الفرنسية ، بوانكاريه ، قد وصل الى بطرسبرج في اثناء الحوادث الثورية في تموز، لمباحثة القيصر في امر الحرب الوشيكة الوقوع . وبعد ايام اعلنت المانيا الحرب على روسيا . فانتهزت الحكومة القيصرية هذه المناسبة لتسحق المنظمات البلشفية ، وقمعت حركة العمال . وهكذا انقطع نهوض الثورة بفعل الحرب العالمية ، هذه الحرب التي كانت الحكومة القيصرية تأمل ان تنقذها من الثورة .

الخلاصة

خلال سنوات النهوض الثوري الجديد (من ١٩١٢ الى ١٩١٤) ، وقف الحزب البلشفي على رأس حركة العمال وقادها تحت شعارات البلاشفة نحو ثورة جديدة . وقد عرف الحزب ان يجمع بين العمل اللاشرعي والعمل الشرعي . وبعدما نجح في تحطيم مقاومة انصار التصفية واصدقائهم التروتسكيين والاتزوفيين ، استولى على جميع اشكال الحركة الشرعية ، وجعل من المنظمات المشروعة نقاط ارتكاز لنشاطه الثوري .

وخلال النضال ضد اعداء الطبقة العاملة وعملائهم في داخل حركة العمال ، وطد الحزب صفوفه ووسع صلاته مع الطبقة العاملة . وقد استطاع الحزب ، باستخدامه ، الى اقصى حد ، منبر الدوما للقيام بالتحريض الثوري ، وبانشائه صحيفة جماهيرية رائعة للعمال هي **البرافدا** ، ان ينجب جيلاً جديداً من العمال الثوريين الذين عرفوا باسم « البرافديين » . وقد ظلت هذه الفصائل من العمال ، طوال سنوات الحرب الاستعمارية ، امينة لعلم الاممية والثورة البروليتارية . وهذه الفصائل هي التي كونت نواة الحزب البلشفي في ايام ثورة اوكتوبر ، عام ١٩١٧ .

كان الحزب هو الذي يقود نضال الطبقة العاملة الثوري على اعتاب الحرب الاستعمارية . وهذه المعارك ، معارك الطليعة ، التي انقطعت بسبب الحرب ، اندلعت من جديد بعد ثلاث سنوات ، في سبيل القضاء على القيصرية . وقد دخل الحزب البلشفي مرحلة الحرب الاستعمارية ، تلك المرحلة القاسية الشاقة ، وهو يرفع عاليا علم الاممية البروليتارية .

الفصل السادس

الحزب البلشفي خلال الحرب الاستعمارية — الثورة الروسية الثانية (١٩١٤ الى اذار ١٩١٧)

•

١ — منشأ الحروب الاستعمارية واسبابها .

في ١٤ تموز ١٩١٤ (٢٧ تموز في الحساب الغربي) ، اعلنت الحكومة القيصرية التعبئة العامة ، وفي ١٩ تموز (اول آب) ، اعلنت المانيا الحرب على روسيا .

وهكذا نزلت روسيا الى ميدان القتال .

وقد تنبأ لينين والبلاشفة ، قبل ابتداء الحرب بامد ، بانها ستنفجر لا محالة . ووضع لينين ، في المؤتمرات الاشتراكية الاممية ، اقتراحاته الرامية الى تحديد خطة السلوك الثوري للاشتراكيين في حالة الحرب .

بيّن لينين ان الحرب تلازم الرأسمالية ملازمة لا مناص منها . فان نهب اراضي الغير ، وفتح المستعمرات واغتصابها ، والاستيلاء على اسواق جديدة ، كل ذلك اتخذته الدول الرأسمالية اكثر من مرة ، ذريعة للقيام بحروب فتح وتوسع . فالحرب هي بالنسبة للاقطار الرأسمالية ، حالة طبيعية مشروعة ، مثل استثمار الطبقة العاملة سواء بسواء .

وقد اصبحت الحروب محتومة الوقوع، خصوصاً منذ ان تطورت الرأسمالية نهائياً ، في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، الى اعلى وآخر درجة في تطورها: الى الاستعمار (١). ففي عهد الاستعمار اصبح لاتحادات الرأسماليين الكبرى (الاحتكارات) وللبنوك ، دور حاسم في حياة الدول الرأسمالية . وصار الرأسمال المالي ، هو السيد الآمر في الدول الرأسمالية . فأخذ يطالب باسواق جديدة ، وبالاستيلاء على مستعمرات جديدة ، وعلى ميادين جديدة لتصدير رؤوس الاموال ، وعلى منابع جديدة للمواد الاولية .

ولكن جميع بقاع الكرة الارضية كانت، منذ اواخر القرن التاسع عشر، مقسمة بين الدول الرأسمالية . الا ان الرأسمالية ، في عهد الاستعمار ، تتطور بصورة غير متساوية ، بصورة متفاوتة جداً وبقفزات : فهذه اقطار كانت قديماً تحتل المكان الاول ، تطور الآن صناعتها ببطء نسبياً ، وتلك اقطار اخرى كانت قديماً متأخرة ، تلحق بالاولى وتسبقها بقفزات سريعة ، فتتعدل النسبة بين القوى الاقتصادية والعسكرية للدول الاستعمارية، ويظهر الاتجاه الى تقسيم العالم تقسيماً جديداً . فالنضال في سبيل هذا التقسيم الجديد للعالم ، هو الذي يجعل الحرب الاستعمارية امراً لا مفر منه. فحرب ١٩١٤ كانت حربا لاعادة تقسيم العالم ومناطق النفوذ . وقد عملت جميع الدول الاستعمارية سلفاً وخلال مدة طويلة لتحضيرها وتهيئتها . فالمسؤولون عنها هم استعماريو جميع الاقطار .

ان المانيا والنمسا من جهة ، وفرنسا وانكلترا ومعها روسيا ، التي كانت

---

١) الاستعمار ، ويسميه بعض الكتاب العرب « امبرياليزم » او « امبريالية » تمييزاً له عن المعنى الشائع للاستعمار في اللغة العربية ، اذ يراد به غالباً مجرد الاستيلاء على اراضي الغير فقط ، وهو ما يقابل كلمة « كولونياليزم » الفرنسية ، بينما الاستعمار بمعنى الامبرياليزم ليس ذلك فقط ، بل هو ، كما يجد القارىء في سياق هذا الفصل نفسه ، مجموعة نظام ، خصائصه كثيرة ، في رأسها سيادة الاحتكارات الرأسمالية في البلدان الصناعية المتقدمة وسيطرة الرأسمال المالي ، وتصدير الرساميل على نطاق واسع ..الخ.. وكذلك الاستيلاء على اراضي الغير ، فهو طبعاً من خصائص الاستعمار بمعنى الامبرياليزم . (هيئة التعريب) .

تابعة لها ، من جهة اخرى ، هي الاقطار التي عملت بوجه خاص لتهيئة هذه الحرب . ففي عام ١٩٠٧ ، ظهر الاتفاق الثلاثي بين انكلترا وفرنسا وروسيا وهو المعروف باسم « الحلف » . اما التحالف الاستعماري الآخر ، فكان يضم المانيا والامبراطورية النمساوية المجرية وايطاليا . غير ان ايطاليا تركت هذا التحالف عند ابتداء حرب ١٩١٤ ، ثم انضمت فيما بعد الى « الحلف » الثلاثي . وكانت بلغاريا وتركيا تؤيدان المانيا والامبراطورية النمساوية المجرية .

كانت المانيا في استعدادها للحرب الاستعمارية ، تبغي ان تنتزع من انكلترا وفرنسا مستعمراتهما ، ومن روسيا اوكرانيا وبولونيا وولايات البلطيق . وكانت المانيا ، ببنائها سكة حديد بغداد ، تهدد سيطرة انكلترا في الشرق الادنى . اما انكلترا فكانت تخشى ازدياد تسلح المانيا البحري .

وكانت روسيا القيصرية ترمي الى تمزيق تركيا ، وتحلم بانتزاع مضيق الدردنيل ، الذي يربط البحر الاسود بالبحر الابيض المتوسط وبالاستيلاء على استنبول . وكان من جملة مشاريع الحكومة القيصرية ايضاً ، اقتطاع جزء من الامبراطورية النمساوية المجرية ، هو غاليسيا .

اما انكلترا فكانت تريد الحرب لاجل قهر مزاحمتها الخطيرة ، المانيا ، التي كانت بضائعها تحل ، اكثر فأكثر ، محل البضائع الانكليزية في السوق العالمية . وعدا ذلك ، كانت انكلترا تمني نفسها بانتزاع بلاد ما بين النهرين (١) وفلسطين من تركيا ، وتوطيد قدمها في مصر .

وكان الرأسماليون الفرنسيون يريدون ان ينتزعوا من المانيا حوض السار ، ومعه الالزاس واللورين ، وجميعها غنية بالفحم والحديد . وكانت المانيا قد اقتطعت الالزاس واللورين من فرنسا في نهاية حرب ١٨٧٠ — ١٨٧١ .

وهكذا فان التناقضات الخطيرة الناشبة بين هذين الفريقين من الدول الرأسمالية ، هي التي ادت الى الحرب الاستعمارية .

وكانت حرب السلب والنهب هذه ، الرامية الى تقسيم العالم من جديد ،

---

(١) العراق (هيئة التعريب)

تمس مصالح جميع البلدان الاستعمارية ، ولذلك انجرت اليهـا فيما بعد ، اليابان والولايات المتحدة وعدد من الدول الاخرى .

فأصبحت الحرب عالمية .

وقد هيأت البورجوازية الحرب الاستعمارية بتكتم شديد ، دون علم الشعوب . وعندما اندلعت نيرانها، اخذت كل حكومة استعمارية تسعى جهدها لكي تبرهن بانها ليست هي التي هاجمت جيرانهـا ، بل انها هي نفسها ضحية العدوان . فكانت البورجوازية تخدع الشعب باخفائها اهداف الحرب الحقيقية، وصبغتها الاستعمارية التوسعية . وكانت كل حكومة استعمارية تعلن انها تقوم بالحرب دفاعاً عن الوطن .

أما انتهازيو الاممية الثانية ، فقد ساعدوا البورجوازية على خدع الشعب . ان هؤلاء الاشتراكيين الديموقراطيين ، التابعين للاممية الثانيـة ، قـد خانوا بنذالة ، قضية الاشتراكية ، قضية تضامن البروليتاريا الاممي . ولم يكتفوا بعدم الوقوف في وجه الحرب ، بل ، على العكس ، ساعدوا البورجوازية على اثارة عمال الدول المتحاربة وفلاحيها بعضهم على بعض ، بحجة الدفاع عن الوطن.

لم يكن من باب المصادفة ان دخلت روسيا الحرب الاستعمارية ، الى جانب « الحلف » ، اي الى جانب فرنسا وانكلترا . اذ ينبغي ان لا ننسى ان الصناعات الرئيسية في روسيا كانت ، قبل عام ١٩١٤ ، في ايـدي الرأسمال الاجنبي، وخصوصاً الرأسمال الفرنسي والانكليزي والبلجيكي ، اي رأسمال البلدان الداخلة في « الحلف ». فكانت اهم مصانع التعدين في روسيا ، في ايدي الرأسماليين الفرنسيين ، وبوجه الأجمال كانت صناعة التعدين ، بثلاثة ارباعها تقريباً (٧٢ بالمئة) ، تابعة للرأسمال الاجنبي . ولم يكن الوضع يختلف عن ذلك في صناعة الفحم في حوض الدونيتز . وكان ما يقرب من نصف آبار البترول في ايدي الرأسمال الانكليزي ــ الفرنسي . وكان قسم كبير من ارباح الصناعة الروسية يذهب الى البنوك الاجنبية ، وخصوصاً الانكليزية ــ الفرنسية . فجميع هذه الظروف ، مضافة الى القروض التي عقدها القيصر في

انكلترا وفرنسا ، وقــد بلغت المليارات ، كانت تربط القيصرية بالاستعمار الانكليزي الفرنسي ، وتجعل روسيا بلداً تابعاً وشبه مستعمرة لهذين البلدين .

كانت البورجوازية الروسية ، اذ اشهرت الحرب ، تمني نفسها بتحسين اوضاعها : وذلك بالاستيلاء على اسواق جديدة ، والاغتناء على حساب الطلبات العسكرية ومعدات الجيوش ، وفي الوقت نفسه قمع الحركة الثورية، باستغلال الوضع الناشىء عن الحرب .

لم تكن روسيا القيصرية مهيأة للحرب . فقد كانت صناعتها متأخرة جداً عن صناعة الاقطار الرأسمالية الاخرى ، ومعظم مصانعها ومعاملها قديمة وذات تجهيزات آلية بالية . ولم تكن الزراعة صالحة لأن تكون اساساً اقتصادياً متيناً لحرب طويلة الامد ، نظراً لنظام الملكية نصف الاقطاعي ، وفقر جماهير الفلاحين وخرابهم .

وكان القيصر يستند بوجه خاص الى اقطاعيي الارض. وكان كبار ملاكي الاراضي المغرقين في الرجعية ، بالتحالف مع كبار الرأسماليين ، يسيطرون على البلاد وعلى دوما الدولة ، سيطرة السادة. وكانوا يؤيدون سياسة الحكومة القيصرية، الداخلية والخارجية ، تأييداً تاماً . لقد كانت البورجوازية الاستعمارية الروسية تعتمد على الاوتوقراطية القيصرية كاعتمادها على قبضة مغلفة بقفاز من حديد ، تستطيع ، من جهة ، ان تضمن لها الاستيلاء على اسواق جديدة واراض جديدة ، ومن جهة اخرى ، ان تسحق حركة العمال والفلاحين الثورية .

وكان حزب البورجوازية الحرة ـ حزب الكاديت ـ يمثل دور المعارضة، الا انه كان يدعم بلا تحفظ ، سياسة الحكومة القيصرية الخارجية .

اما حزبا البورجوازية الصغيرة، الحزب الاشتراكي الثوري وحزب المنشفيك، فانهما، منذ ابتداء الحرب، عملا، وهما مستتران وراء علم الاشتراكية ، عـلى مساعدة البورجوازية في خدع الشعب وفي اخفاء حقيقة الحرب وطابعها الاستعماري الاغتصابي . فكانا يدعوان الى ضرورة صيانة « الوطن » البورجوازي والدفاع عنه ضد « البرابرة البروسيين الالمان » ، ويؤيدان سياسة

« الاتحاد المقدس » ، وهكذا كانا يساعدان حكومة القيصر الروسي على القيام بالحرب ، كما كان الاشتراكيون الديموقراطيون الالمان يساعدون حكومة القيصر الالماني على القيام بالحرب ضد « برابرة روسيا » .

ان الحزب البلشفي وحده ، بقي اميناً لعلم الاممية الثورية المجيد ، وحده بقي متمسكا ، بكل صلابة ، بالمواقف الماركسية ، مواقف النضال الحازم ضد الاوتوقراطية القيصرية ، وضد كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين ، وضد الحرب الاستعمارية . لقد تمسك الحزب البلشفي ، منذ بدء القتال ، بوجهة النظر القائلة بان الحرب قد نشبت لا للدفاع عن الوطن ، بل للاستيلاء على اراضي الغير ، ولنهب الشعوب الاخرى ، في مصلحة كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين ، وان من واجب العمال ان يشهروا ، بحزم وصلابة ، الحرب على هذه الحرب .

وكانت الطبقة العاملة تؤيد الحزب البلشفي .

والحقيقة ان النشوة الوطنية البورجوازية التي أُخذ بها ، في بداية الحرب ، المثقفون والعناصر الكولاكية بين الفلاحين ، سرت ايضاً الى قسم من العمال . ولكن هذا القسم كان يضم ، على الخصوص ، اعضاء من « اتحاد الشعب الروسي » — اتحاد الرعاع — وفئة من العمال ذوي الميول الاشتراكية الثورية والمنشفية . ومن الواضح ان هؤلاء لم يكونوا يفصحون ، ولم يكن من الممكن ان يفصحوا ، عن حالة العمال الفكرية . ان هذه العناصر هي التي اشتركت في المظاهرات الشوفينية (١) التي قامت بها البورجوازية ، ونظمتها الحكومة القيصرية ، في الايام الاولى من الحرب .

(١) : شوفينية : تعصب قومي اعمى وعداء نحو الشعوب الاخرى. (هيئة التعريب)

٣ ـ احزاب الاممية الثانية تقف في جانب حكوماتها الاستعمارية ـ الاممية الثانية تتفسخ وتتحول الى احزاب اشتراكيـــة شوفينيـــة لا رابطة بينهـــا

حذّر لينين، اكثر من مرة، من انتهازية الاممية الثانية وتذبذب زعمائها. وكان لا ينفك يقول، دون انقطاع، ان زعماء الاممية الثانية ليسوا ضد الحرب الا بالكلام، وان من الممكن جداً في حالة نشوب الحرب ان يتخلوا عن مواقفهم، وان يقفوا في جانب البورجوازية الاستعمارية، وان يصبحوا من انصار الحرب. وقد تحققت نبوءة لينين منذ بدء نشوب القتال.

في عام ١٩١٠، كان مؤتمر الاممية الثانية المنعقد في كوبنهاغن (عاصمة الدانمرك)، قد قرر بان يصوت الاشتراكيون في البرلمانات ضد الاعتمادات الحربية. وخلال حرب البلقان، عام ١٩١٢، اعلن مؤتمر الاممية الثانية المنعقد في بال (سويسرا)، بان عمال جميع الاقطار يعتبرون ان من الجريمة ان يتقاتلوا فيما بينهم لاجل زيادة ارباح الرأسماليين. ذلك هو الموقف الذي اتخذوه بالكلام، في المقررات.

ولكن عندما قصفت رعود الحرب الاستعمارية، واصبح من الواجب تطبيق هذه المقررات، تكشف زعمـــاء الاممية الثانية عن خداعين، خونة للبروليتاريا، وخدم للبورجوازية. فقد غدوا من انصار الحرب.

في ٤ آب ١٩١٤، صوتت الاشتراكية الديموقراطية الالمانية في البرلمان للاعتمادات الحربية ولدعم الحرب الاستعمارية. وحذت حذوها الاكثرية الكبرى من الاشتراكيين في فرنسا وانكلترا وبلجيكا والاقطار الاخرى.

لقد انقطعت الاممية الثانية عن الوجود. وتشتتت احزاباً اشتراكية شوفينية لا رابطة بينها، يحارب احدها الآخر.

ان زعماء الاحزاب الاشتراكية، خائني البروليتاريا، انتقلوا الى مواقف

الاشتراكية ــ الشوفينية ومواقف الدفاع عن البورجوازية الاستعمارية ، فساعدوا الحكومات الاستعمارية على خدع الطبقة العاملة ، وعلى تسميمها بسم التعصب القومي . لقد تستر هؤلاء الاشتراكيون الخونة ، بعلم الدفاع عن الوطن ، فراحوا يثيرون العمال الالمان على العمال الفرنسيين ، والعمال الانكليز والفرنسيين على العمال الالمان . ولم يبق في الاممية الثانية من امين للمواقف الاممية ، سوى اقلية ضئيلة سارت ضد التيار ، سارت وليس لديها ما يكفي من الثقة بالنفس ، وينقصها كثير من العزيمة ، الا انها سارت ضد التيار على كل حال .

ان الحزب البلشفي وحده رفع ، منذ البداية ، وبدون ادنى تردد ، علم النضال الحازم ضد الحرب الاستعمارية ، وقد بيّن لينين في موضوعاته عن الحرب الاستعمارية ، التي كتبها في خريف ١٩١٤ ، ان انهيار الاممية الثانية لم يكن وليد المصادفة . فقد هلكت الاممية الثانية بفضل الانتهازيين ، الذين كان احسن ممثلي البروليتاريا يدعون ، منذ امد طويل ، الى الحذر منهم .

كانت احزاب الاممية الثانية ، منذ ما قبل الحرب ، مصابة بالانتهازية . وكان الانتهازيون يدعون علناً الى التخلي عن النضال الثوري ، ويروجون نظرية « اندماج الرأسمالية بصورة سلمية في الاشتراكية » . وكانت الاممية الثانية ترفض مكافحة الانتهازية ، وتقول بوجوب مسالمتها ، وتفسح لها المجال لكي تقوى وتشتد . فالاممية الثانية بحكم انتهاجها سياسة تفاهم ومسالمة تجاه الانتهازية ، اصبحت هي نفسها انتهازية .

كانت البورجوازية الاستعمارية تشتري ، على الدوام ، بواسطة الارباح التي تجنيها من مستعمراتها ومن استثمار الاقطار المتأخرة ، الفئات العليا من العمال الاختصاصيين وهم من يُسمون : ارستوقراطية العمال ، فتمنحهم اجوراً مرتفعة وصدقات اخرى . وقد خرج من صفوف هذا الصنف من العمال ، العديد من قادة النقابات والتعاونيات ، والعديد من اعضاء المجالس البلدية والنيابية ، والعديد من الموظفين في الصحافة والمنظمات الاشتراكية الديموقراطية . وفي زمن

الحرب ، اصبح هؤلاء الناس ، لخوفهم من فقدان مراكزهم ، خصوم الثورة ومدافعين مستكلبين عن بورجوازيتهم وعن حكوماتهم الاستعمارية .

لقد انقلب الانتهازيون الى اشتراكيين ـ شوفينيين .

وكان هؤلاء ، وبينهم المنشفيك والاشتراكيون الثوريون الروس ، يدعون الى « السلام الاجتماعي » بين العمال والبورجوازيين داخل بلادهم ، والى الحرب ضد الشعوب الاخرى خارج بلادهم . كانوا يضللون الجماهير عن مسببي الحرب الحقيقيين ، فيعلنون ان بورجوازية بلادهم ليست مسؤولة عنها . وقد اصبح كثير من الاشتراكيين الشوفينيين وزراء في حكوماتهم الاستعمارية .

ولم يكن الاشتراكيون الشوفينيون المقنعون ، المعروفون بالوسطيين ، أقل خطراً على قضية البروليتاريا من زملائهم . فان الوسطيين ـ من امثال كاوتسكي وتروتسكي ومارتوف وغيرهم ـ كانوا يبررون موقف الاشتراكيين الشوفينيين المفضوحين ويدافعون عنهم ، اي انهم كانوا ، مع الاشتراكيين الشوفينيين ، يخونون البروليتاريا ، ساترين خيانتهم بعبارات « يسارية » عن النضال ضد الحرب ، عبارات ترمي الى تضليل الطبقة العاملة. فكان الوسطيون ، في الواقع ، يؤيدون الحرب ، اذ ان اقتراحهم بعدم التصويت ضد الاعتمادات الحربية وبالاستنكاف عن التصويت ، كان بمثابة تأييد للحرب . وكانوا يطلبون مثلهم في ذلك مثل الاشتراكيين الشوفينيين ، ترك النضال الطبقي في اثناء الحرب لئلا يضايق ذلك حكوماتهم الاستعمارية في قيادة الحرب . وكان الوسطي تروتسكي يقف ضد لينين وضد الحزب البلشفي في جميع القضايا الهامة المتصلة بالحرب وبالاشتراكية .

بدأ لينين ، منذ اول الحرب ، يجمع القوى لانشاء اممية جديدة ، هي الاممية الثالثة . وكانت اللجنة المركزية للحزب البلشفي قد وضعت ، في البيان الذي اذاعته ضد الحرب في تشرين الثاني ١٩١٤ ، مهمة انشاء اممية ثالثة ، عوضاً عن الاممية الثانية التي افلست افلاساً مخجلا .

وفي شباط ١٩١٥ ، كلف لينين الرفيق ليتفينوف ، بان يتكلم في مؤتمر

الاشتراكيين في البلدان الحليفة ، المنعقد في لندن . فطلب ليتفينوف خروج الاشتراكيين (فاندرفيلد ، سيمبا ، غيد) من الحكومات البورجوازية في بلجيكا وفرنسا ، وقطع كل صلة بالاستعماريين ورفض التعاون معهم . وطلب من جميع الاشتراكيين ان يناضلوا بحزم ضد حكوماتهم الاستعمارية ، وان يستنكروا التصويت على الاعتمادات الحربية . ولكن صوت ليتفينوف رن في المؤتمر وحيداً منفرداً .

وفي اوائل ايلول ١٩١٥ ، اجتمع اول مؤتمر للامميين في زيمرفالد (١) . وقد وصف لينين هذا المؤتمر بانه « خطوة اولى » في طريق تطور الحركة الاممية ضد الحرب . وفي هذا المؤتمر انشأ لينين جناح زيمرفالد اليساري . بيد ان الحزب البلشفي وحده ، وعلى رأسه لينين ، كان يتخذ ، في جناح زيمرفالد اليساري هذا ، موقفاً صحيحاً ضد الحرب ، موقفاً يذهب حتى نتائجه النهائية . وقد اصدر جناح زيمرفالد اليساري ، مجلة « السبّاق » باللغة الالمانية ، فكانت مقالات لينين تنشر فيها .

وفي العام ١٩١٦ ،امكن عقد مؤتمر ثان للامميين في قرية كيانتال بسويسرا، وهو المؤتمر المعروف باسم مؤتمر زيمرفالد الثاني . وكانت قد ظهرت في ذلك الحين جماعات من الامميين في كل الاقطار تقريباً . فان انفصال العناصر الاممية عن الاشتراكيين الشوفينيين اصبح ادق واوضح . على ان الامر الاعظم شأناً هو ان الجماهير نفسها كانت قد تطورت اذ ذاك نحو اليسار تحت تأثير الحرب وما ولدته من مصائب . وكان بيان كيانتال نتيجة الاتفاق بين مختلف الكتل التي تجابهت في المؤتمر . وقد سجل هذا البيان خطوة الى امام بالنسبة لبيان زيمرفالد .

غير ان مؤتمر كيانتال نفسه ، لم يقر المبادىء الاساسية للسياسة البلشفية وهي : تحويل الحرب الاستعمارية الى حرب اهلية ، وانكسار كل من الحكومات الاستعمارية في الحرب ، وتأليف اممية ثالثة. الا ان مؤتمر كيانتال

---

١) : مكان في سويسرا. (هيئة التعريب)

ساعد على استخلاص العناصر الاممية التي الفت فيما بعد ، الاممية الثالثة ، الاممية الشيوعية .

وقد انتقد لينين اخطاء الامميين المتقلبين ، الاشتراكيين الديموقراطيين اليساريين ، امثال روزا لوكسمبورغ وكارل ليبنخت ، الا انه في الوقت نفسه ساعدهم على اتخاذ موقف صحيح .

•

٣ – نظرية الحزب البلشفي وخطته في قضايا الحرب والسلم والثورة

لم يكن البلاشفة مسالمين بسطاء ، يتلهفون على السلم مكتفين بالدعاية له ، كأكثرية الاشتراكيين الديموقراطيين اليساريين . كان البلاشفة يعلنون انهم من انصار نضال ثوري نشيط في سبيل السلم ، نضال يذهب الى حد القضاء على حكم البورجوازية الاستعمارية المثيرة للحرب . وكانوا يربطون قضية السلم بقضية انتصار الثورة البروليتارية ، معتبرين ان اضمن وسيلة لتصفية الحرب والحصول على سلم عادل ، سلم بدون الحاق وغرامات ، هي القضاء على حكم البورجوازية الاستعمارية .

وفي وجه ما ارتكبه المنشفيك والاشتراكيون الثوريون من جحود وانكار للثورة ، وفي وجه شعار الخيانة الداعي الى احترام « الاتحاد المقدس » اثناء الحرب ، وضع البلاشفة شعار **«تحويل الحرب الاستعمارية الى حرب اهلية»**. وكان معنى هذا الشعار ان من واجب الشغيلة ، بما فيهم العمال والفلاحون المسلحون واللابسون لباس الجندي ، ان يديروا اسلحتهم الى بورجوازيتهم نفسها وان يقلبوا حكمها ، اذا كانوا يريدون التخلص من الحرب والحصول على سلم عادل .

وفي وجه السياسة المنشفية والاشتراكية – الثورية ، سياسة الدفاع عن الوطن البورجوازي ، نادى البلاشفة بسياسة **«اندحار حكومتهم نفسها في الحرب الاستعمارية»**. وكان معنى ذلك وجوب التصويت ضد الاعتمادات

الحربية ، وانشاء منظمات ثورية لا شرعية في الجيش ، وتشجيع التآخي بين الجنود في الجبهة ، وتنظيم نضال العمال والفلاحين الثوري ضد الحرب ، وتحويل هذا النضال الى ثورة ضد حكومتهم الاستعمارية .

كان البلاشفة يعتبرون ان اهون الشرين على الشعب في الحرب الاستعمارية ، هو انكسار الحكومة القيصرية عسكريا ، ما دام هذا الانكسار يسهل انتصار الشعب على القيصرية ونضال الطبقة العاملة الظافر في سبيل تحررها من العبودية الرأسمالية ومن الحروب الاستعمارية . وكان لينين يعتبر ان ليس من واجب الثوريين الروس فحسب ، بل من واجب الاحزاب الثورية للطبقة العاملة في **جميع** الاقطار المتحاربة ، ان تنهج سياسة قوامها **اندحار** حكوماتها الاستعمارية .

لم يكن البلاشفة ضد **كل حرب** ، بل كانوا ضد حرب الفتح ، ضد الحرب الاستعمارية فقط . كانوا يعتبرون ان هناك نوعين من الحروب :

أ) : الحرب **العادلة** التي لا ترمي الى الالحاق ، الحرب التحريرية ، وهدفها اما الدفاع عن الشعب ضد عدوان من الخارج وضد المحاولات الرامية الى استعباده ، واما تحرير الشعب من العبودية الرأسمالية ، واما اخيرا تحرير المستعمرات والبلدان التابعة من نير المستعمرين .

ب) : الحرب **غير العادلة** ، حرب الالحاق ، وهدفها الاستيلاء على اقطار اخرى واستعباد شعوب اخرى .

وكان البلاشفة يؤيدون الحرب من النوع الاول . اما الحرب الاخرى ، فكان البلاشفة يعتبرون ان من الواجب توجيه نضال حازم ضدها ، نضال يذهب الى حد الثورة وقلب الحكومة الاستعمارية .

وكان للمؤلفات النظرية التي وضعها لينين في ايام الحرب ، اهمية عظمى للطبقة العاملة في العالم باسره . ففي ربيع عام ١٩١٦ كتب مؤلفه **الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية** . وهو كتاب اوضح فيه لينين ان الاستعمار هو المرحلة العليا للرأسمالية ، المرحلة التي تحولت فيها الرأسمالية من رأسمالية « تقدمية » — كما كانت قبلاً — الى رأسمالية طفيلية ، الى رأسمالية آخذة في التعفن ، فالاستعمار هو رأسمالية تحتضر . غير ان ذلك لم يكن يعني طبعاً ان

الرأسمالية ستضمحل من نفسها بدون ثورة البروليتاريا، او انها ستبلغ من نفسها غاية التفسخ وتنهار. لقد علّم لينين دائماً ان خلع الرأسمالية مستحيل بدون ثورة تنجزها الطبقة العاملة. ولذلك، بعدان عرّف لينين الاستعمار بانه رأسمالية تحتضر، بيّن في مؤلفه، في الوقت نفسه، ان «الاستعمار هو عتبة الثورة الاجتماعية للبروليتاريا».

أوضح لينين ان الاضطهاد الرأسمالي يزداد شدة في عهد الاستعمار، وان سخط البروليتاريا في ظروف الاستعمار يتعاظم بدون انقطـــاع ضد أسس الرأسمالية، وان عناصر الانفجار الثوري تتكاثر في داخل الاقطار الرأسمالية.

وبيّن لينين ان الازمة الثورية في الاقطار المستعمرة والتابعة تتفاقم في عهد الاستعمار، وان السخط على الاستعمار يشتد وينمو، وان عوامل حرب تحريرية ضد الاستعمار تتجمع وتتراكم.

واوضح لينين ان التفاوت في تطور الرأسماليـــة يستفحل في ظروف الاستعمار، كما تستفحل تناقضات الرأسماليـة، وان النضال في سبيل اسواق لتصدير البضائع والرساميل، وفي سبيل المستعمرات ومنابع المواد الاولية، يجعل من المحتم وقوع حروب استعمارية دورية في سبيل تقسيم العالم من جديد.

وبيّن لينين ان بنتيجة هذا التطور المتفاوت للرأسماليـــة تقع الحروب الاستعمارية التي تضعف قوى الاستعمار، وتجعل من الممكن صدع جبهـــة الاستعمار هناك حيث تبدو اكثر ضعفاً.

وعلى اساس ذلك كله، وصل الى الاستنتاج بان صدع الجبهة الاستعمارية وقطعها من قبل البروليتاريا في نقطة واحدة او عدة نقاط، هو شيء ممكن تماماً؛ وان انتصار الاشتراكية ممكن، بادىء الامر، في عدة بلدان او حتى في بلد واحد، وان انتصار الاشتراكية في جميع الاقطار في آن واحد مستحيل، بسبب تطور الرأسمالية المتفاوت. وان الاشتراكية ستنتصر اولا في بلد واحد او في عـــدة بلدان، بينما تبقى البلدان الاخرى مدة من الزمن، بلداناً بورجوازية.

وفيما يلي نص هذا الاستنتاج العبقري كما صاغه لينين في مقالين كتبهما خلال الحرب الاستعمارية :

اولا ــ « التفاوت في التطور الاقتصادي والسياسي هو للرأسمالية قانون مطلق ، وينتج من ذلك ان انتصار الاشتراكية ممكن ، بادىء الامر ، في عدد صغير من البلدان الرأسماليـــة او في بلد رأسمالي واحد . فالبروليتاريا المنتصرة في هذا البلد ، بعد ان تنزع عن الرأسماليين ملكيتهم وتنظم الانتاج الاشتراكي عندها ، تنهض ضد بقية العالم الرأسمالي ، جاذبة اليها الطبقات المظلومة في البلدان الاخرى... » (مقتطف من مقال « حول شعار الولايات المتحدة الاوروبية » المكتوب في آب ١٩١٥ ــ لينين ، المؤلفات المختارة ـ المجلد ١ ــ ص ٧٥٥) .

ثانياً ــ « ان تطور الرأسماليـــة يجري في مختلف الاقطار بصورة غير متساوية ، تتفاوت غاية التفاوت ، وليس من الممكن ان يكون الامر على غير ذلك في نظام الانتاج البضائعي . ومن هنا كانت هذه النتيجة التي تفرض نفسها بنفسها ، وهي ان الاشتراكية لا يمكن ان تنتصر في جميع البلدان في آن واحد. فهي ستنتصر اولا في بلد واحد او في عدة بلدان، بينما تبقى البلدان الاخرى مدة من الزمن بلداناً بورجوازية او ما قبل البورجوازية. وتؤدي هذه الوضعيـــة ، لا الى حدوث احتكاكات فحسب ، بل تؤدي ايضاً الى سعي بورجوازية البلدان الاخرى سعياً مباشراً الى سحق البروليتاريا المنتصرة في الدولة الاشتراكية ، وفي هذه الاحوال ، تصبح الحرب من قبلنا ، حرباً مشروعة وعادلة ، اذ تكون حرباً في سبيل الاشتراكية ، في سبيل تحرير الشعوب الاخرى من نير البورجوازية . » (مقتطف من مقال « البرنامج العسكري للثورة البروليتارية » ، خريف ١٩١٦ ــ لينين ، المؤلفات المختارة ـ المجلد ١ ــ ص ٨٨٦) .

كانت هذه نظرية جديدة ، نظرية كاملة عن الثورة الاشتراكية ، وعن امكان انتصار الاشتراكية في كل بلد على حدة، وعن شروط انتصارها ، وعن

آفاق انتصارها ، وهي نظرية كان لينين قد حدد اسسها منذ عام ١٩٠٥ في كراسه **خطتان للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الديموقراطية** .

كانت هذه النظرية تختلف اختلافاً عميقاً عن المفهوم الذي كان منتشراً بين الماركسيين في مرحلة الرأسمالية **ما قبل الاستعمارية** ، حين كان الماركسيون يعتبرون ان انتصار الاشتراكية مستحيل في بلد واحد ، وان الاشتراكية ستنتصر في جميع البلدان المتمدنة في آن واحد . فعلى اساس المعلومات البرهانية عن الرأسمالية **الاستعمارية** ، المفصلة في مؤلفه القيم **الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية** ، قلب لينين ذلك المفهوم من حيث انه مفهوم شاخ وفات اوانه ، وصاغ مفهوماً نظرياً جديداً اصبح ، بحسبه ، من المقرر ان انتصار الاشتراكية في جميع البلدان في آن واحـــد هو **مستحيل** ، وان من المحقق ان انتصار الاشتراكية في بلد رأسمالي واحد مأخوذ على حدة هو **ممكن** .

ان ما يجعل لنظرية لينين عن الثورة الاشتراكية قيمة لا تقدر ، ليس انها اغنت الماركسية بنظرية جديدة وطورتها الى امام فحسب ، فاهميتها هي في انها ايضاً تفتح امام البروليتاريين في مختلف البلدان آفاقاً ثورية ، وتحفز مبادرتهم الى شن الهجوم على بورجوازيتهم القومية ، وتعلمهم كيفية الاستفـــادة من ظروف الحرب لتنظيم هذا الهجوم ، وتوطد ايمانهم بانتصار الثورة البروليتارية.

هكذا كان المفهوم النظري والخططي للبلاشفة في قضايا الحرب والسلم والثورة .

وكان البلاشفة يقومون بنشاطهم العملي في روسيا ، مستنـــدين الى هذا المفهوم .

ومنذ بدء الحرب ، اخذ النواب البلاشفة في مجلس الدومـــا ، بادايف وبتروفسكي ومورانوف وصاموئيلوف وشاغوف ، بالرغم من الاضطهـــاد البوليسي الوحشي ، يطوفون على عدد من المنظمات لاجـــل شرح موقف البلاشفة من الحرب والثورة . وفي تشرين الثاني ١٩١٤ ، اجتمعت الكتلة البلشفية في دوما الدولة لمناقشة الموقف الواجب اتخاذه من الحرب . وفي اليوم

الثالث ، اعتقل جميع المشتركين في الاجتماع . وحكمت المحكمة على جميع النواب بحرمانهم حقوقهم المدنية وبنفيهم الى سيبيريا الشرقية. وقد وجهت اليهم الحكومة القيصرية تهمة «الخيانة العظمى».

وقد بينت المحاكمة مدى النشاط الذي قام به نواب الدوما ، وكان هذا النشاط عنوان شرف لحزبنا . ووقف النواب البلاشفة موقفاً جريئاً امام المحكمة القيصرية واستخدموها منبرا لفضح سياسة الفتح القيصرية .

اما كامينيف الذي شملته الدعوى نفسها ، فقد سلك مسلكاً آخر مختلفاً كل الاختلاف . فهو تجاه اول خطر ، تنكر ، عن خوف وجبن ، لسياسة الحزب البلشفي ، واعلن في المحاكمة انه غير متفق مع البلاشفة في قضية الحرب. ولاثبات ذلك طلب جلب المنشفيكي يوردانسكي كشاهد .

قام البلاشفة بعمل كبير موجه ضد لجان الصناعات الحربية ، وضد مساعي المنشفيك لاخضاع العمال لنفوذ البورجوازية الاستعمارية. لقد كان للبورجوازية مصلحة حيوية في ان تمثل الحرب الاستعمارية للجميع كأنها قضية الشعب باسره. وقد حصلت البورجوازية على نفوذ كبير في شؤون الدولة ، اذ انشأت منظمتها الوطنية الخاصة على نطاق روسيا كلها ،وهي : اتحادات «الزمستفو» (١) والمدن . وبقي عليها اخضاع العمال ايضاً لقيادتها ونفوذها . فتصورت وسيلة حسبتها صالحة لبلوغ مأربها ، هي انشاء «فرق عمال» الى جانب لجان الصناعات الحربية . فتبنى المنشفيك فكرة البورجوازية هذه. وكان للبورجوازيين مصلحة في اشراك ممثلي العمال في لجان الصناعات الحربية هذه ، لكي يقوموا بين جماهير العمال بالدعاية لتقوية انتاجية العمل في مصانع القنابل والمدافع والبنادق والرصاص وغيرها من المنشآت المشتغلة للدفاع . « كل شيء لاجل الحرب ، كل شيء لخدمة الحرب » : هكذا كان شعار البورجوازية . وهو شعار يعني في الحقيقة : « اغتن قدر استطاعتك من انتاج ادوات الحرب ومن الحاق اراضي الغير ». وقد ساهم المنشفيك بقسط كبير في هذا المشروع الوطني المزعوم ،

(١) – مجالس منطقية.

(هيئة التعريب)

الذي طلعت به البورجوازية . فجعلوا من انفسهم اعوانا للرأسماليين ، وراحوا يدعون العمال بحماسة الى الاشتراك في انتخاب «فرق العمال» . امـــا البلاشفة فكانوا ضد هذا المشروع ،ودعوا الى مقاطعة لجان الصناعات الحربية ، وحققوا هذه المقاطعة بنجاح . الا ان قسما من العمال اشترك ، مع ذلك ، في اعمال هذه اللجان ، تحت قيادة المنشفيكي المعروف كفوزديف والعميل الجاسوس ابروسيموف . ولما اجتمع مندوبو العمال ، في ايلول ١٩١٥ ، لمباشرة الانتخاب النهائي لـ «فرق العمال» في لجان الصناعات الحربية ، تبين ان معظم المندوبين هم ضد الاشتراك في اللجان ، فقد اتخذت اكثريتهم قرارا يشجب الاشتراك في لجان الصناعات الحربية ، ويعلن ان العمال يضعون امامهم مهمة النضـــال لاجل السلام ولاجل القضاء على القيصرية .

وقام البلاشفة بعمل هام في الجيش والاسطول . فكانوا يبينون لجماهير الجنود والبحارة من هم المسؤولون عـــن ويلات الحرب وآلام الشعب التي لم يسمع بمثلها ، ويوضحون لهم ان الثورة هي الوسيلة الوحيدة امـــام الشعب للتخلص من المجزرة الاستعمارية . وكان البلاشفة ينشئون خلايا (١) في الجيش والاسطول ، وفي جبهـات القتال وفي فصائل المؤخرة ، ويوزعون نـداءات ضد الحرب .

وفي قلعة كرونشتاد البحرية ، الف البلاشفة « الفرقة المركزية للمنظمة العسكرية في كرونشتاد » . وكانت متصلة اتصالا متيناً باللجنـــة الحزب في بتروغراد(٢)، والى جانب لجنة الحزب في بتروغراد انشئت منظمة عسكرية للعمـل بين جيوش الحامية .وقد كتب رئيس الاوخرانا في بتروغراد ، في آب ١٩١٦ ، تقريرا جاء فيه : « ان العمل في فرقة كرونشتاد منظم تنظيما جديا جدا ، وسريا . والمشتركون فيها هم جميعاً اناس صامتون متكتمون . ولهذه الفرقة ايضاً ممثلون على اليابسة » .

---

(١) : خلية : فرقة . (هيئة التعريب)

(٢): بتروغراد: هو الاسم الجديد الذي اطلق على مدينة بطرسبرج في عام ١٩١٤، وقد سميت بعد الثورة الاشتراكية لينينغراد. (هيئة التعريب)

وكان الحزب يقوم في الجبهة بالدعاية لاجل التآخي بين جنود الجيوش المتحاربة ، ويؤكد ان العدو هو البورجوازية العالمية ، وان ليس من الممكن انهاء الحرب الاستعمارية الا بتحويلها الى حرب اهلية ، وذلك بان يدير الجنود اسلحتهم الى صدر بورجوازيتهم وحكومتها . فتعددت الحالات التي كانت فيها هذه الوحدة العسكرية او تلك ترفض القيام بالهجوم . ووقعت حوادث من هذا النوع في عام ١٩١٥ ، وبوجه خاص في عام ١٩١٦ .

وقام البلاشفة بعمل كبير خصوصاً في جيوش الجبهة الشمالية التي كانت معسكرة في ولايات البلطيق. وفي اوائل عام ١٩١٧ ، قدم الجنرال روزكي ، القائد العام لجيش الجبهة الشمالية ، تقريرا الى رؤسائه عن النشاط الثوري الكبير الذي يقوم به البلاشفة في هذه الجبهة .

احدثت الحرب انعطافاً كبيراً في حياة الشعوب ، وفي حياة الطبقة العاملة العالمية . فقد وضعت في الميزان مقدرات الدول ، ومصير الشعوب ، ومصير الحركة الاشتراكية . ولذلك كانت في الوقت نفسه محكا ، وتجربة ، لكل الاحزاب وكل التيارات التي كانت تسمي نفسها اشتراكية . أتبقى هذه الاحزاب وهذه التيارات امينة لقضية الاشتراكية ، لقضية الاممية ، ام انها ستفضل خيانة الطبقة العاملة وتطوي اعلامها وتلقيها على اقدام بورجوازيتها القومية ؟ كانت المسألة موضوعة على هذا الشكل .

وقد اظهرت الحرب ان احزاب الاممية الثانية لم تستطع الصمود امام التجربة ، وانها خانت الطبقة العاملة وأحنت اعلامها امام بورجوازيتها القومية ، بورجوازيتها الاستعمارية .

وكيف كان من الممكن ان تسلك هذه الاحزاب غير هذا السلوك ، وهي التي كانت تزرع الانتهازية في صفوفها ، وهي التي كانت متقفة بروح التنازل للانتهازيين والقوميين ؟

لقد اظهرت الحرب ان الحزب البلشفي هو الحزب الوحيد الذي اجتاز

التجربة بشرف وبقي اميناً الى النهاية لقضية الاشتراكية ، لقضية الاممية البروليتارية .

وهو امر مفهوم : اذ لم يكن من الممكن ان يجتاز التجربة الكبرى ، ويبقى اميناً لقضية الطبقة العاملة ، لقضية الاشتراكية والاممية ، الا حزب من طراز جديد ، حزب تربى على روح النضال الحازم ضد الانتهازية ، حزب متحرر من الانتهازية والتعصب القومي .

وكان هذا الحزب ، هو الحزب البلشفي .

•

٤ – اندحار الجيش القيصري في الجبهة – الخراب الاقتصادي – ازمة القيصرية

كانت الحرب في عامها الثالث ، وكانت تخطف ملايين النفوس البشرية من قتلى وجرحى ومن ضحايا الاوبئة التي ولدتها الحرب . وكانت البورجوازية وكبار ملاكي الاراضي يثرون ويغتنون ، بينما يزداد على العمال والفلاحين البؤس والحرمان . وقد عصفت الحرب بالاقتصاد الوطني الروسي وخربته . فان حوالي ١٤ مليونا من اصحاء الشغيلة سحبوا من الانتاج والحقوا بالجيش ، وتوقفت المصانع والمعامل . وتناقصت المساحات المزروعة قمحاً بسبب قلة السواعد . كان السكان وجنود الجبهة جائعين ، وبلا احذية وملابس . لقد كانت الحرب تبتلع جميع موارد البلاد .

وكان الجيش القيصري يلقى الهزيمة بعد الهزيمة . والمدفعية الالمانية تصب وابلاً من القنابل على الجيوش القيصرية التي كانت تنقصها المدافع والقنابل ، وحتى البنادق . فيحدث ان لا يكون لثلاثة رجال سوى بندقية واحدة . وفي معمعان الحرب ، اكتشفت خيانة وزير الحربية سوخوملينوف ، الذي تبين انه على اتصال بالجواسيس الالمان . فكان سوخوملينوف يعرقل تموين الجبهة بالذخائر ويتركها بلا مدافع ولا بنادق ، تنفيذاً للاوامر التي كان يتلقاها

من مصالح الجاسوسية الالمانية. وكان الكثيرون من وزراء القيصر وجنرالاته يساهمون سراً في نجاحات الجيش الالماني، فينقلون اليه الاسرار الحربية بالاتفاق مع القيصرة التي كانت على صلة بالالمان. فلم يكن من الغريب اذن ان يلقى الجيش القيصري الهزائم وان يضطر الى التراجع. فنحو عام ١٩١٦ كان الالمان قد استولوا على بولونيا وعلى قسم من ولايات البلطيق.

كانت جميع هذه الحوادث تثير حقد العمال والفلاحين والجنود والمثقفين وغضبهم على الحكومة القيصرية، وتقوي الحركة الثورية بين الجماهير الشعبية ضد الحرب وضد القيصرية وتزيدها تفاقماً، سواء في المؤخرة ام في الجبهة، وفي وسط البلاد ام في اطرافها.

واخذ الاستياء يشمل ايضاً البورجوازية الاستعمارية الروسية. اذ كان يثير سخطها وغضبها ان ترى مشعوذين أفاكين، من طراز راسبوتين، يسيطرون اسياداً في البلاط الامبراطوري، ويسعون جهاراً الى عقد صلح منفرد مع الالمان. وكانت تزداد اقتناعاً يوماً عن يوم بان الحكومة القيصرية عاجزة عن قيادة الحرب الى الظفر، وتخشى ان تقبل القيصرية، لاجل انقاذ اوضاعها، بعقد صلح منفرد مع الالمان. ولذا قررت البورجوازية الروسية ان تقوم بانقلاب في القصر الامبراطوري، فتخلع القيصر نقولا الثاني وتنصب مكانه قيصراً مرتبطاً بالبورجوازية، هو ميشيل رومانوف. وكانت تمني نفسها، من وراء ذلك، باصابة عصفورين بحجر واحد: اولا، التسلل الى الحكم وضمان متابعة الحرب الاستعمارية، ثانياً، استدراك هجوم الثورة الشعبية الكبرى، التي كانت تتصاعد موجاتها، بانقلاب صغير داخل القصر الامبراطوري.

وكانت البورجوازية الروسية تلقى في هـذا المشروع التأييد التام من الحكومتين الانكليزية والفرنسية، اذ كانتا تريان ان القيصر عاجز عن متابعة الحرب، وتخشيان ان ينتهي به الامر الى عقد صلح منفرد مع الالمان. واذا عقدت الحكومـة القيصرية صلحاً منفرداً، فان حكومتي انكلترا وفرنسا، بفقدهما روسيا، تفقدان حليفاً في الحرب لا يقتصر دوره على اجتذاب قوى

العدو نحو جبهاته فحسب ، بل يقدم إيضاً الى فرنسا عشرات الالوف من خيرة الجنود الروسيين . ولهذا كانتا تساعدان البورجوازية الروسية في مساعيها للقيام بانقلاب في القصر .

وهكذا اصبح القيصر في عزلة .

وفي الوقت الذي كانت فيه المصائب تتوالى في الجبهـــة ، كان الخراب الإقتصادي يتفاقم . ففي ايام كانون الثاني وشباط ١٩١٧ ، بلغت ازمة المواد الغذائية والمواد الاوليـة والوقود اقصى حدتها . ووقف وقوفاً تاماً تقريباً شحن المواد الغذائية الى بتروغراد وموسكو . واخذت المؤسسات الصناعية تغلق ابوابها الواحدة بعد الاخرى ، فتزيد في انتشار البطالة . واصبحت حالة العمال بوجه خاص ، لا تطاق . واخذت جماهير شعبية اعمق فاعمق ، تقتنع بان ليس لهذه الحالة غير المحتملة الا مخرج واحد ، هو القضاء على الاوتوقراطية القيصرية .

كان جلياً ان القيصرية تجتاز ازمة مميتة.

وقد فكرت البورجوازية في حل الازمة بانقلاب في القصر .

الا ان الشعب حلّها على طريقته هو .

•

٥ ــ ثورة شباط ــ سقوط القيصرية ــ انشاء المجالس السوفياتية لنواب العمال والجنود ــ تأليف الحكومة الموقتة ــ الازدواج في السلطات .

بدأ العام ١٩١٧ باضراب ٩ كانون الثاني . وجرت خلال هذا الاضراب مظاهرات في بتروغراد ، وموسكو ، وباكو ، ونيجني ــ نوفغورود . وتجب الاشارة الي ان ما يقرب من ثلث العمال جميعاً في موسكو ، اشتركوا في الاضراب يوم ٩ كانون الثاني . وجرت مظاهرة من الفي شخص في شارع تفيرسكوي فرقتها الشرطة الخيالة . وفي بتروغراد انضم الجنود الى المتظاهرين

في شارع فيبورغ .

وقد كتبت شرطة بتروغراد في تقريرها : « ان فكرة الاضراب العام تكسب كل يوم انصاراً جدداً . انها تصبح شعبية كما صارت في عام ١٩٠٥ » .

وكان المنشفيك والاشتراكيون الثوريون يبذلون جهدهم لادخال الحركة الثورية التي انطلقت شرارتها ، في النطاق الذي تريده البورجوازية الحرة . وعند افتتاح دوما الدولة في ١٤ شباط ، اقترح المنشفيك تنظيم موكب من العمال يتجه نحو الدوما . الا ان جماهير العمال تبعت البلاشفة ، وعوضاً عن الذهاب الى الدوما ، راحت تتظاهر .

في ١٨ شباط ١٩١٧ ، انفجر في بتروغراد اضراب معمل بوتيلوف ، وفي ٢٢ شباط انضم الى الحركة عمال اكثر المشروعات الكبرى . وفي ٢٣ شباط (٨ اذار) ، وهو يوم النساء الاممي ، نزلت العاملات الى الشوارع ، تلبية لنداء اللجنة البلشفية في بتروغراد ، للتظاهر ضد المجاعة والحرب والقيصرية . ودعمت هذه المظاهرة حركة اضرابية عامة من عمال بتروغراد ، فتحول الاضراب السياسي الى مظاهرة سياسية عامة ضد النظام القيصري .

وفي ٢٤ شباط (٩ اذار) ، تضاعفت المظاهرة قوة ، وبلغ عدد العمال المضربين هذه المرة ٢٠٠ الف .

وفي ٢٥ شباط (١٠ اذار) ، امتدت الحركة الثورية الى جميع عمال بتروغراد . وتحولت الاضرابات السياسية في مختلف الاحياء الى اضراب سياسي عام في المدينة باسرها . ففي كل مكان مظاهرات واشتباكات ، وفوق رؤوس الجماهير المتظاهرة تخفق اعلام حمراء تحمل هذه الشعارات : «ليسقط القيصر !» «لتسقط الحرب !» ، «نريد خبزاً !» .

وفي صبيحة ٢٦ شباط (١١ اذار) ، اخذ الاضراب السياسي والمظاهرة يتحولان الى محاولات لثورة مسلحة . فقد راح العمال ينزعون سلاح البوليس والدرك ، ويتسلحون هم انفسهم . الا ان الاصطدام المسلح مع الشرطة في ساحة زنامنسكايا انتهى باطلاق الرصاص على المظاهرة .

وانذر الجنرال خابالوف ، قائد منطقة بتروغراد العسكرية ، العمال بوجوب استئناف العمل في ٢٨ شباط(١٣ اذار) ، والا ارسلوا الى الجبهة. وفي ٢٥ شباط (١٠ اذار) ، ابلغ القيصر الجنرال خابالوف : «انني آمر بوقف الاضطرابات في العاصمة منذ الغد» .

ولكن اصبح من غير الممكن «وقف» الثورة !

ففي نهار ٢٦ شباط (١١ اذار) ، قامت السرية الرابعة للفوج الاحتياطي التابع لفيلق بافلوسكي ، باطلاق النار ، لا على العمال ، بل على فصائل الشرطة الخيالة التي كانت تتبادل اطلاق الرصاص مع العمال . وهكذا احتدم النضال شديدا عنيدا في سبيل اكتساب تأييد الجيش ، خصوصاً من جانب العاملات اللواتي كن يستصرخن الجنود مباشرة ، ويتآخين معهم ، ويدعونهم الى مساعدة الشعب على قلب الاوتوقراطية القيصرية البغيضة .

اما النشاط العملي للحزب البلشفي ، فكان يقوده مكتب اللجنة المركزية لحزبنا ، الموجود آنذاك في بتروغراد ، وعلى رأسه الرفيق مولوتوف . وفي ٢٦ شباط (١١ اذار) ، اذاع مكتب اللجنة المركزية بيانا يدعو الى متابعة النضال المسلح ضد القيصرية ، والى انشاء حكومة ثورية موقتة .

في ٢٧ شباط (١٢ اذار) ، رفضت القوات العسكرية في بتروغراد اطلاق النار على العمال وانتقلت الى جانب الشعب الثائر . ولم يكن عدد الجنود الثائرين يتجاوز في الصباح ١٠ الاف ، فاصبح في المساء اكثر من ٦٠ الفاً .

وشرع العمال والجنود الثائرون يعتقلون الوزراء والجنرالات القيصريين ، ويطلقون سراح الثوريين المسجونين ، فلا يكاد المعتقلون السياسيون يستعيدون حريتهم حتى ينضموا الى النضال الثوري .

وكان تبادل اطلاق الرصاص في الطرقات مستمرا مع رجال الشرطة والدرك الذين ركزوا المدافع الرشاشة في عنابر المنازل . الا ان انتقال الجيش سريعاً الى جانب العمال قرر مصير الاوتوقراطية القيصرية .

ولما وصل نبأ الثورة الظافرة في بتروغراد الى المدن الاخرى والى الجبهة

اخذ العمال والجنود يعزلون الموظفين القيصريين في كل مكان .

هكذا انتصرت ثورة شباط الديموقراطية البورجوازية.

وقد انتصرت لان محركتها كانت الطبقة العاملة التي ترأست حركة ملايين الفلاحين، المتجلببين بلباس الجندي، في سبيل «السلام والخبز والحرية». فزعامة البروليتاريا هي التي قادت الثورة الى النجاح .

« ان البروليتاريا هي التي قامت بالثورة: هي التي قدمت برهان البطولة، وجادت بدمها ، وجرّت وراءها اوسع جماهير الشغيلة والسكان الفقراء » ، _ هذا ما كتبه لينين في الايام الاولى من الثورة (لينين : المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ _ ص ٢٣ _ ٢٤ ، الطبعة الروسية) .

ان ثورة ١٩٠٥ الاولى كانت قد هيأت الانتصار السريع للثورة الثانية، عام ١٩١٧ . وقد قال لينين في هذا الصدد :

«لو لم تقم البروليتاريا الروسية خلال ثلاث سنوات ، من ١٩٠٥ الى ١٩٠٧ ، باعظم المعارك الطبقية حيث بسطت نشاطها الثوري الى مداه ، لما كانت الثورة الثانية اسرعت بهذا المقدار ، بمعنى ان مرحلتها **البدائية** ما كانت لتتم خلال بضعة ايام » (المرجع ذاته _ الصفحة ١٣)

ظهرت مجالس السوفيات منذ الايام الاولى للثورة. والى تلك المجالس ، التي انشأها العمال والجنود الثائرون ، استندت الثورة الظافرة . كانت ثورة ١٩٠٥ قد بينت ان مجالس السوفيات هي هيئات الثورة المسلحة ، وانها في الوقت نفسه نواة حكم جديد ثوري ، وكانت فكرة مجالس السوفيات حية في نفوس جماهير العمال ، فحققوها غداة قلب القيصرية مع هذا الفارق وهو ان مجالس السوفيات عام ١٩٠٥ كانت تضم نواب **العمال** فحسب ، اما في شباط ١٩١٧ ، فقد تألفت بمبادرة البلاشفة مجالس سوفياتية لنواب **العمال والجنود** .

وبينما كان البلاشفة ينهضون مباشرة بعبء القيادة في نضال الجماهير في الشارع ، كان الحزبان التفاهميان ، حزب المنشفيك والحزب الاشتراكي الثوري ، يستوليان على مقاعد النيابة في مجالس السوفيات ، ويضمنان لنفسها

الاكثرية فيها. ومما ساعد على ذلك، الى حد ما، أن اكثرية زعماء الحزب البلشفي كانوا في السجن او في المنفى (كان لينين في الغربـــة، وستالين وسفردلوف منفيين الى سيبيريا)، في حين ان المنشفيك والاشتراكيين الثوريين يروحون ويغدون بكل حرية في شوارع بتروغراد. وهكذا تسنم ممثلو الحزبين التفاهميين المنشفيك والاشتراكيين الثوريين، مقاعد الرئاسة في سوفيات بتروغراد وفي لجنته التنفيـــذية. وحدث مثل ذلك ايضاً في موسكو وعدة مدن اخرى. ولم يحصل البلاشفة على الاكثرية في مجالس السوفيات منذ البداية، الا في ايفانوفو ـ فوزنيسانسك وكراسنويارسك وبضع مدن اخرى.

وكان الشعب المسلح، العمال والجنود، بإيفادهم ممثليهم الى مجالس السوفيات، ينظرون اليها على انهـــا هيئة الحكم الشعبي. وكانوا يعتبرون، بل كانوا مقتنعين، أن المجالس السوفياتية لنواب العمال والجنود ستحقق مطالب الشعب الثورية، وان الصلح سيعقد قبل كل شيء آخر.

الا ان طيبة العمال والجنود المتناهية لم تلبث ان عادت عليهم بنتائج مزعجة. فان الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك لم تكن تخطر لهم ببال فكرة وضع حد للحرب، والحصول على السلام. بل كانوا عازمين على الاستفادة من الثورة لمتابعة الحرب. اما فيما يتعلق بالثورة ومطالب الشعب الثورية، فان الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك كانوا يعتبرون ان الثورة قد انتهت، ولم يبق سوى توطيدها، والدخول في طريق تعايش «عادي»، دستوري، مع البورجوازية. ولذلك اتخذت القيادة الاشتراكية الثورية والمنشفيكية، في سوفيات بتروغراد، كل ما بوسعها من تدابير لطمس قضية وقف الحرب وقضية السلام، ولتسليم الحكم الى البورجوازية.

وفي ٢٧ شباط (١٢ اذار) ١٩١٧، عمد النواب الاحرار (١) في دوما الدولة، بعد ما اتفقوا بين الكواليس مع الزعماء الاشتراكيين الثوريين

---

(١) الاحرار : الليبراليون. (هيئة التعريب)

والمنشفيك ، الى تأليف اللجنة الموقتة لدوما الدولة ، وعلى رأسها رئيس الدوما الرابعة ، رودزيانكو ، الذي كان من كبار ملاكي الاراضي ومن انصار النظام الملكي . وبعد بضعة ايام ، اتفقت اللجنة الموقتة مع الزعماء الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك الموجودين في اللجنة التنفيذية لسوفيات العمال والجنود ، بدون علم البلاشفة ، على تأليف حكومة جديدة لروسيا : هي الحكومة البورجوازية الموقتة ، وعلى رأسها الامير لفوف ، الذي كان القيصر نقولا الثاني ، قبل ثورة شباط ، يفكر بجعله وزيره الاول . وكانت الحكومة الموقتة تضم زعيم حزب الكاديت ، ميليوكوف ، وزعيم الاوكتوبريين ، غوتشكوف ، وممثلين آخرين نافذين لطبقة الرأسماليين. وقد أُدخل الاشتراكي الثوري كرنسكي ، في هذه الحكومة ، كممثل لـ « الديموقراطية » .

هكذا سلم الزعماء الاشتراكيون الثوريون والمنشفيك في اللجنة التنفيذية للسوفيات ، الحكم الى البورجوازية . ولما أُطلع سوفيات العمال والجنود على الواقع ، وافق باكثريته على نشاط الزعماء الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك ، بالرغم من احتجاجات البلاشفة .

وعلى هذه الصورة ، انشئت في روسيا السلطة الجديدة للدولة ، المؤلفة – كما قال لينين – من ممثلي «البورجوازية وكبار ملاكي الاراضي المتبرجزين » .

ولكن كان الى جانب الحكومة البورجوازية ، سلطة اخرى . هي سوفيات نواب العمال والجنود . وكان نواب الجنود مؤلفين بصورة رئيسية من فلاحين مجندين . فكان سوفيات نواب العمال والجنود هو هيئة التحالف بين العمال والفلاحين ضد السلطة القيصرية ، وفي الوقت نفسه ، هيئة سلطة العمال والفلاحين انفسهم ، هيئة ديكتاتورية الطبقة العاملة والفلاحين .

فنشأ عن ذلك تشابك طريف بين السلطتين ، بين الديكتاتوريتين : ديكتاتورية البورجوازية الممثلة في الحكومة الموقتة ، وديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الممثلة في سوفيات نواب العمال والجنود .

كان هنالك ازدواج في السلطات .

كيف نفسر كون المنشفيك والاشتراكيين الثوريين اصبحوا ، في البداية ، اكثرية في مجالس السوفيات ؟

كيف نفسر تسليم العمال والفلاحين المنتصرين ، باختيارهم ، زمام السلطة الى ممثلي البورجوازية .

كان لينين يفسر ذلك بالامر التالي : وهو ان ملايين من الناس الذين لم يألفوا ممارسة السياسة من قبل ، فتحوا اعينهم على السياسة ، وشعروا بانفسهم منجذبين اليهـا . وكان اكثر هؤلاء من صغار المستثمرين ، ومن فلاحين ، ومن عمال كانوا الى امد غير بعيد فلاحين ، اي من اناس يحتلون مكاناً وسطاً بين البورجوازية والبروليتاريا . فقد كانت روسيا في ذلك الحين ، بين جميع الاقطـار الاوروبية الكبرى ، القطر المميز بصبغته البورجوازية الصغيرة البارزة . وفي هذا القطر « نهضت موجة بورجوازية صغيرة اغرقت كل شيء ، وطحنت البروليتاريا الواعية لا بعددها وحسب ، بل بعقليتها ايضاً ، اي انها أعدت اوساطاً واسعة من العمال بنقلها اليهم مفاهيمها ــ مفـاهيم البورجوازية الصغيرة ، في السياسة » . (لينين : المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، صفحة ١١٥ ــ الطبعة الروسية) .

ان هذه الموجة من عنصر البورجوازية الصغيرة ، هي التي رفعت الى فوق ، حزبي البورجوازية الصغيرة ، المنشفيكي والاشتراكي الثوري .

وأورد لينين ايضاً سبباً آخر ، هو التغير الذي طرأ عـلى تركيب البروليتاريا خلال الحرب ، وعدم كفاية درجة الوعي والتنظيم لديها في بداية الثورة . ففي اثناء الحرب ، حدثت تغييرات هامة في البروليتاريا نفسها ، فان ما يقرب من ٤٠ بالمئة من ملاكات العمال ضموا الى الجيش ، بينما تسرب عدد كبير من صغار الملاكين والصناع واصحاب الدكاكين ، الغرباء عن عقليـة البروليتاريا ، الى المعامل فراراً من التجنيد .

وهذه العناصر من البورجوازية الصغيرة في دنيا العمال ، هي التي كانت تؤلف التربة التي استمد منها ساسة البورجوازية الصغيرة ، المنشفيـك

والاشتراكيون الثوريون ، غذاءهم .

لهذا السبب وقعت ، في الشهور الاولى للثورة ، الجماهير الشعبية الواسعة التي لم تألف ممارسة السياسة ، والتي طغت عليها موجة العنصر البورجوازي الصغير ، واسكرتها الانتصارات الاولى للثورة ، وقعت تحت تأثير احزاب التفاهم. ولهذا السبب رضيت هذه الجماهير بالتخلي للبورجوازية عن سلطة الدولة ، لظنها ، في حسن نيتها ، ان السلطة البورجوازية لن تضايق نشاط مجالس السوفيات .

فكان امام الحزب البلشفي مهمة العمل ، بصبر وأناة ، لايضاح الحالة امام الجماهير ، فيرفع القناع عن الصبغة الاستعمارية للحكومة المؤقتة ، ويفضح خيانة الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك ، ويبين بانه ليس من الممكن الحصول على السلام الا بان تحل حكومة السوفيات محل الحكومة المؤقتة .

وقد انكب الحزب البلشفي على اداء هذه المهمة باعظم ما يمكن من النشاط والعزم .

فأعاد تنظيم صحافته العلنية . فلم تمض خمسة ايام على ثورة شباط ، حتى صدرت جريدة **البرافدا** في بتروغراد. وبعد بضعة ايام اخرى ، صدرت جريدة **الاشتراكي الديموقراطي** في موسكو . وسار الحزب على رأس الجماهير التي اخذت تفقد ثقتها بالبورجوازية الحرة ، والمنشفيك والاشتراكيين الثوريين ، واخذ يوضح للجنود ، وللفلاحين ، بصبر كبير ، ضرورة القيام بعمل مشترك مع الطبقة العاملة ، مبيناً لهم ان الفلاحين لن يحصلوا لا على السلام ، ولا على الارض اذا لم تتابع الثورة تطورها ، واذا لم تحل حكومة السوفيات محل الحكومة البورجوازية الموقتة .

الخلاصة

نشبت الحرب الاستعمارية بسبب التفاوت في تطور الاقطار الرأسمالية ، بسبب انقطاع التوازن بين الدول الرئيسية ، بسبب اقتناع الرأسماليين بضرورة تقسيم جديد للعالم ، بواسطة الحرب ، وايجاد توازن جديد بين القوى .

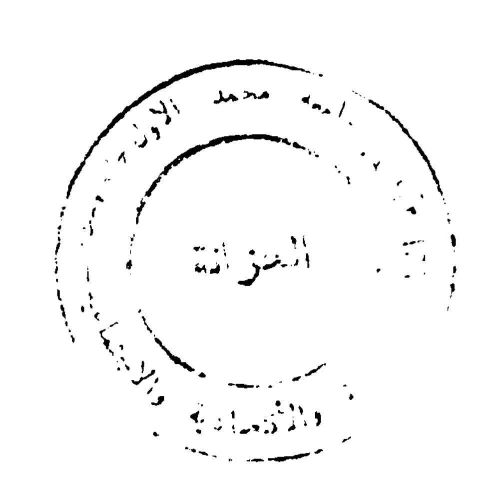
وما كانت الحرب لتكون لها القوة الهدامة ، بل ربما ما كانت سارت بذلك العنف ، لو ان احـزاب الاممية الثانية لم تخن قضية الطبقة العاملة ولم تنقض قرارات مؤتمرات الاممية الثانية ضد الحرب ، ولو انها قررت ان تقف هي ، وان تُنهض الطبقة العاملة ضد الحكومات الاستعمارية ، ضد مثيري الحرب.

وكان الحزب البلشفي الحزب البروليتاري الوحيد الذي بقي أميناً لقضية الاشتراكية والاممية ، واثار الحرب الاهلية ضد حكومته الاستعمارية . اما سائر احزاب الاممية الثانية ، التي كانت ، بواسطة فئاتهـا القائـدة ، مرتبطة بالبورجوازية ، فانهـا وجدت نفسها تحت نفوذ الاستعمار ، وانضمت الى المعسكر الاستعماري .

ان الحرب التي كانت نتيجة للأزمة العامـة للرأسمالية ، زادت في خطورة هذه الازمة واضعفت الرأسمالية العالمية . وكان عمال روسيا والحزب البلشفي اول مـن عرفوا ، في العالم ، كيف يستغلون ضعف الرأسمالية ، ويخرقون جبهة الاستعمار ، ويقلبون القيصر ، ويخلقون المجالس السوفياتية لنواب العمال والجنود .

ان الجماهير الواسعة من البورجوازيين الصغار ، والجنود ، وكذلك من العمال وثقوا بالحكومـة الموقتة وايدوها ، اذ اسكرتهم الانتصارات الاولى للثورة ، واطمأنوا لوعود المنشفيك والاشتراكيين الثوريـين ، الذين كانوا يزعمون ان كل شيء سيسير بعد الان على ما يرام .

فكانت مهمة الحزب البلشفي ان يوضح لجماهير العمال والجنود ، السكارى بنشوة الانتصارات الاولى ، انهم لا يزالون بعيدين عن الانتصار التام للثورة ، وان السلطة ما دامت في ايدي الحكومة البورجوازية الموقتة ، وما دام انصار التفاهم ، المنشفيك والاشتراكيون الثوريون ، سائدين في المجالس السوفياتية ، فان الشعب لن يحصل لا على السلام ، ولا على الارض ، ولا على الخبز ، وان من الضروري ، لاجل الانتصار نهائياً ، القيام بخطوة اخرى الى امام ، وتسليم السلطة الى مجالس السوفيات .



الفصل السابع

حزب البلاشفة في مرحلة التهيئة لثورة اوكتوبر الاشتراكية وانجازها
(نيسان ١٩١٧ ــ ١٩١٨)

•

١ ـ الحالة في البلاد بعد ثورة شباط ـ خروج الحزب من الوضع السري وانتقاله الى العمل السياسي العلني ـ وصول لينين الى بتروغراد ـ موضوعات لينين في نيسان ـ اتجاه الحزب نحو الانتقال الى الثورة الاشتراكية.

كانت الحوادث ، ومسلك الحكومة الموقتة ، تؤكد كل يوم اكثر فاكثر صحة خطة البلاشفة ، وتبين بوضوح متعاظم ان الحكومة الموقتة ليست مع الشعب بل ضده ، وليست مع السلم بل مع الحرب ، وانها لا تريد ولا تستطيع ان تعطي لا السلام ولا الارض ولا الخبز. وكان عمل البلاشفة لايضاح الموقف يجد تربة صالحة .

ففيما كان العمال والجنود يسقطون الحكومة القيصرية ، ويدكون الملكية حتى جذورها ، كانت الحكومة الموقتة تميل ميلا واضحاً الى الابقاء على الملكية. وفي ٢ آذار ١٩١٧ ارسلت الى القيصر سرا رسولين هما غوتشكوف وشولغين . لقد كان في نية البورجوازية تسليم مقاليد

السلطة الى ميشيل، شقيق نقولا رومانوف (١). ولكن حين صاح غوتشكوف، مختتما خطابا القاه في اجتماع لعمال سكة الحديد: «عاش الامبراطور ميشيل!» طالب العمال باعتقـال غوتشكوف على الفور وتفتيشه، وهم يرددون، بغضب، المثل القائل: «الفجل البري ليس احلى مذاقاً من الفجل الاسود».
كان من الواضح ان العمال لن يسمحوا ببعث المَلَكية.

وفيما العمال والفلاحون، الذين قاموا بالثورة وسفكوا دمهم من اجلها، ينتظرون وضع حد للحرب، ويطالبون بالخبز والارض، ويلحون في اتخاذ تدابير حاسمة للنضال ضد الخراب الاقتصادي كانت الحكومة المؤقتة تصم اذنيها عن هذه المطالب الشعبية الحيوية. ذلك انها، وهي المؤلفة من ابرز ممثلي الرأسماليين وكبار ملاكي الاراضي، ما كان ليخطر لها حتى في بال ان تلبي مطلب الفلاحين بتسليمهم الارض، كما انها ما كانت تستطيع اعطاء الشغيلة خبزا، اذ كان ذلك يقتضي المساس بمصالح كبار تجار القمح، ولستعمال كل الوسائل لاخذ القمح من كبار ملاكي الاراضي والكولاك، وهو امر ما كانت لتجرؤ عليه، لانها كانت هي نفسها مرتبطة بمصالح هذه الطبقات. ولم يكن في وسعها كذلك ان تحقق السلم. فان ارتباطها بالاستعماريين الانكليز والفرنسيين كان يجعلها بعيدة عن التفكير في انهاء الحرب، وتسعى على العكس الى استغلال الثورة لاشراك روسيا في الحرب الاستعمارية اشراكا اوسع وانشط، بغية تحقيق مراميها الاستعمارية، وهي الاستيلاء على استنبول والمضايق، وكذلك على غاليسيا.

كان من الواضح ان ثقة الجماهير الشعبية في سياسة الحكومة المؤقتة ستزول وتنتهي في يوم قريب.

واتضح تماما ان ازدواج السلطة الذي نشأ بعد ثورة شباط، لم يعـد من الممكن ان يدوم طويلا، لان سير الحوادث كان يقتضي بتمركز السلطة في نقطة واحدة: اما في يد الحكومة، واما في يد مجالس السوفيات.

(١) القيصر المعزول. (هيئة التعريب)

صحيح ان سياسة التفاهم ، سياسة المنشفيك والاشتراكيين الثوريين ، كانت لا تزال تلقى تأييدا بين الجماهير الشعبية . فقد كان عدد غير قليل من العمال ، وعدد اكبر من الجنود والفلاحين ، لا يزالون يؤمنون بان « المجلس التأسيسي سيأتي قريبا فيسوي كل شيء على احسن وجه » ، ويعتقدون ان الحرب لم تكن تجري من اجل الفتح ، بل هي الضرورة فرضتها للدفاع عن الدولة . وكان لينين يسمي هؤلاء الناس «دفاعيين» (١) منخدعين عن حسن نية ، اذ كانوا لا يزالون يعتبرون ان سياسة الوعود والمواعظ التي يسير عليها المنشفيك والاشتراكيون الثوريون ، هي سياسة صحيحة . ولكن كان من الواضح ان عمر هذه الوعود وهذه المواعظ ليس طويلا ، لان سير الحوادث وسلوك الحكومة الموقتة اصبحا يبينان ويبرهنان كل يوم ان السياسة التفاهمية التي يسير عليها الاشتراكيون الثوريون والمنشفيك هي سياسة مماطلة وتغرير بالسذج من الناس .

ولم تكن الحكومة الموقتة تقتصر دائماً على سياسة النضال الخفي ضد حركة الجماهير الثورية ، سياسة التآمر على الثورة بين «الكواليس» ، بل كانت تلجأ احياناً الى محاولات للقيام بهجوم مكشوف على الحريات الديموقراطية ، ومحاولات «لاعادة الطاعة الى نصابها» خصوصاً بين الجنود ، ومحاولات «لاقرار النظام» اي لادخال الثورة في الاطار الذي تريده البورجوازية . ولكنها ، رغم جهودها في هذا السبيل ، لم تتمكن من بلوغ مراميها ، فكانت الجماهير تحقق الحريات الديموقراطية وتمارسها بحرارة : حرية الكلام ، والصحافة ، والجمعيات ، والاجتماع ، والتظاهر . واصبح العمال والجنود لا يألون جهداً في الاستفادة على اوسع وجه من الحقوق الديموقراطية التي فازوا بها للمرة الاولى ، للاشتراك بنشاط في حياة البلاد السياسية ، ولفهم الحالة الجديدة فهما عميقاً وتقرير السلوك

---

(١) : دفاعيون : هي تعريب لكلمة «اوبورونتسه» الروسية وكانت تطلق في روسيا خلال حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، على الاشتراكيين المناصرين للحرب الاستعمارية .

(هيئة التعريب)

الواجب انتهاجه .

ان منظمات الحزب البلشفي التي عملت بصورة غير مشروعة في ظروف القيصرية القاسية ، خرجت بعد ثورة شباط ، من الوضع السري وصارت تقوم بعمل سياسي وتنظيمي مكشوف . وكان عـــدد اعضاء المنظمات البلشفية لا يتجاوز في ذلك الوقت ٤٠ او ٤٥ الفاً. غير انهم كانوا ملاكات تمرست بالنضال. وقد اعيد تنظيم لجان الحزب وفق قواعد المركزية الديموقراطية ، واصبحت كل هيئات الحزب ، من القاعدة الى القمة ، تؤلف بطريق الانتخاب.

ان انتقال الحزب الى الوضع المشروع ، كشف عـــن الاختلافات التي كانت موجودة في قلبه . فان كامينيف وبعض مناضلي منظمة موسكو ، مثل ريكوف وبوبنوف ونوغين ، اتخذوا موقفـــاً نصف منشفيكي قوامه تأييد الحكومة المؤقتة وسياسة «الدفاعيين» تأييداً مشروطاً . اما ستالين ، وكان قد عاد حديثاً من المنفى ، ومولوتوف والاخرون ، ومعهم اكثرية الحزب ، فكانوا يدعون الى سياسة عدم الثقة بالحكومة الموقتة ، ويناهضون «الدفاعية» ويدعون الى النضال النشيط في سبيل السلام ، الى النضال ضد الحرب الاستعمارية. وكان عـدد من مناضلي الحزب يترددون ، مفصحين بذلك عن تأخرهم السياسي الناجم عن بقائهم مدة طويلة في السجن او في المنفى .

وكان غياب لينين ، زعيم الحزب ، يحدث فراغاً محسوساً .

وفي ٣ (١٦) نيسان ١٩١٧ ، عاد لينين الى روسيا بعد نفي طويل .

وكان لقدومه شأن بالغ في الحزب وفي الثورة .

وحين كان لينين لا يزال في سويسرا ، كتب ، وقد وصلته فقط اولى انبـــاء الثورة ، الى الحزب والى الطبقة العاملة في روسيا ، رسائله المعروفة : «رسائل من بعيد» ، وقد جاء فيها :

«ايها العمال ! لقد اتيتم بمعجزات من البطولة البروليتارية والشعبية في الحـرب الاهلية ضد القيصرية ، وعليكم ان تأتوا بمعجزات من التنظيم البروليتاري والشعبي لتهيئة انتصـــاركم في

المرحلة الثانية من الثورة» . (لينين ـــ المؤلفات الكاملة ـــ المجلد ٢٠ ـــ الصفحة ١٩ ـــ الطبعة الروسية)

وصل لينين الى بتروغراد في ليلة ٣ نيسان . وقـــد حفلت محطة فنلندا وساحتها بالوف من العمال والجنود والبحارة تجمعوا لاستقباله . فلما ترجل من القطار اخذت الجمـــاهير حماسة لا توصف ، وقد رفعوا زعيمهم على الاكف وحملوه الى القاعـة الكبرى في المحطة . وهنا حاول المنشفيكيان تشيكيدزه وسكوبيليف ان يلقيا باسم سوفيات بتروغراد ، خطابي «ترحيب» « يعبران فيهما عـن املهما» في ان يجد لينين «لغة مشتركة» مع المنشفيك . ولكن لينين لم يصغ اليهما ، بل تعداهما وتوجه مباشرة الى جماهير العمال والجنود ، والقى من على ظهر سيارة مصفحة ، الخطاب المشهور الذى دعـا فيه الجمـــاهير الى النضال لتحقيق انتصـار الثورة الاشتراكية. «لتحي الثورة الاشتراكية !»: هكذا ختم لينين اول خطاب القاه بعد سنوات طويلة من النفي .

منذ ما وصل لينين الى روسيا ، انصرف بكل عزيمته الى العمل الثوري ، والقى ، غداة وصوله ، تقريراً عن الحرب والثورة في اجتماع للبلاشفة ، ثم كرر موضوعات هذا التقرير في اجتماع حضره بالاضافة الى البلاشفة جماعة من المنشفيك.

وهذه الموضوعات هي المعروفة بموضوعات نيسان المشهورة ، التي اعطت الحزب والبروليتاريا خطة ثورية واضحة للانتقال من الثورة البورجوازية الى الثورة الاشتراكية .

وكان لموضوعات لينين هـــذه شأن بالغ في الثورة ، وفي نشاط الحزب اللاحق ايضاً . لقد سجلت الثورة انعطافاً هائلا في حياة البلاد ، وكان الحزب في ظروف النضال الجديدة ـــ بعد خلع القيصرية ـــ بحاجة الى اتجاه جديد للسير بجرأة وبقدم ثابتة في الطريق الجديدة . وموضوعـات لينين هي التي اعطت الحزب هذا الاتجاه .

تضمنت موضوعات نيسان برنامجاً عبقريا لنضال الحزب في سبيل الانتقال من الثورة الديموقراطية البورجوازية الى الثورة الاشتراكية، في سبيل الانتقال

من المرحلة الاولى للثورة الى المرحلة الثانية : الى مرحلة الثورة الاشتراكية .
وكان كل التاريخ الماضي للحزب قد هيأه للنهوض بهذه المهمة العظيمة . فمنذ عام ١٩٠٥ ، كان لينين قد قال في كراسه **خطتان للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الديموقراطية** ، ان البروليتاريا ستشرع ، بعد اسقاط القيصرية ، في تحقيق الثورة الاشتراكية . غير ان العنصر الجديد في موضوعات نيسان ، هو انها خطّت برنامجاً واقعياً ملموساً ، مدعوماً من الناحية النظرية ، للمباشرة بالانتقال الى الثورة الاشتراكية .

كانت التدابير الانتقالية ، في الميدان الاقتصادي ، هي : تأميم كل اراضي البلاد مع مصادرة اراضي كبار الملاكين ، دمج البنوك جميعها في بنك وطني واحد يخضع لمراقبة سوفيات نواب العمال ، اقامة رقابة على الانتاج الاجتماعي وعلى توزيع المنتجات .

وفي الميدان السياسي ، كان لينين يقترح الانتقال من الجمهورية البرلمانية الى جمهورية السوفيات . وهي خطوة جدية الى الامام في ميدان الماركسية النظرية والعملية . فحتى ذلك الحين ، كان النظريون الماركسيون يعتبرون ان الجمهورية البرلمانية هي احسن شكل سياسي للانتقال الى الاشتراكية . اما الان ، فكان لينين يقترح الاستعاضة عن الجمهورية البرلمانية بجمهورية السوفيات ، باعتبارها احسن شكل للتنظيم السياسي للمجتمع ، في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية .

وقد جاء في الموضوعات :

« ان الشيء الفذ في الوضع الروسي القائم ، انما هو **الانتقال** من المرحلة الاولى للثورة ، التي اعطت الحكم للبورجوازية نتيجة عدم كفاية الوعي والتنظيم لدى البروليتاريا ، الى المرحلة **الثانية** للثورة ، التي يجب ان تعطي الحكم للبروليتاريا ، وللفئات الفقيرة من الفلاحين. » (لينين: المؤلفات المختارة ــ المجلد الثاني ــ ص ٣)

وجاء فيها في مكان آخر :

« لا جمهورية برلمانية ـــ فالرجوع اليها بعد قيام مجــالس السوفيات لنواب العمال ، يكون خطوة الى الوراء ـــ بل جمهورية المجالس السوفياتية لنواب العمال والاجراء الزراعيين والفلاحين، في البلاد باسرها ، من القاعدة الى القمة» (المرجع ذاته ـــ ص ٤).

وكان لينين يقول ان الحرب ، حتى في عهد الحكومة الجديدة ، الحكومة الموقتة ، لا تزال حرب نهب ، حربا استعمارية . ومهمة الحزب هي ان يشرح ذلك للجماهير ، وان يبين لها ان انهاء الحرب بصلح ديموقراطي حقاً لا بصلح مفروض بالقوة ، شيء مستحيل بدون قلب البورجوازية .

امافيما يتعلق بالحكومة الموقتة ، فكان الشعار الذي وضعه لينين بشأنهاهو: «لا تأييد للحكومة الموقتة على الاطلاق !»

وبين لينين كذلك في موضوعاته ، ان حزبنا ما يزال اقلية في مجــالس السوفيات في الوقت الحاضر ، وان كتلة المنشفيك والاشتراكيين الثوريين تسيطر على هذه المجالس،وتشكل اداة يمتد بها نفوذ البورجوازية الى البروليتاريا. ولذلك فمهمة الحزب هي :

« ان يشرح للجماهير ان مجلس السوفيات لنواب العمال هو **الشكل الوحيد الممكن للحكومة** الثورية ، واذن ، فلا يمكن ان تكون مهمتنا ، ما دامت **هذه** الحكومة خــاضعة لنفوذ البورجوازية ، الا ان **نشرح للجماهير** بصبر ومثابرة وعناد ، اخطاء خطتها. ويكون ذلك على الخصوص بان نكيف انفسنا وفق المطالب العملية لهـــذه الجماهير . فما دمنا اقلية ، نقوم بالانتقاد وتوضيح الاخطاء ، مؤكدين في الوقت نفسه ضرورة انتقال كل سلطة الدولة الى مجـالس السوفيات لنواب العمال . » (المرجع ذاته ـــ ص ٤) .

ومعنى ذلك ان لينين لم يكن يدعو الى الثورة المسلحة على الحكومة الموقتة التي كانت تتمتع آنذاك بثقة مجالس السوفيات ، لم يكن يدعو الى قلب هذه

الحكومة ، بل كان يريد ، عن طريق الايضاح و كسب الانصــار ، احراز الاكثرية في مجالس السوفيات ، وتعديل سياسة هذه المجالس، ومن ثم بواسطة هذه المجالس ، تغيير تركيب الحكومة وسياستها .

وكان معنى ذلك ، الاتجاه نحو تطور الثورة تطوراً سلمياً .

وكان لينين يطلب ، بعدئذ ، خلـع «الثياب الوسخة» ، بالعدول عــن تسمية الحزب باسم الاشتراكي ــ الديموقراطي . فقد كانت احـزاب الاممية الثانية ، وكذلــك المنشفيك الروس ، يسمون انفسهم « اشتراكيين ديموقراطيين » . وقـد دنس الانتهازيون ، خائنو الاشتراكية ، هذا الاسم وشانوه. ولذا اقترح لينين تسمية الحزب البلشفي: **الحزب الشيوعي** . كما كان ماركس وانجلس يسميان حزبهما . وهو اسم صحيح من الناحية العلمية ، ما دام الهـدف النهائي للحزب البلشفي هو بلوغ الشيوعية . ان الانسانية ليس في وسعها ان تنتقل مباشرة الا من الرأسمالية الى الاشتراكية ، اي الى جعل وسائل الانتاج ملكا مشتركا ، وتوزيع المنتجات بين الناس ، كل حسب عمله . ولكن لينين كان يقول بان حزبنا ينظر الى ابعد ، فالاشتراكية لا بد مــن ان تتحول وتتطور شيئاً فشيئاً الى الشيوعية التي يحمل علمهــا هـذا الشعار : «من كل حسب كفاءته ، ولكل حسب حاجته» .

وكان لينين يطلب اخيرا ، في موضوعاته ، انشاء اممية جــديدة ، اممية ثالثة ، محررة من الانتهــازية ومن الاشتراكية ــ الشوفينية ، هي الاممية الشيوعية .

وقـد اثارت موضوعات لينين صيحات الحنق في صفوف البورجوازيــة والمنشفيك والاشتراكيين الثوريين .

فأذاع المنشفيك نـداء الى العمال يبدأ بهذا التحذير : «الثورة في خطر» . وكان الخطر في رأي المنشفيك هـو ان البلاشفة وضعوا مطلب انتقال السلطة الى ايدي مجالس السوفيات لنواب العمال والجنود .

ونشر بليخانوف في جريدته **يدينستفو** (الوحدة) مقالا وصف فيه خطاب

لينين بانه خطاب هذيان . وتمثل بليخانوف بكلمات المنشفي تشيكيدزه الذي كان قد صرح : «سيظل لينين وحده خارج الثورة ، اما نحن ، فسنتابع طريقنا» .

وفي ١٤ نيسان انعقد المجلس العام البلشفي لمنظمة بتروغراد – المدينة ، فوافق على موضوعات لينين واتخذها اساساً لاعماله .

وبعد مدة وجيزة ، وافقت منظمات الحزب المنطقية بدورها على موضوعات لينين .

وهكذا تبنى الحزب باسره موضوعات لينين ببالغ الارتياح ، باستثناء افراد قلائل من طراز كامينيف وريكوف وبياتاكوف .

٢ – بدء ازمة الحكومة الموقتة – انعقاد المجلس العام للحزب البلشفي في نيسان .

•

فيما البلاشفة يستعدون لتطوير الثورة ودفعها الى امام ، كانت الحكومة الموقتة تتابع العمل ضد الشعب . ففي ١٨ نيسان ، ادلى وزير الخارجية ميليوكوف بتصريح الى الحلفاء قال فيه : «ان الشعب باسره يريد خوض الحرب العالمية حتى الانتصار النهائي ، والحكومة الموقتة عازمة على الوفاء بتعهداتها لحلفائنا وفاء كاملا» .

وهكذا كانت الحكومة الموقتة تقسم بان تبقى امينة للمعاهدات القيصرية وتعد بان تسفك ايضاً وايضاً من الدم الشعبي بمقدار ما يطلب الاستعماريون للحصول على «النهاية الظافرة» .

في ١٩ نيسان اطلع العمال والجنود على التصريح («مذكرة ميليوكوف») . وفي ٢٠ نيسان دعت اللجنة المركزية للحزب البلشفي الجماهير الى الاحتجاج على السياسة الاستعمارية التي تسير عليها الحكومة الموقتة . وفي يومي ٢٠ و ٢١

نيسان (٣ و ٤ ايار) ١٩١٧ نزل الى الشارع ما لا يقل عن مئة الف من جماهير العمال والجنود يتظاهرون سخطاً على «مذكرة ميليوكوف»، وعلى اعلامهم هذه الشعارات: «انشروا المعاهدات السرية !» ، «لتسقط الحرب ! » ، «كل السلطة للسوفيات !» . وتوافد العمال والجنود من الضواحي نحو مركز المدينة ، نحو مقر الحكومة الموقتة. ووقعت في شارع نيفسكي وفي نقاط اخرى من المدينة اصطدامات مع جماعات من البورجوازية .

وقد دعا اعداء الثورة الالداء ، امثال الجنرال كورنيلوف ، الى اطلاق النار على المتظاهرين ، بل لقد اعدوا لهذا الامر عدته ، ولكن الوحدات العسكرية التي تلقت هذه الاوامر رفضت تنفيذها .

وفي اثناء المظاهرة القى فريق ضئيل من اعضاء لجنة الحزب في بتروغراد (باغداتييف وآخرون) شعار قلب الحكومة الموقتة حالا . فشجبت اللجنة المركزية للحزب البلشفي سلوك هؤلاء المغامرين «اليساريين» بشدة ، اذ كانت تعتبر ان هذا الشعار ليس في اوانه ، وانه غير صحيح ، ومن شأنه ان يضايق الحزب في مسعاه الى اكتساب الاكثرية في مجالس السوفيات الى جانبه ، كما يناقض اتجاه الحزب نحو تطوير الثورة سلمياً .

لقد سجلت حوادث ٢٠ و ٢١ نيسان بدء ازمة الحكومة الموقتة .

وكان ذلك اول صدع خطير في سياسة التفاهم التي يسير عليها المنشفيك والاشتراكيون الثوريون .

وفي ٢ ايار ١٩١٧ طرد ميليوكوف وغوتشكوف من الحكومة الموقتة تحت ضغط الجماهير .

وتألفت اول حكومة موقتة ائتلافية ، ضمت الى جانب ممثلي البورجوازية ، وزراء من المنشفيك (سكوبيليف وتسيرتيلي) واشتراكيين ثوريين (تشرنوف وكرنسكي وآخرين) .

وهكذا ، فان المنشفيك الذين كانوا ، عام ١٩٠٥ ، يعتبرون اشتراك ممثلي الاشتراكية الديموقراطية في حكومة مؤقتة ثورية ، امرا غير مقبول ،

وجدوا الان ان من المقبول اشتراك ممثليهم في حكومة موقتة عدوة الثورة كان معنى ذلك ، انتقال المنشفيك والاشتراكيين الثوريين الى معسكر البورجوازية عدوة الثورة .

في ٢٤ نيسان ١٩١٧ ، افتتح المجلس العام البلشفي السابع (مجلس نيسان). وهو اول مجلس عقده البلاشفة علناً منذ وجود الحزب . وهو من حيث اهميته يحتل في تاريخ الحزب مكانة مؤتمر للحزب .

لقد اظهر مجلس نيسان الوطني ما اصبح عليه الحزب من نمو وتطور عظيم. وقد حضر المجلس ١٣٣ مندوبا باصوات فعلية و١٨ مندوبا باصوات استشارية. وكان هؤلاء المندوبون يمثلون ٨٠ الف عضو منظم في الحزب .

وقد ناقش المجلس ووضع خطة الحزب في كل القضايا الاساسية المتصلة بالحرب والثورة ، كقضايا الوضع العام ، والحرب ، والحكومة الموقتة ، ومجالس السوفيات ، والمسألة الزراعية ، والمسألة القومية ، وغيرها .

وطور لينين في تقريره المبادىء التي سبق له ان صاغها في موضوعات نيسان : مهمة الحزب هي ان يحقق الانتقال من المرحلة الاولى للثورة ـــ تلك المرحلة «التي اعطت الحكم الى البورجوازية ، الى المرحلة **الثانية** من الثورة ، التي يجب ان تعطي الحكم الى البروليتاريا والفئات الفقيرة من الفلاحين » (**لينين**). فعلى الحزب ان يتجه نحو تهيئة الثورة الاشتراكية. اما مهمة الحزب المباشرة القريبة ، فقد صاغها لينين في شعار : « كل الحكم للسوفيات »!

وكان شعار « كل الحكم للسوفيات » يعني وجوب الانتهاء من ازدواج السلطات ، اي الانتهاء من انقسام السلطة بين الحكومة الموقتة ومجالس السوفيات ، ووجوب تسليم **كل** الحكم للسوفيات ، وطرد ممثلي كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين من هيئات الحكم .

وقرر المجلس ان من اهم مهمات الحزب ، ان يوضح للجماهير دون كلل « ان الحكومة الموقتة هي من حيث طبيعتها ، اداة سيطرة كبار ملاكي الاراضي والبورجوازية » ، وان يكشف كذلك عن سوء المغبة من سياسة

التفاهم ، سياسة الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك ، الذين يخدعون الشعب بوعود كاذبة ويعرضونه لضربات الحرب الاستعمارية وضربات اعداء الثورة .

ووقف كامينيف وريكوف في المجلس وتكلما ضد لينين . فكررا ما يقوله المنشفيك من ان روسيا لم تصبح بعد ناضجة للثورة الاشتراكية ، وان الجمهورية البورجوازية ، دون سواها ، ممكنة في روسيا . واقترحا على الحزب وعلى الطبقة العاملة الاكتفاء «بمراقبة» الحكومة الموقتة . فهما ، من حيث الجوهر ، كانا ، مثلهما مثل المنشفيك ، يدعوان الى الابقاء على الرأسمالية والحفاظ على حكم البورجوازية .

كذلك زينوفييف ، وقف ضد لينين ، وذلك في مسألة هل يبقى الحزب البلشفي في جماعة زيمرفالد ، ام يقطع صلاته بها ، وينشىء اممية جديدة ؟ فقد اظهرت سنوات الحرب ان هذه الجماعة ، مع قيامها بالدعوة الى السلام ، لم تقطع عملياً صلاتها بالدفاعيين ، البورجوازيين . ولهذا الحّ لينين على ضرورة الخروج من هذه الجماعة فورا وتنظيم اممية جديدة هي الاممية الشيوعية . اما زينوفييف فاقترح البقاء مع الزيمرفالديين . الا ان لينين شجب موقف زينوفييف بحزم ، ووصف خطته بانها خطة « مغرقة في الانتهازية وضارة » !

وناقش مجلس نيسان ايضا المسألة الزراعية والمسألة القومية .

وبناء على تقرير لينين عن المسألة الزراعية ، اتخذ المجلس قرارا يقضي بمصادرة اراضي كبار الملاكين ، ووضعها تحت تصرف لجان الفلاحين ، وبتأميم كل اراضي البلاد . ودعا البلاشفة جماهير الفلاحين الى النضال في سبيل الارض وبينوا لهم ان الحزب البلشفي هو الحزب الثوري الوحيد الذي يساعد الفلاحين عمليا على تقويض سلطان كبار ملاكي الاراضي .

وكان لتقرير الرفيق ستالين عن المسألة القومية اهمية كبرى . فمنذ ما قبل الثورة ، وعلى اعتاب الحرب الاستعمارية ، كان لينين وستالين قد وضعا مبادىء سياسة الحزب البلشفي في المسألة القومية . وكانا يقولان بان من واجب الحزب البروليتاري ان يؤيد حركة التحرر الوطني التي تقوم بها الشعوب

المظلومة ضد الاستعمار . وبذلك كان الحزب البلشفي يدافع عن حق الامم في التصرف بنفسها بما في ذلك حقها في الانفصال وتأسيسها في دول مستقلة . وقد دافع الرفيق ستالين ، مقرر اللجنة المركزية ، عن وجهة النظر هذه امـــام المجلس العام للحزب .

وعارض بياتاكوف موقف لينين وستالين ، وكان منذ سنوات الحرب ، يقف مع بوخارين موقفاً قومياً شوفينياً في المسألة القومية . وكانا كلاهما ضد حق الامم في التصرف بنفسها .

وكان موقف الحزب الحازم الثابت في المسألة القومية ، ونضاله في سبيل المساواة التامة بين الامم ، ومحو كل اشكال الاضطهاد القومي وعدم التساوي بين القوميات ، قد اكسبه عطف كل القوميات المظلومة وتأييدها .

وفيما يلي نص القرار الذي اتخذه مجلس نيسان العام عن المسألة القومية :

« ان سياسة الاضطهاد القومي ، الموروثة عن الاوتوقراطية والملكية ، تجد كل تأييد مـــن قبل كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين والبورجوازية الصغيرة ، الذين يريدون بذلك ان يحافظوا على امتيازاتهم الطبقية ، وان يفرقوا بين عمال مختلف القوميات . والاستعمار الحديث ، الذي يقوي الميل الى السيطرة على الشعوب الضعيفة واخضاعها ، هو عامل جديـــد في تفاقم الاضطهاد القومي .

« ان محو نير الاضطهاد القومي ، بمقدار مـا هـو ممكن في المجتمع الرأسمالي ، لا يتم الا في ظل نظام وجهاز للدولة ، جمهوري وديموقراطي حازم يؤمن التساوي التام بـين كل الامم وكل اللغات .

« يجب ان يُعترف لكل الامم الداخلة في تكوين روسيا ، بحق الانفصال بحرية وتشكيل دولة مستقلة . فان انكار هـذا الحق وعـدم اقرار التدابير التي تضمن تطبيقه عمليـاً ، معناه

تأييد سياسة الفتح او الالحـاق . ان اعتراف البروليتاريا بحق الامم في حرية الانفصال ، هو وحده الذي يؤمن التضامن التام بين عمـال مختلف الامم ويساعد على تقارب الامم تقاربـاً ديموقراطياً حقيقياً ..

« ولا يجوز المزج بين مسألة حق الامم في الانفصال الحر ، ومسألة الفائدة من انفصال هذه الامة او تلك في هـذا الوقت او ذاك . فـهذه المسألة الاخيرة ، يجب على حزب البروليتاريا ان يفصل فيها في كل حالة خاصة بصورة مستقلة تماماً ، وفقـاً لما تقتضيه مصالح التطور الاجتماعي بمجموعه ، ومصالـح نضال البروليتاريا الطبقي في سبيل الاشتراكية .

« ان الحزب يطالب بحكم ذاتي منطقي واسع ، وبالغـاء المراقبة مـن فوق ، وبالغـاء اللغة الرسمية الاجبارية للدولة ، وبتحديد حدود المناطق ذات الحكم الذاتي وذات الادارة الذاتية عـلى اساس قيام السكان المحليين انفسهم بتقدير الشروط الاقتصادية ، والاخلاق ، والعادات ، والتركيب القومي للسكان .. الخ .

« ويرفض حزب البروليتاريا رفضاً باتا ما يسمونه «الاستقلال الذاتي الثقافي القومي» ، اي سحب الشؤون المدرسية وغيرها من صلاحية الدولة وتسليمها الى نوع مـن المجالس القومية . فان العمال القاطنين في مكان واحد ، بل وحتى المشتغلين في معمل واحد ، يفرقهم هذا الاستقلال الذاتي الثقافي القومي تفريقاً مصطنعـاً حسب انتمائهم لهذه «الثقافة القومية» او تلك ، اي انه يقوي صلة العمال بالثقافة البورجوازية لمختلف الامم ، في حـين ان مهمة الاشتراكية الديموقراطية هي تقوية الثقافة الاممية للبروليتاريا العالمية .

« ويطلب الحزب ادخـال قـانون اساسي في الدستور يلغي الامتيازات ، ويلغي كل انتقاص مـن حقوق الاقليات القومية

مهما كان .

« ان مصالح الطبقة العاملة تتطلب اندماج عمال جميع القوميات القاطنة في روسيا في منظمات بروليتارية موحدة ، سياسية او نقابية او تعاونية او ثقافية ... الخ . فان مثل هذا الاندماج لعمال مختلف القوميات في منظمات موحدة ، هو وحده الذي يسمح للبروليتاريا بان تقوم بنضال ظافر ضد الرأسمال الدولي ، وضد القومية البورجوازية .» (ستالين — الماركسية والقضية الوطنية وقضية المستعمرات ، ص. ٣٠٧ - ٣٠٨ ، الطبعة الفرنسية ، المطبوعات الاجتماعية الدولية ، باريس ١٩٣٧) .

هكذا فضح مجلس نيسان العام ، الخطة الانتهازية المخالفة للينينية ، التي كان يدعو اليها كامينيف وزينوفييف وبياتاكوف وبوخارين وريكوف وانصارهم القلائل .

لقد سار المجلس بالاجماع مع لينين فاتخذ موقفاً واضحاً في كل القضايا الهامة ، واتجه في خطته نحو انتصار الثورة الاشتراكية .

•

٣ — نجاح الحزب البلشفي في العاصمة — فشل هجوم جيش الحكومة الموقتة على الجبهة — قمع مظاهرة العمال والجنود في تموز

على اساس قرارات مجلس نيسان العام ، عمد الحزب الى القيام بعمل كبير واسع لاكتساب الجماهير وتثقيفها وتنظيمها للنضال . وكانت خطة الحزب في هذه المرحلة قائمة على ايضاح السياسة البلشفية بصبر واناة ، وفضح سياسة المنشفيك والاشتراكيين الثوريين التفاهمية ، بغية عزل هذين الحزبين عن الجماهير والاستيلاء على الاكثرية في مجالس السوفيات .

وكان البلاشفة ، عدا نشاطهم في مجالس السوفيات ، يقومون بعمل واسع

في النقابات ولجان المصانع والمعامل .

وقام البلاشفة بعمل كبير خصوصاً في الجيش . فاخذت تتألف منظمات عسكرية في كل مكان. وعمل البلاشفة دون كلل، سواء في الجبهة او في المؤخرة، لتنظيم الجنود والبحارة. وكانت الجريدة البلشفية في الجبهة : او كوبنايا برافدا (حقيقة الخنادق) تقوم بدور كبير في نشر الفكرة الثورية بين الجنود .

وبفضل هذا النشاط الذي بذله البلاشفة في الدعاية والتحريض ،راح العمال، منذ الشهور الاولى للثورة ، يجددون مجالس السوفيات في مدن عديـــدة ، وخصوصاً مجالس السوفيات في الاحياء ، فيطردون المنشفيك والاشتراكيين الثوريين ، وينتخبون عوضاً عنهم انصار الحزب البلشفي .

وكان عمل البلاشفة يعطي نتائج طيبة في بتروغراد بوجه خاص .

فمن ٣٠ ايار الى ٣ حزيران ، انعقد مجلس عام للجان المعامل والمصانع في بتروغراد ، فسار ثلاثة ارباع المندوبين مع البلاشفة . ان البروليتاريا بمجموعها تقريبا ، في هذه المدينة ، تبنت الشعار البلشفي: « كل الحكم للسوفيات ! »

وفي ٣ (١٦) حزيران ، انعقد المؤتمر الاول لمجالس السوفيات في روسيا. وكان البلاشفة لا يزالون اقلية في مجالس السوفيات ، اذ لم يكن معهم الا عدد يزيد قليلا عن ١٠٠ مندوب ، مقابل عدد يتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ مندوب من المنشفيك والاشتراكيين الثوريين وغيرهم .

فضح البلاشفة بقوة ، في مؤتمر السوفيات الاول ، سياسة التفاهم مـــع البورجوازية وعواقبها الوخيمة القاتلة ، وكشفوا القناع عن الطبيعة الاستعمارية للحرب . والقى لينين خطابا برهن فيه صحة الخطة البلشفية ، وصرح بان حكم السوفيات فقط يستطيع اعطاء الخبز للشغيلة والارض للفلاحين وتحقيق السلام وانتشال البلاد من الخراب .

وكانت تجري في الوقت نفسه حملة جماهيرية كبرى في احياء العـــمال في بتروغراد لتنظيم مظاهرة وتقديم مطالب لمؤتمر السوفيات . فقررت اللجنـــة التنفيذية لسوفيات بتروغراد تعيين يوم ١٨ حزيران (اول تموز) موعـــداً

للتظاهر ، رغبة منها في اجتناب حدوث مظاهرة عفوية للعمال ، وسعياً وراء استغلال الروح الثورية لدى الجماهير في سبيل مآربها . وكان المنشفيك والاشتراكيون الثوريون يأملون ان تجري الحركة تحت شعارات موجهة ضد البلاشفة . ولكن الحزب البلشفي سارع الى اتخاذ الاستعدادات لهذه المظاهرة بكل عزيمة ، وكتب الرفيق ستالين في **البرافدا** : « ان مهمتنا هي الحصول على ان تجري مظاهرة ١٨ حزيران في بتروغراد تحت شعاراتنا الثورية » .

وفي ١٨ حزيران ١٩١٧ ، مرّ المتظاهرون امام النصب التذكاري لضحايا الثورة . وكانت المظاهرة استعراضاً حقيقياً لقوى الحزب البلشفي ، وقد دلت على تقدم الروح الثورية بين الجماهير وعلى ثقة الجماهير المتعاظمة بالحزب البلشفي. اما شعارات المنشفيك والاشتراكيين الثوريين الداعية الى الثقة بالحكومة الموقتة وضرورة متابعة الحرب ، فقد غرقت في بحر الشعارات البلشفية ، اذ مر ٤٠٠ الف متظاهر حاملين اعلاماً عليها الشعارات التالية : « لتسقط الحرب!» « ليسقط الوزراء الرأسماليون العشرة ! » ، « كل الحكم للسوفيات ! »

وكان معنى ذلك انهيار المنشفيك والاشتراكيين الثوريين انهياراً كاملا ، وانهيار الحكومة الموقتة في العاصمة .

غير ان الحكومة الموقتة قررت متابعة سياستها الاستعمارية مستندة الى تأييد مؤتمر السوفيات الاول. وفي يوم ١٨ حزيران بالذات، وتنفيذاً لارادة الاستعماريين الانكليز والفرنسيين، دفعت الجنود في الجبهة الى الهجوم . وكانت البورجوازية ترى في هذا الهجوم الوسيلة الوحيدة للقضاء على الثورة ، اذ كانت تأمل ان تأخذ في حالة الانتصار ، كل السلطة في يدها ، وان تدفع السوفيات الى الوراء ، وان تسحق البلاشفة . وفي حالة الفشل يكون من الممكن القاء المسؤولية على البلاشفة انفسهم ، باتهامهم بتفسيخ الجيش .

ولم يكن ثمة مجال للشك بان الهجوم سيفشل . وهو ما حدث فعلاً . فان اعياء الجنود وعدم فهمهم الغاية من الهجوم وعدم ثقتهم بقيادة غريبة عنهم في تركيبها ، ونقص الذخيرة والمدفعية ، كل ذلك ادى الى فشل الهجوم في الجبهة.

وقد احدث نبأ الهجوم وفشله تأثيراً كبيراً في العاصمة ، وتجـاوز سخط العمال والجنود كل حد . واتضح ان الحكومة الموقتة قد خدعت الشعب حين صرحت عن عزمها على انتهاج سياسة سلمية ، وتبين انها تريد متـابعة الحرب الاستعمارية ، كما تبين ان لجنة السوفيات التنفيذية المركزية في روسيا، وكذلك سوفيات بتروغراد ، لم يريدا او لم يستطيعا التصدي لاعمال الحكومة الموقتة الاجرامية ، وانجرّا في ذيلها .

طفح الغضب الثوري عند العمال والجنود في بتروغراد ، وجرت في ٣ تموز (١٦ تموز) في حي فيبورغ مظاهرات عفوية كانت تستمر طوال النهار. وقد بدأت متفرقة ، ثم ما لبثت ان تحولت الى مظاهرة عظيمة مسلحة تحت شعار انتقال الحكم الى السوفيات . وكان الحزب البلشفي ضد قيام حركة مسلحة في ذلك الحين ، اذ كان يعتبر ان الازمة الثورية لم تنضج بعـد ، وان الجيش والملحقات ليست على استعداد لتأييد الثورة المسلحة في العـاصمة ، وان ثورة مسلحة منعزلة وقبل اوانها في بتروغراد يمكن فقط ان تسهل لاعـداء الثورة سحق طليعة الثورة . ولكن عندما اصبح من الواضح ان ليس من الممكن رد الجماهير عن التظاهر ، قرر الحزب البلشفي الاشتراك في المظاهرة حتى يعطيها صبغة سلمية ومنظمة . وقد نجح الحزب في ذلـك . فان مئات الالوف من المتظاهرين توجهوا نحو مقر مجلس سوفيات بتروغراد ولجنة مجالس السوفيات التنفيذية المركزية في روسيا ، حيث طلبوا الى مجالس السوفيات اخذ الحكم في يدها وقطع كل صلة بالبورجوازية الاستعمارية وانتهاج سياسة سلم فعالة ناجعة.

وبالرغم من الصبغة السلمية للمظاهرة ، جردت ضد المتظاهرين فصائل رجعية من الجونكر (التلاميذ الضباط) ومن الضباط ، فسالت دماء العمال والجنود غزيرة في شوارع بتروغراد . وكانت اشد الوحدات تأخراً وعداوة للثورة ، قد استدعيت من الجبهة لقمع حركة العمال .

وبعدما تم للمنشفيك والاشتراكيين الثوريين ، بالتحالف مع البورجوازية والجنرالات البيض ، قمع مظاهرة العمال والجنود ، ارتدوا على الحزب البلشفي .

فحطمت مكاتب تحرير **البرافدا**، وعطلت **البرافدا وسولداتسكايا برافدا** (حقيقة الجنود) وعدد من الجرائد البلشفية الاخرى. وصرع الجونكر في الشارع العامل فوينوف لا لشيء سوى انه كان يبيع جريدة **ليستوك برافدي** (صحيفة الحقيقة). وبدأ نزع سلاح الحرس الاحمر، وسُحبت وحدات الحامية الثورية من العاصمة وارسلت الى الجبهة. وجرت الاعتقالات في الجبهة والمؤخرة. وصدرت في ٧ تموز مذكرة توقيف بحق لينين، واعتقل عدد من المناضلين البلاشفة البارزين، ونهبت مطبعة **ترود** (العمل) التي كانت تطبع فيها النشرات البلشفية. واذاع النائب العام في بتروغراد بلاغاً يقول ان لينين وكثيرين غيره من البلاشفة قد احيلوا الى القضاء بتهمة «الخيانة العظمى» وتنظيم الثورة المسلحة. وكانت التهمة ضد لينين، قد «فبركتها» من اولها الى آخرها، هيئة اركان حرب الجنرال دينيكين، استناداً الى شهادات نفر من الجواسيس والمخبرين.

وهكذا انغمست الحكومة الائتلافية الموقتة، التي يشترك بها المنشفيك والاشتراكيون الثوريون البارزون امثال تسيريتيلي وسكوبيليف وكيرنسكي، في مستنقع الاستعمار والرجعية بشكل مكشوف. فبدلا من سياسة سلم، انتهجت سياسة متابعة الحرب. وعوضا عن صيانة حقوق الشعب الديموقراطية، سلكت سياسة محو هذه الحقوق وقمع العمال والجنود بقوة السلاح.

ان ما لم يجرؤ عليه ممثلا البورجوازية غوتشكوف وميليوكوف، اقدم عليه «الاشتراكيون» كرنسكي وتسيريتيلي وتشرنوف وسكوبيليف.

هكذا انتهى الازدواج في السلطات.

انتهى في صالح البورجوازية، اذ ان كل السلطة انتقلت الى يد الحكومة الموقتة، وتحولت مجالس السوفيات بقيادتها المنشفيكية والاشتراكية الثورية الى ذيل للحكومة.

وانتهت المرحلة السلمية للثورة، بعد ما اصبحت الكلمة للحراب.

وتجاه تبدل الحالة ، قرر الحزب البلشفي تعديل خطته (تاكتيكه). فانتقل الى العمل السري ، واخفى زعيمه لينين بعناية كبرى ، واخذ يستعد للثورة المسلحة لهدم حكم البورجوازية بالسلاح واقامة حكم السوفيات .

•

٤ ـ اتجـــاه الحزب البلشفي نحو تحضير الثورة المسلحة ـ المؤتمر السادس للحزب .

اجتمع المؤتمر السادس للحزب البلشفي ، في بتروغراد ، وسط حملة استفزاز هائلة شنتها صحافة البورجوازية والبورجوازية الصغيرة . وكان المؤتمر ينعقد بعد انقضاء عشر سنوات على مؤتمر الحزب الخـــامس الذي انعقد في لندن ، وبعد مرور خمس سنوات على المجلس العام البلشفي الذي انعقـــد في براغ . واستمر المؤتمر من ٢٦ تموز الى ٣ آب ١٩١٧ ، وجرى بصورة لا شرعية . وقد اكتفى الحزب بالاعلان في الصحافة عن دعوة المؤتمر للانعقاد ، دون تعيين المكان الذي ينعقد فيه . وجرت الجلسات الاولى في حي فيبورغ . امـــا الجلسات الاخيرة فعقدت في بناية مدرسية بالقرب من باب «نارفا» حيث تقوم اليوم دار للثقافة . وكانت الصحافة البورجوازية تطالب باعتقال المؤتمرين . وكان جواسيس الشرطة جادين في البحث وهم يصرفون باسنانهم ، ولكن جهودهم ذهبت هباء ولم يستطيعوا اكتشاف المكان الذي كان المؤتمر منعقدا فيه .

وهكذا كان البلاشفة ، بعد مرور خمسة اشهر عـــلى قلب القيصرية ، مضطرين للاجتماع سرا ، وكان لينين زعيم الحزب البروليتاري مضطرا الى الاختباء في كوخ من اغصان الشجر قرب محطة رازليف .

لم يستطع لينين حضور المؤتمر بسبب ملاحقات جواسيس الحكومة الموقتة ، ولكنه قاده من مخبأه بواسطة تلامذته ورفاقه بالسلاح في بتروغراد : ستالين ، سفردلوف ، مولوتوف ، اورجونيكيدزه .

وقد حضر المؤتمر ١٥٧ مندوباً باصوات فعلية و١٢٨ مندوباً باصوات استشارية . وكان عدد اعضاء الحزب في ذلك العهد يقرب من ٢٤٠ الفاً . وفي ٣ تموز، اي قبل سحق مظاهرة العمال وحين كان نشاط البلاشفة لا يزال علنياً، كان لدى الحزب ٤١ جريدة منها ٢٩ باللغة الروسية و١٢ باللغات الاخرى.

ان تدابير الارهاب التي اتخذت ضد البلاشفة والطبقة العاملة في ايام تموز لم تنتقص من نفوذ حزبنا ، بل على العكس زادته قوة . وقد قدّم مندوبو المنظمات المحلية كثيراً من الوقائع الشاهدة على ان العمال والجنود كانوا يغادرون المنشفيك والاشتراكيين الثوريين بصورة جماهيرية ويسمونهم بازدراء « اشتراكيين ــ سجّانين » . وكان العمال والجنود اعضاء الحزبين المنشفيكي والاشتراكي الثوري يمزقون بطاقاتهم الحزبية ويتركون حزبهم واللعنة على شفاههم ، ثم يأتون الى البلاشفة طالبين قبولهم في صفوفهم .

وكانت المسألتان الاساسيتان في المؤتمر هما التقرير السياسي للجنة المركزية، والحالة السياسية . وقد بيّن الرفيق ستالين في هذين التقريرين بما ينبغي من الدقة والوضوح ، ان الثورة تنمو وتتطور بالرغم من جهود البورجوازية لسحقها . واوضح ان الثورة تطرح على بساط البحث عدداً من القضايا هي : تطبيق مراقبة العمال على الانتاج وعلى توزيع المنتجات ، اعطاء الارض للفلاحين ، نقل الحكم من ايدي البورجوازية الى ايدي الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء . وقال ان الثورة من حيث صبغتها اخذت تصبح ثورة اشتراكية .

كانت حالة البلاد السياسية قد تبدلت بصورة ملموسة منذ ايام تموز . فلم يعد هناك ازدواج في السلطات . فقد رفضت مجالس السوفيات ، ذات القيادة المنشفيكية والاشتراكية الثورية، ان تأخذ السلطة كلها . ولهذا اصبحت عاجزة. وتمركزت السلطة في يد الحكومة الموقتة البورجوازية التي كانت تتابع نزع سلاح الثورة وتحطيم منظماتها وضرب الحزب البلشفي . وزالت امكانيات تطور الثورة تطوراً سلمياً ، ولم يبق الا شيء واحد ، كما قال الرفيق ستالين هو : اخذ الحكم بالقوة ، عن طريق قلب الحكومة الموقتة . ولكن اخذ الحكم

بالقوة امر لا تستطيعه الا البروليتاريا المتحالفة مع فقراء الريف .

كانت مجالس السوفيات التي ما زال يقودها المنشفيك والاشتراكيون الثوريون ، قد انزلقت الى معسكر البورجوازية ، ولم يعد من الممكن ان تقوم في الحالة الحاضرة الا بدور هيئة مساعدة للحكومة الموقتة . ولذلك قال الرفيق ستالين بانه اصبح من الواجب ، بعد ايام تموز ، سحب شعار « كل الحكم للسوفيات ! » . غير ان التخلي موقتاً عن هذا الشعار لا يعني ابداً التخلي عن النضال في سبيل حكم السوفيات . فالمسألة لا تتناول مجالس السوفيات بوجه عام من حيث هي هيئات الكفاح الثوري ، بل تتناول فقط مجالس السوفيات الموجودة، التي يقودها المنشفيك والاشتراكيون الثوريون .

ثم اعلن الرفيق ستالين :

«ان المرحلة السلمية للثورة قد انتهت ، واقبلت المرحلة غير السلمية ،مرحلة المعارك والانفجارات ...» (محاضر المؤتمر السادس لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ، ص ١١١ ، الطبعة الروسية) .

وهكذا اتجه الحزب نحو الثورة المسلحة .

ولكن وُجد في المؤتمر اناس تجلى فيهم نفوذ البورجوازية ، فعارضوا اتجاه الحزب نحو الثورة الاشتراكية .

فان التروتسكي « بريوبراجنسكي» اقترح ان يشار في القرار المتعلق بالاستيلاء على الحكم ، الى انه لا يمكن توجيه البلاد في طريق الاشتراكية الا اذا اندلعت الثورة البروليتارية في الغرب .

فعارض الرفيق ستالين هذا الاقتراح التروتسكي وقال :

« ليس هناك ما ينفي امكان ان تكون روسيا بالذات هي البلد الذي يشق الطريق الى الاشتراكية . ينبغي نبذ الفكرة البالية القائلة بان اوروبا وحدها يمكن ان تدلنا على الطريق . هناك نوعان من الماركسية : ماركسية عقائدية جامدة وماركسية حية ، وانا اقف في صف الاخيرة » (المرجع ذاته ص ٢٣٣ — ٢٣٤) .

اما بوخارين الذي كان يدافع عن المواقف التروتسكية ، فقد زعم ان الفلاحين ذوو مزاج «دفاعي» ، وانهم متكتلون مع البورجوازية ، ولن يتبعوا الطبقة العاملة.

فبيّن الرفيق ستالين في جوابه على بوخارين ان الفلاحين يختلفون . فهناك فلاحون اغنياء يؤيدون البورجوازية الاستعمارية ، وهناك الفلاحون الفقراء الذين يودون التحالف مع الطبقة العاملة ، وهم سيؤيدونها في النضال في سبيل انتصار الثورة.

ورد المؤتمر تعديلات بريوبراجنسكي وبوخارين وصادق على مشروع القرار الذي قدمه الرفيق ستالين .

وناقش المؤتمر البرنامج الاقتصادي للحزب البلشفي وصادق عليه . وكانت نقاطه الاساسية هي: مصادرة اراضي كبار الملاكين وتأميم كل الارض في البلاد ، تأميم البنوك ، تأميم الصناعة الكبرى ، اقامة رقابة العمال على الانتاج والتوزيع.

واشار المؤتمر اشارة خاصة الى اهمية النضال في سبيل اقامة رقابة العمال على الانتاج ، هذه الرقابة التي ستلعب دوراً عظيما عند الانتقال الى تأميم الصناعة الكبرى.

واكّد المؤتمر السادس تأكيداً قوياً ، في كل ما اتخذه من قرارات ، موضوعة لينين عن تحالف البروليتاريا والفلاحين الفقراء من حيث هو شرط لانتصار الثورة الاشتراكية .

وشجب المؤتمر النظرية المنشفيكية عن حياد النقابات . وبيّن ان المهمات الخطيرة التي تنتظر الطبقة العاملة في روسيا لا يمكن تنفيذها الا اذا ظلت النقابات منظمات طبقية مناضلة ، معترفة بقيادة الحزب البلشفي السياسية .

واتخذ المؤتمر قراراً عن «اتحادات الشبيبة» التي كانت تبرز اذ ذاك بصورة عفوية على الغالب . وقد استطاع الحزب بنشاطه اللاحق ان يجعل من منظمات الشبيبة هذه قوته الاحتياطية .

وناقش المؤتمر فيما اذا كان يجب على لينين ان يسلم نفسه للقضاء . فكان كامينيف وريكوف وتروتسكي وآخرون ، يعتبرون ، حتى قبل المؤتمر ، ان على لينين ان يستسلم لمحكمة اعداء الثورة . الا ان الرفيق ستالين عارض في استسلام لينين معارضة شديدة حازمة . واقر المؤتمر وجهة نظر الرفيق ستالين ،

باعتبار ان ما سيجري لن يكون محاكمة بل تصفية حساب. ولم يخامر المؤتمر اي شك في ان البورجوازية لا تريد سوى شيء واحد، هو ازالة لينين جسمانياً، باعتباره اشد عدو خطراً عليها. واحتج المؤتمر احتجاجاً حازما ضد الاضطهاد البوليسي الذي تشهره البورجوازية على قادة البروليتاريا الثورية، وبعث برسالة تحية الى لينين.

واقر المؤتمر السادس نظاماً داخلياً جديداً للحزب. وكان هذا النظام الداخلي ينص على ان كل منظمات الحزب يجب ان تبنى على اسس **المركزية الديموقراطية**. وكان معنى ذلك:

١ - تأليف كل هيئات الحزب القيادية من القمة الى القاعدة عن طريق الانتخاب.

٢ - على كل هيئات الحزب ان تقدم لمنظماتها تقارير دورية عن نشاطها.

٣ - التقيد الصارم بالنظام الحزبي، وخضوع الاقلية للاكثرية.

٤ - قرارات الهيئات العليا اجبارية اطلاقاً بالنسبة للهيئات السفلى ولكل اعضاء الحزب.

وكان النظام الداخلي يقول بان قبول الاعضاء الجدد في الحزب يجري بواسطة منظمات القاعدة بناء على تزكية عضوين في الحزب وبعد مصادقة الاجتماع العام لاعضاء المنظمة التي يعنيها الامر.

ووافق المؤتمر السادس على قبول جماعة «الميجر ايونتسي» (ما بين الفروع) وزعيمهم تروتسكي، في الحزب، وكانت هذه الجماعة الصغيرة موجودة في بتروغراد منذ عام ١٩١٣، وكانت مؤلفة من منشفيك تروتسكيين وعدد من البلاشفة القدماء الذين كانوا قد تركوا الحزب. وكان موقف هؤلاء «الميجرايونتسي» في اثناء الحرب موقف منظمة وسطية، فكانوا يناضلون ضد البلاشفة ولكنهم كانوا كذلك على خلاف مع المنشفيك حول نقاط عديدة، اي ان موقفهم كان موقفاً بين الطرفين، موقفاً وسطياً، متردداً. وقد اعلن «الميجر ايونتسي» في المؤتمر السادس، انهم متفقون والبلاشفة على كل النقاط، وطلبوا قبولهم في الحزب. فاجابهم المؤتمر الى طلبهم ظناً منه بانهم ربما اصبحوا مع الزمن بلاشفة حقيقيين. وفي الحقيقة اصبح بعض «الميجر ايونتسي» مثل

فولداريسكي واورينسكي وآخرين ايضاً ، بلاشفة فيما بعد . اما تروتسكي وبعض اصدقائه المقربين ، فقد تبين فيما بعد انهم دخلوا الحزب لا للعمل لفائدته بـل لتمزيق اوصاله ولنسفه من الداخل .

كانت كل مقررات المؤتمر السادس ترمي الى تهيئة البروليتاريا والفلاحين الفقراء للثورة المسلحة . فقد وجه المؤتمر كل الحزب نحو الثورة المسلحة ، نحو الثورة الاشتراكية .

وكان البيان الذي اذاعه المؤتمر باسم الحزب يدعو العمال والجنود والفلاحين الى الاستعداد للمعارك الحاسمة ضد البورجوازية ، وينتهي بالكلمات التالية :

« استعدوا للمعارك الجديدة ، يا رفاق الكفاح ! كدسوا القوى، شكلوا وحداتكم الكفاحية بحزم وشجاعة وهدوء ودون ان تؤخذوا بالاستفزازات! تحت علم الحزب ايها البروليتاريون والجنود ! تحت علمنا ايها المظلومون في الارياف ! »

•

٥ـ مؤامرة الجنرال كورنيلوف على الثورة ـ سحق المؤامرة ـ انتقال سوفيات بتروغراد وسوفيات موسكو الى جانب البلاشفة .

ما ان ملكت البورجوازية زمام الحكم كله ، حتى استعدت لسحق مجالس السوفيات التي اصبحت بلا حول ولا قوة ، واتجهت نحو اقامة ديكتاتورية مكشوفة عدوة للثورة . وقد بلغت الوقاحة بالمليونير ديابوشينسكي ان صرح قائلا ان المخرج الوحيد للحالة ، هو في رأيه « ان تأخذ يد المجاعة المعروقة العجفاء ويد البؤس بخناق اصدقاء الشعب المزيفين : السوفيات واللجان الديموقراطية» . وكانت المجالس العرفية تعيث في الجبهة ، واحكام الاعدام تترى على الجنود . وفي ٣ آب ١٩١٧ طلب القائد العام الجنرال كورنيلوف تطبيق الحكم بالاعدام في المؤخرة ايضاً .

وفي ١٢ آب افتتح في موسكو ، في المسرح الكبير ، مجلس الدولة الذي دعته الحكومة الموقتة للانعقاد لتعبئة قوى البورجوازية وكبار ملاكي الاراضي .

وكان جل الحاضرين في المؤتمر من ممثلي كبار ملاكي الاراضي والبورجوازية والجنرالات والضباط والقوزاق. وكان بعض المنشفيك والاشتراكيين الثوريين يمثلون فيه مجالس السوفيات.

ويوم افتتاح مجلس الدولة، نظم البلاشفة في موسكو، على سبيل الاحتجاج اضراباً عاماً شمل اكثرية العمال. ووقعت كذلك اضرابات في عدة مدن اخرى.

وقد هدد الاشتراكي الثوري كرنسكي، وهو النموذج الحي للمدعي المغرور، في خطابه في المجلس بان يقمع «بالحديد وفي الدماء» كل المحاولات للقيام بحركة ثورية، بما في ذلك محاولات الفلاحين للاستيلاء بالقوة على اراضي كبار الملاكين.

اما عدو الثورة الجنرال كورنيلوف، فكان يطلب «الغاء اللجان ومجالس السوفيات»، ... فقط، لا غير.

ولم تلبث ان حجّت لمركز القيادة العامة مواكب اصحاب البنوك وكبار التجار واصحاب المصانع، مقدمين للجنرال كورنيلوف اموالهم وتأييدهم.

وشوهد ايضاً بين هؤلاء «الحجاج» ممثلو «الحلفاء» اى ممثلو انكلترا وفرنسا الذين طلبوا التعجيل في الهجوم على الثورة.

وهكذا اتجه السير حثيثاً نحو مؤامرة الجنرال كورنيلوف على الثورة.

وكانت هذه المؤامرة تُهيأ علناً. واشاع المتآمرون لتضليل النـــاس ان البلاشفة يهيئون ثورة مسلحة في بتروغراد في يوم ٢٧ آب، بمناسبة مرور ستة اشهر على الثورة. وقد انقضّت الحكومة الموقتة وفي رأسها كرنسكي على البلاشفة، وشددت الارهاب ضد حزب البروليتاريا. وجمع الجنرال كورنيلوف من جهته جيوشاً للزحف على بتروغراد وابادة مجالس السوفيات وتأليف حكومة ديكتاتورية عسكرية.

وكان الجنرال كورنيلوف قد اتفق في بادىء الامر مع كرنسكي حول مؤامرته ضد الثورة. غير ان كرنسكي انقلب في اللحظة الاخيرة وتخلى فجأة عن شريكه، اذ خشي ان تعمد الجماهير الشعبية، حين نهوضها لسحق حركة كورنيلوف، الى تكنيس الحكومة البورجوازية ايضاً في طريقها اذا لم تعلن

هذه الحكومة تخليها حالا عن كورنيلوف .

وفي ٢٥ آب وجه كورنيلوف الى بتروغراد سرية الفرسان الثالثة تحت امرة الجنرال كريموف معلناً انه يريد «انقاذ الوطن». وجوابا على عصيان كورنيلوف ، وجهت اللجنة المركزية للحزب البلشفي دعوة الى العمال والجنود للرد ردا حازما بالسلاح على هذه الحركة المعادية للثورة . فتسلح العمال بسرعة واستعدوا للمجابهة ، وازداد افراد الحرس الاحمر خلال تلك الايام عدة اضعاف . وعبأت النقابات اعضاءها ، ووقفت التشكيلات العسكرية الثورية في بتروغراد على قدم الاستعداد للقتال ، وحفرت الخنادق حول بتروغراد ونصبت الاسلاك الشائكة واقتلعت خطوط السكة الحديدية . واقبل من كرونشتاد عدة آلاف من البحارة المسلحين للدفاع عن العاصمة . وارسل مندوبون لملاقاة « الفرقة الوحشية » التي كانت تتقدم نحو بتروغراد . ولما اوضح المندوبون للجنود ــ وهم جبليون من القفقاس ــ حقيقة مؤامرة كورنيلوف ، رفضت «الفرقة الوحشية» السير على بتروغراد ! وارسل كذلك عدد من الدعاة الى وحدات كورنيلوف الاخرى . وفي كل مكان معرض للخطر انشئت لجان ثورية وهيئات لقيادة النضال ضد كورنيلوف .

فاستولى على الزعماء المنشفيك والاشتراكيين الثوريين ، بما فيهم كرنسكي ، ذعر مميت ، واخذوا يحاولون خلال هذه الايام ، ان يجدوا حماية لدى البلاشفة ، اذ اقتنعوا بان البلاشفة هم في العاصمة القوة الحقيقية الوحيدة التي في استطاعتها ان تقهر كورنيلوف .

الا ان البلاشفة عند تعبئتهم الجماهير لسحق كورنيلوف ، لم يتخلوا قط عن نضالهم ضد حكومة كرنسكي ، فكانوا يفضحون امام الجماهير حكومة كرنسكي والمنشفيك والاشتراكيين الثوريين الذين كانوا في الواقع يسهلون بسياستهم مؤامرة كورنيلوف المعادية للثورة .

وبفضل كل هذه التدابير ، تم سحق مؤامرة كورنيلوف ، وانتحر الجنرال كريموف . اما كورنيلوف وزميلاه دينيكين ولوكومسكي فقد اعتقلوا . غير

ان كرنسكي لم يلبث ان اطلق سراحهم بعد ذلك بقليل .

ان سحق مغامرة كورنيلوف اظهر، دفعة واحدة، النسبة بين قوى الثورة وقوى اعداء الثورة ، واظهر ان معسكر اعداء الثورة باسره فاشل خاسر ، ابتداء من الجنرالات وجزب الكاديت الى المنشفيك والاشتراكيين الثوريين المتخبطين في شباك البورجوازية . وصار من الواضح ان سياسة الاستمرار في حرب منهكة ، والخراب الاقتصادي الذي اولدته هذه السياسة ، قد زعزعا نهائيا نفوذهم بين الجماهير الشعبية .

واظهر سحق كورنيلوف ايضا ان الحزب البلشفي قد غا واصبح القوة الحاسمة في الثورة ، القوة القادرة على تحطيم جميع محاولات اعداء الثورة . ولم يكن حزبنا بعد، حزبا حاكما ، ولكن تبين خلال محاولة كورنيلوف انه القوة الحاكمة الحقيقية ، ما دام العمال والجنود ينفذون تعليماته دون تردد .

واظهر سحق كورنيلوف اخيرا ان مجالس السوفيات ، التي كان يبدو انها قد ماتت ، تنطوي على قوة عظيمة للمقاومة الثورية ، اذ لم يكن ثمة مجال للشك في ان مجالس السوفيات ولجانها الثورية هي التي سدت الطريق امام جيوش كورنيلوف وزعزعت قواها .

ان النضال ضد كورنيلوف بعث الحياة في مجالس السوفيات لنواب العمال والجنود ، وحررها من قيود سياسة التفاهم ، واخذ بيدها الى جادة النضال الثوري الواسعة ، ووجهها الى جانب الحزب البلشفي .

واخذ نفوذ البلاشفة في مجالس السوفيات ينمو بصورة لم يسبق لها مثيل .

كذلك نفوذهم في الارياف كان ينمو بسرعة .

فقد اظهر عصيان كورنيلوف لجماهير الفلاحين الواسعة ان كبار ملاكي الاراضي والجنرالات ، اذا تم لهم سحق البلاشفة ومجالس السوفيات ، فسوف ينتقلون الى مهاجمة الفلاحين . ولذا ازدادت الجموع الكبرى من الفلاحين الفقراء التفافاً حول البلاشفة . كما ان الفلاحين المتوسطين الذين كان ترددهم قد منع تقدم الثورة خلال المرحلة الممتدة من نيسان الى آب ١٩١٧ ، بدأوا، بعد

سحق كورنيلوف ، يتجهون باختيارهم نحو الحزب البلشفي ، فينضمون الى جماهير الفلاحين الفقراء . وهكذا اخذت جماهير الفلاحين الواسعة تدرك شيئاً فشيئاً ان الحزب البلشفي هو الحزب الوحيد الذي يستطيع ان يخلصها من الحرب وان يقهر كبار ملاكي الاراضي وان يعطي الفلاحين الارض .

واخذت حوادث احتلال اراضي كبار الملاكين النبلاء من قبل الفلاحين تتكاثر الى حد كبير في ايلول وتشرين الاول ١٩١٧ ، واصبح لجوء الفلاحين الى حرث هذه الاراضي بالقوة حادثا عاما يمتد الى كل انحاء البلاد . واصبحت المواعظ وبعثات التأديب عاجزة عن ايقاف الفلاحين الناهضين الى الثورة .

لقد كانت الثورة في صعود .

واتت مرحلة تنشيط مجالس السوفيات وتجديدها ، مرحلة **بلشفتها**. فاخذت المصانع والمعامل والتشكيلات العسكرية ، عند تجديد نوابها ، ترسل الى مجالس السوفيات ممثلي الحزب البلشفي عوضاً عن المنشفيك والاشتراكيين الثوريين . وفي ٣١ آب ، غداة الانتصار على كورنيلوف ، اعلن سوفيات بتروغراد انحيازه للسياسة البلشفية . واستقال مكتب سوفيات بتروغراد السابق المؤلف من الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك وعلى رأسهم تشيكيدزه ، متخلياً عن مكانه للبلاشفة . وفي ٥ ايلول انحاز سوفيات نواب العمال في موسكو الى البلاشفة . واستقال كذلك المكتب المنشفيكي والاشتراكي الثوري في سوفيات موسكو . وترك مكانه للبلاشفة .

وكان ذلك كله دليلا على ان الشروط الاساسية الضرورية للثورة المسلحة الظافرة قد نضجت .

فبرز من جديد شعار « كل الحكم للسوفيات ! » .

ولكنه لم يعد ذلك الشعار القديم ، شعار تسليم السلطة الى مجالس السوفيات المنشفيكية والاشتراكية الثورية ، بل صار شعار ثورة السوفيات على الحكومة الموقتة ، لكي تنتقل السلطة الكاملة في البلاد الى مجالس السوفيات التي يقودها البلاشفة .

اما احزاب التفاهم فقد ساد الارتباك صفوفها .

وتحت ضغط الفلاحين ذوي الافكار الثورية تألف بين الاشتراكيين الثوريين جناح يساري عرف باسم الاشتراكيين الثوريين «اليساريين» وقد اعلن هؤلاء استياءهم من سياسة التفاهم مع البورجوازية .

وتألف بين المنشفيك ايضاً فريق من «اليساريين» عرفوا باسم « الامميين » وكانوا يميلون نحو البلاشفة .

اما الفوضويون ، وكانوا جماعة لا شأن لها من حيث النفوذ ، فقد تفرقوا نهائياً الى كتل صغيرة ، واختلط بعضهم بالعناصر المجرمة من حثالة المجتمع ـ اللصوص والجواسيس ـ وانقلب بعضهم الى مغتصبين « مثاليين » ينهبون الفلاحين وصغار المنتجين في المدينة ، ويصادرون نوادي العمال ومراكزهم وما وفروه من دراهم ، وارتمى البعض الآخر علناً في معسكر اعداء الثورة ، سعياً وراء تنظيم حياتهم الشخصية من فتات موائد البورجوازية . ولكنهم كانوا جميعاً ضد كل سلطة بما في ذلك خصوصاً سلطة العمال والفلاحين الثورية ، لاقتناعهم بان السلطة الثورية لن تسمح لهم بنهب الشعب وتبذير المُلكية الشعبية .

بعد سحق كورنيلوف قام المنشفيك والاشتراكيون الثوريون بمحاولة جديدة لاضعاف النهوض الثوري الذي كان يشتد ويزداد قوة . ولهذه الغاية جمعوا في ١٢ ايلول ١٩١٧ مؤتمراً ديموقراطياً لروسيا ، مؤلفاً من ممثلي الاحزاب الاشتراكية ومجالس السوفيات التفاهمية والنقابات والزمستفو والاوساط الصناعية والتجارية وبعض التشكيلات العسكرية. والّف المؤتمر في قلبه ما اسموه «البرلمان التمهيدي» (مجلس الجمهورية الموقت). وكان التفاهميون يأملون ان يتمكنوا ، بواسطة هذا البرلمان التمهيدي ، من وقف الثورة وتحويل البلاد عن طريق الثورة السوفياتية الى طريق التطور الدستوري البورجوازي ،

طريق الحياة البرلمانية البورجوازية . ولكنها كانت محاولة فاشلة قام بها ساسة مفلسون لارجاع دولاب الثورة الى الوراء . وكان من الواضح تماماً ان هذه المحاولة ستفشل فشلا مخزياً . وهو ما حدث فعلا . فقد هزأ العمال بالتمرينات البرلمانية التي كان التفاهميون يقومون بها . وزيادة في السخرية والتهكم اطلقوا على البرلمان اسم «الحمّام التمهيدي» !

وقررت اللجنة المركزية للحزب البلشفي مقاطعة «البرلمان التمهيدي» . وصحيح ان الفرقة البلشفية في هذا «البرلمان التمهيدي» المؤلفة من اناس من نوع كامينيف وتيودوروفيتش ، لم تكن تريد مغادرة قاعة هذا البرلمان ، غير أن لجنة الحزب المركزية اجبرتها على ذلك .

كان الحاح كامينيف وزينوفييف على ضرورة الاشتراك في البرلمان التمهيدي يرمي الى صرف الحزب عن الاستعداد للثورة المسلحة . وقد تكلم الرفيق ستالين في احدى جلسات الفرقة البلشفية في مجلس روسيا الديموقراطي ، فعارض معارضة شديدة في هذا الاشتراك ، ووصف البرلمان التمهيدي بانه «نتاج اجهاض الحركة الكورنيلوفية» .

كان لينين وستالين يعتبران الاشتراك في البرلمان التمهيدي ، ولو لمدة قصيرة من الزمن ، خطأ خطيراً ، لما يمكن ان يولده هذا الاشتراك لدى الجماهير من اوهام عن ان البرلمان التمهيدي قادر حقاً على تحقيق شيء ما للشغيلة .

وفي الوقت نفسه كان البلاشفة يهيئون بجد وثبات انعقاد المؤتمر الثاني للسوفيات ، آملين ان يحرزوا فيه الاكثرية . وتحت ضغط مجالس السوفيات البلشفية ، وبالرغم من العراقيل التي خلقها المنشفيك والاشتراكيون الثوريون الذين كانوا مسيطرين على اللجنة المركزية لمجالس السوفيات لعموم روسيا ، حُدد النصف الثاني من شهر اوكتوبر ١٩١٧ موعداً لانعقاد المؤتمر الثاني للسوفيات .

٦ ـ ثورة اوكتوبر المسلحة في بتروغراد واعتقال الحكومة الموقتة ـ مؤتمر السوفيات الثاني وتأليف الحكومة السوفياتية ـ مراسيم مؤتمر السوفيات الثاني عن السلام وعن الارض ـ انتصار الثورة الاشتراكية ـ اسباب انتصار الثورة الاشتراكية .

كان البلاشفة يتهيأون بعزيمة كبرى للثورة المسلحة . وكان لينين يقول ان البلاشفة بعدما احرزوا الاكثرية في المجالس السوفياتية لنواب العمال والجنود في العاصمتين ـ موسكو وبتروغراد ـ اصبح في امكانهم ومن واجبهم ان يأخذوا الحكم بايديهم . وقال لينين مستعرضاً ما تم من خطوات : « ان اكثرية الشعب معنا » .

واعطى لينين في مقالاته ورسائله الى اللجنة المركزية والمنظمات البلشفية ، البرنامج الواقعي الملموس لتحقيق الثورة المسلحة : كيفية الاستفادة من الوحدات العسكرية والاسطول الاحمر والحرس الاحمر ، وما هي المراكز والنقاط الحاسمة التي ينبغي الاستيلاء عليها في بتروغراد لتأمين نجاح الثورة المسلحة ، الخ ...

وفي ٧ اوكتوبر جاء لينين سراً من فنلندا الى بتروغراد ، وفي ١٠ اوكتوبر انعقدت جلسة اللجنة المركزية ، تلك الجلسة التاريخية التي تقرر فيها القيام بالثورة المسلحة في وقت قريب . وكان قرار اللجنة المركزية التاريخي الذي كتبه لينين يقول :

« ترى اللجنة المركزية ان الوضع الدولي للثورة الروسية (حركة التمرد المسلحة في الاسطول الالماني من حيث هي ظاهرة خطيرة لنمو الثورة الاشتراكية العالمية في اوروبا باسرها ،

التهديد باجراء صلح بين المستعمرين بقصد خنق الثورة الروسية)، وكذلك الوضع العسكري (القرار القاطع الذي اتخذته البورجوازية الروسية وكرنسكي وزملاؤه بتسليم بتروغراد الى الالمان)، ثم احراز حزب البروليتاريا الاكثرية في مجالس السوفيات — كل ذلك بالاضافة الى نهوض الفلاحين وحدوث انعطاف في الثقة الشعبية لصالح حزبنا (انتخابات موسكو)، واخيراً الاستعداد الواضح لمغامرة كورنيلوفية ثانية (سحب الجيوش من بتروغراد، نقل القوزاق الى هذه المدينة، محاصرة القوزاق لمدينة منسك، الخ) — ان كل هذه الوقائع تضع الثورة المسلحة على بساط البحث.

«ولما كانت اللجنة المركزية تعتبر ان الثورة المسلحة لا بد ولا مناص منها، وانها قد بلغت النضج التام، فهي تدعو كل منظمات الحزب الى استمداد نشاطها من هذا الواقع، وان تبحث وتحل على هذا الاساس كل المسائل العملية (مثلاً مؤتمر السوفيات للمنطقة الشمالية، انسحاب الجيوش من بتروغراد، حوادث موسكو ومنسك، وغير ذلك)». (لينين: المؤلفات المختارة، المجلد الثاني، ص ١٥٤).

وقف في وجه هذا القرار التاريخي وصوت ضده عضوان من اعضاء اللجنة المركزية هما كامينيف وزينوفييف. فانهما، كالمنشفيك، كانا يحلمان بجمهورية برلمانية برجوازية ويفتريان على الطبقة العاملة بزعمهما انها لا تملك القوة الكافية للقيام بالثورة الاشتراكية، وانها ليست بعد على ما يكفي من النضج لاخذ الحكم.

اما تروتسكي فلم يصوت في هذه الجلسة ضد القرار بصورة مباشرة. ولكنه اقترح ادخال تعديل من شأنه ان يحبط الثورة المسلحة ويجعلها هباء. فقد اقترح عدم البدء بالثورة المسلحة قبل افتتاح مؤتمر السوفيات الثاني. وكان

معنى ذلك تطويل امد الثورة المسلحة والمماطلة فيها ، واعلان موعدها مقدماً واطلاع الحكومة الموقتة على ذلك .

وارسلت اللجنة المركزية للحزب البلشفي مندوبين الى الدونباس (حوض الدونيتز) والاورال وهلسنغفورس وكرونشتاد والى الجبهة الجنوبية الغربية ... الخ ، لتنظيم الثورة المسلحة في الملحقات . وقدكلف الحزب الرفاق فوروشيلوف ومولوتوف وجيرجنسكي واورجونيكيدزه وكيروف وكاغانوفيتش وكويبيشيف وفرونزه وياروسلافسكي وآخرين بقيادة الثورة المسلحة في الملحقات . وكان الرفيق جدانوف في شادرينسك (في الاورال) يقود العمل فيالجيش . وكان مندوبو اللجنة المركزية يشرحون لقادة المنظمات البلشفية برنامج الثورة المسلحة ويهيبون بهم لدعم الثورة المسلحة في بتروغرد .

وطبقاً لتعليمات لجنة الحزب المركزية انشئت **لجنة عسكرية ثورية تابعة** لسوفيات بتروغراد ، فاصبحت هيئة اركان الثورة المسلحة ، المعترف بها من الجميع .

وخلال ذلك كانت الرجعية عدوة الثورة هي ايضا تهيء قواها على عجل. فتألف اتحاد معاد للثورة اسمه « اتحاد الضباط » . وكان اعداء الثورة يؤلفون في كل مكان هيئات اركان لتشكيل افواج صدام . وفي اواخر اوكتوبر كان لدى الرجعية ٤٣ فوجاً ، وانشئت سريات مؤلفة باسرها من فرسان القديس جاورجيوس .

ووضعت حكومة كرنسكي على بساط البحث مسألة نقل الحكومة الى موسكو ، وكان ذلك دليلا على استعدادها لتسليم بتروغراد الى الالمان لاجل قمع الثورة في العاصمة . ولكن احتجاج العمال وجنود الحامية اجبر الحكومة الموقتة على البقاء في بتروغراد .

وفي ١٦ اوكتوبر انعقدت جلسة واسعة للجنةالحزب المركزية ، وانتخبت مركزاً حزبياً لقيادة الثورة المسلحة ، وعلى رأسه الرفيق ستالين . وكانهذا المركز ، وهو النواة القائدة في اللجنة العسكرية الثورية التابعة لسوفيات

بتروغراد ، هو الذي قاد الثورة المسلحة عملياً .

وقد وقف الانهزاميان زينوفييف وكامينيف مرة اخرى، في جلسة اللجنة المركزية ، يعارضان الثورة المسلحة . وعندما خذلتهما اللجنة المركزية قررا ابداء رأيهما ضد الثورة المسلحة وضد الحزب علناً ، في الصحافـــة . وفي ١٨ اوكتوبر نشرت جريـــدة **نوفاياجيزن** (١) المنشفيكية تصريحاً لكامينيف وزينوفييف عن تحضير البلاشفة لثورة مسلحة يعتبرانها هما كمغامرة . وهكذا أفشى كامينيف وزينوفييف للاعداء قرار اللجنة المركزية عن القيام بالثورة المسلحة وتنظيمها في القريب العاجل . وكان ذلك خيانة واضحة . وقد كتب لينين بصدد ذلك : « ان كامينيف وزينوفييف قـــد سلما الى رودزيانكو وكرنسكي قرار لجنة حزبهما المركزية عن الثورة المسلحة » . ووضع لينين امام اللجنة المركزية مسألة طرد زينوفييف وكامينيف من الحزب .

اتخذ اعداء الثورة حالا ، على اثر انذار الخائنين لهم ، كل التدابير لقمع الثورة المسلحة وسحق الحزب البلشفي الذي هو هيئة اركان الثورة . وعقدت الحكومة الموقتة جلسة سرية قررت فيها التدابير اللازم اتخاذها لمكافحة البلاشفة. وفي١٩ اوكتوبر استدعت الحكومة الموقتة الى بتروغراد ، على جناح السرعة، جيوشاً من الجبهة . ونزلت دوريات قوية تجول في الطرقات . ونجحت الرجعية عدوة الثورة في تجميع قوى هامة في موسكو ايضاً . وكانت الحكومة الموقتة قد وضعت خطتها ، وهي : قبل افتتاح المؤتمر الثاني للسوفيات بيوم واحد ، مهاجمة معهد سمولني ـــ الذي كان مقر اللجنة المركزية البلشفية ـــ واحتـــلاله وسحق المركز القيادي البلشفي . ولهـــذه الغاية استقدمت الحكومة الى بتروغراد جيوشاً كانت تعتقد انها امينة لها .

غير ان ايام الحكومة الموقتة وساعاتها كانت معدودة . ولم تكن ثمة قوة تستطيع وقف السير الظافر للثورة الاشتراكية .

---

(١) : الحياة الجديدة .

(هيئة التعريب)

في ٢١ اوكتوبر ارسل البلاشفة مفوضين من قبل اللجنة العسكرية الثورية الى جميع الوحدات الثورية . وخلال الايام السابقة للثورة المسلحة ، استعدت الوحدات العسكرية وكذلك المصانع والمعـــامل ، بعزيمة كبرى للقتال ، وأعطيت مهمات دقيقة للمدرعتين **أفرورا** (الفجر) و **زاريا سفوبودي** (فجر الحرية) .

ولكن في جلسة سوفيات بتروغراد ، وبدافع الادعاء والغطرسة ، افشى تروتسكي للعدو التاريخ الذي حدده البلاشفة للقيام بالثورة المسلحة . فلمنع حكومة كرنسكي من احباط الثورة المسلحة ، قررت اللجنة المركزية للحزب البدء بالثورة وانجازها قبل موعدها ، اي قبل افتتاح المؤتمر الثاني للسوفيات بيوم واحد .

وفي ٢٤ أوكتوبر (٦ تشرين الثاني) ، بادر كرنسكي في الصباح الباكر الى اصدار مرسوم بتعطيل جريدة الحزب البلشفي المركزية: **رابوتشي بوت** (طريق العمال) ، ووجه مصفحات الى ادارة تحريرها والى مطبعة البلاشفة . ولكن حوالي الساعة العاشرة صباحـــاً ، ووفقاً لتعليمات الرفيق ستالين ، **رد** الحرس الاحمر والجنود الثوريون هذه المصفحات واقاموا حراسة مشددة على ابواب المطبعة وادارة تحرير جريدة **رابوتشي بوت** . وفي الساعة الحادية عشرة صدرت **رابوتشي بوت** وفيها نداء الى **خلع** الحكومة الموقتة . وفي الوقت نفسه ، بناء على تعليمات المركز الحزبي الذي كان يقود الثورة المسلحة ، وُجهت على عجل الى معهـــد سمولني فصائل من الجنود الثوريين والحرس الاحمر .

لقد بدأت الثورة المسلحة .

وفي ٢٤ اوكتوبر ليلا، وصل لينين الى سمولني واخذ بيديه قيادة الثورة المسلحة. وظلت تفد على سمولني طيلة الليل وحدات ثورية من الجيش وفصائل من الحرس الاحمر ، فيوجهها البلاشفة نحو مركز العـــاصمة لمحاصرة القصر الشتوي الذي كانت الحكومة الموقتة معتصمة فيه .

وفي ٢٥ اوكتوبر (٧ تشرين الثاني) احتـل الحرس الاحمر والجيوش الثورية المحطات والبريد والبرق والوزارات وبنك الدولة .

وحُل البرلمان التمهيدي .

واصبح معهد سمولني ، الذي كان مقر سوفيـات بتروغراد واللجنة المركزية البلشفية ، مركزا لهيئة اركان الثورة ، وعنه تصدر اوامر القتال .

لقد برهن عمال بتروغراد خلال هذه الايام انهم اجتازوا ، تحت قيادة الحزب البلشفي ، مدرسة كانت لهم نعم المدرسة . وكانت وحدات الجيش الثورية ، التي هيأها للثورة المسلحة عمل البلاشفة ، تنفذ اوامر القتال بامانة ، وتقاتل جنباً الى جنب مع الحرس الاحمر . ولم يتأخر الاسطول عن الجيش في هذا المضمار . فقد كانت قلعة كرونشتاد البحرية حصناً للحزب البلشفي وكانت منذ زمن طويل لا تعترف بسلطة الحكومة الموقتة .

وفي ٢٥ اوكتوبر دشنت المدرعة **افرورا** ، بقصف مدافعها المصوبة الى القصر الشتوي ، افتتاح عهد جديد : عهد الثورة الاشتراكية الكبرى .

وفي ٢٥ اوكتوبر (٧ تشرين الثاني) اذاع البلاشفة نداء « الى مواطني روسيا » يعلن اسقاط الحكومة الموقتة البورجوازية ، وانتقال سلطة الدولة الى السوفيات .

وكانت الحكومة الموقتة قد تحصنت في القصر الشتوي تحت حماية الجونكر وفصائـل الصدام . وفي ليـل ٢٥ ــ ٢٦ اوكتوبر هاجم العمال والجنود والبحارة الثوريون القصر الشتوي واستولوا عليه والقوا القبض على الحكومة الموقتة .

لقد انتصرت الثورة المسلحة في بتروغراد .

وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين مـن مساء ٢٥ اوكتوبر (٧ تشرين الثاني) ١٩١٧ ، افتتح في سمولني المؤتمر الثاني لمجالس السوفيات في روسيا ، بينما كانت الثورة المسلحة في اوجها في بتروغراد ، والحكم قد اصبح فعلياً في ايدي سوفيات بتروغراد .

وكان البلاشفة قد حصلوا في المؤتمر على الاكثرية الكبرى ، اما المنشفيك وجماعة البوند والاشتراكيون الثوريون اليمينيون ، فلما رأوا ان نجمهم قد أفل ، غادروا المؤتمر معلنين انهم يرفضون الاشتراك في اعماله . وتلوا بيانا وصفوا فيه ثورة اوكتوبر بانها« مؤامرة عسكرية » . فشجب المؤتمر موقف المنشفيك والاشتراكيين الثوريين ، واشار الى انه لا يكتفي بعدم الاسف لانسحابهم ، بل يعلن اغتباطه لهذا الانسحاب ، اذ يصبح المؤتمر ، بخروج الخونة منه، مؤتمراً ثورياً حقيقياً لنواب العمال والجنود .

واعلن المؤتمر ان السلطة كلها قد انتقلت الى ايدي مجالس السوفيات ، واذاع نداء جاء فيه :

> « ان المؤتمر ، مستنداً الى ارادة الاكثرية العظمى من العمال والجنود والفلاحين ، ومستنداً الى الثورة المسلحة الظافرة التي قام بها عمال بتروغراد وحاميتها ، يأخذ السلطة كلها بيديه » .

وفي ليل ٢٦ اوكتوبر (٨ تشرين الثاني) ١٩١٧ ، أقر مؤتمر السوفيات الثاني الموسوم عن السلام. وقد دعا فيه البلدان المتحاربة الى عقد هدنة في الحال، مدتها ثلاثة اشهر على الاقل ، للقيام بمفاوضات لاجل السلام . ومع توجيه النداء الى حكومات البلدان المتحاربة وشعوبها ، وجه المؤتمر نداءه في الوقت نفسه الى « العمال الواعين في انكلترا وفرنسا والمانيا ، بوصفها اكثر امم الانسانية تقدماً واكبر الدول المشتركة في الحرب الحاضرة » . وقد دعا المؤتمر هؤلاء العمال الى اسداء معونتهم لاجل « نجاح قضية السلام ومعها قضية تحرير الجماهير العاملة والمستثمَرة من كل استعباد وكل استثمار .»

وفي الليلة نفسها أقر مؤتمر السوفيات الثاني الموسوم عن الارض وبموجبه « يلغى حالاً حق كبار الملاكين في ملكية الارض دون اي تعويض » . وكان هذا القانون الزراعي مستمداً من تفويض عام من الفلاحين وُضع بالاستناد الى ٢٤٢ تفويضاً محلياً . ووفقاً لنصوص هذا التفويض، يُلغى حق الملكية الخاصة على الارض الى الابد ، ويستعاض عنه بملكية الامة ، بملكية الدولة للارض.

فتسلم اراضي كبار الملاكين والاديرة واقطاعات النبلاء الى جميع الشغيلة ويكون لهم فيها حق التصرف المجاني .

وقد استلم الفلاحون من ثورة اوكتوبر الاشتراكية بموجب هذا المرسوم اكثر من ١٥٠ مليون دسياتين (الدسياتين = ١٫٠٩٢ هكتار) من الاراضي الجديدة التي كانت حتى ذلك الحين في ايدي كبار الملاكين والبورجوازية والاسرة المالكة القيصرية والاديرة والكنيسة .

وتحرر الفلاحون من عبء اجور الارض السنوية التي كانوا يدفعونها لكبار الملاكين وكانت تبلغ ٥٠٠ مليون روبل ذهبي .

واصبحت كل الثروة التي يحتويها باطن الارض (البترول ، الفحم ، المعادن الخ..) وكذلك الغابات والمياه ، ملكاً للشعب .

واخيراً تألفت في مؤتمر السوفيات الثاني اول حكومة سوفياتية وهي : مجلس مفوضي الشعب . وقد تألف المجلس بكليته من البلاشفة وانتخب لينين رئيساً لاول مجلس لمفوضي الشعب .

هكذا انتهى المؤتمر الثاني التاريخي لمجالس السوفيات .

وعاد المندوبون الى مناطقهم لاذاعة نبأ انتصار مجالس السوفيات في بتروغراد ولتأمين انتشار الحكم السوفياتي على البلاد باسرها .

لم تنتقل السلطة الى السوفيات في كل مكان في الوقت نفسه . ففيما كانت السلطة السوفياتية قد قامت في بتروغراد ، كانت شوارع موسكو لا تزال تشهد معارك عنيفة شديدة استمرت اياماً عديدة . فان الاحزاب المعادية للثورة ، المنشفيك والاشتراكيين الثوريين ، يساعدها الحرس الابيض والجونكر ، اشهرت على العمال والجنود نضالا مسلحاً لمنع انتقال السلطة الى ايدي سوفيات موسكو . ولم يمكن قهر العصاة واقامة حكم السوفيات في موسكو الا بعد مرور ايام عديدة .

وفي بتروغراد نفسها وقعت في بعض الاحياء ، خلال الايام الاولى التي تلت انتصار الثورة ، محاولات رجعية معادية للثورة هدفها تقويض الحكم

السوفياتي . كذلك في ١٠ تشرين الثاني ١٩١٧ ، تمكن كرنسكي ، الذي فر من بتروغراد اثناء الثورة المسلحة ولجأ الى منطقة الجبهة الشمالية ، من جمع عدد من وحدات القوزاق والقاها على بتروغراد بقيادة الجنرال كراسنوف .
وفي ١١ تشرين الثاني ١٩١٧ ، اثارت المنظمة الرجعية المعادية للثورة المسماة « لجنة انقاذ الوطن والثورة » وعلى رأسها اشتراكيون ثوريون ، حركة عصيان بين الجونكر في بتروغراد نفسها . ولكن العصاة قُهروا دون كبير عناء . فخلال يوم واحد ، في مساء ١١ تشرين الثاني ، سحق البحارة والحرس الاحمر عصيان الجونكر ، وفي ١٣ تشرين الثاني هزم الجنرال كراسنوف قرب مرتفعات بولكوفو . وقاد لينين بنفسه المعركة لقمع العصيان ضد السوفيات ، كما فعل اثناء ثورة اوكتوبر المسلحة . وكانت صلابته التي لا تتزعزع ، ويقينه الهادىء بالانتصار يلهمان الجماهير ويرصان صفوفها . فتم قهر العدو ، واعطى الجنرال كراسنوف ، الذي وقع اسيراً ، « كلمة شرف » بانه لن يناضل بعد الان ضد الحكم السوفياتي ، فاطلق سراحه بناء على « كلمة الشرف » هذه . ولكن كراسنوف خان فيما بعد وعده الذي قطعه على نفسه كجنرال . اما كرنسكي فقد تنكر في زي امرأة وهرب « الى جهة مجهولة » .
وفي موهيليف ، في مقر القيادة العامة للجيوش ، حاول كذلك الجنرال دوخونين القيام بعصيان . وكانت الحكومة السوفياتية قد دعت دوخونين الى الدخول حالا في مفاوضات مع القيادة الالمانية لعقد هدنة ، فرفض الانصياع لتعليمات الحكومة ، فاصدرت السلطة السوفياتية امراً باقالته ، وثار الجنود فحطموا مقر القيادة العامة وقتلوا دوخونين .
كذلك حاول النيل من حكم السوفيات الانتهازيون المعروفون في داخل الحزب : كامينيف وزينوفييف وريكوف وشليابنيكوف وآخرون . فقد طلبوا تأليف « حكومة اشتراكية متجانسة » يشترك فيها المنشفيك والاشتراكيون الثوريون الذين خلعتهم ثورة اكتوبر منذ قليل . وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩١٧ صوتت اللجنة المركزية للحزب البلشفي على قرار برفض

الاتفاق مع هذه الاحزاب المعادية للثورة . اما كامينيف وزينوفييف فقد وُصفا بخائنين للثورة . وفي ١٧ تشرين الثاني اعلن كامينيف وزينوفييف وريكوف وميليوتين انسحابهم من اللجنة المركزية لعدم موافقتهم على سياسة الحزب . وفي اليوم نفسه ، ١٧ تشرين الثاني ، اعلن نوغين باسمه الشخصي وباسم ريكوف ، و ف . ميليوتين وتيودوروفيتش و ا . شليابنيكوف وريازانوف ويورنيف ولارين ، الذين كانوا اعضاء في مجلس مفوضي الشعب ، انهم غير موافقين على سياسة اللجنة المركزية للحزب ، وانهم ينسحبون من مجلس مفوضي الشعب . وقد احدث قرار هذه الحفنة من الجبناء ابتهاجاً في صفوف اعداء ثورة اكتوبر . وراحت البورجوازية واعوانها يضحكون ويصيحون بان البلشفية في انهيار ، ويتنبأون بهلاك الحزب البلشفي . غير ان هذه الحفنة من الجبناء الهاربين لم تزعزع الحزب لحظة واحدة . فقد وصفتهم اللجنة المركزية ، باحتقار ، بانهم فارّون من الثورة واعوان للبورجوازية ، ثم انتقلت الى بحث جدول الاعمال .

اما الاشتراكيون الثوريون « اليساريون » فرغبة منهم في الاحتفاظ بنفوذهم بين جماهير الفلاحين التي كانت تميل ميلاً واضحاً الى البلاشفة ، قرروا عدم تعكير علاقاتهم مع البلاشفة والمحافظة مؤقتاً على الجبهة الموحدة معهم . واعترف مؤتمر مجالس السوفيات الفلاحية المنعقد في تشرين الثاني ١٩١٧ بكل ماحققته ثورة اوكتوبر الاشتراكية وبجميع مراسيم السلطة السوفياتية . وعقد اتفاق مع الاشتراكيين الثوريين « اليساريين » ودخل عدد منهم في مجلس مفوضي الشعب (وهم كوليغاييف ، سبيريدونوفا ، بروشيان ، وشتاينبرغ) . ولكن هذا الاتفاق لم يدم الا الى حين توقيع معاهدة برست ليتوفسك وتشكيل لجان الفلاحين الفقراء ، عندما اخذ يحدث تفريق عميق بين الفلاحين ، واصبح الاشتراكيون الثوريون « اليساريون » اكثر فاكثر ممثلين لمصالح الكولاك ، فثاروا عصياناً ضد البلاشفة وسحقتهم السلطة السوفياتية .

بين اوكتوبر ١٩١٧ ، وكانون الثاني ــ شباط ١٩١٨ ، تمكنت الثورة

السوفياتية من الانتشار الى البلاد باسرها . وكان حكم السوفيات يسير منتشراً على اراضي البلاد الواسعة بسرعة عظيمة الى درجة ان لينين وصفه بـ « الزحف الظافر » للحكم السوفياتي .

لقد انتصرت ثورة اوكتوبر الاشتراكية الكبرى .

وبين الاسباب العديدة التي ادت الى هذا الانتصار ، السهل نسبياً ، الذي احرزته الثورة الاشتراكية في روسيا ، ينبغي الاشارة الى الاسباب الرئيسية التالية :

١ ـ كان امام ثورة اوكتوبر عدو ضعيف نسبياً ، سيء التنظيم ، قليل التجربة في السياسة ، هو البورجوازية الروسية. فالبورجوازية الروسية التي لم تكن بعدُ قوية اقتصادياً ، والتي كانت تابعة كلياً لمشتريات الحكومة ، لم يكن لديها لا الاستقلال السياسي ولا المبادرة الكافية الضروريان لايجاد مخرج من الحالة . فهي لم تكن تملك تجربة التطبيقات وعمليات التضليل السياسية الواسعة النطاق التي تبرع فيها مثلاً البورجوازية الفرنسية ، كما انه لم يكن لديها ، في التراضيات والمساومات الدنيئة البارعة الواسعة المدى، مثل المدرسة التي تملكها مثلاً البورجوازية الانكليزية . فحتى الامس القريب ، كانت البورجوازية الروسية لا تزال تسعى وراء تفاهم مع القيصر الذي خلعته ثورة شباط ، ثم لما وصلت بعد ذلك الى الحكم لم تجد احسن من متابعة سياسة القيصر المكروه بخطوطها الكبرى . فكانت ، كالقيصر ، تريد « الحرب الى النهاية الظافرة » رغم ان الحرب اصبحت حملاً لا يطاق على كاهل البلاد ، ونهكت الشعب والجيش نهكاً تاماً. وكانت، كالقيصر ، تريد المحافظة ، من حيث الاساس ، على ملكية النبلاء للارض ، رغم ان الفلاحين كانوا يعانون الموت والهلاك من قلة الارض ومن نير كبار الملاكين . اما فيما يتصل بالسياسة نحو الطبقة العاملة، فقد ذهبت البورجوازية الروسية في حقدها على العمال الى ابعد مما ذهب القيصر، فهي لم تسع فقط الى الابقاء على ارهاق اصحاب المصانع والمعامل للعمال وتقويته ، بل جعلته ايضاً لا يطاق ولا يغتفر بلجوئها الى تسريح العمال

جماهيريا .

فلا غرابة اذا لم ير الشعب فرقاً جوهرياً بين سياسة القيصر وسياسة البورجوازية ، واذا تحول حقده على القيصر الى حقد على حكومة البورجوازية المؤقتة .

وطالما كان الحزبان التفاهميان، الاشتراكي الثوري والمنشفيكي ، يتمتعان ببعض النفوذ على الشعب ، تيسر للبورجوازية ان تستتر وراءهما وان تحافظ على الحكم . ولكن منذ ما فضح المنشفيك والاشتراكيون الثوريون انفسهم كعملاء للبورجوازية الاستعمارية ، ففقدوا نفوذهم على الشعب ، اصبحت البورجوازية وحكومتها الموقتة معلقتين في الهواء .

٢ ــ كان على رأس ثورة اوكتوبر تلك الطبقة الثورية ، طبقة العمال في روسيا ، هذه الطبقة التي تمرست بنيران المعارك ، والتي مرت خلال حقبة قصيرة من الزمن ، بثورتين ، واكتسبت على اعتاب الثورة الثالثة ، هيبة واعتباراً اولياها زعامة الشعب في النضال لاجل السلام والارض والحرية والاشتراكية. فلو لم يكن على رأس الثورة هذا الزعيم المتمتع بثقة الشعب ، الذي هو الطبقة العاملة في روسيا ، لما تحقق تحالف العمال والفلاحين ، ولولا هذا التحالف لما تمكنت ثورة اوكتوبر من الانتصار .

٣ ــ كان للطبقة العاملة في روسيا حليف جدي في الثورة هو الفلاحون الفقراء الذي كانوا يؤلفون الاكثرية العظمى من سواد الفلاحين . ان تجربة اشهر الثورة الثانية التي يمكن مقارنتها ، دون تردد ، بتجربة عشرات السنين من التطور « العادي» لم تذهب سدى بالنسبة للجماهير الكادحة من الفلاحين . فقد تيسر لهم خلال هذه المدة ان يختبروا عملياً جميع الاحزاب في روسيا ، وان يقتنعوا بان الكاديت والاشتراكيين الثوريين والمنشفيك ، ما كانوا ينوون تعكير علاقاتهم بصورة جدية مع كبار ملاكي الاراضي ، ولا سفك دمائهم في سبيل الفلاحين ، وان في روسيا حزباً واحداً فقط ليس له اي ارتباط بكبار ملاكي الاراضي ، وهو على استعداد لسحقهم في سبيل تلبية حاجات

الفلاحين ، وهذا الحزب هو الحزب البلشفي . هذا الواقع هو الذي صار الاساس الحقيقي لتحالف البروليتاريا والفلاحين الفقراء . وهذا التحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء هو الذي حدد سلوك الفلاحين المتوسطين الذين ترددوا مدة طويلة ، ثم فقط على اعتاب الثورة المسلحة في اوكتوبر ، تحولوا كما ينبغي الى صف الثورة ، واتحدوا مع الفلاحين الفقراء .

ولا حاجة للبرهان بان ثورة اوكتوبر ما كانت لتنتصر لولا هذا التحالف.

٤ ــ كان على رأس الطبقة العاملة هذا الحزب المُختَبر المحنك في المعارك السياسية : الحزب البلشفي . فان حزباً مثل الحزب البلشفي فقط ، لديه ما يكفي من الجرأة لقيادة الشعب الى الهجوم الحاسم ، وما يكفي من التبصر لاجتناب كل انواع العثرات على الطريق المؤدية الى الهدف ، ان مثل هذا الحزب وحده كان في استطاعته ان يجمع بصورة ملائمة وان يدمج في سيل ثوري واحد ، حركات ثورية مختلفة كالحركة الديموقراطية العامة في سبيل السلام ، وحركة الفلاحين الديموقراطية في سبيل الاستيلاء على اراضي كبار الملاكين ، وحركة التحرر الوطني لدى الشعوب المظلومة المناضلة في سبيل المساواة القومية ، وحركة البروليتاريا الاشتراكية في سبيل تقويض البورجوازية وتشييد ديكتاتورية البروليتاريا .

ولا ريب ان اندماج هذه السيول الثورية المختلفة في سيل ثوري عارم واحد ، هو الذي قرر مصير الرأسمالية في روسيا .

٥ ــ بدأت ثورة اوكتوبر والحرب الاستعمارية في معمعانها ، والدول البورجوازية الرئيسية منقسمة الى معسكرين متعادين ، وليس في امكانها ، لانشغالها بالحرب فيما بينها وبالعمل على اضعاف بعضها بعضاً ، ان تتدخل بصورة جدية في « الشؤون الروسية » وان تنهض بصورة نشيطة ضد ثورة اوكتوبر.

ولا ريب ان هذا الظرف قد سهل الى حد كبير انتصار ثورة اوكتوبر الاشتراكية .

٧ – نضال الحزب البلشفي في سبيل توطيد الحكم السوفياتي – صلح برست ليتوفسك – المؤتمر السابع للحزب.

كان لا بد لتوطيد الحكم السوفياتي من تهديم جهاز الدولة البورجوازي القديم وتحطيمه اربا اربا، وانشاء جهاز جديد للدولة السوفياتية في مكانه. وكان لا بد بعدئذ، من تحطيم بقايا الجماعات المميزة القديمة، ونظام الاضطهاد القومي، والغاء امتيازات الكنيسة، ومحو الصحافة المعادية للثورة، وكل المنظمات المعادية للثورة على مختلف اشكالها من علنية وسرية، وحل المجلس التأسيسي البورجوازي. وكان من الضروري اخيراً، بعد ما تم تأميم الارض، تأميم كل الصناعة الكبرى ايضا، ومن ثم الخروج من حالة الحرب، اي انهاء الحرب التي كانت تعرقل اكثر من اي شيء آخر توطيد الحكم السوفياتي.

وقد تم انجاز هذه التدابير جميعها خلال بضعة اشهر، من اواخر ١٩١٧ حتى اواسط ١٩١٨.

فاعمال العرقلة والتخريب التي كان ينظمها الاشتراكيون الثوريون والمنشفيك بواسطة موظفي الوزارات، حطمت وصفيت. فألغيت الوزارات واقيمت في مكانها ادارات سوفياتية ومفوضيات للشعب. وانشيء المجلس الاعلى للاقتصاد الوطني لادارة صناعة البلاد. ونظمت اللجنة فوق العادية لكل روسيا «فيتشيكا» بقيادة ف. جرجنسكي، ومهمتها مكافحة اعداء الثورة واعمال التخريب. وصدر مرسوم بانشاء الجيش الاحمر والاسطول الاحمر. وحل المجلس التأسيسي الذي جرت الانتخابات لتكوينه بصورة رئيسية قبل ثورة اوكتوبر، وكان هذا المجلس قد رفض تصديق مراسيم مؤتمر السوفيات الثاني عن السلام وعن الارض وعن انتقال الحكم الى السوفيات.

ولاجل ازالة بقايا الاقطاعية والاصناف المميزة ومحو عدم المساواة في كل ميادين الحياة الاجتماعية محواً نهائياً، صدرت مراسيم بالغاء الاصناف المميزة وبالغاء جميع انواع القيود القائمة على اساس قومي او طائفي، وبفصل الكنيسة عن الدولة، والمدرسة عن الكنيسة، وبمنح المساواة للنساء وباقامة التساوي في

الحقوق بين القوميات في روسيا .

واصدرت الحكومة السوفياتية قراراً خاصاً معروفاً باسم « اعلان حقوق شعوب روسيا » ينص على ان تطور شعوب روسيا بحرية ، وتساويها التام في الحقوق ، محميان ومكرّسان بالقانون .

وفي سبيل دك القوة الاقتصادية للبورجوازية من اساسها ، وتنظيم الاقتصاد الجديد ، الاقتصاد الوطني السوفياتي ، وفي سبيل تنظيم الصناعة الجديدة السوفياتية بوجه خاص ، جرى تأميم البنوك والسكك الحديدية والتجارة الخارجية والاسطول التجاري وكل الصناعة الكبرى بجميع فروعها : اي صناعات الفحم والتعدين والبترول والمنتجات الكيماوية والانشاءات الميكانيكية والنسيج وتصفية السكر ... الخ ...

وفي سبيل تحرير بلادنا من التبعية المالية للرأسماليين الاجانب ومن استثمارهم ، ألغيت جميع القروض الاجنبية التي عقدها القيصر والحكومة الموقتة . فان شعوب بلادنا لم تكن راغبة في دفع الديون التي أُخذت لمتابعة حرب النهب والسلب ، والتي كانت تجعل روسيا مستعبدة للرأسمال الاجنبي .

ان هذه التدابير وما ماثلها حطمت ، الى اعمق الجذور ، قوة البورجوازية وكبار ملاكي الاراضي والموظفين الرجعيين والاحزاب المعادية للثورة ، ووطدت الى حد كبير الحكم السوفياتي في داخل البلاد .

غير انه لم يكن من الممكن اعتبار وضع الحكم السوفياتي وطيداً تماماً ما دامت روسيا في حالة حرب مع المانيا والنمسا . فلأجل توطيد الحكم السوفياتي بشكل نهائي ، كان من الضروري الانتهاء من الحرب . ولهذا اشهر الحزب النضال في سبيل السلام منذ الايام الاولى لانتصار ثورة اوكتوبر .

لقد اقترحت الحكومة السوفياتية « على جميع الشعوب المتحاربة وعلى حكوماتها الدخول دون امهال في مفاوضات لعقد سلم ديموقراطي عادل » . ولكن « الحلفاء » — انكلترا وفرنسا — رفضوا اقتراح الحكومة السوفياتية . ونظراً لرفض فرنسا وانكلترا التفاوض من اجل السلم ، قررت الحكومة

السوفياتية ، تنفيذاً لارادة مجالس السوفيات ، ان تباشر المفاوضات مع المانيا والنمسا .

وقد بدأت المفاوضات في ٣ كانون الاول في برست ليتوفسك . وفي ٥ كانون الاول وُقع بين الطرفين اتفاق هدنة يقضي بوقف الاعمال الحربية موقتاً .

جرت المفاوضات في وضع كان الاقتصاد الوطني فيه يعاني الخراب والانهيار ، والبلاد قد أتعبتها الحرب ونهكتها ، وقواتنا العسكرية تغادر الجبهة التي اخذت تتبعثر وتتفسخ . وتبين خلال المفاوضات ان الاستعماريين الالمان يريدون الاستيلاء على اقسام واسعة من اراضي الامبراطورية القيصرية القديمة ، اما بولونيا واوكرانيا والولايات البلطيقية فيريدون تحويلها الى دول تابعة لالمانيا .

كانت متابعة الحرب في هذه الظروف معناها تعريض كيان الجمهورية السوفياتية المُنشأة حديثاً الى خطر الهلاك . فوجدت الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين نفسها امام ضرورة القبول بشروط السلم القاسية والتراجع امام اخطر وحش مفترس في ذلك الوقت : وهو الاستعمار الالماني ، وذلك للحصول على فترة مهادنة ، وتوطيد الحكم السوفياتي وانشاء جيش جديد هو الجيش الاحمر ، قادر على الدفاع عن البلاد ضد هجمات الاعداء .

فقام جميع اعداء الثورة ، من المنشفيك والاشتراكيين الثوريين الى افراد الحرس الابيض المفضوحين ، بحملة دعاية محمومة ضد توقيع معاهدة السلم . وكانت خطتهم واضحة ، فكانوا يريدون احباط مفاوضات السلم ، واستفزاز الالمان الى الهجوم ، ووضع الحكم السوفياتي الذي لم يتيسر له بعدُ توطيد اركانه ، تحت ضربات قاسية ، وتعريض انتصارات العمال والفلاحين الى خطر محقق .

وكان لهم في هذه المهمة السوداء حليفان هما تروتسكي و « تابعه » بوخارين الذي كان مع راديك وبياتاكوف ، يترأس جماعة معادية للحزب سمت نفسها

لاخفاء حقيقتها جماعة «الشيوعيين اليساريين» . فاشهر تروتسكي و «الشيوعيون اليساريون » في داخل الحزب نضالا عنيفاً ضد لينين ، مطالبين بمتابعة الحرب. وكان من الواضح ان هؤلاء الناس ، بموقفهم هذا ، انما يخدمون الاستعماريين الالمان واعداء الثورة في داخل البلاد ، اذ كانوا يرمون الى تعريض الجمهورية السوفياتية الفتية ، التي لم يكن لديها جيش بعد ، الى ضربات الاستعمار الالماني.

لقد كانت سياسة استفزاز وخيانة مقنعة بمهارة بعبارات يسارية .

في ١٠ شباط ١٩١٨ ، انقطعت مفاوضات السلم في بوست ليتوفسك. فرغم اصرار لينين وستالين ، باسم اللجنة المركزية ، على وجوب توقيع السلم ، خرق تروتسكي ، وكان اذ ذاك رئيس الوفد السوفياتي في بوست ليتوفسك ، تعليمات الحزب البلشفي الصريحة وخانها ، فصرح بان الجمهورية السوفياتية ترفض توقيع السلم بالشروط التي تقترحها المانيا، وفي الوقت نفسه اخبر الالمان ان جمهورية السوفيات لن تحارب ، وستتابع تسريح جيشها .

لقد كان ذلك عملاً شنيعاً فظيعاً . وما كان للاستعماريين الالمان ان يمنوا انفسهم باكثر من ذلك من خائن لمصالح البلاد السوفياتية .

قطعت الحكومة الالمانية الهدنة ، واستأنفت الهجوم . فتراجعت بقايا جيشنا القديم امام ضغط القوات الالمانية وانهزمت . وتقدم الالمان بسرعة كبرى واستولوا على مساحات واسعة وهددوا بتروغراد . وكان في نية الاستعمار الالماني ، بعد ما توغل في الاراضي السوفياتية ، ان يقضي على الحكم السوفياتي ويجعل من وطننا مستعمرة له. ولم يكن في استطاعة الجيش القيصري المبعثر ان يقاوم جحافل الاستعمار الالماني ، فكان يتراجع تحت ضربات القوات الالمانية .

غير ان التدخل العسكري المسلح الذي شنه الاستعماريون الالمان اثار نهوضاً ثورياً عظيما في البلاد . فجواباً على نداء الحزب والحكومة السوفياتية بان « الوطن الاشتراكي في خطر » ، سارعت الطبقة العاملة الى تأليف وحدات الجيش الاحمر بحماسة وحرارة . وردت الفصائل الفتية لهذا الجيش الجديد

جيش الشعب الثوري هجوم الوحش الالماني ، المسلح أتم تسليح ، ببسالة وبطولة . وقوبل الغزاة المهاجمون برد عنيف قرب نازفا وبسكوف ، واوقف تقدمهم نحو بتروغراد. واصبح يوم٢٣ شباط الذي ردت فيه جيوش الاستعمار الالماني ، يوم ميلاد الجيش الاحمر الفتي.

وكانت لجنة الحزب المركزية قد اقرت ، منذ ١٨ شباط ، اقتراح لينين بتوجيه برقية الى الحكومة الالمانية لعقد السلم حالا . غير ان الالمان كانوا يتابعون الهجوم للحصول على شروط للسلم تؤمن لهم فوائد اكبر . ولم تقبل الحكومة الالمانية بتوقيع السلم الا في ٢٢ شباط ، وذلك ضمن شروط اقسى علينا بكثير من شروط المفاوضات الاولى .

واضطر لينين وستالين وسفردلوف الى القيام باشد واعنف نضال داخل اللجنة المركزية ضد تروتسكي وبوخارين والتروتسكيين الآخرين، للحصول على قرار في مصلحة السلم . وقد اوضح لينين بان بوخارين وتروتسكي : « قد ساعدا ، في الواقع ، الاستعماريين الالمان وعرقلا تقدم الثورة وتطورها في المانيا » . (لينين ، المؤلفات المختارة ، المجلد ٢ ، الصفحة ٣٣٨)

وفي ٢٣ شباط قــررت اللجنة المركزية قبول شروط هيئة الاركان الالمانية وتوقيع السلم . ان خيانة تروتسكي وبوخارين كلفت الجمهورية السوفياتية ثمناً غالياً . فقد اخذت المانيا لتوانيا واستونيا ، فضلًا عن بولونيا ، وفصلت اوكرانيا عن الجمهورية السوفياتية لتصبح دولة تابعة لالمانيـــا ، وتعهدت الجمهورية السوفياتية بدفع غرامة للالمان .

وكان « الشيوعيون اليساريون » يتابعون خلال ذلك نضالهم ضد لينين وينحدرون اكثر فاكثر في مستنقع الخيانة .

فان المكتب المنطقي للحزب الشيوعي في موسكو ، الذي استولى عليه مؤقتا « الشيوعيون اليساريون » (بوخـــارين ، اوسينسكي ، ياكوفليفا ، ستوكوف ، مانستيف) اتخذ قراراً انقسامياً بعدم الثقة باللجنة المركزية ، واعلن « ان انقسام الحزب في وقت قريب اصبح امراً لا يمكـــن تلافيه » .

وذهب «الشيوعيون اليساريون» في موقفهم الى حد اتخاذ قرار معاد للسوفيات، فقد جاء في قرارهم : « اننا نعتبر ان من المفيد ، لمصلحة الثورة العالمية ، مجابهة امكان ازالة الحكم السوفياتي الذي اخذ يصبح الان حكماً شكلياً محضاً » .

وقد قال لينين عن هذا القرار بانه « غريب وفظيع » .

وفي ذلك الحين لم يكن واضحاً بعد للحزب السبب الحقيقي لانتهاج تروتسكي و « الشيوعيين اليساريين » هذا السلوك المعادي للحزب . ولكن تبين اخيرا (في اوائل ١٩٣٨) خلال محاكمة المنظمة المعادية للسوفيات المسماة « كتلة اليمينيين والتروتسكيين » ان بوخارين وفرقة «الشيوعيين اليساريين» التي كان يقودها ، كانوا يحيكون بالاتفاق مع تروتسكي والاشتراكيين الثوريين «اليساريين» مؤامرة ضد الحكومة السوفياتية. وكانت غاية بوخارين وتروتسكي وشركائهما عرقلة معاهدة السلم في برست ليتوفسك واعتقال لينين وستالين وسفردلوف وقتلهم ، وتأليف حكومة جديدة من البوخارينيين والتروتسكيين والاشتراكيين الثوريين «اليساريين» .

وكانت فرقة « الشيوعيين اليساريين » ، اذ تحيك مؤامرتها المعادية للثورة، تقوم في الوقت نفسه ، مؤيدة من تروتسكي ، بهجوم مكشوف على الحزب ، ساعية الى تمزيق اوصال الحزب وتقسيمه وبعثرة صفوفه . غير ان الحزب التف في ذلك الوقت العصيب حول لينين وستالين وسفردلوف وأيد اللجنة المركزية في قضية السلم وفي جميع القضايا الاخرى .

وظلت فرقة « الشيوعيين اليساريين » منعزلة مدحورة .

ولاجل تسوية قضية السلام بصورة نهائية ، عقد الحزب مؤتمره السابع .

افتتح المؤتمر في ٦ آذار ١٩١٨ ، وهو اول مؤتمر عقده حزبنا بعد استيلائه على الحكم . وكان فيه ٤٦ مندوبا بصوت فعلي و٥٨ مندوبا بصوت استشاري . وكان عدد اعضاء الحزب الممثلين في المؤتمر ١٤٥ الفاً . ولكن في الواقع كان اعضاء الحزب اذ ذاك لا يقلون عن ٢٧٠ الفاً . وسبب هذا الفرق هو ان ضرورة التعجيل بعقد المؤتمر لم تعط قسما هاماً من المنظمات الوقت

الكافي لارسال مندوبيها ، كما ان المنظمات التي احتل الالمان مؤقتاً اراضيها لم تتمكن من ارسال مندوبين عنها .

وقد القى لينين في المؤتمر تقريراً عن سلم برست ليتوفسك ، قال فيه :

« ان الازمة الصعبة التي يجتازها حزبنا بسبب تأليف معارضة يسارية في قلبه هي من اعظم الازمات التي عرفتها الثورة الروسية » (لينين ، المؤلفات المختارة ، مجلد ٢ ، ص ٣٥٣) .

وُقبل القرار الذي اقترحه لينين عن سلم برست ليتوفسك بـ ٣٠ ضد ١٢ واستنكاف ٤ . وفي اليوم التالي كتب لينين في مقال عنوانه « سلم مشؤوم » ما يلي :

« ان شروط السلم قاسية الى آخر حد . غير ان التاريخ سيلفظ كلمته الاخيرة . فالى العمل لاجـل التنظيم والتنظيم والتنظيم ! فالمستقبل لنا رغم جميع المحن ! » (لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، الصفحة ٢٨٨ ، الطبعة الروسية) .

وكان قرار المؤتمر يشير الى ان قيام الدول الاستعمارية في المستقبل ايضاً بهجمات عسكرية على الجمهورية السوفياتية هو امر لا بد منه ، ولهذا يعتبر المؤتمر ان مهمة الحزب الاساسية هي اتخاذ احزم التدابير واشدها لرفع مستوى النظام في صفوفه نفسها ، وبين العمال والفلاحين ايضاً ، لتهيئة الجماهير للدفاع بمنتهى التفاني عن الوطن الاشتراكي ، ولتنظيم الجيش الاحمر ولتعليم السكان تعليما عسكريا عاماً .

وبعد ما وافق المؤتمر على صحة الخطة اللينينية فيما يتصل بسلم برست ليتوفسك، شجب موقف تروتسكي وبوخارين ، واستنكر محاولة « الشيوعيين اليساريين » المدحورين ، متابعة عملهم الانقسامي في المؤتمر نفسه .

ان عقد سلم برست ليتوفسك سمح للحزب بكسب الوقت لتوطيد الحكم السوفياتي وتنظيم اقتصاديات البلاد .

وسمح عقد السلم بالاستفادة من النزاعات والاصطدامات في معسكر

الاستعمار (الحرب التي ما زالت مستمرة بين الكتلة الالمانية النمساوية وبين دول الحلف) وادخال التفسخ في قوى العدو ، وتنظيم الاقتصاد السوفياتي وانشاء الجيش الاحمر .

وسمح عقد السلم للبروليتاريا بالمحافظة على تأييد الفلاحين لها ، وبجمع القوى لسحق الجنرالات البيض خلال الحرب الاهلية .

ان لينين علّم الحزب البلشفي ، في مرحلة ثورة اوكتوبر ، كيف ينبغي الهجوم بشجاعة وجسارة وعزيمة ، عندما تكون الظروف اللازمة لذلك متوافرة . وفي مرحـــلة بوست ليتوفسك علّم لينين الحزب كيف ينبغي التراجع بانتظام، عندما تكون قوى العدو ظاهرة التفوق على قوانا ، وذلك للعمل بمنتهى العزيمة والقوة ، على تهيئة هجوم جديد على الاعداء .

وقد برهن التاريـخ صحة خطة لينين .

وقرر المؤتمر السابع تغيير اسم الحزب وتعديل برنامجه . واصبـــح يدعى منذئذ « الحزب الشيوعي (البلشفي) في روسيا » . وكان لينين هو الذي اقترح تسمية حزبنا « الحزب الشيوعي » لان هذا الاسم ينطبق تماماً عـــلى الهدف الذي يرمي اليه الحزب ، وهو تحقيق الشيوعية .

وانتخبت لجنة خاصة لوضع برنامج الحزب الجديد مؤلفة من لينين وستالين وآخرين ، واتخذ المشروع الذي وضعه لينين اساساً لهذا البرنامج .

وهكذا انجز المؤتمر مهمة تاريخية كبرى : فقد ضرب الاعداء المتحصنين في قلب حزبنا ، اي « الشيوعيين اليساريين » والتروتسكيين ، ونجح في سحب البلاد من الحرب الاستعمارية وفي الحصول على السلام ، على المهادنة ، وسمح للحزب بكسب الوقت لتنظيم الجيش الاحمر ، ووضع امام الحزب واجب ادخال التنظيم الاشتراكي الى الاقتصاد الوطني .

٨ ـ برنامج لينين لمباشرة البناء الاشتراكي ـ لجان الفلاحين الفقراء وتطويع الكولاك ـ تمرد الاشتراكيين الثوريين « اليساريين » وسحقه ـ مؤتمر السوفيات الخامس واقرار دستور الجمهورية السوفياتية الاتحادية الاشتراكية الروسية .

بعدما وقع الحكم السوفياتي على السلم ، وحصل على مهادنة ، شرع في عمل واسع في ميدان البناء الاشتراكي . وقد سمى لينين المرحلة الممتدة من تشرين الثاني ١٩١٧ الى شباط ١٩١٨ مرحلة « هجوم الحرس الاحمر على الرأسمال» . وخلال النصف الاول من عام ١٩١٨ ، تمكن الحكم السوفياتي من تحطيم القوة الاقتصادية للبورجوازية وجمع في يديه مقاليد المراكز القيادية في الاقتصاد الوطني (المصانع والمعامل والبنوك وسكك الحديد والتجارة الخارجية والاسطول البحري التجاري ... الخ) وحطم الجهاز البورجوازي لسلطة الدولة، وانتصر في تصفية المحاولات الاولى التي قام بها اعداء الثورة لتقويض الحكم السوفياتي .

الا ان كل ذلك لم يكن كافياً ، بل كان بعيداً جداً عن الكفاية . فللسير الى امام، كان من الواجب ، بعد تهديم النظام القديم ، الانتقال الى بناء النظام الجديد . ولهذا بدأ في ربيع ١٩١٨ ، الانتقال الى مرحلة جديدة في البناء الاشتراكي ، مرحلة الانتقال من « تجريد المغتصبين » الى توطيد الانتصارات التي تحققت توطيداً منظماً ، اي الى بناء الاقتصاد الوطني السوفياتي. وكان لينين يعتبر ان من الضروري الاستفادة من المهادنة الى اقصى حد للشروع في بناء اسس الاقتصاد الاشتراكي . فكان على البلاشفة ان يتعلموا تنظيم الانتاج وقيادته على طريقة جديدة . وقد كتب لينين ان الحزب البلشفي قد اقنع روسيا ، ان الحزب البلشفي انتزع روسيا من الاغنياء لمصلحة الشعب، والآن يجب على الحزب البلشفي ان يتعلم كيف يحكم روسيا .

كان لينين يعتقد ان المهمة الرئيسية في هذه المرحلة هي احصاء كل ما ينتجه الاقتصاد الوطني ومراقبة الابواب والطرق التي يستعمل فيها مجموع

الانتاج . فقد كانت العناصر البورجوازية الصغيرة هي السائدة في اقتصاديات البلاد . وكان الملايين من صغـار الملاكين في المدينة والقرية يشكاون تربة خصبة لتطور الرأسمالية ، وكان هؤلاء الملاكون الصغار لا يعترفون لا بنظام العمل ولا بنظام الدولة ، ولا يخضعون لا للاحصاء ولا للمراقبة . وكان من اهم مصادر الخطر في ذلك الوقت العصيب سعي العنصر البورجوازي الصغير الى الاحتكار والربح والجشع في التجارة و محاولة صغار الملاكين وصغار التجار ان يثروا ويغتنوا على حساب بؤس الشعب .

فشهر الحزب نضالا حازما شديداً ضد التراخي في الانتاج ، وضد الخروج على نظام العمل في الصناعـة . فقد كانت الجماهير تألف ببطء عادات العمل الجديدة ، ولذلك صار النضال في سبيـل التقيد بالنظام هو المهمـة المركزية في تلك المرحلة .

وأكد لينين ضرورة تنمية المباراة الاشتراكية في الصناعة وادخال الاجرة على اساس القطعة ، والنضال ضد جعل الاجور في مستوى واحد ، وان تطبق الى جانب تدابير التثقيف والاقناع ، الاساليب الزجرية ضد المستغلين الذين يريدون انتزاع اكثر ما يمكن من الدولة ، وضد الذين يتكاسلون ويقومون باعمال الاحتكار . وكان يعتبر ان النظام (١) الجديد ، نظام العمل ، النظام القائم على العلاقات الرفاقية ، النظام السوفياتي ــ، سيصوغه ملايين الشغيلة خلال عملهم اليومي . وكان يقول « ان تحقيق ذلك سيستغرق مرحلة تاريخية كاملة» (لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٣ ، الصفحة ٤٤ ، الطبعة الروسية) .

جميع هذه القضايا المتصلة بالبناء الاشتراكي ، المتصلة بانشاء علاقات انتاج جديدة ، علاقات اشتراكية ، عالجها لينين في مؤلفه المشهور: **المهمات المباشرة للحكم السوفياتي** .

وحول هذه القضايا ايضاً اشهر « الشيوعيون اليساريون » النضـال ضد لينين جنباً الى جنب مع الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك . فراح بوخارين واوسينسكي والاخرون يحملون على ادخال التقيد بالنظام ، وعلى الادارة الموحدة في المشروعات ، وعلى استعمال الاختصاصيين في الصناعة ، وعلى تطبيق

(١) : الديسيبلين (هيئة التعريب)

مبدأ المردود التجاري (١). وكانوا ينسجون الافتراءات على لينين زاعمين ان هذه السياسة تعني الرجوع الى الانظمة البورجوازية. وكان « الشيوعيون اليساريون» يروّجون في الوقت نفسه لوجهة النظر التروتسكية القائلة بان البناء الاشتراكي وانتصار الاشتراكية في روسيا مستحيلان.

ولم تكن هذه العبارات « اليسارية » التي يرددها « الشيوعيون اليساريون » سوى ستار للدفاع عن الكولاك، والمتكاسلين، والمحتكرين، الذين كانوا اعداء التقييد بأي نظام وينظرون بعداء الى تنظيم الدولة للحياة الاقتصادية وكذلك الى الاحصاء والمراقبة.

وبعد تسوية المسائل المتصلة بتنظيم الصناعة الجديدة، السوفياتية، التفت الحزب الى القضايا المتعلقة بالريف. وكان نضال الفلاحين الفقراء ضد الكولاك اذ ذاك في معمعانه.

فقد كان الكولاك يزدادون قوة، ويستولون على الاراضي التي انتزعت من كبار الملاكين. فكان من الواجب مساعدة الفلاحين الفقراء. وكان الكولاك، في نضالهم ضد الدولة البروليتارية، يرفضون ان يبيعوها القمح على اساس الاسعار الثابتة، ويريدون اجبار الدولة السوفياتية، عن طريق المجاعة، على العدول عن التدابير الاشتراكية. فوضع الحزب مهمة سحق الكولاك اعداء الثورة. ونُظمت بعثات كبرى من العمال الى الريف لتنظيم الفلاحين الفقراء والتغلب على الكولاك الذين يحبسون الزائد من القمح.

وقد كتب لينين بهذه المناسبة مايلي:

« ايها الرفاق العمال! اذكروا ان الثورة في وضع حرج. لا تنسوا انكم انتم، **وانتم وحدكم**، تستطيعون انقاذ الثورة. اننا بحاجة الى عشرات الالوف من نخبة العمال، من عمال الطليعة المخلصين للاشتراكية، الذين لا يمكن اغراؤهم بالرشوة ولا ان تمتد يدهم الى سرقة، القادرين على انشاء قوة حديدية ضد الكولاك والمحتكرين واللصوص والمرتشين والمخربين... هذا ما نحن بحاجة

---

(١): اي ان يعمل كل مشروع صناعي دون خسارة، اي بشكل يؤمن به كل لوازمه ونفقاته بقواه الخاصة وحسب البرنامج، دون اللجوء الى مساعدات من ميزانية الدولة.

(هيئة التعريب)

اليه » (لينين ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٢٣ ، الصفحة ٢٥ ، الطبعة الروسية) .

واعلن لينين ان« النضال في سبيل القمح هو النضال في سبيل الاشتراكية » وعلى اساس هذا الشعار جرى تنظيم العمال للزحف على الارياف ، واتخذت مراسيم عديدة تقيم الديكتاتورية في ميدان التموين وتعطي هيئات مفوضية التموين سلطات استثنائية لشراء القمح بالاسعار المحددة الثابتة .

وتألفت طبقاً لمرسوم ١١ حزيران ١٩١٨ ، **لجان الفلاحين الفقراء** ، فلعبت دوراً كبيراً في النضال ضد الكولاك وفي اعادة توزيع الاراضي المصادرة ، وتوزيع ادوات الاستثمار ، وخزن المحصول الزائد الذي كان في حوزة الكولاك ، وتموين المراكز العمالية والجيش الاحمر . وانتقل خمسون مليون هكتار من اراضي الكولاك الى ايدي الفلاحين الفقراء والمتوسطين وصودر من الكولاك قسم كبير من وسائل الانتاج لمصلحة الفلاحين الفقراء.

وكان تنظيم لجان الفلاحين الفقراء فاتحة مرحلة جديدة في تطور الثورة في الريف . فقد صارت هذه اللجان نقاط الاستناد لديكتاتورية البروليتاريا في القرية ، وعن طريقها جرى الى حد كبير تكوين ملاكات للجيش الاحمر من الفلاحين .

ان زحف البروليتاريين الى القرية وتنظيم لجان الفلاحين الفقراء وطدا الحكم السوفياتي في الارياف ، وكان لهما اهمية سياسية كبرى في اكتساب الفلاح المتوسط الى جانب الحكم السوفياتي .

وفي اواخر ١٩١٨ ، عندما انجزت لجان الفلاحين الفقراء مهمتها ، انتهى وجودها ، واندمجت في مجالس السوفيات الريفية .

في ٤ تموز ١٩١٨ افتتح مؤتمر السوفيات الخامس ، وشهر فيه الاشتراكيون الثوريون «اليساريون» نضالا عنيفاً ضد لينين دفاعاً عن الكولاك. وقد طلبوا وقف النضال ضد الكولاك والعدول عن ارسال فصائل التموين المؤلفة من العمال الى الريف. ولما اقتنع الاشتراكيون الثوريون « اليساريون » بان

اكثرية المؤتمر تعارض خطتهم معارضة حازمة ، شقوا عصا الطاعة في موسكو واستولوا على طريق « تريوخ سفياتيتلسكي » ، وصوبوا منه نيران المدافع على الكرملين ، ولكن البلاشفة سحقوا خلال ساعات قليلة هذه المغامرة التي قام بهـــا الاشتراكيون الثوريون « اليساريون » ، وقد حاولت منظمات الاشتراكيين الثوريين « اليساريين » المحلية في نقاط عديدة من البـــلاد ، ان تقوم كذلك بحركات عصيان ، ولكن المغامرة سحقت بسرعة في كل مكان .

وقد تبين الان في محاكمة المنظمة المعادية للسوفيات المسماة « كتلة اليمينيين والتروتسكيين » ، ان عصيان الاشتراكيين الثوريين « اليساريين » قد جرى بمعرفة بوخارين وتروتسكي وبموافقتهما ، وانه كان جزءاً من البرنامج العـــام للمؤامرة المعادية للثورة التي حبكهـــا البوخارينيون والتروتسكيون والاشتراكيون الثوريون « اليساريون » ضد الحكم السوفياتي .

وفي ذلك العهد نفسه ، تسلل الاشتراكي الثوري « اليساري » بلومكين — الذي اصبح فيما بعد عميلا لتروتسكي — الى مقر السفارة الالمانية وقتل السفير ميرباخ بقصد اثارة الحرب مع المانيا . غـــير أن الحكومة السوفياتية تمكنت من اجتناب الحرب واحباط هذا الاستفزاز الذي قام به اعـــداء الثورة .

واقر مؤتمر السوفيات الخامس دستور الجمهورية السوفياتية الاتحـــادية الروسية ، وهو اول دستور سوفياتي .

الخلاصة

خلال ثمانية اشهر ، من شباط الى اوكتوبر ١٩١٧ ، انجز الحزب البلشفي مهمة من اصعب المهمات : فقد اكتسب اكثرية الطبقة العاملة ، في مجالس السوفيات ، وجذب الى جانب الثورة الاشتراكية ملايين من الفلاحين ، وانتزع هذه الجماهير من نفوذ احزاب البورجوازية الصغيرة (الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك والفوضويين) ، وفضح خطوة فخطوة سياسة هذه الاحزاب الموجهة ضد مصالح الشغيلة . وقام الحزب البلشفي بنشاط سياسي كبير على الجبهة وفي المؤخرة لتهيئة الجماهير لثورة اوكتوبر الاشتراكية .

والعناصر الحاسمة في تاريخ الحزب خلال هذه المراحل هي : عودة لينين من المهجر ، موضوعات نيسان التي وضعها لينين ، المجلس العام للحزب المنعقد في نيسان ، مؤتمر الحزب السادس . وقد استمدت الطبقة العاملة من قرارات الحزب القوة والثقة بالظفر ووجدت فيها الجواب على اهم مسائل الثورة . ووجه مجلس نيسان الحزب نحو النضال لاجل الانتقال من الثورة الديموقراطية البورجوازية الى الثورة الاشتراكية . اما المؤتمر السادس فقد وجه الحزب نحو الثورة المسلحة ضد البورجوازية وحكومتها الموقتة .

ان الحزبين التفاهميين ، الاشتراكي الثوري والمنشفيكي ، وكذلك الفوضويين والاحزاب الاخرى غير الشيوعية ، وصلوا في تطورهم الى نهايته . فقد اصبحوا جميعاً ، حتى قبل ثورة اوكتوبر ، احزاباً بورجوازية ، واخذوا يدافعون عن كيان النظام الرأسمالي وسلامته . وقد قاد الحزب البلشفي وحده نضال هذه الجماهير في سبيل قلب البورجوازية واقامة حكم السوفيات.

وحطم البلاشفة في الوقت نفسه محاولات الانهزاميين في داخل الحزب ، امثال زينوفييف وكامينيف وريكوف وبوخارين وتروتسكي وبياتاكوف ، الذين كانوا يسعون الى صرف الحزب عن طريق الثورة الاشتراكية .

ان الطبقة العاملة المتحالفة مع الفلاحين الفقراء والحائزة على تأييد الجنود والبحارة ، قوّضت حكم البورجوازية، تحت قيادة الحزب البلشفي ، واقامت حكم السوفيات وشيدت دولة من طراز جديد : هي الدولة السوفياتية الاشتراكية ، والغت ملكية كبار الملاكين للارض ، ووضعت الارض تحت تصرف الفلاحين ، واممت كل اراضي البلاد ، وصادرت املاك الرأسماليين، ونجحت في الخروج من الحرب ، وفي توقيع السلم ، وحصلت على المهادنة اللازمة ، وخلقت بذلك الظروف المناسبة لتطوير الانشاء الاشتراكي .

لقد قضت ثورة اوكتوبر الاشتراكية على الرأسمالية ، وانتزعت من البورجوازية وسائل الانتاج ، وحولت المصانع والمعامل والارض وسكك الحديد والبنوك الى ملك للشعب بأسره، الى مالك اجتماعي .

وشيّدت ديكتاتورية البروليتاريا ، وسلمت الطبقة العاملة قيادة دولة عظيمة واسعة ، وجعلت من هذه الطبقة الطبقة الحاكمة .

لقد افتتحت ثورة اوكتوبر الاشتراكية عهداً جديداً في تاريخ الانسانية، هو عهد الثورات البروليتارية .

الفصل الثامن

حزب البلاشفة في مرحلة التدخل العسكري الاجنبي والحرب الاهلية (١٩١٨ — ١٩٢٠)

•

١ — بدء التدخل العسكري الاجنبي — المرحلة الاولى من الحرب الاهلية .

تم عقد السلم مع المانيا في برست ليتوفسك ، وتوطدت دعائم الحكم السوفياتي بنتيجة ما اتخذه من الاجراءات الاقتصادية الثورية . وقد تم هذان الحدثان فيما الحرب في الغرب في ابان احتدامها . فاوقعا اشد الذعر في صفوف الاستعماريين الغربيين لا سيما استعماريي الدول الحليفة .

كان هؤلاء يخشون ان يؤدي توقيع السلم بين المانيا وروسيا الى تخفيف وضع المانيا العسكري وبالتالي جعل وضع الجيوش الحليفة في الجبهة اشق واوعر . كذلك كانوا يجزعون من ان يؤدي قيام السلم بين روسيا والمانيا الى تقوية الاندفاع نحو السلم في جميع البلدان وعلى جميع الجبهات ، فتتصدع قضية الحرب ، اي قضية الاستعماريين ، وتتعرض الى الخطر . وكانوا يخافون اخيراً ان يصبح قيام الحكم السوفياتي في اراضي بلاد واسعة مترامية الاطراف ،

وان تصبح نجاحاته الداخلية اثر هدم سلطان البورجوازية ، مثالا تسري عدواه الى العمال والجنود في الغرب . فان هؤلاء ، وقد شملهم استياء عميق من حرب ما زالت تستطيل ، يمكن ان يفعلوا ما فعله الروس فيحولوا حرابهم الى صدور اسيادهم ومضطهديهم . لهذه الاسباب جميعها قررت حكومات الدول الحليفة الشروع في تدخل عسكري في روسيا لهدم الحكم السوفياتي واقامة حكم بورجوازي يعيد النظام الرأسمالي الى البلاد ، ويلغي معاهدة السلم مع المانيا ، ويقيم من جديد جبهة حرب ضد المانيا والنمسا .

ومما زاد في اقبال الاستعماريين الحلفاء، بطيبة خاطر ، على هذه المهمة السافلة السوداء ، انهم كانوا مقتنعين بتقلقل الحكم السوفياتي ، ولم يساورهم الشك في انه سينهار سريعاً اذا ما بذل اعداؤه ما ينبغي من جهود .

ان نجاحات الحكم السوفياتي وتوطّد اركانه ، بعثت كذلك ذعراً أشد واعظم في صفوف الطبقات المخلوعة، ـــ كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين ـــ وفي صفوف الاحـــزاب المهزومة ـــ الكاديت والمنشفيك والاشتراكيين الثوريين والفوضويين والقوميين البورجوازيين من كل لون ـــ وفي صفوف جنرالات الحرس الابيض ، والضباط القوزاق ... الخ ...

فمنذ الايام الاولى لانتصار ثورة اوكتوبر ، اخذت هذه العناصر المعادية تجهر صائحة بان الحكم السوفياتي لن يجد تربة صالحة في روسيا ، وانه مقضي عليه ، وانه هالك حتماً خلال اسبوع او اسبوعين ، او خلال شهر ، واذا طال اجله فلن يزيد على شهرين او ثلاثة . ولكن لما كان حكم السوفيات ، رغم تعاويذ اعدائه ، يستمر في وجوده ويزداد رسوخاً، رأى اعداء الحكم السوفياتي داخل روسيا ان لا مندوحة من الاعتراف بان هذا الحكم امنع جانباً مما كانوا يحسبون ، وان القضاء عليه يقتضي جهوداً جـــدية ونضالا ضارياً من قبل جميع القوى المعادية للثورة. ولذلك قرروا القيام بعمل عصياني واسع في سبيل جمع القوى المعادية للثورة ، ولملمة ملاكات عسكرية باساليب الخداع والاغراء

وبكل اسلوب، وتنظيم تمردات ولا سيما في مناطق القوزاق والمناطق التي يكثر فيها الكولاك .

وهكذا برزت الى عالم الوجود ، منذ النصف الاول من عام ١٩١٨ ، قوتان واضحتان مستعدتان لتقويض الحكم السوفياتي وهما : استعماريو الدول الحليفة ، واعداء الثورة الداخليون في روسيا .

ولم تكن اي من هاتين القوتين تملك الوسائل الكافية لكي تعمل وحدها لقلب الحكم السوفياتي . فكان لدى اعداء الثورة في روسيا بعض الملاكات العسكرية وبعض الموارد في الرجال ، خصوصاً من فئات القوزاق العليا ومن الكولاك ، وهي موارد ضرورية للقيام بعصيان ضد الحكم السوفياتي ، ولكن اعداء الثورة لم يكن لديهم مال ولا سلاح. اما الاستعماريون الاجانب فكان لديهم، على العكس، المال والسلاح، غير انهم لا يستطيعون « تخصيص» قوى عسكرية كافية للتدخل ، وذلك ليس فقط لان هذه القوى لازمة لمواصلة الحرب ضد المانيا والنمسا ، بل لسبب آخر ايضاً هو ان هـذه القوى قد لا تكون مضمونة تماماً للنضال ضد الحكم السوفياتي .

ان الملابسات التي اكتنفت النضال ضد حكم السوفيات فرضت اندماج هاتين القوتين المعاديتين للسوفيات الخارجية والداخلية . وقد تم هذا الاندماج في النصف الاول من ١٩١٨ .

هكذا جرى التدخل العسكري الاجنبي ضد الحكم السوفياتي ، تدعمه العصيانات المعادية للثورة التي قام بها اعداء الحكم السوفياتي في داخل روسيا .

هكذا انتهت المهادنة وبدأت في روسيا الحرب الاهلية ، اي حرب عمال وفلاحي شعوب روسيا ضد اعداء الحكم السوفياتي الخارجيين والداخليين . لقد شن استعماريو انكلترا وفرنسا واليابان والولايات المتحدة الاميركية التدخل العسكري دون اعلان الحرب، مع ان هذا التدخل كان حرباً ضد روسيا ، بل كان حرباً من ابشع ما عرف . فان هؤلاء الاشقياء، قطاع الطرق « المتمدنين» تسللوا خلسة ، كما يفعل اللصوص ، وانزلوا قواتهم في الاراضي الروسية .

انزل الانكليز والفرنسيون قواتهم في شمالي روسيا ، فاحتلوا ارخانجل ومورمانسك، ودعموا هناك عصيان الحرس الابيض، وخلعوا حكم السوفيات، وشكلوا حكومة من الحرس الابيض اسموها «حكومة شمالي روسيا» .

وانزل اليابانيون قواتهم في فلاديفوستوك واحتلوا المناطق الساحلية وشتتوا مجالس السوفيات ودعموا العصاة من الحرس الابيض ، الذين اعادوا النظام البورجوازي فيما بعد .

وفي القفقاس الشمالي ، شكل الجنرالات كورنيلوف والكسييف ودنيكين، بمساعدة الانكليز والفرنسيين ، «جيش متطوعة» من الحرس الابيض، واثاروا العصيان بين الفئات العليا من القوزاق ، وانطلقوا في زحف على السوفيات .

وفي منطقة الدون ، قام الجنرالان كراسنوف ومامونتوف ، يساعدهما الاستعماريون الالمان سراً (اذ لم يكونوا يقوون على مدّ يد المساعدة اليهما علناً بسبب معاهدة السلم المعقودة بينهم وبين روسيا) باثارةعصيان بين قوزاق الدون ، واحتلا منطقة الدون وانطلقا كذلك في زحف على السوفيات .

وفي منطقة الفولغا الوسطى وسيبيريا ، آلت التدخلات الانكليزية الفرنسية الى تنظيم عصيان في الفيلق التشيكوسلوفاكي . وكانت الحكومة السوفياتية قد اجازت لهذا الفيلق ، المؤلف من اسرى الحرب ، ان يعود الى وطنه عن طريق سيبيريا والشرق الاقصى. غير ان الاشتراكيين الثوريين والانكليز والفرنسيين استغلوه في اثناء الطريق للقيام بعصيان ضد الحكم السوفياتي . وكان عصيان الجيش التشيكوسلوفاكي بمثابة اشارة الانطلاق لعصيان الكولاك في حوض الفولغا وسيبيريا ، وكذلك لتمرد عمال معامل فوتكينسك وايجيفسك الذين كانوا ينقادون للاشتراكيين الثوريين. وفي منطقة الفولغا ، تشكلت حكومة سامارا المؤلفة من الحرس الابيض والاشتراكيين الثوريين ، كما تألفت في اومسك حكومة الحرس الابيض السيبيرية .

ولم تشترك المانيا ، ولم يكن بوسعها ان تشترك ، في تدخل الكتلة الانكليزية الفرنسية اليابانية الاميركية . وذلك راجع بالدرجة الاولى الى حالة الحرب

القائمة بينها وبين هذه الكتلة . ولكن رغم ذلك ، ورغم معاهدة الصلح القائمة بين روسيا والمانيا ، لم يشك احد من البلاشفة في ان حكومة الامبراطور غليوم هي ، بالنسبة لبلاد السوفيات ، عدو لا يقل ضراوة عن المتدخلين الانكليز والفرنسيين واليابانيين والاميركيين. وفي الواقع، فعل الاستعماريون الالمان كل ما هو ممكن وغير ممكن لعزل البلاد السوفياتية واضعافها واهلاكها. فسلخوا عن روسيا السوفياتية اوكرانيا ، ولو ان ذلك تم ، في الحقيقة ، وفق « معاهدة » مع مجلس الرادا الاوكرانية ، كذلك ادخلوا جيوشهم الى هذه البلاد بناء على طلب « الرادا » الاوكرانية المعادية للثورة ، والتي كانت في يد الحرس الابيض ، وراحوا ينهبون الشعب الاوكراني ويستذلونه بشكل وحشي ، وحرّموا عليه كل اتصال بروسيا السوفياتية . واقتطعوا من روسيا السوفياتية منطقة عبر القفقاس حيث ادخلوا ، بطلب من القوميين الجيورجيين والاذربيجانيين ، قوات المانية وتركية ، وسيطروا في باكو وتفليس سيطرة الاسياد . واخذوا بناصر الجنرال كراسنوف ، المتمرد في منطقة الدون .

صحيح انهم ناصروه سراً ، ولكنهم لم يدّخروا وسيلة في هذا السبيل ، مقدمين له الذخائر والمؤن .

وهكذا وجدت روسيا السوفياتية نفسها منقطعة عن مناطقها الرئيسية التي تمدها بالاغذية والمواد الاولية والوقود .

كانت الحالة صعبة شاقة في روسيا السوفياتية في هذه المرحلة . فالخبز نفذ ، واللحم نضب ، وعض الجوع العمال بنابه . وكان يوزع على عمال موسكو ولينينغراد خمسون غراماً من الخبز كل يومين . بل مرت ايام لم يوزع فيها الخبز ابداً . وتوقفت المصانع عن العمل او كادت بسبب فقدان المواد الاولية والوقود . غير ان الطبقة العاملة لم تخر عزائمها ولم تخمد شجاعتها ، والحزب البلشفي لم تخر عزائمه ولم تخمد شجاعته . ان مصاعب هذه الفترة التي لم يسمع لها بمثيل ، والنضال الضاري ضد هذه المصاعب ، اظهرت كم هو خصب لا ينضب العزم الكامن في الطبقة العاملة ، وكم هي عظيمة ولا تقاس بمقياس

قوة نفوذ الحزب البلشفي وهيبته .

اعلن الحزب ان البلاد باسرها هي معسكر محارب ، واعاد تنظيم كل الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية على اساس الحرب . واعلنت الحكومة السوفياتية ان « الوطن الاشتراكي في خطر » ودعت الشعب الى المقاومة . والقى لينين شعار : « كل شيء من اجل الجبهة » ، فهرع مئات الالوف من العمال والفلاحين ، الى الانخراط متطوعين اختياريين في صفوف الجيش الاحمر. وذهب الى الجبهة ما يقرب من نصف اعضاء الحزب والشبيبة الشيوعية . لقد استنهض الحزب الشعب الى **الحرب في سبيل سلامة الوطن** ضد غزوة قوات التدخل الاجنبي ، وضد عصيان الطبقات المستثمِرة التي قوّضتها الثورة . وكان مجلس الدفاع العمالي والفلاحي الذي ألّفه لينين ، يقود تموين الجبهة بالرجال والمؤن والاعتدة والذخائر . وكان من نتيجة الانتقال من مبدأ التطوع الاختياري الى مبدأ الخدمة العسكرية الاجبارية ، ان توافدت على الجيش الاحمر فئات جديدة من المجندين يرقى عددها الى مئات الالوف من الرجال ، ولم تمض فترة وجيزة حتى بلغ عدد الجيش الاحمر مليون جندي .

ورغم وضع البلاد الصعب الشاق ، ورغم ان الجيش الاحمر كان ما يزال فتياً ، ولم يتيسر له بعد ان يشتد ساعده ، فان التدابير التي اتخذت من اجل الدفاع ادت الى نجاحات اولية بيّنة . فقد رُدّ الجنرال كراسنوف عن تزاريتسين حين كان يعتقد ان سقوطها بيده امر محتم ، وقذف به الى ما وراء الدون . وحُصر نشاط الجنرال دينيكين ضمن بقعة قليلة الاتساع من القفقاس الشمالي ، ولقي الجنرال كورنيلوف مصرعه في معركة مع الجيش الاحمر ، وطُردت من قازان وسيمبرسك وسامارا قوات التشيكوسلوفاكيين وعصابات الاشتراكيين الثوريين والحرس الابيض ، ودُحرت نحو الاورال . وسُحق العصيان الذي قام به سافنكوف ، من الحرس الابيض ، في ياروسلافل ، وكان لوكهارت ، رئيس البعثة الانكليزية في موسكو ، هو الذي نظم هذا العصيان . وقد القي القبض على لوكهارت نفسه . اما الاشتراكيون الثوريون الذين اغتالوا

الرفيقين اوريتسكي وفولودراسكي ، ودبروا مؤامرة سافلة على حياة لينين ، فقد قوبل ارهابهم الابيض ضد البلاشفة ، بالارهاب الاحمر ، فتم سحقهم في جميع مراكز روسيا الوسطى التي لها ولو شيء من الاهمية .

وكان الجيش الاحمر الفتي يتصلب ويشتد عوده في المعارك مع الاعداء ، ولعب المفوضون الشيوعيون ، الذين كانوا يعملون في الجيش الاحمر آنذاك ، دوراً حاسماً في توطيد الجيش ، وفي تثقيفه السياسي وتقوية كفاءته العسكرية وروح النظام فيه .

وادرك الحزب البلشفي ان نجاحات الجيش الاحمر هذه لا يمكن ان تقرر مصير العمليات الحربية ، فهي ليست سوى نجاحاته الاولى . وادرك الحزب ان ثمة معارك جديدة اعظم شأنا وشيكة الوقوع ، وان البلاد لن تستطيع استرجاع مناطق تموينها بالاغذية والمواد الاولية والمحروقات ، الا بنتيجة معارك ضارية طويلة الامد ضد الاعداء. ولذلك اخذ البلاشفة يستعدون بقوة لحرب طويلة الاجل ، وقرروا وضع المؤخرة بكاملها في خدمة الجبهة . واقامت الحكومة السوفياتية نظام **الشيوعية الحربية** .فوضعت تحت رقابتها ، فضلا عن الصناعة الكبيرة ، الصناعة المتوسطة والصغيرة ايضاً ، بغية تكديس بضائع الاستهلاك الواسع وتزويد الجيش والقرية بها . واقرت نظام الحصر في تجارة القمح ، ومنعت التجارة الفردية به ، ووضعت نظام اقتطاع قوامه احصاء وأخذ كل الفائض من المنتجات الغذائية لدى الفلاحين ، لتكديس احتياطي من الحنطة ولتموين الجيش والعمال بالمواد الغذائية .واخيرا ، فرضت العمل الاجباري على الطبقات كافة. وحين فرض الحزب العمل اليدوي على البورجوازيين ، وحرر بذلك العمال لكي يقوموا بعمل آخر اعظم شأنا من اجل الجبهة ، فهو انما حقق المبدأ القائل : « من لا يعمل لا يأكل » .

هذه المجموعة من التدابير التي اقتضاها الدفاع عن البلاد ، في ظروف فائقة الصعوبة وكانت ، تدابير ذات صفة مؤقتة ، هي التي سميت الشيوعية الحربية .

استعدت البلاد لحرب اهلية طويلة وشاقة ضد اعداء الحكم السوفياتي ، الداخليين والخارجيين . وكان عليها ان ترفع عدد الجيش الاحمر ، نحو اواخر عام ١٩١٨، الى ثلاثة أضعافه. وكان عليها تكديس الوسائل لتموين هذا الجيش.

وقد كتب لينين في تلك الايام :

« كنا قررنا ان يكون لدينا جيش قوامه مليون جندي عند حلول الربيع . واليوم ، يلزمنا جيش قوامه ثلاثة ملايين . وفي وسعنا ان نملك هذا الجيش وسنملكه ! »

٢ ـ اندحار المانيا عسكرياً ـ الثورة في المانيا ـ تأليف الاممية الثالثة ـ المؤتمر الثامن للحزب .

فيما كانت البلاد السوفياتية تستعد للمعارك الجديدة ضد التدخل الاجنبي ، كانت تجري في الغرب ، حوادث حاسمة سواء في مؤخرة البلدان المتحاربة او على جبهاتها . فالحرب وأزمة المواد الغذائية تأخذان بخناق المانيا والنمسا . وفيما انكلترا وفرنسا واميركا الشمالية تجند ايضاً وايضاً قوى احتياطية جديدة، شارف احتياطي المانيا والنمسا الضئيل على النفاد . لقد اصبح واضحاً ان المانيا والنمسا ، وقد نزفتا و نُهكتا ، صائرتان الى اندحار قريب .

والى جانب ذلك ، كان يتعاظم في المانيا والنمسا غضب الشعب على هذه الحرب المشؤومة المهلكة التي استطالت دون نهاية ، وعلى موقف الحكومتين الاستعماريتين في هذين البلدين ، اللتين أدتا بالشعب الى النهكة والمجاعة. وقد ساهم في تكوين هذه الحالة النفسية ، التأثير الثوري العظيم الذي احدثته ثورة اوكتوبر ، وتآخي الجنود السوفياتيين مع الجنود النمسويين والالمان على الجبهة منذ ما قبل عقد السلم في برست ليتوفسك ، ثم تأثير وقف الحرب مع روسيا السوفياتية وعقد السلم معها . فان المثل الذي ضربته روسيا ، حيث

وضع الشعب حداً للحرب البغيضة عن طريق خلع حكومته الاستعمارية ، كان لا بد ان يكون درساً للعمال النمسويين والالمان . اما الجنود الالمان الذين كانوا في الجبهة الشرقية ونقلوا بعد سلم برست ليتوفسك الى الجبهة الغربية ، فما كان من الممكن الا ان يفسّخوا الجيش الالماني باحاديثهم عن تآخيهم مع الجنود السوفياتيين وكيف استطاع هؤلاء ان يتخلصوا من الحرب . امـا الجيش النمسوي فقد بدأ يتفسخ قبل ذلك بكثير ، للاسباب نفسها .

بنتيجة هذه العوامل مجتمعة ، اشتد الطموح الى السلم في الجيوش الالمانية ، ولم تعد لديها المقدرة السابقة على القتال ، وراحت تتقهقر امام ضغط جيوش الدول الحليفة . اما في المانيا نفسها ، فقد نشبت ، في تشرين الثاني ١٩١٨ ، ثورة اطاحت بالامبراطور غليوم وحكومته .

فاضطرت المانيا الى الاعتراف بالهزيمة ، والى طلب الصلح من دول الحلف.

وهكذا تدنت المانيا ، بضربة واحدة ، من دولة من الدرجة الاولى الى مستوى دولة من الدرجة الثانية .

وكان لهذا الحدث بعض المغزى السلبي بالنسبة الى الحكم السوفياتي ، ذلك لانه كان يجعل دول الحلف ، وهي منظمة التدخل العسكري ضـد حكم السوفيات ، القوة المهيمنة السائدة في اوروبا وآسيا ، ويتيح لها ان توغل في تدخلها وان تضرب حصاراً حول البلاد السوفياتية ، وان تضيق الخناق عـلى الحكم السوفياتي . وهو ما جرى بالفعل كما سنرى فيما بعد . ولكن هذا الحدث كان له ، من جهة اخرى ، اثر ايجابي اعظم. اذ انه خفف العبء عن البلاد السوفياتية تخفيفاً اساسياً . فاولا ، استطاع الحكم السوفياتي ان يبطل معاهـدة برست ليتوفسك ، معاهدة النهب والسلب ، وان يكف عن الدفع باسم غرامة الحرب ، وان يشرع في نضال صريح ، عسكري وسياسي ، لتحرير استونيا وليتونيا وبيلوروسيا وليتوانيـا واوكرانيا وعبر القفقاس من نير الاستعمار الالماني. وثانياً ــ وهو الاهم ــ كان وجود نظام جمهوري في وسط اوروبا ، اي في المانيا ، ووجود مجالس سوفياتية من نواب العمال والجنود ، لا بد ان يحدث

تأثيراً ثوريا ــ وقد احدث هذا التأثير بالفعل ــ في بلدان اوروبا مما يؤدي ختما الى تقوية وضع الحكم السوفياتي في روسيا . صحيح ان الثورة في المانيا كانت ثورة بورجوازية لا اشتراكية ، وان مجالس السوفيات فيها كانت اداة طيّعة في يد البرلمان البورجوازي، لان الاشتراكيين الديموقراطيين دعاة التفاهم ــ اشباه المنشفيك في روسيا ــ هم الذين كانوا سائدين فيها ، وهو ما يفسر ضعف هذه الثورة . اما مدى ضعفها فيشهد عليه، مثلاً ، انها تركت دون عقاب مقتل ثوريين مرموقين امثال روزا لوكسمبورغ وكارك ليبنخت اللذين اغتالهما قتلة من الحرس الابيض الالماني . غير انها كانت ثورة على كل حال . فقد خلع الامبراطور غليوم ، وافلت العمال من قيودهم ، وهذا وحده كان لا بد ان يطلق الثورة في الغرب ، كان لا بد ان يحدث نهوضاً في الثورة في البلدان الاوروبية .

بدأ النهوض الثوري في اوروبا . ففي النمسا تطورت الحركة الثورية واتسعت . وفي هنغاريا (المجر) ، بوزت جمهورية سوفياتية . وعلى اساس الموجة الثورية ، ظهرت الى الوجود الاحزاب الشيوعية في اوروبا .

لقد نشأت تربة حقيقية لجمع الاحزاب الشيوعية في الاممية الثالثة ، الاممية الشيوعية .

وفي آذار ١٩١٩ ، في المؤتمر الاول للاحزاب الشيوعية لمختلف البلدان المنعقد في موسكو ، تأسست الاممية الشيوعية بمبادرة من لينين والبلاشفة. وقد حال حصار الاستعماريين واضطهادهم دون وصول كثير من المندوبين الى موسكو ، ورغم ذلك ، حضر المؤتمر الاول مندوبون من اهم البلدان الاوروبية والاميركية . وقد قاد لينين اعمال المؤتمر .

ابان لينين ، في تقريره عن الديموقراطية البورجوازية وديكتاتورية البروليتاريا ، مغزى الحكم السوفياتي من حيث هو الديموقراطية الحقيقية للكادحين . واقر المؤتمر بيانا موجهاً الى البروليتاريا العالمية يدعوها فيه الى النضال الحاسم في سبيل الديكتاتورية البروليتارية ، في سبيل انتصار مجالس

السوفيات في جميع البلدان .

وألّف المؤتمر لجنة تنفيذية للكومنترن ، اي الهيئة التنفيذية للاممة الثالثة ، الاممية الشيوعية .

وهكذا نشأت منظمة بروليتارية ثورية اممية من طراز جديد ، هي الاممية الشيوعية ، الاممية الماركسية ـ اللينينية .

وفي وضع من الظروف المتناقضة : اي في ظروف اشتداد ساعد الكتلة الرجعية المؤلفة من دول الحلف ضد الحكم السوفياتي ، من جهة ، وفي ظروف النهضة الثورية في اوروبا ، وخاصة في البلدان المغلوبة عسكرياً ، هذه النهضة التي حسّنت حال البلاد السوفياتية ، من جهة اخرى : في هذه الظروف المتناقضة ، انعقد المؤتمر الثامن لحزبنا ، في آذار ـ ١٩١٩ .

وقد حضر المؤتمر ٣٠١ مندوب لهم اصوات فعلية يمثلون ٣١٣٧٦٦ عضواً في الحزب . اما المندوبون ذوو الاصوات الاستشارية فبلغ عددهم مئة ومندوبين (١٠٢) .

وعندما افتتح لينين المؤتمر ، كرّس كلمته الاولى لذكرى واحد من خيرة منظمي الحزب البلشفي ، هو ي . م . سفردلوف ، الذي توفي عشية افتتاح المؤتمر .

اقرّ المؤتمر البرنامج الجديد للحزب . ويشتمل هذا البرنامج على بيان الصفات المميزة للرأسمالية ، ولمرحلتها العليا : الاستعمار . وفي البرنامج مقارنة بين نظامين للدولة : الديموقراطي البورجوازي والسوفياتي. ويعرض البرنامج بالتفصيل المهمات الواقعية الملموسة التي تترتب على الحزب في النضال في سبيل الاشتراكية ، وهي : السير حتى النهاية في تجريد البورجوازية مما تملك ، تنظيم اقتصاديات البلاد وفقاً لمنهاج اشتراكي موحد ، اشراك النقابات في تنظيم الاقتصاد الوطني ، التقيد بالنظام الاشتراكي للعمل ، الاستفادة من الاختصاصيين في الاقتصاد الوطني تحت اشراف الهيئات السوفياتية ، اجتذاب الفلاحين المتوسطين تدريجياً وبانتظام الى عمل البناء الاشتراكي .

وأقر المؤتمر اقتراح لينين بأن يتضمن البرنامج، الى جانب تعريف الاستعمار باعتباره المرحلة العليا للرأسمالية ، وصف الرأسمالية الصناعية والاقتصاد البضاعي البسيط ، وهو الوصف الموجود في البرنامج القديم الذي أقره المؤتمر الثاني للحزب . وكان لينين يرى ان من الضروري التنويه، في البرنامج، بما في اقتصادنا من تركيب وتعقيد ، فيشار الى ان في البلاد اشكالا اقتصادية مختلفة بما في ذلك الاقتصاد البضاعي الصغير الذي يمثله الفلاح المتوسط . ولهذا وقف لينين ، خلال مناقشة البرنامج، بشدة وحزم ضد وجهات النظر المنافية للبلشفية ، التي ابداها بوخارين ، اذ اقترح ان تحذف من البرنامج النقاط المتعلقة بالرأسمالية ، بالانتاج البضاعي الصغير وباقتصاد الفلاح المتوسط . وكانت آراء بوخارين تعبر عن رأي المنشفيك والتروتسكيين بانكار دور الفلاح المتوسط في انشاء النظام السوفياتي . وفي الوقت نفسه كان بوخارين يطمس ويخفي ظهور العناصر الكولاكية ونموها ، هذه العناصر التي يولدها الاقتصاد الفلاحي البضاعي الصغير .

كذلك دحض لينين آراء بوخارين وبياتاكوف ، المناوئة للبلشفية ، في القضية الوطنية . فقد عارض كلاهما في ان يتضمن البرنامج فقرة عن حق الامم في تقرير مصيرها ، كما عارضا مساواة الامم في الحقوق ، بحجة ان هذا الشعار سيمنع انتصار الثورة البروليتارية كما يمنع اتحاد البروليتاريين من مختلف القوميات . فدحض لينين مفاهيم بوخارين وبياتاكوف الاستعمارية الشوفينية الضارة المشؤومة .

واحتلت مسألة الموقف من الفلاح المتوسط مكاناً هاماً في اعمال المؤتمر الثامن . فبعد صدور المرسوم المعروف عن الارض، اخذت القرية تصبح اكثر فاكثر قرية فلاحين متوسطين . واصبح الفلاح المتوسط يؤلف الان اكثرية السكان الفلاحين . ولما كان الفلاحون المتوسطون يتأرجحون بين البورجوازية والبروليتاريا ، فقد اصبح لحالتهم الفكرية وسلوكهم اهمية عظمى فيما يتصل

بمصائر الحرب الاهلية والانشاء الاشتراكي. وكان مآل الحرب الاهلية مرتهناً، الى حد كبير ، بهذين السؤالين : الى اي طرف سينحاز الفلاح المتوسط ، ومن هي الطبقة التي ستكسب الفلاحين المتوسطين الى جانبها ، البروليتاريا ام البورجوازية ؟ فان التشيكوسلوفاكيين والحرس الابيض والكولاك والاشتراكيين الثوريين والمنشفيك توصلوا في صيف ١٩١٨ الى تقويض الحكم السوفياتي في حوض الفولغا ، لان قسماً هاماً من الفلاحين المتوسطين دعمهم ووقف بجانبهم . وحدث الامر نفسه خلال حركات العصيان التي نظمها الكولاك في روسيا الوسطى . ولكن، اعتباراً من خريف ١٩١٨، طرأ تحول على الحالة الفكرية لدى جماهير الفلاحين المتوسطين، وكان هذا التحول في مصلحة الحكم السوفياتي . فقد رأت جماهير الفلاحين ان انتصار الحرس الابيض يؤدي الى عودة حكم كبار ملاكي الاراضي ، والى استرجاع الارض من الفلاحين ، والى عودة النهب والسياط والتنكيل بالفلاحين . وكان نشاط لجان الفلاحين الفقراء، التي سحقت الكولاك ، من العوامل التي ساهمت في التحول الفكري الذي طرأ على جماهير الفلاحين . في ضوء ذلك كله ، اعطى لينين ، في تشرين الثاني ١٩١٨ ، الشعار التالي :

« ينبغي الوصول الى اتفاق مع الفلاح المتوسط، دون التوقف لحظة واحدة عن النضال ضد الكولاك ، مع الاستناد بقوة الى الفلاحين الفقراء فقط » .
(لينين ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٢٣ ، ص ٢٩٤ ، الطبعة الروسية) .

من الراهن ان تردد الفلاحين المتوسطين لم ينعدم تماماً . غير انهم صاروا اقرب الى الحكم السوفياتي ، وصار تأييدهم له أقوى وأثبت . وقد ساعدت على ذلك الى حد كبير ، السياسة التي اوصى مؤتمر الحزب الثامن باتباعها تجاه الفلاحين المتوسطين .

لقد كان المؤتمر الثامن نقطة انعطاف في سياسة الحزب حيال الفلاحين المتوسطين . فان تقرير لينين ومقررات المؤتمر عينت خطة جديدة في معالجة

هذه القضية . وطلب المؤتمر من منظمات الحزب ومن جميع الشيوعيين ان يميزوا بدقة تامة بين الفلاحين المتوسطين وبين الكولاك ، وان يعملوا على اجتذاب الفلاحين المتوسطين الى جانب الطبقة العاملة بالاصغاء والانتباه الى مطالبهم وحاجاتهم . فكان ينبغي النضال ضد تأخر الفلاح المتوسط عن طريق الاقناع لا عن طريق الوسائل الزجرية او اساليب العنف . ولذلك اوعز المؤتمر بتحقيق الاجراءات الاشتراكية في الريف (كانشاء الكومونات والتعاونيات الزراعية) دون اللجوء الى الاكراه . وفي كل الظروف التي يقع فيها مساس بمصالح الفلاح المتوسط الحيوية ، ينبغي الوصول الى اتفاقيات عملية معه ، والتساهل والتنازل له فيما يخص **الوسائل** الآيلة الى تحقيق التحولات الاشتراكية . واقترح المؤتمر اتباع سياسة **التحالف الوثيق** مع الفلاح المتوسط ، على ان يُحفَظ للبروليتاريا **الدور القيادي** في هذا التحالف .

كانت السياسة الجديدة حيال الفلاحين المتوسطين ، التي اعلنها لينين في المؤتمر الثامن ، تتطلب من البروليتاريا ان تستند بقوة الى الفلاحين الفقراء ، وان تحقق تحالفاً وثيقاً مع الفلاح المتوسط ، وان تشن النضال على الكولاك. اما قبل المؤتمر الثامن ، فقد انتهج الحزب ، بصورة عامة ، سياسة قوامها جعل الفلاح المتوسط **على الحياد** . وكان معنى ذلك ان الحزب اراد من الفلاح المتوسط ان لا يقف بجانب الكولاك وبجانب البورجوازية بوجه عام . غير ان ذلك لم يعد يفي بالمطلوب الان . لهذا انتقل المؤتمر من السياسة الرامية الى كسب حياد الفلاح المتوسط الى **التحالف الوثيق معه**، للنضال ضد الحرس الابيض وضد التدخل الاجنبي، وكذلك لتأمين النجاح في الانشاء الاشتراكي.

ان الخطة التي أقرها المؤتمر تجاه الجماهير الاساسية من الفلاحين ، اي تجاه الفلاحين المتوسطين ، لعبت دوراً حاسماً في تأمين الظفر في الحرب الاهلية ضد التدخل الاجنبي واعوانه من الحرس الابيض . ففي خريف ١٩١٩ عندما كان على الفلاحين ان يختاروا بين الحكم السوفياتي وبين دينيكين ، انحاز الفلاحون

الى جانب السوفيات ، فانتصرت ديكتاتورية البروليتاريا على أشد اعدائها خطراً .

واحتلت قضية بناء الجيش الاحمر مجالا خاصاً في اعمال المؤتمر . وقدظهرت في المؤتمر المعارضة المسماة « المعارضة العسكرية » . وقد جمعت عدداً لايستهان به من « الشيوعيين اليساريين » القدماء . غير ان « المعارضة العسكرية » كانت تضم ايضاً ، علاوة على ممثلي « الشيوعية اليسارية » المدحورة ، مناضلين لم يسبق لهم ان اشتركوا في اية معارضة ، ولكنهم كانوا غير راضين عن قيادة تروتسكي في الجيش . وكان معظم المندوبين العسكريين مستائين جداً من تروتسكي ، وساخطين على ركوعه امام الاختصاصيين من الجيش القيصري القديم الذين خانوا قسم منهم خيانة صريحة خلال الحرب الاهلية ، كما كانوا غاضبين من موقف تروتسكي المشحون وقاحة واستهتاراً وعداءاً تجاه الملاكات البلشفية القديمة في الجيش . وذكرت في المؤتمر امثلة « مستمدة من الواقع » يتبين منها كيف اراد تروتسكي ان يعدم رمياً بالرصاص عدداً من المسؤولين العسكريين الشيوعيين في الجيش ، وذنبهم الوحيد انهم لم يحظوا برضاه ، وهي خدمة مباشرة منه للعدو . ولم يحل دون تنفيذ حكم الاعدام بهؤلاء الرفاق سوى تدخل اللجنة المركزية واحتجاجات المناضلين العسكريين في الجيش .

غير ان «المعارضة العسكرية» ، الى جانب نضالها ضد تشويه سياسة الحزب العسكرية من قبل تروتسكي ، كانت تدافع في الوقت نفسه عن وجهات نظر خاطئة في عدد من القضايا المتعلقة بتكوين الجيش. وقد وقف لينين وستالين بكل حزم ضد هذه « المعارضة العسكرية » التي كانت تدافع عن بقايا الروح والعادات التي خلفتها في الجيش فصائل الانصار ، وتناضل ضد انشاء جيش احمر نظامي ، وضد الاستفادة من الخبراء العسكريين ، وضد النظام الحديدي الذي بدونه لا يمكن ان يكون الجيش جيشاً حقيقياً . وقد طلب الرفيق ستالين ، في رده على « المعارضة العسكرية »، انشاء جيش نظامي مشرب بروح نظامية صارمة ، وقال :

« اما ان ننشىء جيشاً حقيقياً من العمال والفلاحين ، وخاصة من الفلاحين ، مشبعاً بروح النظام الصارم ، فنحمي الجمهورية ، واما ان نسير نحو هلاكنا !»

وبعد ان رد المؤتمر سلسلة اقتراحات تقدمت بها « المعارضة العسكرية » ، وجه المؤتمر ضربات شديدة الى تروتسكي ، وطالب بتحسين عمل المؤسسات العسكرية المركزية وبتقوية دور الشيوعيين في الجيش .

وبنتيجة اعمال اللجنة العسكرية المنبثقة عن المؤتمر ، أمكن الوصول الى قرار اجماعي من المؤتمرين حول المسألة العسكرية .

ان قرارات المؤتمر في المسألة العسكرية، أدت الى تقوية الجيش وتقريبه ايضاً وايضاً الى الحزب .

ونوقشت في المؤتمر بعدئذ، المسائل المتعلقة ببناء الحزب والمجالس السوفياتية وبدور الحزب القيادي في عمل المجالس السوفياتية . ورد المؤتمر خلال المناقشات رداً حاسماً على جماعة سابرونوف ــ اوسينسكي الانتهازية ، التي كانت تنكر دور الحزب القيادي في عمل المجالس السوفياتية .

واخيراً ، امام سيل المنتسبين الجدد الى الحزب ، اتخذ المؤتمر قراراً حول تحسين التركيب الاجتماعي للحزب ، والشروع في تسجيل جديد .

وكان ذلك فاتحة اول تطهير لصفوف الحزب .

•

٣ ــ اشتداد التدخل - الحصار على بلاد السوفيات - حملة كولتشاك وسحق كولتشاك - حملة دينيكين وسحق دينيكين - هدنة الاشهر الثلاثة - المؤتمر التاسع للحزب.

بعد دحر المانيـــا والنمسا قررت دول الحلف زج قوات عسكرية هامة ضد البلاد السوفياتية . فعقيب هزيمة المانيـــا وانسحاب جيوشها من اوكرانيا وعبر القفقاس حل محلها الانكليز والفرنسيون فأتوا باساطيلهم الى البحر الاسود وانزلوا جنودهم في اوديسا وعبر القفقاس . وقد بلغت

الهمجية بالغزاة الحلفاء ، الذين كانوا يتصرفون تصرف الاسياد في المناطق المحتلة ، انهم ما كانوا يتورعون عن اعدام جماعات بكاملها من العمال والفلاحين . واخيراً ، بعد احتلال تركستان ، بلغ بهم الاستهتار والوقاحة انهم ساقوا الى ما وراء بحر قزوين ستة وعشرين مناضلاً بلشفياً من قواد منظمة باكو ، وهم الرفاق : شاؤميان ، فيوليتوف ، جاباريدزه ، ماليغين ، عزيز بيكوف ، كورغانوف وغيرهم ، وهناك اعدموهم بالرصاص بصورة وحشية ، بمساعدة الاشتراكيين الثوريين .

وبعد فترة وجيزة اعلن المحتلون ضرب **الحصار** على روسيا ، فقطعت المواصلات البحرية وجميع طرق المواصلات الاخرى مع العالم الخارجي .

وهكذا حوصرت البلاد السوفياتية وطوقت تقريباً من جميع الجهات .

في تلك الآونة ، عقدت دول الحلفاء أملها الرئيسي على الاميرال كولتشاك ، وهو صنيعتها في سيبيريا ، في مدينة اومسك . فأعلن تنصيبه « وصياً اعلى على عرش روسيا » ، وخضعت له جميع القوى المعادية للثورة في روسيا .

وهكذا صارت الجبهة الشرقية هي الجبهة الرئيسية .

وفي ربيع ١٩١٩ ، بلغ كولتشاك ، على رأس جيش لجب ، ضفاف الفولغا تقريباً . فألقيت خيرة قوى البلاشفة ضد كولتشاك ، وجند اعضاء الكومسمول (١) والعمال . وفي نيسان ١٩١٩ ، أنزل الجيش الاحمر بكولتشاك هزيمة شنعاء ، وبعد فترة وجيزة ، بدأ تراجع الجيش الكولتشاكي على طول خط الجبهة .

وفي اوج هجوم الجيش الاحمر على الجبهة الشرقية ، اقترح تروتسكي خطة تدعو الى الريبة ، وهي : الوقوف امام الاورال ، والكف عن ملاحقة كولتشاك ، ونقل الجيوش من الجبهة الشرقية الى الجبهة الجنوبية . الا ان

---

١) : الكومسمول : اتحاد الشبيبة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي .

(هيئة التعريب)

لجنة الحزب المركزية ادركت تماماً ان من المستحيل ترك الاورال وسيبيريا في ايدي كولتشاك، فهو هناك لا يلبث ان يستعيد قواه وينهض من كبوته بمعونة اليابانيين والانكليز ، فرفضت هذه الخطة ، واعطت التعليمات بمتابعة الهجوم . فاستقال تروتسكي لعدم موافقته على هذه التعليمات فرفضت اللجنة المركزية استقالته ، ولكنها اجبرته على التنحي بلا ابطاء عن ادارة العمليات الحربية على الجبهة الشرقية . واخذ هجوم الجيش الاحمر يتطور ضد كولتشاك بقوة اكبر . وأنزل الجيش الاحمر بكولتشاك سلسلة من الهزائم الجديدة ، وحرر من نير البيض الاورال وسيبيريا حيث دعمت الجيش الاحمر حركة انصار عظيمة انبثقت في مؤخرة البيض .

وفي صيف ١٩١٩ ، كلف الاستعماريون الجنرال يودينيتش الذي كان على رأس اعداء الثورة في المنطقة الشمالية الشرقية (في بلاد البلطيق ، قرب بتروغراد) ، بأن يحوّل انتباه الجيش الاحمر عن الجبهة الشرقية بشن هجوم على بتروغراد . وكان بالقربْ من بتروغراد حصنان أثرت في حاميتها الدعاية المعادية للثورة التي قام بها ضباط قدماء ، فاعلنت هذه الحامية العصيان على الحكم السوفياتي ، كذلك اكتشفت مؤامرة معادية للثورة في هيئة اركان الجبهة . واخذ العدو يهدد بتروغراد . غير ان التدابير السريعة التي اتخذها الحكم السوفياتي ، بمعاضدة العمال والبحارة ، أتاحت له تحرير الحصنين المتمردين من البيض ، وانزال الهزيمة بقوات يودينيتش ، والقذف بها الى داخل استونيا.

ان انكسار يودينيتش امام بتروغراد ، سهّل النضال ضد كولتشاك . وفي عام ١٩١٩ ، هُزمت جيوش كولتشاك بصورة نهائية. واعتقل كولتشاك نفسه واعدم رمياً بالرصاص في ايركوتسك ، بعد محاكمته من قبل اللجنة الثورية .

هكذا انتهى امر كولتشاك .

وكان الشعب في سيبيريا يردد هذه الاغنية عن كولتشاك :

ستزة انكليزية ،
وشريطة فرنساوية ،
وتبغ من اليابان ،
ووصي من أومسك.. كمان!

*

هلهلت السترة
وطارت الشريطة ،
ونفد الدخان ،
وهرب الوصي ... كمان !

ولما رأى الغزاة ان كولتشاك لم يحقق الآمال التي عقدوها عليه ، عدّلوا خطة هجومهم على الجمهورية السوفياتية . وترتب عليهم ان يسحبوا من اوديسا قوات التدخل التي انزلوها فيها ، ذلك لان هذه القوات ، لدى احتكاكها بجيوش الجمهورية السوفياتية ، سرت اليها الروح الثورية ، فاخذت تثور على اسيادها الاستعماريين . وهكذا ثار في اوديسا البحارة الفرنسيون . ولهذا ، فبعد هزيمة كولتشاك ، وجهت دول الحلفاء اكبر انتباهها الى الجنرال دينيكين ، شريك كورنيلوف ، ومنظم « جيش المتطوعة » . وكان دينيكين يعمل في هذا الوقت ضد الحكم السوفياتي في الجنوب ، في منطقة الكوبان . وكانت دول الحلف قد أمدّت جيشه بكمية كبيرة من الاسلحة والمعدات ، وقذفت به نحو الشمال ضد الحكم السوفياتي .

وهكذا اصبحت الجبهة الجنوبية هي الجبهة الرئيسية .

شرع دينيكين في حملته الكبرى على الحكم السوفياتي في صيف عام ١٩١٩ . وكان تروتسكي قد قوّض الجبهة في الجنوب ، فنزلت بجيوشنا الهزيمة تلو الهزيمة. وفي منتصف تشرين الاول كان البيض قد احتلوا كل اوكرانيا ، واستولوا على اوريل واخذوا يهددون تولا ، وهي المدينة التي كانت تمون الجيش الاحمر

بالخرطوش والبنادق والرشاشات. واقتربت قوات البيض من موسكو، وباتت الجمهورية السوفياتية في وضع اكثر من حرج. فأرسل الحزب نذير الخطر، ودعا الشعب الى المقاومة. والقى لينين شعار: «الجميع الى النضال ضد دينيكين».

وبوحي البلاشفة وإلهامهم، بذل العمال والفلاحون قصارى جهدهم وقواهم لسحق العدو.

ولاجل تنظيم العمل لسحق دينيكين، ارسلت اللجنة المركزية الى الجبهة الجنوبية الرفاق ستالين وفوروشيلوف وارجونيكيدزه وبوديوني، ونُحي تروتسكي عن قيادة عمليات الجيش الاحمر في الجنوب.

قبل وصول الرفيق ستالين، كانت هيئة اركان الجبهة الجنوبية قد وضعت، بالاتفاق مع تروتسكي، خطة ترمي الى نقل الهجوم الرئيسي ضد دينيكين من تساريتسين الى نوفوروسيسك، مع المرور عبر سهوب الدون، حيث يجد الجيش الاحمر نفسه في منطقة محرومة تماماً من سبل المواصلات ومأهولة بالقوزاق الذين كان قسم كبير منهم ما يزال، في ذلك الحين، تحت تأثير الحرس الابيض. فانتقد الرفيق ستالين هذا المشروع انتقاداً شديداً، واقترح على اللجنة المركزية خطته هو لسحق دينيكين، وقوامها توجيه الهجوم الرئيسي على خط خاركوف - دونباس - روستوف. وكانت هذه الخطة تؤمن لقواتنا التقدم في هجومها على دينيكين تقدماً سريعاً، بفضل العطف الواضح الذي يكنه السكان لجيشنا خلال سيره عبر مناطق عمالية وفلاحية. وعلاوة على ذلك، فان وجود شبكة غنية من الخطوط الحديدية في هذه المنطقة، يسمح بتموين قواتنا بانتظام بكل ما هو ضروري لها. واخيراً. تفتح هذه الخطة المجال لتحرير الدونباس وتأمين الوقود لبلادنا.

فوافقت لجنة الحزب المركزية على خطة الرفيق ستالين. وفي النصف الثاني من شهر تشرين الاول عام ١٩١٩، بعد ان قاوم دينيكين مقاومة ضارية، هزمه الجيش الاحمر في المعارك الحاسمة التي دارت رحاها امام اوريل وفورونيج. فأخذ دينيكين يتراجع بسرعة، ثم راح يتدحرج تدحرجاً نحو الجنوب،

وقواتنا في اثره . وفي مطلع عام ١٩٢٠ ، كانت اوكرانيا باسرها والقفقاس الشمالي قد تحررا من البيض .

وفي اثناء المعارك الحاسمة على الجبهة الجنوبية ، عاد الاستعماريون من جديد الى قذف جيش يودينيتش على بتروغراد لكي يحوّلوا قسماً من القوات السوفياتية نحو الشمال ويحسنوا وضع جيوش دينيكين . وقد بلغ البيض مشارف المدينة . الا ان البروليتاريا الباسلة في بتروغراد جعلت من صدرها حصناً للدفاع عن اول مدينة للثورة . وسار الشيوعيون ، كما يفعلون دائماً ، في مقدمة الصفوف . وبعد معارك حامية الوطيس ، اندحرت القوات البيضاء ، وقُذفت من جديد الى ما وراء حدود بلادنا ، الى استونيا .

هكذا انتهى امر دينيكين ايضاً .

وبعدما تم سحق كولتشاك ودينيكين ، سادت فترة مهادنة قصيرة .

ولما رأى الاستعماريون ان الجيوش البيضاء تمنى بهزائم منكرة ، وان التدخل يحبط ، وان الحكم السوفياتي يزداد قوة ومنعة في جميع انحاء البلاد ، فيما ينمو في اوروبا الغربية سخط العمال على حرب التدخل ضد الجمهورية السوفياتية ، رأى الاستعماريون كل ذلك فشرعوا في تعديل موقفهم من الدولة السوفياتية . وفي كانون الثاني ١٩٢٠ ، قررت انكلترا وفرنسا وايطاليا رفع الحصار عن روسيا السوفياتية .

وانفتحت بذلك ثغرة هامة في جدار التدخل .

ولم يكن معنى ذلك طبعاً ان الدولة السوفياتية قد انتهت من التدخل ومن الحرب الاهلية . فما زال هنالك خطر هجوم من جانب بولونيا الاستعمارية . كما ان الغزاة لم يطردوا بعد نهائياً من الشرق الأقصى ومن عبر القفقاس ومن القرم . بيد ان البلاد السوفياتية حصلت على هدنة موقتة اتاحت لها ان توجه قسطاً اكبر من الجهود نحو التعمير الاقتصادي . وصار بوسع الحزب ان يهتم بالمسائل الاقتصادية .

كان عدد كبير من العمال الاختصاصيين قد هجروا الانتاج ابان الحرب

الاهلية ، بسبب اغلاق المصانع والمعامل . فدعـــا الحزب هؤلاء العمال للعمل مجدداً في الانتاج ضمن اختصاصهم . ووُجّه بضعة آلاف من الشيوعيين لاعادة تنظيم النقليات والمواصلات التي كانت في وضع حرج . فبدون اعـادة خطوط النقل والمواصلات الى حالها الطبيعية ، لم يكن من الممكن الانصراف جدياً الى اعادة تنشيط الفروع الرئيسية للصناعة . وانتظم عمل التموين وتحسن . وبوشر باعداد برنامج لكهربة روسيا . وكان خمسة ملايين من الجنود الحمر تحت السلاح ، ولم يكن بالامكان تسريحهم نظراً لخطر الحرب المحدق . فحولت بعض وحدات الجيش الاحمر الى **جيوش عمل** ، واستفيد منها في مهـام التعمير الاقتصادي . وتحول مجلس الدفاع العمالي والفلاحي الى **مجلس العمل والدفاع** . ولتسهيل اعماله ، أنشئت بجانبه **لجنة مناهج الدولة** : (غوسبلان) .

في هذا الوضع افتتح في اواخر آذار ۱۹۲۰ المؤتمر التاسع للحزب . وحضر المؤتمر ٥٥٤ مندوباً لهم اصوات فعلية يمثلون ٦١١،٩٧٨ عضواً في الحزب ، كما حضره ١٦٢ مندوباً لهم اصوات استشارية .

وحدد المؤتمر ما على البلاد من مهمات اقتصادية مباشرة في حقل النقـــل والصناعة ، وأكد بصورة خاصة عـلى ضرورة مساهمة النقـــابات في التعمير الاقتصادي .

وعُني المؤتمر عناية خاصة بقضية البرنامج الاقتصادي الموحّد الذي كان يهدف في الدرجة الاولى الى انهاض وسائل النقل وقضية الوقود وصناعة التعدين . وقد احتلت كهربة الاقتصاد الوطني باسره المكان الرئيسي في البرنامج ، وقد وصف لينين مشروع الكهربة بانه « برنامج عظيم لعشر سنين او عشرين سنة » . وعلى هذا الاساس ، وضع فيما بعد ، المنهاج الشهير المعروف باسم « غويلرو » (اي منهاج الدولة لكهربة روسيا) وقد تجاوزته بلادنا اليوم تجاوزاً كبيراً .

وأنزل المؤتمر هزيمة منكرة بجماعة « المركزية الديموقراطية » ، وهي فئة معادية للحزب اتخذت موقفاً ضد القيـادة الموحدة في الصناعة وضد المسؤولية الشخصية لمديري الصناعة ، ودافعت عن فكرة « قيادة جماعية » لا حدود لها ،

وعن مبدأ عدم المسؤولية في قيادة الصناعة . وقام بالدور الرئيسي في هذه الجماعة المعادية للحزب كل من سابرونوف واوسينسكي وف. سميرنوف ، ودعمهم في المؤتمر ريكوف وتومسكي .

•

٤ ـ عدوان الاقطاعيين البولونيين على بلاد السوفيات ـ مغامرة الجنرال فرانجل ـ تداعي الخطة البولونية ـ سحق فرانجل ـ نهاية التدخل.

رغم سحق كولتشاك ودينيكين، ورغم ان بلاد السوفيات وسعت رقعتها اكثر فاكثر بتحريرها من البيض ومن الغزاة المتدخلين ، مناطق الشمال وتركستان وسيبيريا والدون واوكرانيا وغيرها ، ورغم ان الحلفاء اضطروا الى رفع الحصار عن روسيا، رغم ذلك كله أبت دول الحلفاء الاعتراف بان الحكم السوفياتي قد برهن أنه لا يغلب وأنه هو الظافر المنتصر . ولذلك قررت ان تحاول تدخلاً جديداً ضد البلاد السوفياتية . وفي هذه المرة قرر الغزاة ان يستخدموا ، من جهة ، بلسودسكي ، وهو قومي بورجوازي معاد للثورة كان الرئيس الفعلي للدولة البولونية ، ومن جهة اخرى فرانجل الذي جمع حوله في القرم فلول جيش دينيكين وراح يهدد الدونباس واوكرانيا .

ان بولونيا الاقطاعية وفرانجل كانا ، حسب تعبير لينين ، بمثابة اليدين اللتين حاول الاستعمار العالمي بواسطتهما خنق البلاد السوفياتية .

وكان للبولونيين برنامجهم وهو الاستيلاء على قسم من اوكرانيا السوفياتية يمتد حتى الضفة اليمنى من الدنيبر ، واحتلال بيلوروسيا السوفياتية ، واقامة حكم الاقطاعيين البولونيين في هذه المناطق، وتوسيع رقعة حدود الدولة البولونية « من البحر الى البحر » ، اي من دانتزيغ الى اوديسا . ثم ، لقاء المساعدة التي كان على الجنرال فرانجل ان يقدمها لهم ، كان البولونيون يفكرون بمساعدته على تحطيم الجيش الاحمر واعادة حكم كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين مجدداً الى روسيا السوفياتية.

وقد وافقت دول الحلف على هذا البرنامج .

وذهبت سدى جميع المحاولات التي بذلتهـــا الحكومة السوفياتية لاجراء مفاوضات مع بولونيا للمحافظة على السلم واجتناب الحرب. فان بلسودسكي ما كان ليريد حتى السماع بحديث السلم . لقد كان يريد القتال . وكان يحسب ان القوات الحمراء قد نهكتها المعارك التي خاضتها ضد كولتشاك ودينيكين، فهي لن تصمد امام هجوم القوات البولونية .

وهكذا انتهت فترة المدنة القصيرة الامد .

في نيسان ١٩٢٠ ، اجتاحت القوات البولونية حدود اوكرانيـــا السوفياتية واستولت عـــلى كييف ، وبدأ فرانجل هجومه في الوقت نفسه ، واخذ يهدد الدونباس . وجواباً على هجوم الجيش البولوني قامت القـوات الحمراء بهجوم معاكس على طول خط القتال .وبعد ما حررت كييف وطردت الاقطاعيين البولونيين من اوكرانيا وبيلوروسيا ، بلغت القوات الحمراء في اندفاعها الهجومي على الجبهة الجنوبية ابواب لفوف في غاليسيا ، فيما اخذت جيوش الجبهة الغربية تقرع ابواب فرصوفيا . لقـد كانت جيوش الاقطاعيين البولونيين على اعتاب هزيمة كاملة .

الا ان التصرفات المشبوهة التي قام بها تروتسكي واعوانه في هيئة اركان الجيش الاحمر ، اجهضت النجاحات التي احرزها الجيش الاحمر . فان هجوم الجيش الاحمر في الجبهة الغربيـــة باتجـــاه فرصوفيا ، سار ـ بجريرة تروتسكي وتوخاشفسكي ـ بشكل غير منظم على الاطلاق. فلم يترك للقوات الحمراء الوقت اللازم لتوطيد المواقع التي استولت عليها ، كما ان الوحدات الامامية دُفعت الى أمام اكثر من اللازم ، اما الذخائر والقوات الاحتياطية فقـد أُبقيت في المؤخرة بعيدة اكثر من اللازم ، وهكذا بقيت الوحدات الامامية بدون ذخيرة وبدون احتياطي ، واستطال خط الجبهة بدون نهاية ، وبالتالي اصبح من السهل خرقها . وبنتيجة ذلـــك كلـه ، عندمـــا استطاع قسم بسيط من الجيش البولوني خرق جبهتنا الغربية في احدى نقاطها ، اضطرت

قواتنا التي بقيت بدون ذخيرة ، الى الانكفاء والتقهقر . اما جيوش الجبهة الجنوبية التي طرقت ابواب « لفوف » وردت البولونيين هناك ، فقد منعها « رئيس المجلس الحربي للثورة » ، تروتسكي ، من احتلال لفوف وامرها بان تعجل في ارسال فرق الخيالة ، وهي القوة الرئيسية في الجبهة الجنوبية ، الى الشمال الشرقي البعيد ، بحجة دعم الجبهة الغربية ، مع انه لم يكن من الصعب على اي انسان ان يدرك ان الاستيلاء على لفوف احسن مساعدة ممكنة للجبهة الغربية ، في حين ان انسحاب فرق الخيالة من الجبهة الجنوبية ورحيلها عن منطقة لفوف معناه ، في الواقع ، تقهقر القوات السوفياتية على الجبهة الجنوبية ايضاً . وهكذا فان تروتسكي ، باصداره امر الخيانة هذا ، قضى على جيوشنا في الجبهة الجنوبية بالتراجع ، وهو تراجع لم يكن له اي اساس ولم تفهم جيوشنا ما هو الداعي له . وقد تم هذا التراجع بين فرح الاقطاعيين البولونيين وتهليلهم .

لقد كان ذلك بمثابة معونة مباشرة ، ولكن ليس لجبهتنا الغربية ، بل للاقطاعيين البولونيين ولدول الحلف .

بعد مضي عدة ايام ، تم وقف هجوم القوات البولونية ، وتأهبت قواتنا لهجوم معاكس جديد . غير ان بولونيا ، التي لم تعد لديها القوة لمواصلة الحرب ، والتي اخذها الفزع من هجوم معاكس يقوم به الجيش الاحمر ، عدلت عن مطامعها في قسم اوكرانيا الواقع على الضفة اليمنى من الدنيبر وفي بيلوروسيا ، وآثرت ان تبرم صلحاً مع روسيا . وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ ، عقدت في ريغا معاهدة سلم مع بولونيا. ووفقاً لهذه المعاهدة احتفظت بولونيا بغاليسيا وبجزء من بيلوروسيا .

بعدما عقدت الجمهورية السوفياتية السلم مع بولونيا ، صممت على الانتهاء من فرانجل . وكان هذا قد تلقى من الانكليز والفرنسيين اسلحة حديثة ومصفحات ودبابات وطائرات وتجهيزات مختلفة . وكان فرانجل يملك وحدات صدام من الحرس الابيض ، مؤلفة بالدرجة الاولى من ضباط بيض . ولكن

فرانجل لم ينجح في تجنيد قوى ، ولو ضئيلة ، من الفلاحين والقوزاق حول القوات التي انزلها في الكوبان ومنطقة الدون. غير ان فرانجل بلغ، مع ذلك، الدونباس، واخذ يهدد مناطقنا الفحمية . وكان مما يعقد وضع الحكم السوفياتي، ان الجيش الاحمر كان اذ ذاك قد اخذ التعب منه كل مأخذ. فقد كان على الجنود الحمر ان يتقدموا الى امام في شروط صعبة الى اقصى حد، وهم يهاجمون قطعات فرانجل من جهة ، ويسحقون في الوقت نفسه العصابات الفوضوية الماخنوفية (انصار ماخنوف) التي كانت تساعد فرانجـل . ولكن رغم ان التفوق التكنيكي كان في جـانب فرانجل ، ورغم ان الجيش الاحمر لم تكن لديه دبابات ، فقد استطاع الجيش الاحمر مع ذلـك ان يقذف بفرانجل الى شبه جزيرة القرم . وفي تشرين الثاني ١٩٢٠ ، احتلت القوات الحمراء مواقـع بيريكوب الحصينة ، وتسللت الى شبه جزيرة القرم ، وسحقت قوات فرانجل وحررت القرم من الحرس الابيض والغزاة . وصارت شبه جزيرة القرم منطقة سوفياتية .

ان انهيار المشاريع الاستعمارية البولونية وسحق فرانجل سجلا ختـام مرحلة التدخل العسكري .

وفي نهاية عام ١٩٢٠ ، بدأ تحرير عبر القفقاس من نير القوميين البورجوازيين، جماعة « حزب المساواة » في اذربيجان ، والقوميين المنشفيك في جيورجيا ، والطاشناق في ارمينيا . وانتهت هذه الحملة بانتصار الحكم السوفياتي في اذربيجان وارمينيا وجيورجيا .

ولكن ذلك لم يكن يعني وقف التدخل وقفاً تاماً . فقد استمر التـدخل الياباني في الشرق الاقصى حتى عام ١٩٢٢ . كما حدثت محاولات جديدة لتنظيم التدخل (الاتامان سيمونوف والبارون اونجرن في الشرق ، تدخل الحرس الابيض الفنلنديين في كاريليا سنة ١٩٢١) . بيد ان الاعداء الرئيسيين لبلاد السوفيات ، وقوات التدخل الاساسية ، سحقت حوالى اواخر سنة ١٩٢٠ .

ان حرب الغزاة الاجانب والحرس الابيض الروسي ضد السوفيات ، انتهت بانتصار السوفيات .

وصانت الجمهورية السوفياتية استقلال دولتها ، ووجودها الحر .
ذلك كان نهاية التدخل العسكري الاجنبي والحرب الاهلية .
ذلك كان الانتصار التاريخي للحكم السوفياتي .

•

٥ ــ كيف ولماذا انتصرت بلاد السوفيات على القوى المتساندة المتألبة عليها ، قوى التدخل الانكليزي الفرنسي الياباني البولوني ، وقوى اعداء الثورة البورجوازيين وكبار ملاكي الاراضي والحرس الابيض في روسيا ؟

اذا تصفحنا الصحافة الكبرى الاوروبية والاميركية في عهد التدخل ، استطعنا ان نتبين ، دون عناء ، ان ما من كاتب مرموق ، عسكري او مدني ، وما من عليم خبير بالفن العسكري ، كان يعتقد بظفر الحكم السوفياتي . بل على العكس ، فان جميع الكتاب البارزين ، وجميع الخبراء بالمسائل الحربية ، ومؤرخي الثورات لكل البلدان والشعوب ، وجميع الذين يسمونهم رجال العلم ، كانوا يصيحون بصوت واحد ان ايام الحكم السوفياتي معدودة ، وان اندحاره امر لا مفر منه .

وكان يقينهم بظفر التدخل يستند الى ان بلاد السوفيات ليس لديها بعد ، جيش احمر مكوّن ، بل كان عليها ، ان صح القول ، ان تؤلفه على الماشي . في حين ان الغزاة المتدخلين والحرس الابيض يملكون جيشاً على قدم الاستعداد نوعاً ما .

ومن ثم كان يقينهم هذا يستند الى ان الجيش الاحمر ليس لديه ملاكات عسكرية مجربة ، لان القسم الاعظم من الملاكات العسكرية انحاز الى جانب

اعداء الثورة ، في حين ان الغزاة المتدخلين والحرس الابيض لديهم مثل هذه الملاكات .

كذلك كان يقينهم بظفر التدخل يستند الى ان الجيش الاحمر يعاني نقصاً في الاسلحة والذخائر من حيث الكمية والكيفية معاً ، بسبب تأخر الصناعة الحربية الروسية ، ولم يكن بوسعه ان يتلقى المعدات العسكرية من البلدان الاخرى لان روسيا مطوقة من كل جانب بسبب الحصار ، في حين ان جيش الغزاة المتدخلين والحرس الابيض مزود وسيظل يتزود بأحسن طراز من الاسلحة والذخائر والمعدات .

واخيراً كان يقينهم هـذا يستند الى ان جيش الغزاة المتدخلين والحرس الابيض يحتل اغنى المناطق بالمنتجات الغذائية ، في حين ان الجيش الاحمر مقطوع عن هذه المناطق ويعاني النقص في المواد الغذائية

وفي الواقع ، كانت جميع هذه النواقص والثغرات موجودة في وحدات الجيش الاحمر .

فمن هذه الناحية ، ولكن من هذه الناحية فقط ، كان السادة المتدخلون على حق تماماً .

فكيف نفسر ، في هذه الحالة ، ان الجيش الاحمر ، وفيه هذا المقدار من النواقص الجدية استطاع ان ينتصر على جيش الغزاة المتدخلين والحرس الابيض ، وهو خال من مثل هذه النواقص ؟

١ ــ لقد انتصر الجيش الاحمر لان سياسة الحكم السوفياتي ، التي كان الجيش الاحمر يحارب باسمها ، كانت سياسة صحيحة عادلة منطبقة على مصالح الشعب ، ولان الشعب ادرك وفهم ان هذه السياسة صحيحة عادلة ، وانها سياسته هو نفسه ، فدعمها الى النهاية .

لقد كان البلاشفة يعلمون ان جيشاً يحارب باسم سياسة غير صحيحة وغير عادلة لا يدعمها الشعب ، لا يمكن ان يكتب له النصر . وتلك كانت ، على الضبط ، حال جيش الغزاة المتدخلين والحرس الابيض . لقد كان هذا الجيش

يملك كل شيء : قواداً قدماء مجربين ، ومعدات عسكرية ممتـازة ، وذخائر واعتدة ومؤونة . فلم يكن يعوزه الا شيء واحد : هو تأييد شعوب روسيا وعطفها . ذلك لان شعوب روسيا لم تكن تريد ـ ولا يسعها ـ ان تشد ازر سياسة معادية للشعب يقوم بها الغزاة المتدخلون و « الاوصياء على العرش » من البيض . وهكذا انهزم جيش الغزاة المتدخلين والحرس الابيض .

٢ ــ لقد انتصر الجيش الاحمر لانه بقي وفياً مخلصاً لشعبه حتى النهـاية ، ولهذا أحبه الشعب وأيده من حيث هو جيشه. لقد انبثق الجيش الاحمر من الشعب، فاذا كان باراً بشعبه ، كما يبر الولد بامه، كان الشعب بجانبه، وكان لا بد ان ينتصر . اما الجيش الذي يقف ضد شعبه فلا بد ان يمنى بالاندحار والهزيمة .

٣ ــ لقد انتصر الجيش الاحمر لان الحكم السوفياتي نجح في انهاض المؤخرة باسرها ، انهاض البلاد باجمعها، للعمل في سبيل الجبهة . ان جيشاً لا يملك مؤخرة قوية تدعم جبهته بكل الوسائل ، هو جيش مكتوب له الاندحار والهزيمـة . وكان البلاشفة يعلمون ذلك ولهذا حوّلوا البلاد الى معسكر حربي يموّن الجبهة بالاسلحة والذخائر والاعتدة والمواد الغذائية وبما يلزم من الملاكات لاملاء الثغرات .

٤ ــ لقد انتصر الجيش الاحمر : أ ـ لان الجنود الحمر كانوا على بينة من هدف الحرب ومراميها ويدركون انها صحيحة عـــادلة ، ب ـ لان ادراك عدالة هدف الحرب ومراميها كان يقوي روح النظام والطاعة بين الجنود ويرفع من مقدرتهم الكفاحية ، ج ـ ولذلك اعطت جماهير الجنود الحمر ، في كل لحظة خلال نضالها ضد الاعداء ، البرهان على نكران للذات لا مثيل له ، وعـــلى بطولة جماهيرية لم يسبق لها نظير .

٥ ــ لقد انتصر الجيش الاحمر لان نواته القيادية ، في المؤخرة والجبهـة ، كانت الحزب البلشفي ، الحزب الموحّد المتلاحم بنظـــامه وتراص صفوفه ، القوي بروحـه الثورية وباستعداده لتقديم كل التضحيات في سبيل ظفر القضية العامة ، الحزب الذي لا يُضاهى في كفاءته على تنظيم الملايين من الجماهير وعلى

قيادتها قيادة صحيحة رشيدة في الاوضاع المعقدة المتشابكة . وقد قال لينين :

« اذا امكن ان تحدث المعجزة التي حدثت ، فذلك فقط بفضل ان الحزب كان على قدم الاستعداد ، وان الحزب كان يسوده نظام صارم ، وان نفوذ الحزب وهيبته كانا يوحدان جميع المؤسسات وجميع الادارات ، وان العشرات والمئات والالوف ومن ثم الملايين كانوا يتبعون شعارات اللجنة المركزية كرجل واحد ، وكذلك فقط بفضل ما قدم من تضحيات لم يسمع بمثلها . لهذا فقط ، وجدنا انفسنا قادرين على الانتصار ، رغم ما قام به استعماريو الدول الحليفة واستعماريو العالم باسره من غزوات تكررت مثنى وثلاث ورباع ».

(لينين - المؤلفات الكاملة - المجلد ٢٥ ، ص ٩٦ ، الطبعة الروسية).

٦ - لقد انتصر الجيش الاحمر : أ - لانه عرف كيف ينشيء في داخله قواداً عسكريين من طراز جديد ، امثال : فرونزه وفوروشيلوف وبوديوني وغيرهم ، ب - لانه كان يحارب بين صفوفه ابطال عريقون ، امثال : كوتوفسكي وتشابايف ولازو وشورس وبارخومنكو وكثيرون غيرهم ، ج - لان تثقيفه السياسي كان يهتم به رجال مثل لينين وستالين ومولوتوف وكالينين وسفردلوف وكاغانوفيتش وارجونيكيدزه وكيروف وكويبيشف وميكويان وجدانوف واندرييف وبتروفسكي وياروسلافسكي وجرجنسكي وشادنكو وميخليس وخروشتشوف وشفرنيك وشكيرياتوف وغيرهم ، د - لان الجيش الاحمر كان يضم بين صفوفه اولئك المنظمين والمحركين غير الاعتياديين ، وهم المفوضون العسكريون الذين كانوا بعملهم يوحدون الجنود الحمر في صفوف متلاحمة كالحديد ، ويغرسون بينهم روح النظام والجرأة والشجاعة في القتال ، ويقمعون بعزم - سريعاً ودون هوادة - اعمال الخيانة التي تصدر عن بعض الافراد من هيئة القيادة ، وبالمقابل يدعمون بشجاعة وحزم الهيبة والمجد اللذين يكسبها القادة ، الحزبيون واللاحزبيون ، الذين اثبتوا اخلاصهم للحكم السوفياتي ، واظهروا كفاءتهم لقيادة وحدات الجيش الاحمر

بيد حازمة .

وكان لينين يقول : « لولا المفوضون العسكريون لما كان لدينا جيش احمر » .

٧ ــ لقد انتصر الجيش الاحمر ، لانه في مؤخرة الجيوش البيضاء ، في مؤخرة كولتشاك ودينيكين وكراسنوف وفرانجل ، كان يعمل سراً بلاشفة مدهشون ، حزبيون ولا حزبيون ، يستثيرون العمال والفلاحين الى الثورة على الغزاة والحرس الابيض ، وينسفون مؤخرات اعداء الحكم السوفياتي ، فيسهلون بذلك تقدم الجيش الاحمر . وما من احد يجهل ان الانصار في اوكرانيا وسيبيريا والشرق الاقصى والاورال وبيلوروسيا وحوض الفولغا ، الذين مزقوا مؤخرات البيض والغزاة المتدخلين ، ادوا للجيش الاحمر خدمة لا تقدر بثمن .

٨ ــ لقد انتصر الجيش الاحمر لان البلاد السوفياتية لم تكن وحيدة في نضالها ضد اعداء الثورة من الحرس الابيض والمتدخلين الاجانب ، ولان نضال الحكم السوفياتي ، وما احرزه من نجاحات ، أثار عطف البروليتاريين وتأييدهم في العالم باسره . ففيما كان الاستعماريون يسعون لخنق الجمهورية السوفياتية بالتدخل المسلح وبالحصار ، كان عمال هذه الدول الاستعمارية يناصرون السوفياتيين ويساعدونهم . فان نضال العمال ضد الرأسماليين في البلاد المناوئة للجمهورية السوفياتية ، ساهم في اجبار هؤلاء الاستعماريين على الكف عن التدخل . فان عمال انكلترا وفرنسا والبلدان الاخرى التي اشتركت في حملة التدخل ، كانوا ينظمون الاضرابات ويرفضون شحن المعدات الحربية المعدة لنجدة الغزاة والجنرالات البيض ، وكانوا يشكلون « لجان نضال » تحت شعار : « ارفعوا ايديكم عن روسيا » .

وكان لينين يقول : « ما ان رفعت البورجوازية العالمية يدها ضدنا ، حتى هب عمالها انفسهم يمسكون بمعصمها » (المصدر نفسه ، ص ٤٠٥) .

الخلاصة

ان كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين الذين سحقتهم ثورة اكتوبر، عمدوا بالاتفاق مع الجنرالات البيض، الى التآمر مع حكومات دول الحلف ضد مصلحة وطنهم، لكي يقوموا جميعاً بعدوان عسكري على بلاد السوفيات ويقوضوا الحكم السوفياتي. وعلى هذا الاساس تم تنظيم التدخل العسكري من جانب الدول الحليفة، وحركات العصيان من جانب الحرس الابيض في اطراف روسيا، وبنتيجة ذلك عُزلت روسيا عن قواعد تموينها بالاغذية والمواد الاولية.

وقد أدى انكسار المانيا العسكري ووقف الحرب بين الكتلتين الاستعماريتين في اوروبا الى تقوية دول الحلف، وبالتالي الى اشتداد التدخل، مما اثار متاعب ومصاعب جديدة لبلاد السوفيات.

وعلى عكس ذلك، فان الثورة في المانيا وابتداء الحركة الثورية في البلدان الاوروبية خلقا وضعاً دولياً ملائماً للحكم السوفياتي، وخففا من الحالة التي كانت تعانيها البلاد السوفياتية.

وانهض الحزب البلشفي العمال والفلاحين الى الحرب **من اجل سلامة الوطن**، ضد الغزاة الاجانب وضد البيض من البورجوازيين وكبار ملاكي الاراضي. وتم للجمهورية السوفياتية وجيشها الاحمر انزال الهزائم بصنائع الدول الحليفة الواحد بعد الآخر: من كولتشاك الى يودينيتش الى دينيكين الى كراسنوف الى فرانجل، وكذلك طرد صنيعة اخرى من صنائع دول الحلف، هو بلسودسكي، من اوكرانيا وبيلوروسيا، وهكذا تم رد التدخل

العسكري الاجنبي ، وقُذفت قواته الى ما وراء حدود البلاد السوفياتية .

هكذا انتهى اول اعتداء عسكري شنه الرأسمال العالمي على بلاد الاشتراكية ، بالاخفاق التام .

ان الاحزاب التي سحقتها الثورة وهي : الاشتراكيون الثوريون ، والمنشفيك ، والفوضويون ، والقوميون اخذوا ، خلال فترة التدخل ، يساندون الجنرالات البيض والغزاة المتدخلين ، ويحيكون المؤامرات ضد الجمهورية السوفياتية ، وينظمون الارهاب ضد المناضلين السوفياتيين . ان هذه الاحزاب التي كان لها قبل ثورة اكتوبر شيء من النفوذ في الطبقة العاملة ، فضحت نفسها تماماً في اثناء الحرب الاهلية ، وبدت للجماهير الشعبية على حقيقتها كأحزاب معادية للثورة .

ان مرحلة الحرب الاهلية والتدخل كانت مرحلة الهلاك السياسي لهذه الاحزاب ، ومرحلة الظفر النهائي للحزب الشيوعي في البلاد السوفياتية .

الفصل التاسع

الحزب البلشفي في مرحلة الانتقال الى العمل السلمي لاحياء الاقتصاد الوطني .

(١٩٢١ ــ ١٩٢٥)

•

١ ــ بلاد السوفيات بعد تصفية التدخل والحرب الاهلية ــ مصاعب مرحلة الاحياء .

بعد ما فرغت بلاد السوفيات من الحرب ، سارت في طريق عمل سلمي قوامه بناء الاقتصاد . فقد كان ينبغي شفاء جراح الحرب . كان ينبغي احياء الاقتصاد الوطني المهدم وادخال شيء من التنظيم على شؤون الصناعة والنقل والزراعة .

ولكن هذا الانتقال الى البناء السلمي كان لا بــد ان يجري ضمن ظروف عسيرة الى اقصى حد . فالنصر الذي تم احرازه في الحرب الاهلية كان قد كلّف غالياً . وكانت البلاد في خراب من جراء اربع سنوات من الحرب الاستعمارية وثلاث سنوات من الحرب ضد التدخل .

ان انتاج الزراعة الاجمالي ، في سنة ١٩٢٠ ، لم يكن يمثل سوى نصف انتاج ما قبل الحرب تقريباً . وينبغي ان لا ننسى ان مستوى ما قبل الحرب كان هو مستوى الريف البائس في ايام القياصرة . وفوق ذلك ، كان عدد من المناطق قد مُني بموسم رديء في عام ١٩٢٠ . وكان اقتصاد الفلاحيــن في

حالة مضنية .

واصعب من ذلك ايضاً ، كانت حالة الصناعة المصابة بخراب تام . فانتاج الصناعة الكبيرة لم يبلغ ، في ١٩٢٠ ، الا ما يقرب من سبع انتاج ما قبل الحرب . وكان معظم المعامل والمصانع متوقفاً عن العمل ، والمناجم كانت مخربة ومغمورة بالمياه ، وصناعة التعدين في حالة يرثى لها . وفي عام ١٩٢٠ بكامله ، لم يتجاوز انتاج الحديد الصب ١١٦٣٠٠ طن ، اي ما يقرب من ٣ بالمئة من انتاج ما قبل الحرب . ولم يكن في البلاد ما يكفي من الوقود . وكانت وسائل النقل في فوضى . وكان الاحتياطي من المعادن والمنسوجات قد استُنزف تقريباً . وكان يعوز البلاد الزم الضروريات : كالخبز ، والدهن ، واللحم ، والاحذية ، والملابس ، وعيدان الثقاب ، والملح ، والبترول ، والصابون .

وخلال الحرب كان الناس قد رضوا بهذه الحرمانات وهذه النواقص ، حتى انهم لم يعودوا ينتبهون اليها في بعض الاحيان . اما الآن ، وقد انتهت الحرب ، فقد احس الناس فجأة بما تنطوي عليه هذه الحرمانات من وطأة ثقيلة لا تطاق ، وطلبوا تلافيها بغير ابطاء .

وقد ظهر الاستياء بين الفلاحين . ففي معمعان الحرب الاهلية كان التحالف السياسي والعسكري بين الطبقة العاملة والفلاحين قد أُوجد واصبح قوياً . وكان هذا التحالف قائماً على اساس محـدّد : كان حكم السوفيات يضمن للفلاح الارض ويحميه من الملاك العقاري الكبير ، ومن الكولاك ، ويتلقى العمال من الفلاحين الغلال الحاصلة من اقتطاع الفائض عن حاجتهم . اما الآن فقد تبين ان هذا الأساس لم يبق كافياً .

فالدولة السوفياتية كانت قد رأت نفسها مضطرة الى ان تأخذ من الفلاح كل الفائض عن حاجته لكي تتمكن من سد حاجات الدفاع . ولولا اقتطاع هذه الفوائض ، لولا سياسة الشيوعية الحربية ، لكان النصر في الحرب الاهلية مستحيلاً . فالحرب والتدخل هما اللذان فرضا هذه السياسة ، وقد قبلها الفلاحون

اذ ذاك ، ولم يكونوا يلقون بالا الى عدم وجود البضائع . ولكن لما وضعت الحرب اوزارها ، وزال خطر عودة الملاك العقاري الكبير ، اخذ الفلاح يبدي تذمره من اقتطاع كل ما يفيض عنه ، كما طلب تزويده بكمية كافية من البضائع .

ان كل نظام الشيوعية الحربية كان ، كما بيّن لينين ، قد اخذ يصطدم بمصالح الفلاحين .

وسرت موجة الاستياء في صفوف الطبقة العاملة ايضاً . فالبروليتاريا كانت قد تحملت العبء الرئيسي في الحرب الاهلية ، اذ ناضلت ببطولة وانكار ذات ، ضد قطعان الحرس الابيض والغزاة ، وضد الخراب والمجاعة. وكان خيرة العمال ، واكثرهم ادراكاً ، واعظمهم اخلاصاً ، واشدهم استمساكاً بالنظام يضطرمون بلظى الحماسة الاشتراكية . ولكن التدهور الاقتصادي العميق كان يؤثر في الطبقة العاملة ايضاً . فالقليل النادر من المعامل والمصانع التي كانت لا تزال تعمل ، كانت تتخلل سيرها وقفات مفاجئة فادحة . وكان العمال مضطرين الى ان يتعاطوا شتى الحرف ، فيصنعون الزناد (القداحات) ويحملون الاكياس على ظهورهم ويتوجهون الى الريف لجلب المنتجات الغذائية . واخذ الضعف يدب الى الاساس الطبقي لديكتاتورية البروليتاريا ، وكانت الطبقة العاملة تتفتت وتتبعثر ، وكنت تشاهد عمالا يذهبون الى الريف ، وينقطعون عن كونهم عمالا ، ويفقدون صفتهم الطبقية . وكان الجوع والتعب يثيران استياء قسم من العمال .

فكان على الحزب ان يفكر بتوجيه جديد منطبق على الوضع الجديد ، فيما يتصل بكل قضايا الحياة الاقتصادية للبلاد .

وأكبّ الحزب على هذه المهمة .

على ان العدو الطبقي لم يكن نائماً ، بل كان يحاول ان يستغل الحالة الاقتصادية المضنية واستياء الفلاحين . فنشبت في سيبيريا واوكرانيا وفي مقاطعة تامبوف (عصيان انطونوف) فتن قام بها الكولاك ونظمها الحرس الابيض

والاشتراكيون الثوريون. ولوحظ تفاقم جديد في نشاط جميع العناصر المعادية للثورة: من منشفيك واشتراكيين ثوريين وفوضويين وحرس ابيض وقوميين بورجوازيين. ولجأ العدو الى خطة جديدة للنضال ضد حكم السوفيات. فتستر بالالوان السوفياتية، وبدلا من الشعار القديم الفاشل، شعار: «لتسقط مجالس السوفيات»، القى العدو شعاراً جديداً: «مع السوفيات، ولكن بدون الشيوعيين».

وكانت الفتنة المعادية للثورة في قلعة كرونشتاد مثالا جلياً على خطة العدو الطبقي الجديدة. فقد بدأت الفتنة قبل ثمانية ايام من افتتاح المؤتمر العاشر للحزب، في اذار ١٩٢١. وكان على رأس هذه الفتنة الحرس الابيض المرتبطون بالاشتراكيين الثوريين والمنشفيك، وبممثلي دول اجنبية.

وقد حاول القائمون بالفتنة ان يخفوا، في اول الامر، ارادتهم في اعادة حكم الرأسماليين وكبار الملاكين العقاريين وملكيتهم وراء عنوان «سوفياتي»، فصاغوا الشعار التالي: «السوفيات بدون الشيوعيين». لقد كان اعداء الثورة يريدون استغلال استياء الجماهير البورجوازية الصغيرة، وقلب حكم السوفيات، بالتستر بشعار سوفياتي مزعوم.

لقد سهّل قيام فتنة كرونشتاد امران: تركيب بحارة البواخر الحربية الذي كان قد ازداد سوءاً، وضعف المنظمة البلشفية في كرونشتاد. فالبحارة القدماء الذين كانوا قد ساهموا في ثورة اكتوبر، كانوا كلهم تقريباً قد ذهبوا الى الجبهة، حيث كانوا يقاتلون قتال الابطال في صفوف الجيش الاحمر. وقد انضمت الى الاسطول افواج جديدة لم تكن قد تمرست بنار الثورة. كانت هذه الافواج مؤلفة من جماعة من الفلاحين لا تزال جافية الطباع تماماً وتعكس استياء جماهير الفلاحين من سياسة اقتطاع الفائض. اما المنظمة البلشفية في كرونشتاد في هذه المرحلة، فكانت قد ضعفت ضعفاً شديداً من جراء سلسلة من التعبئات التي اجريت فيها لمد الجبهة بالرجال. هذا ما مكن المنشفيك والاشتراكيين الثوريين والحرس الابيض، من التسلل الى كرونشتاد

والاستيلاء عليها .

لقد وضع القائمون بالفتنة يدهم على قلعـــة من الطراز الاول ، وعلى الاسطول ، وعلى كمية كبرى من الاسلحة والقذائف. واخذت الرجعية العالمية تنشد اناشيد النصر . على انها بكرت كثيراً في ابتهاجها . فالجيوش السوفياتية سحقت الفتنة في الحال . وجرد الحزب على اصحاب فتنـــة كرونشتاد خيرة ابنائه ، مندوبي المؤتمر العاشر للحزب ، وعلى رأسهم فوروشيلوف . ومشى الجنود الحمر على كرونشتاد متقدمين فوق طبقة الجليد الرقيقة التي كانت تكسو الخليج . وقد غرق الكثيرون منهم حين انحطم الجليد تحت اقدامهم . لقد كان لا بد من مهاجمة حصون كرونشتاد المنيعة التي لا تقتحم وانتزاعها عنوة. فكانت الغلبة للاخلاص للثورة ، كانت الغلبة للشجاعة ولارادة بذل الحياة في سبيل حكم السوفيات . واستولت القوات الحمراء عنوة على كرونشتاد ، وقضي على الفتنة .

•

٢ ـ المناقشة في الحزب حول النقابات ـ المؤتمر العاشر للحزب ـ انهزام المعارضة ـ السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب (١)).

كانت لجنة الحزب المركزية ، كانت اكثريتها اللينينية، تدرك بوضوح تام انه ، بعد تصفية الحرب والانتقال الى العمل السلمي في بناء الاقتصاد ، لم يبق ثمة سبب للابقاء على نظام الشيوعية الحربية القاسي ، الذي فرضته حالة الحرب والحصار .

لقد كانت تدرك ان ضرورة اقتطاع الفائض لم تبق لازمة وانه قد اصبح

---

(١) نيب ، كلمة مؤلفة من الاحرف الاولى من الكلمات الروسية الثـلاث التي تعني « السياسة الاقتصادية الجديدة » . وقد اطلقت هـذه التسمية على المرحلة التي تلت انتهاء الحرب الاهلية والقضاء على التدخل . واطلقت كلمة « نيبان » على التجار والرأسماليين الذين افادوا من الوضع الذي خلقته « السياسة الاقتصادية الجديدة » ، واطلقت ايضاً على رجال الادارة الذين غالوا في هذه السياسة . (هيئة التعريب)

من الواجب الاستعاضة عن ذلك بالضريبة العينية (١) ، وذلك بغية تمكين الفلاحين من التصرف ، كما يشاءون ، بالقسم الاعظم من فوائض انتاجهم . لقد كانت اللجنة المركزية مدركة ان هذا التدبير من شأنه ان يفسح المجال لاجل انعاش الزراعة ، وتوسيع انتاج الحبوب والزراعات الضرورية لتطوير الصناعة ، ولاجل تنشيط تداول البضائع في البلاد ، وتحسين تموين المدن ، واعطاء تحالف العمال والفلاحين ، اساساً جديداً ، اساساً اقتصادياً .

وكانت اللجنة المركزية مدركة ايضاً ان انهاض الصناعة مهمة في الدرجة الاولى من الخطورة ، ولكنها كانت ترى انه يستحيل انعاش الصناعة بدون معونة الطبقة العاملة ونقاباتها . وكانت ترى ان من الممكن اثارة اهتمام العمال بذلك ، بافهامهم ان الخراب الاقتصادي عدو خطر على الشعب كالتدخل والحصار ، وكانت ترى ان بوسع الحزب والنقابات تأدية هذه المهمة ، بكل تأكيد ، اذا سلكا نحو الطبقة العاملة طريق الاقناع ، لا طريق اصدار الاوامر العسكرية ، كما كانت الحال في الجبهة ، حيث تكون هذه الاوامر ضرورية فعلا .

ولكن لم يكن جميع اعضاء الحزب يفكرون تفكير اللجنة المركزية . فان الفرق الصغيرة المعارضة : من تروتسكيين و«معارضة عمالية» و«شيوعيين يساريين» ، و «مركزيين ديموقراطيين» الخ ، قد ضلت سواء السبيل ؛ واخذت تتردد امام المصاعب التي كانت على وشك الظهور في مطلع عهد البناء السلمي للاقتصاد . وكان في الحزب عدد غير قليل من قدماء المنشفيك ، وقدماء الاشتراكيين الثوريين ، وقدماء البونديين ، وقدماء البوروتبيين (٢) وانصاف القوميين على انواعهم من المناطق الواقعة في اطراف روسيا . وكان معظم هؤلاء ينتمون الى هذه او تلك من الفرق المعارضة الصغيرة . ونظراً لكون

(١) اي التي تستوفى عيناً ، ومن نفس المحصول ، لا نقداً . (هيئة التعريب)

(٢) الجناح الايسر من حزب الاشتراكيين الثوريين الاوكرانيين القومي المتعصب . اصدر هذا الجناح حتى ١٩١٨ جريدته المركزية بوروتبا (اي النضال) .
(هيئة التعريب)

هؤلاء الناس ليسوا مـاركسيين حقيقيين ، ولا يعرفون قوانين التطور الاقتصادي ، وليست لديهم الصلابة الليلينية، فانهم لم يزيدوا التشويش والتردد في هذه الفرق المعارضة الصغيرة الا تفاقماً . فكان بينهم من يفكرون بانه يجب عدم اضعاف نظام الشيوعية الحربية الصارم ، بل على العكس ، ينبغي « المزيد من شد البراغي » . وكان بينهم آخرون يفكرون بانه يجب عـلى الحزب والدولة ان يقفا بمعزل عن عمل انعاش الاقتصاد الوطني ، وبان هذا العمل ينبغي ان يعهد به بكامله الى النقابات .

وكان واضحاً انه امام هذا الاضطراب في بعض اوساط الحزب ، سيبرز الى الوجود اناس وهواة مناقشة ، و « زعماء » معـارضة من كل طراز ، سيسعون جهدهم ليفرضوا على الحزب الدخول في نقاش .

وهو ما وقع فعلا .

فقد ثارت المناقشة اول الامر ، حول دور النقابات ، بينما مسألة النقابات لم تكن بعد اذ ذاك هي المسألة الاساسية في سياسة الحزب .

وكان المحرك الاول للمناقشة والنضال ضد لينـين ، وضد الاكثرية الليلينية في اللجنة المركزية ، هو تروتسكي . فرغبة منه في زيادة سوء الحالة ، القى خطابا في جلسة للمندوبين الشيوعيين الى المجلس العام الخامس لنقابات روسيا ، في اوائل تشرين الثاني ١٩٢٠ ، وصاغ شعارات مريبة كانت تتحدث عن « شد البراغي » وعن « هز النقابات » . وكان تروتسكي يطلب ان يصار على الفور الى « تدويل النقابات » (١) . وكان ضد اسلوب الاقناع حيـال جماهير العمال . لقد كان يريد نقل الاسلوب العسكري الى النقابات . وكان تروتسكي ضد تطوير الديموقراطية في النقابات، وضد انتخاب الهيئات النقابية .

وبدلا من اسلوب الاقناع ، الذي لا يمكن، دون وجوده ، تصور نشاط المنظمات العمالية ، كان التروتسكيون يعرضون اسلوب الاكراه لا اكثر ولا اقل ، اسلوب اصدار الاوامر ، لا غير . وحيث كان التروتسكيون

---

(١) Etatisation اي جعلها تابعة للدولة . (هيئة التعريب)

يصلون الى قيـــادة العمل النقابي ، كانوا ، بسياستهم ، يحملون الى النقابات الخلافات والانشقاق والتفكك . وكانوا بهذه السياسة ، يثيرون جمهور العمال اللاحزبيين ضد الحزب ، ويقسمون الطبقة العاملة .

وفي الواقع ، كانت المناقشة حول النقابات تتعدى نطاق المسألة النقابية الى حد بعيد . فكما بيّن ، فيما بعد ، قرار الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (المنعقد في ١٧ كانون الثاني ١٩٢٥) ، كان النقاش يدور بالفعل « حول الموقف ازاء الفلاحين الذين كانوا يناهضون الشيوعية الحربية ، وحول الموقف نحو جمهور العمال اللاحزبيين ، وبصورة عامة ، حول موقف الحزب نحو الجماهير في المرحلة التي كانت الحرب الاهلية فيها قد قاربت نهايتها». (الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي في قراراته ، الجزء الاول ، ص٦٥١، الطبعة الروسية) .

وعلى اثر تروتسـكي ، شوهد ظهور الفرق الاخرى للنضال ضد الحزب: « المعارضة العمالية » (شليابنيكوف ، مدفيديف ، كوللونتاي ، واخـــرين ايضـــاً) و « المركزيين الديموقراطيين » (سابرونوف ، دروبنيس ، بوغوسلافسكي ، اوسينسكي ، ف . سميرنوف ، واخرين ايضاً)، والشيوعيين اليساريين (بوخارين ، وبريوبراجنسكي) .

فاما « المعارضة العمالية» فقد صاغت شعار تسليم ادارة كل الاقتصاد الوطني الى « مؤتمر المنتجين في روسيا » . لقد كانت تريد ان تجعل دور الحزب لا شيء وتنكر اهمية ديكتاتورية البروليتاريا في بناء الاقتصاد . كانت « المعارضة العمالية » تضع النقابات مقابل الدولة السوفياتية والحزب الشيوعي . كانت ترى ان الشكل الاعلى لتنظيم الطبقة العاملة ، ليس الحزب ، بل النقابات. لقد كانت « المعارضة العمالية » ، في الواقع ، فرقة نقابية ــ فوضوية للنضـــال ضد الحزب .

اما فرقة « المركزية الديموقراطية» ، فكانت تطالب بالحرية الكاملة للفرق الانقسامية والتكتلات. وكان هؤلاء الناس يسعون، على غرار التروتسكيين ،

الى الانتقاص من دور الحزب القيادي في مجالس السوفيات وفي النقابات. وقد وصفهم لينين بانهم فرقة انقسامية من « الصخّابين » ، ووصف منهجهم بانه منهج منشفيكي ـ اشتراكي ـ ثوري .

كان تروتسكي في نضاله ضد لينين وضد الحزب مدعوماً من قبل بوخارين. وكان بوخارين ، وبريوبراجنسكي ، وسيريبريا كوف ، وسو كولنيكوف ، قد ألّفوا فرقة « حاجزة » . وكانت هذه الفرقة تدافع عن اسوأ الانقساميين ، اي عن التروتسكيين وتحميهم . وقد وصف لينين سلوك بوخارين بانه « منتهى الانحطاط الفكري » . ولم يلبث البوخارينيون ان تحالفوا ، بصورة سافرة ، مع التروتسكيين ضد لينين .

وقد وجه لينين واللينينيون ضربتهم الرئيسية الى التروتسكيين ، الذين هم القوة الاساسية لتكتلات النضال ضد الحزب . فاثبتوا على التروتسكيين انهم لم يميزوا بين النقابات وبين المنظمات العسكرية ، وبينوا لهم انه لا يمكن نقل اساليب المنظمات العسكرية الى النقابات . ومقابل المناهج التي قدمتها فرق المعارضة ، صاغ لينين واللينينيون منهجهم الخاص . وكان هذا المنهج يبين ان النقابات مدرسة للادارة ، مدرسة للادارة الاقتصادية ، مدرسة الشيوعية . فكل عملها ينبغي ان يقوم على اسلوب الاقناع . بهذا الشرط فقط ، ستتمكن من تعبئة جميع العمال للنضال ضد الخراب الاقتصادي ، ومن اجتذابهم الى البناء الاشتراكي .

وقد التفّت منظمات الحزب حول لينين في النضال ضد فرق المعارضة . وكانت المعركة حامية بشكل خاص في موسكو . ففيها كانت المعارضة قد حشدت معظم قواها ، هادفة الى الاستيلاء على المنظمة الشيوعية في العاصمة . ولكن بلاشفة موسكو صدوا دسائس الانقساميين صداً حازماً . وقام نضال حاد ايضاً في منظمات الحزب الاوكرانية . غير ان بلاشفة اوكرانيا ، بقيادة الرفيق مولوتوف الذي كان اذ ذاك امين سر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في اوكرانيا ، هزموا التروتسكيين وانصار شليابنيكوف . وظل الحزب

الشيوعي في اوكرانيا ، الحصن المنيع لحزب لينين . وفي باكو ، جرى تنظيم سحق المعارضة بقيادة الرفيق اوردجونيكيدزه . وفي آسيا الوسطى ، قاد الرفيق ل. كاغانوفيتش النضال ضد الفرق المعادية للحزب .

لقد انضمت جميع منظمات الحزب المحلية الرئيسية الى منهج لينين .

وفي ٨ آذار ١٩٢١ ، افتتح المؤتمر العاشر للحزب . وقد حضر هذا المؤتمر ٦٩٤ مندوباً باصوات فعلية ، يمثلون ٧٣٢،٥٢١ عضواً في الحزب . كما كان هناك ٢٩٦ مندوباً لهم اصوات استشارية .

وقد رصد المؤتمر حصيلة المناقشة حول النقابات ، ووافق باكثرية ساحقة على منهج لينين .

وحين افتتح لينين المؤتمر ، اعلن ان المناقشة كانت ضرباً من الترف غير المقبول . وبيّن ان الاعداء كانوا ينيطون آمالهم بالنضال الداخلي والانقسام في الحزب الشيوعي .

وامام الخطر الجسيم الذي كان يهدد الحزب البلشفي وديكتاتورية البروليتاريا من جراء وجود فرق انقسامية ، اهتم المؤتمر العاشر اهتماماً خاصاً لقضية **وحدة الحزب** . فقدم لينين تقريراً حول هذا الموضوع . وشجب المؤتمر جميع فرق المعارضة ، واشار الى انها « في الواقع ، كانت تساعد اعداء الثورة البروليتارية الطبقيين » .

واوجب المؤتمر حل جميع الفرق الانقسامية على الفور ، وكلف جميع المنظمات بان تسهر سهراً دقيقاً على عدم قيام اي عمل انقسامي ؛ وكان عدم تنفيذ قرار المؤتمر يؤدي الى الطرد فوراً من الحزب .

وفي حالة اقدام اعضاء من اللجنة المركزية على خرق النظام الحزبي او استئناف العمل الانقسامي او الاغضاء عنه ، فوّض المؤتمر الى اللجنة المركزية اتخاذ جميع العقوبات اللازمة بحق هؤلاء الاعضاء ، حتى بما في ذلك ، طردهم من اللجنة المركزية ومن الحزب .

وقد دُوّنت جميع هذه المقررات في قرار خاص بعنوان « حول وحدة

الحزب» ، اقترحه لينين ووافق عليه المؤتمر .

في هذا القرار ، يلفت المؤتمر انتباه جميع اعضاء الحزب الى ضرورة تحقيق وحدة صفوف الحزب وتماسكها ووحدة ارادة طليعة البروليتاريا ، خصوصاً في فترة كمرحلة المؤتمر العاشر ، التي فيهـا ساهمت الظروف في تقوية التردد بين السكان البورجوازيين الصغار في البلاد .

يقول القرار :

ومع ذلك ، فقبل المناقشة العامة في الحزب حول النقابات ، ظهرت بعض الدلائل على قيام نشاط انقسامي ، اي اننا شهدنا ظهور فرق لها مناهجها الخاصة ، مع ميل للانطواء ، الى حد ما ، على نفسها ، ولايجاد نظام تكتلي خاص لها . فمن الضروري ان يدرك جميع العمال الواعين ادراكاً واضحـاً ان اي نشاط انقسامي مهما كان ، ينطوي على امور ضارة وغير مقبولة ، لان هذا النشاط انما يؤدي ، في الواقع ، بصورة محتومة ، الى اضعاف حسن التفاهم في العمل ، والى تقوية ما يقوم به الاعداء الذين يتشبثون باذيال الحزب الحكومي ، من محاولات متكررة هدفها تعميق الانقسام (في الحزب) واستغلاله لأهداف اعداء الثورة .

ويتابع المؤتمر قائلاً :

« ان استغلال اعداء البروليتـاريا لكل نوع من انواع الانحراف عن الخطة الشيوعية الدقيقة قد برز باجلى الاشكال ، في فتنة كرونشتاد ، لما سارع اعداء الثورة البورجوازيون والحرس الابيض في جميع بلدان العـالم الى اظهار استعدادهم للقبول حتى بشعارات النظام السوفياتي ، شرط ان يُقضى على ديكتاتورية البروليتاريا في روسيا ، ولما استخدم الاشتراكيون الثوريون ، وبصورة عـامة ، اعداء الثورة البورجوازيون ، شعارات العصيان المسلح في كرونشتاد ، ضد الحكومة السوفياتية

في روسيا ، زاعمين انهم يفعلون ذلك باسم سلطة السوفيات .

ان مثل هذه الوقائع تثبت بصورة كافية ان الحرس الابيض يريدون، ويستطيعون، ان يتنكروا بثوب الشيوعيين، بل ان يكونوا « اكثر جنوحاً الى اليسار » من الشيوعيين ، للوصول الى غاية واحدة ، هي اضعاف حصن الثورة البروليتارية في روسيا وهدمه . كما ان النشرات المنشفية التي وُزعت في بتروغراد ، قبيل فتنة كرونشتاد ، تدل ايضاً على ان المنشفيك قد استغلوا الاختلافات في داخل الحزب الشيوعي الروسي،لاجل دفع القائمين بفتنة كرونشتاد ، الاشتراكيين الثوريين والحرس الابيض، ومساندتهم بالفعل، مع تظاهر هؤلاء المنشفيك بالكلام بانهم ، فيما خلا بعض تحفظات صغيرة ، اعداء التمردات ، على حد قولهم ، وانصار لحكم السوفيات .»

ويشير القرار الى ان دعاية الحزب يجب ان تشرح شرحاً وافياً ما ينطوي عليه النشاط الانقسامي من ضرر وخطر بالنسبة لوحدة الحزب وتحقيق وحدة الارادة لدى طليعة البروليتاريا ، الامر الذي هو شرط اساسي لنجاح ديكتاتورية البروليتاريا .

ومن جهة اخرى ، يشير قرار المؤتمر ، الى ان دعاية الحزب يجب ان تشرح الشيء الخاص الموجود في الاساليب التاكتيكية الاخيرة التي استعملها اعداء سلطة السوفيات . يقول القرار :

« ان هؤلاء الاعداء الذين باتوا مقتنعين ، بعد اليوم ، بان كل محاولة معادية للثورة تجري بصورة سافرة ، تحت راية الحرس الابيض ، مكتوب لها الفشل ، يبذلون الان جميع جهودهم لاستغلال الخلافات في داخل الحزب الشيوعي الروسي ، ولدفع حركة العداء للثورة الى امام ، بهذا الشكل او بذاك ، عن طريق تسليم الحكم الى التكتلات السياسية التي هي ، في الظاهر ، اقرب

ما يكون الى الاعتراف بسلطة السوفيات (الحزب الشيوعي في الاتحـــاد السوفياتي في قراراته ، الجزء الاول ، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤ ، الطبعة الروسية) .

ثم يشير القرار الى ان دعاية الحزب « يجب ان تبرز ايضاً تجربة الثورات السابقة ، حيث كان اعداء الثورة يساندون اقرب التكتلات البورجوازية الصغيرة الى الحزب الثوري المتطرف ، بغية زعزعة الديكتاتورية الثورية وقلبها ، وهكذا يمهدون الطريق بعدئذ لانتصار اعداء الثورة التام ، الرأسماليـــين وكبار ملاكي الارض » .

وبالقرار « حول وحدة الحزب » ، ارتبط ارتباطاً وثيقاً قرار آخر « حول الانحراف النقابي والفوضوي في حزبنا » ، اقترحه لينين ايضاً ، ووافق عليه المؤتمر . وفي هذا القرار شجب المؤتمر العاشر المعارضة المسماة « المعارضة العمالية » . واعلن ان نشر افكار ذات اتجاه فوضوي ــ نقابي يتنافى مع الانتماء الى الحزب الشيوعي ، ودعا المؤتمر الحزب الى مكافحة هذا الانحراف مكافحة حازمة .

وتبنى المؤتمر العاشر قراراً عظيم الاهمية حول ابطال نظام اقتطاع الفائض ، وانشاء الضريبة العينية ، والانتقال الى **السياسة الاقتصادية الجديدة** (نيب) .

وفي هذا الانعطاف من الشيوعية الحربية الى النيب يتجلى كل ما تتصف به سياسة لينين من حكمة وصفاء نظر .

كان قرار المؤتمر يتحدث عن احلال الضريبة العينية محل اقتطاع الفائض . وكانت الضريبة الغذائية العينية اقل ارتفاعاً من الاقتطاع . وكان ينبغي اعلان مقدار الضريبة ، كل سنة ، قبل بذار الربيع . وكانت آجال التسليم محددة تحديداً مضبوطاً . ومتى سلم الفلاح

الضريبة ، كان له ان يتصرف بكل ما يبقى له زيادة عنها ، وله الحرية في بيع الفائض عنده كما يريد . وقد اشار لينين في تقريره الى ان حرية التجارة ستؤدي في البدء الى انتعاش الرأسمالية بعض الشيء في البلاد . وسيكون علينا ان نسمح بالتجارة الخصوصية ونأذن لاصحاب العمل الخصوصيين بفتح مشاريع صغيرة . ولكن يجب الا يخيفنا ذلك . ان لينين كان يرى ان وجود قدر من حرية التجارة من شأنه ان يستثير اهتمام الفلاح باستثماراته ، وان يرفع انتاجية عمله ، وان يحدث نهوضاً سريعاً في الزراعة ، وكان يرى انه ، على هذا الاساس ، سيتم احياء صناعة الدولة ، ويزاح الرأسمال الخاص ، وانه ، بعد تكديس القوى والموارد ، يصبح في امكاننا ان نخلق صناعة جبارة تكون اساساً اقتصادياً للاشتراكية ، ثم نباشر هجوماً قوياً لهدم بقايا الرأسمالية في البلاد.

لقد كانت شيوعية الحرب محاولة للاستيلاء عنوة ، بهجوم جبهي ، على قلعة العناصر الرأسمالية في المدينة والقرية . وقد توغل الحزب بعيداً في هذا الهجوم ، وتعرض لخطر الانفصال عن قاعدته . فكان لينين يقترح التراجع قليلا الان ، والارتداد ، لفترة من الزمن ، الى مسافة اكثر قرباً من المؤخرة ، والانتقال من مهاجمة القلعة الى محاصرتها زمناً اطول ، وذلك لاجل تكديس قوى ، ثم استئناف الهجوم .

اما التروتسكيون واعضاء المعارضة الاخرون ، فكانوا يرون ان النيب هو مجرد تراجع . وكان هذا التفسير ملائماً لهم ، لانهم كانوا يهدفون الى اعادة الرأسمالية . فكان ذلك تفسيرا للنيب مؤذياً ومعادياً للينينية عداء عميقاً . وفي الواقع ، فبعد سنة واحدة فقط من اقامة النيب ، اعلن لينين في المؤتمر الحادي عشر للحزب ان **فترة التراجع قد انتهت** ، والقى شعار

« اعداد الهجوم ضد الرأسمال الخاص في الاقتصاد » . (لينين ــ المؤلفات الكاملة ، الجزء ٢٧ ، ص ٢١٣ ، الطبعة الروسية) .

اما اعضاء المعارضة الذين كانوا ماركسيين سيئين وعلى جهـل مطبق في السياسة البلشفية ، فلم يفهموا لا طبيعة النيب ولا صفة التراجع الذي جرى في مطلع النيب . وقد تكلمنا انفاً عن طبيعة النيب . واما فيما يتصل بصفة التراجع فينبغي القول ان التراجعات تختلف بعضها عن بعض . فهناك فترات يكون لزاماً فيها على الحزب او الجيش ان يتراجعا ، لانهما قد منيا بهزيمة . وفي مثل هذه الحـالات ، يتراجع الحزب او الجيش لكي يبقى سليما ، ولكي يحفظ ملاكاته لمعارك جديدة . والتراجع الذي اقترحه لينين عند اقامة النيب لم يكن قط تراجعاً من هذا النوع ، نظراً لان الحزب لم يكن قد مني بهزيمة ولا ُغلب ، بل كان هو نفسه قد قهر الغزاة والحرس الابيض خلال الحرب الاهلية . ولكن هناك فترات يوغل فيها الحزب المنتصر او الجيش ، كثيراً الى امام ، في هجومه ، فينجم عن ذلك خطر جدي . فالحزب المجرب او الجيش المجرب يرى ، في مثل هذه الحالات ، من الضروري ، بصورة عامة ، لكي لا ينفصل عن قاعدته ، ان يتراجع قليلاً ، فيقترب من مؤخرته ، ليصبح امتن ارتباطاً بقاعدته في المؤخرة ، وليجهز نفسه بكل ما هو ضروري ، ثم يستأنف الهجوم بثقة اكبر وبضمانات للنجاح . وهذا النوع من التراجع الموقت هو ، على وجه التدقيق ، ما حققه لينين في ظل النيب . وعندما عرض لينين امام المؤتمر الرابع للاممية الشيوعية الاسباب التي قررت اقامة النيب ، اعلن بكل صراحة قائلاً: « في هجومنا الاقتصادي انطلقنا الى امام اكثر مما ينبغي ، دون ان نؤمن لانفسنا قاعدة كافية » . ولهذا كان لزامـاً القيام بتراجع موقت نحو مؤخرة أمينة .

لقد كانت مصيبة المعارضة ان جهلها لم يكن يمكنها ولم يمكنها قط من ان تفهم هذه الخاصة التي يتصف بها التراجع في ظل النيب .

ان قرار المؤتمر العاشر عن النيب قد أمن تحالفاً اقتصاديا متيناً بين

الطبقة العاملة والفلاحين لاجل بناء الاشتراكية .

وهذه المهمة الاساسية قد ساعدها ايضاً قرار آخر من المؤتمر حول المسألة الوطنية . وكان الرفيق ستالين هو الذي قدم التقرير حول هذه المسألة. لقد قال الرفيق ستالين اننا قد محونا الاضطهاد القومي ، ولكن هذا لا يكفي. فمهمتنا هي محو تركة الماضي الثقيلة ، محو التأخر الاقتصادي والسياسي والثقافي عند الشعوب التي كانت مضطهدة فيما مضى . وينبغي ان نساعد هذه الشعوب على اللحاق بروسيا المركزية ، في هذا الميدان . ثم اشار الرفيق ستالين الى انحرافين في القضية الوطنية معادين للحزب : الشوفينية الاستعمارية (الروسية الكبرى) والتعصب القومي المحلي. وقد شجب المؤتمر كلا من هذين الانحرافين، بوصفهما ضارين وخطرين على الشيوعية وعلى الاممية البروليتارية. ولكن المؤتمر وجه الضربة الاقوى الى الشوفينية الروسية الكبرى التي كانت تؤلف الخطر الرئيسي ، اي الى الموقف الشبيه بالموقف الذي كان يتخذه ، في عهد القيصرية ، الشوفينيون الروس الكبار ازاء الشعوب غير الروسية .

•

٣ ـ النتائج الاولى النيب ـ المؤتمر الحادي عشر للحزب ـ تشكيل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ـ مرض لينين ـ منهاج لينين التعاوني ـ المؤتمر الثاني عشر للحزب

ان وضع النيب موضع التنفيذ قد لاقى المقاومة من العناصر غير الثابتة في الحزب . وقد تجلت هذه المقاومة من ناحيتين. فمن جهة ، كان يقف الصخابون « اليساريون » ، والمسوخ السياسيون ، امثال لومينادزه وشاتسكين والاخرين ، الذين كانوا « يبرهنون » ان النيب هو التخلي عن انتصارات ثورة اوكتوبر ، والعودة الى الرأسمالية، وموت حكم السوفيات. ان هؤلاء الناس، بسبب جهلهم السياسي وعدم معرفتهم قوانين التطور الاقتصادي ، ما كانوا يفهمون سياسة الحزب، وكانوا يصابون بالذعر وينشرون حولهم التخاذل وتثبيط العزائم . ومن جهة اخرى ، كان هناك الاستسلاميون السافرون ، امثال

تروتسكي ورادِيك وزينوفييف وسوكولنيكوف وكامينيف وشليابنيكوف وبوخارين وريكوف ، وغيرهم ايضاً ، ممن لم يكونوا يؤمنون بامكان تطور بلادنا الاشتراكي . فقد كانوا ينحنون امام « جبروت » الرأسمالية ، وسعياً وراء تثبيت مواقع الرأسمالية في بلاد السوفيات ، كانوا يطالبون بمنح الرأسمال الخاص امتيازات هامة ، سواء في داخل البلاد ام في الخارج . كما كانوا يطلبون تسليم الرأسمال الخاص سلسلة من مراكز قيادة الحكم السوفياتي في الاقتصاد الوطني ، بشكل امتيـــازات ، او شركات مساهمة مختلطـة يشترك فيها الرأسمال الخاص .

ان هؤلاء واولئك كانوا غرباء عن الماركسية واللينينية .

وقـــد فضح الحزب كلا الفريقين وعزلهما . ورد الحزب رداً حاسماً على ناشري الذعر ودعاة الاستسلام .

ان هذه المقاومة لسياسة الحزب كانت تذكر ، مرة اخرى ، بضرورة تطهير الحزب من العناصر غير الثابتة . ولذلك قامت اللجنـة المركزية بعمل هام لتقوية الحزب ، بتنظيمها تطهير الحزب في سنة ١٩٢١ . وقد جرى التطهير في اجتماعات عامة بحضور اللاحزبيين ومساهمتهم . وكان لينين قـــد اوصى بتنظيف الحزب «من المختلسين» ، والشيوعيين المصابين بالبيروقراطية والشيوعيين غير المستقيمين والشيوعيين المائعين ، ومن المنشفيك الذين « جددوا دهان الواجهة » ولكن بقوا منشفيكيين في قرارة نفوسهم » . (لينين ـ المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ ، الصفحة ١٣ ، الطبعة الروسية) .

وبنتيجة التطهير ، فُصل حوالي ١٧٠ الفاً ، اي زهاء ٢٥ بالمئة من مجموع اعضاء الحزب .

ان التطهير قد قوّى الحزب تقوية كبيرة ، وحسّن تركيبه الاجتماعي ، وعزز ثقة الجماهير به ، ورفع نفوذه . واصبح الحزب أشد تماسكاً وقويت فيه روح النظام .

ان السنة الاولى من السياسة الاقتصادية الجديدة قد برهنت صحة هذه

السياسة . فالانتقال الى النيب عزز بشكل محسوس ، تحالف العمال والفلاحين القائم على اساس جديد . فنمت قدرة ديكتاتورية البروليتاريا وازدادت صلابتها وصفيت اعمال الشقاوة التي كان يقوم بها الكولاك تصفية تامة تقريباً. واخذ الفلاحون المتوسطون ، منذ الغاء نظام اقتطاع الفوائض ، يعاونون النظام السوفياتي على مكافحة عصابات الكولاك . وكانت سلطة السوفيات تحتفظ في يديها بجميع مراكز قيادة الاقتصاد الوطني : الصناعة الكبرى، والنقل والبنوك، والارض ، والتجارة الداخلية ، والتجارة الخارجية . لقد احدث الحزب انعطافاً في الجبهة الاقتصادية . فخطت الزراعة سريعاً خطوات الى امام . وسجلت الصناعة والنقل نجاحاتها الاولى . وشهدنا نهوضاً اقتصادياً كان لا يزال بطيئاً جداً، ولكنه كان نهوضاً اكيداً . وادرك العمال والفلاحون ان الحزب كان على الطريق القويم .

وفي آذار ١٩٢٢ ، انعقد المؤتمر الحادي عشر للحزب . وكان يضم ٥٢٢ مندوباً ذوي اصوات فعلية ، يمثلون ٥٣٢٠٠٠ عضو في الحزب ، اي اقل من المؤتمر السابق . وكان هناك ١٦٥ مندوباً باصوات استشارية . ويعود هذا الهبوط في عدد الاعضاء الى التطهير الذي كان قد بدأ في صفوف الحزب .

وفي المؤتمر ، عرض الحزب رصيد السنة الاولى من السياسة الاقتصادية الجديدة ، فكان رصيداً جعل في امكان لينين ان يعلن قائلاً :

« لقد تراجعنا خلال عام . وعلينا ان نقول الان باسم الحزب : كفى ! فقد تحقق الهدف الذي كان التراجع يرمي اليه . وهذه المرحلة تشرف على الانتهاء ، او هي قد انتهت . وهناك الان هدف آخر يفرض نفسه . هو اعادة تجميع القوى » . (لينين ـــ المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ ، الصفحة ٢٣٨ ، الطبعة الروسية) .

واشار لينين الى ان النيب معناه نضال حامي الوطيس ، نضال حتى الموت بين الرأسمالية والاشتراكية . « فلمن ستكون الغلبة ؟ » ذلك هو السؤال

الذي كان مطروحاً . ولاجل الانتصار ، ينبغي تأمين تحالف الطبقة العاملة والفلاحين ، وتحالف الصناعة الاشتراكية والاقتصاد الفلاحي ، وذلك بتطوير المبادلات بين المدينة والريف بجميع الوسائل . ومن الضروري ، لاجل هذه الغاية ، ان نتعلم حسن ادارة اقتصادنا ، وممارسة التجارة باشكال متقنة .

في تلك المرحلة ، كانت التجارة تبدو على انها الحلقة الاساسية في سلسلة القضايا الموضوعة امام الحزب . فقبل حل هذه القضية ، لم يكن في الامكان تطوير تبادل البضائع بين المدينة والريف ، ولم يكن في الامكان تقوية التحالف الاقتصادي بين العمال والفلاحين ، ولم يكن في الامكان انهاض الزراعة وانتشال الصناعة من الخراب .

كانت التجارة السوفياتية ، في ذلك الوقت لا تزال شديدة الوهن . وكان الجهاز التجاري ضعيفاً جداً . فالشيوعيون لم يكونوا قد تعودوا التجارة بعد ، ولم يكونوا ، بعدُ ، قد تعلموا ، معرفة العدو ، النيباني، ولم يكونوا ، بعدُ ، قد تعلموا كيف يكافحونه . فكان التجار الخصوصيون ــ النيبانيون ــ يستغلون ضعف التجارة السوفياتية ، ويستأثرون بتجارة المنسوجات والبضائع الاخرى الرائجة الاستعمال . وباتت قضية تنظيم تجارة الدولة والتجارة التعاونية، على جانب عظيم من الاهمية .

وبعد المؤتمر الحادي عشر ، تضاعفت قوة النشاط الاقتصادي . فقضي بنجاح على عواقب الموسم السيء الذي اصاب البلاد . واستعاد الاقتصاد الفلاحي نهوضه بسرعة . واخذت السكك الحديدية تعمل احسن من ذي قبل . وتكاثر عدد المعامل والمصانع التي اخذت تستأنف العمل .

وفي تشرين الاول ١٩٢٢ ، احتفلت الجمهورية السوفياتية بانتصار عظيم: لقد حرر الجيش الاحمر والانصار في الشرق الاقصى مدينة فلاديفوستك من التدخل الياباني ، وهي آخر قطاع من الارض السوفياتية كان لا يزال في ايدي الغزاة .

والآن ، وقد تم تحرير جميع اراضي البلاد من التدخل ، واصبحت مهام

البناء الاشتراكي والدفاع تتطلب المزيد من تعزيز التحالف بين شعوب بلاد السوفيات ، وُضعت على بساط البحث قضية تكتيل الجمهوريات السوفياتية تكتيلا اوثق في اتحاد واحد ، في دولة واحدة . لقد كانت الغاية المبتغاة جمع كل القوى الشعبية لاجل بناء الاشتراكية . كانت الغاية المبتغاة تنظيم دفاع قوي عن البلاد . كانت الغاية المبتغاة تأمين تطور جميع قوميات وطننا تطوراً متناسقاً وتامـــاً . ولهذا كان من الواجب ازدياد التقارب بـــين شعوب بلاد السوفيات .

وفي كانون الاول ١٩٢٢ ، انعقد المؤتمر الاول لمجالس سوفيات الاتحاد السوفياتي. وبناء على اقتراح تقدم به لينين وستالين ، تحقق في هذا المؤتمر اتحاد الشعوب السوفياتية اتحاداً اختياريا حراً في دولة واحدة هي : اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية . وقد شمل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، في البدء ، كلا من: جمهورية روسيا الاشتراكية الاتحادية السوفياتية ، وجمهورية عـــبر القفقاس الاشتراكية الاتحادية السوفياتية ، وجمهورية اوكرانيا الاشتراكية السوفياتية ، وجمهورية بيلوروسيا الاشتراكية السوفياتية . وبعد ذلك بقليل ، تألفت في آسيا الوسطى ثلاث جمهوريات سوفياتية متحدة مستقلة هي : جمهورية اوزبكستان ، وجمهورية تركمانيا ، وجمهورية تدجيكيا . وجميع هذه الجمهوريات دخلت ايضـــاً في اتحاد الدول السوفياتية ، اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، على اساس الموافقة الحرة والمساواة في الحقوق ، وعلى اساس احتفاظ كل منها بحقها في الخروج بحريـــة من الاتحاد السوفياتي

ان انشاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية كان معناه تعزيز حكم السوفيات ، كان نصراً عظيما لسياسة الحزب البلشفي اللينينية الستالينية ، في القضية الوطنية .

في تشرين الثاني ١٩٢٢ ، خطب لينين في الاجتماع الكامل لمجلس سوفيات موسكو . وقد عرض لينين رصيد السنوات الخمس لوجود حكم السوفيات ،

فابدى قناعته الراسخة بان « من روسيا النيب ستنبثق روسيا الاشتراكية ».
وكان هذا اخر خطاب له امام البلاد. ففي خريف ١٩٢٢ ، اناخت على الحزب مصيبة كبرى : لقد اصيب لينين بمرض خطير. وقد احس الحزب كله وجميع الشغيلة بان مرض لينين كان بمثابة خطب شخصي عظيم حلّ بكل منهم. فكلهم كانوا يعيشون في قلق مبرح خائفين على حياة لينين الذي يحبونه اشد الحب.
ولكن لينين كان يتابع عمله ، حتى في اثناء مرضه . وقد كتب ، وهو في اخطر حالات المرض ، سلسلة من المقالات الجليلة الاهمية ، وتلك كانت اخر مقالاته ، فعرض فيها رصيد العمل الذي تم انجازه ورسم برنامجاً لبناء الاشتراكية في بلادنا قوامه اجتذاب جماهير الفلاحين الى هذا العمل : ولاجل اشراك هذه الجماهير في هذا العمل ، عرض لينين برنامجه التعاوني في نطاق البرنامج العام الذي قدمه .

كان التعاون بصورة عامة ، والتعاون الزراعي بصورة خاصة ، هو الذي يشكل ، في نظر لينين ، الوسيلة السهلة التناول والمفهومة لدى ملايين الفلاحين ، الوسيلة التي تتيح الانتقال من الاستثمارات الفردية الصغيرة الى الجمعيات الانتاجية الكبرى ، اي الى الكولخوزات. وقد بيّن لينين ان تطوير زراعة بلادنا يجب ان يمر عبر مساهمة الفلاحين في البناء الاشتراكي تحت شكل التعاون ، عن طريق ادخال مبادىء العمل الجماعي في الزراعة بصورة تدريجية ، وذلك في ميدان تصريف المنتجات الزراعية ، اول الامر ، ثم في ميدان انتاجها .
وبيّن لينين انه حين توجد ديكتاتورية البروليتاريا وتحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين ، وحين تتأمن القيادة للبروليتاريا بالنسبة الى الفلاحين ، وحين يكون عندنا صناعة اشتراكية ، يشكل التعاون الانتاجي المنظم تنظيما سديداً والشامل لملايين الفلاحين الوسيلة التي تتيح بناء المجتمع الاشتراكي الكامل في بلادنا .
وفي نيسان ١٩٢٣ ، انعقد المؤتمر الثاني عشر للحزب ، وهو اول مؤتمر لم يستطع لينين حضوره منذ ان استولى البلاشفة على الحكم .
وقد ضم المؤتمر ٤٠٨ مندوبين باصوات فعلية يمثلون ٣٨٦ الف عضو في

الحزب ، اي اقل مما في المؤتمر السابق . وكان ذلك نتيجة التطهير الذي كان لا يزال جارياً والذي ادى الى فصل نسبة مئوية كبيرة من الاعضاء. اما المندوبون باصوات استشارية فكان عددهم ٤١٧ مندوباً .

وقد اخذ المؤتمر الثاني عشر للحزب بعين الاعتبار ، في مقرراته ، جميع التوجيهات التي اعطاها لينين في مقالاته الاخيرة ورسائله الاخيرة .

ورد المؤتمر رداً شديداً على جميع الذين حسبوا النيب تخلياً عن المواقع الاشتراكية ، وتسليما لمواقعنا الى الرأسمالية ، وعلى جميع الذين كانوا يقترحون الاستسلام لعبودية الرأسمالية . وقد قدم هذه الاقتراحات الى المؤتمر كل من راديك وكراسين ، وكلاهما من اشياع تروتسكي . فقد اقترحا الاستسلام لرحمة الرأسماليين الاجانب ، وتسليمهم ، تحت شكل امتيازات ، الصناعات ذات الاهمية الحيوية للدولة السوفياتية . كما اقترحا وفاء الديون التي عقدتها الحكومة القيصرية وألغتها ثورة اوكتوبر . وقد وصم الحزب هذه الاقتراحات الاستسلامية بانها خيانة. ان الحزب لم يرفض استخدام سياسة عقد الامتيازات، وانما قبل بها فقط في فروع معينة من الصناعة وضمن حدود تعود بالنفع على الدولة السوفياتية .

وكان بوخارين وسوكولنيكوف قد اقترحا ، حتى قبل المؤتمر ، الغاء احتكار التجارة الخارجية . وهذا الاقتراح كان مرده ايضاً الى طريقتهما في فهم النيب على انه تسليم مواقعنا للرأسمالية . وقد فضح لينين آنذاك بوخارين ووصفه بانه مدافع عن المحتكرين والنيبانيين والكولاك . وصد المؤتمر الثاني عشر تلك الهجمات التي وجهت ضد احتكار التجارة الخارجية ، الذي لا يجوز المساس به .

كذلك ، هزم المؤتمر تروتسكي الذي كان يحاول ان يفرض على الحزب سياسة مشؤومة نحو الفلاحين . وبيّن انه لا يمكن نسيان حقيقة واقعة هي كون الاستثمار الفلاحي الصغير هو السائد في البلاد . واشار الى ان تطور الصناعة — بما في ذلك تطور الصناعة الثقيلة — لا ينبغي ان يجري ضد مصالح

جماهير الفلاحين، بل بالتحالف مع هذه الجماهير ، لمنفعة السكان الشغيلة بأسرهم.
لقد كانت هذه القرارات موجهة الى تروتسكي الذي كان يبغي بناء الصناعة عن طريق استثمار الاقتصاد الفلاحي ، وكان يرفض ، في الواقع ، سياسة تحالف البروليتاريا مع الفلاحين .

وقد اقترح تروتسكي في ذات الوقت ، اغلاق معامل كبيرة وهامة للدفاع الوطني مثل معامل بوتيلوف ، ومعامل بريانسك وغيرها من المعامل ، التي كانت ، على حد قوله ، لا تدر ربحاً . وقد رفض المؤتمر بغضب واستنكار اقتراحات تروتسكي .

ووفقاً لاقتراح خطي ارسله لينين ، انشأ المؤتمر الثاني عشر هيئة موحدة مؤلفة من اللجنة المركزية للرقابة ومؤسسة التفتيش العمالية والفلاحية . وكان على هــــذه اللجنة ان تضطلع بمهمة مثقلة بالمسؤولية هي : السهر على وحدة حزبنا وتقوية النظـــام في الحزب وفي الدولة ، وزيادة تحسين جهـــاز الدولة السوفياتية بجميع الوسائل .

واعار المؤتمر اهتماماً جدياً للمسألة الوطنية . وكان المقرر عن هذه المسألة الرفيق ستالين . فاشار الى الاهمية الدولية لسياستنا في المسألة الوطنية . فالشعوب المضطهدة في الغرب والشرق ترى في الاتحاد السوفياتي مثالا تاما على الطريقة الملائمة لحل المسألة الوطنية ومحو اضطهاد القوميات . واكد الرفيق ستالين ضرورة العمل بعزم لازالة التفاوت الاقتصادي والثقافي بين شعوب الاتحاد السوفياتي . ودعا الحزب بمجموعه الى النضال بحزم ضد الانحرافات في المسألة الوطنية : الشوفينية الروسية الكبرى والتعصب القومي البورجوازي المحلي .

وفضح المؤتمر اشياع الانحرافات القومية وكشف القناع عن سياستهم ذات المزاعم الاستعمارية حيال الاقليات القومية . ففي ذلك الوقت كان القوميون الجيورجيون ، مديفاني وغيره ، يناهضون الحزب . فكانوا يعارضون انشاء اتحاد عبر القفقاس ، وتوطيد اواصر الصداقة بين شعوب عبر القفقاس . وكانوا يقفون من القوميات الاخرى في جيورجيا موقف شوفينيين استعماريـــين

حقيقيين . فكانوا يطردون من تفليس جميع الذين ليسوا جيورجيين ، ولاسيما الارمن . وقد اصدروا قانوناً ينص على ان كل امرأة جيورجية تتزوج من رجل غير جيورجي ، تفقد الجنسية الجيورجية . وكان تروتسكي وراديك وبوخارين وسكريبنيك وراكوفسكي يساندون القوميين الجيورجيين .

وبعد المؤتمر بقليل، عُقد مؤتمر خاص لمناضلي الجمهوريات القومية لدراسة المسألة الوطنية بصورة خاصة . وفي هذا المؤتمر كُشف القناع عن وجه كتلة القوميين البورجوازيين التتر : من امثال سلطان غالييف وغيره ، كما فُضحت ايضاً كتلة القوميين الاوزبكيين: من امثال فيض الله خوجاييف والاخرين.

لقد وضع المؤتمر الثاني عشر رصيد العامين الاولين من السياسة الاقتصادية الجديدة : فكان رصيداً يوحي التفاؤل واليقين بالنصر النهائي .

وقد اعلن الرفيق ستالين في المؤتمر : « ان حزبنا قد بقي متين اللحمة شديد التماسك ، وقد تمكن من القيام بانعطاف هائل ، وهو يسير الى امام خفاق البنود » .

•

٤ ـ النضال ضد المصاعب في احياء الاقتصاد الوطني ـ نشاط التروتسكيين بمناسبة مرض لينين ـ مناقشة جديدة في الحزب ـ هزيمة التروتسكيين ـ وفاة لينين ـ فوج لينين ـ المؤتمر الثالث عشر للحزب.

ادت السنوات الاولى من النضال لاحياء الاقتصاد الوطني الى نجاحات ذات شأن . وحوالي العام ١٩٢٤ ، لوحظت نهضة في جميع الميادين . فزادت المساحات المزروعة زيادة محسوسة منذ ١٩٢١ ، واخذ الاقتصاد الفلاحي يزداد قوة يوماً بعد يوم . وتطورت الصناعة الاشتراكية وتقدمت . ونمت الطبقة العاملة عددياً بشكل محسوس . وارتفعت الاجور ، وصار العمال والفلاحون يعيشون عيشة احسن واكثر يسراً مما في عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ .

غير ان نتائج الخراب الاقتصادي الذي لم تتم تصفيته بعد ، كانت لا تزال

محسوسة . فالصناعة لما تزل متأخرة عن مستوى ما قبل الحرب ، وتطورها لا يجاري تطور حاجات البلاد . وفي نهاية العام ١٩٢٣ ، كان في البلاد زهاء مليون من العمال العاطلين عن العمل . فان البطء في نمو الاقتصاد الوطني لم يكن يسمح بمحو البطالة . وكان تقدم التجارة تتخلله وقفات مفاجئة بسبب الارتفاع الفاحش في اسعار الاصناف المصنوعة في المدينة ، وهي اسعار كان يفرضها على البلاد النيبمانيون الاصيلون وكذلك العناصر النيبمانية في منظماتنا التجارية . وعلى هذا ، كان الروبل السوفياتي يتعرض لتموجات قوية وقيمته في هبوط . كل ذلك كان يعوق تحسين حالة العمال والفلاحين .

وحوالي خريف ١٩٢٣ تفاقمت الصعوبات الاقتصادية بسبب ما ارتكبته هيئاتنا الصناعية والتجارية من خرق للسياسة السوفياتية في الاسعار . فلوحظ فرق كبير بين اسعار البضائع الصناعية واسعار المنتجات الزراعية . فاسعار القمح منخفضة ، فيما اسعار الاصناف الصناعية فاحشة . وكانت النفقات العامة في الصناعة مرتفعة ، مما ادى الى غلاء البضائع . وكان النقد الذي يكسبه الفلاحون من بيع قمحهم ، تنخفض قيمته بسرعة . وعلاوة على ذلك ، كان التروتسكي بياتاكوف المتربع اذ ذاك في « المجلس الاعلى للاقتصاد الوطني » ، قد اعطى قواد الصناعة تعليمات مجرمة تنص على سحب اكثر ما يمكن من الارباح من بيع البضائع الصناعية ، ورفع الاسعار رفعاً لا حد له ، وذلك لتطوير الصناعة على حد زعمه . اما في الواقع ، فكان هذا الشعار النيبماني يؤدي فقط الى تضييق قاعدة الانتاج الصناعي وخراب الصناعة . ففي مثل هذه الظروف ، لم يكن من مصلحة الفلاحين ان يقتنوا بضائع المدينة ، فكفوا عن شرائها . فنشأت ازمة في التصريف (١) وتركت اثرها في الصناعة . وبرزت مصاعب في دفع الاجور مما اثار استياء العمال . وحدث في بعض المعامل ان بعض العمال المتأخرين جداً تركوا العمل .

اوضحت اللجنة المركزية للحزب الطريق نحو ازالة هذه المصاعب

(١) تصريف منتجات الصناعة . (هيئة التعريب)

والنواقص. فاتُخذت تدابير للقضاء على ازمة التصريف وخُفضت اسعار المواد الواسعة الاستهلاك . وتقرر اجراء اصلاح نقدي قوامه اعتماد نقد متين ثابت هو التشرفونتز (١) ونُظمت قضية دفع الاجور للعمال. وأُقرت تدابير مؤدية الى تطوير التجارة عن طريق الهيئات السوفياتيــة والتعاونية ،والى ابعاد التجار الفرديين والمحتكرين من كل لون عن التجارة .

لقد كان من الضروري الانصراف الى العمل يداً واحــدة ، وبسواعد مُشمرة : ذلك ما كان يفكر به ويعمل له الاناس المخلصون للحزب . ولكن لم يكن كذلك سلوك التروتسكيين . فقد انتهزوا فرصة غياب لينين الذي اجــبره المرض الخطير على مغادرة الصفوف ، وشنوا هجوماً جديداً على الحزب وعلى قيادته .وقد قرروا ان الوقت ملائم لسحق الحزب وقلب قيادته. وهم في نضالهم ضد الحزب لم يتورعوا عن استغلال كل شيء ممكن : من اندحار الثورة في المانيا وبلغاريا في خريف عام ١٩٢٣ ، الى المصـــاعب الاقتصادية في البلاد ، الى مرض لينين . وفي هذه المرحلة على الضبط ، هذه المرحلة المحفوفة بالصعوبات بالنسبة للدولة السوفياتية عندما كان زعيم الحزب مشدوداً الى سريره ، بدأ تروتسكي هجومه على الحزب البلشفي . فقد جمــع حوله كل ما في الحزب من عناصر معادية للينينية ، ووضــع منهجاً للمعارضة موجهاً ضد الحزب وضد قيادته وضد سياسته . وقد سُمي هذا المنهج بتصريح الـ ٤٦ معارضاً . فقد اتحدت في النضال ضد حزب لينين كل فرق المعارضة : التروتسكيون ، وانصار « المركزية الديموقراطية » . وفلول « الشيوعيين اليساريين » وبقايا « المعارضة العمالية » . وقد تنبأوا في تصريحهم بازمة اقتصادية خطيرة وبانهيار الحكم السوفياتي ، وطالبوا بحرية تشكيل الكتل والفرق الانقسامية باعتبار ان ذلك هو المخرج الوحيد من الحالة .

اي انه كان نضالا في سبيل اعادة تشكيل الفرق الانقسامية التي منعهــا المؤتمر العاشر للحزب بناء على اقتراح من لينين .

---

(١) التشرفونتز يساوي عشر روبلات . (هيئة التعريب)

لم يضع التروتسكيون اية قضية ملموسة هدفها تحسين الصناعة او الزراعة او التجارة الوطنية او حالة الشغيلة ، فان شيئاً من ذلك لم يكن يثير اي اهتمام منهم . كان هناك شيء واحد يهتمون له ، هو انتهاز غياب لينين لاعادة تشكيل الفرق الانقسامية داخل الحزب وزعزعة اسس الحزب ، وزعزعة لجنته المركزية .

وعقيب منهج الـ ٤٦ ، اذاع تروتسكي رسالة مرغ فيها ملاكات الحزب في الوحل ، وصاغ فيها سلسلة من الاتهامات الافترائية الجديدة ضد الحزب. وقد كرر تروتسكي في هذه الرسالة المعزوفات المنشفية القديمة التي كان الحزب قد سمعه يرددها مرات عديدة .

كان التروتسكيون يهاجمون ، قبل كل شيء ، جهاز الحزب . اذ كانوا يدركون ان الحزب لا يستطيع ان يحيا ويعمل دون جهاز متين البنيان . ولذلك سعت المعارضة الى زعزعة هذا الجهاز وتهديمه ، الى اثارة اعضاء الحزب على جهازه ، واثارة الشباب على ملاكات الحزب القديمة. وكان تروتسكي في رسالته يبني أمله على الشبيبة الطلابية ، وعلى اعضاء الحزب الشباب الذين لم يكونوا مطلعين على تاريخ نضال الحزب ضد التروتسكية. وكان تروتسكي ، رغبة منه في كسب الشبيبة المدرسية ، يتملقها ويسميها « اضمن بارومتر للحزب » ، وكان يصرح في الوقت نفسه ان الحرس اللينيني القديم آخذ في التفسخ . وقد ذكر تروتسكي زعماء الاممية الثانية المتفسخين ، ملمحاً بخسة وسفالة الى ان الحرس البلشفي القديم سائر على خطاهم . على ان تروتسكي ، بصيحاته حول تفسخ الحزب ، انما كان يحاول ستر تفسخه هو نفسه وتغطية مراميه المعادية للحزب .

وقد ارسل التروتسكيون وثيقتي المعارضة هاتين ــ منهج الـ ٤٦ ورسالة تروتسكي ــ الى الفروع والخلايا ، ووضعوهما للمناقشة بين اعضاء الحزب .

لقد كانوا يتحدون الحزب ويستفزونه الى النقاش والجدال .

وهكذا كان التروتسكيون ، كما فعلوا قبل المؤتمر العاشر خلال المناقشة

النقابية ، يفرضون الان ايضاً مناقشة عامة على الحزب .

ورغم ان الحزب كان منهمكا بقضايا اقتصادية اهم واعظم شأنا ، فقد قبل التحدي وفتح المناقشة .

شملت المناقشة مجموع الحزب ، واتخذ النضال طابعاً ضاريا حامي الوطيس في موسكو . فقد كان التروتسكيون يسعون الى الاستيلاء قبل كل شيء على منظمة العاصمة . غير ان المناقشة لم تكن في عون التروتسكيين بل هي قد ادانتهم ، فهزموا هزيمة شنعاء وتلقوا الضربات الساحقة على رؤوسهم في موسكو وكذلك في سائر الاتحاد السوفياتي ، ولم يصوت لصالحهم سوى بعض خلايا المدارس العالية والادارات .

وفي كانون الثاني ١٩٢٤ ، انعقد المجلس العام الثالث عشر للحزب ، فاستمع الى تقرير الرفيق ستالين الذي اعطى نتائج المناقشة . فشجب المجلس المعارضة التروتسكية معلناً بان الحزب يواجه فيها **انحرافاً بورجوازياً صغيراً** عن الماركسية . وقد نالت مقررات المجلس فيما بعد موافقة المؤتمر الثالث عشر للحزب والمؤتمر الخامس للاممية الشيوعية . فان البروليتاريا الشيوعية العالمية دعمت الحزب البلشفي وايدته في نضاله ضد التروتسكية .

بيد ان التروتسكيين لم يكفوا عن عملهم التهديمي . ففي خريف ١٩٢٤ نشر تروتسكي مقالا عنوانه « دروس اوكتوبر » حاول فيه ان يجعل التروتسكية تحل محل اللينينية . ولم يكن هذا المقال سوى نسيج من الافتراءات على حزبنا وعلى قائده لينين . وقد تهافت جميع اعداء الشيوعية والحكم السوفياتي على هذه اللائحة الافترائية . وقد استقبل الحزب بحنق وغضب افتراء تروتسكي على تاريخ البلشفية الحافل بالبطولة. وفضح الرفيق ستالين محاولة احلال التروتسكية محل اللينينية ، وصرح في تعليقاته بقوله : « ان مهمة الحزب هي دفن التروتسكية من حيث هي تيار فكري ».

وكان للمؤلف النظري الذي وضعه الرفيق ستالين بعنوان **«اسس اللينينية»** وصدر في ١٩٢٤ ، اهمية كبرى في سحق التروتسكية في الميدان الفكري ،

وفي الدفاع عن اللينينية . ان هذا الكتيب هو عرض فذ رائع ودعم نظري هام للينينية آنذاك ولا يزال يسلح الان بلاشفة العالم باسره بالسلاح المرهف، سلاح النظرية الماركسية اللينينية .

في المعارك ضد التروتسكية ، جمع الرفيق ستالين الحزب حول لجنته المركزية وعبأه للنضال المقبل في سبيل انتصار الاشتراكية في بلادنا . وقد استطاع الرفيق ستالين ان يثبت ان سحق التروتسكية فكرياً شرط ضروري لتأمين الحركة الظافرة الى امام نحو الاشتراكية .

وقد قال الرفيق ستالين ، مستعرضاً نتائج هذه المرحلة من النضال ضد التروتسكية :

« بدون سحق التروتسكية ، من المستحيل تأمين الانتصار في ظروف النيب (السياسة الاقتصادية الجديدة) ، من المستحيل تحويل روسيا الحالية الى روسيا اشتراكية » .

بيد ان هذه النجاحات التي احرزتها سياسة الحزب اللينينية ، اتشحت بسواد النكبة العظمى التي اصابت الحزب والطبقة العاملة . ففي الواحد والعشرين من كانون الثاني ١٩٢٤ مات في مدينة غوركي ، قرب موسكو ، قائدنا ومعلمنا : لينين ، مؤسس الحزب البلشفي . لقد تلقت الطبقة العاملة في العالم باسره نبأ وفاة لينين كأفدح خسارة وأوجعها . وفي يوم تشييع لينين ، اعلنت البروليتاريا الاممية وقف العمل لمدة خمس دقائق ، فجمدت السكك الحديدية ، وتوقف العمل في المصانع والمعامل . ان شغيلة العالم باسره ، شيعوا بحزن عميق اباهم ومربيهم ، وخير صديق لهم ومدافع عنهم : لينين .

واجابت الطبقة العاملة في الاتحاد السوفياتي على موت لينين بان ازدادت التفافاً ايضاً وايضاً حول الحزب اللينيني . ففي ايام الحداد هذه ، فكر ملياً كل عامل مدرك في موقفه من الحزب الشيوعي ، الحزب الذي يحقق تعاليم لينين . فانهالت على لجنة الحزب المركزية ألوف وألوف من الطلبات الصادرة عن العمال للانضمام الى الحزب . فاستجابت اللجنة المركزية الى هذه الحركة التي

يقوم بها عمال الطليعة ، واعلنت قبول العمال الطليعيين في الحزب بصورة جماهيرية : وهي الحركة التي عرفت باسم فوج لينين . وقد دخل الحزب عشرات الالوف من العمال الجدد ، ودخله كل من كان على استعداد للتضحية بحياته في سبيل قضية الحزب ، في سبيل قضية لينين . وخلال فترة قصيرة ، انضم الى صفوف الحزب البلشفي اكثر من ٢٤٠,٠٠٠ عامل . لقد اقبل على الدخول في الحزب القسم المتقدم من الطبقة العاملة ، القسم الاعظم ادراكا وثورية ، القسم الاعظم شجاعة وجرأة وتقيداً بالنظام . ذلك كان فوج لينين الذي انضم الى الحزب .

لقد بيّن موت لينين كم كان حزبنا قريباً من جماهير العمال ، وكم كان حزب لينين عزيزاً على العمال .

في ايام الحداد اللينينية هذه ، في المؤتمر الثاني للمجالس السوفياتية في الاتحاد السوفياتي ، اقسم الرفيق ستالين باسم الحزب قسماً عظيماً . قال :

« نحن ، معشر الشيوعيين ، اناس من جبلة خاصة ، اناس قدّوا من نسيج خاص . نحن اولئك الذين يؤلفون جيش القائد البروليتاري العظيم ، جيش الرفيق لينين . وليس هناك ماهو اسمى من شرف الانتماء الى هذا الجيش . ليس هناك ما هو اسمى من لقب عضو في الحزب الذي مؤسسه وقائده هو الرفيق لينين . . .

« حين فارقنا الرفيق لينين ، عهد الينا بان نصون عالياً اللقب المجيد ، لقب عضو الحزب ، وان نحفظ له طهره ونقاءه . ونحن نقسم لك ، ايها الرفيق لينين ، بان ننفذ وصيتك بشرف !

« حين فارقنا الرفيق لينين ، اوصانا بان نصون وحدة حزبنا كما نصون انسان اعيننا . ونحن نقسم لك ، ايها الرفيق لينين ، باننا هنا ايضاً سنحقق وصيتك بشرف !

« وحين فارقنا الرفيق لينين ، اوصانا بان نصون دیكتاتورية

البروليتاريا وان نوطد دعائمها . ونحن نقسم لك ، ايـــا الرفيق لينين ، باننا لن ندخر وسعاً ، هنـــا ايضاً ، لكي نحقق وصيتك بشرف !

« وحين غادرنا الرفيق لينين ، اوصانا بان نوسخ ونوطـد بكل قوانا التحالف بين العمال والفلاحين . ونحـن نقسم لـك ، ايها الرفيق لينين ، باننـا هنا ايضاً سننجز وصيتـك بشرف !

« ولقد حدثنـا الرفيق لينين دائمـاً ودون كلل عن ضرورة التحالف الاختياري الحر بين شعوب بلادنا ، وعن ضرورة تعاونها الاخوي في نطاق اتحاد الجمهوريات . وحين فارقنا الرفيق لينين ، اوصانا بان نوطـد وان نوسع اتحاد الجمهوريات . ونحن نقسم لك ، ايها الرفيق لينين ، باننـــا سننجز بشرف وصيتك هذه ايضاً !

« لقد بيّن لنا لينين غير مرة ان تقوية الجيش الاحمر والسير به نحو الكمال هما مهمة من اعظم المهمات شأناً امـام حزبنا . فلنقسم اذن ايها الرفاق ، بألا نوفر جهداً في سبيل تقوية جيشنا الاحمر واسطولنا الاحمر !

« وحين غادرنا الرفيق لينين ، اوصانا بالامانة لمبادىء الاممية الشيوعية ، ونحن نقسم لك ايها الرفيق لينين ، باننـــا لن نضن بحياتنا في سبيل توطيد وتوسيع اتحاد شغيلة العالم باسره ، الاممية الشيوعية ! »

ذالك كان عهد الحزب البلشفي لزعيمه لينين ، هذاالعهد الذي سيبقى حياً خالداً على كر العصور .

وفي ايار ١٩٢٤ ، انعقـد المؤتمر الثالث عشر للحزب . وقـــد حضر

المؤتمر ٧٤٨ مندوباً باصوات فعلية يمثلون ٧٣٥،٨٨١ عضواً في الحزب . وكانت هذه الزيادة الضخمة في عدد اعضاء الحزب بالنسبة للمؤتمر السابق ناشئة عن انضمام زهاء ٢٥٠ الف عضو جديد الى صفوف الحزب حين اعلان فوج لينين . وكان المندوبون باصوات استشارية ٤١٦ مندوبا .

وقد شجب المؤتمر بالاجماع منهج المعارضة التروتسكية ، ونعته بانه انحراف بورجوازي صغير عن الماركسية ،وانه تحريف للينينية ، وايد المؤتمر قرارات المجلس العام الثالث عشر للحزب : « حول بناء الحزب » و « حول نتائج المناقشة » .

وتنفيذاً لمهمة العمل على تقوية التحالف بين المدينة والريف ، اعطى المؤتمر تعليمات ترمي الى الاستمرار في تطوير الصناعة ، وفي الدرجة الاولى الصناعة الخفيفة ، مع تأكيده في الوقت نفسه ضرورة التعجيل في انماء صناعة التعدين .

وصادق المؤتمر على انشاء مفوضية الشعب للتجارة الداخلية ، ووضع امام جميع الهيئات التجارية مهمة الاستيلاء على السوق وازاحة الرأسمال الخاص من ميدان التجارة .

ووضع المؤتمر مهمة توسيع القروض الرخيصة التي تمنحها الدولة للفلاحين ، وازاحة المرابين من الريف .

واشار المؤتمر الى ان المهمة الرئيسية في العمل في الارياف ، هي شعار السعي بجميع الوسائل لتعميم التعاونيات بين جماهير الفلاحين .

واخيراً بيّن المؤتمر ما لحركة فوج لينين من اهمية عظيمة ، ولفت انتباه الحزب الى تقوية العمل لتثقيف اعضاء الحزب الشباب ، وبالدرجة الاولى افراد فوج لينين ، بمبادىء اللينينية .

٥ ـ الاتحاد السوفياتي في نهاية مرحلة العمل لاحياء الاقتصاد الوطني ـ مسألة الانشاء الاشتراكي وانتصار الاشتراكية في بلادنا ـ معارضة زينوفييف وكامينيف المسماة «المعارضة الجديدة» ـ المؤتمر الرابع عشر للحزب ـ التوجه نحو التصنيع الاشتراكي للبلاد .

انصرمت اربع سنوات من العمل العنيد الدائب يقوم به الحزب البلشفي والطبقة العاملة في طريق السياسة الاقتصادية الجديدة ، واشرف على النهاية العمل البطولي الرامي الى احياء الاقتصاد الوطني ، وتعاظمت اكثر فاكثر قوة الاتحاد السوفياتي الاقتصادية والسياسية .

في هذه الفينة ، كان الوضع الدولي قد تغير . فان الرأسمالية صمدت لاول هجوم ثوري قامت به الجماهير في اعقاب الحرب الاستعمارية. وسحقت الحركة الثورية في المانيا وايطاليا وبلغاريا وبولونيا وفي عدد من البلدان الاخرى . وقد ساعد البورجوازية في ذلك زعماء الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية التفاهمية. جاءت مرحلة التراجع الموقت، الجزر الموقت ، للثورة. وجاءت مرحلة الاستقرار الموقت الجزئي للرأسمالية في اوروبا الغربية ، مرحلة توطيد مواقعها توطيداً جزئياً . غير ان استقرار الرأسمالية لم يمح التناقضات الاساسية التي تمزق المجتمع الرأسمالي ، بل على العكس ، فان الاستقرار الجزئي للرأسمالية زاد في احتدام التناقضات بين العمال والرأسماليين، وبين الاستعمار وشعوب المستعمرات ، وبين الجماعات الاستعمارية لمختلف البلدان . ان استقرار الرأسمالية هيأ انفجاراً جديداً للتناقضات ، وازمات جديدة في بلدان الرأسمالية .

والى جانب استقرار الرأسمالية ، كان يجري استقرار الاتحاد السوفياتي . غير ان هذين الاستقرارين كانا يختلفان احدهما عن الاخر ، اختلافاً اساسياً

جذرياً. فقد كان الاستقرار الرأسمالي ينذر بازمة جديدة للرأسمالية، اما استقرار الاتحاد السوفياتي فكان يعني نمواً جديداً في القوة الاقتصادية والسياسية لبلاد الاشتراكية.

وعلى الرغم من اندحار الثورة في الغرب، ظل الوضع الدولي للاتحاد السوفياتي يقوى ويتوطد، ولكن بسرعة اقل من ذي قبل.

ففي عام ١٩٢٢، دعي الاتحاد السوفياتي الى مؤتمر اقتصادي دولي عقد في مدينة جنوى الايطالية. وحاولت الحكومات الاستعمارية في هذا المؤتمر، وقد شجعها اندحار الثورة في البلدان الرأسمالية، ان توقع ضغطاً جديداً على جمهورية السوفيات، في شكل ديبلوماسي هذه المرة. فطلب الاستعماريون من بلاد السوفيات طلبات مخجلة فاضحة: طلبوا اعادة المصانع والمعامل التي اممتها ثورة اوكتوبر الى الرأسماليين الاجانب، ودفع جميع ديون الحكومة القيصرية. ومقابل هذين الشرطين، كانت الدول الاستعمارية تمني الدولة السوفياتية بقروض، وقروض تافهة فوق ذلك!

فرد الاتحاد السوفياتي هذه الطلبات.

ولم يسفر مؤتمر جنوى عن اية نتيجة.

كذلك التهديد بتدخل مسلح جديد، الذي وجهه وزير الخارجية الانكليزي كورزون في ١٩٢٣ بشكل انذار، قوبل بالرد الذي يستحقه.

فلما خبرت الدول الرأسمالية متانة الحكم السوفياتي، واقتنعت بانه ثابت وطيد، اخذت، دولة بعد دولة، تعيد انشاء العلاقات الديبلوماسية مع بلادنا. فخلال العام ١٩٢٤، اقيمت العلاقات الديبلوماسية مع انكلترا وفرنسا واليابان وايطاليا.

ووضح ان بلاد السوفيات استطاعت الفوز بمرحلة كاملة من المهادنة السلمية.

كذلك تغير الوضع الداخلي في البلاد. فان العمل المفعم بالتفاني ونكران الذات الذي قام به العمال والفلاحون بقيادة الحزب البلشفي اعطى ثماره. كان الاقتصاد الوطني ينمو نمواً سريعاً. فخلال السنة الاقتصادية

١٩٢٤ ـــ ١٩٢٥ ، اقتربت الزراعة من مستوى ما قبل الحرب ، اذ بلغت ٨٧ بالمئة من هذا المستوى . وانتجت الصناعة الكبرى في الاتحاد السوفياتي ، خلال ١٩٢٥ ، ما يعادل ثلاثة ارباع الانتاج الصناعي في فترة ما قبل الحرب . واستطاعت بلاد السوفيات ، في ١٩٢٤ ـــ ١٩٢٥ ، ان توظف في الاعمال الانشائية الكبرى ٣٨٥ مليونا من الروبلات . وكان برنامج كهربة البلاد يسير بنجاح . واخذت تقوى وتتوطد المواقع القيادية التي تتسنمها الاشتراكية في الاقتصاد الوطني . واحرزت نجاحات ذات شأن في النضال ضد الرأسمال الخاص في الصناعة والتجارة .

ونجم عن النهوض الاقتصادي تحسين جديد في حالة العمال والفلاحين . وسار النمو العددي للطبقة العاملة بسرعة كبرى . وازدادت اجور العمال . وارتفعت انتاجية العمل . وتحسنت حالة الفلاحين المادية تحسناً ملحوظاً . واستطاعت دولة العمال والفلاحين ، في ١٩٢٤ ـــ ١٩٢٥ ، تخصيص مبلغ قدره ٢٩٠ مليون روبل لمساعدة الفلاحين الصغار . وعلى اساس التحسن في حالة العمال والفلاحين ، تطور نشاط الجماهير السياسي بقوة ، وتوطدت ديكتاتورية البروليتاريا ورسخت اركانها . ونما نفوذ الحزب البلشفي وتعاظمت هيبته .

كان انهاض الاقتصاد الوطني يشرف على نهايته . غير ان بلاد السوفيات ، البلاد التي تبني الاشتراكية ، ما كانت لتكتفي بانهاض الاقتصاد وحسب ، ما كانت لتكتفي ببلوغ مستوى ما قبل الحرب وحسب . فان مستوى ما قبل الحرب كان مستوى بلد متأخر . كان من الواجب الانطلاق الى امام . وكانت المهادنة الطويلة التي فازت بها الدولة السوفياتية تؤمن لها امكان متابعة العمل الانشائي .

ولكن هنا كانت تبرز ، بكل قوة ، مسألة آفاق تطورنا ، مسألة طابع تطورنا وطابع البناء الذي ننشئه ، مسألة مصير الاشتراكية ومقدراتها في الاتحاد السوفياتي . ففي اي اتجاه ينبغي توجيه البناء الاقتصادي في الاتحاد

السوفياتي ؟ في اتجاه الاشتراكية ام في اتجاه آخر من الاتجاهات ؟ هل ينبغي علينا ، وهل في استطاعتنا ، ان نبني الاقتصاد الاشتراكي ، ام كتب علينا تمهيد التربة لاقتصاد آخر ، للاقتصاد الرأسمالي ؟ وهل من الممكن ، بصورة عامة ، بناء الاقتصاد الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ؟ واذا كان الجواب بالايجاب ، فهل من الممكن بناؤه فيما الثورة في البلاد الرأسمالية قد تأخرت ، والرأسمالية قد استقرت ؟ وهل من الممكن بناء الاقتصاد الاشتراكي عن طريق السياسة الاقتصادية الجديدة ، التي ، مع توطيدها وتوسيعها قوى الاشتراكية في البلاد بكل ما في المستطاع ، تسجل في الوقت نفسه ، آنياً ، بعض التقدم للرأسمالية ايضاً ؟ وكيف ينبغي بناء الاقتصاد الوطني ، الاشتراكي ، ومن اي طرف نبدأ هذا البناء ؟

كل هذه الاسئلة كانت مطروحة على الحزب في نهاية مرحلة الانهاض ، لا من حيث هي قضايا نظرية ، بل من حيث هي قضايا عملية ، قضايا الانشاء الاقتصادي في كل يوم .

كان من الضروري تقديم اجوبة واضحة وجلية على كل هذه الاسئلة ، لكي يعلم مناضلو حزبنا العاملون في الاقتصاد الوطني والقائمون ببناء الصناعة والزراعة ، ولكي يعلم الشعب باسره ، في اي اتجاه ينبغي المسير : نحو الاشتراكية ام نحو الرأسمالية ؟

بدون اجوبة واضحة على هذه الاسئلة ، كان اصبح كل نشاطنا العملي في البناء نشاطا لا آفاق له ، نشاطا على العمياء ، نشاطا فارغا .

وقد اجاب الحزب على كل هذه الاسئلة باجوبة واضحة ودقيقة .

قال الحزب : نعم ، يمكن ويجب بناء اقتصاد اشتراكي في بلادنا ، لان لدينا كل ما هو ضروري لاجل بناء الاقتصاد الاشتراكي ، لاجل بناء المجتمع الاشتراكي الكامل . في ١٩١٧ ، انتصرت الطبقة العاملة على الرأسمالية سياسياً ، اذ أقامت ديكتاتوريتها السياسية . ومنذ ذلك الحين اتخذ الحكم السوفياتي كل التدابير لتحطيم القوة الاقتصادية للرأسمالية ، ولخلق الشروط الضرورية لبناء

الاقتصاد الاشتراكي في البلاد . وهذه التدابير هي : تجريد الرأسماليين و كبار اصحاب الاراضي من املاكهم ، تحويل الارض والمصانع والمعامل وطرق المواصلات والبنوك الى ملكية وطنية عامة ، انتهاج السياسة الاقتصادية الجديدة ، بناء صناعة اشتراكية للدولة ، تطبيق البرنامج التعاوني اللينيني . اما الان ، فالمهمة الاساسية هي العمل في طول البلاد وعرضها على بناء اقتصاد جديد ، اشتراكي ، وبذلك يتم الانتصار على الرأسمالية **اقتصادياً ايضاً** . فينبغي اخضاع كل شغلنا العملي وكل افعالنا لما يقتضيه تنفيذ هذه المهمة الاساسية . ان الطبقة العاملة قادرة على النهوض بهذا الواجب وستنهض به . وينبغي البدء بتنفيذ هذه المهمة العظيمة عن طريق الشروع في تصنيع البلاد . فالتصنيع الاشتراكي للبلاد هو الحلقة الاساسية التي ينبغي البدء منها للانطلاق والتوسع في بناء الاقتصاد الوطني ، الاشتراكي . ولا يمكن ان يوقف سيرنا الى امام نحو الاشتراكية ، لا تأخر الثورة في الغرب ، ولا الاستقرار الجزئي للرأسمالية في البلدان غير السوفياتية . ولا يمكن للسياسة الاقتصادية الجديدة الا ان تسهل مهمتنا ، ما دام الحزب قد وضعها خصيصاً لتسهيل بناء الاسس الاشتراكية لاقتصادنا الوطني .

ذلك كان الجواب الذي اعطاه الحزب على مسألة انتصار البناء الاشتراكي في بلادنا .

بيد ان الحزب كان يعرف جيداً ان قضية انتصار الاشتراكية في بلد واحد لا تقتصر على ذلك فقط . فان بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي يمثل انعطافاً عظيماً في تاريخ الانسانية ، وانتصاراً تاريخياً عالمياً للطبقة العاملة والفلاحين في الاتحاد السوفياتي . الا ان هذا البناء هو عمل داخلي للاتحاد السوفياتي ، ولا يمثل سوى جزء من قضية انتصار الاشتراكية . اما الجزء الآخر من القضية ، فهو ناحيتها الدولية . وحين دعم الرفيق ستالين الرأي القائل بانتصار الاشتراكية في بلد واحد ، اشار كثيراً من المرات الى ان من الواجب التمييز بين جانبين في هذه القضية : الجانب الداخلي والجانب الدولي . ففيما يتصل بالجانب الداخلي

للقضية ، اي العلاقات بين الطبقات في داخل البلاد ، فان الطبقة العاملة والفلاحين في الاتحاد السوفياتي قادرون تماماً على التغلب **اقتصادياً** على بورجوازيتهم ، وبناء مجتمع اشتراكي كامل . الا ان هناك ايضاً الناحية الدولية من القضية ، اي ميدان العلاقات الخارجية ، ميدان العلاقات بين البلاد السوفياتية والبلدان الرأسمالية ، بين الشعب السوفياتي والبورجوازية العالمية التي تكره النظام السوفياتي اشد الكره وتتحين فرصة للقيام بتدخل مسلح جديد ضد بلاد السوفيات ، للقيام بمساع جديدة لاعادة الرأسمالية الى الاتحاد السوفياتي . وبما ان الاتحاد السوفياتي هو بعدُ ، البلد الاشتراكي الوحيد ، فيما البلدان الاخرى لا تزال رأسمالية ، فان التطويق الرأسمالي حول الاتحاد السوفياتي لا يزال مستمراً ، وهو مصدر لخطر تدخل رأسمالي . فمن الواضح انه ما دام التطويق الرأسمالي موجوداً ، يظلّ خطر التدخل الرأسمالي كذلك ماثلاً . فهل يستطيع الشعب السوفياتي ، بقواه وحدها ، ازالة هذا الخطر الخارجي ، خطر تدخل رأسمالي ضد الاتحاد السوفياتي ؟ كلا ، لا يستطيع . لا يستطيع لانه لا بدّ ، لمحو خطر التدخل الرأسمالي ، من محو التطويق الرأسمالي ، ومحو التطويق الرأسمالي ممكن فقط بنتيجة ثورة بروليتارية ظافرة في عدة بلدان على الاقل . وينتج من ذلك ان انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، الذي يتمثل في تصفية النظام الرأسمالي للاقتصاد وفي بناء النظام الاشتراكي للاقتصاد ، لا يمكن مع ذلك اعتباره انتصاراً نهائياً ما دام الخطر من التدخل المسلح الاجنبي ومن المحاولات لاعادة الرأسمالية ، ماثلاً ، وما دامت بلاد الاشتراكية غير مضمونة ضد مثل هذا الخطر . فلاستئصال خطر التدخل الرأسمالي الاجنبي ينبغي استئصال التطويق الرأسمالي .

صحيح ان الشعب السوفياتي وجيشه الاحمر ، نظراً للسياسة الصحيحة التي يسير عليها الحكم السوفياتي ، يستطيعان الرد على اي تدخل رأسمالي اجنبي جديد بما يستحقه ، كما فعلا حيال التدخل الرأسمالي الاول في الاعوام ١٩١٨— ١٩٢٠ . ولكن ذلك لا يعني بعدُ ، محو خطر تدخلات رأسمالية جديدة .

فان اندحار التدخل الاول لم يمح خطر تدخل جديد ، ذلك لان مصدر خطر التدخل — وهو التطويق الرأسمالي — لم يزل موجوداً . ولهذا فان اندحار تدخل جديد ، كذلك ، لن يزيل خطر التدخل ، فيما اذا ظل التطويق الرأسمالي موجوداً .

وينتج من هذا ان انتصار الثورة البروليتارية في البلدان الرأسمالية ، فيه مصلحة حيوية لشغيلة الاتحاد السوفياتي .

تلك كانت وجهة نظر الحزب فيما يتعلق بانتصار الاشتراكية في بلادنا .

وقد أصرت اللجنة المركزية على مناقشة وجهة النظر هذه في المجلس الوطني الرابع عشر للحزب الذي كان على وشك الانعقاد ، وذلك لكي تحصل الموافقة عليها ويتم تبنيها بوصفها اتجاهاً للحزب ، بوصفها قانوناً للحزب ، اجبارياً لكل اعضائه .

لقد كان لهذا الاتجاه اثر شديد في المعارضة اذهلها واشاع الاضطراب في صفوفها . وذلك ، بالدرجة الاولى ، لان الحزب اضفى على هذا الاتجاه طابعاً عملياً وملموساً ، وربطه بالبرنامج العملي للتصنيع الاشتراكي في البلاد ، وطلب ان يتخذ شكل قانون حزبي ، شكل قرار صادر عن المجلس الوطني الرابع عشر للحزب ، اي اجباري لجميع اعضاء الحزب .

وقف التروتسكيون ضد اتجاه الحزب ، وعارضوه بنظرية منشفيكية اسمها « نظرية الثورة الدائمة » ، التي لا يمكن تسميتها بنظرية ماركسية الا من قبيل الهزء بالماركسية ، والتي كانت تنكر امكان انتصار البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي .

ولم يجرأ البوخارينيون ان يعارضوا اتجاه الحزب معارضة صريحة . غير انهم عارضوه مع ذلك ، تحت ستار من الرياء والنفاق بـ « نظريتهم » عن اندماج البورجوازية اندماجاً سلمياً في الاشتراكية ، واكملوها بشعار «جديد» هو : « اغتنوا وزيدوا ثروتكم ! » . فقد كان رأي البوخارينيين ان انتصار الاشتراكية لا يعني تصفية البورجوازية ، بل يعني تنشيط تطورهـا وزيادة

ثروتها وغناها .

اما زينوفييف وكامينيف ، فقد غامرا وقتاً ما ، باعلان ان انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي مستحيل بسبب تأخره الاقتصادي والتكنيكي ، ولكنهما ما لبثا ان اضطرا الى العودة الى وكرهما .

شجب المجلس الرابع عشر للحزب (المنعقد في نيسان ١٩٢٥) كل هذه « النظريات » الاستسلامية ، التي وضعها اعضاء المعارضة ، السافرون منهم والمتسترون ، وصادق في قرار خاص على الاتجاه الذي اعطاه الحزب نحو انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي .

واضطر زينوفييف وكامينيف ، وقد أحرجا ولم يجدا حجة ، الى التصويت على القرار . ولكن الحزب كان يعلم انهما انما اجلا نضالهما ضده ، وانهما قررا « شن المعركة على الحزب » في مؤتمره الرابع عشر . وقد جمعا انصارهما في لينينغراد وشكلا ما سمي بـ « المعارضة الجديدة » .

وفي كانون الاول ١٩٢٥ ، افتتح المؤتمر الرابع عشر للحزب . وقد جرى المؤتمر في وضع من التوتر داخل الحزب . فمنذ وجود الحزب ، لم تنشأ فيه مثل هذه الحالة حيث اعتزم وفد كامل عن مركز كبير من مراكز الحزب ، مثل وفد لينينغراد ، ان يقف ضد لجنته المركزية .

حضر المؤتمر ٦٦٥ مندوباً باصوات فعلية و٦٤١ باصوات استشارية . وكانوا يمثلون ٦٤٣ الف عضو في الحزب و٤٤٥ الف مرشح ، اي اقل قليلا مما في المؤتمر السابق ، وكان ذلك من نتائج التطهير الجزئي الذي جرى في خلايا المدارس العالية والادارات التي تبين انها مشحونة بعناصر معادية للحزب .

وقد قدم الرفيق ستالين التقرير السياسي للجنة المركزية ، فرسم لوحة رائعة عن تقدم قدرة الاتحاد السوفياتي السياسية والاقتصادية . فالصناعة وكذلك الزراعة ، تم انهاضهما في فترة من الزمن قصيرة نسبياً ، بفضل مزايا النظام السوفياتي في الاقتصاد ، وقد اخذتا تقتربان من مستوى ما قبل الحرب . ولكن رغم هذه النجاحات ، دعا الرفيق ستالين الى عدم الركون

الى ذلك وعدم الاستسلام الى الاطمئنان وهدوء البال ، ما دامت هـذه النجاحات لم تقض على الواقع التالي ، وهو ان بلادنا ما زالت بلاداً متأخرة ، زراعية . فالزراعة كانت تقدم ثلثي مجموع الانتاج فيما تقدم الصناعة ثلثه فقط. وقد قال الرفيق ستالين بأن مسألة تحويل بلادنا الى بلاد صناعية ، مستقلة اقتصادياً عن البلدان الرأسمالية ، موضوعة بكل اتساعها امام الحزب . وفي الامكان تحقيق ذلك ، ومن الواجب تحقيقه . لقد اصبحت مهمة الحزب المركزية النضال في سبيل تصنيع البلاد تصنيعاً اشتراكياً ، النضال في سبيل انتصار الاشتراكية . وقد اعلن الرفيق ستالين :

« ان تحويل بلادنا من بلاد زراعية الى بلاد صناعية قادرة على ان تنتج بقواها الخاصة التجهيزات والادوات الضرورية ، هو جوهر خطتنا العامة واساسها » .

كان من شأن التصنيع الاشتراكي للبلاد ان يؤمن استقلالها الاقتصادي وان يقوي مقدرتها الدفاعية وان يخلق الشروط الضرورية لانتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي .

وقد ناهض الزينوفييفيون خطة الحزب العامة . وعارض الزينوفييفي سوكولنيكوف ، برنامج ستالين عن التصنيع الاشتراكي ، بالبرنامج البورجوازي الذي كان رائجاً بين ذئاب الاستعمار . فكان على الاتحاد السوفياتي حسب هذا البرنامج ، ان يبقى بلاداً زراعية ، تنتج بالدرجة الاولى، مواد اولية ومنتجات زراعية ، وتصدرها الى الخارج ، وتستورد من هناك ، بدلا منها ، الآلات التي لا تصنعها هي ، والتي ينبغي ان لاتصنعها . كان هذا البرنامج، في ظروف عام ١٩٢٥ ، برنامجاً لاستعباد الاتحاد السوفياتي اقتصادياً من قبل البلدان الاجنبية المتطورة صناعياً ، برنامجاً لادامة تأخر الاتحاد السوفياتي صناعياً ولارضاء ذئاب الاستعمار في البلاد الرأسمالية ارضاء تاماً .

كان قبول هذا البرنامج معناه تحويل بلادنا الى ذيل عاجز ، ذيل زراعي للعالم الرأسمالي ، وتركها عزلاء هزيلة حيال التطويق الرأسمالي ، وبالتالي دفن

قضية الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وقبرها .

وقد شجب المؤتمر « برنامج » الزينوفييفيين الاقتصادي باعتباره برنامجاً لاستعباد الاتحاد السوفياتي .

كذلك فشلت «المعارضة الجديدة» فيما قامت به من مناورات ، كتأكيدها (رغم لينين !) ان صناعة الدولة عندنا ، ليست صناعة اشتراكية ، وكاعلانها (كذلك رغم لينين !) ان الفلاح المتوسط لا يمكن ان يكون حليف الطبقة العاملة في قضية البناء الاشتراكي .

وقد شجب المؤتمر هذه المناورات من جانب « المعارضة الجديدة » بوصفها مناقضة للينينية .

وفضح الرفيق ستالين الجوهر المنشفيكي ـــ التروتسكي لـ«المعارضة الجديدة» ، وبيّن ان زينوفييف وكامينيف انما يرددان معزوفات اعداء الحزب ، الذين شن عليهم لينين في حينه نضالا لا هوادة فيه .

كان واضحاً ان الزينوفييفيين ما هم سوى تروتسكيين لم يحسنوا التستر .

أكد الرفيق ستالين ان اعظم مهام الحزب شأناً هي تأمين التحالف الوطيد بين الطبقة العاملة وبين الفلاح المتوسط في العمل لبناء الاشتراكية . واشار الى انحرافين كانا موجودين اذ ذاك في الحزب حول القضية الفلاحية ، ويمثلان خطراً على قضية هذا التحالف . الانحراف الاول : تقدير خطر الكولاك باقل مما هو ، وتصغيره . الانحراف الثاني : الارتباك امام الكولاك والذعر منه ، وتقدير دور الفلاح الوسط باقل مما هو . ولكن اي الانحرافين كان اشد خطراً ؟ اجاب الرفيق ستالين على هذا السؤال بقوله : « كلاهما ، الانحراف الاول والثاني ، اسوأ من الآخر . واذا امتد هذان الانحرافان واتسعا ، فهما قادران على تفسيخ الحزب والسير به نحو هلاكه . ولكن لدينا في الحزب ، لحسن الحظ ، قوى في استطاعتها بتر الانحراف الاول والثاني كليهما » .

وفي الواقع ، سحق الحزب وبتر الانحراف « اليساري » والانحراف اليميني كليهما .

وعندما اجرى المؤتمر الرابع عشر للحزب رصيد المناقشات التي دارت حول الانشاء الاقتصادي ، رد بالاجماع المناهج الاستسلامية التي صاغتها المعارضة ، وكتب في قراره الشهير :

« في ميدان الانشاء الاقتصادي ، ينطلق المؤتمر من الواقع التالي وهو ان بلادنا ، بلاد ديكتاتورية البروليتاريا ، تملك « كل ما هو ضروري لبناء المجتمع الاشتراكي الكامل » (لينين) . ويرى المؤتمر ان النضال من اجل انتصار البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، هو مهمة حزبنا الاساسية » .

وصدق المؤتمر الرابع عشر النظام الداخلي الجديد للحزب .

واعتباراً من المؤتمر الرابع عشر ، اصبح اسم حزبنا : الحزب الشيوعي (البلشفي) لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية .

وقد رفض الزينوفييفيون ، الذين هزموا في المؤتمر ، ان يخضعوا للحزب ، وبدأوا النضال ضد مقررات المؤتمر الرابع عشر . وبعد المؤتمر فوراً ، عقد زينوفييف اجتماعاً للجنة الشبيبة الشيوعية في منطقة لينينغراد التي كان زينوفييف وزالوتسكي وباكاييف وافدوكيموف وكوكلين وسافاروف وآخرون ايضاً من ذوي الوجهين ، قد ربوا قيادتها بروح الكره للجنة الحزب المركزية اللينينية . وفي هذا الاجتماع اتخذت لجنة الشبيبة الشيوعية في منطقة لينينغراد قراراً ، لم يُسمع بمثله في تاريخ الشبيبة الشيوعية اللينينية في الاتحاد السوفياتي ، برفض الخضوع لمقررات المؤتمر الرابع عشر للحزب .

غير ان القيادة الزينوفييفية للشبيبة الشيوعية في لينينغراد ما كانت تعكس بوجه من الوجوه الحالة الفكرية لجماهير الشبيبة الشيوعية في لينينغراد . ولذلك دحرت وهُزمت بسهولة ، وسرعان ما عادت منظمة الشبيبة الشيوعية في لينينغراد الى احتلال المكان اللائق بها في الشبيبة الشيوعية .

وما ان انتت اعمال المؤتمر الرابع عشر على نهايتها ، حتى أرسل الى لينينغراد فريق من المندوبين هم الرفاق مولوتوف ، كيروف ، فوروشيلوف ، كالينين ،

اندريف ، وآخرون . اذ كان من الواجب تنوير اعضاء المنظمة الحزبية في لينينغراد ، حول الطابع المجزوم المعادي للبلشفية ، طابع ذلك الموقف الذي اتخذه في المؤتمر وفد لينينغراد الذي لم ينل تفويضه الا بطريق الخداع . وقد جرت الاجتماعات التي عقدت لشرح اعمال المؤتمر في جو عاصف . وعقد مجلس عام استثنائي لمنظمة لينينغراد الحزبية فكان ان ايدت الجمهرة الساحقة من اعضاء منظمة لينينغراد الحزبية ، (اكثر من ٩٧ بالمئة) مقررات المؤتمر الرابع عشر للحزب تأييداً تاماً ، واستنكروا « المعارضة الجديدة » الزينوفييفية المعادية للحزب . ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المعارضة تمثل جنرالات بدون جيش !

وظل بلاشفة لينينغراد في الصف الاول من حزب لينين وستالين.

وقد استعرض الرفيق ستالين اعمال المؤتمر الرابع عشر للحزب فكتب ما يلي :

« ان الاهمية التاريخية للمؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، هي في انه عرف ان يعرّي اخطاء المعارضة الجديدة حتى جذورها ، وانه رمى بعيداً عنه عدم ايمانها وتأوهاتها ورسم ، بوضوح ودقة ، الطريق لمتابعة النضال في سبيل الاشتراكية ، وفتح امام الحزب آفاق الانتصار ، وبالتالي ، سلح البروليتاريا بايمان لا يتزعزع في انتصار البناء الاشتراكي » (ستالين ــ مسائل اللينينية الفصل السابع) .

خلاصة

ان سنوات الانتقال الى العمل السلمي لبناء الاقتصاد الوطني ، تؤلف مرحلة من اهم المراحل الفاصلة في تاريخ الحزب البلشفي . ففي جو بالغ التوتر، عرف الحزب ان يقوم بالانعطاف المحفوف بالصعوبات من سياسة شيوعية الحرب الى السياسة الاقتصادية الجديدة، ووطد الحزب التحالف بين العمال والفلاحين على اساس اقتصادي جديد، وأنشىء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية .

وبواسطة اساليب السياسة الاقتصادية الجديدة ، تم الحصول على نجاحات حاسمة في انهاض الاقتصاد الوطني واجتازت بلاد السوفيات بنجاح مرحلة الانهاض في تطوير الاقتصاد الوطني ، وأخذت تنتقل الى مرحلة جديدة هي مرحلة تصنيع البلاد .

ان الانتقال من الحرب الاهلية الى البناء الاشتراكي السلمي ، رافقته ، خصوصاً في الايام الاولى ، صعوبات جسيمة . فطوال هذه المرحلة ، شن اعداء البلشفية ، والعناصر المعادية في صفوف الحزب البلشفي بالاتحاد السوفياتي نضالا ضاريا ضد الحزب اللينيني . وكان تروتسكي يقف على رأس هذه العناصر العدوة للحزب. وكان اعوانه في هذا النضال: كامينيف وزينوفييف وبوخارين. وكان في حساب المعارضة ان تفسخ صفوف الحزب البلشفي بعد موت لينين ، وان تقسمه على نفسه ، وان تبث فيه عدم الايمان في قضية انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي . واذا اخذنا بجوهر الامور ، فان التروتسكيين كانوا يحاولون ان ينشئوا في الاتحاد السوفياتي منظمة سياسية للبورجوازية الجديدة ، ان ينشئوا حزباً آخر ، حزب العمل لاعادة الرأسمالية .

ولكن الحزب رص صفوفه تحت راية لينين ، وحول لجنته المركزية اللينينية وحول الرفيق ستالين ، وألحق الهزيمة بالتروتسكيين ، كما باصدقائهم الجدد في لينينغراد ، اي معارضة زينوفييف ــ كامينيف الجديدة .

وبعد ان كدس الحزب البلشفي القوى والوسائل ، قاد البلاد الى مرحلة تاريخية جديدة ، مرحلة التصنيع الاشتراكي .

الفصل العاشر

الحزب البلشفي في النضال لاجل تصنيع البلاد تصنيعاً اشتراكياً (١٩٢٦ — ١٩٢٩)

١ — مصاعب مرحلة التصنيع الاشتراكي والنضال ضد هذه المصاعب — تكوين الكتلة التروتسكية الزينوفييفية المناهضة للحزب — عمل الكتلة المعادي للسوفيات — هزيمة الكتلة

على اثر المؤتمر الرابع عشر ، وسّع الحزب نضاله في سبيل تطبيق الاتجاه العام للحكم السوفياتي نحو التصنيع الاشتراكي للبلاد .

في مرحلة الانهاض كانت المهمة الاولى هي انعاش الزراعة ، والحصول منها على المواد الاولية والمنتجات الزراعية ، ثم تحريك الصناعة وانهاضها ، وارجاع المصانع والمعامل الموجودة الى حالتها الطبيعية .

وقد حقق حكم السوفيات هذه المهمات بسهولة نسبيا. ولكن كانت في مرحلة الانهاض ثلاث نقائص خطيرة .

فاولا ، كانت المصانع والمعامل الموجودة آنذاك ، مصانع ومعامل تكنيكها

قديم ومتأخر ، وقد لا يطول الوقت بها حتى تصبح غير صالحة للاستعمال. فكان الواجب يقضي باعادة تجهيزها على اساس تكنيكي حديث.

ثانيا ، كانت الصناعة الموجودة في مرحلة الانهاض ، ذات اساس ضيق جداً. فان المصانع والمعامل الموجودة كانت تنقصها عشرات ومئات من معامل الانشاءات الميكانيكية التي كانت ضرورية للبلاد ضرورة مطلقة. ولما كانت غير موجودة اذ ذاك ، فكان ينبغي انشاؤها ، اذ ان صناعة محرومة من مثل هذه المعامل لا يمكن اعتبارها صناعة حقيقية . فكانت المهمة الموضوعة هي انشاء هذه المعامل وتزويدها بتكنيك عصري حديث .

ثالثا ، كان الاهتمام ، في مرحلة الانهاض ، منصرفا بوجه خاص الى الصناعة الخفيفة ، وقد تطورت آنذاك واخذت في المسير . ولكن لم يلبث تطور الصناعة الخفيفة نفسها ان اصطدم بضعف الصناعة الثقيلة ، فضلا عن حاجات البلاد الاخرى التي لم يكن من الممكن تلبيتها ، الا بوجود صناعة ثقيلة متطورة . فكان الواجب يقضي الآن بصرف الجهد الى الصناعة الثقيلة .

جميع هذه المهمات الجديدة ، كان من الواجب ان تحلها سياسة التصنيع الاشتراكي .

كان ينبغي ان تنشأ **من جديد** ، سلسلة من الصناعات لم تكن موجودة في روسيا القيصرية : كان ينبغي بناء معامل جديدة للانشاءات الميكانيكية ، وللالات الميكانيكية ، وللسيارات ، وللمنتجات الكيميائية وللتعدين ، وتشييد صناعة لنا لبناء المحركات والتجهيزات اللازمة لمراكز توليد الكهرباء ، وزيادة استخراج الفلزات المعدنية والفحم ، ما دام انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي يتطلب كل ذلك .

وكان ينبغي بناء صناعة جديدة للدفاع : بانشاء معامل جديدة للمدفعية ، وللقذائف ، وللطيران ، وللدبابات ، وللرشاشات ، ما دامت مصلحة الدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، في ظروف التطويق الرأسمالي ، تتطلب ذلك .

وكان ينبغي تشييد معامل للتراكتورات ، ومعامل للالات الزراعية

العصرية ، ووضع انتاجها في خدمة الزراعة ، وذلـــك لاعطاء الملايـين من الاقتصاديات الفلاحية الفردية الصغيرة امكان الانتقال الى الانتاج الكبـير الكولخوزي (١) ، مادامت مصلحة انتصار الاشتراكية في الريف تقضي بذلك. كل ذلك ، كان من الواجب ان تحققه وتعطيه سياسة التصنيع ، لان ذلك هو ما يعنيه التصنيع الاشتراكي للبلاد .

ومفهوم ان اعمالا ضخمة في مثل هذا الاتساع ، كانت تتطلب مليارات من الروبلات . وكان من المستحيل الاعتماد على قروض خارجية ، لان البلاد الرأسمالية رفضت منحنا هذه القروض . فكان ينبغي ان نبني بالاعتماد عـلى مواردنا ووسائلنا الخاصة دون معونة من الخارج . ولكن بلادنا لم تكن ، في ذلك الوقت ، غنية بعد .

تلك كانت ، اذ ذاك ، احدى الصعوبات الرئيسية .

لقد شادت البلدان الرأسمالية صناعتها الثقيلة ، بصورة عامة ، على حساب موارد مستمدة من الخارج : عـلى حساب نهب المستعمرات ، على حساب فرض الغرامات والضرائب على الشعوب المغلوبة ، عـلى حساب القروض الخارجية ، ولم يكن في امكان بلاد السوفيات ، مبدئياً ، ان تلجأ ، للحصول على وسائل وموارد للتصنيع ، الى مثل هذه الاساليب القـذرة المنكرة كنهب الشعوب المستعمرة أو المغلوبة . اما فيما يتعلق بالقروض الخارجية ، فان هذا المورد كان مقفلاً في وجه الاتحاد السوفياتي نظراً لرفض البلدان الرأسمالية منحه مثل هذه القروض . فكان من الواجب ايجاذ الوسائل والموارد في داخل البلاد .

وقد وجدت هذه الموارد والوسائل في الاتحاد السوفياتي . فقد كان الاتحاد السوفياتي يملك منابع لتراكم الثروة لا تعرف مثلها اية دولة مـــن الدول

---

١) كولخوز : كلمة روسية مؤلفة من المقطعين الاولين : الكلمة « كولكتيفني » (ومعناها التعاوني او الجماعي) والكلمة « خازايستفو » (ومعناها اقتصاد) فكولخوز تعني اذن : اقتصاد تعاوني او جماعي . (هيئة التعريب)

الرأسمالية . كان تحت تصرف الدولة السوفياتية جميع المعامل والمصانع وجميع الاراضي التي انتزعتها ثورة اوكتوبر الاشتراكية من ايدي الرأسماليين وكبار ملاكي الاراضي ، وكذلك وسائل النقل والبنوك والتجارة الخارجية والتجارة الداخلية . اما الارباح المسحوبة من معامل الدولة ومصانعها ، ومن النقل والمواصلات ، ومن التجارة ، ومن البنوك فلم تعد تبتلعها طبقة الرأسماليين الطفيلية ، بل اصبحت تستخدم لتوسيع الصناعة باستمرار .

وكان الحكم السوفياتي قد الغى الديون القيصرية التي كانت فوائدها وحدها تكلف الشعب مئات الملايين من الروبلات الذهبية كل عام . وحين ازال الحكم السوفياتي التملك الاقطاعي للارض ، حرر الفلاحين ، بنتيجة ذلك ، من دفع ٥٠٠ مليون روبل ذهبي تقريباً ، كانوا يدفعونها سنوياً لكبار الملاكين مقابل استئجار الاراضي منهم . ولما تحرر الفلاحون من هذا العبء ، صاروا قادرين على مساعدة الدولة في انشاء صناعة جديدة جبارة . فقد كان للفلاحين مصلحة حيوية في الحصول على تراكتورات وآلات زراعية .

جميع هذه المصادر للايرادات ، كانت تحت تصرف الدولة السوفياتية . وكانت قادرة على اعطاء مئات الملايين ومليارات الروبلات لاجل انشاء الصناعة الثقيلة . انما كان من اللازم مجابهة القضية كما يجابهها رب البيت الحاذق في ادارة ما يملك ، والاقتصاد الصارم في انفاق المال وبناء الانتاج على اساس دقيق معقول ، وتخفيض تكاليف الانتاج ، وتصفية النفقات غير المثمرة وهلمجراً ...

وهكذا فعل الحكم السوفياتي .

فبفضل نظام الاقتصاد في النفقات ، تراكمت موارد متزايدة من عام الى عام ، لاجل الاعمال الانشائية الكبرى . وتوفرت الامكانيات للشروع في بناء مشاريع جبارة مثل محطة توليد الكهرباء ، على نهر الدنيبر ، وسكة حديد تركستان ــ سيبيريا ، ومعمل التراكتورات في ستالينغراد ، ومعامل الآلات الميكانيكية ، ومعمل « آ.م.و » للسيارات المسمى حالياً « زيس » (معمل ستالين) .. الخ ...

واذا كان ما وظف في الصناعة ، خلال ١٩٢٦ — ١٩٢٧ ، بلغ زهاء مليار من الروبلات ، فقد امكن بعد ثلاث سنين من هذا التاريخ توظيف ٥ مليارات من الروبلات تقريباً .

لقد كانت عملية التصنيع تسير الى الامام .

وكانت البلدان الرأسمالية ترى في توطد الاقتصاد الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي وفي رسوخه خطراً على وجود النظــام الرأسمالي . ولذلك اتخذت الحكومات الاستعمارية كل ما يمكن من التدابير لاحداث ضغط جديد على الاتحاد السوفياتي ، ولايقاعه في الارتباك ، واحباط عملية التصنيع او عرقلتها ، على الاقل .

ففي ايار ١٩٢٧ نظم المحافظون الانكليز ، وكانوا في الحكومة اذ ذاك ، غارة استفزازية على مركز الـ «اركوس» (الشركة السوفياتية للمتاجرة مع انكلترا) . وفي ٢٦ ايار ١٩٢٧ ، اعلنت حكومة المحافظين الانكليزية قطع العلاقات الديبلوماسية والتجارية بين انكلترا والاتحاد السوفياتي .

وفي ٧ حزيران ١٩٢٧ ، حدث في فرصوفيا ان روسيــاً من الحرس الابيض ، كان قد تجنس بالجنسية البولونية ، اغتال سفير الاتحاد السوفياتي ، الرفيق فويكوف .

وفي الوقت نفسه ، قام الجواسيس والعملاء المخربون الانكليز ، عــلى الاراضي السوفياتية نفسها ، بالقاء قنابل في نادي الحزب في لينينغراد ، فجرح ثلاثون شخصاً ، بينهم بضعة اشخاص اصيبوا بجراح خطرة .

وفي صيف ١٩٢٧ ، وفي وقت واحد تقريباً ، شنت غارات على السفارات ومراكز البعثات التجارية السوفياتية في برلين وبكين وشانغاي وتيانتسين .

وقد خلق ذلك مزيداً من المصاعب امام الحكم السوفياتي .

ولكن الاتحــاد السوفياتي لم يستسلم للضغط ، ورد بسهولة استفزازات المستعمرين وعملائهم .

ولم تكن اقل شأناً ، تلك الصعوبات التي اثارها التروتسكيون واعضاء

المعارضة الاخرون في وجه الحزب والدولة السوفياتية بعملهم التخريبي التهديمي. وليس عبثاً ، قال الرفيق ستالين آنذاك ، إن هناك « شبه جبهة موحدة من تشمبرلن الى تروتسكي » ، تتكون ضد الحكم السوفياتي . فعلى الرغم من قرارات المؤتمر الرابع عشر للحزب ، ومن اعلان المعارضة اخلاصها لهذه القرارات ، لم يلق اعضاء المعارضة سلاحهم ، بل على العكس ، ازدادوا امعانا في تقوية عملهم التهديمي الانقسامي .

وفي صيف ١٩٢٦ ، الف التروتسكيون والزينوفييفيون كتلة نضال ضد الحزب ، وجمعوا حولها فلول جميع الفرق المعارضة المدحورة ، ووضعوا اسس حزبهم السري المعادي للينينية ، خارقين ، بشكل صارخ ، قانون الحزب الداخلي وقرارات مؤتمراته التي تمنع وجود الفرق الانقسامية. وقد وجهت لجنة الحزب المركزية انذاراً مؤداه : اذا لم تحل هذه الكتلة المعادية للحزب ، التي تشبه كتلة آب المنشفيكية المعروفة ، فستكون العاقبة وخيمة على انصارها. ولكن انصار الكتلة تمادوا في غيهم .

وفي خريف العام نفسه ، على عتبة المجلس العام الخامس عشر للحزب ، قاموا ، في اثناء الاجتماعات الحزبية المنعقدة بمصانع موسكو ولينينغراد ومدن اخرى ، بمحاولة كانت غايتهم منها ان يفرضوا على الحزب مناقشة جديدة . فقدموا منهجهم ، وهو نسخة من المنهج المألوف المنشفيكي التروتسكي المعادي للينينية . وقد وجه اعضاء الحزب رداً شديداً للمعارضة ، حتى لقد طردوا اعضاءها من الاجتماعات طرداً في بعض الامكنة . ووجهت اللجنة المركزية انذاراً جديداً الى اشياع هذه الكتلة ، اذ اعلنت ان الحزب لن يتسامح اكثر من ذلك ازاء عملهم التهديمي .

فوجهت المعارضة الى اللجنة المركزية تصريحاً وقعه تروتسكي وزينوفييف وكامينيف وسوكولنيكوف ، يقبّحون فيه عملهم الانقسامي ، ويعدون بان يلتزموا في المستقبل موقف امانة وصدق . ولكن الكتلة بقيت قائمة في الواقع ، وتابع اشياعها عملهم السري ضد الحزب . لقد تابعوا سعيهم لتجميع حزب

معادٍ للينينية ، وانشأوا مطبعة سرية ، وعينوا اشتراكات مالية على اتباع كتلتهم ، واخذوا ينشرون منهجهم .

امام هذا السلوك من جانب التروتسكيين والزينوفييفيين ، بحث المجلس العام الخامس عشر للحزب (تشرين الثاني ١٩٢٦) ، والمجلس الكامل الموسع للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية (كانون الاول ١٩٢٦) ، مسألة الكتلة التروتسكية الزينوفييفية ، وشجبا في قراراتهما انصار هذه الكتلة ، الذين وصفوا بانهم انقساميون انزلقوا في منهجهم نحو المواقف المنشفيكية .

ولكن ذلك ايضاً كان امثولة غير مجدية لانصار هذه الكتلة . وفي سنة ١٩٢٧ ، حين قطع المحافظون الانكليز العلاقات الديبلوماسية والتجارية مع الاتحاد السوفياتي ، شددت الكتلة هجماتها على الحزب . لقد صنعت منهجاً جديداً معادياً للينينية سُمّيَ « منهج الـ ٨٣ » ، واخذت تنشره بين اعضاء الحزب ، وتطالب اللجنة المركزية ، في ذات الوقت ، بأن تفتح مناقشة عامة جديدة .

ولعل هذا المنهج كان اكثر مناهج المعارضة كذباً واشدها رياء .

فالتروتسكيون والزينوفييفيون لم يكونوا ، في الاقوال ، اي في منهجهم ، ضد تطبيق قرارات الحزب ، بل كانوا يبدون موقف الامانة والصدق . اما في الواقع فكانوا يخرقون قرارات الحزب باشد الاشكال فظاظة ، ويسخرون من كل امانة وصدق نحو الحزب ولجنته المركزية .

في الاقوال ، اي في منهجهم ، لم يكونوا ضد وحدة الحزب ، بل كانوا يعلنون انهم ضد الانقسام . اما في الواقع ، فكانوا يخرقون وحدة الحزب باشد الاشكال فظاظة ، ويتبعون خطة انقسامية ، وكان لهم ، مذ ذاك ، حزبهم غير الشرعي ، المعادي للينينية ، الذي توافرت فيه جميع الاسباب اللازمة ليصبح حزباً معادياً للسوفيات ومعادياً للثورة .

في اقوالهم ، اي في منهجهم ، كانوا من انصار سياسة التصنيع ، بل كانوا يتهمون اللجنة المركزية بأنها لا تقود التصنيع بسرعة كافية . اما في الواقع ،

فكانوا يندّدون بقرار الحزب عن انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، ويزدرون سياسة التصنيع الاشتراكي، كما كانوا يطالبون باعطاء سلسلة من المصانع والمعامل الى الاجانب بشكل امتيازات، ويعلقون آمالهم الرئيسية على الرأسماليين الاجانب، اصحاب الامتيازات في الاتحاد السوفياتي.

في الاقوال، اي في منهجهم، كانوا مؤيدين لحركة التنظيم التعاوني في الزراعة، بل كانوا يتهمون اللجنة المركزية بانها لا تقود التنظيم التعاوني بسرعة كافية. اما في الواقع، فكانوا يزدرون سياسة ادخال الفلاحين في البناء الاشتراكي وينذرون بأنه لا بد ان تنشب «نزاعات لا يمكن حلها» بين الطبقة العاملة والفلاحين، ويعلقون آمالهم على «المزارعين المتمدنين» في الريف، اي على اقتصاديات الكولاك.

ان هذا المنهج كان اشد رياء من جميع المناهج المرائية التي وضعتها المعارضة. لقد كان يرمي الى خدع الحزب.

وقد رفضت اللجنة المركزية ان تفتح المناقشة على الفور، واعلنت للمعارضة ان هذه المناقشة لا يمكن القيام بها الا ضمن الاجل المنصوص عليه في القانون الداخلي للحزب، اي قبل مؤتمر الحزب بشهرين.

وفي تشرين الاول ١٩٢٧، اي قبل المؤتمر الخامس عشر بشهرين، فتحت اللجنة المركزية المناقشة العامة، فابتدأت المعركة. وكانت نتائج المناقشة اكثر من مثيرة للرثاء بالنسبة للكتلة التروتسكية الزينوفييفية. فقد صوت ٧٢٤ الف عضو من اعضاء الحزب بجانب سياسة اللجنة المركزية. ونالت كتلة التروتسكيين والزينوفييفيين اربعة آلاف صوت، اي اقل من واحد في المئة. ومنيت كتلة النضال ضد الحزب بهزيمة مزرية. فان الحزب، باكثريته العظمى، قد رفض، بقلب واحد، منهج الكتلة.

تلك كانت ارادة الحزب التي جرى التعبير عنها بكل جلاء، الحزب الذي طلب انصار الكتلة انفسهم الاحتكام الى رأيه.

ولكن ذلك ايضاً كان درساً عديم الجدوى لانصار الكتلة . فبدلا من ان يذعنوا لارادة الحزب ، صمموا على احباطها . فحتى قبل اختتام المناقشة، لما رأوا ان اخفاقهم المخزي بات محتوماً ، قرروا اللجوء الى اشكال من النضال ضد الحزب والحكومة السوفياتية اشد حدة ، كتنظيم مظاهرة احتجاجية عامة في موسكو ولينينغراد ، وذلك في ٧ تشرين الثاني ، يوم الاحتفال بذكرى ثورة اوكتوبر ، يوم يسير كل الشعب الشغيل في الاتحاد السوفياتي في استعراضات ثورية ضخمة . وهكذا ، كان التروتسكيون والزينوفييفيون ينوون تنظيم مظاهرة مقابلة على حدة . ولكن وفق ما كان منتظراً ، فلم يستطع انصار الكتلة ان ينزلوا الى الشارع الا حفنة هزيلة من متملقيهم القلائل جداً . فان مظاهرة الشعب بانمره قد صدت هؤلاء المتملقين ومن على رأسهم من المحرضين ،وكنستهم تكنيساً .

ومذ ذاك، لم يبق مجال للشك في ان التروتسكيين والزينوفييفيين معاً قد انحدروا الى المستنقع المعادي للسوفيات . فاذا كانوا ،خلال المناقشة العامة التي دارت في قلب الحزب ، قد استصرخوا الحزب ضد اللجنة المركزية ، فانهم في مظاهرتهم الهزيلة قد استصرخوا الطبقات المعادية ضد الحزب وضد الدولة السوفياتية . وبما انهم جعلوا هدفهم هدم الحزب البلشفي ، فقد بات من المتحتم عليهم ان ينتهوا الى ارادة الخراب للدولة السوفياتية ، اذ لا سبيل الى الفصل بين الحزب البلشفي وبين الدولة ، في بلاد السوفيات . وهكذا وضع زعماء الكتلة التروتسكية الزينوفييفية انفسهم خارج الحزب ، اذ لم يبق ممكناً ان يتسامح الحزب بوجود اناس في صفوفه انحدروا الى مستنقع العداء للسوفيات .

وفي ١٤ تشرين الثاني ١٩٢٧ ، انعقد الاجتماع المشترك للجنة المركزية وللجنة المراقبة المركزية ، وطرد تروتسكي وزينوفييف من صفوف الحزب .

٢ ـ نجاح التصنيع الاشتراكي ـ تأخر الزراعة ـ المؤتمر الخامس عشر للحزب ـ الاتجاه نحو التنظيم التعاوني في الزراعة ـ سحق الكتلة التروتسكية الزينوفييفية ـ النفاق السياسي

منذ نهاية ١٩٢٧ ، بدأت سياسة التصنيع الاشتراكي تسجل نجاحات حاسمة . وكان التصنيع قد حقق ، في ظروف النيب ، تقدماً جدياً في فترة قصيرة من الزمن . فانتاج الصناعة والزراعة الاجمالي ، (بما في ذلك انتاج الغابات ومصائد الاسماك) لم يقتصر على بلوغ مستوى ما قبل الحرب وحسب ، بل جاوز هذا المستوى . فالصناعة التي كان نصيبها من مجموع الاقتصاد الوطني قد ارتفع الى ٤٢ بالمئة ، بلغت مستوى معادلا لمستوى ما قبل الحرب .

لقد كان القطاع الاشتراكي في الصناعة يتابع اتساعه بسرعة على حساب القطاع الخاص . فبعد ما كان نصيب القطاع الاشتراكي في ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ ٨١ في المئة ، ارتفع في ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ الى ٨٦ في المئة ، في حين هبط نصيب القطاع الخاص ، في ذات المرحلة ، من ١٩ الى ١٤ في المئة .

لقد كان معنى هذه الارقام ان تصنيع الاتحاد السوفياتي اصبح ذا صفة اشتراكية شديدة البروز ، وان صناعة الاتحاد السوفياتي قد سارت في طريق انتصار النظام الاشتراكي في الانتاج ، وان السؤال الموضوع في ميدان الصناعة ، وهو « لمن سيكون النصر ؟ » قد لقي ، بعد الآن ، حلاً له في مصلحة الاشتراكية .

وقد جرت ازاحة التجارة الفردية بمثل هذه السرعة . فقد هبطت حصتها في تجارة المفرق ، من ٤٢ في المئة ، في ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ ، الى ٣٢ في المئة في ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ ، اما تجارة الجملة فقد هبطت فيها حصة العنصر الخاص في المرحلة نفسها من ٩ في المئة الى ٥ في المئة .

وكان تطور الصناعة الكبيرة الاشتراكية اسرع ايضاً ، فان انتاجها سجل في سنة ١٩٢٧ ، وهي السنة الاولى بعد مرحلة الانهاض ، زيادة قدرها ١٨ بالمئة بالنسبة للسنة السابقة . وهذا رقم قياسي في الزيادة لا سبيل للصناعة الضخمة الى بلوغه في اكثر البلدان الرأسمالية تقدماً .

اما في الزراعة ، وخصوصاً زراعة الحبوب ، فكانت اللوحة مختلفة تماماً . ومع ان الزراعة بمجموعها قد تجاوزت مستوى ما قبل الحرب ، فالانتاج الاجمالي لفرعها الرئيسي — زراعة الحبوب — لم يبلغ الا ٩١ بالمئة فقط من هذا المستوى . فانتاج القمح التجاري المعد لتموين المدن بلغ ، بالجهد ، ٣٧ بالمئة من مستوى ما قبل الحرب . وفضلاً عن ذلك ، كانت جميع الدلائل تحمل على الظن بان الانتاج التجاري من الحبوب مهدد بهبوط جديد .

كان ذلك برهاناً على ان تجزئة الاقتصاديات الضخمة التي تمون السوق الى اقتصاديات صغيرة ، وتجزئة الاقتصاديات الصغيرة الى اقتصاديات فلاحية شديدة الصغر ، تلك التجزئة التي بدأت عام ١٩١٨ ، كانت لا تزال مستمرة ؛ كان ذلك برهاناً على ان الاقتصاد الفلاحي الصغير والشديد الصغر قد اخذ يصبح اقتصاداً شبه طبيعي ، ليس في وسعه ان يعطي سوى حد ادنى فقط من الحبوب التجارية ؛ كان ذلك برهاناً على ان زراعة الحبوب في مرحلة ١٩٢٧ ، رغم انها كانت تنتج مقداراً لا ينقص عن زراعة ما قبل الحرب الا قليلاً ، لم تكن ، مع ذلك ، قادرة على ان تقدم لتموين المدن الا مقداراً لا يزيد سوى قليل عن ثلث ما كانت زراعة الحبوب تستطيع ان تقدمه للسوق قبل الحرب .

فلم يكن هناك شك في ان جيش الاتحاد السوفياتي ومدن الاتحاد السوفياتي ، ستواجه قحطاً مزمناً ما دامت هذه الحال سائدة في زراعة الحبوب .

وبعد الازمة في زراعة الحبوب كانت ستقع ازمة في تربية المواشي .

ولاجل معالجة هذه الحالة كان ينبغي الانتقال الى الانتاج الزراعي

الضخم ، الذي في وسعه ان يستخدم التراكتورات والآلات ، ومن شأنه ان يرفع الانتاج التجاري للحبوب الى حد كبير . وكان امام البلاد امكانيتان: اما الانتقال الى الانتاج الضخم **الرأسمالي** ، الامر الذي كان من شأنه ان يؤدي الى خراب جماهير الفلاحين ، وانهيار تحالف الطبقة العاملة والفلاحين ، وتقوية الكولاك ، وانهزام الاشتراكية في الريف ، واما اللجوء الى جمع الاقتصاديات الفلاحية الصغيرة في اقتصاديات **اشتراكية** كبيرة، في كولخوزات قادرة على استعمال التراكتورات وسائر الآلات الحديثة الاخرى ، لاجل دفع زراعة الحبوب الى امام وانماء انتاجها التجاري .

ومن الواضح طبعاً ان الحزب البلشفي والدولة السوفياتية لم يكونا يستطيعان ان يسلكا الا الطريق الثانية ، طريق تطور الزراعة بواسطة الكولخوزات .

وقد استلهم الحزب توجيهات لينين حول ضرورة الانتقال من الاقتصاديات الفلاحية الصغيرة الى الاقتصاد الزراعي الضخم ، المنظم في اقتصاديات جماعية تعاونية .تقول هذه التوجيهات :

أ) « من المستحيل الخلاص من البؤس عن طريق الاقتصاد الصغير » (لينين ـ المؤلفات الكاملة ـــ المجلد ٢٤ ، ص ٥٤٠ الطبعة الروسية) .

ب) « اذا نحن حصرنا انفسنا ، ضمن اقتصاديات صغيرة ، كما في السابق ، فسنظل مهددين بهلاك مؤكد ، ولو كنا مواطنين احراراً في ارض حرة ». (المجلد ٢٠ ، ص ٤١٧ ، الطبعة الروسية).

ج) « اذا كان بامكان الاقتصاد الفلاحي ان يتابع تطوره المقبل، فمن الضروري ان نؤمن ، بصورة وطيدة ، الانتقال المقبل ايضاً، اما هذا الانتقال المقبل فهو حتما ان تتحد تدريجياً الاقتصاديات الفلاحية الصغيرة المنعزلة المتأخرة جداً والقليلة الجدوى فتنظم الاقتصاد الزراعي الجماعي المشترك الكبير. »(المجلد ٢٦ ، الصفحة

٢٩٩ ، الطبعة الروسية) .

د) « عندما ننجح في ان نبين عملياً للفلاحين افضلية العمل في الارض بصورة مشتركة ، جماعية ، رفاقية ، تعاونية ، عندما ننجح في مساعدة الفلاح عن طريق الاقتصاد الرفاقي التعاوني ، عندئذ فقط يتاح للطبقة العاملة القابضة بيدها على سلطة الدولة ان تبرهن فعلا للفلاح انها على حق ، وان تجذب فعلا الى جانبها الملايين الغفيرة من جماهير الفلاحين بشكل وطيد ، بشكل حقيقي » (المجلد ٢٤ ، الصفحة ٥٧٩ ، الطبعة الروسية .)

هكذا كانت الحال على اعتاب المؤتمر الخامس عشر للحزب .

افتتح المؤتمر الخامس عشر للحزب في ٢ كانون الاول ١٩٢٧ . وقد ضم ٨٩٨ مندوباً باصوات فعلية و ٧٧١ مندوباً باصوات استشارية ؛ لقد كان المندوبون يمثلون ٢٣٣ ٨٨٧ عضواً في الحزب و ٩٥٧ ٣٤٨ عضواً متدرجاً.

اشار الرفيق ستالين في تقرير اللجنة المركزية الى نجاحات التصنيع والخطوات السريعة التي خطتها الصناعة الاشتراكية الى امام ، ووضع امام الحزب المهمة التالية :

« توسيع وتثبيت مراكزنا القيادية الاشتراكية في جميع ميادين الاقتصاد الوطني ، في المدينة كما في الريف ، وذلك باتجاهنا نحو تصفية العناصر الرأسمالية في الاقتصاد الوطني ».

ولما قارن الرفيق ستالين بين الزراعة والصناعة ، وبيّن تأخر الزراعة ، ولا سيما تأخر زراعة الحبوب الناجم عن تفتت الزراعة الذي لم يكن يسمح باستعمال التكنيك الحديث ، اكد ان هذه الحال التي لا يُحسد عليها في الزراعة تخلق وضعاً ينطوي على خطر يهدد الاقتصاد الوطني برمته .

وقد تساءل الرفيق ستالين بقوله : « واذن ، فأين المخرج ؟ ان المخرج هو في الانتقال من الاقتصاديات الفلاحية الصغيرة المبعثرة الى الاقتصاديات الكبيرة الممركزة المؤسسة على العمل المشترك في الارض ، هو في الانتقال الى

زراعة الارض بالاسلوب التعاوني القائم على تكنيك جديد ، رفيع . المخرج هو في ان تتحد الاقتصاديات الفلاحية الصغيرة والشديدة الصغر بصورة تدريجية ، ولكن ثابتة ، مستمرة ، وليس عن طريق الضغط بل عن طريق البرهان والاقناع ، ان تتحد في اقتصاديات كبيرة قوامها العمل في الارض بصورة مشتركة ، رفاقية ، جماعية ، مع استخدام الآلات الزراعية والتراكتورات ، ومع تطبيق الاساليب العلمية لتنشيط الزراعة . وليس هناك مخرج آخر» .

وتبنى المؤتمر الخامس عشر قراراً حول ضرورة توسيع التنظيم التعاوني في الزراعة الى اقصى حد ممكن . ووضع المؤتمر برنامجاً لتوسيع وتوطيد شبكة الكولخوزات والسوفخوزات (١) ، واعطى توجيهات دقيقة حول اساليب النضال لاجل التنظيم التعاوني في الزراعة .

وفي ذات الوقت ، اعطى المؤتمر التوجيه التالي :

«تشديد الهجوم ضد الكولاك واتخاذ سلسلة من التدابير الجديدة التي تحد من تطور الرأسمالية في الريف، وتوجه الاقتصاديات الفلاحية نحو الاشتراكية.» (الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي في قراراته ، الجزء الثاني ، الصفحة ٢٦٠ ، الطبعة الروسية) .

وبوحي الضرورة القاضية بتقوية دور المنهاج في الاقتصاد الوطني ، وبغية تنظيم هجوم الاشتراكية المنسق ضد العناصر الرأسمالية على مجمل الجبهة

---

(١) سوفخوز : كلمة روسية مؤلفة من المقطعين الاولين لكلمتي « سوفيتسكوي » وتعني « السوفياتي » ، و « خازايستفو » وتعني « الاقتصاد » . اي ان سوفخوز تعني « الاقتصاد السوفياتي » ، وهي المزارع التي تملكها الدولة السوفياتية وتديرها مباشرة مثلها مثل المعامل في الصناعة ، خلافاً للكولخوز الذي مر تفسيره والذي يعني « الاقتصاد التعاوني او الجماعي » اي المزارع التي يديرها الفلاحون انفسهم بعد ان ضموا اراضيهم باختيارهم بعضها الى بعض ، فهي ملكهم بمجموعهم ولهم حق التصرف بها الى الابد. (هيئة التعريب).

الاقتصادية ، اعطى المؤتمر اخيراً الى الهيئات المختصة توجيهاً بوضع **برنامج السنوات الخمس الاول** للاقتصاد في الاتحاد السوفياتي .

وعندما سوى المؤتمر الخامس عشر للحزب قضايا البناء الاشتراكي ،انتقل الى مسألة تصفية الكتلة التروتسكية الزينوفييفية .

وقد تبين للمؤتمر ان : « المعارضة قد قطعت صلتها باللينينية من الناحية الفكرية وانقلبت الى تكتل منشفيكي ، وسلكت سبيل الاستسلام امام قوى البورجوازية الدولية والداخلية ، وتحولت ، موضوعياً ، الى آلة بيد قوة ثالثة موجهة ضد نظام ديكتاتورية البروليتاريا . » (الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي في قراراته ، القسم الثاني ، الصفحة ٢٣٢ ، الطبعة الروسية).

ورأى المؤتمر ان الخلافات بين الحزب والمعارضة قد اصبحت خلافات على البرنامج ، وان المعارضة التروتسكية قد شرعت في النضال ضد السوفيات. ولذلك اعلن المؤتمر الخامس عشر ان الانتماء الى المعارضة التروتسكية ونشر آرائها أمران لا يتفقان مع الانتماء الى الحزب البلشفي .

ووافق المؤتمر على القرار الذي اتخذه الاجتماع المشترك للجنة المركزية ولجنة المراقبة المركزية بطرد تروتسكي وزينوفييف من صفوف الحزب ، وقرر ، في الوقت نفسه ، ان ينزل عقوبة الطرد بجميع العناصر النشيطة في الكتلة التروتسكية الزينوفييفية ، مثل راديك ، وبريوبراجنسكي ، وراكوفسكي ، وبياتاكوف ، وسيريبرياكوف ، و ي. سميرنوف ، وكامينيف ، وسركيس ، وسافاروف ، وليفشيتز ، ومديفاني ، وسميلغا ، وكذلك بكل فرقة « المركزية الديموقراطية » (سابرونوف ، ف.سميرنوف ، بوغوسلافسكي ، دروبنيس ، وغيرهم) .

ان انصار الكتلة التروتسكية الزينوفييفية الذين دحروا فكرياً ، وهزموا في ميدان التنظيم ، قد فقدوا آخر ما بقي لهم من نفوذ بين الشعب.

وبعد المؤتمر الخامس عشر بقليل ، كتب اعداء اللينينية الذين طردوا من الحزب ، تصريحات اعلنوا فيها قطع صلتهم بالتروتسكية ، وطلبوا

اعادة قبولهم في الحزب . وفي الحقيقة لم يكن الحزب ، في ذلك الحين ، يستطيع ان يعلم ان تروتسكي وراكوفسكي ورادِيك وكريستنسكي وسوكولنيكوف والآخرين ، كانوا منذ امد بعيد ، اعداء للشعب وعملاء لدوائر الجاسوسية الاجنبية ، وان كامينيف وبياتاكوف والآخرين ، كانوا ينظمون اتصالات مع اعداء الاتحاد السوفياتي في الاقطار الرأسمالية ، بغية « التعاون » معهم ضد الشعب السوفياتي . ولكن كانت التجارب قد علمت الحزب ما يكفي ليعرف ان ابشع الدناءات يمكن توقعها من جانب هؤلاء الناس الذين طالما وقفوا ، في احرج الساعات ، ضد لينين ، وضد حزب لينين . ولذلك استقبل الحزب بالحذر تصريحات المطرودين . وعلى سبيل امتحان اول لاخلاص اصحاب التصريحات ، وضع الحزب عدداً من الشروط لاعادة قبولهم فيه . فكان على المطرودين :

أ) ان يشجبوا التروتسكية جهاراً ، باعتبارها عقيدة معادية للبلشفية ومعادية للسوفيات .

ب) ان يعترفوا جهاراً بان سياسة الحزب هي السياسة الوحيدة الصحيحة .

ج) ان يخضعوا دونما تحفظ لقرارات الحزب وقرارات هيئاته .

د) ان يبقوا تحت التجربة مدة من الزمن يمتحن الحزب فيها اصحاب التصريح وينظر ، عند انتهائها ، على اساس نتائج الامتحان ، في امر اعادة قبول كل من المطرودين بمفرده .

لقد اعتبر الحزب ان اعتراف المطرودين اعترافاً علنياً بجميع هذه النقاط لا بد ان تكون له ، في اية حال ، اهمية ايجابية بالنسبة الى الحزب ، لان هذا الاعتراف يحطم وحدة صفوف التروتسكيين الزينوفييفيين ، ويلقي التفسخ فيما بينهم ، ويدل ، مرة اخرى ، على قوة الحزب وصواب قضيته ورسوخها ، كما يتيح للحزب ، في حالة حسن نية اصحاب التصريحات ، ان

بعيد الى صفوفه اعضاءه القدماء ، وان يفضحهم في اعين الجميع ، في حالة سوء النية ، لا بوصفهم بعد الآن اناساً يخطئون، بل بوصفهم وصوليين لا مبدأ لهم ، يريدون ان يغشوا الطبقة العاملة ، بوصفهم مخاتلين مفضوحين تماماً .

وقد قبل معظم المطرودين الشروط التي وضعها الحزب لاعادة قبولهم في صفوفه واعلنوا ذلك على صفحات الجرائد .

اما الحزب الذي كان يسلك نحوهم مسلك التسامح ولا يريد ان يمنعهم من ان يصبحوا مجدداً من رجال الحزب والطبقة العاملة ، فقد اعاد اليهم صفة عضويته .

ورغم ذلك ، ظهر مع الزمن ان تصريحات « العناصر النشيطة » في الكتلة التروتسكية الزينوفييفية لم تكن إلا كذبــاً ونفاقاً ، ما خلا بعض الحالات النادرة .

لقد تبين ان هؤلاء السادة كانوا ، حتى قبل ان يصوغوا تصريحاتهم ، قد كفوا عن ان يكونوا تياراً سياسياً مستعداً للدفاع عن مفاهيمه أمام الشعب، واصبحوا زمرة من الوصوليين لا افكار لها ، ومستعدة لان تدوس بالاقدام، امام انظار جميع الناس ، ما بقي من مفاهيمها ، ومستعدة للاشادة ، على رؤوس الاشهاد ، بمفاهيم الحزب التي كانت غريبة عنها ، ومستعدة لتبديــل لونها كالحرباء ، وذلك لغاية واحدة هي ان تبقى في الحزب وفي صفوف الطبقة العاملة ، لكي تستطيع الحاق الضرر بالطبقة العاملة وحزبها .

ان «العناصر النشيطة» التروتسكية الزينوفييفية قد تكشفت عن محتالين سياسيين ، عن مخاتلين سياسيين .

ان السياسيين ذوي الوجهين يبدأون عادة بالخداع ، فهم يؤدون عملهم المشؤوم عن طريق مخادعة الشعب والطبقة العاملة وحزبها . ولكن يجب الا يقتصر النظر الى المخاتلين السياسيين على انهم خداعون وحسب . فهم زمرة من الوصوليين السياسيين الذين لا افكار لهم ، وقد فقدوا ثقة الشعب منذ زمن بعيد ويحاولون استرجاعها بالخداع ، والتلون كالحرباء ، والاحتيال ،

وبأية وسيلة من الوسائل ، مستهدفين غاية واحدة هي المحافظة على لقب رجال سياسة . ان المخاتلين السياسيين يمثلون زمرة لا مبادىء لها من الوصوليين السياسيين المستعدين للاعتماد على اي كان ، حتى على المجرمين العاديين ،وحثالة المجتمع ، وحتى على الد اعداء الشعب في سبيل العودة الى الظهور على المسرح السياسي في « الوقت المناسب » والتربع على ظهر الشعب بصفة « حكام » .

وقد كانت « العناصر النشيطة » التروتسكية الزينوفييفية من هذا النوع من المخاتلين السياسيين .

•

٣ ـ الهجوم على الكولاك ـ فرقة بوخارين ريكوف للنضال ضد الحزب ـ اقرار مشروع السنوات الخمس الاول ـ المباراة الاشتراكية ـ بدء الحركة الكولخوزية الجماهيرية .

ان تحريض الكتلة التروتسكية الزينوفييفية ضد سياسة الحزب ،وضد بناء الاشتراكية والتنظيم التعاوني في الزراعة ، وكذلك تحريض البوخارينيين الذين كانوا يقولون ان عملية الكولخوزات لن يكتب لها النجاح ، وانه يجب عدم مس الكولاك لانهم « سيندمجون » في الاشتراكية من تلقاء انفسهم ، وان اثراء البورجوازية لا يشكل خطرا على الاشتراكية ، كل هذا التحريض كان له صدى بعيد بين العناصر الرأسمالية في البلاد ، وبالدرجة الاولى بين الكولاك . فقد اصبح هؤلاء يعرفون من رد الفعل في الصحافة ، انهم ليسوا منعزلين ، وان لهم في تروتسكي وزينوفييف وكامينيف وبوخارين وريكوف وغيرهم ، حماة وشفعاء . ومن المفهوم ان هذا الظرف ما كان من شأنه الا ان يشحذ مقاومة الكولاك لسياسة الحكومة السوفياتية . وبالفعل اخذ الكولاك يبدون مقاومة متزايدة يوماً بعد يوم. فكانوا يرفضون ،بصورة جماهيرية ، ان يبيعوا الدولة السوفياتية الفائض من القمح الذي كدسوا منه كميات . واخذوا يقومون باعمال الارهاب ضد الكولخوزيين والمناضلين

الحزبيين ، وضد المؤسسات السوفياتية في الريف ، ويشعلون النـــار في الكولخوزات وفي مراكز التخزين العمومية .

وادرك الحزب انه ما لم يتم تحطيم مقاومة الكولاك ، وما لم يُدحروا في معركة مكشوفة امام انظار جماهير الفلاحين ، فسيكون على الطبقة العاملة والجيش الاحمر ان يعانيا قلة القمح ، ولن تستطيع الحركة الكولخوزية ان تتخذ صفة حركة جماهيرية .

وتطبيقاً لتوجيهات المؤتمر الخامس عشر ، باشر الحزب هجوماً حازمـاً ضد الكولاك تحت شعار : الاستناد القوي الى الفلاحـــين الفقراء وتعزيز التحالف مع الفلاحين المتوسطين لاجل شن النضال الحاسم ضد الكولاك . وجواباً على رفض الكولاك بيع الدولة الفائض عندهم من القمح بالاسعار المحددة ، اتخذ الحزب والحكومة سلسلة من التدابير الاستثنائية ضدهم ، فطبقا الماده ١٠٧ من قانون الجزاء ، التي تخول السلطة القضائية مصادرة الفائض من القمح عند الكولاك والمحتكرين ، في حال رفض بيـع الدولة هـذا الفائض بالاسعار المحددة . ومن جهة اخرى ، منح الفلاحون الفقراء امتيازات اصبح في وسعهم ، بمقتضاها ، ان يتصرفوا بمقدار ٢٥ بالمئة من القمح المصادر مـــن عند الكولاك .

احدثت هذه التدابير الاستثنائية اثرها : فانضم الفلاحون الفقـــراء والمتوسطون الى النضال الحاسم ضد الكولاك . فبات هؤلاء معزولين . وتم تحطيم مقاومة الكولاك والمحتكرين . ومنذ اواخر ١٩٢٨ ، اصبـــح تحت تصرف الدولة السوفياتية مخزونات احتياطية كافية من القمح ، وتقدمت الحركة التعاونية الى امام بخطى اكثر ثباتاً .

وفي ذلك العام نفسه ، اكتشفت منظمة مخربين خطيرة بين الاختصاصيين البورجوازيين في شاختي ، في حوض الدونيتز . وكان المخربون عـــلى اتصال وثيق باصحاب المؤسسات القدمـــاء ــ الرأسماليين الروس والاجانب ــ وبمصالح التجسس العسكرية الاجنبية . وكان هدفهم احباط تطور الصناعة الاشتراكية ، وتسهيل اعادة الرأسمالية الى الاتحاد السوفياتي . فكان المخربون

يقودون استثمار المناجم بشكل غير طبيعي ، باذلين جهدهم لانقاص المستخرج من الفحم . وكانوا يتلفون المعدات واجهزة التهوية ، وينظمون انهيارات وانفجارات ، ويحرقون المناجم والمصانع والمراكز الكهربائية . وكانوا يعرقلون قصداً تحسين احوال العمال المادية ، ويخرقون القوانين السوفياتية لحماية العمل .

وقد احيل المخربون الى القضاء ، ونالوا الجزاء الذي يستحقونه .

ودعت لجنة الحزب المركزية جميع منظمات الحزب الى استخلاص الدروس اللازمة من قضية شاختي . واشار الرفيق ستالين الى ان البلاشفة الذين يديرون المشاريع يجب عليهم ان يستوعبوا هم انفسهم تكنيك الانتاج ، حتى لا يستطيع المخربون الموجودون في صفوف الخبراء البورجوازيين القدماء ان يخدعوهم بعد الآن ، والى أن من الواجب التعجيل في تكوين ملاكات فنية جديدة ، يُنتقى افرادها من صميم الطبقة العاملة .

وبناء على قرار من اللجنة المركزية ، ادخلت تحسينات لتكوين الخبراء الشباب ، ووفقاً لقرار من اللجنة المركزية ، ادخل تحسين كبير على العمل في المدارس العالية للتعليم التكنيكي . وجُند من اجل الدراسة الوف من اعضاء الحزب والشبيبة الشيوعية ومن اللاحزبيين المخلصين لقضية الطبقة العاملة .

وقبل انتقال الحزب الى الهجوم على الكولاك ، وطيلة المدة التي كان الحزب منهمكاً فيها بتصفية الكتلة التروتسكية الزينوفييفية ، سلكت فرقة بوخارين ريكوف مسلكاً هادئاً نوعاً ما ، وبقيت بمثابة احتياطي للقوى المعادية للحزب ، فلم تقدم على مساندة التروتسكيين مساندة علنية ، بل وقفت حتى في بعض الاحيان الى جانب الحزب ضد التروتسكيين . ولكن ما ان انتقل الحزب الى الهجوم على الكولاك ، وشرع في اتخاذ التدابير الاستثنائية ضدهم ، حتى رمت فرقة بوخارين ريكوف القناع عن وجهها ، وراحت تهاجم سياسة الحزب بصورة علنية مكشوفة . ذلك لان الروح الكولاكية

لفرقة بوخارين-ريكوف لم تحتمل الكبت ،فأخذ انصار هذه الفرقة ،يدافعون صراحة عن الكولاك . وكانوا يطالبون بالغاء التدابير الاستثنائية، والا فمن الممكن - كما كانوا يزعمون لاخافة البسطاء والسذج - ان يبدأ « الانحطاط » في الزراعة ، بل كانوا يؤكدون ان « الانحطاط » قد بدأ فعلاً . ذلك لانهم لم يكونوا يلحظون صعود الكولخوزات والسوفخوزات ، هذه الاشكال العليا للزراعة ، فكانوا حين يشاهدون انهيار الأقتصاد الكولاكي ،يصورون انحطاطه على انه انحطاط للزراعة . ولكي يدعموا انفسهم نظرياً ، نسجوا نظرية مضحكة أسموها « نظرية انطفاء النضال الطبقي » . وكانوا يؤكدون ، على اساس هذه النظرية ، ان الاشتراكية كلما احرزت نجاحات اكبر في نضالها ضد العناصر الرأسمالية ، خفّت حدة النضال الطبقي . ولن يلبث النضال الطبقي ان ينطفىء تماماً عما قريب ، فيسلم العدو الطبقي كل مواقعه دون مقاومة ، فلا فائدة ، بالتالي ، من القيام بهجوم على الكولاك . وهكذا كانوا يبعثون من جديد نظريتهم البورجوازية ، البالية ، عن اندماج الكولاك سلمياً في الاشتراكية ويدوسون بالاقدام الموضوعة اللينينية الشهيرة القائلة بان مقاومة العدو الطبقي تحتدم وتتخذ اشكالا اشد ، كلما ازداد العدو شعوراً بان الارض تميد تحت قدميه ، وكلما احرزت الاشتراكية مزيداً من النجاحات ، وان النضال الطبقي لا يمكن ان « ينطفىء » الا بعد ابادة العدو الطبقي .

لم يكن من العسير على الحزب ان يفهم ان فرقة بوخارين-ريكوف كانت فرقة انتهازية يمينية لا تختلف عن الكتلة التروتسكية الزينوفييفية الا من حيث الشكل ، الا من حيث ان التروتسكيين والزينوفييفيين كان في امكانهم، نوعاً ما ، تغطية جوهرهم الانهزامي بعبارات يسارية ، عبارات ثورية مزيفة صاخبة عن « الثورة الدائمة » ، في حين ان فرقة بوخارين ريكوف التي وقفت ضد الحزب عندما انتقل الى الهجوم على الكولاك ، لم تعد تستطيع تغطية وجهها الاستسلامي ، واضطرت الى الدفاع عن

القوى الرجعية في بلادنا ، وخصوصاً عن الكولاك ، دفاعاً مكشوفاً دونما طلاء ولا قناع .

وادرك الحزب ان لا بد لفرقة بوخارين ريكوف من ان تمد يدها ، عاجلًا ام آجلًا ، الى فلول الكتلة التروتسكية الزينوفييفية ، للقيام بنضال مشترك ضد الحزب .

كانت فرقة بوخارين ريكوف ، الى جانب نشاطها السياسي ، تقوم بـ « عمل » تنظيمي لجمع انصارها . فأخذت بواسطة بوخارين ، تجمع الشبيبة البورجوازية من طراز سليبكوف ، ماريتسكي ، ايخنفالد ، غولدنبرغ وغيرهم ، وبواسطة تومسكي ، القواد النقابيين الذين طغت عليهم الميول البيروقراطية (امثال ملنيتشانسكي ودوغاروف ، واخرين) ، وبواسطة ريكوف ، الرؤساء المتفسخين في بعض الادارات السوفياتية (امثال آ. سميرنوف ، وايسمونت ، و ف. شميت ، وغيرهم) . وكانت تنضم الى هذه الفرقة بطيبة خاطر ، جميع العناصر المتفسخة سياسياً التي لم تكن تخفي روحها الانهزامية .

وفي هذه الفترة تلقت فرقة بوخارين ريكوف تأييداً من قمة منظمة الحزب في موسكو (اوغلانوف ، كوتوف ، اوخانوف ، ريوتين ، ياغودا ، بولونسكي ، وآخرين) . وفي الوقت نفسه بقي قسم من الجناح اليميني متستراً ، فلم يناهض خطة الحزب مناهضة صريحة ، وظهرت في صحافة الحزب والاجتماعات الحزبية في موسكو ، دعوة تنادي بضرورة التنازل للكولاك وتقول بان من غير الملائم فرض ضرائب على الكولاك ، وان التصنيع عبء ثقيل على عاتق الشعب وان الوقت لم يحن لانشاء الصناعة الثقيلة . وعارض اوغلانوف في انشاء محطة التوليد الكهربائي على الدنيبر وطالب بتحويل الاموال المخصصة للصناعة الثقيلة الى الصناعة الخفيفة . وكان اوغلانوف والاستسلاميون اليمينيون الآخرون يؤكدون ان موسكو كانت وستبقى مدينة المنسوجات القطنية ، فلا موجب لبناء معامل للانشاءات الميكانيكية فيها .

الا ان المنظمة الحزبية في موسكو فضحت اوغلانوف وانصاره ووجهت اليهم انذارا اخيراً، وازدادت التفافاً حول لجنة الحزب المركزية . وفي عام ١٩٢٨، في الاجتماع الكامل للجنة الحزب الشيوعي في موسكو، اكد الرفيق ستالين ضرورة النضال على جبهتين، مع تركيز النار على الانحراف اليميني. وبيّن الرفيق ستالين ان اليمينيين هم عملاء الكولاك في الحزب وقال:

«ان انتصار الانحراف اليميني في حزبنا من شأنه ان يطلق قوى الرأسمالية وان يزعزع المواقع الثورية للبروليتاريا، وان يجعل للرأسمالية حظاً اكبر في العودة الى بلادنا.» (ستالين ــ مسائل اللينينية).

وفي مستهل عام ١٩٢٩، علم ان بوخارين، بتكليف من فرقة الاستسلاميين اليمينيين، اتصل بالتروتسكيين عن طريق كامينيف واخذ في وضع صيغة للتفاهم معهم على النضال المشترك ضد الحزب. ففضحت اللجنة المركزية هذا النشاط الاجرامي الذي يقوم به الاستسلاميون اليمينيون منذرة بان هذه القضية قد تؤدي ببوخارين وريكوف وتومسكي والآخرين الى نهاية خاسرة كئيبة. غير ان الاستسلاميين اليمينيين لم يرعووا، فتقدموا في اللجنة المركزية بتصريح برنامجي جديد موجه ضد الحزب، فشجبته اللجنة المركزية وانذرتهم من جديد وذكرتهم بمصير الكتلة التروتسكية الزينوفييفية. ورغم ذلك تابعت فرقة بوخارين ريكوف نشاطها المعادي للحزب وقدم ريكوف وتومسكي وبوخارين استقالتهم الى اللجنة المركزية معتقدين انهم يخيفون الحزب بذلك. فاستنكرت اللجنة المركزية سياسة الاستقالات هذه، سياسة العرقلة والتخريب. واخيراً اعلنت اللجنة المركزية في اجتماعها الكامل المنعقد في تشرين الثاني ١٩٢٨ ان الدعوة لاراء الانتهازيين اليمينيين لا تتلاءم مع الانتماء للحزب واقترحت طرد بوخارين محرك فرقة الاستسلاميين اليمينيين وقائدها من المكتب السياسي للجنة المركزية، مع توجيه انذار جدي الى ريكوف وتومسكي واعضاء المعارضة اليمينية الاخرين.

ولما رأى متزعمو الاستسلاميين اليمينيين ان القضية تتحول تحولا مزعجاً،

اعطوا تصريحاً مكتوباً يعترفون فيه باخطائهم وبصحة خطة الحزب السياسية.

هكذا قرر الاستسلاميون التراجع موقتاً لانقاذ ملاكاتهم من السحق والتحطيم.

وبهذا انتهت المرحلة الاولى من نضال الحزب ضد الاستسلاميين اليمينيين.

ان الخلافات الجديدة في الحزب لم تبق خافية على اعداء الاتحاد السوفياتي في الخارج. ولهذا، اعتقاداً منهم بان «الانقسامات الجديدة» في الحزب هي من علائم ضعف الحزب، قاموا بمحاولة جديدة لجر الاتحاد السوفياتي الى الحرب واحباط قضية تصنيع البلاد التي لم يتيض لها بعد ان توطد اركانها. ففي صيف ١٩٢٩، نظم الاستعماريون النزاع بين الصين والاتحاد السوفياتي ودفعوا العسكريين الصينيين الى الاستيلاء على سكة الحديد الصينية الشرقية التي كان يملكها الاتحاد السوفياتي، كما دفعوا الجيوش الصينية البيضاء الى العدوان على حدود وطننا في الشرق الاقصى. الا ان غارة العسكريين الصينيين ُردت وُصفيت في فترة وجيزة، وتراجع العسكريون بعد ما دحرهم الجيش الاحمر وانتهى النزاع باتفاق سلمي مع السلطات المنشورية.

وهكذا انتصرت سياسة الاتحاد السوفياتي السلمية مرة اخرى، رغم كل شيء، رغم مساعي الاعداء الخارجيين ورغم «الانقسامات» في داخل الحزب.

لم تلبث ان اقيمت من جديد العلاقات الديبلوماسية والتجارية بين الاتحاد السوفياتي وانكلترا التي كان المحافظون الانكليز قطعوها في حينه.

وفيما كان الحزب يرد هجمات الاعداء الخارجيين والداخليين بنجاح، قام في الوقت نفسه بعمل كبير لتوسيع بناء الصناعة الثقيلة وتنظيم المباراة الاشتراكية وانشاء السوفخوزات والكولخوزات وتهيئة الشروط اللازمة لاقرار وتنفيذ برنامج السنوات الخمس الاول للاقتصاد الوطني.

وفي نيسان ١٩٢٩، انعقد المجلس الوطني العام السادس عشر للحزب. وكان برنامج السنوات الخمس الاول هو المسألة الرئيسية في المجلس. وهدد رد المجلس صيغة «الحد الادنى» التي دافع عنها الاستسلاميون اليمينيون وارادوها اساساً

لبرنامج للسنوات الخمس ، واقر صيغة «الحد الاعلى» بوصفها الزامية في جميع الظروف .

وهكذا اقر الحزب برنامج السنوات الخمس الاول الشهير لبناء الاشتراكية.

ووفقاً لهذا البرنامج ، كانت الاعتمادات المخصصة للاعمال الكبرى في الاقتصادالوطني من ١٩٢٨ الى ١٩٣٣، تبلغ ٦٤،٦ مليار روبل،منها١٩،٥ مليار روبل للصناعة والكهرباء و١٠ مليارات روبل للنقليات و٢٣،٢ مليار روبل للزراعة.

لقد كان برنامجاً عظيما لتزويد الصناعة والزراعة في الاتحاد السوفياتي بالتكنيك الحديث العصري.

وقد قال الرفيق ستالين:

« ان المهمة الاساسية لبرنامج السنوات الخمس هي ان نبني في بلادنا صناعة قادرة على ان تجهز من جديد وان تنظم من جديد، على اساس الاشتراكية، لا الصناعة باسرها فحسب ، بل كذلك النقليات، والزراعة ايضاً».(ستالين ـ مسائل اللينينية : رصيد برنامج السنوات الخمس الاول) .

على ان هذا البرنامج ، رغم كل ضخامته ، لم يكن فيه شيء غير مترقب او شيء يدير الرأس بالنسبة للبلاشفة. فقد هيأ له مجموع سير التطور في التصنيع وفي بناء الاقتصاد التعاوني الزراعي، وهيأ له ايضاً ذلك الاندفاع في العمل الذي شمل العمال والفلاحين والذي تجلى في **المباراة الاشتراكية.**

وقد اقر المجلس الوطني العام السادس عشر للحزب نداء الى جميع الشغيلة لتطوير حركة المباراة الاشتراكية.

لقد اعطت المباراة الاشتراكية نماذج رائعة للعمل وللموقف الجديد من العمل. فان العمال والكولخوزيين في كثير من المؤسسات الصناعية وفي الكولخوزات والسوفخوزات وضعوا **برامج مقابلة.** فابدوا امثلة من العمل البطولي، ولم يكتفوا بانجاز برامج البناء الاشتراكي التي اقرها الحزب والحكومة

بل تجاوزوها. لقد اخذت نظرة الناس الى العمل تتغير . فان العمل الذي كان في ظل الرأسمالية سخرة شاقة ومذلة ، اخذ يتحول الى «قضية شرف، قضية مجد، قضية بسالة وبطولة» (ستالين).

كان يجري في طول البلاد وعرضها بناء صناعي جبار . فالعمل لانشاء محطة توليد الكهرباء على الدنيبر قائم على قدم وساق. وفي الدونباس بدأ بناء معامل كراماتورسك وغورلوفكا . وفي لوغانسك بوشر باعادة بنـاء معمل القاطرات، واخذت تبرز مناجم جديدة وأفران عالية جديـدة. وفي الاورال كان يبنى معمل للانشاءات الميكانيكية و كذلك مجموعة المعامل الكيماوية في بريزنيـكي وسوليكامسك. وشرع في بناء معمل ماغنيتوغورسك للتعدين. واتسع العمـل في بناء معامـل السيارات الكبرى في موسكو وغوركي. وكانت تبنى معامـل جبارة للتراكتورات والحاصـدات الدارسات ومعمل عظيم للالات الزراعية في روستوف على الدون، واتسعت قاعدة كوزباس (حوض نهر الكوزنتسك) وهي القاعدة الفحمية الثانية في الاتحاد السوفياتي. وخلال ١١ شهراً، ظهر وسط السهوب القاحلة قرب ستالينغراد، معمل عظيم للتراكتـورات . وكان العمال في ورشات المحطة الكهربائية على الدنيبر وورشات معمـل التراكتورات في ستالينغراد يضربون المقاييس العالمية في انتاجية العمل.

ان التاريخ لم يعرف بعد ، انشاءاً صناعياً على مثل هذا النطاق الواسع الجبار ، ولم يعرف مثل هذه الحماسة في البناء الجديد ، ولا مثل هذه البطولة في العمل تبديها الملايين من جماهير الطبقة العاملة .

كان ذلك من الطبقة العاملة نهوضاً واندفاعاً حقيقياً الى العمل ، يتسعدون انقطاع على اساس المباراة الاشتراكية .

ولم يتأخر الفلاحون هذه المرة عن العمال . ففي القرية ايضاً بدأ الاندفاع الى العمل بين جماهير الفلاحين العاملين على بناء الكولخوزات .

ان جماهير الفلاحين اخذوا ينعطفون انعطافاً واضحاً نحو الكولخوزات . ولعبت هنا السوفخوزات ومحطات الآلات والتراكتورات ، المجهزة احسن

تجهيز ، دوراً كبيراً . وكان الفلاحون يأتون جماعات جماعات الى السوفخوزات والى محطات الآلات والتراكتورات ، ويراقبون باهتمام عمل التراكتورات والالات الزراعية ، ويبدون حماستهم ويقررون حالا ، وهم واقفون هناك ، « الذهاب الى الكولخوز » . ان الفلاحين الذين كانوا مبعثرين في اقتصاديات فردية صغيرة واصغر من صغيرة ، ومحرومين من اتفه الادوات الاساسية ومن كل قوة للجر مهما تكن بسيطة ، ومحرومين من امكان احياء الاراضي العذراء الواسعة وحراثتها ، ومحرومين من كل امل في تحسين اقتصادهم ، ومتروكين لانفسهم تسحقهم وطأة الحاجة والعزلة ، وجدوا اخيراً المخرج والطريق نحو حياة جديدة ، وجدوه في جمع الاقتصاديات الصغيرة وتوحيدها في جمعيات ، في كولخوزات ، وجدوه في التراكتورات القادرة على حراثة اية « ارض صلدة » ، واية ارض جرداء ، وجدوه في مساعدة الدولة لهم بالآلات والمال والرجال والارشادات ، وجدوه في امكان التحرر من نير الكولاك الذين تغلبت عليهم الحكومة السوفياتية منذ فترة وجيزة واحنت رقابهم الى الارض بين مظاهر الفرح والاستبشار التي غمرت الملايين من جماهير الفلاحين .

على هذا الاساس ، بدأت ثم اتسعت فيما بعد ، الحركة الكولخوزية الجماهيرية التي اشتدت بوجه خاص في اواخر عام ١٩٢٩ ، وسجلت سرعة لا مثيل لها في تزايد الكولخوزات ، سرعة لم تعرفها حتى صناعتنا الاشتراكية .

وفي عام ١٩٢٨ ، بلغت مساحة الاراضي المزروعة في الكولخوزات مليوناً و ٣٩٠ الف هكتار ، وفي عام ١٩٢٩ بلغت اربعة ملايين و ٢٦٢ الف هكتار ، اما في عام ١٩٣٠ ، فقد اصبح في امكان الكولخوزات ان تضع برنامجاً بزراعة ١٥ مليون هكتار .

وقد تكلم الرفيق ستالين عن سرعة تزايد الكولخوزات في مقاله « عام الانعطاف الكبير » (عام ١٩٢٩) ، فقال :

« ينبغي الاعتراف بان مثل هذه السرعة العاصفة في التطور غير معروفة حتى في صناعتنا الاشتراكية الضخمة التي تتميز سرعة تطورها ،مع ذلك ، بانها ، عموماً ، واسعة النطاق عظيمة المدى » .

هكذا كان الانعطاف في تطور الحركة الكولخوزية .

هكذا كانت بداية الحركة الكولخوزية الجماهيرية .

قال الرفيق ستالين في مقاله : « عام الانعطاف الكبير » متسائلًا : « ما هو **الجديد** في الحركة الكولخوزية الحالية » ؟ ثم اجاب : « ان الجديد والحاسم في الحركة الكولخوزية الحالية هو ان الفلاحين لا يذهبون الى الكولخوزات جماعات منعزلة ، كما جرى قبلا ، بل يذهبون اليها قرى كاملة ، ونواحي كاملة ، ومناطق كاملة بل واقاليم كاملة . فما معنى ذلك ؟ معناه **ان الفلاح المتوسط اخذ طريقه الى الكولخوزات** . ذلك هو اساس الانعطاف الجذري الذي تم في تطور الزراعة ، والذي يؤلف واحداً من اهم منجزات الحكم السوفياتي ... »

وكان معنى ذلك ان مهمة تصفية الكولاك من حيث هم طبقة ، على اساس تعميم الشكل التعاوني الجماعي في الزراعة تعميماً تاماً كاملا ، قد شارفت النضج او نضجت تماماً .

الخلاصة

خلال النضال في سبيل التصنيع الاشتراكي للبلاد، تغلب الحزب، بين ١٩٢٦ و١٩٢٩، على صعوبات جسيمة، داخلية ودولية. وقد ادت جهود الحزب والطبقة العاملة الى انتصار سياسة التصنيع الاشتراكي.

وحلت من حيث الاساس مهمة من اصعب المهمات في التصنيع وهي مهمة تكديس الوسائل والموارد لبناء الصناعة الثقيلة. وقد تم وضع الاسس لصناعة ثقيلة قادرة على تجهيز الاقتصاد الوطني باسره تجهيزاً جديداً.

وتم اقرار برنامج السنوات الخمس الاول للبناء الاشتراكي. وبوشر بعمل ضخم لتطوير بناء معامل وسوفخوزات وكولخوزات جديدة على نطاق واسع.

وكان هذا التقدم الى الامام في طريق الاشتراكية، يرافقه احتدام النضال الطبقي في داخل البلاد واشتداد النضال الداخلي في الحزب. وكانت اهم نتيجة لهذا النضال: سحق مقاومة الكولاك وفضح الكتلة الاستسلامية التروتسكية الزينوفييفية من حيث هي كتلة معادية للسوفيات، وفضح الاستسلاميين اليمينيين من حيث هم وكلاء للكولاك، وطرد التروتسكيين من الحزب والاعتراف بان آراء التروتسكيين والانتهازيين اليمينيين لاتتفق والانتماء الى الحزب الشيوعي (البلشفي) في الاتحاد السوفياتي.

ان التروتسكيين، بعدما دحرهم الحزب البلشفي فكرياً، وبعدما فقدوا كل

قاعدة وسند في الطبقة العاملة ، انقطعوا عن كونهم تياراً سياسياً وتحولوا الى زمرة لا مبدأ لها، زمرة وصولية من المحتالين السياسيين وعصابة من السياسيين المنافقين ذوي الوجهين.

وبعدما وضع الحزب اسس الصناعة الثقيلة ، اخذ يعبىء الطبقـة العاملة والفلاحين لانجاز برنامج السنوات الخمس الاول لتنظيم الاتحاد السوفيـاتي تنظيماً اشتراكياً جديداً. وانتشرت في طول البلاد وعرضها المباراة الاشتراكية بين ملايين الشغيلة ، ونشأ اندفاع عظيم نحو العمل ، واخذ يتكوّن موقف جديد من العمل ونظام جديد للعمل .

وتنتهي هذه المرحلة بعام الانعطاف الكبير الذي سجل نجاحات كبرى للاشتراكية في الصناعة والنجاحات الجدية الاولى في الزراعة، كما سجل انعطاف الفلاح المتوسط نحو الكولخوزات وبداية الحركة الكولخوزية الجماهيرية.

الفصل الحادي عشر

الحزب البلشفي في النضال لتعميم الاقتصاد التعاوني في الزراعة

(١٩٣٠ — ١٩٣٤)

١ — الوضع الدولي في ١٩٣٠ — ١٩٣٤ — الازمة الاقتصادية في البلدان الرأسمالية — استيلاء اليابان على منشوريا — وصول الفاشست الى الحكم في المانيا — بؤرتان للحرب .

فيما كان الاتحاد السوفياتي يحقق نجاحات هامة في التصنيع الاشتراكي للبلاد، ويطور صناعته بسرعة متزايده، نشبت في بلدان الرأسمالية ، في اواخر عام ١٩٢٩ ، وتفاقمت خلال السنوات الثلاث التالية، ازمة اقتصادية عالمية لم يسبق لها مثيل من حيث قوتها التهديمية . وتشابكت الازمة في الصناعة بأزمة في الزراعة فازدادت اوضاع البلدان الرأسمالية سوءاً على سوء.

وفيما كانت الصناعة في الاتحاد السوفياتي قد نمت ، خلال سنوات الازمة الثلاث (١٩٣٠ — ١٩٣٣)، الى الضعفين فبلغت عام ١٩٣٣، ما يوازي ٢٠١ في المئة، بالنسبة لمستوى ١٩٢٩ ، كانت صناعة الولايات المتحدة الاميركية

تهبط، في اواخر عام ١٩٣٣، الى ٦٠ في المئة بالنسبة لمستوى عام ١٩٢٩، وصناعة انكلترا الى ٨٦ في المئة، وصناعة المانيا الى ٦٦ في المئة، وصناعة فرنسا الى ٧٧ في المئة.

وهكذا تبين مرة اخرى تفوق النظام الاشتراكي في الاقتصاد على النظام الرأسمالي. هكذا ثبت ان بلاد الاشتراكية هي البلاد الوحيدة في العالم المتحررة من الازمات الاقتصادية.

وبنتيجة الازمة الاقتصادية العالمية، اصبح ٢٤ مليون عاطل عن العمل، فريسة للجوع والبؤس والعذاب. واصابت ويلات الازمة الزراعية عشرات الملايين من الفلاحين.

وادت الازمة الاقتصادية العالمية الى احتدام التناقضات ايضاً وايضاً بين الدول الاستعمارية نفسها وبين البلدان الغالبة والبلدان المغلوبة، وبين الدول الاستعمارية والبلدان المستعمَرة والتابعة، وبين العمال والرأسماليين، وبين الفلاحين وكبار ملاكي الاراضي.

وقد بين الرفيق ستالين في تقرير اللجنة المركزية في المؤتمر السادس عشر للحزب، ان البورجوازية ستبحث عن مخرج من الازمة الاقتصادية عن طريقين، من جهة عن طريق اضطهاد الطبقة العاملة باقامة الديكتاتورية الفاشستية، اي ديكتاتورية اشد عناصر الرأسمالية اغراقاً في الرجعية والشوفينية واشدها امعاناً في الروح الاستعمارية، ومن جهة اخرى عن طريق شن الحرب في سبيل توزيع المستعمرات ومناطق النفوذ توزيعاً جديداً على حساب مصالح البلدان الضعيفة الدفاع.

وهو ما وقع فعلا.

ففي عام ١٩٣٢، اشتد خطر الحرب من جانب اليابان. فقد رأى الاستعماريون اليابانيون ان دول اوروبا والولايات المتحدة الاميركية منهمكة انهما كا تاماً في شؤونها الداخلية بسبب الازمة الاقتصادية، فقرروا الاستفادة من الفرصة لمحاولة الضغط على الصين الضعيفة الدفاع لكي يخضعوها لهم ويصبحوا سادة الوضع فيها. وقد بادر الاستعماريون اليابانيون كذباً ونفاقاً الى استغلال

بعض «الحوادث المحلية» التي اثاروها هم انفسهم ، فانزلوا قواتهم في منشوريا خلسة كاللصوص وبدون اعلان الحرب على الصين. وقد استولت القوات اليابانية على منشوريا بتمامها وهيأت لنفسها مواقع ملائمة للاستيلاء على شمالي الصين ولشن عدوان على الاتحاد السوفياتي. ولكي تطلق اليابان يديها تماماً، انسحبت من عصبة الامم واخذت تتسلح بقوة.

واهابت هذه الحالة بالولايات المتحدة الاميركية وانكلترا وفرنسا الى تقوية تسلحها الحربي والبحري في الشرق الاقصى. لقد كان هدف اليابان واضحاً وهو اخضاع الصين لسلطانها واخراج الدول الاستعمارية الاوروبية والاميركية منها. فاجاب هؤلاء على ذلك بتقوية تسلحهم.

غير ان اليابان كانت ترمي الى هدف آخر ايضاً هو الاستيلاء على الشرق الاقصى السوفياتي. ومن المفهوم ان الاتحاد السوفياتي لم يكن يستطيع تجاهل مثل هذا الخطر، فاخذ في توطيد القدرة الدفاعية عن اراضي الشرق الاقصى السوفياتي.

وهكذا، بفضل الاستعماريين اليابانيين الذين كانوا يتحولون الى الفاشستية، تكونت في الشرق الاقصى اول بؤرة للحرب.

ان الازمة الاقتصادية لم تؤد الى احتدام تناقضات الرأسمالية في الشرق الاقصى فقط، بل ادت الى احتدامها في اوروبا ايضاً. فان الازمة التي استطالت في الصناعة وفي الزراعة، والبطالة التي اتسعت وتعاظمت جداً، واوضاع الحرمان التي تفاقمت في الطبقات غير المالكة، كل ذلك زاد في استياء العمال والفلاحين واخذ هذا الاستياء يتحول الى نقمة ثورية في الطبقة العاملة. واشتدت النقمة خصوصاً في المانيا، البلد الذي نهكته من الناحية الاقتصادية الحرب، والغرامات المدفوعة الى الغالبين الانكليز والفرنسيين، والازمة الاقتصادية؛ البلد الذي كانت فيه الطبقة العاملة تئن تحت نير بورجوازيتها والبورجوازية الاجنبية، الانكليزية الفرنسية. وهو ما شهدت به الملايين الستة من الاصوات التي نالها الحزب الشيوعي الالماني خلال انتخابات الريشستاغ التي جرت

وصول الفاشست الى الحكم ». لقد رأت البورجوازية الالمانيه ان الحريات الديموقراطية البورجوازية الباقية في المانيا يمكن ان تنقلب عليها وان تلعب معها لعبة خطرة ، وان الطبقة العاملة يمكن ان تستفيد من هذه الحريات لتطوير الحركة الثورية وتوسيعها ، ولذلك قررت بان ليس هناك ، لصون حكم البورجوازية في المانيا ، سوى وسيلة واحدة هي محو الحريات البورجوازية وجعل البرلمان (الريخستاغ) صفراً على الشمال واقامة ديكتاتورية ارهابية بورجوازية قومية ، ديكتاتورية قادرة على سحق الطبقة العاملة وعلى ايجاد سند وقاعدة لنفسها بين جماهير البورجوازية الصغيرة المشربة بروح الثأر والانتقام . فاستدعت البورجوازية الالمانية الى الحكم الحزب الفاشستي الذي سمى نفسه ، لخدع الشعب ، حزب القوميين **الاشتراكيين** : اذ كانت تعلم جيداً ان الحزب الفاشستي هو اولا ، ذلك القسم من البورجوازية الاستعمارية الذي يتميز بأشد انواع الرجعية وباشد انواع العداء للطبقة العاملة ، وهو ثانياً ، الحزب الذي يتميز بأفظع روح ثأرية انتقامية ، ففي استطاعته ان يجر وراءه الملايين من جماهير البورجوازية الصغيرة المغرقة في القومية . وقد حظيت البورجوازية في ذلك بمعونة خونة الطبقة العاملة ، زعماء الاشتراكية الديموقراطية الالمانية الذين عبّدوا الطريق للفاشستية بسياستهم التفاهمية .

تلك هي الظروف التي احاطت بوصول الفاشست الالمان الى الحكم في عام ١٩٣٣ .

وقد حلل الرفيق ستالين حوادث المانيا في تقرير اللجنة المركزية امام المؤتمر السابع عشر للحزب ، فقال :

« لا ينبغي ان ننظر الى انتصار الفاشستية في المانيا فقط من حيث هو دليل على ضعف الطبقة العاملة ، ومن حيث هو نتيجة للخيانات التي ارتكبتها ضد الطبقة العاملة ، الاشتراكية الديموقراطية التي عبّدت الطريق للفاشستية . بل ينبغي النظر اليه ايضاً من حيث هو دليل على ضعف البورجوازية ، من حيث

هو دليل على ان البورجوازية لم تعد قادرة على الحكم بالاساليب القديمة ، اساليب البرلمانية والديموقراطية البورجوازية ، فتجد نفسها مضطرة الى اللجوء ، في السياسة الداخلية ، الى اساليب الحكم الارهابية . »(ستالين : مسائل اللينينية).

لقد دشن الفاشست الالمان سياستهم الداخليــة بحرق الريخستاغ ، واضطهاد الطبقة العاملة اضطهاداً وحشياً ، وتحطيم منظمات العــمال ، ومحو الحريات الديموقراطية البورجوازية ، ودشنوا سياستهم الخارجية بالخروج من عصبة الامم والتهيئة السافرة للحرب في سبيل تعديل حدود الدول الاوروبية **بالقوة** في صالح المانيا .

وهكـذا بفضل الفاشست الالمان ، تكوّنت ، في قلب اوروبا ، بؤرة ثانية للحرب .

ومن المفهوم ان الاتحاد السوفياتي لم يكن ليستطيع ان يتجاهل واقعاً خطيراً كهذا . فأخذ يراقب مجرى الحوادث في الغرب بيقظة ، عاملا عــلى تقوية قدرة البلاد الدفاعية على حدودها الغربية .

٢ ــ من سياسة التضييق على العناصر الكولاكية ، الى سياسة تصفية الكولاك من حيث هم طبقة ــ النضال ضد تشويه سياسة الحزب في الحركة الكولخوزية ــ الهجوم على العناصر الرأسماليـة على طول خط الجبهة ــ المؤتمر السادس عشر للحزب .

كان انضمام الفلاحين بصورة جماهيرية الى الكولخوزات عام ١٩٢٩ــ ١٩٣٠ ، نتيجة لكل النشاط السابق الذي قام به الحزب والحكومة . فان نمو الصناعة الاشتراكية التي شرعت في صنع التراكتورات والآلات للزراعة على مقياس واسع ، والنضال الحاسم ضد الكولاك خلال حملات تخزين القمح في عام ١٩٢٨ وعام ١٩٢٩ ، وتقدم التعاون الزراعي الذي عود الفلاح تدريجياً على الاقتصاد الجماعي ، والتجربة الطيبة لاولى الكولخوزات

والسوفخوزات — كل ذلك هيأ للانتقال الى تعميم الشكل التعاوني الجماعي تعميماً كاملا ، هيأ لانضمام الفلاحين الى الكولخوزات بقرى عن بكرتها ، وفي مناطق واقاليم باسرها .

ان الانتقال الى تعميم الاقتصاد الجماعي التعاوني تعميماً كاملا ، لم يكن يجري بشكل بسيط سلمي اي بأن تنضم جماهير الفلاحين الاساسية الى الكولخوزات ببساطة وبصورة سلمية ، بل كان يجري خلال نضال جماهيري يقوم به الفلاحون ضد الكولاك . فقد كان التعميم الكامل للاقتصاد الجماعي التعاوني يعني انتقال جميع اراضي القرية الى الكولخوز ، غير ان قسماً هاماً من هذه الاراضي كان في ايدي الكولاك ، لذلك كان الفلاحون يطردون الكولاك من الارض ، وينتزعون منهم ملكيتهم ، ويأخذون الماشية والآلات ويطلبون من الحكم السوفياتي اعتقال الكولاك وإجلاءهم .

هكذا كان تعميم الاقتصاد الجماعي تعميماً كاملا يعني تصفية الكولاك .

تلك كانت سياسة تصفية الكولاك من حيث هم طبقة على اساس التعميم الكامل للاقتصاد الجماعي .

وفي ذلك العهد ، كان قد تألف في الاتحاد السوفياتي الاساس المادي الكافي للانتهاء من الكولاك ، وتحطيم مقاومتهم وتصفيتهم من حيث هم طبقة والاستعاضة عن انتاجهم بانتاج الكولخوزات والسوفخوزات .

في عام ١٩٢٧ كان الكولاك لا يزالون ينتجون اكثر من ٦٠٠ مليون بود من القمح (البود الواحد = ١٦،٣٨ كيلو غرام) ، منها ١٣٠ مليون بود من القمح التجاري . في حين ان الكولخوزات والسوفخوزات لم تكن تعطي في عام ١٩٢٧ سوى ٣٥ مليون بود من القمح التجاري . اما في عام ١٩٢٩ ، فبفضل اتجاه الحزب البلشفي اتجاهاً حازماً نحو تطوير السوفخوزات والكولخوزات ، وبفضل نجاحات الصناعة الاشتراكية التي كانت تزود القرية بالتراكتورات والالات الزراعية ، تطورت الكولخوزات والسوفخوزات واصبحت قوة ذات شأن . ففي هذا العام لم يكن انتاج الكولخوزات

والسوفخوزات يقل عن ٤٠٠ مليون بود من القمح، منها ١٣٠ مليون بود من القمح التجاري اي اكثر مما اعطى الكولاك في عام ١٩٢٧ . اما في عام ١٩٣٠ فكان على الكولخوزات والسوفخوزات ان تعطي ، وقد اعطت فعلا، اكثر من ٤٠٠ مليون بود من القمح التجاري ، اي اكثر بكثير مما اعطى الكولاك عام ١٩٢٧ .

وهكذا فان الترتيب الجديد للقوى الطبقية في اقتصاد البلاد ووجود الاساس المادي اللازم للاستعاضة عن الانتاج الكولاكي للقمح بانتاج الكولخوزات والسوفخوزات ، اعطيا الحزب البلشفي امكان الانتقال من سياسة **التضييق** على الكولاك ، الى سياسة جديدة ، سياسة **تصفية الكولاك من حيث هم طبقة** ، على اساس تعميم الاقتصاد الجماعي تعميماً كاملا .

لقد طبق الحكم السوفياتي حتى عام ١٩٢٩ ، سياسة التضييق على الكولاك. ففرض على الكولاكي ضريبة مرتفعة ، وطلب منه بيع القمح الى الدولة باسعار ثابتة ، وحدد مساحة الارض التي يتصرف بها الكولاكي في نطاق معين بوضع قانون عن كيفية استئجار الاراضي، وفرض حدوداً للاقتصاد الكولاكي بوضع قانون عن كيفية استخدام اليد العاملة بالاجرة في الاقتصاد الفلاحي الفردي . غير ان الحكم السوفياتي لم يكن يطبق بعد ، سياسة تصفية الكولاك . فان القوانين عن استئجار الاراضي وعن استخدام اليد العاملة كانت تسمح بوجود الكولاك ، كما انه حظر انتزاع ملكيتهم ، وهو ما كان ساري المفعول اذ ذاك ، كان يعطيهم بعض الضمانات في هذا الصدد . وقد ادت هذه السياسة الى عرقلة تطور الكولاك واعاقة نموهم ، والى ازاحة وخراب بعض فئاتهم التي لم تستطع الصمود لتدابير التضييق هذه . غير ان هذه السياسة لم تكن تزيل الاسس الاقتصادية للكولاك من حيث هم طبقة ، لم تكن تؤدي الى تصفية الكولاك . لقد كانت هذه السياسة سياسة تضييق على الكولاك ، لا سياسة تصفية الكولاك . وكانت ضرورية خلال مدة معينة ما دامت الكولخوزات والسوفخوزات ضعيفة بعدُ ، وغير قادرة على الاستعاضة عن الانتاج الكولاكي للقمح بانتاجها هي نفسها .

وفي عام ١٩٢٩ ، نظراً لنمو الكولخوزات والسوفخوزات ، تحول الحكم السوفياتي عن مثل هذه السياسة واجرى انعطافاً قوياً ، وانتقل الى سياسة تصفية الكولاك ، الى سياسة محو الكولاك من حيث هم طبقة ، فالغى قانون استئجار الارض وقانون استخدام اليد العاملة ، وبذلك حرم الكولاك من الارض ومن الشغيلة العاملين بالاجرة ، كذلك الغى الحظر عن انتزاع ملكية الكولاك وسمح للفلاحين بمصادرة ما لدى الكولاك من ماشية وآلات وغيرها من ادوات لمصلحة الكولخوزات . وهكذا صودرت املاك الكولاك مثلما صودرت ، عام ١٩١٨ ، املاك الرأسماليين في ميدان الصناعة ، مع هذا الفرق وهو ان وسائل الانتاج التي كانت لدى الكولاك لم تنتقل هذه المرة الى ايدي الدولة بل الى ايدي الفلاحين المتحدين المتشاركين ، اي الى الكولخوزات .

كان ذلك انقلاباً ثورياً من اعمق الانقلابات ، كان قفزة من حالة المجتمع الكيفية السابقة الى حالة كيفية جديدة ، بما يوازي ، من حيث عواقبه ، الانقلاب الثوري في اوكتوبر عام ١٩١٧ .

والصفة الفريدة التي تميزت بها هذه الثورة ، هي انها جرت **من فوق** ، بمبادرة من سلطة الدولة ، مع تأييد مباشر **من تحت** ، من ملايين الفلاحين المناضلين ضد نير الكولاك في سبيل الحياة الكولخوزية الحرة .

وقد حسمت هذه الثورة ، بضربة واحدة ، ثلاث قضايا اساسية في بناء الاشتراكية ، فهي :

أ) قضت نهائياً على اكبر طبقة مستثمِرة في بلادنا من حيث العدد ، طبقة الكولاك ، التي كانت حصناً لبعث الرأسمالية ورجوعها .

ب) ادت الى انتقال اكبر طبقات الكادحين عدداً في بلادنا ، طبقة الفلاحين ، من طريق الاقتصاد الفردي الذي يولد الرأسمالية ، الى طريق الاقتصاد الجماعي ، الكولخوزي ، الاشتراكي .

ج) اعطت الحكم السوفياتي اساساً اشتراكياً في اوسع ميدان من

ميادين الاقتصاد الوطني ، واشدها لزوماً للحياة ، واكثرها مع ذلك تأخراً: اي في الزراعة .

وبذلك تم القضاء في داخل البلاد على المصادر الاخيرة لرجوع الرأسمالية، وفي الوقت نفسه أنشئت الظروف الجديدة ، الظروف الحاسمة ، التي لا بد منها لبناء الاقتصاد الوطني ، الاشتراكي .

وقد شرح الرفيق ستالين في عام ١٩٢٩ مقومات سياسة تصفية الكولاك من حيث هم طبقة ، واشار الى حركة الفلاحين الجماهيرية الرامية الى تحويل الزراعة بكاملها الى زراعة تعاونية ، فكتب ما يلي :

« ها نحن نشهد كيف ينهار ويتحول الى غبار ، « المبدأ المقدس ، مبدأ الملكية الخاصة » ، الذي كان آخر امل للرأسماليين في جميع البلدان ، الحالمين باعادة الرأسمالية الى الاتحاد السوفياتي . فالفلاحون الذين يعتبرهم هؤلاء الرأسماليون سماداً يهيء تربة خصبة للرأسمالية ، يتخلون بجماهيرهم عن علم « الملكية الخاصة » الذي طالما كان موضع المديح والتمجيد ، وينتقلون الى طريق التعاون ، طريق الاشتراكية ... ان الامل الاخير بعودة الرأسمالية ، يتداعي وينهار ! » (ستالين : « عام الانعطاف الكبير » ، راجع مسائل اللينينية) .

ان سياسة تصفية الكولاك من حيث هم طبقة ، قد تم تثبيتها في القرار التاريخي الذي اتخذته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحادالسوفياتي ، في ٥ كانون الثاني ١٩٣٠ ، « حول درجات السرعة في تعميم الاقتصادالجماعي التعاوني ، وتدابير الدولة للمساعدة على تشييد الكولخوزات » . وهذا القرار يأخذ بعين الاعتبار بشكل تام ، تباين الظروف في مختلف مناطق الاتحاد السوفياتي ، والتفاوت في درجة الاستعداد للاقتصاد التعاوني في شتى بقاع الاتحاد السوفياتي .

وقد وضعت درجات مختلفة فيما يتعلق بالسرعة في تنفيذ التعاون. فقسمت

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي ، مناطق الاتحاد السوفياتي الى ثلاث مجموعات ، من حيث السرعة الواجب اتباعها في تنفيذ التعاون .

كانت المجموعة الاولى تشمل اهم المناطق المنتجة للحبوب ، وهي احسن المناطق استعداداً للتعاون ، وفيها عدد اكبر من التراكتورات ومن السوفخوزات ، ولديها تجربة اوفى في النضال ضد الكولاك ايام حملات تخزين القمح السابقة . وهذه المناطق هي : القفقاس الشمالي (الكوبان والدون والتيريك)والفولغا الوسطى ، والفولغا السفلى . وقد اقترحت اللجنة المركزية، بشأن هذه المجموعة من المناطق المنتجة للحبوب ، ان يتم تنفيذ التعاون فيها، بخطوطه الكبرى الاساسية ، في ربيع سنة ١٩٣١ .

اما المجموعة الثانية من المناطق المنتجة للحبوب ، وتضم اوكرانيا ،ومنطقة الاراضي السوداء الوسطى ، وسيبيريا ، والاورال ، وقازاكستان ،والمناطق الاخرى المنتجة للحبوب ، فكانت تستطيع انجاز التعاون ، بخطوطه الكبرى الرئيسية ، في ربيع ١٩٣٢ .

اما المناطق والاراضي والجمهوريات الاخرى (منطقة موسكو ، وعبر القفقاس ، وجمهوريات آسيا الوسطى ، وغيرها) فكان في وسعها تمديد فترات تنفيذ التعاون حتى نهاية برنامج السنوات الخمس ، اي حتى العام ١٩٣٣ .

ورأت لجنة الحزب المركزية من الضروري ، ازاء تصاعد سرعة الحركة التعاونية ، ان تزيد ايضاً وايضاً في سرعة بناء المعامل المنتجة للتراكتورات والآلات الحاصدة الدارسة ، وسائر الآلات التي تجرها التراكتورات ... الخ ... وفي الوقت نفسه، طلبت اللجنة المركزية الرد بشكل حاسم على الميول الرامية الى استصغار دور الخيل في الجر خلال هذه المرحلة من الحركة الكولخوزية ، هذه الميول المؤدية الى بيع الخيول والمتاجرة بها ».

وضوعفت الاعتمادات المخصصة للكولخوزات في موسم ١٩٢٩ — ١٩٣٠ (فبلغت ٥٠٠ مليون روبل) .

وقُدم اقتراح بان تجري اعمال تحديد وتحرير الاراضي في الكولخوزات على

نفقة الدولة .

وكان القرار يحتوي على توجيه هام جداً ، مفاده ان **الشكل الرئيسي** للحركة الكولخوزية في هذه المرحلة ، هو « الآرتل » الزراعي ، حيث تصبح وسائل الانتاج **الرئيسية** فقط ، دون غيرها ، مشتركة ، جماعية .

وحذّرت اللجنة المركزية منظمات الحزب بشكل صارم وجدي جداً « من الميل باي شكل كان الى اجراء الحركة الكولخوزية من فوق ، « عن طريق المراسيم » ، اذ يمكن ان ينشأ عن ذلك خطر داهم ، هو ان يصبح تعميم التعاون لعبة ، عوضاً عن تحقيق مباراة اشتراكية حقيقية في تنظيم الكولخوزات . » (الحزب الشيوعي البلشفي في قراراته ، الجزء الثاني ، ص ٦٦٢ ، الطبعة الروسية) .

ان قرار اللجنة المركزية هذا ، اسبغ الوضوح التام على تطبيق سياسة الحزب الجديدة في الارياف .

وعلى اساس سياسة تصفية الكولاك والتعميم الكامل للاقتصاد الجماعي التعاوني ، تطورت ونمت حركة كولخوزية قوية . فكان الفلاحون يدخلون الى الكولخوزات بصورة واسعة تشمل قرى ومناطق باسرها ، وهم يكنسون الكولاك من طريقهم ، ويتحررون من نيرهم .

ولكن الى جانب النجاحات العظيمة التي احرزتها الحركة التعاونية ، لم تلبث ان ظهرت نواقص وثغرات في النشاط العملي للمناضلين الحزبيين ، وتشويهات لسياسة الحزب في انشاء الكولخوزات . فرغم تحذير اللجنة المركزية ، ضد المبالغة في التهوس امام انتصارات الحركة التعاونية ، اخذ كثير من المناضلين الحزبيين يمعنون في تعميم التعاون بصورة مصطنعة ، دون ان يراعوا ظروف المكان والزمان ، ولا درجة استعداد الفلاحين للانتماء لى الكولخوزات .

وتبين ان مبدأ **حرية الاختيار** في انشاء الكولخوزات ، قد خُرق وانتُهك. ففي عدد من المناطق استعيض عن مبدأ حرية الاختيار ، باسلوب **اجبار**

الفلاحين على الانتماء الى الكولخوزات ، عن طريق تهديدهم « بمصادرة املاكهم » كما لو كانوا من الكولاك ، وبحرمانهم من حقوقهم الانتخابية .. الخ ...

وفي عدد من المناطق ، عوضاً عن العمل التحضيري الضروري ، وعوضاً عن شرح اسس سياسة الحزب في ميدان تعميم التعاون ، كان يستعاض عن ذلك كله بتضخيم النسبة المئوية لما تحقق من تعميم التعاون تضخيماً مصطنعاً ، وباصدار مراسيم من فوق ، بشكل بيروقراطي ، تحوي احصاءات منفوخة نفخاً عن الكولخوزات المزعوم تنظيمها .

ورغم تعليمات اللجنة المركزية بان الحلقة الاساسية في الحركة الكولخوزية هي الآرتل الزراعي حيث تصبح وسائل الانتاج الاساسية فقط مشتركة ، جماعية ، ففي عدد من الامكنة ، قفزوا بشكل طائش ، من فوق الآرتيل ، الى المشاعة (الكومونة) رأساً ، وجعلوا كل شيء مشتركاً ، جماعياً ، حتى مباني السكن ، والماشية الحلوب او الصغيرة غير المعدة للسوق ، والدواجن البيتية ... الخ ...

وكان قادة بعض المناطق الذين تهوسوا للانتصارات الاولى في تعميم الاقتصاد الجماعي التعاوني ، يخالفون تعليمات اللجنة المركزية الصريحة فيما يتعلق بدرجات السرعة في تعميم الاقتصاد التعاوني ، وبالمهل الممنوحة لتحقيقه . فان منطقة موسكو في ركضها وراء الاحصاءات المضخمة ، اخذت تدفع مناضليها الى انجاز تعميم التعاون في ربيع سنة ١٩٣٠ ، رغم انه كان لديها مهلة ثلاث سنوات على الاقل (حتى نهاية ١٩٣٢) . وقد ارتكبت مخالفات اشد خطورة ايضاً في مناطق عبر القفقاس وآسيا الوسطى .

وقد استغل الكولاك واتباعهم هذه المبالغات لاغراض استفزازية ، فكانوا يقترحون تنظيم المشاعات بدلا من الآرتلات الزراعية ، والشروع فوراً في جعل المساكن والماشية الصغيرة والدواجن ، مشتركة ، جماعية . وكان الكولاك في الوقت نفسه يحرضون الفلاحين على ذبح مواشيهم قبل الدخول الى الكولخوز ، ويقنعونهم بان ماشيتهم « ستؤخذ منهم على كل حال »

عند انتمائهم للكولخوزات . لقد كان العدو الطبقي يأمل ان تؤدي المبالغات والاخطاء التي ترتكبها المنظمات المحلية خلال تعميم الاقتصاد التعاوني ، الى اغضاب جماهير الفلاحين والى اثارة حركات عصيان ضد الحكم السوفياتي .

ان الاخطاء التي ارتكبتها المنظمات الحزبية ، والاعمال الاستفزازية المباشرة التي قام بها العدو الطبقي ، كانت لها نتائجها . ففي النصف الثاني من شهر شباط ١٩٣٠ ، وفيما كانت حركة تعميم التعاون تسجل نجاحات عامة اكيدة ، ظهرت في عدد من المناطق علائم خطرة تدل على وجود استياء جدي بين جماهير الفلاحين . حتى لقد نجح الكولاك وعملاؤهم ، هنا وهنا ، في اثارة الفلاحين الى القيام باعمال مباشرة ضد الحكم السوفياتي .

وعندما تلقت اللجنة المركزية عدداً من العلائم المقلقة عن تشويه خطة الحزب تشويهاً يهدد حركة تعميم التعاون بخطر داهم ، عمدت فوراً الى معالجة الحالة ، واخذت توجه ملاكات الحزب الى طريق العمل السريع لاصلاح الاخطاء المرتكبة . وفي ٢ اذار ١٩٣٠ ، صدر ، بقرار من اللجنة المركزية ، مقال الرفيق ستالين : « نشوة النجاح » . وقد وجه هذا المقال تحذيراً الى جميع الذين اخذتهم النشوة ودارت رؤوسهم امام النجاحات في تعميم الحركة التعاونية ، فوقعوا في اخطاء فاحشة ، وانحرفوا عن خطة الحزب ، الى جميع الذين كانوا يحاولون دفع الفلاحين في طريق الكولخوزات بواسطة تدابير الضغط الاداري . وكان المقال يصر اصراراً شديداً على مبدأ حرية الاختيار في انشاء الكولخوزات ، ويؤكد ضرورة الانتباه الى تنوع الظروف في مختلف مناطق الاتحاد السوفياتي عند تعيين معدلات سرعة التعاون واساليبه . وكان الرفيق ستالين يذكر في مقاله هذا بان الحلقة الاساسية في الحركة الكولخوزية هي الآرتل الزراعي حيث تصبح جماعية « مشتركة » ، وسائل الانتاج الرئيسية فقط — وخصوصاً في زراعة الحبوب — اما قطعة الارض التابعة للبيت ، ومباني السكن ، وكذلك قسم من الماشية الحلوب ، ثم الماشية الصغيرة ، والدواجن ، ... الخ .. ، فلا يشملها ذلك ، اي لا تصبح مشتركة جماعية .

كان لمقال الرفيق ستالين شأن سياسي عظيم . فقد ساعد منظمات الحزب على اصلاح اخطائها ، وانزل ضربة قاصمة باعداء الحكم السوفياتي ، الذين كانوا يأملون ان تتيح لهم المبالغات التي وقعت ،اثارة الفلاحين على الحكم السوفياتي. واقتنعت جماهير الفلاحين الواسعة بان خطة الحزب البلشفي لا علاقة لها بالمبالغات « اليسارية » الحمقاء التي ارتكبت في بعض الاماكن . واعاد المقال السكينة والاطمئنان الى جماهير الفلاحين .

ولكي تنجز اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي اصلاح المبالغات والاخطاء ، فتكمل ما بدأه الرفيق ستالين في مقاله ، قررت توجيه ضربة اخرى لهذه الاخطاء ، فنشرت في ١٥ آذار ١٩٣٠ قرارها : « حول النضال ضد تشويه خطة الحزب في الحركة الكولخوزية » .

كان هذا القرار يحلل بالتفصيل ما وقع من اخطاء بنتيجة الانحراف عن خطة الحزب اللينينية الستالينية ، بنتيجة الاقدام على انتهاك تعليمات الحزب انتهاكا مباشراً .

وبينت اللجنة المركزية ان الوقوع في المبالغات « اليسارية » هو مساعدة مباشرة للعدو الطبقي .

ودعت اللجنة المركزية الى « **عزل** المناضلين ، الذين لا يعرفون او لا يريدون القيام بنضال حازم ضد تشويه خطة الحزب ، من مراكزهم ، **والاستعاضة** عنهم بغيرهم» (الحزب الشيوعي البلشفي في قراراته ، الجزء الثاني ، ص ٦٣٣ ، الطبعة الروسية) . وعزلت اللجنة المركزية قيادات بعض المنظمات الحزبية في المناطق والمقاطعات (منطقة موسكو ، وعبر القفقاس) التي ارتكبت اخطاء سياسية ولم تستطع اصلاحها .

وفي ٣ نيسان ١٩٣٠ ، صدر مقال الرفيق ستالين : « جواب الى الرفاق الكولخوزيين » . وكان هذا المقال يبين **منشأ** الاخطاء في مسألة الفلاحين ، كما يكشف الاخطاء الرئيسية في الحركة الكولخوزية : اتخاذ موقف خاطىء من الفلاح المتوسط ، انتهاك المبدأ اللينيني عن حرية الاختيار في انشاء

الكولخوزات ، خرق المبدأ اللينيني بضرورة الانتباه الى تنوع الظروف واختلافها في مختلف مناطق الاتحاد السوفياتي ، القفز من فوق الآرتل الى المشاعة .

وقد تمكن الحزب ، بفضل جميع هذه التدابير ، من القضاء على المبالغات التي ارتكبها المناضلون المحليون في عدد من المناطق .

كان على اللجنة المركزية ان تظهر اعلى درجات الحزم ، وان تبين قدرتها على السير **ضد التيار** ، لكي تعيد الى جادة الصواب ، في الوقت المناسب ، قسماً هاماً من ملاكات الحزب ، اسكره الظفر ، فأخذ ، من جراء ذلك ، ينحدر بسرعة الى الهاوية ، منحرفاً عن خطة الحزب .

لقد تمكن الحزب من تصفية التشويهات التي دخلت على خطة الحزب في الحركة الكولخوزية .

وعلى هذا الاساس ، وُطدت نجاحات الحركة الكولخوزية .

وعلى هذا الاساس خلقت التربة الصالحة لنهوض الحركة الكولخوزية نهوضاً جديداً قوياً .

قبل ان ينتقل الحزب الى سياسة تصفية الكولاك من حيث هم طبقة ، كان الهجوم الجدي الكبير على العناصر الرأسمالية ، الرامي الى تصفية هذه العناصر ، يجري بصورة رئيسية في المدن ، في ميدان الصناعة . اما الزراعة ، اما القرية فقد تأخرت من هذه الناحية عن الصناعة ، عن المدينة . ولذلك كان هذا الهجوم وحيد الطرف ، غير كامل وغير شامل . اما الآن ، حين اخذ تأخر القرية يسير الى الزوال ، واخذ نضال جماهير الفلاحين في سبيل تصفية الكولاك يتخذ شكلاً واضحاً جداً ، وانتقل الحزب الى سياسة تصفية الكولاك ، حينئذ اتخذ الهجوم ضد العناصر الرأسمالية طابعاً شاملاً عاماً ، وتحول من هجوم وحيد الطرف الى هجوم على مجموع الجبهة . وعندما دعي المؤتمر السادس عشر للحزب الى الانعقاد ، كان الهجوم العام على العناصر الرأسمالية يسير ويتسع على طول الخط .

في ٢٦ حزيران ١٩٣٠ ، انعقد المؤتمر السادس عشر للحزب . وقد اشترك فيه ١٢٦٨ مندوباً بأصوات فعلية ، و ٨٩١ مندوباً بأصوات استشارية . وكان المندوبون يمثلون ١٬٢٦٠٬٨٧٤ عضواً في الحزب ، و ٧١١٬٦٠٩ مرشحين .

لقد دخل المؤتمر السادس عشر في تاريخ الحزب من حيث هو « مؤتمر هجوم الاشتراكية هجوماً واسعاً على **مجموع الجبهة** ، مؤتمر تصفية الكولاك من حيث هم طبقة ، وتطبيق الاقتصاد التعاوني الجماعي بشكل كامل » (ستالين) .

وقد بيّن الرفيق ستالين ، في التقرير السياسي المقدم باسم اللجنة المركزية ، الانتصارات العظيمة التي احرزها الحزب البلشفي ، بتوسيعه الهجوم الاشتراكي .

ففي مجال التصنيع الاشتراكي ، تم الوصول الى رجحان قسط الصناعة على قسط الزراعة في مجموع انتاج الاقتصاد الوطني . فخلال السنة الاقتصادية ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ، بلغت حصة الصناعة من مجموع انتاج الاقتصاد الوطني ٥٣ في المئة على الاقل ، اما حصة الزراعة فقد بلغت تقريباً ٤٧ بالمئة .

في عهد المؤتمر الخامس عشر ، اي في ١٩٢٦ — ١٩٢٧ ، كان مجموع الانتاج في كل الصناعة قد بلغ ١٠٢٫٥ بالمئة بالنسبة لمستوى ما قبل الحرب ، اما عند انعقاد المؤتمر السادس عشر ، اي في ١٩٢٩ — ١٩٣٠ فكان مجموع انتاج الصناعة يوازي ١٨٠ بالمئة تقريباً بالنسبة لمستوى ما قبل الحرب .

وكانت الصناعة الثقيلة — اي انتاج وسائل الانتاج ، وانشاء الآلات — تتقدم دونما انقطاع .

وقد اعلن الرفيق ستالين بين تصفيق المؤتمر كله : « اننا على اعتاب التحول من بلد **زراعي** الى بلد **صناعي** » .

وقد اوضح الرفيق ستالين ان علينا مع ذلك ، ان لا نخلط بين **السرعة** العالية في تطور الصناعة وبين **مستوى** تطور الصناعة . فرغم تطور الصناعة الاشتراكية بسرعة لم يسبق لها مثيل ، **ما زلنا متأخرين جداً** عن البلدان الرأسمالية المتقدمة من حيث **مستوى** التطور الصناعي . فقد كان الوضع كذلك فيما يتعلق بانتاج القوة الكهربائية ، رغم النجاحات الهائلة في كهربة الاتحاد

السوفياتي . وكذلك كان الوضع فيما يتعلق بانتاج المعادن. وقد كان من المقرر ان يبلغ انتاج الحديد الصب في الاتحاد السوفياتي ٥,٥ مليون طن في نهاية ١٩٢٩ — ١٩٣٠ في حين ان انتاج الحديد الصب في المانيا ، في ١٩٢٩ ، بلغ ١٣,٤ مليون طن، وفي فرنسا ١٠,٤٥ مليون طن. فلكي نضع حداً لتأخرنا الصناعي — التكنيكي في وقت قصير ، كان من الضروري ان نزيد ايضاً وايضاً في سرعة تطور صناعتنا ، وان نقوم بنضال حازم لا هوادة فيه ضد الانتهازيين الذين كانوا يسعون الى تخفيض سرعة تطور الصناعة الاشتراكية . وقد قال الرفيق ستالين في هذا الصدد :

« ... ان الاشخاص الذين يثرثرون حول ضرورة **تخفيض** السرعة في تطور صناعتنا ، هم اعــداء للاشتراكية ، هم عملاء لاعدائنا الطبقيين » (ستالين — مسائل اللينينية) .

وعندما تبين ان برنامج السنة الاولى من برنامج السنوات الخمس ، قد تم انجازه وتجاوزه ، برز بين الجماهير شعار : « انجاز مشروع السنوات الخمس في اربع سنوات » . وكان تنفيذ البرنامج في بعض فروع الصناعة المتقــدمة (كالبترول والفحم والانشاءات الميكانيكية العامة والآلات الزراعية والصناعة الكهربائية التكنيكية) قد سار بنجاح كبير ، حتى اصبح من الممكن تحقيق برنامج الخمس سنوات فيها خلال سنتين ونصف السنة او ثلاث سنوات . وبذلك قام الدليل القاطع على ان شعار «تنفيذ برنامج السنوات الخمس في اربع سنوات»، هو شعار واقعي ، عملي ، وانفضحت انتهازية ذوي الشكوك فاقدي الايمان ، الذين كانوا يرتابون في امكان تحقيق هذا الشعار .

وفوض المؤتمر السادس عشر لجنة الحزب المركزية بان تؤمن في المستقبل ايضاً سرعات بلشفية كفاحية في بناء الاشتراكية ، وان تحقق بصورة فعلية **انجاز مشروع السنوات الخمس في اربع سنوات »**.

عند انعقاد المؤتمر السادس عشر ، كان الحزب قد حقق انعطافاً عظيماً في تطور الزراعة في الاتحاد السوفياتي . فجماهير الفلاحين الواسعة كانت قد تحولت

نحو الاشتراكية. وفي اول ايار ١٩٣٠ كانت الحركة التعـــاونية الجماعية في المناطق الرئيسية المنتجة للحبوب قد شملت ٤٠ الى ٥٠ بالمئة من اقتصاديات الفلاحين (عوضاً عن ٢ او ٣ بالمئة في ربيع عام ١٩٢٨) وبلغت المساحات المزروعة في الكولخوزات ٣٦ مليون هكتار.

وهكذا تم تجاوز البرنامج الذي نص عليه قرار اللجنة المركزية بتاريخ ٥ كانون الثاني ١٩٣٠ ، (وهو برنامج مرتفع كان ينص على زراعة ٣٠ مليون هكتار). اما برنامج السنوات الخمس المتعلق بانشاء الكولخوزات ، فخلال سنتين فقط ، تم تجاوزه بنسبة ١٥٠ في المئة . .

وازداد الانتاج التجاري في الكولخوزات اكثر من اربعين مرة في مدى ثلاث سنوات . وابتداء من ١٩٣٠ ، كانت الدولة تتلقى من الكولخوزات اكثر من نصف مجموع الانتاج الوطني من الحبوب التجارية ، هذا عـــدا انتاج السوفخوزات .

وكانت هذه الارقام تدل على ان مصير الزراعة لن تقرره ، بعد الان ، الاقتصاديات الفلاحية الفردية ، بل تقرره الكولخوزات والسوفخوزات .

واذا كان الحكم السوفياتي ،قبل انضمام الفلاحين جماهيرياً الى الكولخوزات ، يعتمد في الدرجة الاولى على الصناعة الاشتراكية ، فقد اخذ بعد الآن يعتمد ايضاً على القطاع الاشتراكي في الزراعة ، الذي كان ينمو بسرعة ، اي على الكولخوزات والسوفخوزات .

لقد اصبحت جماهير الفلاحين الكولخوزيين ، كما ورد في احد قرارات المؤتمر السادس عشر للحزب ، « السند الحقيقي الوطيد للحكم السوفياتي » .

٣ ـ اتجاه الحزب نحو اعادة بناء جميع فروع الاقتصاد الوطني ـ دور التكنيك ـ نهوض جديد في الحركة الكولخوزية ـ الفروع السياسية في محطات التراكتورات والالات ـ النتيجة الاجمالية لتنفيذ برنامج السنوات الخمس في اربع سنوات ـ انتصار الاشتراكية على مجموع الجبهة ـ المؤتمر السابع عشر للحزب .

بعد ما تبين ان الصناعة الثقيلة ، وخصوصاً الانشاءات الميكانيكية ، لا يقتصر الامر فيها على انها قد بُنيت و وُطدت ، بل أخذت كذلك تتطور وتنمو باستمرار وعلى وتيرة سريعة ، برزت امام الحزب مهمة عاجلة ، هي اعادة بناء جميع فروع الاقتصاد الوطني على اساس التكنيك الجديد الحديث . وكان ذلك يعني تزويد صناعة المحروقات وصناعة التعدين والصناعة الخفيفة وصناعة الاغذية وصناعة الغابات ، والصناعة الحربية ، والنقليات ، والزراعة ، بأساس تكنيكي حديث ، وبآلات جديدة لصنع الآلات ، وبادوات جديدة . وامام الاقبال الهائل على طلب المنتجات الزراعية والمواد المصنوعة ، اصبح من الضروري زيادة الانتاج في جميع فروع الاقتصاد الوطني ، الى الضعفين بل الى ثلاثة اضعاف . ولكن كان من المتعذر تحقيق ذلك دون تزويد المعامل والمصانع والكولخوزات والسوفخوزات بكميات كافية من التجهيزات الحديثة ، ذلك لان التجهيز القديم لم يكن قادراً على تحقيق مثل هذا النمو في الانتاج .

فبدون اعادة بناء الفروع الرئيسية للاقتصاد الوطني ، كان من المستحيل تلبية الحاجات الجديدة ، المتعاظمة كل يوم ، التي كانت تتطلبها البلاد ويتطلبها الاقتصاد الوطني .

وبدون اعادة البناء ، لم يكن من الممكن متابعة الهجوم الاشتراكي على

طول خط الجبهة ، الى النهاية ، اذ كان من الواجب قهر العناصر الرأسمالية في المدينة والقرية والاجهاز عليها ، لا بواسطة تنظيم العمل والملكية تنظيما جديداً فقط ، بل كذلك بواسطة تكنيك جديد ومتفوق .

وبدون اعادة البناء ، كان من المستحيل اللحاق بالبلدان الرأسمالية المتقدمة وسبقها من الناحية التكنيكية والاقتصادية ، ذلك لان الاتحاد السوفياتي ، وان كان متفوقاً على البلدان الرأسمالية من حيث سرعة نمو الصناعة فيه ، فقد كان لا يزال متأخراً تأخراً جدياً عنها من حيث مستوى التطور الصناعي ، ومن حيث كمية المنتجات المصنوعة .

فلأجل تصفية هذا التأخر ، كان من الواجب تزويد مجموع اقتصادنا الوطني بتكنيك جديد ، وكان من الواجب اعادة بناء جميع فروع الاقتصاد الوطني على اساس التكنيك الجديد ، الحديث .

وهكذا اصبح للتكنيك اهمية حاسمة .

ولم تكن العقبة التي يجب التغلب عليها ، ناشئة عن نقص الآلات الجديدة والآلات الجديدة الصانعة للالات — فصناعة الانشاءات الميكانيكية كانت تستطيع تقديم هذه التجهيزات الجديدة — بمقدار ما كانت ناشئة عن الموقف الخاطىء الذي يقفه قادة اقتصادنا من التكنيك ، موقف الازدراء للتكنيك ، واستصغار دور التكنيك في مرحلة اعادة البناء . كان المسؤولون في اقتصادنا يعتبرون ان التكنيك قضية تهم « الاختصاصيين » ، قضية من الدرجة الثانية ، موكول امرها الى «الاختصاصيين البورجوازيين» ، وان المسؤولين الشيوعيين في الاقتصاد ، ليس من واجبهم ان يتدخلوا في تكنيك الانتاج ، فليست مهمتهم ان يهتموا بالتكنيك ، بل بشؤون ذات اهمية اكبر ، وهي شؤون القيادة « العامة » للانتاج .

واذن ، كانت مهمة تسيير الانتاج متروكة «للاختصاصيين» البورجوازيين ، اما قادة الاقتصاد الشيوعيون فقد تركوا لانفسهم القيادة «العامة» ، اي التوقيع على الاوراق .

ولا حاجة للتدليل على ان القيادة « العامة » كانت ، بنتيجة هذا الموقف ، تتحول الى ثرثرة عن القيادة « بصورة عامة » ، وتقتصر على توقيع الاوراق لا غير ، وعلى الغرق في المعاملات الورقية .

ومفهوم اننا ، مع مثل هذا الموقف ، موقف الاحتقار من التكنيك ، يقفه قادة الصناعة الشيوعيون ، ما كان بوسعنا ابداً ان نسبق البلدان الرأسمالية المتقدمة ، بل ما كان بوسعنا حتى اللحاق بها وادراكها . ان مثل هذا الموقف من التكنيك ، خصوصاً في عهد اعادة البناء ، كان يقضي على بلادنا بالتأخر ، وعلى سرعات تطورنا بالهبوط . ان مثل هذا الموقف من التكنيك كان ، من حيث الجوهـــر ، يستر ويغطي رغبة خفية لدى قسم من المسؤولين الاقتصاديين الشيوعيين ، في ابطاء سرعة نمو الصناعة وتخفيضها ، وخلق « جو من الهدوء » لانفسهم ، والقاء مسؤولية الانتاج على عاتق « الاختصاصيين » .

فكان من الضروري توجيه انظار المسؤولين الشيوعيين في الصناعة نحو التكنيك ، ودفعهم الى تذوقه ، واقناعهم بان استيعاب التكنيك الجديد هو امر حيوي للكادر القيادي البلشفي في الصناعة ، واننا بـــدون استيعاب التكنيك الجديد ، نغامر بابقاء وطننا في حالة من التأخر والتدني عن غيره .

تلك كانت مهمة ، لم يكن من الممكن ابداً ، بدون حلهـــا ، التقدم الى امام .

وقد ساهم الرفيق ستالين في هذا العمل مساهمة بارزة بالخطاب الذى القاه في شباط ١٩٣١ ، امام اول مجلس عام للمسؤولين في الصناعة . وقد جاء فيه :

« يتساءلون احياناً : اليس من الممكن التخفيف من سرعتنا نوعاً ما ، وكبح الحركة قليلاً ! . كلا ، ذلك غير ممكن ايها الرفاق ! لا يمكن تخفيض السرعة ! ان كبح السرعة معنـــاه التأخر ، والمتأخرون تحكوم عليهم بالهزيمة . اما نحن ، فلا نريد ان نهزم ، كلا لا نريد ذلك !

« ان من جملة الامور التي تكوّن منها تاريخ روسيا القديمة ،

انها كانت تلقى الهزائم باستمرار نتيجة لتأخرها. فقد هزمها خانات المغول، وهزمها البكوات الاتراك، وهزمها الاقطاعيون السويديون، وهزمها النبلاء البولونيون - الليتوانيون، وهزمها الرأسماليون الانكليز والفرنسيون، وهزمها البارونات اليابانيون، الجميع هزموها ... لانها كانت متأخرة.

لقد تأخرنا عن البلدان المتقدمة من ٥٠ الى ١٠٠ عام! وعلينا ان نجتاز هذه المسافة في مدى عشر سنوات. فاما ان نفعل ذلك، واما ان يطحنونا طحناً ...

« خلال عشر سنوات على ابعد تقدير، علينا ان نجتاز المسافة التي تأخرناها عن البلدان الرأسمالية المتقدمة. ولدينا جميع الإمكانيات «الموضوعية» لاجل ذلك، ولا ينقصنا سوى ان نعرف كيف نستفيد لكي نستفيد من هذه الامكانيات فائدة حقيقية وهو شيء يتوقف علينا، وعلينا **فقط**. لقد آن لنا ان نتعلم الافادة من هذه الامكانيات. لقد آن لنا ان نتخلص من هذا الاتجاه الضار البالي، الاتجاه الى عدم التدخل في الانتاج. لقد آن لنا ان نتخذ موقفاً غير موقفنا السابق، موقفاً جديداً ومطابقاً للمرحلة الحاضرة، الموقف الذي يتلخص في وجوب التدخل في كل شيء. فاذا كنت مديراً لمعمل، فعليك ان تتدخل في جميع القضايا، وعليك ان تغوص الى بواطن جميع الاشياء، واياك ان تتغافل عن اي امر. تعلّم وتعلّم ايضاً وايضاً. يجب على البلاشفة ان يستوعبوا التكنيك وان يصبحوا اسياده. لقد حان الوقت لكي يصبح البلاشفة هم انفسهم اختصاصيين. **ان التكنيك هو الذي يقرر كل شيء، في عهد اعادة البناء** »
(ستالين - مسائل اللينينية).

كان لخطاب الرفيق ستالين اهمية تاريخية كبرى. فهو قد وضع حداً

لموقف الازدراء من التكنيك الذي كان يقفه المسؤولون الاقتصاديون الشيوعيون ، ووجه هؤلاء الى الاهتمام بالتكنيك ، وافتتح عهداً جديداً في النضال لكي يعمل البلاشفة انفسهم على استيعاب التكنيك ، وبذلك سهّل التقدم والتطور في اعادة بناء الاقتصاد الوطني .

ومنذ ذلك الحين ، تحول التكنيك من شيء يحتكره «الاختصاصيون» البورجوازيون ، الى قضية حيوية بالنسبة للبلاشفة المسؤولين عن الاقتصاد ، وتحولت كلمة « اختصاصي » من لقب يستدعي الازدراء والاستخفاف ، الى لقب شرف للبلشفي الذي استوعب التكنيك .

ومنذ ذلك الحين ، كان لا بد ان تبرز ـ وقد برزت فعلا ـ فصائل كاملة قوامها الالوف وعشرات الالوف من الاختصاصيين الحمر الذين اصبحوا اسياد التكنيك وصاروا اهلا لقيادة الانتاج .

اولئك هم المثقفون الجدد ، المثقفون السوفياتيون ، اسياد التكنيك والانتاج ، الذين انبثقوا من قلب الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين ، والذين يؤلفون اليوم القوة الاساسية في قيادتنا الصناعية .

كل ذلك كان لا بد ان يمهد السبيل ـ وقد مهده فعلاً ـ للنهوض العظيم في اعادة بناء الاقتصاد الوطني .

ولم يقتصر هذا التقدم الكبير في اعادة البناء على ميداني الصناعة والنقليات ، بل امتد الى الزراعة ايضاً ، وبقوة اكبر . وذلك امر مفهوم . فالزراعة التي كانت اقل تجهيزاً بالآلات من فروع الاقتصاد الاخرى ، كانت بطبيعة الحال اكثر حاجة للالات الحديثة من سائر الفروع . وعلاوة على ذلك فان تجهيز الزراعة بالآلات الحديثة تجهيزاً كثيفاً ، كان امراً ضروريا ، خصوصاً في هذا الحين إذ يسجل كل شهر بل كل اسبوع ، تقدماً جديداً في انشاء الكولخوزات ، ويسجل ، بالتالي ، طلبات جديدة على الوف والوف من التراكتورات والآلات الزراعية .

وقد سجلت سنة ١٩٣١ تقدماً جديداً في الحركة الكولخوزية . ففي المناطق

الرئيسية المنتجة للحبوب ، كانت الكولخوزات قد شملت اكثر من ٨٠ في المئة من مجموع اقتصاديات الفلاحين . فكان تعميم الاقتصاد التعاوني الجماعي ، في هذه المناطق ، قد تم من حيث الاساس . اما في المناطق التي هي اقل شأناً من حيث انتاج الحبوب ، وكذلك المناطق المنتجة للمزروعات الصناعية ، فقد شملت الكولخوزات اكثر من ٥٠ في المئة من مجموع الاقتصاديات الفلاحية . وكذلك فكانت ٢٠٠,٠٠٠ من الكولخوزات و٤٠٠٠ من السوفخوزات تزرع ثلثي الاراضي القابلة للزراعة ، في حين ان الفلاحين الفرديين كانوا يزرعون الثلث فقط .

لقد كان ذلك ، انتصاراً عظيماً للاشتراكية في القرية !

غير ان بناء الكولخوزات لم يكن يتطور من حيث العمق ، بل من حيث الاتساع ، فلم يكن يتطور في اتجاه تحسين عمل الكولخوزات وملاكاتها من حيث الكيفية والنوع ، بل في اتجاه زيادة الكولخوزات من حيث الكمية ، ومن حيث شمولها الكولخوزات مناطق جديدة ايضاً وايضاً . ويعود السبب في ذلك الى ان عدد الكولخوزيين المناضلين ، اي الكادر الكولخوزي ، لم يكن يتقدم بصورة تتماشى مع النمو العددي للكولخوزات نفسها . ولذلك كان العمل في الكولخوزات الجديدة لا يسير دائماً بصورة مرضية ، وكانت الكولخوزات نفسها ما تزال ضعيفة وواهية . وكان مما يعرقل توطيد الكولخوزات ايضاً ، ما تعانيه القرية من النقص في الناس المتعلمين الذين تحتاج اليهم الكولخوزات (مثل المحاسبين ، وقادة الاقتصاد ، والسكرتارية) وفقدان التجارب لدى الفلاحين فيما يتعلق بادارة شؤون الانتاج الكبير ، الكولخوزي. لقد كانت الكولخوزات تضم فلاحين كانوا حتى الامس القريب فلاحين فرديين . وكانت لديهم تجارب في ادارة الاقتصاد على قطع صغيرة من الارض ولكن لم تكن لديهم بعد ، تجربة في ادارة اقتصاد كبير ، كولخوزي .وكان لا بد من مرور بعض الوقت لاكتساب مثل هذه التجربة .

لكل هذه الاسباب ، ظهرت نواقص خطيرة في عمل الكولخوزات في اوائل عهدها . فقد تبين ان العمل في الكولخزات ما زال سيء التنظيم ،وان

التقيد بنظام العمل ما زال ضعيفاً. وفي كثير من الكولخوزات كانت المحاصيل لا توزع حسب ايام العمل المبذولة ، بل تبعاً لعدد الافواه التي ينبغي اطعامها. وكان يحدث غالباً ان ينال احد الكسالى كمية من القمح تفوق الكمية التي ينالها كولخوزي شريف دؤوب على العمل . وكانت هذه النقائص في ادارة الكولخوزات تقلل من اهتمام اعضائها بالعمل ، فتكثر حوادث التغيب عن العمل حتى في اشد ايام الموسم ، ويتأخر حصاد قسم من المزروعات الى حين بدء هبوط الثلج ، والحصاد نفسه يجري بشكل رديء ، فتضيع كميات كبيرة من الحبوب . وكان فقدان المسؤولية الشخصية عن الالات وعن الخيول ، والقيام بالعمل بصورة عامة دون تحديد مسؤوليات فردية، يؤديان الى اضعاف الكولخوزات وتخفيض ايراداتها .

وكانت الحالة سيئة خصوصاً في المناطق التي استطاع فيها الكولاك القدماء واتباعهم التسرب الى الكولخوزات وممارسة بعض الوظائف فيها . فكثيراً ما كان الكولاك الذين انتزعت منهم املاكهم ، ينتقلون من منطقتهم الى منطقة اخرى لا يعرفهم احد فيها ، وهناك يتسربون الى الكولخوزات لكي يلحقوا بها اكثر ما يمكن من الاذى . واحياناً كان الكولاك ، نظراً لفقدان اليقظة لدى المناضلين في الحزب وفي الادارات السوفياتية ، يتغلغلون في كولخوزات منطقتهم نفسها . وكان مما يسهل تسلل الكولاك القدماء الى الكولخوزات ، انهم غيروا خطتهم تغييراً تاماً في نضالهم ضد الكولخوزات . فقبلا ، كان الكولاك ينتصبون علناً ضد الكولخوزات ، ويقومون بنضال وحشي ضد المناضلين الكولخوزيين وضد الكولخوزيين المتقدمين ، ويقتلونهم غدراً، ويحرقون بيوتهم واهراءاتهم ، الخ . وكان هدفهم من ذلك ، ارهاب جمهور الفلاحين واخافتهم لمنعهم من الانتماء الى الكولخوزات . اما الان ، وقد فشل النضال المكشوف ضد الكولخوزات ، فقد غيروا خطتهم ، وكفوا عن اطلاق الرصاص من بنادقهم العتيقة ذات الفوهات المقطوعة ، بل اخذوا يتظاهرون بانهم اناس مسالمون ، هادئون ، طيعون ، مخلصون ، تماماً للحكم

السوفياتي . وبعد ان ينتموا الى الكولخوزات ، يقومون فيها باعمال تخريبية خفية سوداء . وكانوا ، في كل مكان ، يبذلون جهدهم لتفسيخ الكولخوزات من الداخل ، ويدفعون الى عدم التقيد بنظام العمل ، ويعملون لاشاعة البلبلة والفوضى في احصاء الحاصلات وفي حساب ايام العمل . وكانوا يتعمدون ابادة قطعان الخيل في الكولخوزات ،وقد تمكنوا من اهلاك عدد كبير منها ، فكانوا يحملون الى الخيول عدوى الرعـــام (١) والجرب والامراض الاخرى ، ويتركونها دون اية عناية . وكان الكولاك يعطلون كذلك التراكتورات والالات . واذا كان الكولاك ينجحون اذ ذاك في خـــداع الكولخوزيين وفي القيام باعمال التخريب دون ان تنالهم يد العقاب ، فذلك لأن الكولخوزات كانت بعدُ ضعيفة وغير مجربة ، ولأن الكادر الكولخوزي لم يكن قد مضى عليه بعد ، ما يلزم من الوقت لاكتساب الصلابة اللازمة .

فلوضع حد لاعمال الكولاك التخريبية ، والتعجيل في توطيد الكولخوزات ، كان من الضروري مدها بمساعدة سريعه وجدية بالرجال والنصائح والقادة .

والحزب البلشفي هو الذي قدم هذه المساعدة للكولخوزيين .

ففي كانون الثاني ١٩٣٣ قررت اللجنة المركزية تنظيم **فروع سياسية** ، في محطات الآلات والتراكتورات التي كانت مؤسسة لخدمة الكولخوزات. فأرسل في سبيل مساعدة الكولخوزات ، سبعة عشر الف مناضل من الحزب للعمل في الفروع السياسية .

فكانت مساعدة ثمينة .

وفي مدى سنتين - ١٩٣٣ و ١٩٣٤ - تمكنت الفروع السياسية في محطات التراكتورات والآلات ، من القيام بعمل كبير في سبيل تلافي النواقص في العمل في الكولخوزات ، وفي سبيل تكوين ملاكات من الكولخوزيين المناضلين ، وفي سبيل توطيد دعائم الكولخوزات ، وتطهيرها من العناصر المعـــادية ،

---

(١) مرض يصيب الخيول في انوفها ويضطر اصحابها الى ذبحها وهو يصيب البشر بعدواه . (هيئة التعريب)

والكولاكية والمخربة .

لقد ادت الفروع السياسية المهمة الملقاة على عاتقها بشرف ، فقد وطدت الكولخوزات فيما يتعلق بادارة شؤونها الاقتصادية والتنظيمية ، وثقفت كادراً جديداً من الكولخوزيين ، وادخلت الدقة والتنظيم في القيـــادة الاقتصادية للكولخوزات . ورفعت المستوى السياسي للجماهير الكولخوزية .

ان المؤتمر الاول للكولخوزيين المتفوقين في الاتحاد السوفياتي (شباط ١٩٣٣) ، والخطاب الذي القاه الرفيق ستالين في هذا المؤتمر ، كان لهما شأن عظيم في رفع نشاط الجماهير الكولخوزية في النضال لاجل تقوية الكولخوزات وتوطيد اركانها .

وقد قارن الرفيق ستالين في خطابه بين النظام القديم حين كان الريف لا يعرف الكولخوز ، وبين النظام الجديد اي نظام الكولخوزات ، فقال :

« في ظل النظام القديم كان الفلاحون يعملون منفردين ، ويشتغلون حسب طرق الاجداد القديمة وبادوات العمل العتيقة ، ويكدحون لاجل كبار ملاكي الاراضي والرأسماليين ، ولاجل الكولاك والمحتكرين ، فكانوا يتعبون ويعانون آلام الجوع ، لكي يجلبوا الثروة والغنى للاخرين . اما في ظل النظام الجديد ، نظام الكولخوزات فان الفلاحين يعملون بصورة مشتركة ، مجتمعين في الآرتيلات ، حيث يستعملون الادوات الحـــديثة ، التراكتورات والآلات الزراعية . انهم يعملون لانفسهم ولكولخوزاتهم ، ويعيشون بدون رأسماليين وملاكين كبار ، وبدون كولاك ومحتكرين . انهم يعملون لكي يحسنوا حالتهم المادية والثقافية يوماً بعد يوم » . (ستالين : مسائل اللينينية) .

واظهر الرفيق ستالين في خطابه ما نالته جماهير الفلاحين فعلياً بسلوكها طريق الكولخوزات. فقد ساعد الحزب البلشفي ملايين الفلاحين الفقراء على الانتماء للكولخوزات والتحرر من نير الكولاك. ان ملايين من الفلاحين الفقراء

ما كانوا يحصلون من قبل على ما يسدون به الرمق. فعندما دخلوا الكولخوزات، حيث اصبح تحت تصرفهم احسن الاراضي واحسن ادوات الانتاج، ارتفع مستواهم الان الى مستوى الفلاحين المتوسطين؛ واصبحوا اناسا مطمئنين الى غدهم.

تلك كانت الخطوة الاولى ، اي اول انتصار في طريق انشاء الكولخوزات.

اما الخطوة الثانية ، فقد قال الرفيق ستالين انها ترمي الى رفع مستوى الكولخوزيين ايضاً وايضاً ــ سواء منهم الذين كانوا سابقــاً فلاحين فقراء او الذين كانوا فلاحين متوسطين ــ وجعــل جميع الكولخوزيين اناساً ميسورين ، وجعل جميع الكولخوزات بلشفية .

وقال الرفيق ستالين :

«لكي يصبح الكولخوزيون ميسورين، يتطلب ذلك في الوقت الحاضر شيئاً واحداً فقط هو : ان يعملوا في الكولخوز باستقامة، وان يستعملوا التراكتورات والالات استعمالا صحيحاً ، وان يستخدموا الحيوانات المخصصة للعمل استخداماً صحيحاً ، وان يعملوا في الارض ويزرعوها بشكل صحيح ، وان يصونوا املاك الكولخوز ويحافظوا عليها » (ستالين ، المرجع السابق) .

وقد نفذ خطاب الرفيق ستالين الى اعماق ادراك الملايين من الكولخوزيين، واصبح منهاج عمل ومنهاج كفاح للكولخوزيين .

وفي اواخر ١٩٣٤ ، اصبحت الكولخوزات قوة وطيدة الاركان ، لا تقهر . وكان ما تشمله الكولخوزات اذ ذاك يبلغ تقريباً ثلاثة ارباع مجموع اقتصاديات الفلاحين في كل الاتحاد السوفياتي، وبلغ زهاء ٩٠ في المئة من مجموع الاراضي المزروعة .

وفي سنة ١٩٣٤ ، بلغ عدد ما تستعمل زراعة الاتحــاد السوفياتي من التراكورات ٢٨١،٠٠٠ ومن الحاصــدات الدراسات ٣٢،٠٠٠ . وانتهت اعمال البذار الربيعي لعام ١٩٣٤ بمدة تقل من ٥ الى ٢٠ يوماً عن عام ١٩٣٣، ومن ٣٠ الى ٤٠ يوماً عن عام ١٩٣٢ ، وتم تنفيذ البرنامج المقرر لجمع الحبوب

وخزنها في مدة تقل ثلاثة اشهر عن عام ١٩٣٢ .

وهكذا توطد كيان الكولخوزات في مدى سنتين ، بفضل المساعدة العظيمة التي نالتها من الحزب ومن دولة العمال والفلاحين .

وبفضل الانتصار الوطيد الذي احرزه نظام الكولخوزات ، وما نتج عنه من نهوض في الزراعة ، تمكن الحكم السوفياتي من الغاء نظام البطاقات في شراء الخبز والمنتجات الاخرى ، واطلاق الحرية في شراء المواد الغذائية .

ولما كانت الفروع السياسية الملحقة بمحطات التراكتورات ، التي شُكلت من حيث هي هيئات سياسية موقتة قد أنجزت مهمتها ، قررت اللجنة المركزية اعادة تنظيمها وجعلها هيئات حزبية عادية ، فدمجتها في لجان الحزب المحلية الموجودة .

ان جميع هذه النجاحات ، سواء في الميدان الزراعي ام في الميدان الصناعي ، انما تحققت بفضل انجاز برنامج السنوات الخمس انجازاً موفقاً .

فمنذ اوائل عام ١٩٣٣ ، تبين بوضوح ان برنامج السنوات الخمس الاول قد تم انجازه ، وانه أنجز قبل موعده ، اي خلال أربع سنوات وثلاثة اشهر بدلا من خمس سنوات .

وكان هذا انتصاراً عظيماً للطبقة العاملة وجماهير الفلاحين في الاتحاد السوفياتي ، انتصاراً عالمياً بعيد الاثر في تاريخ الانسانية باسرها .

وقد عرض الرفيق ستالين ، في التقرير الذي قدمه في الاجتماع العام للجنة المركزية للحزب وللجنة المراقبة المركزية المنعقد في كانون الثاني ١٩٣٣ ، رصيد برنامج السنوات الخمس الاول .

وقد اتضح من هذا التقرير ان الحزب والحكم السوفياتي حصلا ، خلال المرحلة المنقضية ، اي خلال المرحلة التي تم فيها انجاز برنامج السنوات الخمس الاول ، على النتائج التالية :

أ ــ تحول الاتحاد السوفياتي من بلد زراعي الى بلد صناعي ، وذلك لان حجم الانتاج الصناعي بلغ ٧٠ في المئة من المجموع العام لانتاج الاقتصاد الوطني .

ب ـ تمكن النظام الاشتراكي في الاقتصاد من تصفية العناصر الرأسمالية في الميدان الصناعي واصبح النظام الاقتصادي الوحيد في الصناعة .

ج ـ تمكن النظام الاشتراكي في الاقتصاد من تصفية الكولاك ، من حيث هم طبقة ، في الميدان الزراعي ، واصبح القوة السائدة في الزراعة .

د ـ ازال النظام الكولخوزي البؤس والفقر في القرية ، وارتفع عشرات الملايين من الفلاحين الفقراء الى مستوى اناس مطمئنين الى غدهم .

هـ ـ قضى النظام الاشتراكي في الصناعة على البطالة ، فهو إذ حافظ على يوم الثماني ساعات في عدد من فروع الانتاج ، انتقل الى ٧ ساعات في اليوم في الاكثرية العظمى من المعامل ، كما جعل يوم العمل ٦ ساعات في الاعمال المؤذية للصحة .

و ـ ادى انتصار الاشتراكية في جميع ميادين الاقتصاد الوطني ، الى محو استثمار الانسان للانسان .

ان اهمية هذه المنجزات التي حققها برنامج السنوات الخمس الاول تبينت ، قبل كل شيء ، في كونها حررت العمال والفلاحين نهائياً من نير الاستثمار ، وفتحت امام جميع شغيلة الاتحاد السوفياتي الطريق نحو حياة رفاهية وثقافة .

في كانون الثاني ١٩٣٤ ، انعقد المؤتمر السابع عشر للحزب وقد حضره ١٢٢٥ مندوباً باصوات فعلية ، و ٧٣٦ مندوباً باصوات استشارية ، وكان هؤلاء المندوبون يمثلون ١ ٨٧٤ ٤٨٨ عضواً في الحزب ، و ٩٣٥ ٢٩٨ مترشحاً .

استعرض المؤتمر نتائج عمل الحزب خلال المرحلة المنقضية ، وسجل النجاحات الحاسمة التي احرزتها الاشتراكية في جميع فروع الاقتصاد والثقافة ، وقرر ان خطة الحزب العامة قد انتصرت على طول الخط .

ان المؤتمر السابع عشر للحزب دخل في التاريخ من حيث هو « مؤتمر المنتصرين » .

وقد اشار الرفيق ستالين في تقريره الى التحولات الاساسية والتغيرات

الجذرية التي حدثت في الاتحاد السوفياتي خلال المرحلة المعينة ، فقال :

« خلال هـذه المرحلة تغير الاتحاد السوفياتي تغيراً اساسياً ، فالقى عن كاهله رداء التأخر الموروث عـن القرون الوسطى . فبعدما كان بلداً زراعياً اصبح بلداً صناعياً . وبعدما كان بلد الزراعة الصغيرة الفردية ، صار بلاد الزراعة الكبيرة الجماعية التعاونية القائمة على الآلة . وبعدما كان بلد الظلام والامية وانعدام الثقافة ، اصبح ــ او على الاصح اخذ يصبح ــ بلداً متعلماً مثقفاً تغطيه شبكة عظيمة من المدارس العالية والمتوسطة والابتدائية ، حيث يجري التعليم بلغات مختلف القوميات التي تعيش في الاتحاد السوفياتي . » (ستالين : مسائل اللينينية) .

في ذلك الحين كانت الصناعة الاشتراكية تؤلف ٩٩ ٪ من مجموع صناعة البلاد . اما الزراعة الاشتراكيـــة ، اي الكولخوزات والسوفخوزات ، فكانت تؤلف ٩٠ ٪ تقريباً من مجموع الاراضي المزروعة في البلاد . اما فيما يتعلق بتداول البضائع ، فان العناصر الرأسمالية ازيحت بشكل تام كامل من التجارة .

لقد قال لينين ، عندما جرى تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة ، ان في بلادنا عناصر لخمسة اشكال اجتماعية اقتصادية . اما الشكل الاول فهو الاقتصاد العائلي المغلق ، وهو بمعظمه اقتصاد طبيعي ، اي انه لا يمارس تقريباً اية تجارة . والشكل الثاني هو الانتاج البضاعي الصغير ، وهو يشمل من جهة ، معظم الاقتصاديات الفلاحية التي تمارس بيع المنتجات الزراعية ، ومن جهة اخرى ، الحرفيين . وكان هذا الشكل الاقتصادي يشمل ، خلال السنوات الاولى من عهد « النيب » ، اكثرية السكان . والشكل الثالث هو الرأسمالية الخاصة التي انتعشت في بداية عهد « النيب » . والشكل الرابع هو رأسماليـــة الدولة وهي تشمل بشكل رئيسي الامتيازات الممنوحة للرأسمال الاجنبي وهي لم لم تحرز نصيباً ولو ضئيلاً من التطور . والشكل الخامس هو الاشتراكية ،

اي الصناعة الاشتراكية التي كانت ما تزال ضعيفة اذ ذاك ، وكذلك السوفخوزات والكولخوزات التي كانت تحتل ، في بداية عهد « النيب » ، مكاناً لا يؤبه له في الاقتصاد الوطني ، ثم تجارة الدولة والمؤسسات التعاونية التي كانت هي كذلك في بداية عهد « النيب » ، ضعيفة .

وقد اوضح لينين ان الشكل الاشتراكي هو الذي ينبغي ان تكون له الغلبة من بين جميع هذه الاشكال الاقتصادية .

وكانت السياسة الاقتصادية الجديدة قد وُضعت على اساس تأمين الانتصار الكامل للاشكال الاشتراكية في الاقتصاد .

فعندما انعقد المؤتمر السابع عشر للحزب ، كان هذا الهدف قد تحقق .

وقد قال الرفيق ستالين في هذا الصدد ما يلي :

« يمكننا ان نقول الان ان الشكل الاول والثالث والرابع من الاشكال الاجتماعية الاقتصادية ، لم يعد لها وجود . اما الشكل الاجتماعي الاقتصادي الثاني فقد تم ردّه الى الوراء ، فاصبحت مواقعه في الدرجة الثانية ، اما الشكل الاجتماعي الاقتصادي الخامس ، اي الشكل الاشتراكي ، فهو القوة السائدة دون منازع ، القوة القائدة الوحيدة في مجموع الاقتصاد الوطني » (ستالين : المرجع نفسه) .

وكانت القضايا المتعلقة بالقيادة السياسية والفكرية تحتل مكاناً هاماً في تقرير الرفيق ستالين . فهو قد نبه الحزب الى ان اعداء الحزب — اي الانتهازيين من كل شاكلة ، واصحاب الانحرافات القومية من كل لون — وإن كانوا قد هُزموا ودُحروا ، فان بقايا عقليتهم ، ما زالت حية في رؤوس بعض اعضاء الحزب وكثيراً ما تُشعِرُ بوجودها . وان بقايا الرأسمالية في الاقتصاد وخاصة في ادراك الناس ، تؤلف تربة ملائمة لبعث الحياة في عقلية الجماعات المناوئة للينينية ، التي دُحرت وهُزمت . ان ادراك الناس ، في تطوره ، يتأخر عن وضعهم الاقتصادي . ولذلك فان بقايا المفاهيم

البورجوازية في رؤوس الناس ، باقية وستبقى مدة اخرى ، حتى وان صفيت الرأسمالية في الاقتصاد . وعلاوة على ذلك ينبغي ان يؤخذ بعين الاعتبار ان التطويق الرأسمالي ، الذي يجب ان نحفظ البارود دائماً جافاً ضده، يسعى جهده لانعاش هذه البقايا ودعمها .

ومن جملة القضايا التي وقف عندها الرفيق ستالين ، قضية بقايا الرأسمالية في ادراك الناس في ميدان المسألة القومية ، حيث تكون هذه البقايا كثيرة الحيوية بوجه خاص . وقد ناضل الحزب البلشفي على جبهتين : ضد الانحراف نحو الشوفينية الروسية ، وضد الانحراف نحو القومية المحلية . ولكن منظمات الحزب في بعض الجمهوريات (اوكرانيا ، بيلوروسيا .. الخ ..) اضعفت نضالها ضد القومية المحلية ، وافسحت لها مجال النمو الى درجة انها اندمجت مع القوى العدوة ، قوى المتدخلين الاجانب ، فاصبحت خطراً على الدولة . وجواباً على السؤال التالي : اي انحراف في القضية القومية يمثل الخطر الرئيسي ؟ . أجاب الرفيق ستالين قائلاً :

« ان الخطر الرئيسي يتمثل في الانحراف الذي انقطعوا عن مكافحته فافسحوا له بذلك ، مجال النمو حتى اصبح خطراً على الدولة » (ستالين : المرجع السابق نفسه) .

ودعا الرفيق ستالين الحزب الى تقوية العمل الفكري والسياسي ، والى العمل باستمرار على فضح عقلية ــ وبقايا عقلية ــ الطبقات العدوة والتيارات المعادية للينينية .

وبيّن الرفيق ستالين بعد ذلك ، في تقريره ، ان اتخاذ القرارات الصحيحة لا يضمن بذاته نجاح العمل . فلتأمين نجاح العمل ، من الضروري **ان يوضع في مواضعهم ، بشكل صحيح ، الاشخاص** القادرون على تطبيق قرارات الهيئات القيادية ، **وان تُنظّم المراقبة على تنفيذ هذه القرارات**، وبدون هذه التدابير التنظيمية تتعرض القرارات لخطر البقاء حبراً على ورق ، منعزلة عن الحياة . وهنا استشهد الرفيق ستالين بموضوعة لينين الشهيرة القائلة بان

الشيء الرئيسي في العمل التنظيمي هو : **اختيار الاشخاص ومراقبة التنفيذ .**

وعلاوة على ذلك ، اكد الرفيق ستالين ان القطيعة بين القرارات المتخذة وبين العمل التنظيمي الذي يستهدف تنفيذ هذه القرارات ومراقبة تنفيذها، هي العلة الاساسية في نشاطنا العملي .

ولتحسين المراقبة على تنفيذ قرارات الحزب والحكومة ، انشأ المؤتمر السابع عشر للحزب ، هيئة المراقبة الحزبية لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) في الاتحاد السوفياتي ، كما انشأ هيئة المراقبة السوفياتية لدى مجلس مفوضي الشعب للاتحاد السوفياتي ، وقد حلت هاتان الهيئتان محل هيئة المراقبة المركزية وهيئة التفتيش العمالي والفلاحي ، اللتين قامتا بمهمتها على احسن وجه منذ عهد المؤتمر الثاني عشر .

اما مهمات الحزب التنظيمية خلال المرحلة الجديدة ، فقد صاغها الرفيق ستالين كما يلي :

١)رفع عملنا التنظيمي الى المستوى الذي تتطلبه حاجات الخطة السياسية للحزب .

٢) : رفع القيادة التنظيمية الى مستوى القيادة السياسية .

٣) : التوصل الى ان تؤمن القيادة ، من الناحية التنظيمية تطبيق شعارات الحزب السياسية وقراراته تأميناً تاماً .

وفي ختام تقريره ، نبه الرفيق ستالين الى ان نجاحات الاشتراكية ، وان تكن عظيمة وتبعث عاطفة اعتزاز مشروع ، فمع ذلك لا ينبغي الاستغراق في نشوة النجاح ، لا ينبغي الوقوع في الزهو والغرور ولا الاستسلام لهدهدة الاطمئنان والرضا .

قال ستالين :

« ... لا ينبغي هدهدة الحزب ، بل اغناء اليقظة فيه ، لا ينبغي ارقاده وتنويمه ، بل جعله دائماً في حالة استعداد كفاحي،

لا ينبغي نزع سلاحه ، بل تسليحه ، لا ينبغي تسريح قواه ، بل جعله دائماً في حالة تعبئة لتحقيق برنامج السنوات الخمس الثاني» (ستالين : مسائل اللينينية) .

واستمع المؤتمر السابع عشر الى تقريري الرفيقين مولوتوف وكويبيشيف عن برنامج السنوات الخمس الثاني لتطوير الاقتصاد الوطني . وكانت مهمات البرنامج الثاني اعظم واضخم من مهمات برنامج السنوات الخمس الاول . ففي موعد انجاز البرنامج الثاني ، اي في عام ١٩٣٧ ، كان من الواجب ان يزداد الانتاج الصناعي ثماني مرات تقريباً بالنسبة لمستوى ما قبل الحرب . وكان حجم الاعمال الكبرى في مجموع الاقتصاد الوطني يُقدّر ، وفقاً لبرنامج السنوات الخمس الثاني ، بمبلغ ١٣٣ مليار روبل مقابل ٦٤ مليار روبل ونيف في برنامج السنوات الخمس الاول .

وكان مثل هذا النطاق الواسع الضخم للاعمال الكبرى ، يؤمن تجهيز جميع فروع الاقتصاد الوطني تجهيزاً تكنيكياً جديداً كاملاً .

خلال برنامج السنوات الخمس الثاني ، كان ينبغي ان يتم ، من حيث الاساس ، تعميم الآلة في الزراعة . فكان من الواجب ان ترتفع قدرة حظيرة التراكتورات من مليونين وربع مليون حصان بخاري في عام ١٩٣٢ ، الى اكثر من ثمانية ملايين حصان بخاري في عام ١٩٣٧ . وكان من المقرر تطبيق التدابير الزراعية الفنية على نطاق واسع (تهيئة الارض بشكل صحيح ، استعمال بذار نظيف منتقى ، الحراثة الخريفية .. الخ ..)

وتقرر اجراء اعمال ضخمة لتحسين النقليات والمواصلات من ناحية التكنيك .

ووُضع برنامج واسع للاستمرار في رفع المستوى المادي والثقافي للعمال والفلاحين .

واهتم المؤتمر السابع عشر اهتماماً كبيراً بمسائل التنظيم ، فاتخذ ، على اساس تقرير الرفيق كاغانوفيتش ، قرارات خاصة فيما يتعلق بقضايا البناء

الحزبي والسوفياتي . ان اهمية المسألة التنظيمية ازدادت ازدياداً كبيراً بعد ما انتصرت خطة الحزب العامة ، وبعد ما برهنت الحيـــاة نفسها ، بتجربة ملايين العمال والفلاحين ، صحة سياسة الحزب . وكانت المهمات الجديـــدة المعقدة التي يصفها برنامج السنوات الخمس الثاني ، تتطلب رفـــع المستوى الكيفي للعمل في جميع الفروع .

« ان المهمات الاساسية لبرنامج السنوات الخمس الثاني وهي : تصفية العناصر الرأسمالية تصفية نهائية ، التغلب عـــلى بقايا الرأسمالية في الاقتصاد وفي ادراك الناس ، انجاز تجديد البناء في مجموع الاقتصاد الوطني على احدث اساس تكنيكي ، امتلاك ناصية التكنيك الجديد والمشاريع الجديدة ، تعميم الآلة في الزراعة ورفع الانتاجية فيها — جميع هذه المهمات تضع بشكل حاد مسألة **رفع المستوى الكيفي للعمل في جميع الفروع ، وبالدرجة الاولى ، المستوى الكيفي للقيادة التنظيمية العملية »**. هذا ما جاء في قرارات المؤتمر حول مسائل التنظيم (انظر : الحزب الشيوعي البلشفي في قراراته ، الجزء الثاني ، الصفحة ٥٩١ ، الطبعة الروسية) .

واقر المؤتمر السابع عشر نظاماً داخلياً جديداً للحزب ، وهو يتميز عن القديم ، قبل كل شيء ، بالمقدمة التي اضيفت اليه . وتحوي هذه المقدمة على تعريف موجز للحزب الشيوعي واهميته في نضال البروليتاريا ، ومكانه في مجموع هيآت ديكتاتورية البروليتاريا . ويعدد النظام الداخلي الجديد ، بشكـــل مفصل ، واجبات عضو الحزب . كما أدخلت فيه قواعد اشد صرامة لقبول الاعضاء في الحزب ، وأضيفت اليه كذلك فقرة تتعلـــق بفرق المحبذين . ويعالج النظام الداخلي الجديد بشكل اكثر تفصيلاً مسألة البناء التنظيمـــي للحزب ، كما صيغت من جديد الفقرات المتعلقة بخلايا الحزب التي صارت تسمى ، منذ المؤتمر السابع عشر ، المنظمات الاولية . كذلك الفقرات المتعلقـــة بالديموقراطية الداخلية في الحزب وبنظام الطاعة الحزبية ، صيغت صيغة جديدة

٤ ـ انحطاط البوخارينيين الى ساسة ذوي وجهين ـ انحطاط التروتسكيين ذوي الوجهين الى عصابة من الحرس الابيض ، عصابة من القتلة والجواسيس ـ اغتيال س. م. كيروف بغدر وجبن ـ تدابير الحزب لتقوية اليقظة البلشفية

ان انتصارات الاشتراكية في بلادنا لم تبعث السرور والابتهاج في نفوس العمال والكولخوزيين فحسب ، بل كانت كذلك مبعث سرور وابتهاج لدى جميع مثقفينا السوفياتيين ، لدى جميع المواطنين الشرفاء في الاتحاد السوفياتي .

ولكنها لم تبعث السرور لدى بقايا الطبقات المغلوبة ، بل زادتها غيظاً على غيظ .

كما انها اثارت الحنق والكلب لدى اتباع الطبقات المغلوبة : فلول البوخارينيين والتروتسكيين الحقيرة .

كان هؤلاء السادة لا ينظرون الى منجزات العمال والكولخوزيين من ناحية مصالح الشعب الذي كان يحيي كل نجاح من هذا النوع ، بل ينظرون اليها من وجهة نظر مصالح فريقهم الانقسامي التعس ، المعزول عن الحياة ، والذي دب فيه التفسخ والنتن حتى نخاع العظم. ولما كانت نجاحات الاشتراكية في بلادنا تعني انتصار سياسة الحزب كما تعني افلاس سياسة هؤلاء السادة افلاساً نهائياً ، فانهم ، عوضاً عن الاعتراف بالوقائع الساطعة الجلية والمساهمة في العمل المشترك العام ، عمدوا الى الانتقام من الحزب والشعب لما حصدوه من فشل وما اصابهم من افلاس . فأخذوا يعملون لالحاق كل ما يمكن من اذى وضرر بعمل العمال والكولخوزيين ، فينسفون المناجم ، ويحرقون

المعامل ، ويقومون باعمال التخريب في الكولخوزات والسوفخوزات ، للقضاء على منجزات العمال والكولخوزيين ، واثارة الاستياء في الشعب ضد الحكم السوفياتي . غير انهم ، لكي يحولوا دون افتضاح فرقتهم الحقيرة ودون سحقها ، كانوا يسبلون على وجوههم قناع اناس مخلصين للحزب ، فيكثرون من الانحناء امام الحزب ، ويمجدونه ، ويزحفون على بطونهم امامه ، فيما يتابعون في الواقع نشاطهم التخريبي الخفي ضد العمال والفلاحين .

في المؤتمر السابع عشر للحزب ، اعلن بوخارين وريكوف وتومسكي توبتهم وندمهم ، وكالوا المديح للحزب ، واشادوا بمنجزاته ورفعوها الى السماء . غير ان المؤتمر شعر بان خطبهم مطبوعة بطابع الرياء والنفاق وعدم الاخلاص ، ذلك لان ما يطلبه الحزب من اعضائه ليس الاشادة بمنجزاته وتمجيدها ، بل العمل باستقامة على جبهة الاشتراكية وهو ما لم يلمسه الحزب من البوخارنيين منذ زمن طويل . لقد رأى الحزب ان هؤلاء السادة ، عندما كانوا يلقون خطبهم المنافقة ، كانوا يتوجهون الى انصارهم خارج المؤتمر ، ويلقون عليهم دروساً في الرياء والنفاق ويدعونهم الى عدم القاء سلاحهم .

وتكلم في المؤتمر السابع عشر ايضاً التروتسكيان زينوفييف وكامنيف ، فانهالا على اغلاطهما بالتقريع ، بغير حساب ، كما مجدا منجزات الحزب تمجيداً لا حد له . ولكن كان من غير الممكن ان لا ينتبه الحزب الى ان هذا التقريع للنفس ، هذا الجلد الذاتي ، المثير للاشمئزاز ، وهذا التكلف في تمجيد الحزب ، انما كانا صورة معكوسة لضمير هذين السيدين المثقل بالاضطراب والقلق . بيد ان الحزب لم يكن يعلم بعد ، او يشك بان هذين السيدين اللذين يلقيان خطباً معسولة في المؤتمر ، كانا ، في ذات الوقت ، يهيئان ، بجبن ونذالة ، اغتيال الرفيق س. كيروف .

ففي اول كانون الاول ١٩٣٤ ، اغتيل غدراً ونذالة ، س. كيروف بطلقة مسدس ، في سمولني ، بلينينغراد . وقد قبض على القاتل في مكان وقوع الجريمة ، فتبين انه ينتمي الى فرقة سرية معادية للثورة ، مؤلفة من اعضاء في

فرقة زينوفييف المعادية للسوفيات ، في لينينغراد .

ان اغتيال س. كيروف ، الذي يحبه الحزب والطبقة العاملة حباً عظيماً ، قد اثار غضباً شديداً جداً والماً عميقاً في نفوس الشغيلة في بلادنا .

لقد اثبت التحقيق انه قد انشئت في لينينغراد ، في ١٩٣٣ — ١٩٣٤ ، فرقة ارهابية سرية معادية للثورة ، مؤلفة من الاعضاء القدماء في المعارضة الزينوفيفية ، وعلى رأس هذه الفرقة ما كان يسمى بـ « مركز لينينغراد ». كان الهدف الذي وضعته هذه الفرقة نصب عينيها قتل قواد الحزب الشيوعي. وقد اختير كيروف ليكون الضحية الاولى. وبينت افادات اعضاء هذه الفرقة المعادية للثورة انهم كانوا متصلين بممثلي الدول الرأسمالية الاجنبية الذين كانوا يمدونهم بالمال .

وقد حكم المجلس العسكري في المحكمة العليا للاتحاد السوفياتي بالاعدام رمياً بالرصاص على اعضاء هذه المنظمة الذين افتضح امرهم .

وبعد ذلك بقليل ، تبين انه هناك مركزاً سرياً آخر معادياً للثورة ، هو « مركز موسكو ». وقد اظهر التحقيق والمحاكمة ، بصورة جلية ، الدور الدنيء الذي قام به زينوفييف وكامينيف وافدوكيموف وسائر قواد هذه المنظمة ، الذين كانوا يبثون الروح الارهابية في اتباعهم ، ويهيئون اغتيال اعضاء اللجنة المركزية والحكومة السوفياتية .

لقد بلغ الرياء والنذالة بهؤلاء الاشخاص الى حد ان زينوفييف ، الذي كان احد منظمي اغتيال س. كيروف واحد الموحين به ، زينوفييف الذي كان يضغط على القاتل لتنفيذ الجريمة باسرع ما يمكن ، كتب تأبيناً يمدح فيه كيروف مدحاً عظيماً ، والح بطلب نشره .

وحتى في الساعة التي تظاهر فيها الزينوفيفييون بالندم امام المحكمة ، كانوا ، في الواقع ، يتابعون نفاقهم . فقد كتموا علاقتهم بتروتسكي ، وكتموا انهم قد باعوا انفسهم مع التروتسكيين لدوائر التجسس الفاشيستية ، واخفوا عملهم كجواسيس ومخربين . واخفى الزينوفيفييون عن المحكمة علاقتهم

بالبوخارينيين ، وكتموا وجود عصابة من المرتزقة المأجورين للفاشست تضم التروتسكيين والبوخارينيين معاً .

فان اغتيال الرفيق كيروف ، كما عرف فيما بعد ، كان من صنع هذه العصابة من التروتسكيين والبوخارينيين مجتمعين .

لقد ظهر بوضوح ، منذ عام ١٩٣٥ ، ان الفرقة الزينوفييفية هي منظمة مستترة معادية للثورة ، وان اعضاءها يستحقون تماماً ان يوصفوا بانهم من الحرس الابيض .

وبعد ذلك بسنة ، ثبت ان منظمي اغتيال كيروف المباشرين الاصليين الحقيقيين ، ومنظمي الاستعدادات لاغتيال اعضاء آخرين من اللجنة المركزية ، هم تروتسكي وزينوفييف وكامينيف وشركاؤهم . وقد احيل الى المحكمة زينوفييف وكامينيف وباكايف وافدوكيموف وبيكيل و ي. سميرنوف ومراتشكوفسكي وتيرفاغانيان ورينغولد وغيرهم ، واضطر هؤلاء المجرمون ، الذين قبض عليهم بالجرم المشهود ، الى الاعتراف جهاراً امام المحكمة بانهم لم ينظموا قتل كيروف وحسب ، بل كانوا يهيئون ايضاً اغتيال جميع القواد الآخرين في الحزب وفي الحكومة . واثبت التحقيق ، بعد ذلك ، ان هؤلاء الاشرار كانوا يقومون باعمال التخريب والتجسس . لقد اظهرت محاكمة موسكو عام ١٩٣٦ ما كان ينطوي عليه هؤلاء الاشخاص من الانحطاط السياسي والمعنوي بابشع صوره ، ومن الجبانة واسفل ضروب الخيانة ، المتسترة جميعاً وراء ادعاء الاخلاص والامانة للحزب رياء ونفاقاً .

ان الموحي الاساسي والمنظم الرئيسي لكل هذه العصابة من القتلة والجواسيس كان يهوذا تروتسكي . وكان زينوفييف وكامينيف واعوانهما التروتسكيون ، هم مساعديه ومنفذي تعليماته المعادية للثورة . لقد كان هؤلاء الناس يهيئون هزيمة الاتحاد السوفياتي في حالة مهاجمة المستعمرين له ؛ لقد اصبحوا يريدون هزيمة دولة العمال والفلاحين ؛ لقد اصبحوا خدماً للفاشست الالمان ـــ اليابانيين وعملاء حقيرين لهم .

ان الدرس الاساسي الذي كان على منظمات الحزب ان تستخلصه من المحاكمات المتصلة باغتيال س. كيروف على تلك الصورة الغادرة هو ان تضع حداً لقصر نظرها السياسي ، ان تتخلص من تهاونها السياسي وترفع يقظتها ويقظة جميع اعضاء الحزب .

ففي الرسالة التي وجهتها اللجنة المركزية الى منظمات الحزب على اثر الاغتيال الغادر الذي ذهب ضحيته س. كيروف ، جاء ما يلي :

أ) « ينبغي وضع حد لهدوء البال الانتهازي الناشىء عن ذاك الافتراض الخاطيء القائل بانه كلما ازدادت قوانا ، يصبح العدو اليفاً وغير مؤذٍ . ان هذا الافتراض باطل من جذوره . وان فيه لرائحة من عفونة الانحراف اليميني الذي كان يؤكد تأكيداً مطلقاً ان الاعداء سيندمجون في الاشتراكية بكل هدوء وسيصبحون في النهاية اشتراكيين حقيقيين . فليس من شأن البلاشفة ان يناموا على اكاليل الغار ويستسلموا الى الغفلة . إن ما يلزم لنا ليس الهدوء بل اليقظة ، اليقظة الثورية البلشفية الحقيقية . وينبغي ان لا ننسى انه كلما اصبحت حال الاعداء اكثر يأساً ازدادوا تشبثاً « بالوسائل القصوى » من حيث هي الملجأ الاوحد للناس الذين كتب لهم الخسران في نضالهم ضد الحكم السوفياتي . ينبغي ان لا ننسى ذلك ابداً وان نكون يقظين » .

ب) . « ينبغي ان نرفع الى المستوى اللازم تعليم تاريخ الحزب لاعضاء الحزب ، ودراسة جميع انواع الكتل المعادية للحزب التي وُجدت خلال تاريخه ، ودراسة اساليبها في النضال ضد خطة الحزب ، ودراسة تاكتيكها ، وبالاحرى ، دراسة تاكتيك حزبنا واساليبه في النضال ضد الكتل التي كانت معادية له ، ودراسة التاكتيك والوسائل التي مكنت حزبنا من التغلب على جميع هذه الكتل وسحقها . ينبغي على اعضاء حزبنا ان لا

يعلموا فقط كيف كافح الحزب ودحر الكاديت والاشتراكيين الثوريين والمنشفيك والفوضويين ، بل ان يعلموا ايضاً كيف كافح ودحر التروتسكيين واشياع « المركزية الديموقراطية » و « المعارضة العمالية » والزينوفييفيين ، ومثيري الانحرافات اليمينية ، والممسوخ اليساريين الخ . وينبغي عدم النسيان ان معرفة تاريخ حزبنا وفهمه هما وسيلة من اهم الوسائل الضرورية لضمان اليقظة الثورية ، بصورة كافية ، عند اعضاء الحزب . »

وفي هذه المرحلة ، كان تطهير الحزب من الدخلاء والعناصر الغريبة امراً على جانب عظيم من الاهمية — وقد بدأ هذا التطهير في سنة ١٩٣٣ — وكان من الاهمية بمكان عظيم التحقيق الدقيق في صحة الوثائق الشخصية لكل عضو في الحزب ، وتجديد بطاقات المنتسبين ، الذي بوشر به اثر الاغتيال الغادر الذي ذهب ضحيته س. كيروف .

فقبل هذا التحقيق ، كانت هناك منظمات حزبية كثيرة يسيطر فيها ، على استعمال البطاقات الحزبية ، الاسلوب الكيفي والتهاون . وفي منظمات محلية كثيرة ، ظهرت فوضى في احصاء الشيوعيين لا يمكن القبول بها اطلاقاً . وقد استغل الاعداء هذه الحالة لمآربهم السافلة ؛ فكانوا يستخدمون بطاقة الحزب قناعاً يستترون وراءه للقيام بالتجسس والتخريب ، الخ . وقد القى كثير من قواد المنظمات الحزبية عن عاتقهم مهمة العناية بقبول الاعضاء في الحزب وبتسليم البطاقات الحزبية ، وعهدوا بذلك الى آخرين من الدرجة الثالثة ، بل عهدوا في بعض الاحيان ، الى اعضاء في الحزب لم تختبر جدارتهم بعد .

وقد وجهت اللجنة المركزية ، في ١٣ ايار ١٩٣٥ ، رسالة خاصة الى جميع المنظمات حول احصاء بطاقات المنتسبين ، وتسليمها والاحتفاظ بها ، فدعت الى اللجوء ، في جميع المنظمات ، للقيام بتحقيق دقيق في صحة بطاقات الحزب و « لجعل النظام البلشفي يسود في بيت حزبنا » .

لقد كان لهذا التحقيق في صحة الوثائق الحزبية اهمية سياسية كبرى .

فقد جاء في القرار الذي اتخذه الاجتماع الكامل للجنة المركزية المنعقد في ٢٥ كانون الاول ١٩٣٥ ، حول نتائج التحقيق في صحة الوثائق الحزبية ، ان هذا التحقيق كانت له من الناحية السياسية ومن الناحية التنظيمية اهمية عظيمة في توطيد صفوف الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

ولما انتهى التحقيق وتجديد البطاقات ، استؤنف قبول الاعضاء الجدد في الحزب . وفي هذا الصدد ، طلبت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، ان لا يجري ادخال الاعضاء الجدد في الحزب بالجملة ، بل ان يجري ذلك بصورة فردية صارمة عن طريق قبـــول « خيرة الناس في بلادنا ، الناس المتقدمين فعلاً ، والمخلصين فعلاً لقضية الطبقـــة العاملة ، وان يجري اختيارهم ، قبل كل شيء ، من بين العمال ، وكذلك من بين الفلاحين والمثقفين من دنيا العمل الذين جربوا في مختلف قطاعات النضال في سبيل الاشتراكية » .

وعند استئناف قبول الاعضاء الجدد في الحزب ، اشارت اللجنة المركزية الى ان من واجب منظمات الحزب ان لا تنسى ابداً ان العناصر المعـــادية ستحاول في المستقبل ايضاً ان تتسرب الى صفوف الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، وبالتالي :

> « فمهمة كل منظمة حزبية قوامها ، مع تشديد اليقظة البلشفية الى اقصى حد ممكن ، ان ترفع عالياً علم حزب لينين ، وان تحمي صفوف الحزب من ان تتغلغل فيها العناصر الغريبة والمعادية والتي تأتي بها الصدف ». (قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، بتاريخ ٢٩ ايلول ١٩٣٦ ، **البرافدا** ، العدد ٢٧٠ ، ١٩٣٦ .)

ان الحزب البلشفي ، بتطهيره صفوفه وتوطيدها وبسحقه اعـــداء الحزب وبنضاله بدون رحمة ضد تشويهات خطته العامة ، قد ازداد التفافاً حول لجنته المركزية التي تحت قيادتها ، انتقل الحزب وبلاد السوفيات الى المرحلة الجديدة ، الى انجاز بناء المجتمع الاشتراكي الخالي من الطبقات .

الخلاصة

في سنة ١٩٣٠ ــ ١٩٣٤ ، انجز الحزب البلشفي المهمة التاريخية التي كانت اصعب مهمات الثورة البروليتارية ، بعد الاستيلاء على الحكم ، الا وهي اجتذاب ملايين الفلاحين الملاكين الصغار الى سلوك طريق الكولخوزات ، طريق الاشتراكية . ان تصفية الكولاك ، وهم اكثر طبقات المستثمرين عدداً ، وانتقال جماهير الفلاحين الاساسية الى طريق الكولخوزات ، قد ادّيا الى استئصال آخر جذور الرأسمالية في البلاد ، والى انجاز انتصار الاشتراكية في الزراعة ، وتوطيد حكم السوفيات نهائياً في الريف .

وبعدما تغلبت الكولخوزات على سلسلة من المصاعب التنظيمية ، توطدت اركانها نهائياً ، وسارت على طريق حياة رغيدة .

ان تنفيذ برنامج السنوات الخمس الاول ، كانت نتيجته بناء اسس راسخة لا تتزعزع للاقتصاد الاشتراكي في بلادنا : صناعة ثقيلة اشتراكية من الدرجة الاولى ، وزراعة جماعية آلية ؛ لقد مُحيت البطالة ، ومُحي استثمار الانسان للانسان ، وخُلقت الشروط المطلوبة لتحسين وضع الشغيلة المادي والثقافي في بلادنا تحسيناً مستمراً .

لقد احرزت الطبقة العاملة والكولخوزيون وجميع الشغيلة في بلادنا هذه

النجاحات العظيمة ، بفضل السياسة الجريئة والثورية والواضحة التي انتهجها الحزب والحكومة .

ان الدول الرأسمالية التي تحيط بنا ، تسعى الى اضعاف قدرة الاتحاد السوفياتي واتلافها ، ولذلك تشدد « عملها » بغية تنظيم عصابات من القتلة والمخربين والجواسيس في داخل البلاد . ويشتد عداء هذه الدول الرأسمالية نحو الاتحاد السوفياتي خصوصاً مع وصول الفاشيست الى الحكم في المانيا واليابان. وقد وجدت الفاشستية في التروتسكيين والزينوفيفيين خدماً امناء . فهم يتولون القيام بالتجسس وممارسة التخريب والارهاب وارتكاب اعمال الالهاء ، انهم يريدون هزيمة الاتحاد السوفياتي ليستطيعوا اعادة الرأسمالية .
ان الحكم السوفياتي يعاقب حثالات الجنس البشري هؤلاء ، عقاباً صارماً ويضربهم بيد من حديد ، بوصفهم اعداء للشعب وخونة للوطن .



الفصل الثاني عشر

•

الحزب البلشفي في النضال لانجاز بناء المجتمع الاشتراكي — تطبيق الدستور الجديد

(١٩٣٥ — ١٩٣٧)

•

١ - الوضع الدولي في ١٩٣٥ — ١٩٣٧
الازمة الاقتصادية تخف وطأتها موقتاً — بدء ازمة اقتصادية جديدة - استيلاء ايطاليا على الحبشة - التدخل الالماني الايطالي في اسبانيا - الغزو الياباني في الصين الوسطى - بدء الحرب الاستعمارية الثانية .

ان الازمة الاقتصادية التي نشبت في الاقطار الرأسمالية في النصف الثاني من سنة ١٩٢٩ ، قد دامت حتى نهاية سنة ١٩٣٣ . وابتداءً من هذه الفترة ، توقف هبوط الصناعة ، وتطورت الازمة الى ركود ، وعرفت الصناعة شيئاً من الانتعاش ، شيئاً من النهوض . ولكن هذا لم يكن هو النهوض الذي يدشن ازدهار الصناعة على اساس جديد ، اكثر ارتفاعاً . فالصناعة الرأسمالية العالمية لم تستطع ان ترتفع حتى الى مستوى ١٩٢٩ ، فهي لم تبلغ ، في اواسط سنة ١٩٣٧ ، سوى ٩٥ الى ٩٦ بالمائة من هذا المستوى. وما ان اقبل النصف الثاني من سنة ١٩٣٧ ، حتى اطلت ازمة اقتصادية جديدة اخذت ، قبل كل

شيء ، بخناق الولايات المتحدة . ففي نهاية سنة ١٩٣٧ ، ارتفع عدد العاطلين عن العمل في الولايات المتحدة الى ١٠ ملايين شخص ، كما ازداد بسرعة في انكلترا .

وهكذا ، ما كادت الاقطار الرأسمالية تتماثل الى الشفاء من ضربات الازمة الاقتصادية السابقة ، حتى وجدت نفسها امام ازمة جديدة .

وكانت النتيجة ان ازدادت التناقضات احتداماً بين الاقطار الاستعمارية ، كما بين البورجوازية والبروليتاريا . ولذلك اخذت الدول المعتدية تضاعف محاولاتها بغية تعويض خسائرها الداخلية الناجمة عن الازمة الاقتصادية ، على حساب الاقطار الاخرى التي كانت وسائلها الدفاعية ضعيفة . وجدير بالذكر ان الدولتين المعتديتين المعروفتين ، المانيا واليابان ، قد انضمت اليهما ، هذه المرة ، دولة ثالثة ، هي ايطاليا .

ففي سنة ١٩٣٥ ، هاجمت ايطاليا الفاشيستية الحبشة واخضعتها . وقد فعلت ذلك دون اي سبب او باعث من بواعث « الحق الدولي » . وقدجرى الهجوم بدون اعلان حرب ، جرى خلسة على طريقة اللصوص ، كما هو شائع عند الفاشيست اليوم. ولم تصب الضربة الحبشة وحدها . فقد كانت موجهة ايضاً ضد انكلترا ، ضد مواصلاتها البحرية بين اوروبا والهند ، وفي آسيا . ولم تنجح المحاولات التي بذلتها انكلترا لمنع ايطاليا من تثبيت اقدامها في الحبشة . فان ايطاليا لم تلبث ان انسحبت من جامعة الامم لكي تصبح مطلقة اليدين ، تماماً . واخذت تتسلح بسرعة ونشاط .

وهكذا ظهرت بؤرة جديدة للحرب على اقصر طريق بين اوروبا وآسيا .

وعمدت المانيا الفاشيستية ، من جهتها ، الى نقض معاهدة فرساي ، بقرار وحيد الجانب ، ورسمت برنامجها لاجل فرض اعادة النظر في حدود الدول الاوروبية . ولم يكن الفاشيست الالمان يخفون ما ينوونه من اخضاع الدول المجاورة لسيطرتهم ، او الاستيلاء ، في اقل تقدير ، على المناطق التي يقطنها الالمان من اراضي هذه الدول . لقد كان برنامجهم ينطوي على

النقاط التالية : احتلال النمسا اولا ، وبعد ذلـك ، توجيه ضربة الى تشيكوسلوفاكيا ، ثم الى بولونيا ، على الارجح ، حيث توجد ايضاً منطقة بأسرها يقطنها الالمان ومحاذية لالمانيا ، وبعد ذلك ... بعد ذلك...«سنرى».

وفي صيف ١٩٣٦ ، تدخلت المانيا وايطاليا عسكرياً ضـد الجمهورية الاسبانية . وبحجة مساندة الفاشيست الاسبان ، حصلت ايطاليا والمانيا على امكانية ادخال جيوشهما خلسة الى الاراضي الاسبانية ، على مؤخرة فرنسا ، كما ادخلتا اسطولهما البحري الى مياه اسبانيا ، في نواحي جزر الباليار وجبل طارق في الجنوب ، والى منطقة المحيط الاطلسي في الغرب ، ومنطقة خليج بسكاي في الشمال . وفي مطلع سنة ١٩٣٨ ، احتل الفاشيست الالمان النمسا ، وبذلك توغلوا في منطقة الدانوب الاوسط ، وبلغوا جنوبي اوروبا ، واصبحوا اكثر قرباً من بحر الادرياتيك .

وبينما كان الفاشيست الالمان والطليان ماضين في توسيع تدخلهم ضـد اسبانيا ، كانوا يحاولون ان يقنعوا العالم بانهم يناضلون ضد « الحمر » ، وليس لهم اي غرض آخر في تلك البلاد . ولكن لم يكن ذلـك سوى تمويه فظ وغير بارع ، يرمي الى خدع السذج من الناس . ففي الحقيقة ، كانت ضربتهم تستهدف انكلترا وفرنسا ، ما داموا قد اصبحوا يسدون طرق المواصلات البحرية بين هذين البلدين وممتلكاتهما الإستعمارية الواسعة في افريقيا وآسيا .

اما فيما يتصل بالاستيلاء عـلى النمسا ، فكان من غير الممكن ، بتاتاً ، الادعاء بان هذا العمل يدخل في نطاق النضال ضد معاهدة فرساي ، في نطاق حماية المصالح « الوطنية » لالمانيا الساعية الى استرجاع الاراضي التي فقدتها في الحرب الاستعمارية الاولى : ان النمسا لم تشكل جزءاً من المانيا لا قبل الحرب ولا بعدها . فضم النمسا الى المانيا **بالعنف هو** الحاق استعماري غاشم لاراضي الغير ، هو عمل يكشف الستر ، بصورة لا تدع مجالا للشك ، عن رغبة المانيا الفاشيستية في السيطرة على غربي القارة الاوروبية بمجموعه .

فهو في الدرجة الاولى ، ضربة موجهة لمصالح فرنسا وانكلترا .

وهكذا ، ظهرت في اوروبا بؤرتان جديدتان للحرب ، احداهما في منطقة النمسا والادرياتيكي ، والاخرى في طرف اوروبا الغربي ، في نواحي اسبانيا والمياه التي تغسل شواطئها .

وفي سنة ١٩٣٧ ، استولى الفاشيست العسكريون في اليابان على بيكين واجتاحوا الصين الوسطى واحتلوا شانغاي . وقد جرت عملية ادخال القوات اليابانية الى الصين الوسطى كما جرت عملية غزو منشوريا قبل بضع سنوات على الطريقة اليابانية ، اي خلسة ومغافلة ، تحت ستار التذرع الكاذب بـ«حوادث محلية » اثارها اليابانيون انفسهم ، وخرقاً لجميع « القواعد الدولية » ،والعهود، والاتفاقات ، الخ . وباحتلال تيانتسين وشنغاي ، استولت اليابان على مفتاح العلاقات التجارية مع الصين وعلى السوق الصيني العظيم . حتى لقد اصبح في وسع اليابان ، ما دامت واضعة يدها على شانغاي وتيانتسين ، ان تطرد انكلترا والولايات المتحدة من الصين الوسطى التي وظفتا فيها رساميل ضخمة .

ولكن من الواضح ان النضال البطولي الذي يخوضه الشعب الصيني وجيشه ضد الغزاة اليابانيين ، ونهضة الشعور الوطني الجبارة في الصين ، واحتياطيات البلاد العظيمة من الرجال والاراضي ، واخيراً ، الارادة التي تتحلى بها الحكومة الوطنية الصينية في قيادة النضال لتحرير الصين حتى يطرد الغزاة طرداً تاماً من البلاد ، جميع هذه العناصر تثبت ، بدون اقل شك ، ان المستعمرين اليابانيين ليس لهم ولا يمكن ان يكون لهم اي مستقبل في الصين .

على انه من الثابت ، مع ذلك ، ان اليابان تقبض بيدها موقتاً على مفتاح العلاقات التجارية مع الصين ، وان الحرب التي تقوم بها ضد هذه البلاد ، تشكل ، في الاساس ، ضربة شديدة تمس مصالح انكلترا والولايات المتحدة.

وهكذا ، ظهرت في المحيط الهادي ، في نواحي الصين ، بؤرة اخرى للحرب .

من كل ذلك يتبين ان الحرب الاستعمارية الثانية قد بدأت فعلاً . لقد

بدأت خلسة، دون اعلان حرب. فالدول والشعوب قد انزلقت بشكل من الاشكال، ودون ان تشعر، الى هاوية حرب استعمارية ثانية. وهذه الحرب قد بدأتها في نقاط مختلفه من الكرة، ثلاث دول معتدية: لقد بدأتها الاوساط الحاكمة الفاشستية في المانيا وايطاليا واليابان. وهي تجري في بقاع شاسعة ممتدة من جبل طارق الى شانغهاي. وقد جرّت الى مدارها اكثر من نصف مليار من البشر. انها تجري، في آخر تحليل، ضد المصالح الرأسمالية لانكلترا وفرنسا والولايات المتحدة، لانها تهدف الى اعادة تقسيم العالم ومناطق النفوذ وفقاً لمصلحة البلدان المعتدية، وعلى حساب هذه الدول التي تسمى عادة بالدول الديموقراطية.

ان مايميز الحرب الاستعمارية الثانية، في الفترة الحالية، هو ان الدول المعتدية هي التي تقوم بها وتوسعها، في حين ان الدول الاخرى، الدول «الديموقراطية» الموجهة ضدها هذه الحرب، بصورة كلية، تتظاهر بالاعتقاد بان هذه الحرب لاتعنيها وتتبرأ منها وتتراجع، وتتبجح بحبها للسلام، وتنحي باللائمة على المعتدين الفاشيست و... تسلم مواقعها الى المعتدين شيئاً بعد شيء، وتزعم، في الوقت نفسه، انها تستعد للرد عليهم.

وهذه الحرب، كما هو ظاهر للعيان، انما هي حرب فريدة في بابها، حرب باتجاه واحد. ولكن ذلك لا يقلل من كونها حرباً وحشية، حرباً توسعية غاشمة تجري، كما هي الحال، على حساب شعوب الحبشة واسبانيا والصين، ذات الوسائل الدفاعية الرديئة.

ومن الخطأ ان تُعزى هذه الصفة الوحيدة الجانب التي تتميز بها الحرب الى ضعف الدول «الديموقراطية» العسكري او الاقتصادي. فهذه الدول «الديموقراطية» هي، بدون ادنى شك، اقوى من الدول الفاشستية. فالصفة الوحيدة الجانب للحرب العالمية الآخذة في المسير، تعود الى عدم وجود جبهة موحدة من الدول «الديموقراطية» ضد الدول الفاشيستية. صحيح، ان الدول المسماة «ديموقراطية» لا تقر الدول الفاشيستية في ما تقدم عليه من

« شطط وغلو » ، وهي تخشى ازدياد قوة هذه الدول . ولكنها تخاف من حركة العمال في اوروبا وحركة التحرر الوطني في آسيا اكثر من خوفها من الدول الفاشيستية ، وهي تعتبر ان الفاشيستية « ترياق صالح » للوقاية من جميع هذه الحركات « الخطرة » . ذلك هو السبب في ان الاوساط الحاكمة في الدول « الديموقراطية » ، ولا سيما الاوساط الانكليزية المحافظة ، تلتزم سياسة هدفها اقناع الطغاة الفاشيست المنفلتين من عقالهم « بان لا يذهبوا في الامور الى حد الشطط » ، وتوحي لهم ، في ذات الوقت ، بانها « تتفهم تماماً » بل تحبذ ، على الجملة ، سياستهم الرجعية والبوليسية ضد حركة العمال وحركة التحرر الوطني . ومن هذه الناحية ، تتبع الاوساط الحاكمة في انكلترا تقريباً تلك السياسة التي كان البورجوازيون الليبراليون والملكيون يتبعونها في عهد القيصرية في روسيا ، فكانوا ، مع خوفهم من « شطط » السياسة القيصرية ، يخشون الشعب اكثر ، وقد اتبعوا ، بالنتيجة ، سياسة اقناع نحو القيصر ، اي سياسة تواطؤ مع القيصر ضد الشعب . ومن المعلوم ان البورجوازية الليبرالية الملكية في روسيا قد دفعت غالياً ثمن هذه السياسة ذات الوجهين . وهناك كل ما يحمل على الاعتقاد بان الاوساط الحاكمة في انكلترا واصدقاءها في فرنسا والولايات المتحدة ستؤدي ايضاً جزيتها الى التاريخ .

ومن المفهوم ان الاتحـــاد السوفياتي الذي يشهد الاتجاه الذي تتخذه الشؤون الدولية ، لم يكن بوسعه ان يتجاهل هذه الحوادث الحبلى بالاخطار . فكل حرب يشعلها المعتدون ، حتى ولو كانت ضيقة النطاق ، تشكل خطراً على البلدان المحبة للسلم . والحرب الاستعمارية الثانية التي جاءت ، شيئاً فشيئاً وبصورة « غير ملحوظة » ، ففاجأت الشعوب وجرّت في تيارها ، حتى الآن ، اكثر من نصف مليار من البشر ، هي ، حتماً ، وبحجة أولى ، خطر جسيم على جميع الشعوب ، وفي الدرجة الاولى ، على الاتحاد السوفياتي . وهذا ما يثبته ، بصورة بليغة ، انشاء « كتلة معادية للشيوعية » مؤلفة ، من المانيا وايطاليا واليابان . ولهذا ، فان بلادنا ، مع متابعة سياستها السلمية ، اخذت

تعمل ، بغير انقطاع ، على المزيد من تعزيز قدرة الدفاع عن حدودنا ، ومن قوة جيشنا الاحمر واسطولنا الاحمر العسكرية . وفي اواخر سنة ١٩٣٤، دخل الاتحاد السوفياتي جامعة الامم ، معتبراً ان هذه المؤسسة ، رغم ضعفها، يمكنها ، في كل حال ، ان تكون مجالا لفضح المعتدين ، واداة سلمية ، الى حد ما ، تساعد ، على اعاقة اشعال الحرب ، رغم ما هي عليه من وهن لا ريب فيه . لقد ارتأى الاتحاد السوفياتي انه ينبغي ، في وقت كهذا ، عدم احتقار منظمة دولية حتى ولو كانت ضعيفة كجامعة الامم . وفي ايار ١٩٣٥ ، عُقد بين فرنسا والاتحاد السوفياتي ميثاق مساعدة متبادلة ضد هجوم المعتدين المحتمل وقوعه . وفي ذات الوقت ، عُقد ميثاق آخر مع تشيكوسلوفاكيا . وفي آذار ١٩٣٦ ، عقد الاتحاد السوفياتي ميثاق مساعدة متبادلة مع جمهورية مونغوليا الشعبية . وفي آب ١٩٣٧ ، عُقد ميثاق عدم اعتداء بين الاتحاد السوفياتي وجمهورية الصين .

٢ — نهوض الصناعة والزراعة يستمر في الاتحاد السوفياتي — تنفيذ برنامج السنوات الخمس الثاني قبل موعده — اعادة بناء الزراعة وانجاز تنظيم الزراعة الجماعي — اهمية الكادر — الحركة الستاخانوفية — ارتفاع الرفاهية الوطنية — نهوض الثقافة الوطنية — القوة العظيمة للثورة السوفياتية —

بينما طرأت على البلدان الرأسمالية ازمة اقتصادية جديدة، بعد مضي ثلاث سنوات فقط على ازمة ١٩٣٠ — ١٩٣٢، كان نهوض الصناعة في الاتحاد السوفياتي، **طيلة هذه المرحلة**، مستمراً بشكل جارف لا يُقاوم. وبينما الصناعة الرأسمالية في العالم بمجموعه ، لم تكد تبلغ، في اواسط ١٩٣٧ سوى ٩٥ الى ٩٦ ٪ من مستوى ١٩٢٩، ثم اصيبت منذ النصف الثاني من عام ١٩٣٧ بازمة اقتصادية جديدة ، كانت الصناعة السوفياتية عند نهاية ١٩٣٧ ، قد بلغت

خلال سيرها الجبار الى امام، مقدار ٤٢٨ بالمئة من مستوى ١٩٢٩ وازدادت اكثر من ٧ مرات بالقياس الى مستوى ماقبل الحرب .

لقد كانت هذه النجاحات هي النتيجة المباشرة لسياسة اعادة البنــاء التي ينهجها الحزب والحكومة بمثابرة تامة مطلقة.

وكانت النتيجة التي ادت اليها هذه النجاحات ان برنامج السنوات الخمس الثاني في الصناعة تم تنفيذه قبل موعده، وذلك بتاريخ اول نيسان١٩٣٧ ،اي في فترة ٤ سنوات و٣ اشهر .

لقد كان ذلك انتصاراً رائعاً للاشتراكية .

وسجلت الزراعة مثل هذا النهوض تقريباً. فقد ارتفعت المساحة المزروعة، بجميع انواع الزراعات ، من ١٠٥ مــلايين هكتار في سنة ١٩١٣ (مرحلة ما قبل الحرب) الى ١٣٥ مليون هكتــار في سنـة ١٩٣٧. وازداد انتاج الحبوب من ٤ مليارات و٨٠٠ مليون بود في سنة ١٩١٣ الى ٦ مليارات و٨٠٠ مليون بود في سنة ١٩٣٧ ؛وارتفع انتاج القطن الخام من ٤٤ مليون بود الى ١٥٤ مليوناً، وانتاج الكتان (الالياف) من ١٩ مليون بود الى ٣١ مليوناً، وانتاج الشمندر من ٦٥٤ مليون بود الى مليار و ٣١١ مليونــاً، وانتاج النباتات الزيتية من ١٢٩ مليون بود الى ٣٠٦ ملايين .

وجدير بالذكر ان الكولخوزات وحدها ، (بدون السوفخوزات) قد اعطت البلاد في سنة ١٩٣٧ اكثر من مليار و ٧٠٠ مليون بود من القمح التجاري ، اي ٤٠٠ مليون ، على الاقل ، زيادة عما اعطاه في ١٩١٣ ، كبار ملاكي الارض والكولاك والفلاحون مجتمعين .

وكان هناك فرع واحد من فروع الزراعة ، هو تربية الماشية ، لا يزال متأخراً عن مستوى ما قبل الحرب ، ويسير ببطء شديد جداً .

اما فيما يتعلق بتنظيم الزراعة التعاونية ، فقد اصبح في الامكان ، اعتبار ذلك بعد الآن، امراً تم انجازه. فقد ضمت الكولخوزات في سنة ١٩٣٧ ، ١٨ مليون ٥٠٠ الف عائلة ، اي ما يعادل ٩٣ بالمئة من مجموع الفلاحين . امــا

الحقول الكولخوزية التي زُرعت حبوباً فقد مثلت ٩٩ بالمئة من جميع اراضي الفلاحين المزروعة حبوباً.

ان اعادة بناء الزراعة وتزويدهـا الكثيف بالتراكتورات والآلات الزراعية قد اعطيا نتائج واضحة للعيان .

وهكذا، ادى انجاز اعادة البناء الصناعي والزراعي الى فسح المجال لتجهيز الاقتصاد الوطني تجهيزاً وافراً بمعدات تكنيكية من الطراز الاول. فقد زُوّدت الصناعة والزراعة ووسائل النقل والجيش بمقدار عظيم من المعدات التكنيكية الحديثة : آلات جديدة ، وآلات ادوات وتراكتورات، وآلات زراعية وقاطرات ،ومراكب بخارية، ومدفعية ودبابات، وطيارات وبواخر حربية. واصبح الواجب يقتضي ايجاد عشرات ومئات الالوف من الكادر المتخصص القادر على امتلاك ناصية هذا التكنيك والحصول منه على اقصى مايمكن ان يعطي. فبدون بلوغ ذلك، بدون عدد كاف من الاختصاصيين المالكين زمام التكنيك ، كان هذا التكنيك مهدداً بان يتحول الى اكداس من المعدن الذي لا حراك فيه ولا يمكن استعماله . لقد كان ذلك خطرا جديا ، لان تكوين الملاكات القادرة على امتلاك ناصية التكنيك لم يكن يجاري تطور التكنيك ، بل كان متأخراً عنه . والامر الذي كان يزيد الطين بلة ان قسماً هاماً من مناضلينا لم يدركوا هـذا الخطر وكانوا يعتقدون بان التكنيك « يمكن ان يقوم وحده » بمهمته . واذا كانوا سابقاً قد استصغروا شأن التكنيك واتخذوا منه موقف الازدراء ، فقد اصبحوا اليوم يقدرونه اكثر مما هو ، لقد اصبحوا يؤلهونه . فلم يكونوا يفهمون ان التكنيك ، بدون اناس يمتلكين ناصيته ، هو شيء ميت . ولم يدركوا ان التكنيك لا يمكن ان يعطي انتاجاً رفيعاً الا حين يكون هناك اناس امتلكوا ناصيته .

لذلك اصبحت مسألة الكادر التكنيكي على جانب رئيسي من الاهمية .

فكان من الضروري جداً ان يتخلى مناضلونا عن وَلعهم المفرط بالتكنيك

وعن استصغارهم لدور الكادر ، ليستوعبوا التكنيك ويمتلكوا ناصيته ، ويعملوا ، باقصى حدود الامكان ، على تقوية تكوين الكادر القادر على السيطرة عليه والحصول منه على اقصى ما يمكن ان يعطي .

قديماً ، في اوائل مرحلة اعادة البناء ، لما كانت البلاد مفتقرة للتكنيك افتقاراً شديداً ، القى الحزب الشعار القائل : « ان التكنيك، في مرحلة اعادة البناء ، يقرر كل شيء » ؛ اما الان بعدما اصبحنا مجهزين تجهيزاً وافراً بالوسائل التكنيكية ، منذ انجاز مرحلة اعادة البناء ، بخطوطها الكبرى ، وبعدما اخذت البلاد تعاني قلة الكادر ، فقد كان على الحزب ان يلقي شعاراً جديداً لتوجيه الانتباه لا الى التكنيك هذه المرة ، بل الى الناس ، الى الكادر القادر على استخدامه استخداماً تاماً .

وقد كان لخطاب الرفيق ستالين في الاحتفال بتخرج تلامذة المدارس العليا للجيش الاحمر ، في ايار ١٩٣٥ ، اهمية كبرى من هذه الناحية . لقد قال الرفيق ستالين :

« قديماً ، كنا نقول « ان التكنيك يقرر كل شيء » . وقد ساعدنا هذا الشعار بمعنى اننا ازلنا النقص في التكنيك وخلقنا اوسع اساس تكنيكي في جميع فروع النشاط لنسلح رجالنا بتكنيك من الطراز الاول . وهذا حسن جداً . ولكنه ليس كافياً ، بل بعيداً جداً عن الكفاية . فلأجل تسيير التكنيك واستخدامه استخداماً تاماً ، يلزم لنا اناس امتلكوا ناصية التكنيك ، يلزم لنا كادر قادر على استيعاب هذا التكنيك واستخدامه وفقاً لجميع قواعد الفن . ان التكنيك بدون الناس الذين امتلكوا ناصيته ، شيء ميت . اما التكنيك الذي يتولى قيادته اناس امتلكوا ناصيته ، فيستطيع وينبغي ان يفعل المعجزات . ولو كان في مصانعنا ومعاملنا من الدرجة الاولى ، وفي سوفخوزاتنا و كولخوزاتنا ، وفي مصالح النقل وفي جيشنا الاحمر عدد كاف من الكادر القادر على السيطرة

على هذا التكنيك ، لحصلت بلادنا على انتاج ارفع من الآن بثلاث مرات او اربع . لذلك ينبغي ان تتجه معظم جهودنا الآن الى الناس ، الى الكادر، الى الشغيلة المتملكين ناصية التكنيك . ولهذا فان الشعار القديم **« التكنيك يقرر كل شيء »** ، ذلك الشعار الذي هو انعكاس لمرحلة مضت كان النقص في ميدان التكنيك سائداً خلالها عندنا ، ينبغي تبديله الآن بشعار جديد : **«الملاكات تقرر كل شيء »** . هذا هو الشيء الجوهري اليوم ...

وقد آن ان ندرك ان الناس ، ان الكادر هم اثمن رأسمال ، هم الرأسمال ذو القول الفصل من بين جميع الرساميل الموجودة في العالم . وينبغي ان ندرك ان **« الكادر يقرر كل شيء »** ، في الاحوال الراهنة عندنا . فاذا كان عندنا كادر جيد وكثير العدد في الصناعة والزراعة ومصالح النقل والجيش ، فان بلادنا لا يمكن ان تغلب . واذا لم يكن عندنا كادر من هذا النوع فاننا سنعرج من رجلينا الاثنتين » .

وهكذا ، فان تكوين الكادر التكنيكي، العاجل،وامتلاك ناصية التكنيك الجديد بسرعة بغية تأمين نهوض انتاجية العمل بصورة دائمة ثابتة ، قد اصبحا المهمة الرئيسية .

وقد كانت الحركة الستاخانوفية هي التي دلت بمنتهى الوضوح على تطور هذا الكادر وعلى استيعاب رجالنا للتكنيك الجديد وعلى نهوض انتاجية العمل نهوضاً مستمراً لا انقطاع له . لقد ولدت هذه الحركة وترعرعت في حوض الدونيتز ، في الصناعة الفحمية ، وامتدت الى صناعات اخرى والى وسائل النقل ثم شملت الزراعة . وقد دعيت بالحركة الستاخانوفية ، نسبة الى اسم صاحب المبادرة الاولى فيها ، العامل في قلع الفحم ، اليكسي ستاخانوف ، من بئر «تسنترالنايا ارمينو» (حوض الدونيتز) وقبل ستاخانوف ، كان نيكيتا ايزونوف قد ضرب ارقاماً قياسية في استخراج الفحم لم يسبق لها مثيل . ان

مثال ستاخانوف الذي قلع في مركز واحد ، بتاريخ ٣١ آب ١٩٣٥ ، ١٠٢ طن من الفحم ، اي ما يزيد باربع عشرة مرة عن المعدل المألوف ، قد سجل بدء حركة جماهيرية للعمال والكولخوزيين في سبيل رفع معدلات الانتاج واحداث نهوض جديد في انتاجية العمل . بوسيغين في صناعة السيارات ، وسميتانين في صناعة الاحذية ، وكريفونوس في مصالح النقل ، وموسينسكي في الصناعة الغابية ، وافدوكيا وماريا فينوغرادوفا في صناعة النسيج ، وماريا دمنتشنكو ، ومارينا غناتنكو ، وب . انغيلينا ، وبولا غوتين ، وكوليسوف ، وكوفارداك ، وبورين في الزراعة ، تلك هي اسماء رواد الحركة الستاخانوفية الاولون .

وقد اقتفى اثرهم اخرون ، ونسجت على منوالهم فصائل باسرها من الرواد الذين رفعوا انتاجية العمل الى اعلى مما رفعها سابقوهم .

وقد كان لمؤتمر الستاخونوفيين الاول في الاتحاد السوفياتي الذي عقد في تشرين الثاني ١٩٣٥ في الكرملين ولخطاب الرفيق ستالين في هذا المؤتمر ، اهمية عظمى في تطور الحركة الستاخانوفية . لقد قال الرفيق ستالين :

« ان الحركة الستاخانوفية تعبر عن نهوض جديد في المباراة الاشتراكية ،عن مرحلة جديدة ،عليا في المباراة الاشتراكية... في السابق ، قبل حوالي ثلاث سنوات ، خلال المرحلة الاولى من المباراة الاشتراكية ، لم تكن هذه المباراة مرتبطة ،وجوبا، بالتكنيك الجديد . على انه لم يكن عندنا تقريباً في تلك الفترة تكنيك جديد ، بمعنى الكلمة الحقيقي . اما في المرحلة الحاضرة من المباراة الاشتراكية ، فالحركة الستاخانوفية على العكس ، مرتبطة وجوباً بالتكنيك الحديث . فالحركة الستاخانوفية ما كان يمكن تصورها بدون التكنيك الجديد الرفيع . ان امامكم اناساً كالرفاق ستاخانوف، وبوسيغين ،وسميتانين ، وكريفونوس ، وبرونين ، والرفيقتين فينوغرادوفا وغيرهم كثيرين آخرين ، اناساً جدداً ، عمالا وعاملات ، امتلكوا تماماً ناصية التكنيك في

مهنتهم وروضوه ودفعوه الى امام . فقبل حوالي ثلاث سنوات لم يكن عندنا ، بتاتاً ، او تقريباً ، اناس من هـذا النوع ... ان اهمية الحركة الستاخانوفية هي ان هذه الحركة تقلب رأساً على عقب المعدلات التكنيكية القديمة بوصفها غير كافية ، وتتجاوز ، في مناسبات عديدة ، انتاجية العمل في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، وتتيح ، بهذه الصورة ، الامكانية العملية لتوطيد الاشتراكية في بلادنا توطيداً مستمراً لا انقطاع له ، ولجعل بلادنا اكثر البلدان يسراً ورخاء » .

وحدد الرفيق ستالين اساليب عمل الستاخانوفيين وحلل الدور الهائل لهذه الحركة في مستقبل بلادنا ، فقال :

« انظروا عن كثب الى الرفاق الستاخانوفيين . فمن هم هؤلاء الناس ؟ انهم ، بوجه خاص ، عمال وعاملات شباب او متوسطو السن ، اناس متطورون راسخو القدم في التكنيك ، يضربون المثل في الدقة والانتباه في العمل ، يعرفون ان يقدروا قيمة عامل الوقت في العمل ، وقد تعلموا ان يحسبوا الوقت لا بالدقائق فقط بل بالثواني . ان معظمهم قد « اجتازوا ما يسمى بالحد الادنى من التكنيك (١) وما زالوا يتابعون اكمال تحصيلهم التكنيكي ، وهم خلو من روح المحافظة والجمود الروتيني اللذين يتصف بهما بعض المهندسين والفنيين وبعض قادة المؤسسات ، وهم يسيرون بجرأة الى امام ويقلبون المعدلات التكنيكية الشائخة ، ويخلقون معدلات جديدة ارفع ، ويدخلون تصحيحات على الطـاقات الانتاجية المقررة ، وعلى البرامج الاقتصادية التي يضعهـا قادة صناعتنا ، ويقومون دائماً باكمال نواقص المهندسين والفنيين واصلاح مايقعون فيه من خطأ ، وكثيراً ما يعلمونهم ويدفعونهم الى امام ، لان

(١) يقصد بالحد الادنى من التكنيك مستوى معيناً من المعارف التكنيكية للعمال في المؤسسات الصناعية الاشتراكية .
(هيئة التعريب)

الستاخانوفيين اناس اصبحوا يتملكون امتلاكا تاماً ناصية تكنيك مهنتهم ويعرفون ان يحصلوا من التكنيك على اقصى ما يمكن ان يعطي .

« ان الستاخانوفيين لا يزالون اليوم قليلي العدد ، ولكن من يستطيع ان يشك بان عددهم سيتضاعف غداً عشرات المرات ؟ اليس واضحاً ان الستاخانوفيين هم مجددون في صناعتنا ، وان الحركة الستاخانوفية تمثل مستقبل صناعتنا ، وانها تنطوي على بذور النهوض التكنيكي والثقافي المقبل للطبقة العاملة ، وانها تفتح امامنا الطريق الذي سيمكننا وحده من الحصول على معدلات ارفع لانتاجية العمل ، هذه المعدلات الضرورية للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ولمحو التعارض بين العمل الفكري والعمل اليدوي؟»

ان الحركة الستاخانوفية التي انتشرت انتشاراً واسعاً ، وتنفيذ برنامج السنوات الخمس الثاني قبل موعده ، قد اوجدا الشروط الضرورية لنهوض جديد في رفاهية الشغيلة ، وتطورهم الثقافي .

فخلال مرحلة برنامج السنوات الخمس الثاني ، زادت اجرة العمال والمستخدمين الحقيقية عن ضعفي ما كانت عليه . وارتفعت مخصصات الاجور من ٣٤ مليار روبل في سنة ١٩٣٣ الى ٨١ ملياراً في ١٩٣٧ . وارتفعت مخصصات الدولة للضمانات الاجتماعية من ٤ مليارات و ٦٠٠ مليون روبل في ١٩٣٣ الى ٥ مليارات و ٦٠٠ مليون في ١٩٣٧ . وفي سنة ١٩٣٧ وحدها أُنفقت ١٠ مليارات روبل تقريباً على سبيل ضمانات من الدولة للعمال والمستخدمين ، ولاجل تحسين شروط الحياة ، ولاجل الشؤون الثقافية والمصحات ، ومراكز الاستجمام ودور الراحة والخدمات الطبية .

وتوطد النظام الكولخوزي نهائياً في الريف . وقد ساهم في ذلك مساهمة قوية عاملان اثنان هما : **النظام الداخلي للارتيل الزراعي** ، الذي اقره المؤتمر الثاني للكولخوزيين الصداميين في شباط ١٩٣٥ ، واقرار تسليم

الكولخوزات جميع الاراضي التي تزرعها هذه الكولخوزات لتتمتع بها الى الابد . وبفضل توطيد النظام الكولخوزي ، زال الفقر في الريف وقضي على عدم الاطمئنان للغد . واذا كان الكولخوزي ، قبل حوالي ثلاث سنوات ، ينال كيلو غراماً او كيلو غرامين من الحبوب لقاء يوم العمل ، فان معظم الكولخوزيين في المناطق المنتجة للحبوب اخذوا ينالون الان ، لقاء يوم العمل ، من ٥ الى ١٢ كيلو غراماً من الحبوب ، وكثيرون منهم ينالون حتى ٢٠ كيلو غراماً ، ما عدا المنتجات الاخرى والدخل النقدي . وهناك ملايين من العائلات الكولخوزية التي نالت في مناطق الحبوب من ٥٠٠ الى ١٥٠٠ بود من الحبوب في سنة واحدة ، وعشرات الالاف من الروبلات في السنة في المناطق المنتجة للقطن والشمندر والكتان ، او المخصصة لتربية المواشي ولزراعة الكرمة وشجر الليمون والاشجار المثمرة والخضر . لقد استقر الرخاء في الكولخوزات . وقد اصبح بناء المستودعات الجديدة للغلال والزرائب الجديدة الشغل الاساسي للعائلة الكولخوزية ، نظراً لان المستودعات القديمة المعدة لمؤن سنوية زهيدة لم تبق كافية حتى لعشر واحد من حاجات الكولخوزيين الجديدة.

وقد اخذت الحكومة بعين الاعتبار رفاه الجماهير الشعبية النامي ، فسنت في سنة ١٩٣٦ قانونا يمنع الاجهاض. وفي ذات للوقت وُضع برنامج واسع لبناء دور التوليد ودور الحضانة ومراكز لتوزيع الحليب ورياض الاطفال . وقد خصص في تلك السنة لهذه الشؤون الاجتماعية ملياران و ١٧٤ مليون روبل مقابل ٨٧٥ مليوناً في ١٩٣٥ . ووضع قانون خاص ينص على منح العائلات الكثيرة العدد تعويضات كبرى . وبموجب احكام هذا القانون ، دفع في سنة ١٩٣٧ اكثر من مليار روبل .

وبنتيجة تطبيق التعليم الالزامي العام وبناء المدارس الجديدة ، سجلت ثقافة الجماهير الشعبية نهوضاً جباراً . ففي طول الاتحاد السوفياتي وعرضه قام عمل هائل لتطوير التعليم ، وارتفع عدد التلاميذ في المدارس الابتدائية والثانوية من ٨ ملايين في ١٩١٤ الى ٢٨ مليونا في ١٩٣٦ — ١٩٣٧ . وارتفع عدد

الطلاب في مؤسسات التعليم العالي من ١١٢ الف طالب في عـــام ١٩١٤ الى ٥٤٢ الفاً في ١٩٣٦ – ١٩٣٧ . تلك كانت الثورة الثقافية .

وفي هذا النهوض الذي بلغه رخاء الجماهير الشعبية المادي وتطورها الثقافي ، تجلت قوة ثورتنا السوفياتية وجبروتها ومنعتها . ان الثورات ، في الماضي ، كانت تتلاشى لانها ، بعد ان تعطي الشعب الحرية ، لم تكن تملك ، في ذات الوقت ، امكان ادخال تحسين جدي على وضعه المادي والثقافي . وهنا كان الضعف الرئيسي لتلك الثورات . اما ثورتنا فتتميز عن جميع الثورات الاخرى في انها لم تحرر الشعب من القيصرية والرأسمالية وحسب ، بل حسّنت ايضـــاً وضعه المادي والثقافي من الاساس. وهذا هو مصدر قوتها ، هذا ما يجعلهـــا منيعة لا تغلب .

في الخطاب الذي القـــاه الرفيق ستالين في المؤتمر الاول للستاخانوفيين في الاتحاد السوفياتي ، قال :

« ان ثورتنا البروليتارية هي الثورة الوحيدة في العالم ، التي لم يعط لها فقط ان تبين للشعب نتائجها السياسية ، بل ان تبين ايضاً نتائجها المادية. ولسنا نعرف، من بين جميع الثورات العمالية، سوى ثورة واحدة توصلت ، بشكل من الاشكال ، الى الحكم، وهي كومونة باريس . ولكنها لم تعش طويلًا . صحيح انهـــا حاولت ان تحطم سلاسل الرأسمالية ولكن لم يتسع لهـــا الوقت للقيام بذلك ، وبالاحرى ، لم يتسع لهـــا الوقت لتبين للشعب الحسنات المادية للثورة. فثورتنا هي الثورة الوحيدة التي لم تقتصر فقط على تحطيم سلاسل الرأسمالية واعطاء الشعب الحرية ، بـــل استطاعت ، فضلا عن ذلك ، ان تعطيه الشروط المادية لحياة رغيدة . هذا هو مصدر قوة ثورتنا ، هذا مـــا يجعلها منيعة لا تُغلب » .

٣ - المؤتمر الثامن لمجالس السوفيات - اقرار الدستور الجديد للاتحاد السوفياتي .

في شباط ١٩٣٥ ، قرر المؤتمر السابع لمجالس السوفيات في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، ادخال تعديل على دستور الاتحاد السوفياتي الموضوع عام ١٩٢٤ . وكانت ضرورة التعديل ناجمة عن التغييرات العظيمة التي طرأت على حياة الاتحاد السوفياتي منذ ١٩٢٤ ، اي منذ وضع الدستور الاول للبلاد السوفياتية الى ايامنا هذه . ففي هذه السنين المنصرمة ، تغيرت العلاقة بين القوى الطبقية في الاتحاد السوفياتي تغيراً كلياً : فقد أنشئت صناعة جديدة هي الصناعة الاشتراكية ، وتم سحق الكولاك ، وانتصر نظام الكولخوزات ، وتوطدت الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج في مجموع الاقتصاد الوطني ، من حيث هي اساس المجتمع السوفياتي . وكان انتصار الاشتراكية يسمح بمواصلة السير نحو جعل النظام الانتخابي ديموقراطياً اكثر فاكثر ، ونحو تطبيق حق التصويت العام المتساوي والمباشر ، على اساس الاقتراع السري .

وقد قامت لجنة دستورية خاصة يرأسها الرفيق ستالين بوضع دستور جديد لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية . وقد طرح هذا المشروع لمناقشة شعبية دامت خمسة اشهر ونصف الشهر ، ثم عرض على المؤتمر الاستثنائي الثامن لمجالس السوفيات .

وفي تشرين الثاني ١٩٣٦ ، انعقد المؤتمر الثامن لمجالس السوفيات ، الذي كان عليه ان يقر او يرفض مشروع الدستور الجديد للاتحاد السوفياتي .

وقد استعرض الرفيق ستالين ، في التقرير الذي قدمه الى المؤتمر الثامن عن مشروع الدستور الجديد ، التغييرات الاساسية التي طرأت على البلاد السوفياتية منذ اقرار دستور ١٩٢٤ .

كان دستور ١٩٢٤ ، قد وضع في الفترة الاولى من عهد السياسة الاقتصادية الجديدة (عهد النيب) ، ايام كان الحكم السوفياتي ما زال

يتسامح بتطور الرأسمالية الى جانب تطور الاشتراكية . في ذلك الحين ، كان الحكم السوفياتي يستهدف، خلال المباراة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، تنظيم وتأمين انتصار الاشتراكية على الرأسمالية في الميدان الاقتصادي. في ذلك الحين كان السؤال: « لمن ستكون الغلبة ؟ » ما زال بدون جواب . فالصناعة التي كانت مرتكزة على تكنيك عتيق وفقير لم تكن قـد بلغت مستوى ما قبل الحرب . اما الزراعة فكانت آنذاك اسوأ حـالا من الصناعة . فالكولخوزات والسوفخوزات لم تكن تؤلف سوى جزر صغيرة في بحر خضم من اقتصاديات الفلاحين الفردية . ولم يكن السعي اذ ذاك متجهاً نحو تصفية الكولاك ، بل نحو حصرهم والتضييق عليهم فقط . وفي ميدان التجارة كان القطاع الاشتراكي لا يشمل الا ما يقارب ٥٠ بالمئة منها .

اما في العام ١٩٣٦ ، فكان الاتحاد السوفياتي يمثل صورة اخرى مختلفة تماماً . كان الاقتصاد الوطني قـد تغير تغيراً تاماً في هذا الوقت ، فالعناصر الرأسمالية تمت تصفيتها بصورة كاملة ، وانتصر النظام الاشتراكي في جميـع ميادين الاقتصاد الوطني . واصبحت الصناعة الاشتراكية الجبارة تنتج سبعة اضعاف ما كانت تنتجه صناعة ما قبل الحرب ، كما انها أزاحت الصناعة الخاصة تماماً. اما في الزراعة ، فقد انتصر الانتاج الاشتراكي، اكبر انتاج في العالم قائم على الميكانيك ومجهز بالتكنيك الحديث ، وهو الانتـاج المتمثل في نظام الكولخوزات والسوفخوزات. وحوالي ١٩٣٦ كانت قد تمت تصفية الكولاك من حيث هم طبقة، اما قطاع الفلاحين الفرديين فلم يعد له اي دور ذي شأن في اقتصاديات البلاد . كذلك التجارة اصبحت بكاملها متمركزة في ايدي الدولة والتعاونيات. وأُزيل الى الابد استثمار الانسان للانسان . وكانت الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، اي الملكية الاشتراكية ، قد رسخت جذورها من حيث هي الاساس الذي لا يتزعزع للنظام الجديد ــ النظام الاشتراكي ــ في جميع فروع الاقتصاد الوطني. وزالت الى الابد ، في المجتمـع الجديد، الازمات والبؤس والبطالة والخراب . ونشأت الشروط اللازمة لكي يعيش

جميع اعضاء المجتمع السوفياتي حياة الرفاه والثقافة .

وكان من نتيجة ذلك ، كما صرّح الرفيق ستالين في تقريره ، ان تغير البناء الطبقي لسكان الاتحاد السوفياتي . فطبقـة كبار ملاكي الاراضي ، وكذلك البورجوازية الاستعمارية الكبيرة القديمة ، كان قد تم القضاء عليها منذ ايام الحرب الاهلية . وخلال سنوات البناء الاشتراكي تمت تصفية جميع العناصر المستثمرة ، من الرأسماليين وتجار الجملة والكولاك والمحتكرين . ولم يبق من الطبقات المستثمِرة ، التي تمت تصفيتها ، سوى بقايا لا يؤبه لها ، وكان المستقبل القريب كفيلاً بتصفيتها تماماً .

وتغير شغيلة الاتحاد السوفياتي ، العمال والفلاحون والمثقفون ، تغيّراً عميقاً خلال سنوات البناء الاشتراكي .

فالطبقة العاملة لم تعد طبقة مُستثمَرة ، محرومة من وسائل الانتاج ، كما هي الحال في النظام الرأسمالي . فهي قـد ازالت الرأسمالية ، وانتزعت من الرأسماليين وسائل الانتاج وحوّلتها الى ملكية اجتماعية. فالطبقة العاملة لم تعد طبقة بروليتاريا بالمعنى الخاص القديم للكلمة. فالبروليتاريا في الاتحاد السوفياتي، القابضة بيديها على سلطة الدولة ، تحولت الى طبقة جديدة كل الجدّة . لقد تحولت الى طبقـة عاملة متحررة من الاستثمار ، محقت النظام الرأسمالي في الاقتصاد ، واقامت نظام الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج ، اي انهـا تحولت الى طبقة عاملة لم يعرف مثلها تاريخ الانسانية قبل اليوم .

ولم تكن التغيرات التي طرأت على حالة فلاحي الاتحاد السوفياتي أقل عمقاً من التي حصلت في حالة العمال . ففي الايام الغابرة ، كان اكثر من عشرين مليوناً من اقتصاديات الفـلاحين المنعزلة المبعثرة ، من صغيرة ومتوسطة ، تكدح متفرقة على حصتها من الارض ، ولم تكن تملك آنذاك سوى تكنيك متأخر ، كما كانت تعاني استثمار كبار ملاكي الاراضي، والكولاك ، والتجار، والمحتكرين ، والمرابين ، وغيرهم. أما الآن ، فقد شبّت وترعرعت في الاتحاد السوفياتي طبقة فلاحين جديدة كل الجدة . فلم يعد هناك ملاكون كبار ولا

كولاك ، ولا تجار ولا مرابون يمكنهم ان يستثمروا جماهير الفلاحين .

وانضمت الاكثرية الساحقة من اقتصاديات الفلاحين الى الكولخوزات التي لا تقوم على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، بل تقوم على الملكية الجماعية التعاونية ، الناشئة على اساس العمل الجماعي التعاوني . وكان هؤلاء الفلاحون نموذجاً جديداً من الفلاحين المتحررين من كل استثمار . وهم ايضاً ، لم يعرف تاريخ الانسانية مثلهم من قبل .

كذلك المثقفون في الاتحاد السوفياتي تغيروا . فهم ، من حيث جماهيرهم الكبرى ، اصبحوا مثقفين من نوع جديد، فقد برزوا، باكثريتهم، من اوساط العمال والفلاحين . وهم لا يخدمون الرأسمالية كما كانت حال المثقفين القدماء ، وانما يخدمون الاشتراكية . لقد اصبحوا اعضاء في المجتمع الاشتراكي لهم حقوق مساوية لحقوق غيرهم . ان هؤلاء المثقفين يبنون بالتعاون مع العمال والفلاحين مجتمعاً جديداً هو المجتمع الاشتراكي . فهم مثقفون من نوع جديد، عاملون في خدمة الشعب ، ومتحررون من كل استثمار . ان تاريخ الانسانية لم يعرف ، من قبل ، مثل هؤلاء المثقفين .

هكذا تمحّي الحدود الطبقية بين شغيلة الاتحاد السوفياتي ، ويزول التمييز الطبقي القديم ، وتنهار وتندثر التناقضات الاقتصادية والسياسية بين العمال والفلاحين والمثقفين ، لقد نشأ الاساس اللازم لوحدة المجتمع المعنوية والسياسية.

ان هذه التغييرات العميقة في حياة الاتحاد السوفياتي ، وهذه الانتصارات الحاسمة التي احرزتها الاشتراكية ، وجدت التعبير الصادق عنها في الدستور السوفياتي الجديد .

وفقاً لهذا الدستور ، يتألف المجتمع السوفياتي من طبقتين صديقتين ،العمال والفلاحين ، اللتين لا تزال بينهما فروق طبقية . واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية هو دولة اشتراكية للعمال والفلاحين .

ويتألف الاساس السياسي للاتحاد السوفياتي من مجالس (اي سوفيات) نواب الشغيلة ، التي نمت وتوطدت على اثر هدم سلطان كبار ملاكي الاراضي

والرأسماليين ، والفوز بديكتاتورية البروليتاريا .

كل الحكم في الاتحاد السوفياتي هو في يد شغيلة المدينة والريف ، الذين تمثلهم المجالس السوفياتية لنواب الشغيلة .

الهيئة العليا لسلطة الدولة في الاتحاد السوفياتي ، هي مجلس السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي .

مجلس السوفيات الاعلى الاتحاد السوفياتي ، الذي يتألف من مجلسين متساويين في الحقوق ، مجلس الاتحاد ومجلس القوميات ، يجري انتخابه من قبل مواطني الاتحاد السوفياتي لمدة اربع سنوات ، على اساس التصويت العام المباشر ، والمتساوي ، وبطريقة الاقتراع السري .

ان انتخابات مجلس السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي ، شأنها شأن انتخابات جميع مجالس السوفيات لنواب الشغيلة ، تجري بطريق **التصويت العام**، اي ان جميع مواطني الاتحاد السوفياتي ، البالغين الثامنة عشرة من العمر ، مهما كان عرقهم او قوميتهم او دينهم او درجة تعليمهم او مدة اقامتهم او اصلهم الاجتماعي او حالتهم المادية او نشاطهم الماضي ، لهم حق الاشتراك في انتخاب النواب ، ولهم الحق في ان يكونوا نواباً ، وذلك باستثناء المجانين والاشخاص المحكومين بعقوبة قضائية تحرمهم من الحقوق الانتخابية .

وتجري انتخابات النواب على طريقة التصويت **المتساوي** ، اي ان لكل مواطن صوتاً واحداً ، وان جميع المواطنين يشتركون في الانتخابات على اسس متساوية .

وتجري انتخابات النواب على طريقة التصويت **المباشر** ، اي ان انتخاب جميع مجالس السوفيات لنواب الشغيلة ، ابتداء من مجالس السوفيات لنواب الشغيلة في المراكز الريفية وفي المدن ، الى مجلس السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي ، يجري من قبل المواطنين دون وسيط ، بالتصويت المباشر .

وينتخب السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي ، في اجتماع مشترك يضم

بمجلسيه الاثنين، مكتب رئاسته ومجلس مفوضي(١) الشعب للاتحاد السوفياتي.

ان الاساس الاقتصادي للاتحاد السوفياتي يقوم على النظام الاشتراكي في الاقتصاد وعلى الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج . ويطبق في الاتحاد السوفياتي مبدأ الاشتراكية القائل : « من كل واحد حسب قدرته ، ولكل واحد حسب عمله ! » .

يُضمن ويؤمن لجميع مواطني الاتحاد السوفياتي حق العمل ، وحق الراحة ، وحق التعلم ، وحق التأمين المادي في حالة الشيخوخة وكذلك في حالة المرض وفي حالة فقدان القدرة على العمل .

المرأة تتمع بحقوق مساوية لحقوق الرجل في جميع ميادين العمل والنشاط .

التساوي في الحقوق بين مواطني الاتحاد السوفياتي، دون تمييز في القومية وفي العرق ، هو قانون غير قابل الابطال او الفسخ .

يُعترف لجميع المواطنين بحرية العقيدة الدينية وحرية الدعاية اللادينية .

يضمن الدستور ـ لاجل توطيد المجتمع الاشتراكي ـ حرية الكلام والصحافة والاجتماع والاجتماعات العامة ، وحق التكتل في منظمات اجتماعية ، وحرمة الفرد وحرمة المسكن وسرية المراسلات ، وحق الالتجاء للمواطنين الاجانب المضطهدين بسبب دفاعهم عن مصالح الكادحين ، او بسبب نشاطهم العلمي ، او لنضالهم في سبيل التحرر الوطني .

وفي الوقت نفسه ، يفرض الدستور واجبات جدية على جميع مواطني الاتحاد السوفياتي ، وهي : تنفيذ القوانين ، والتقيد بنظام العمل ، والقيام بشرف بالواجب الاجتماعي ، واحترام قواعد الحياة في المجتمع الاشتراكي ، وصيانة الملكية الاجتماعية الاشتراكية وتوطيدها ، والدفاع عن الوطن الاشتراكي . وقد جاء في الدستور :

« الدفاع عن الوطن واجب مقدس على كل مواطن في الاتحاد السوفياتي » .

---

(١) اي مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي ، كما يسمى الان. (هيئة التعريب)

ونص الدستور في احدى مواده ، بصدد حق المواطنين في التكتل ضمن مختلف الجمعيات ، على ما يلي :

« ... ان انشط المواطنين ، واكثرهم ادراكاً في صفوف الطبقة العاملة وسائر فئات الشغيلة ، يتحدون ضمن الحزب الشيوعي (البلشفي) في الاتحاد السوفياتي ، الحزب الذي هو طليعة الشغيلة في نضالهم من اجل توطيد النظام الاشتراكي وتطويره ، والذي هو النواة القائدة لجميع منظمات الشغيلة ، سواء منها المنظمات الاجتماعية او منظمات الدولة » .

وقد وافق مؤتمر السوفيات الثامن على الدستور الجديد للاتحاد السوفياتي واقره بالاجماع .

هكذا اصبح للبلاد السوفياتية دستور جديد ، هو دستور انتصار الاشتراكية والديموقراطية العمالية والفلاحية .

بذلك سجل الدستور حادثاً عالمياً عظيماً في تاريخ الانسانية ، هو دخول الاتحاد السوفياتي في مرحلة جديدة من تطوره : مرحلة انجاز بناء المجتمع الاشتراكي والانتقال تدريجاً الى المجتمع الشيوعي ، حيث ينبغي ان يكون المبدأ السائد القائد في الحياة الاجتماعية ، هو المبدأ الشيوعي القائل : « من كل واحد حسب قدرته ، ولكل واحد حسب حاجته ».

•

٤ ـ تصفية بقايا الجواسيس والمخربين ، وخونة الوطن ، البوخارينيين والتروتسكيين ـ التهيئة لانتخابات مجلس السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي ـ اتجاه الحزب نحو ديموقرطية داخلية واسعة ـ انتخابات مجلس السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي

حفلت سنة ١٩٣٧ باكتشاف وقائع جديدة عن وحوش العصابة البوخارينية والتروتسكية ، فان محاكمة بياتاكوف وراديك وزملائهما ،

ومحاكمة توخاشيفسكي وياكير وغيرهما، واخيراً محاكمة بوخارين وريكوف وكريستنسكي وروز نغولتز وغيرهم ، كل هذه المحاكمات اظهرت ان البوخارينيين والتروتسكيين قد الفوا ، منذ مدة طويلة ، عصابة واحدة من اعداء الشعب تحت اسم « كتلة اليمينيين والتروتسكيين ».

وبرهنت المحاكمات ان هذه الحثالات البشرية كانت منذ الايام الاولى لثورة اوكتوبر الاشتراكية قد هيأت ، مع اعداء الشعب : تروتسكي وزينوفييف وكامينيف، مؤامرة ضد لينين وضد الحزب وضد الدولة السوفياتية. فالمحاولات الاستفزازية التي قامت بها لاحباط صلح برست ـ ليتوفسك في اول عام ١٩١٨ ، والمؤامرات ضد لينين ، والاتفاق ، مع الاشتراكيين الثوريين « اليساريين » على اعتقال لينين وستالين وسفردلوف وقتلهم في ربيع سنة ١٩١٨ ، واطلاق الرصاص بغدر ونذالة على لينين واصابته بجراح في صيف ١٩١٨ ،وفتنة الاشتراكيين الثوريين « اليساريين » في صيف ١٩١٨ ، وتعمد العمل لاحتدام الخلافات في الحزب عام ١٩٢١ لزعزعة قيادة لينين واسقاطها من الداخل ، والقيام بمحاولات لاسقاط قيادة الحزب في اثناء مرض لينين وبعد موته ، وخيانة اسرار الدولة وتزويد دوائر التجسس الاجنبية بالمعلومات ، واغتيال كيروف بغدر ودناءة ، والقيام باعمال التخريب والنسف والالهاء ، والاقدام بجبن ونذالة على قتل منجينسكي وكويبيشيف وغوركي : جميع هذه الجرائم وامثالها قد ارتكبت خلال عشرين سنة ، كما تبين فيما بعد ، اما باشتراك تروتسكي وزينوفييف وكامينيف وبوخارين وريكوف واعوانهم ، واما بقيادتهم ، تنفيذاً لاوامر دوائر التجسس البورجوازية الاجنبية .

لقد اظهرت المحاكمات ان هؤلاء الوحوش التروتسكيين والبوخارينيين كانوا ، تنفيذاً لاوامر اسيادهم في دوائر التجسس البورجوازية ، قد وضعوا نصب اعينهم هدم الحزب والدولة السوفياتية، ودك قوة البلاد الدفاعية ، وتسهيل التدخل العسكري الاجنبي ، وتهيئة انكسار الجيش الاحمر ، وتمزيق الاتحاد السوفياتي ، وتسليم المقاطعة البحرية السوفياتية في الشرق الاقصى الى

اليابان ، وبيلوروسيا السوفياتية الى البولونيين ، وتسليم اوكرانيا السوفياتية الى الالمان ، والقضاء على انتصارات العمال والكولخوزيين ، واعادة العبودية الرأسمالية الى الاتحاد السوفياتي .

ويبـــدو ان هؤلاء الاقزام من الحرس الابيض ، الذين لا يصح تشبيه قوتهم الا بقوة ذبابة صغيرة حقيرة ، كانوا يعتبرون انفسهم ـ ويا للسخرية ـ اسياداً للبلاد ، فخيل اليهم انهم يستطيعون حقيقة ان يوزعوا على الاجانب ويبيعوهم اوكرانيا وروسيا البيضاء والمقاطعة البحرية .

لقد نسيت هذه الحشرات من الحرس الابيض ان سيد البلاد السوفياتية هو الشعب السوفياتي ، في حين ان السادة ريكوف وبوخارين وزينوفييف وكامينيف ما هم سوى خدم موقتين للدولة تستطيع ان تطردهم في كل لحظة من دوائرها كما ترمي فضلات عتيقة لا نفع منها .

لقد نسي هؤلاء الخدام التعساء للفاشست ، انه يكفي ان يحرك الشعب السوفياتي اصبعه لكي لا يبقى لهم اثر .

حكمت المحكمة السوفياتية على الوحوش البوخارينيين والتروتسكيين بالاعدام رمياً بالرصاص .

ونفذت مفوضية الشعب للشؤون الداخلية قرار المحكمة .

وايد الشعب السوفياتي سحق العصابة البوخارينية والتروتسكية ، وانتقل الى اعماله الجارية .

وكانت الاعمال الجارية ، اذ ذاك ، تهيئة الانتخابات لمجلس السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي ، والقيام بها بشكل منظم . وقد اطلق الحزب العمل التحضيري للانتخابات ووسعه بقوة ، اذ كان يعتبر ان تطبيق الدستور الجديد للاتحاد السوفياتي سيكون بمثابة انعطاف في حياة البلاد السياسية . وكان يعتبر ان قوام هذا الانعطاف هو تطبيق الديموقراطية الكاملة في النظـام الانتخابي ، والانتقال من التصويت المحدود الى التصويت العام ، ومن التصويت غير المتساوي تماماً الى التصويت المتساوي ، ومن الانتخابات على عدة درجات

الى الانتخابات المباشرة ، ومن الاقتراع العلني الى الاقتراع السري .

ففيما كان حق الانتخاب قبل اقرار الدستور الجديد ، لا يشمل رجال الدين وجماعة الحرس الابيض القدماء، والكولاك القدماء ، والاشخاص الذين لا يقومون بعمل ذي منفعة عامة ، الغى الدستور الجديد كل قيد يقيد حق هذه الفئات من المواطنين في الانتخاب ، اذ جعل انتخاب النواب على طريقة التصويت العام .

وفيما كان انتخاب النواب في السابق لا يجري بالتصويت المتساوي ، اذ كانت هنالك قواعد انتخابية مختلفة لسكان المدن ولسكان الارياف ، زالت في الوقت الحاضر ضرورة تقييد المساواة في التصويت واصبح لجميع المواطنين حق الاشتراك في الانتخابات على قدم المساواة .

وفيما كان انتخاب هيئات الحكم السوفياتي الوسطى والعليا يجرى سابقاً على درجات متعددة ، اصبح من الواجب الآن ، بموجب الدستور الجديد ، اجراء انتخابات المجالس السوفياتية جميعها ، ابتداء من مجالس السوفيات في القرية وفي المدينة حتى مجلس السوفيات الاعلى، باشتراك جميع المواطنين مباشرة في الاقتراع ، اي بالتصويت المباشر .

وفيما كان انتخاب النواب لمجالس السوفيات يجري سابقاً بالتصويت العلني وعلى اساس القوائم، اصبح التصويت الآن سريا ، واصبح الناخب لا يصوت لقائمة من المرشحين ، بل يصوت لمرشحين منفردين يجري ترشيحهم على اساس الدائرة الانتخابية .

كان ذلك انعطافا لا ينكر في حياة البلاد السياسية .

وكان مقدراً لنظام الانتخابات الجديد ان يؤدي — وقد ادى فعلا — الى تعاظم نشاط الجماهير السياسي ، واشتداد مراقبة الجماهير على هيئات الحكم السوفياتي ، وازدياد مسؤولية هذه الهيئات امام الشعب .

ولكي يستطيع الحزب مجابهة هذا الانعطاف بكل قواه ، كان عليه ان يترأس الاتجاه الجديد ، وان يؤمن تماماً دوره القيادي في الانتخابات القريبة .

ولكن لاجل ذلك ، كان من الواجب ان تكون منظمات الحزب نفسها ديموقراطية الى النهاية في نشاطها العملي ، وان تطبق في حياتها الحزبية الداخلية مبادىء المركزية الديموقراطية تطبيقاً تاماً كما ينص النظام الداخلي للحزب، وان تتألف جميع هيئات الحزب بطريق الانتخاب ، وان يتطور الانتقاد والانتقاد الذاتي في الحزب تطوراً تاماً ، وان تكون مسؤولية منظمات الحزب امـام جمهور الاعضاء مسؤولية كاملة ، وان ينشط جمهور الاعضاء انفسهم نشاطاً عارماً.

وقد تبين من التقرير الذي قدمه الرفيق جدانوف الى الاجتماع العام للجنة المركزية المنعقد في آخر شباط ١٩٣٧ ، حول تهيئة المنظمات الحزبية لانتخابات مجلس السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي ، ان بعض منظمات الحزب لم تكن تتورع ، في نشاطها العملي ، عن مخالفة نظام الحزب الداخلي ومبادىء المركزية الديموقراطية ، فتستعمل طريقة التعيين بدلا من طريقة الانتخاب ، وتلجأ الى طريقة الانتخاب على اساس القوائم بدلاً من انتخاب المرشحين كل لوحده ، والى التصويت العلني بدلا من السري ، الى آخر ما هنالك . ومن المفهوم ان منظمات من هذا النوع ، تقوم باعمال من هذا القبيل ، لم تكن لتستطيع القيام بمهامها في انتخابات مجلس السوفيات الاعلى . فكان من الواجب ، قبل كل شيء ، وضع حد لهذه التصرفات التي تخالف الديمقراطية في منظمات الحزب ، واعادة تنظيم عملها على اساس من الديموقراطية الواسعة .

ولهذه الغاية ، اتخذ الاجتماع العام للجنة المركزية ، بعد سماع تقرير الرفيق جدانوف ، القرارات التالية :

« أ) اعادة تنظيم عمل الحزب ، على اساس تطبيق مبادىء الديموقراطية ، الحزبية الداخلية المنصوص عليها في النظام الداخلي تطبيقاً كاملا ودون اي تحفظ .

ب) الانتهاء من طريقة تعيين الاعضاء في اللجان الحزبية ، والعودة الى تأليف الهيئات القيادية للمنظمات الحزبية بطريقـة الانتخاب وفقاً للنظام الداخلي للحزب .

ج) منع التصويت على اساس القـائمة في انتخاب الهيئات الحزبية ، واجراء التصويت لكل مرشح لوحده ، على ان يضمن لجميع الاعضاء حق غير محدود في رفض المرشحين وفي انتقادهم .

د) استخدام الاقتراع السري في انتخاب المرشحين للهيئات الحزبية .

ه) اجراء انتخابات في جميع المنظمات الحزبية لتجديد الهيئات القيادية ، ابتداء من لجان المنظمات الاولية حتى لجـان المقاطعة والمنطقة فاللجان المركزية للاحزاب الشيوعيـة في الجمهوريات القومية ، على ان لا تتأخر هذه الانتخابات عن ٢٠ ايار .

و) الزام جميع المنظمات الحزبية بان تراعي بصرامة المهلات المعينة في النظام الداخلي لتجديد انتخاب هيئاتها الحزبية ، وهي : مرة كل سنة في المنظمات الاوليـة ، ومرة كل سنة في منظمات الفرع والمدينة ، ومرة كل سنة ونصف في المنظمات المنطقيـة ومنظمات المقاطعات والجمهوريات .

ز) يجب ان يؤمن ، في منظمات الحزب الاوليـة ، التقيد التام بالقاعدة القائمة على انتخاب لجان الحزب في الاجتماعات العامة لمنظمات المعامل ، وان لا يُسمح بالاستعاضة عن هذه الاجتماعات العامة بمجالس المندوبين .

ح) القضاء نهائياً على الاسلوب السائد لدى بعض منظمات الحزب الاولية ، التي تعمد في الواقع الى الغاء الاجتماعات العامة لمنظمة المعمل ، وتستعيض عنها بالاجتماعات العامة على اساس الورشة ، او بمجالس المندوبين » .

هكذا بدأت تهيئة الحزب للانتخابات القريبة .

وكان لهذا القرار الذي اتخذته اللجنة المركزية اهمية سياسية عظيمة. فلم تقتصر اهميته على انه كان فاتحة حملة الحزب لانتخابات مجلس السوفيـات

الاعلى للاتحاد السوفياتي ، انما كانت اهميته تتجلى ، قبل كل شيء ، في انه ساعد منظمات الحزب على اعادة بنائها وعلى التوجه نحو الديموقراطية الداخلية ، وعلى مواجهة الانتخابات لمجلس السوفيات الاعلى وهي مهيأة على احسن وجه ، ومستعدة اكمل استعداد .

ولدى المباشرة في حملته الانتخابية الواسعة ، قرر الحزب ان يجعل حجر الزاوية في سياسته الانتخابية ، فكرة تأليف كتلة انتخابية من الشيوعيين ومن غير الحزبيين . فقرر تقديم ترشيحات مشتركة مع اللاحزبيين في الدوائر الانتخابية ، وهكذا دخل الحزب الانتخابات في كتلة مع اللاحزبيين ، في تحالف معهم . وكان ذلك حدثاً لم يسبق له مثيل ، بل يستحيل حدوثه اطلاقاً في الحملات الانتخابية في البلدان البورجوازية . اما في بلادنا ، التي لم يبق فيها طبقات متعادية ، وحيث اصبحت الوحدة المعنوية والسياسية بين كل فئات الشعب واقعاً لا جدال فيه ، فقد تبين ان كتلة الشيوعيين واللاحزبيين هي حادث طبيعي تماماً .

وفي ٧ كانون الاول ١٩٣٧ ، وجهت لجنة الحزب المركزية رسالة الى جميع الناخبين جاء فيها :

« في اليوم الثاني عشر من كانون الاول ١٩٣٧ ، سينتخب شغيلة الاتحاد السوفياتي ، على اساس دستورنا الاشتراكي ، نوابهم في مجلس السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي . ويتقدم الحزب البلشفي الى الانتخابات **في تكتل ، في تحالف** ، مع غير الحزبيين من عمال وفلاحين ومستخدمين ومثقفين . ان الحزب البلشفي لا يضع حاجزاً بينه وبين اللاحزبيين ، بل على العكس ، يتقدم الى الانتخابات متكتلاً ومتحالفاً معهم . انه يتقدم الى الانتخابات في كتلة واحدة مع نقابات العمال والمستخدمين ، ومع الشبيبة الشيوعية ، ومع غيرها من منظمات اللاحزبيين وجمعياتهم . وعلى ذلك ، سيكون للشيوعيين ولغير الحزبيين مرشحون

مشتركون للنيابة ، فكل نائب غير حزبي سيكون نائباً عن الشيوعيين ايضاً ، كما ان كل نائب شيوعي سيكون كذلك نائباً عن غير الحزبيين » .

وكانت رسالة اللجنة المركزية تنتهي بالنداء التالي الى الناخبين :

« ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) في الاتحاد السوفياتي تدعو جميع الشيوعيين والمحبذين الى التصويت للمرشحين غير الحزبيين ، بذات الاجماع الذي سيصوتون به للمرشحين الشيوعيين .

ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) في الاتحاد السوفياتي ، تدعو جميع الناخبين غير الحزبيين الى التصويت للمرشحين الشيوعيين بذات الاجماع الذي سيصوتون به للمرشحين غير الحزبيين .

ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي في الاتحاد السوفياتي تدعو جميع الناخبين الى التقدم ، كرجل واحد ، الى صناديق الاقتراع في اليوم الثاني عشر من كانون الاول ١٩٣٧، لانتخاب النواب لمجلس الاتحاد ، ولمجلس القوميات .

ينبغي ان لا يتخلى ناخب واحد عن شرف ممارسة حقه في انتخاب نواب الهيئة العليا للدولة السوفياتية .

ان كل مواطن نشيط ينبغي ان يعتبر ان من واجبه المدني المساعدة على اشراك جميع الناخبين دون استثناء في انتخابات مجلس السوفيات الاعلى .

ان اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول ١٩٣٧ يجب ان يصبح يوم العيد الاكبر ، عيد التفاف شغيلة جميع الشعوب في الاتحاد السوفياتي حول العلم الظافر ، علم لينين وستالين » .

وفي ١١ كانون الاول ١٩٣٧ ، على اعتاب الانتخابات ، تكلم الرفيق

ستالين امام الناخبين في دائرته الانتخابية ، فبين كيف يجب ان يكون نواب الشعب ، نواب السوفيات الاعلى في الاتحاد السوفياتي ، فقال :

« يجب على الناخبين، يجب على الشعب ، ان يطلبوا من نوابهم ان يكونوا في مستوى المهام المفروضة عليهم ؛ وان لا ينزلوا في عملهم الى مستوى صغار البورجوازيين ذوي الافكار المحدودة والآفاق الضيقة ، وان يبقوا في مراكزهم كرجال سياسيين من الطراز اللينيني ؛ ان يكونوا مناضلين سياسيين ذوي تفكير واضح نيّر وعزيمة وتصميم كما كان لينين، وان يكونوا شجعانا جسورين في الكفاح ، واشداء لايعرفون الهوادة تجاه اعداء الشعب كما كان لينين ، وان يكونوا متحررين من كل ذعر وارتباك، ومن كل اثر للذعر والارتباك ، عندما تبدأ الامور تتعقد ، وعندما يلوح في الافق خطر من الاخطار ، ان يكونوا منزهين عن كل اثر للذعر والارتباك مثلما كان لينين ؛ وان يكونوا ، مثل لينين ، حكماء وبعيدين عن كل تسرع في حل القضايا العويصة المعقدة حيث ينبغي التحلي بسعة الافق والاحاطة بجميع العوامل ، وحساب جميع الزوائد والنواقص، وان يكونوا مستقيمين وشرفاء مثلما كان لينين ، وان يحبوا شعبهم كما احبه لينين ! ».

وفي ١٢ كانون الاول جرت انتخابات مجلس السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي ، وقد جرت وسط اندفاع عظيم. انها لم تكن انتخابات عادية بسيطة ، انما كانت عيداً في منتهى العظمة ، كانت مهرجاناً لانتصار الشعب السوفياتي ، مظاهرة للصداقة العظيمة التي تربط بين شعوب الاتحاد السوفياتي .

فمن أصل ٩٤ مليوناً من الناخبين ، اشترك في الاقتراع اكثر من ٩١ مليوناً اي كانت نسبة المقترعين ٩٦،٨ في المئة . وقد صوت منهم لكتلة الشيوعيين واللاحزبيين ٨٩ مليوناً و٨٤٤ الف ناخب ، اي ٩٨،٦ في المئة . ولم يصوت ضد مرشحي كتلة الشيوعيين واللاحزبين سوى ٦٣٢ الف شخص ، اي

اقـــل من ١ في المئة . ونجح في الانتخاب جميع مرشحي كتلة الشيوعيين واللاحزبيين ، دون استثناء .

وهكذا أكد ٩٠ مليون شخص بتصويتهم الاجماعي ، انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي .

لقد كان ذلك نجاحا رائعاً لكتلة الشيوعيين واللاحزبيين .

لقد كان هذا الانتصار هو انتصار الحزب البلشفي .

لقد كان ذلك توكيداً ساطعاً وتكريساً رائعاً لوحدة الشعب السوفياتي المعنوية والسياسية ، التي تكلم عنها الرفيق مولوتوف في خطابه التاريخي في الذكرى العشرين لثورة اوكتوبر .

الخاتمة

ما هي التعاليم الاساسية التي ينبغي ان نستمدها من العمل التاريخي الذي نهض به الحزب البلشفي ؟

ما الذي يعلمنا اياه تاريخ الحزب الشيوعي (البلشفي) في الاتحاد السوفياتي ؟

١ ــ يعلمنا تاريخ الحزب ، قبل كل شيء ، ان ظفر الثورة البروليتارية ، ظفر ديكتاتورية البروليتاريا ، امر مستحيل بدون حزب ثوري للبروليتاريا ، خال من الانتهازية ، لا يلين ولا يتساهل مع دعاة التفاهم والاستسلام ، ثوري ازاء البورجوازية وازاء سلطة دولتها .

ويعلمنا تاريخ الحزب ان ترك البروليتاريا بدون حزب كهذا ، هو بمثابة تركها بدون قيادة ثورية ، وتركها بدون قيادة ثورية معناه تخريب وتهديم قضية الثورة البروليتارية .

ويعلمنا تاريخ الحزب ان هذا الحزب لا يمكن ان يكون حزباً اشتراكياً ديمقراطياً عادياً من طراز احزاب اوروبا الغربية ، التي تلقنت تكوينها وتثقيفها في ظروف السلام الاهلي ، والتي تسير في ذيل الانتهازيين ، وتحلم « بالاصلاحات الاجتماعية » ، وتخشى الثورة الاجتماعية .

ويعلمنا تاريخ الحزب ان هذا الحزب لا يمكن ان يكون الا حزباً من طراز جديد ، حزباً ماركسياً لينينياً ، حزب الثورة الاجتماعية ، حزباً قادراً على تهيئة البروليتاريا للمعارك الحاسمة ضد البورجوازية ، وعلى تنظيم ظفر الثورة البروليتارية .

هــذا الحزب ، في اتحــاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، هــو الحزب البلشفي .

وقد قال الرفيق ستالين :

« في العهد السابق للعهد الثوري ، في العهـــد الذي كان فيه التطور سلمياً نوعاً ما ، ايام كانت أحزاب الاممية الثانية هي القوة السائدة في حركة العمال ، وكانت اشكال البرلمانية تُعتبر اشكال النضال الرئيسية — في تلك الظروف ، لم تكن للحزب ، ولا كان من الممكن ان تكون له ، الاهمية الجدّية والفاصلة الحاسمة التي اكتسبها فيما بعد ، في ظروف المعارك الثورية السافرة . يقول كاوتسكي ، في دفاعه عن الاممية الثانية ضد الهجمات التي استهدفت لها ، ان أحزاب الاممية الثانية هي اداة سلم ، لا اداة حرب ، وأنها لهذا السبب بالذات ، لم تستطع القيام باي شيء جدي خلال الحرب ، في مرحلة المعارك الثورية للبروليتاريا . وهذا صحيح تماماً . ولكن ما معنى هذا ؟ معناه ان احزاب الاممية الثـــانية ليست صالحة لنضال البروليتاريا الثوري ، ولا هي احزاب كفاح للبروليتاريا ، تقود العمال الى الاستيلاء على الحكم ، بل هي جهاز انتخابي مكيف بشكل يلائم الانتخابات البرلمانية والنضـــال البرلماني » . وهذا ما يفسر تماماً الواقع التالي ، وهو ان المنظمة الاساسية للبروليتاريا ، في المرحلة التي ساد فيها انتهازيو الاممية الثانية ، لم تكن الحزب بل الكتلة البرلمانية . ومن المعروف ان الحزب ، في ذلك العهد ، كان ، في الواقع ، ذيلا للكتلة البرلمانية وعنصراً معدّاً لخدمتها . وغني عن البيان ، في احوال كهذه ، ان مجرد البحث في تهيئة البروليتاريا للثورة ، لم يكن له مجال ، مع وجود مثل هذا الحزب على رأسها .

غير ان الوضع تغير من اساسه ، مع قدوم المرحلة الجديدة. فالمرحلة الجديدة هي مرحلة الاصطدامات السافرة بين الطبقات ، مرحلة الحركات الثورية للبروليتاريا ، مرحلة الثورة البروليتارية ،

مرحلة اعداد القوى بصورة مباشرة للقضاء على الاستعمار، وللاستيلاء البروليتاريا على الحكم. وتضع هذه المرحلة مهمات جديدة امام البروليتاريا، هي: اعادة تنظيم كل عمل الحزب وفق اسلوب جديد، ثوري، وتثقيف العمال بروح النضال الثوري في سبيل الحكم، واعداد القوى الاحتياطية وحشدها، والتحالف مع عمال الاقطار المجاورة، واقامة روابط متينة مع حركة التحرر في المستعمرات والبلدان التابعة، الخ... فالاعتقاد بان هذه المهمات الجديدة يمكن انجازها بقوى الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية القديمة التي تربّت في الظروف السلمية للحياة البرلمانية، معناه الاستسلام الى يأس لا قرار له، والاخلاد لهزيمة محتومة. والبقاء، بمثل هذه المهمات على الاكتاف، تحت قيادة الاحزاب القديمة، معناه البقاء في حالة تجرد تام من كل سلاح. ولا حاجة الى القول ان البروليتاريا لم تكن لتستطيع القبول بمثل هذه الحالة.

ومن هنا كانت الضرورة لايجاد حزب جديد، حزب مكافح، حزب ثوري، لديه الشجاعة الكافية لقيادة البروليتاريين الى النضال في سبيل الحكم، ولديه التجارب الكافية للاهتداء الى طريقه وسط اوضاع ثورية كثيرة التعقيد، ولديه المرونة الكافية لاجتياز مختلف العقبات والعثرات القائمة في طريقه الى هدفه.

بدون حزب كهذا، لا يمكن حتى التفكير في القضاء على الاستعمار، والاستيلاء على ديكتاتورية البروليتاريا.

ان هذا الحزب الجديد، هو «حزب اللينينية.» (ستالين: اسس اللينينية).

٢ — ويعلمنا تاريخ الحزب كذلك، ان حزب الطبقة العاملة لا يستطيع ان ينهض بدور القائد لطبقته، ولا يستطيع ان يقوم بدور منظم وقائد للثورة البروليتارية، اذا هو لم يستوعب ولم يهضم النظرية الطليعية للطبقة العاملة، اذا

لم يستوعب ولم يهضم النظرية الماركسية اللينينية .

السر في قوة الماركسية اللينينية ، هو انها تسمح للحزب بان يحدد اتجاهه في وضع معين ، وان يفهم الصلة الداخلية العميقة بين الحوادث المحيطة به ، وان يتنبأ بسير الحوادث ، وان يبصر بشكل جلي لا كيف والى اين تتطور في الوقت الحاضر وحسب ، بل كذلك كيف والى اين ينبغي ان تتطور في المستقبل.

ان حزباً احسن استيعاب النظرية الماركسية اللينينية وهضمها هو وحده القادر على ان يتقدم الى امام بثقة وبقدم ثابتة ، وان يقود الطبقة العاملة الى امام.

وعلى العكس فان حزباً لم يحسن استيعاب النظرية الماركسية اللينينية وهضمها يضطر الى ان يخبط خبط عشواء ويفقد كل يقين اثناء عمله ، ولا يكون قادراً على قيادة الطبقة العاملة الى امام .

وقد يبدو ان استيعاب وهضم النظرية الماركسية اللينينية يعني ان يحفظ المرء بدقة وعن ظهر القلب بعض استنتاجاتها وارائها الموجودة في مؤلفات ماركس وانجلس ولينين ، وان يتعلم الاستشهاد بها في الوقت المناسب ، ثم يقف مطمئناً عند هذا الحد ، آملاً ان تكون هذه الاستنتاجات والآراء المحفوظة عن ظهر القلب موافقة لجميع الاحوال وجميع ظروف الحياة . ولكن مثل هذا الموقف من النظرية الماركسية اللينينية هو موقف خاطىء تماماً . فالنظرية الماركسية اللينينية لا يمكن النظر اليها كمجموعة من العقائد الجامدة ، ككتاب مقدس ، او كقانون الايمان . والماركسيون لا يمكن النظر اليهم كأدعياء للعلم محشوين بالنصوص . فالنظرية الماركسية اللينينية هي علم تطور المجتمع ، علم حركة العمال ، علم الثورة البروليتارية ، علم بناء المجتمع الشيوعي . وهي ، بوصفها علماً ، لا تبقى ولا يمكن ان تبقى جامدة واقفة في مكانها ، بل تتطور وتزداد كمالاً . ومفهوم تماماً انها ، خلال تطورها ، لا يمكن الا ان تغتني بالتجربة الجديدة وبالمعارف المستجدة ، ولا بد ان يتغير مع الزمن هذا او ذاك من ارائها واستنتاجاتها ولا بد ان تحل محلها اراء واستنتاجات جديدة تتفق والظروف التاريخية الجديدة .

ان استيعاب النظرية الماركسية اللينينية لا يعني ابداً حفظ جميع صيغها وجميع استنتاجاتها عن ظهر القلب ، والتشبث بكل حرف من هـــذه الصيغ والاستنتاجات . فلأجل استيعاب النظرية الماركسية اللينينية وهضمها ، ينبغي قبل كل شيء ان يتعلم المرء التمييز بين لفظها وبين كنهها وجوهرها .

ان استيعاب النظرية الماركسية اللينينية وهضمها ، معناه ان **نتملك جوهر هذه النظرية** ، وان نتعلم الاستفادة منها عنـــد حل القضايا العملية في الحركة الثورية ، في شتى ظروف نضال البروليتاريا الطبقي .

ان استيعاب النظرية الماركسية اللينينية وهضمها ، معناه ان نعرف كيف نغني هذه النظرية بالتجربة الجديدة التي تكتسبها الحركة الثورية ، هو ان نعرف كيف نغنيها باراء واستنتاجات جديدة ، هو ان نعرف كيف **نطورها ونحركها الى امام** ، وان نعمد دون تردد ــ مستلهمين في ذلك جوهر النظرية ــ الى ابدال بعض ارائها واستنتاجاتها التي تكون قد هرمت ، باراء واستنتاجات جديدة تطابق الوضع التاريخي الجديد .

النظرية الماركسية اللينينية ليست عقيدة جامدة ، بل مرشد في العمل .

قبل الثورة الروسية الثانية (ثورة شباط ١٩١٧) كان الماركسيون في جميع البلاد يعتنقون وجهة النظر القائلة بان الجمهورية الديموقراطية البرلمانية هي اكثر الاشكال ملاءمة لتنظيم المجتمع سياسياً في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . صحيح ان ماركس كان قد اشار ، في السنوات ١٨٧٠ ، الى ان اكثر الاشكال ملاءمة لديكتاتورية البروليتاريا ليس الجمهورية البرلمانية ، بل التنظيم السياسي الذي هو من نوع كومونة باريس ، ولكن ماركس ، لسوء الحظ ، لم يتوسع في بحث هذا التوجيه في مؤلفاته التالية ، مما ادى الى ضياع هذا التوجيه في زوايا النسيان . وعدا ذلك ، كان انجلس قد صرح عام ١٨٩١ ، في نقده لمشروع برنامج ارفورت بان «الجمهورية الديموقراطية..هي.. الشكل الملائم بصورة خاصة لديكتاتورية البروليتاريا» . ولم يكن هـــذا التصريح الصادر عن مثل انجلس ليترك مجالا لاي شك في ان الماركسيين ما

زالوا يعتبرون الجمهورية الديموقراطية شكلا سياسياً لديكتاتورية البروليتاريا. واصبح رأي انجلس هذا ، فيما بعد ، المبدأ الموجه لجميع الماركسيين وبينهم لينين نفسه . غير ان الثورة الروسية عام ١٩٠٥ ، وبصورة خاصة الثورة الروسية في شباط ١٩١٧ ، قدمتا شكلا جديدا من التنظيم السياسي للمجتمع، هو مجالس (سوفيات) نواب العمال والفلاحين . فعلى اساس درس تجارب هاتين الثورتين الروسيتين دراسة عميقة توصل لينين ، مستوحياً نظرية الماركسية ، الى الاستنتاج بان احسن شكل سياسي لديكتاتورية البروليتاريا ليس الجمهورية الديموقراطية البرلمانية ، بل جمهورية السوفيات . وعلى هذا الاساس ، قدم لينين في نيسان ١٩١٧ ، خلال مرحلة الانتقال من الثورة البورجوازية الى الثورة الاشتراكية، شعار تنظيم جمهورية المجالس السوفياتية، من حيث هي احسن شكل سياسي لديكتاتورية البروليتاريا. وسرعان ما هب الانتهازيون في جميع البلدان يتشبثون بالجمهورية البرلمانية ، ويتهمون لينين بالانحراف عن الماركسية وهدم الديموقراطية . ولكن من الواضح ان لينين ، لا الانتهازيين ، هو الماركسي الحقيقي الذي استوعب نظرية الماركسية ، فان لينين قدم النظرية الماركسية الى الامام واغناها بالتجربة الجديدة ، في حين كان الانتهازيون يؤخرونها الى وراء ، ويحولون رأيا من ارائها الى عقيدة جامدة .

اي مصير كان مصير الحزب ، وثورتنا، والماركسية ، لو ان لينين انحنى امام لفظ الماركسية ، ولم يحزم امره على استبدال رأي من آراء الماركسية القديمة ، صاغه انجلس ، بالرأي الجديد القائل بجمهورية السوفيات ، المطابق للوضع التاريخي الجديد ؟ لو حدث ذلك ، لهام الحزب على وجهه في الظلمات، وانفرط عقد مجالس السوفيات ، وفقدنا الحكم السوفياتي، ولأصيبت النظرية الماركسية باذى بليغ . لو حدث ذلك لكانت البروليتاريا هي الخاسرة ، وكان اعداؤها هم الرابحين .

وحين درس انجلس وماركس الرأسمالية في عهدها السابق لعهد الاستعمار،

توصلا الى الاستنتاج بان الثورة الاشتراكية لا يمكن ان تنتصر في قطر واحد مأخوذ على حدة ، وانها لن تنتصر الا اذا انفجرت الثورة في وقت واحد في جميع الاقطار ، او في معظم الاقطار المتمدنة . وكان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر . وقد اصبح هـــذا الاستنتاج فيما بعد ، المبدأ الموجه لجميـــع الماركسيين . ولكن في مطلع القرن العشرين ، تحولت الرأسمالية السابقة للاستعمار الى رأسمالية استعمارية ، وانقلبت الرأسمالية الصاعدة الى رأسماليـة تحتضر . وبعـــد درس عميق للرأسمالية الاستعمارية ، توصل لينين، مستوحياً النظرية الماركسية ، الى الاستنتاج بان صيغة انجلس وماركس القديمة لم تعد تطابق الوضع التاريخي الجديد ، وان من الممكن ان تنتصر الثورة الاشتراكية في قطر واحد على حدة. وسرعان ما هب الانتهازيون في جميع البلدان يتشبثون بصيغة انجلس وماركس القديمة ، ويتهمون لينين بالانحراف عن الماركسية . ولكن لينين ، لا الانتهازيين ، كان الماركسي الحقيقي الذي استوعب نظرية الماركسية ، وهضمها ، فان لينين قدم النظرية الماركسية الى امام ، واغناها بالتجربة الجديدة ، فيما كان الانتهازيون يشدونها الى وراء ويحولونها الى مومياء .

ماذا كان اصاب الحزب ، وثورتنا ، والماركسية ، لو ان لينين انحنى امام لفظ الماركسية ، ولم يتسلح بالشجاعة النظرية التي جعلته يستبعد استنتاجاً من الاستنتاجات القديمة في الماركسية ، ليستبدل به استنتاجاً جديداً يقول بامكان انتصار الاشتراكية في بلد واحد على حدة ، ذلك الاستنتاج المطابق للوضع التاريخي الجديد ؟ لو حدث ذلك لهام الحزب على وجهه في الظلمات ، وبقيت الثورة البروليتارية بدون قيادة ، ولأخذت النظرية الماركسية تذوي وتضمحل . لو حدث ذلك لكانت البروليتاريا هي الخاسرة ، وكان اعداؤها هم الرابحين .

ان الانتهازية لا تعني دائماً انكاراً صريحاً للنظرية الماركسية او لبعض آرائها واستنتاجاتها . فقد تتجلى الانتهـــازية احياناً في محـــاولات التشبث

توصلا الى الاستنتاج بان الثورة الاشتراكية لا يمكن ان تنتصر في قطر واحد مأخوذ على حدة ، وانها لن تنتصر الا اذا انفجرت الثورة في وقت واحد في جميع الاقطار ، او في معظم الاقطار المتمدنة . وكان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر . وقد اصبح هـذا الاستنتاج فيما بعد ، المبدأ الموجه لجميع الماركسيين . ولكن في مطلع القرن العشرين ، تحولت الرأسمالية السابقة للاستعمار الى رأسمالية استعمارية ، وانقلبت الرأسمالية الصاعدة الى رأسمالية تحتضر . وبعـد درس عميق للرأسمالية الاستعمارية ، توصل لينين ، مستوحياً النظرية الماركسية ، الى الاستنتاج بان صيغة انجلس وماركس القديمة لم تعد تطابق الوضع التاريخي الجديد ، وان من الممكن ان تنتصر الثورة الاشتراكية في قطر واحد على حدة . وسرعان ما هب الانتهازيون في جميع البلدان يتشبثون بصيغة انجلس وماركس القديمة ، ويتهمون لينين بالانحراف عن الماركسية . ولكن لينين ، لا الانتهازيين ، كان الماركسي الحقيقي الذي استوعب نظرية الماركسية ، وهضمها ، فان لينين قدم النظرية الماركسية الى امام ، واغناها بالتجربة الجديدة ، فيما كان الانتهازيون يشدونها الى وراء ويحولونها الى مومياء .

ماذا كان اصاب الحزب ، وثورتنا ، والماركسية ، لو ان لينين انحنى امام لفظ الماركسية ، ولم يتسلح بالشجاعة النظرية التي جعلته يستبعد استنتاجاً من الاستنتاجات القديمة في الماركسية ، ليستبدل به استنتاجاً جديداً يقول بامكان انتصار الاشتراكية في بلد واحد على حدة ، ذلك الاستنتاج المطابق للوضع التاريخي الجديد ؟ لو حدث ذلك لهام الحزب على وجهه في الظلمات ، وبقيت الثورة البروليتارية بدون قيادة ، ولأخذت النظرية الماركسية تذوي وتضمحل . لو حدث ذلك لكانت البروليتاريا هي الخاسرة ، وكان اعداؤها هم الرابحين .

ان الانتهازية لا تعني دائماً انكاراً صريحاً للنظرية الماركسية او لبعض آرائها واستنتاجاتها . فقد تتجلى الانتهـازية احياناً في محـاولات التشبث

بموضوعـــات من الماركسية عتقت وهرمت ، وتحويلها الى عقائد جامدة وبذلك يعرقل الانتهازيون تطور الماركسية اللاحق ، وبالتالي يعرقلون ايضا تطور الحركة الثورية البروليتارية .

لقد اصبح في وسعنا ، بعد موت انجلس ، ان نتقول دون اية مبالغة ، ان لينين ، اكبر المتضلعين بالنظرية على الاطلاق ، ومن بعده ستالين وتلاميذ لينين الاخرين ، هم الماركسيون الوحيدون الذين خطوا بالنظرية الماركسية الى امام ، واغنوها بالتجربة الجديدة المكتسبة في الظروف الجديدة لنضال البروليتاريا الطبقي .

وبما ان لينين وانصار لينين هم الذين خطوا بالنظرية الماركسية ، الى امام فاللينينية هي التطور اللاحق للماركسية ،هي الماركسية في الظروف الجديدة لنضال البروليتاريا الطبقي ، هي ماركسية عصر الاستعمار والثورات البروليتارية ، هي ماركسية عهد انتصار الاشتراكية على سدس الكرة الارضية .

لم يكن الحزب البلشفي ليستطيع الفوز في اوكتوبر ١٩١٧ ، لو ان كادره الطليعي لم يكن قد استوعب نظرية الماركسية وهضمها ، ولو انه لم يتعلم ان ينظر الى هذه النظرية من حيث هي مرشد في العمل ، ولو انه لم يتعلم ان يخطو بالنظرية الماركسية الى امام ، فيغنيهـــا بالتجربة الجديدة المكتسبة في نضال البروليتاريا الطبقي .

لقد كتب انجلس ينتقد الماركسيين الالمان في اميركا ، الذين اخذوا على عاتقهم مهمة قيادة الحركة العمالية الاميركية ، فقال :

«ان الالمان لم يوفقوا الى جعل نظريتهم تلك الرافعة التي يمكن ان تحرك الجماهير الاميركية. بل هم انفسهم ، في اغلب الاحيان ، لا يفهمون هذه النظرية ، بل يقفون منها موقفاً مذهبياً جامداً ، حاسبين ان من الواجب حفظها عن ظهر القلب ، وان ذلك يكفي لمجابهة جميع ظروف الحياة واحوالها . فهي بالنسبة اليهم مجموعة عقائد جامدة ، لا مرشد في العمل » (كارل ماركس وفريدريك

الروسية) .

وحين انتقد لينين كامنيف وبعض البلاشفة القدماء الآخرين ، الذين تشبثوا ، في نيسان ١٩١٧ ، بالصيغة القديمة عن ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية ، في حين كانت الحركة الثورية قد سارت الى امام واصبحت تقضي بالانتقال الى الثورة الاشتراكية ، كتب ما يلي :

« ليس مذهبنا عقيدة جامدة ، ولكنه مرشد للعمل : هذا ما قاله ماركس وانجلس دائماً ، هازئين بحق ، « بالصيغ » المحفوظة عن ظهر القلب والمكرورة كما هي ، هذه الصيغ التي تستطيع ، في احسن الحالات ، ان تدل فقط على المهمات **العامة** ، التي لا بد انْ يغيرها ، بالضرورة ، الوضع الاقتصادي والسياسي **الملموس** ، في كل **فترة** خاصة من فترات السير التاريخي . ينبغي ان نهضم هذه الحقيقة التي لا جدال فيها ، وهي ان من واجب الماركسي ان يدخل في حسابه الحياة الحية ، وحوادث **الواقع** الدقيقة ، لا ان يثابر على التشبث بنظرية الامس » . (لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، ص ١٠٠ — ١٠١ ، الطبعة الروسية) .

٣ — ويعلمنا تاريخ الحزب ايضاً ، ان انتصار الثورة البروليتارية مستحيل بدون سحق الاحزاب البورجوازية الصغيرة التي تعمل في صفوف الطبقة العاملة وتدفع بفئات العمال المتأخرة بين اذرع البورجوازية ، وتهدم ، على هذا الشكل ، وحدة الطبقة العاملة .

ان تاريخ حزبنا هو تاريخ النضال وسحق الاحزاب البورجوازية الصغيرة: الاشتراكيين الثوريين ، والمنشفيك ، والفوضويين ، والقوميين . ولو لم ننتصر على هذه الاحزاب ، ولو لم نطردها من صفوف الطبقة العاملة ، لما كان من الممكن تحقيق وحدة الطبقة العاملة . ولولا وحدة الطبقة العاملة ، لما كان من

الممكن تحقيق ظفر الثورة البروليتارية .

لولا سحق هذه الاحزاب - التي كانت اول الامر من انصار بقاء الرأسمالية ، واصبحت بعد ثورة اوكتوبر من انصار رجوع الرأسمالية - لما كان من الممكن صيانة ديكتاتورية البروليتاريا ، وقهر التدخل العسكري الاجنبي ، وبناء الاشتراكية .

وليس من قبيل المصادفة ، ان جميع الاحزاب البورجوازية الصغيرة ، التي تسمي نفسها « ثورية » و« اشتراكية » لكي تخدع الشعب - كالاشتراكيين الثوريين والمنشفيك والفوضويين والقوميين - اصبحت احزاباً معادية للثورة حتى قبل ثورة اوكتوبر الاشتراكية ، ثم انقلبت بعد الثورة الى عميلة لمصالح الاستخبارات التابعة للبورجوازية الاجنبية ، الى عصابة من الجواسيس والمخربين والمفسدين والقتلة وخونة الوطن . يقول لينين :

« ان وحدة البروليتاريا ، في عهد الثورة الاجتماعية ، لا يمكن ان يحققها الا الحزب الثوري الى اقصى حد ، حزب الماركسية ، والا النضال بلا هوادة ضد جميع الاحزاب الاخرى » (لينين - المؤلفات الكاملة - مجلد ٢٦ ص ٥٠ الطبعة الروسية) .

٤ - ويعلمنا تاريخ الحزب ايضاً ، ان حزب الطبقة العاملة ، اذا لم يشهر على الانتهازيين في صفوفه نفسها نضالا لا هوادة فيه ولا لين ، واذا لم يسحق الانهزاميين في اوساطه نفسها ، لا يستطيع ان يصون الوحدة ونظام الطاعة في صفوفه ، ولا ان يقوم بدوره من حيث هو منظم الثورة البروليتارية وقائدها ، ولا ان يقوم بدوره من حيث هو باني المجتمع الاشتراكي الجديد .

ان تاريخ تطور حياة حزبنا الداخلية هو تاريخ الكفاح وسحق الفئات الانتهازية داخل الحزب : « الاقتصاديين » والمنشفيك والتروتسكيين والبوخارينيين ودعاة الانحرافات القومية .

ويعلمنا تاريخ الحزب ان كل هذه الفئات الاستسلامية كانت في حقيقتها

عميلة المنشفية في داخل حزبنا ، وذيلها وامتدادها . فهي على غرار المنشفية ، كانت واسطة لنقل النفوذ البورجوازي الى الطبقة العاملة والى الحزب . ولذلك كان النضـال لتصفية هذه الجماعات في الحزب امتداداً للنضال في سبيل تصفية المنشفية .

ولو اننا لم نهزم « الاقتصاديين » والمنشفيك لما استطعنا ان نبني الحزب وان نقود الطبقة العاملة الى الثورة البروليتارية .

ولو اننا لم نهزم التروتسكيين والبوخارينيين لما استطعنا ان نهيء الشروط الضرورية لبناء الاشتراكية .

ولو اننا لم نهزم دعاة الانحرافات القوميـة من كل لون وشاكلة ، لما استطعنا تثقيف الشعب بروح الاممية ، ولما استطعنا الحفاظ على علم الصداقة العظيمة بين شعوب الاتحاد السوفياتي ، ولما استطعنا بناء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية .

وقد يخيل لبعضهم ان البلاشفةقد انفقوا وقتاً كثيراً في النضال ضدالعناصر الانتهازية في الحزب ، وانهم استعظموا شأنها وقدروا اهميتها فوق ما هي . الا ان ذلك غير صحيح اطلاقاً . فكما انه لا يمكن التسامح بوجود قرحة في جسم سليم ، فكذلك لا يمكن ان يتسامح احد بوجود الانتهازية لديه . الحزب هو الفصيلة القائدة للطبقة العاملة ، هو حصنها الامامي ، هو هيئـة اركانها الكفاحية . فلا يمكن القبول بان يكون في هيئة الاركان التي تقود الطبقة العاملة متشككون ، وفاقدو الثقة ، وانتهازيون واستسلاميون وخونة . ان الذي يخوض ضد البورجوازية نضالا حتى الموت ، وفي هيئة اركانه نفسها ، في حصنه نفسه ، استسلاميون وخونة ، يقع في وضع المحصور بين نارين : نار من الجبهة ، ونار من المؤخرة . وليس من الصعب ان نفهم ان النضال في مثل هذه الحال لا يمكن ان ينتهي إلا الى الهزيمة . فان الحصون تؤخذ من الداخل اسهل ما تؤخذ . فللحصول على النصر ، من الواجب ، قبل كل شيء ، تطهير حزب الطبقة العاملة اي هيئة اركانها القائدة وحصنها المتقدم

من دعاة الاستسلام والانهزاميين والادنياء الماكرين والخونة !

وليس من قبيل المصادفة ، ان التروتسكيين والبوخارينيين ودعاة الانحرافات القومية ، انتهوا ، في نضالهم ضد لينين وضد الحزب ، الى حيث انتهى قبلهم حزبا المنشفيك والاشتراكيين الثوريين : فاصبحوا عملاء لمصالح الاستخبارات الفاشستية ، وجواسيس ، ومخربين ، وقتلة ، ومفسدين ، وخونة للوطن . يقول لينين :

« اذا كان في صفوفنا اصلاحيون ومنشفيك ، **فلا يمكن** الانتصار في الثورة البروليتارية ، **ولا يمكن** الحفاظ عليها . هذا مبدأ بديهي . وقد اكدته بجلاء تجربة روسيا وهنغاريا ... ففي روسيا نشأت **مراراً** حالات صعبة ، كان من شأنها ان تؤدي **بكل تأكيد** ، الى قلب النظام السوفياتي ، لو ان المنشفيك والاصلاحيين والديموقراطيين البورجوازيين الصغار ، بقوا في داخل حزبنا ... (لينين المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٢٥ ص ٤٦٢ و٤٦٣ الطبعة الروسية) .

وقال الرفيق ستالين : « اذا كان حزبنا قد نجح في تكوين وحدته الداخلية ، وتكوين التماسك الذي يسود صفوفه بصورة لم يسبق لها مثيل ، فذلك يعود قبل كل شيء الى انه استطاع ان يطهر نفسه ، في الوقت المناسب ، من دنس الانتهازية ، واستطاع ان يطرد من صفوفه دعاة التصفية والمنشفيك . ان طريق تطوير الاحزاب البروليتارية وتقويتها هي الطريق التي تمر عبر تطهير هذه الاحزاب من الانتهازيين والاصلاحيين ، ومن الاشتراكيين الاستعماريين والاشتراكيين الشوفينيين ، ومن الاشتراكيين الوطنيين والاشتراكيين السلميين . أن الحزب يقوى بتطهير نفسه من العناصر الانتهازية . » (ستالين ـ اسس اللينينية) .

٥ ــ ويعلمنا تاريخ الحزب ايضاً ان الحزب لا يستطيع ان ينهض بدوره كقائد للطبقة العاملة ، اذا ما اخذته النشوة بانتصاراته ، فساقته الى الوقوع في الغرور ، واذا كفّ عن رؤية النقائص في عمله ، واذا خشي الاعتراف باخطائه ، وخاف من اصلاحها في الوقت المناسب بصراحة واستقامة .

يظل الحزب منيعاً لا يقهر ما دام لا يخشى الانتقاد والانتقاد الذاتي ، وما دام لا يطمس الاخطاء والنقائص في عمله ، وما دام يثقف ملاكاته ويربيها بشرح الاخطاء المرتكبة في العمل الحزبي ، وما دام يعرف كيف يصحح هذه الاخطاء في الوقت المناسب .

ويهلك الحزب اذا اخفى اخطاءه ، وغطى القضايا المؤلمة ، وستر نقائصه تحت مظاهر الصحة الخادعة ، واذا تبرم بالانتقاد والانتقاد الذاتي ، واذا تغلغلت فيه روح الاكتفاء ، وجعل همه تمجيد ذاته ، ونام على أكاليل غاره .

يقول لينين : « ان موقف حزب سياسي من اخطائه هو من أهم وأضمن المقاييس التي تسمح لنا بالحكم على هذا الحزب فيما اذا كان جدياً ام لا ، وفيما اذا كان يقوم **فعلاً** بواجباته نحو طبقته ونحو **الجماهير** الكادحة . ان اعتراف الحزب صراحة بخطأه ، واكتشافه اسباب الخطأ ، وتحليله الوضع الذي اولده ، وتمحيصه بعناية وسائل اصلاح هذا الخطأ ، ذلك هو الدليل على انه حزب جدّي ، ذلك معناه ان الحزب يقوم بواجباته ، ذلك معناه انه يثقف ويعلم **الطبقة** ، ومن ثم **الجماهير** » (لينين : المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، ص ٢٠٠ ، الطبعة الروسية) .

ويقول ايضاً : ان جميع الاحزاب الثورية التي هلكت حتى الآن ، انما هلكت لانها **انساقت الى الغرور** ، ولم تر مصدر قوتها ، **وخشيت ان تتكلم عن نواحي ضعفها** . اما نحن فلن نهلك ، لاننا لا نخشى الكلام عن نواحي ضعفنا ، ولاننا سنتعلم كيف نتغلب عليها . » (لينين : المؤلفات الكاملة ، المجلد

٢٧ ، ص ٢٦٠ — ٢٦١ الطبعة الروسية) .

٦ — واخيراً ، يعلمنا تاريخ الحزب ان حزب الطبقة العاملة اذا لم تكن له صلات واسعة بالجماهير ، واذا هو لم يوطد هذه الصلات بصورة مستمرة ، واذا لم يعرف ان يصغي الى صوت الجماهير ويفهم حاجاتها الملحة ، واذا لم يكن مستعداً لا لتعليم الجماهير فقط بل للتعلم منها ايضاً ، فهو لا يستطيع ان يكون حزباً جماهيرياً حقاً ، قادراً على ان يجتذب وراءه ملايين الطبقة العاملة وجميع الشغيلة .

« ان الحزب منيع ولا سبيل الى قهره ،اذا عرف — كما يقول لينين — ان يرتبط باوسع جماهير الشغيلة : بالجماهير البروليتارية قبل غيرها ، وكذلك بجمهور الشغيلة غير البروليتاريين ايضاً ، اذا عرف ان يتصل بها ، وان يقترب منها ، بل اذا شئتم ، وان يندمج بها ايضاً ، الى حد ما » (لينين ، المؤلفات الكاملة المجلد ٢٥ ، الصفحة ٧١٤).

ان الحزب يهلك اذا قبع في صدفته الحزبية الضيقة ، وانفصل عن الجماهير ، وغطى نفسه بطلاء من البيروقراطية .

يقول الرفيق ستالين : « نستطيع القول ، كقاعدة عامة ، ان البلاشفة ما داموا يحتفظون بصلاتهم مع جماهير الشعب الواسعة فهم منيعون لا يقهرون . وعلى العكس ، يكفي ان ينفصل البلاشفة عن الجماهير وان يفقدوا صلاتهم بها ، ويكفي ان يغطيهم الصدأ البيروقراطي ، حتى يفقدوا كل قـــوة ويتحولوا الى كمية مهملة .

في اساطير اليونان القدماء ، بطل شهير هو (آنته) ، وكان كما تزعم هذه الاساطير ابن (بو زيدون) رب البحر ، و (جه) ربة الارض . وكان آنته شديد التعلق بأمه التي ولدته واطعمته وربته . ولم يكن ثمة بطل الا استطاع آنته ان يقهره.

فطارت شهرته كبطل لا يغلب . فاين كان مصدر قوته ؟ كان مصدر قوته انه كلما حارب خصماً فاستشعر ضيقاً، لمس الأرض، أمه التي ولدته وغذته ، فعادت اليه قواه . ولكن كانت به مع ذلك نقطة ضعف ، هي خطر فصله عن الارض بشكل من الاشكال . وكان خصومه يعلمون منه نقطة الضعف هذه ويتربصون به . وقد وُجد خصم استثمر هذا الضعف وتغلب على آنته . وهذا الخصم هو هرقل . فكيف نجح في قهره ؟ لقد انتزعه عن الارض ، وشاله في الهواء ، فحال بينه وبين ان يمس الارض ، وخنقه هكذا ، في الهواء .

واعتقد ان البلاشفة يذكروننا بآنته ، بطل الاساطير الاغريقية . فهم ، مثله ، اقوياء لانهم متصلون بامهم ، بالجماهير التي ولدتهم وغذتهم وتعهدتهم بالتربية . وما داموا مرتبطين بامهم ، بالشعب ، فلديهم كل الامكانيات لكي يظلوا ممنعين لا يقهرون !

ذلك هو السر في ان القيادة البلشفية لا تُغلب » .(ستالين: حول نقائص عمل الحزب ، الطبعة الروسية) .

تلك هي الدروس الاساسية للعمل التاريخي الذي نهض به الحزب البلشفي .

ــ انتهى ــ

الفصل الثالث

المنشفيك والبلاشفة خلال الحرب الروسية اليابانية والثورة الروسية الاولى (١٩٠٤ - ١٩٠٧)

الفصل الرابع

المنشفيك والبلاشفة في دور الرجعية الستوليبينية . البلاشفة يؤلفون حزباً ماركسياً مستقلا (١٩٠٨ - ١٩١٢)

الفصل الخامس

الحزب البلشفي في سني نهوض حركة العمال على اعتاب الحرب الاستعمارية الاولى (١٩١٢ – ١٩١٤)

الفصل السادس

الحزب البلشفي خلال الحرب الاستعمارية الثورة الروسية الثانية (١٩١٤ الى آذار ١٩١٧)

الفصل السابع

حزب البلاشفة في مرحلة التهيئة لثورة اوكتوبر الاشتراكية وانجازها (نيسان ١٩١٧ - ١٩١٨)

الفصل الثامن

حزب البلاشفة في مرحلة التدخل العسكري الاجنبي والحرب الاهلية (١٩١٨ - ١٩٢٠)

الفصل التاسع

الحزب البلشفي في مرحلة الانتقال الى العمل السلمي لاحياء الاقتصاد الوطني (١٩٢١ - ١٩٢٥)

الفصل العاشر

الحزب البلشفي في النضال لاجل تصنيع البلاد تصنيعاً اشتراكياً (١٩٢٦ - ١٩٢٩)

الفصل الحادي عشر

الحزب البلشفي في النضال لتعميم الاقتصاد التعاوني في الزراعة (١٩٣٠ – ١٩٣٤)

الفصل الثاني عشر

الحزب البلشفي في النضال لانجاز بناء المجتمع الاشتراكي . تطبيق الدستور الجديد (١٩٣٥– ١٩٣٧)


الخزانة



